

مَجْلَدُ الْإِمَامِ الْبَالِغِ

لِلْإِمَامِ الْكَبِيرِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ
الْمَعْرُوفِ بِنِشَاهِ وَلِيِّ اللَّهِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الدَّهْلَوِيِّ

وَقَدِّمَ لَهُ وَشَرَّحَهُ وَعَقَّفَ عَلَيْهِ
الْشَّيْخُ مُحَمَّدُ شَرِيفُ سَاكِرٍ

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ

دَارُ الرِّحَابِ الْعُلُوْمِيَّةِ

الحجب المانعة عن ظهور الفطرة ص ١٦٩ بحث عجيب ص ١٩٨

مبحث ضروري ص ٢٤٧ إلى ص ٢٥٧

كان اليهود يكرهون الصلاة في نعالهم وخفافهم ص ٥٤٩

حجّۃ اللہ البالغین

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَلَّمَ اللَّهُ الْبَالِغَةَ

لِلْإِمَامِ الْكَبِيرِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ
الْمَعْرُوفِ بِشَاهِ وَلِيِّ اللَّهِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الدَّهْلَوِيِّ

رَاجَعَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

الشيخ محمد شريف بيكر

المجلد الأول

دار احياء العلوم
ببيروت

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م
بيروت - لبنان

مُحقَّق الطبع مَحفوظة لِدَار اِحْيَاء العُلوم
ص.ب: ٥٧٥١ - بيروت، لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيْنَ يَدَيْ الْكِتَابِ

كتاب حجة الله البالغة في علم أسرار أحكام الشريعة، وفلسفة التشريع الإسلامي، لمؤلفه الإمام شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي - كتاب نادر في بابه، مبتكر في موضوعه، رائع في أسلوبه، يتسم بنصاعة العربية، وقوة العبارة وسلامة المنطق، ووضوح الحجج، ويشهد لمؤلفه بأنه أحد عمالقة الفكر الإسلامي، والعلوم العقلية.

وقد طبع هذا الكتاب بمصر ثلاث طبعات نفدت كلها، فقصدنا أن نقدمه للمكتبة الإسلامية ليأخذ مكانه في العالم الإسلامي كما أخذ مكانته في الهند فإنه لا يزال مقرراً في الكليات الجامعية والمعاهد العليا هناك إلى يومنا هذا.

وقد روجعت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة في المطبعة الأميرية، وتمتاز عليها بحسن التنسيق، وجمال الإخراج، وضبط الآيات، وبيان أرقامها وسواها. وسورها

وقد زدنا عليها ما مست الحاجة إليه، من ضبط بعض الكلمات، ومناقشة بعض الأفكار، والتعقيب عليها في ضوء ما أسفر عنه العلم الحديث، ولم نكثر من هذا التعقيب دفعا للإطالة، نظراً لضخامة الكتاب

واكتفاءً بالتعليقات الموجودة على هامش النسخة الأميرية التي كتبها بعض العلماء الهنود.

وقد أردنا أن نحقق الاعلام والأحاديث النبوية فيه، ولكننا وجدنا أن هذا يحتاج إلى كتاب مستقل لكثرتها.

السيد سابق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي شهدت على وجوده آياته الباهرة، ودلت على كرمه وجوده نعمه الباطنة والظاهرة، فكل ما في الوجود (حجة بالغة) على نعمه السابقة وقدرته القادرة.

والصلاة والسلام على محمد الرسول المجتبي من خير الأصول، المختار من الله تعالى ليبين للناس المحرم والمقبول.

أما بعد، فهذا كتاب (حجة الله البالغة) للإمام الدهلوي، وهو من الكتب التي حازت رضى العلماء وطلبة العلم على السواء لما يتصف به من خصائص وميزات انفرد بها عن سائر الكتب التي عالجت أسرار أحكام الشريعة، فموضوعاته مبتكرة، وأسلوبه جيد، وعبارته عربية ناصعة واضحة رغم أن المؤلف هندي الأرومة لم يعرف بلاد العرب إلا زائراً لفترة محدودة.

هذا الكتاب طبع عدة طبعات في أماكن متعددة من بلاد الإسلام، وكلها لاقت رواجاً، وقد اتخذته الكليات الجامعية في الهند كتاباً مدرسياً لما رأت فيه من علم لا يستغني عنه العلماء المتصدرون للفتيا والوعظ والتدريس.

والطبعات المتقدمة أقل إتقاناً من الطبعات المتأخرة لأن المحقق

والناشر المتأخر يبني على ما انتهى إليه المتقدم ويزيد. وكان آخر من أشرف على الطبعة الأخيرة وحققها الشيخ السيد سابق، وقد بذل جهداً مشكوراً، لكنه قال في مقدمة الكتاب إنه اختصر كثيراً في تعليقاته خشية الإطالة لأن الكتاب في حد ذاته كتاب ضخم فإذا توسع المحقق تضاعف حجم الكتاب .

ولكن (دار إحياء العلوم) رأت غير ما رآه الشيخ الجليل فقد رأت أن الكتاب بحاجة إلى مزيد من التحقيق ولو أدى ذلك إلى تضاعف حجم الكتاب، فضخامة الكتب لا تعيبها وإنما يعيبها النقص في التحقيق .

لذلك عهدت الدار إليّ أن أقوم بهذه المهمة الشاقة، كما دعيتني إلى إجراء ما يلزم كي تظهر الطبعة الجديدة إلى القراء بحلة جديدة شكلاً وموضوعاً، مع عدم المس بما كتبه الإمام الدهلوي لأن الأمانة العلمية تقتضي ذلك، فأقدمت على ذلك مستعيناً بالله واتبعت الطريقة التي سلكتها سابقاً وهي تلخص فيما يلي :

- ١ - وضع عناوين فرعية لموضوعات كل باب .
- ٢ - تحقيق الآيات والأحاديث وتخريجها .
- ٣ - شرح غريب الكلمات .
- ٤ - التعريف بالشخصيات التي يتكرر ذكرها في الكتاب .
- ٥ - شرح المصطلحات العلمية التي تغيب عن غير العالم .
- ٦ - وضع بدء الفقرات في أول الأسطر وهذا شيء مهم لفهم المعنى .

٧ - الإكثار من الإشارات من فواصل ونقط وسواها .

صلة الهند ببلاد العرب قبل الإسلام :

لا بد لي في مقدمة الكتاب أن ألقى الأضواء على بعض الأمور التي تساعد القارئ على فهم الكتاب، من ذلك : صلة الهند ببلاد العرب قبل

الإسلام وبعد بزوغه وعن فتح الهند وعن واقع الإسلام في الهند.

الهند من البلاد الحبيبة إلى قلوب العرب قبل الإسلام، ورغم أن العرب كانوا معتزلين في جزيرتهم، وكانت صلاتهم بخارج ديارهم محدودة إلا أن اعتزالهم لم يمنع قلة من التجار والبحارة من اجتياز جزيرتهم إلى خارجها طلباً للمغامرة والربح ولأمر أخرى. والواقع أن كل طرف من أطراف الجزيرة العربية كانت له علاقة بما جاوره من البلاد فأهل نجد كانوا أكثر اتصالاً بالعراق وفارس، وأهل الحجاز كانوا أكثر اتصالاً ببلاد الشام ومصر، وأهل اليمن كانوا أكثر اتصالاً ببلاد الحبشة وأفريقيا الشرقية، وأهل حضرموت وعمان وما جاورها كانوا أكثر اتصالاً بالهند وما جاورها.

والعرب كانت لهم علاقات تجارية مع الهند من خلال من ذكرنا من أهل حضرموت والشواطئ الجنوبية لجزيرة العرب، كانوا يستوردون من الهند الأقمشة والأدوات القاطعة والعطور والأفاويه.

والعرب في أغليبتهم كانوا رعاة ومقاتلين وكان السلاح ضرورياً جداً لهم، وهم في اختيارهم لسلاحهم كانوا يفضلون ما صنعه الهند على ما صنعه بلاد الروم ويدل على ذلك بعض أسماء السيف التي تدل على أصله الهندي فكانوا يقولون للسيف: المهند والهندي.

وكان العرب يختارون لبناتهم اسم (هند) وما سمعناهم اختاروا اسم بلاد أخرى لفتياتهم.

العرب يفتحون تخوم الهند:

في عهد الخلفاء الأمويين زحف المسلمون على الهند وذلك بقيادة محمد بن القاسم الثقفي، فكان ذلك بداية دخول الإسلام إلى الهند، وقد سيطر المسلمون الأوائل على جزء كبير من شمال غرب الهند المعروف آنذاك باسم السند، والمعروف اليوم باسم باكستان. واستمر الوضع هكذا خلال الخلافتين الأموية والعباسية.

وحين ضعف نفوذ الدولة العباسية على أطرافها كان طبيعياً أن يضعف نفوذها في السند فاستقل أمراء المناطق بإدارة مناطقهم. واستمر الأمر كذلك إلى أن جاء محمود الغزنوي إلى الهند قادماً من الحدود الشمالية الغربية، وانطلق أصلاً من غزنه وفتح قسماً كبيراً من الهند، وكان ذلك في القرن الخامس الهجري؛ ثم كانت الدولة الغورية بعد الغزنوية.

وتتابعت الحملات حتى أصبحت الهند جميعها تابعة لحكم إسلامي عاصمته دهلي.

وأخيراً جاءت الدولة التيمورية (المغولية) في القرن العاشر الهجري، وفيها بلغ الحكم الإسلامي أوجه قوة وازدهاراً وحضارة.

ويروى في هذا المجال: أن رسول ملك إنكلترا (جيمس الأول) حاول مراراً مقابلة الامبراطور (جهانكير) فلم يحظ بهذا الشرف إلا بعد وقت طويل، ولما حظي بالمقابلة طلب السفير من الوزير الأول أن يعطيه رسالة موجهة من الامبراطور إلى ملك إنكلترا، فأجابه الوزير الأول: «إنه مما لا يناسب قدر ملك مغولي مسلم أن يكتب إلى سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون باثسون».

ولكن هذا العز الذي نعم به أباطرة الهند المغوليون ما لبث أن ضمير شيئاً فشيئاً بعد عهد الامبراطور (أورنجزيب) وأخذ الأمراء يستقلون بالولايات حتى أصبحت البلاد ثمرة ناضجة للقاطف الأجنبي وهذا ما حصل بالفعل إذ أخذ النفوذ البريطاني يتسلل شيئاً فشيئاً عن طريق شركة الهند البريطانية، وما لبث الإنكليز أن رأوا أن أوان التدخل المباشر قد حان فأقدموا غير هيايين ولا وجلين نحو الهند فاتحين؛ ولم تكن سيطرة الإنكليز سهلة، فقد لاقوا مقاومة عنيفة وثورات جامحة، ولكنها انتهت بالخضوع

التام للإنجليز وعندها صارت الهند أعظم المستعمرات البريطانية أهمية وسموها (درة التاج البريطاني).

واستمر الحكم البريطاني إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما رأت بريطانيا أن خروجها من الهند أصبح ضرورياً وأن خروجها حياً وسلمياً خير من خروجها نتيجة العنف والقوة التي كانت تباشيره تلوح في الأفق.

وخرجت بريطانيا من الهند بعد أن تم الاتفاق على قسمتها إلى دولتين إسلامية وهندوسية، فكانت باكستان وكانت الهند.

أثر الإسلام في الهند:

مكث الحكم الإسلامي في عموم الهند زهاء سبعة قرون فأحدث خلالها تأثيرات جذرية في بنية الهند الحضارية، فقد وحد الحكم الإسلامي الهند، وأنشأ فناً هندياً إسلامياً، ولغة جديدة هي اللغة الأوردية، كما وصل الهند بالعالم الخارجي تجارياً وثقافياً.

وفيما يتعلق بالدين الإسلامي فقد حدث تجديد في مفهوم التصوف كما اتسعت في الهند الدراسات التاريخية وأصبحت فناً مستقلاً واتسع التأليف في العلوم الإسلامية كافة، وكان للهند الفضل في نشر كثير من المخطوطات والكتب الإسلامية النادرة.

وهنا يبرز سؤال مهم جداً وهو: لماذا لم يصبح الإسلام الدين الغالب لأهل الهند كافة كما حصل في أفغانستان وتركستان وفارس وآسية الصغرى، فكل هذه البلاد اتخذت الإسلام ديناً رغم احتفاظها بلغاتها القومية.

والجواب على ذلك: أن الحكام المسلمين وإن طال حكمهم في

الهند لم يكن همهم نشر الإسلام بل كانت غايتهم السلطة، وهذا على عكس ما حدث أيام الفتوح في العهد الإسلامي الأول فقد كان المسلمون يفتحون البلدان وغايتهم الأولى نشر الإسلام وكان حكمها يأتي في الدرجة الثانية وربما الثالثة.

وما حصل في الهند من انتشار للإسلام ولو أنه قليل بالنسبة لعدد السكان إلا أنه ضخماً جداً إذا صرفنا النظر عن النسبة المئوية للسكان. أقول إن ما حصل من انتشار للإسلام لم يكن عملاً حكومياً ولا بتشجيع واهتمام من أولي الأمر وإنما كان بهمة ونشاط الدعاة والمرشدين ذوي الهمم العالية الذين وفدوا إلى الهند من بلدان الإسلام المختلفة بالإضافة إلى الدعاة المحليين، لقد قام هؤلاء بأنشطة عظيمة أدت إلى دخول الهند في دين الله أفواجاً. هذا وإن الدعاة المتقدمين كانوا أكثر نشاطاً. ومع مرور الزمن فترت الهمم وأصبح الدعاة النشطون قلائل، ولم يعد العلماء يهتمون بنشر الدين لدى غير المسلمين بل انصرفوا إلى كتب الفقه المتعلقة بالفروع والخلافات المذهبية، بل إن المسلمين في الهند لم يعودوا يلقون العناية الكافية من علمائهم فانتشرت في العامة عادات وتقاليد أقرب إلى الوثنية الهندية.

وأخيراً قبض الله للهند علماء مجددين أمثال الشيخ أحمد الدهلوي مؤلف هذا الكتاب فقاموا بإحياء علوم الدين والدعوة إلى الإسلام الصحيح البعيد عن التقاليد الموروثة التي لا تمت إلى الدين بصلة. وقد نجحت أول نقل بدأت تنجح دعوات الإصلاح والتجدد ونأمل الخير من العلماء المعاصرين أن يعيدوا للإسلام نقاءه بل ويعملوا على نشر الإسلام لدى مواطنيهم ممن لم يعرفوا الإسلام على حقيقته بل عرفوه من خلال العامة المتخلفين.

الإمام الدهلوي:

من هو الإمام الدهلوي؟

هو أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمري الدهلوي، ولقبه قطب الدين؛ وكانت ولادته يوم الأربعاء في ١٤ شوال سنة ١١١٤ هجرية (١٧٠٤ ميلادية). وكانت ولادة الإمام أحمد في دهلي، وفيها توفي بعد أن عاش ٦٢ عاماً وذلك في المحرم من عام ١١٧٦ هجرية.

واشتهر الإمام أحمد بشاه ولي الله، وشاه كلمة فارسية تعني الملك، ويلقب بذلك الصوفية والمشايخ، والشيخ أحمد كان من بيت اشتهر بالتصوف وقد لقب بهذا اللقب هو وأبوه وأنجاله. والإمام أحمد من آل البيت ويرجع نسبه إلى الإمام موسى الكاظم.

دراسته:

شرع الإمام أحمد بدراسة العلم في سن مبكرة جداً، فقد حفظ القرآن الكريم وسنه لم تتجاوز السابعة، وكانت دراسته الأولى على والده، فدرس عليه علوم أهل زمانه وهي اللغة والحديث والتفسير والفقه والأصول والتصوف والفلسفة. وما إن بلغ الخامسة عشرة حتى كان قد حصل علماً جيداً. ولما توفي والده سنة ١١٣١ قام بالتدريس بمدرسة أبيه (الرحيمية). واشتهر بالتفوق فقصده الطلاب من كل صوب.

وفي عام ١١٤٣ رحل إلى الحجاز طالباً المزيد من العلم فمكث سنتين تلقى خلالهما العلم الوفير وصحب العلماء وأخذ عنهم وحاوهم فبادلهم علماً بعلم؛ وأدى أثناء مكثه في الحجاز فريضة الحج.

وعاد الإمام أحمد إلى الهند واستأنف عمله السابق بهمة أعظم وعلم أوفر وتجربة أكثر، وكان تدرسه في بيت أبيه أولاً، ولما كثر طلابه وضافت دار أبيه عن استيعاب طلبية العلم وسواهم رغب في دار أرحب، وبلغت

هذه الرغبة السلطان محمد شاه فأعطاه بناءً كبيراً كي يتخذة مدرسة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن السلطان حضر افتتاح المدرسة بنفسه احتراماً منه للشيخ وتقديراً لجهوده، واشتهرت هذه المدرسة باسم (دار العلوم)؛ وكان لهذه الدار أثر عظيم في الحياة العلمية في الهند لأنها خرجت علماء ممتازين شعت أنوار علمهم في أرجاء الهند.

منزلة الإمام أحمد العلمية:

الإمام الدهلوي علم من أكبر أعلام الهند العلمية الإسلامية، وقد صنّفه بعضهم بأنه (غزالي الهند) لأنه أحيا علوم الدين فيها وجردها. وقال آخر: إنه بمنزلة (ابن تيمية) في المشرق وذلك لمحاربتة البدع والأضاليل. فقد كان رحمه الله بحراً في العلوم مع نظرة متفتحة غير متزمتة فهو يقبل من الدين الأصيل وينفي ويرفض الدخيل، وكان يحسن العربية كأحد أبنائها ويجيد الفارسية وكأنه إيراني أصيل وقد ألف في اللغتين العربية والفارسية العديد من الكتب ولكن كتبه في العربية كانت أكثر، وقد أجاد في كل ما ألف.

مؤلفاته:

كتب الإمام أحمد الدهلوي مؤلفات كثيرة في العربية والفارسية، وسنذكر فقط ما ألف في العربية لأنها وحدها يستطيع قارئ هذا الكتاب أن يطلبها ويستفيد منها:

- ١ - الزهراوين - وهو تفسير سورة البقرة وآل عمران.
- ٢ - الفوز الكبير - وهو في أصول التفسير، ذكر فيه العلوم القرآنية الخمسة، وتأويل الحروف والمقطعات وحقائق أخرى.
- ٣ - الفتح المنير - وهو الجزء الخامس من (الفوز الكبير) اقتصر فيه على غريب القرآن الكريم وتفسيره مما روي عن عبد الله بن عباس.

- ٤ - المصنفى شرح الموطأ - برواية يحيى بن يحيى الليثى ، وقد حذف منه بعض البلاغيات اختصاراً.
- ٥ - المسوى شرح الموطأ - اكتفى فيه بشرح الغريب مع ذكر اختلاف المذاهب.
- ٦ - شرح تراجم الأبواب للبخاري - حقق الكتاب وشرحه شرحاً مفيداً جداً.
- ٧ - النوادر في أحاديث سيد الأوائل والأواخر.
- ٨ - الأربعين - جمع فيه أربعين حديثاً قليلة ألفاظها كثيرة معانيها ، وقد سلك سبيلاً شبيهاً بما فعل الإمام النووي وغيره من اختيار أربعين حديثاً لكنه تميز عن سواه بأن أحاديثه رواها عن شيخه أبي طاهر بسنده المتصل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
- ٩ - الدر الثمين في مبشرات النبي الأمين .
- ١٠ - الإرشاد في مهمات الإسناد .
- ١١ - إنسان العين في مشايخ الحرمين .
- ١٢ - تأويل الأحاديث - رسالة توجيهية في قصص الأنبياء .
- ١٣ - (حجة الله البالغة) - وهو الكتاب الذي بين أيدينا .
- ١٤ - إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء .
- ١٥ - حسن العقيدة - رسالة مختصرة في العقيدة .
- ١٦ - الانصاف - في أسباب الاختلاف بين الفقهاء والمجتهدين .
- ١٧ - عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد .

- ١٨ - البدور البازغة - في علم الكلام .
- ١٩ - المقدمة السنية في الفرقة السنية .
- ٢٠ - المكتوب المدني - في حقائق التوحيد .
- ٢١ - الطاف القدس في لطائف النفس .
- ٢٢ - القول الجميل في بيان سواء السبيل - في بيان ثلاث طرق صوفية رئيسية في الهند .
- ٢٣ - الانتباه في سلاسل أولياء الله .
- ٢٤ - اللمحات .
- ٢٥ - السطعات - في الفيض الرباني .
- ٢٦ - الهوامع - في شرح حزب البحر على لسان الحقائق والمعارف .
- ٢٧ - شفاء القلوب - في الحقائق والمعارف .
- ٢٨ - الخير الكثير .
- ٢٩ - التفهيمات الإلهية .
- ٣٠ - فيوض الحرمين .
- ٣١ - أنفاس العارفين - رسالة تشتمل على تراجم آبائه والكبار من أسرته .
- ٣٢ - ديوان الشعر العربي - جمعه ولده الشيخ عبد العزيز ورتبه الشيخ رفيع الدين .

كتاب حجة الله البالغة :

درج العلماء الذين كتبوا في علوم الدين على بيان الحقائق والأحكام والمعاني ، وهم إذا كتبوا عن روح الأحكام وروح المعاني وروح الحقائق

فإنما يكتبونها بطريقة مختصرة تكون ملحقه بالحقائق وأخواتها، أما أن يفرد لروح الشريعة وأسرارها كتب يكون البحث في الروح والأسرار هو الأصل وما سواه تابع له فهذا قل أن قصده المؤلفون .

هذا وإن الإمام أحمد الدهلوي أفرد لروح الشريعة وأسرارها هذا السفر الضخم فكفى وأوفى، وأبدع إبداعاً عظيماً شهد له بذلك كبار العلماء، وخذوا حذوه بعد ذلك . وقد لاقى كتابه القبول كما قلت سابقاً مما جعل الناشرين يعيدون طبعه مرات عدة .

استعرض المؤلف الشريعة الإسلامية : عقيدة وعبادات ومعاملات ، فكتب عن روح ذلك كله كتابة شيقة تدفع القارئ أن لا يدع الكتاب إذا أمسكه حتى ينتهي منه رغم أن أبحاثه تحتاج إلى فكر وتأمل ، لكن معالجة المؤلف الموضوعات بلباقة الكاتب المتمكن من مادته جعلت ما كان صعباً سهلاً على الفهم ، حبيباً إلى نفس القارئ ؛ وهذا فتح في الكتابة الجادة لا نجدها عادة إلا عند القليل من الكتاب . ثم إن الكتب الجادة لا تطبع إلا مرة أو مرتين وفي فترات متباعدة أما هذا الكتاب ونظراً لتميزه وتفردته في موضوعه وحسن معالجته له جعل الموازين تنقلب ويصبح الجاد مقرباً إلى قلوب القراء كالكتب ذات الموضوعات الترفيحية .

لن أستعرض موضوعات هذا الكتاب وأتحدث عنها وذلك لأن ضخامة الكتاب تجعل الاختصار مخللاً والإطناب يطيل من المقدمة أكثر من المعتاد لذلك ادع القارئ يستكشف ويتمتع بنفسه دون حاجة إلى دليل .

إني أدعو الله تعالى أن يرحم المؤلف ويشبهه خير الجزاء على ما كتب في العلوم الإسلامية كما أني أدعو الله بالتوفيق (لدار إحياء العلوم) التي تعيد طبع هذا الكتاب بحلة قشبية وأرجو لأصحابها ولكل من ساهم في

تحقيق وتصحيح هذا الكتاب السداد في العمل والثواب من الله تعالى،
والحمد لله رب العالمين.

محمد شريف سكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي فطر الأنام^(١) على ملة الإسلام والاهتداء، وجبلهم على الملة الحنيفية السمحة السهلة البيضاء، ثم إنهم غشيهم الجهل، ووقعوا أسفل السافلين، وأدركهم الشقاء، فرحمهم، ولطف بهم، وبعث إليهم الأنبياء، ليخرج بهم من الظلمات إلى النور، ومن المضيق إلى الفضاء، وجعل طاعته منوطة^(٢) بطاعتهم، فيا للفخر والعلاء.

ثم وفق من أتباعهم لتحمل علومهم، وفهم أسرار شرائعهم من شاء، فأصبحوا بنعمة الله حائزين لأسرارهم، فائزين بأنوارهم، وناهيك به من علياء، وفضل الرجل منهم على ألف عابد، وسموا في الملكوت عظماء، وصاروا بحيث يدعولهم خلق الله حتى الحيتان في جوف الماء.

فصل اللهم وسلم عليهم وعلى ورثتهم ما دامت الأرض والسماء، وخص من بينهم سيدنا محمداً المؤيد بالآيات الواضحة الغراء، بأفضل الصلوات، وأكرم التحيات، وأصفى الأصفياء، وأمطر على آله وأصحابه شأبيب^(٣) رضوانك وجازهم أحسن الجزاء.

(١) الأنام: الناس. وقيل: هم الإنس والجن.

(٢) منوطة: معلقة.

(٣) جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر.

الحديث عمدة العلوم اليقينية :

أما بعد: فيقول العبد الفقير إلى رحمة الله الكريم، أحمد المدعو بولي الله ابن عبد الرحيم، عاملهما الله تعالى بفضله العظيم، وجعل مآلهما النعيم المقيم :

إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها، ومبنى الفنون الدينية وأساسها، هو علم الحديث الذي يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين: من قول، أو فعل، أو تقرير، فهي مصابيح الدجى، ومعالم الهدى، وبمنزلة البدر المنير. من انقاد لها، ووعى^(١)، فقد رشد واهتدى، وأوتي الخير الكثير، ومن أعرض، وتولى، فقد غوى^(٢)، وهوى^(٣)، وما زاد نفسه إلا التخسير، فإنه ﷺ نهى، وأمر، وأنذر، وبشر، وضرب الأمثال، وذكر، وإنما لمثل القرآن أو أكثر، وإن هذا العلم له طبقات، ولأصحابه فيما بينهم درجات وله قشور داخلها لب، وأصداف وسطها در.

تأليف العلماء في علوم الحديث :

وقد صنف العلماء رحمهم الله في أكثر الأبواب ما تقتنص^(٤) به الأوابد^(٥)، وتذلل به الصعاب، وإن أقرب القشور إلى الظاهر فن معرفة الأحاديث صحة وضعفاً، واستفاضة وغرابة، وتصدى له جهابذة^(٦) المحدثين والحفاظ من المتقدمين، ثم يتلوه فن معاني غريبها وضبط مشكلها، وتصدى له أئمة الفنون الأدبية والمنتقون من علماء العربية، ثم يتلوه فن معانيه الشرعية، واستنباط الأحكام الفرعية، والقياس على الحكم

(١) أي حفظ.

(٢) أي ضل.

(٣) أي سقط.

(٤) أي تصطاد.

(٥) أي التي لا يعرف معناها.

(٦) جمع جهيد بالكسر وهو الناقد الخبير.

المنصوص في العبارة، والاستدلال بالإيماء والإشارة ومعرفة المنسوخ،
والمحكم، والمرجوح والمبرم، وهذا بمنزلة اللب والدر عند عامة العلماء
وتصدي له المحققون من الفقهاء.

أدق الفنون الحديثية :

هذا وإن أدق الفنون الحديثية بأسرها عندي، وأعمقها محتداً^(١)،
وأرفعها مناراً، وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى، وأعلاها منزلة
وأعظمها مقداراً - هو علم أسرار الدين، الباحث عن حكم الأحكام
ولمّياتها، وأسرار خواص الأعمال ونكاتها، فهو والله أحق العلوم بأن
يُصْرَف فيه من أطاقه نفائس الأوقات، ويتخذة عدة لمعاده بعدما فرض عليه
من الطاعات؛ إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع، وتكون
نسبته بتلك الأخبار كنسبة صاحب العروض بدواوين الأشعار، أو صاحب
المنطق ببراہین الحکماء، أو صاحب النحو بكلام العرب العرباء^(٢)،
أو صاحب أصول الفقه بتفاريع الفقهاء، وبه يأمن من أن يكون كحاطب
ليل^(٣)، أو كغائص سيل^(٤)، أو يخبط خبط عشواء^(٥)، أو يركب متن
عمياء^(٦)، كمثّل رجل سمع الطبيب يأمر بأكل التفاح، فقاس الحنظلة
عليه لمشاكلة الأشباح^(٧) وبه يصير مؤمناً على بينة من ربه، بمنزلة رجل
أخبره صادق أن السم قاتل فصدقه فيما أخبره وبيّن، ثم عرف بالقرائن أن

(١) أي أصلاً.

(٢) العرب العرباء: العرب الخالصاء الأصلاء.

(٣) حاطب ليل: أي من لا يدري ما يفعل لأن حاطب الليل لا يبصر ما يجمع في حبله
فيخلط بين الجيد والردىء.

(٤) كغائص سيل: هي بمعنى حاطب الليل لأن من يغوص السيل لا يدري ما في أرضه من
حفر وعثرات.

(٥) الناقة التي لا تبصر أمامها. والمعنى ركبها على غير بصيرة.

(٦) متن عمياء: ظهر ناقة عمياء. (٧) أي الأشخاص.

حرارته ويبوسته مفرطتان، وأنهما تباينان مزاج الإنسان، فازداد يقيناً إلى ما أيقن.

قل من صنف في فنون الحديث المطلوبة:

وهو^(١)، وإن أثبت أحاديث النبي ﷺ فروعه وأصوله، وبين آثار الصحابة والتابعين إجماله وتفصيله، وانتهى إمعان المجتهدين إلى تبين المصالح المرعية في كل باب من الأبواب الشرعية، وأبرز المحققون من أتباعهم نكتاً جليلة، وأظهر المدققون من أشياعهم جملاً جزيلة، وخرج بحمد الله من أن يكون التكلم فيه خرقاً لإجماع الأمة، أو اقتحاماً في عمه^(٢) وغمه^(٣)، لكن قل من صنف فيه، أو خاض في تأسيس مبانيه، أرتب منه الأصول والفروع، أو أتى بما يسمن أو يغني من جوع، وحق له ذلك ومن المثل الثائر في الوري^(٤) ومن الرديف^(٥) وقد ركب غضنفر^(٦).

التمكن في العلوم الشرعية ضروري لمعرفة أسرار الحديث:

كيف ولا تتبين أسراره إلا لمن تمكن في العلوم الشرعية بأسرها، واستبد^(٧) في الفنون الإلهية عن آخرها، ولا يصفو مشربه إلا لمن شرح الله صدره لعلم لدني^(٨)، وملاً قلبه بسر وهبي^(٩)، وكان مع ذلك وقاد الطبيعة، سيال القريحة، حاذقاً في التقرير والتحليل، بارعاً في التوجيه والتعبير^(١٠)، قد عرف كيف يُؤصل الأصول، ويبني عليها الفروع، وكيف يمهد القواعد ويأتي لها بشواهد المعقول والمسموع.

(١) أي علم الحديث.

(٢) أي تحير.

(٣) أي إبهام.

(٤) الوري: الناس.

(٥) الرديف: من ركب وراء شخص آخر على دابة.

(٦) غضنفر: أسد.

(٧) أي تفرد.

(٨) لدني: رباني.

(٩) وهبي: أي عطاء من الله لا كسبي.

(١٠) أي التزيين.

وإن من أعظم نعم الله عليّ أن آتاني منه حظاً، وجعل لي منه نصيباً، وما أنفك اعترف بتقصيري وأبوء^(١). ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(٢).

سبب تأليف الكتاب رؤيا:

وبينا أنا جالس ذات يوم بعد صلاة العصر، متوجهاً إلى الله إذ ظهرت روح النبي ﷺ، وغشيتني من فوقني بشيء خيل إلي أنه ثوب ألقى عليّ، ونفث^(٣) في روعي^(٤) في تلك الحالة أنه إشارة إلى نوع بيان للدين، ووجدت عند ذلك في صدري نوراً لم يزل يفسح كل حين، ثم ألهمني ربي بعد زمان مما كتبه عليّ بالقلم العلي أن أنتهض يوماً ما لهذا الأمر الجلي، وأنه أشرقت الأرض بنور ربها، وانعكست الأضواء عند مغربها، وأن الشريعة المصطفوية أشرقت في هذا الزمان على أن تبرز في قُمص^(٥) سابعة من البرهان.

رؤيا ثانية حثت على التأليف:

ثم رأيت الإمامين: الحسن والحسين في منام رضي الله عنهما وأنا يومئذ بمكة كأنهما أعطيانني قلماً، وقالوا: هذا قلم جدنا رسول الله ﷺ ولطالما أحدث نفسي أن أدون فيه رسالة تكون تبصرة للمبتدي، وتذكرة للمنتهي، يستوي فيه الحاضر والباد، ويتعاوره المجلس والناد.

المعوق عن الكتابة:

ثم يعوقني أني لا أجد عندي ولديّ، ولا أرى من خلفي وبين يدي،

(١) سورة يوسف/ الآية ٥٣.

(٢) الروح بالضم القلب.

(٣) أي أقر.

(٤) أي نفخ.

(٥) سابعة: واسعة.

من أراجعه في المشتبهات من العلماء المنصفين الثقات، ويشبطني^(١) قصور باعي^(٢) في العلوم المنقولة مما كان عليه القرون المقبولة، ويفشلني^(٣) أني في زمان الجهل والعصبية، واتباع الهوى، وإعجاب كل امرئ بآرائه الرديئة^(٤)، وأن المعاصرة أصل المنافرة^(٥)، وأن من صنف قد استهدف.

صديق كريم يشجع على الكتابة:

فبينا أنا في ذلك أقدم رجلاً، وأؤخر أخرى، وأجري شوطاً^(٦)، ثم أرجع فهقري^(٧)، إذ تظن أجل إخواني لدي، وأكرم خلاني علي «محمد» المعروف بالعاشق، لا زال محفوظاً من كل طارق وغاسق^(٨)، بمنزلة هذا العلم وفضائله، وألهم أن السعادة لا تتم إلا بتبع دقائقه وجلائله، وعرف أنه لا يتيسر له الوصول إليه إلا بعد مجاهدة الشكوك والشبهات، ومكابدة^(٩) الاختلاف والمناقضات، ولا يستتب^(١٠) له الخوض إلا بسعي رجل يكون أول من قرع الباب، وكلما دعا لباه الأوابد^(١١) الصعاب، فطاف ما قدر عليه من البلاد، وبحث من توسم فيه الخير من العباد، وتفحص سينهم وشينهم، وسبر غثهم^(١٢) وسمينهم، فلم

-
- (١) أي يعوقني .
(٢) قصور الباع : ضعف المقدرة .
(٣) أي يجعلني جباناً .
(٤) الرديئة : الرديئة .
(٥) المنافرة : المخاصمة المفاخرة .
(٦) الجري مرة إلى غاية .
(٧) رجوع الفهقري : رجوع إلى الوراء .
(٨) الطارق الآتي ليلاً والطارق هو النجم الذي يأتي في الليل مضيئاً والغاسق هو المظلم .
(٩) أي مقاساة .
(١٠) أي يتم .
(١١) الأوابد الصعاب : الصعاب الشديدة .
(١٢) أي امتحن مهزولهم .

يجد من يتكلم منه بنافعة، أو يأتي منه بجذوة ساطعة، فلما رأى ذلك ألح علي، ورزاني^(١)، وليبني^(٢)، وأمسكني، وصار كلما اعتذرت ذكّرني حديث الإلجام^(٣)، فأفحمني^(٤) أشد الإفحام، حتى أعتيت^(٥) بي المذاهب، وسالت بمعاذيري المتاعب^(٦)، وأيقنت أنها إحدى الكبر، وأنها لما كنت ألهمت صورة من الصور.

استخارة الله تعالى في الأمر:

وأنه قد سبق عليّ الكتاب وأنه أمر قد توجه من كل باب، فتوجهت إلى الله واستخرته، ورغبت إليه واستعنته، وخرجت من الحول والقوة بالكلية، وصرت كالميت في يد الغسال في حركاته القصرية، وشرعت فيما نلّبني^(٧) إليه، وعظفني عليه، وتضرعت إلى الله أن يصرف قلبي من الملاهي، وأن يريني حقائق الأشياء كما هي، ويسدد جناني^(٨)، ويفصح لساني، ويعصمني^(٩) فيما اقتحمه من المقال، ويوفقني لصدق اللهجة في كل حال، ويعينني في إبراز ما يختلج في صدري، ويعالجه فكري، إنه قريب مجيب، وقدمت إليه أني سكتيت^(١٠) نادي البيان، ضالع^(١١) حلبة الرهان^(١٢)، وأنني متعرق^(١٣) مرماة، وأنه لا يتأتى مني الإمعان في تصفح

(١) أي بالغني .

(٢) أي لزمني .

(٣) وهو من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار . رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة .

(٤) منعني الحجّة .

(٥) أي كلت .

(٦) أي مسایل الماء .

(٧) أي دعاني .

(٨) الجنان : القلب .

(٩) يعصم : يحفظ .

(١٠) أي مبالغ في السكوت .

(١١) أي معوج خلقة .

(١٢) أي دفعة من الخيل والرهان المسابقة .

(١٣) التعرق أكل لحم العظم بالأسنان ، والمرماة الظلف .

الأوراق لشغل قلبي بما ليس له فواق، ولا يتيسر لي التناهي في حفظ المسموعات؛ لأتشدق^(١) بها عند كل جاءٍ وآتٍ، وإنما أنا المنفرد بنفسه، المجتمع لرمسه^(٢)، الذي هو ابن وقته، وتلميذ بخته، وأسير وارده، ومغتنم بارده، فمن سره أن يقنع بهذا فليقنع، ومن أحب غير ذلك، فأمره بيده ما شاء فليصنع، ولما كان وقعت الإشارة إلى سر التكليف، والمجازاة وأسرار الشرائع المنزلة إلى الرحمة المهداة، بقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٣).

وهذه الرسالة شعبة منها نابغة، وبدور من أفقها بازغة^(٤)، حسن أن تسمى «حجة الله البالغة» حسبي الله، ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) أي ألوي شدقي للتفصح * ورزاني * كذا بالأصل وفسر فيه ببالغني ولعله تصحيف عن رزني بمعنى طعني بيده في صدري.

(٢) الرسم: القبر.

(٣) سورة الانعام/ الآية ١٤٩.

(٤) بازغة : طالعة مشرقة .

مقدمة

الأحكام الشرعية تتضمن مصالح العباد:

وقد يظن أن الأحكام الشرعية غير متضمنة لشيء من المصالح، وأنه ليس بين الأعمال وبين ما جعل الله جزاء لها مناسبة، وأن مثل التكليف بالشرائع كمثل سيد أراد أن يختبر طاعة عبده، فأمره برفع حجر، أو لمس شجرة مما لا فائدة فيه غير الاختبار، فلما أطاع، أو عصى جوزي بعمله، وهذا ظن فاسد تكذبه السنة وإجماع القرون المشهود لها بالخير.

الأعمال معتبرة بالنيات:

ومن^(١) عجز أن يعرف أن الأعمال معتبرة بالنيات والهيئات النفسانية التي صدرت منها، كما قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات». وقال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾^(٢).

الصلاة شرعت لذكر الله:

وأن الصلاة شرعت لذكر الله ومناجاته كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٣).

ولتكون معدة لرؤية الله تعالى ومشاهدته في الآخرة، كما قال رسول

(١) مبتدأ خبره فإنه لم يمسه من العلم الآتي.

(٢) سورة الحج / الآية ٣٧.

(٣) سورة طه / الآية ١٤.

الله ﷺ «سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون»^(١) في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا^(٢) على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا».

الزكاة شرعت لحكمة معينة :

وأن الزكاة شرعت دفعاً لرديلة البخل وكفاية لحاجة الفقراء، كما^(٣) قال الله تعالى في مانعي الزكاة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٤).

وكما قال^(٥) النبي ﷺ: «فأخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم».

الصوم شرع لقهر النفس :

وأن الصوم شرع لقهر النفس، كما قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٦). وكما قال النبي ﷺ: «فإن الصوم له وجاء»^(٧).

الحج شرع لتعظيم شعائر الله :

وأن الحج شرع لتعظيم شعائر الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي لِلَّذِي...﴾ الآية^(٨) وقال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٩).

(١) يروى من المفاعلة والتفاعل من الضم ويتخفيف الميم من الضيم وحاصل معنى جميع الروايات أي لا تشكون.

(٢) أي لا تصيروا مغلوبين بالاشتغال عن صلاة الصبح والعصر.

(٣) مثال لدفع عيب البخل. (٤) سورة آل عمران/ الآية ١٨٠.

(٥) أي لمعاذ بن جبل مقوله وهو فأخبرهم إلخ مثال لكفاية حاجة الفقراء.

(٦) سورة البقرة/ الآية ١٨٣.

(٧) الوجاء بالكسر والمد هي أن ترض أنثيا الفحل رضا شديداً يذهب شهوة الجماع.

(٨) سورة آل عمران/ الآية ٩٦. (٩) سورة البقرة/ الآية ١٥٨.

القصاص شرع زاجراً:

وأن القصاص شرع زاجراً عن القتل، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١). وأن الحدود والكفارات شرعت زواجر عن المعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾^(٢).

الجهاد شرع لإعلاء كلمة الله:

وأن الجهاد شرع لإعلاء كلمة الله وإزالة الفتنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾^(٣).

أحكام المعاملات شرعت لإقامة العدل:

وأن أحكام المعاملات والمناكحات شرعت لإقامة العدل فيهم إلى غير ذلك مما دلت الآيات والأحاديث عليه ولهج^(٤) به غير واحد من العلماء في كل قرن - فإنه لم يمسه من العلم إلا كما يمس الإبرة من الماء حين تغمس في البحر، وتخرج، وهو بأن يبكي على نفسه، أحق من أن يعتد بقوله.

النبي بين أسرار بعض العبادات:

ثم إن النبي ﷺ بين أسرار تعيين الأوقات في بعض المواضع. كما قال في أربع قبل الظهر: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح».

وروي عنه ﷺ في صوم يوم عاشوراء: أن سبب مشروعيته نجاة موسى وقومه من فرعون في هذا اليوم، وأن سبب مشروعيته فينا اتباع سنة موسى عليه السلام.

(٢) سورة المائدة/ الآية ٩٥.

(٤) أي نطق.

(١) سورة البقرة/ الآية ١٧٩.

(٣) سورة الأنفال/ الآية ٣٩.

وبين أسباب بعض الأحكام، فقال في المستيقظ: «لا يدري أين باتت يده»^(١).

وفي الاستنثار^(٢): (فإن الشيطان يبيت على خيشومه)^(٣).

وقال في النوم: (فإنه إذا اضطجع استرخت مفاصله)^(٤).

وقال في رمي الجمار: (إنه لإقامة ذكر الله) وقال^(٥): (إنما جعل الاستنذان من أجل البصر).

وفي الهرة: (أنها ليست بنجس إنما هي من الطوافين عليكم والطوافات)^(٦).

وبين في مواضع أن الحكمة فيها دفع مفسدة كالنهي عن الغيلة^(٧). (إنما هو مخافة ضرر الولد).

أو مخالفة فرقة من الكفار كقوله ﷺ: (فإنها تطلع بين قرني الشيطان)^(٨) وحينئذ يسجد لها الكفار.

أو سد باب التخريف كقول عمر رضي الله عنه لمن أراد أن يصل النافلة بالفريضة: بهذا هلك من قبلكم فقال النبي ﷺ: (أصاب الله بك)^(٩) يا ابن الخطاب).

(١) يجب على المستيقظ غسل يده قبل أن يمد يده إلى الإناء ليتوضأ.

(٢) الاستنثار: إخراج الماء من الأنف. (٣) الخيشوم: أقصى الأنف.

(٤) من نام غير متمكن تعرض لخروج الريح.

(٥) هكذا وجدنا بالأصل ولعله سقط كلمة في الاستنذان.

(٦) أي كثيرة التردد لا يمكن منعها. (٧) الغيلة بالكسر الجماع زمن الرضاع.

(٨) فإنها أي الشمس تطلع ناحيتي رأسه. (٩) أي جعلك صائبا في رأيك.

أو وجود حرج كقوله: (أو لكلكم ثوبان). وكقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ (١).

النبي بين أسرار الترغيب والترهيب:

وبين في بعض المواضع أسرار الترغيب والترغيب، وراجعته الصحابة في المواضع المشتبهة، فكشف شبهتهم، ورد الأمر إلى أصله قال: (صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمساً وعشرين درجة وذلك أن أحدكم إذا توضأ، فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة) الحديث.

وقال (٢): (في بضع (٣) أحدكم صدقة، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام لكان عليه فيه وزر، فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر).

وقال: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول كلاهما في النار. قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)، إلى غير ذلك من المواضع التي يعسر إحصاؤها.

بعض الصحابة أشاروا إلى أسرار بعض الأحكام:

وبين ابن عباس رضي الله عنهما سر مشروعية غسل الجمعة. وزيد بن ثابت سبب النهي عن بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها. وبين ابن عمر سر الاقتصار على استلام ركنين من أركان البيت، ثم لم يزل التابعون، ثم من بعدهم العلماء المجتهدون يعللون الأحكام بالمصالح، ويفهمون معانيها، ويخرجون للحكم المنصوص مناطاً مناسباً لدفع ضرر أو جلب نفع كما هو مبسوط في كتبهم ومذاهبهم.

(١) سورة البقرة/ الآية ١٨٧.

(٢) مثال لمراجعة الصحابة في المشتبهات. (٣) أي فرج.

علماء السلف ذكروا أسرار بعض الأحكام:

ثم أتى الغزالي والخطابي^(١) وابن عبد السلام^(٢) وأمثالهم - شكر الله مساعيهم - بنكت لطيفة وتحقيقات شريفة: نعم كما أوجبت السنة هذه، وانعقد عليها الإجماع، فقد أوجبت أيضاً أن نزول القضاء بالإيجاب والتحریم سبب عظیم في نفسه مع قطع النظر عن تلك المصالح لإثابة المطيع وعقاب العاصي، وأنه ليس الأمر على ما ظن من أن حسن الأعمال وقبحها بمعنى استحقاق العامل الثواب والعذاب عقليان من كل وجه.

الشرع يخبر عن خواص الأعمال:

وأن الشرع وظيفته الإخبار عن خواص الأعمال على ما هي عليه دون إنشاء الإيجاب والتحریم بمنزلة طبيب يصف خواص الأدوية وأنواع المرض، فإنه ظن فاسد تمجه^(٣) السنة بادي الرأي، كيف وقد قال النبي ﷺ في قيام رمضان: «حتى خشيت أن يكتب عليكم»^(٤) وقال: «إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على الناس، فحرم من أجل مسألته»^(٥) إلى غير ذلك من الأحاديث.

الناس قد لا يفطنون لحكمة الشرع لوحدهم:

كيف ولو كان ذلك^(٦) كذلك لجاز إفطار المقيم الذي يتعاني كتعاني^(٧) المسافر لمكان الحرج المبني عليه الرخص، ولم يجز إفطار المسافر المترفه، وكذلك سائر الحدود التي حدها الشارع، وأوجبت^(٨) أيضاً أنه لا يحل أن يتوقف في امثال أحكام الشرع إذا صحت بها الرواية

(١) هو أبو سليمان حمد بن محمد البستي صاحب معالم السنن.

(٢) هو عز الدين.

(٣) أي ترميه.

(٤) يكتب عليكم: يفرض عليكم.

(٥) مسألته: سؤاله.

(٦) أي حسن الأعمال إلخ.

(٧) أي يقاسي كمقاساة.

(٨) أي السنة.

على معرفة تلك المصالح لعدم استقلال عقول كثير من الناس في معرفة كثير من المصالح، ولكون النبي ﷺ أوثق عندنا من عقولنا.

هذا العلم مضمون به على غير أهله:

ولذلك لم يزل هذا العلم مضموناً به^(١) على غير أهله، ويشترط له ما يشترط في تفسير كتاب الله، ويحرم الخوض فيه بالرأي الخالص غير المستند إلى السنن والآثار.

مثل من خالف النبي عليه السلام:

وظهر مما ذكرنا أن الحق في التكليف بالشرائع أن مثله كمثل سيد مرض عبيده، فسلط عليهم رجلاً من خاصته ليسقيهم دواء، فإن أطاعوا له أطاعوا السيد، ورضي عنهم سيدهم، وأثابهم خيراً، ونجوا من المرض، وإن عصوه عصوا السيد، وأحاط بهم غضبه، وجازاهم أسوأ الجزاء، وهلكوا من المرض.

وإلى ذلك أشار النبي ﷺ حيث قال راوياً عن الملائكة: «إن مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مائدة^(٢)، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المائدة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المائدة».

وحيث قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان^(٣) فالنجاء النجاء^(٤)، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا^(٥)، فانطلقوا على مهلهم،

(١) من الضنان بالكسر وهو البخل. (٢) أي طعاماً صنع لدعوة.

(٣) النذير العريان: خص العريان لأنه أبين للعين وأغرب وأشنع عند المبصر. وكان العرب إذا أرسلوا عيناً ورأى العدو قد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه ويبقى عرياناً.

(٤) أي اطلبوا النجاء أي الخلاص. (٥) أي ساروا من أول الليل.

فنجوا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم، واجتاحهم»^(١) وقال راوياً عن ربه: «إنما هي أعمالكم تُرد عليكم»^(٢).

وبما ذكرنا من أن ههنا أمراً بين الأمرين، وأن لكل من الأعمال ونزول القضاء بالإيجاب والتحريم أثراً في استحقاق الثواب والعقاب يجمع بين الدلائل المتعارضة في أهل الجاهلية يعذبون بما عملوا في الجاهلية أم لا.

الأحكام معللة بالمصالح:

ومن الناس من يعلم في الجملة أن الأحكام معللة بالمصالح، وأن الأعمال يترتب عليها الجزاء من جهة كونها صادرة من هيئات نفسانية تصلح بها النفس، وتفسد، كما أشار إليه النبي ﷺ حيث قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» لكنه يظن أن تدوين هذا الفن وترتيب أصوله وفروعه ممتنع إما عقلاً لخفاء مسائله وغموضها، أو شرعاً لأن السلف لم يدونوه من قرب عهدهم مع النبي ﷺ وغمزارة علمهم، فكان كالاتفاق على تركه، أو يقول ليس في تدوينه فائدة معتد بها إذ لا يتوقف العمل بالشرع على معرفة المصالح، وهذه ظنون فاسدة أيضاً.

بعض المسائل حكمها خفية:

(قوله لخفاء مسائله وغموضها) إن أراد أنه لا يمكن التدوين أصلاً، فخفاء المسائل لا يفيد ذلك كيف ومسائل علم التوحيد والصفات أعمق مدركاً وأبعد إحاطة، وقد يسره الله لمن شاء، وكذلك كل علم يتراءى بادي الرأي أن البحث عنه مستحيل والإحاطة به ممتنعة، ثم إذا ارتيض^(٣)

(٢) أي يرد ثوابها أو عقابها.

(١) أي استأصلهم.

(٣) ارتيض: ذلل وصار مروضاً.

بأدواته، وتدرج في فهم مقدماته حصل التمكن فيه، وتيسر تأسيس مبانيه وتفریع فروعه وذویه^(١)، وإن أراد العسر في الجملة فمسلم، لكنه بالعسر يظهر فضل بعض العلماء على بعض، وأن بلوغ الآمال في ركوب المشاق والأهوال، وأن اقتعاد^(٢) غارب^(٣) العلوم بتجشم^(٤) العقول وإمعان الفهوم .

السلف لم يدونوا كل شيء :

(قوله لأن السلف لم يدونوه) قلنا: لا يضر عدم تدوين السلف إياه بعدما مهد النبي ﷺ أصوله، وفرع فروعه، واقتفى أثره فقهاء الصحابة كأميري المؤمنين عمر وعلي وكزيد وابن عباس وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم بحثوا عنه وأبرزوا وجوهاً منه .

علماء الدين راحوا يظهرون ما يبدو لهم :

ثم لم يزل علماء الدين وسلاك سبيل اليقين يظهرون ما يحتاجون إليه مما جمع الله في صدورهم، كان الرجل منهم-إذا ابتلي بمناظرة من يثير فتنة التشكيك يجرّد سيف البحث وينهض^(٥)، ويصمم العزم ويمحض^(٦)، ويشمر عن ساق الجد ويحسر، ويهزم جيوش المبتدعين ويكشر .

تدوين كتاب جامع في هذا الفن أجدى :

ثم رأينا بعد: أن تدوين كتاب يحتوي على جمل صالحة من أصول هذا الفن أجدى^(٧) من تفاريق العصا، وكل الصيد في جوف الفرا^(٨) .

(١) ذوي جمع ذوات وهي قشر الحنطة وغيرها والمراد منها المتعلقات .

(٢) أي جلوس .

(٣) أي كتف .

(٤) أي تكلف .

(٥) أي يقوم .

(٦) أي يخلص .

(٧) أي أنفع .

(٨) في القاموس الفرا كجبل وسحاب حمار الوحش أوفتية جمعه أفراء وفراء ثم قال وكل الصيد في جوف الفرا بغير همز لأنه مثل والأمثال لا تغير أي كله دونه .

الأوائل كانوا في غنى عن تدوين كتب في هذا الفن :

وكان الأوائل لصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبي ﷺ، وقرب عهده، وقلة وقوع الاختلاف فيهم، واطمئنان قلوبهم بترك التفتيش عما ثبت عنه ﷺ وعدم التفاتهم إلى تطبيق المنقول بالمعقول، وتمكنهم من مراجعة^(١) الثقات في كثير من العلوم الغامضة مستغنين^(٢) عن تدوين هذا الفن.

وكانوا في غنى عن كتب فنون الحديث :

كما أنهم كانوا بسبب قرب عهدهم من القرن الأول، واتصال زمانهم برجال الحديث، وكونهم منهم بمرأى ومسمع^(٣)، وتمكنهم من مراجعة الثقات، وقلة وقوع الاختلاف والوضع - مستغنين عن تدوين سائر الفنون الحديثية كشرح غريب الحديث وأسماء الرجال ومراتب عدالتهم، ومشكل الحديث وأصول الحديث ومختلف الحديث وفقه الحديث، وتميز الضعيف من الصحيح، والموضوع^(٤) من الثابت، وكل فن من هذه لم يفرد بالتدوين، ولم ترتب أصوله وفروعه إلا بعد قرون كثيرة ومدد متطاولة لما عنت^(٥) الحاجة إليه، وتوقف نصح المسلمين عليه.

اختلاف العلماء في علل الأحكام شجع على التأليف :

ثم إنه كثر اختلاف الفقهاء بناءً على اختلافهم في علل الأحكام، وأفضى ذلك إلى أن يتباحثوا عن العلل من جهة إفضائها إلى المصالح المعتبرة في الشرع ونشأ التمسك بالمعقول في كثير من المباحث الدينية،

(١) تساؤل.

(٢) خبر كان.

(٣) أي بحيث يرونهم ويسمعونهم.

(٤) الحديث الموضوع: الحديث الذي لا أصل له والذي اختلقه واضعه.

(٥) أي ظهرت.

وظهرت تشكيكات في الأصول الاعتقادية والعملية، فالأمر إلى أن صار الانتهاض لإقامة الدلائل العقلية حسب النصوص النقلية، وتطبيق المنقول بالمعقول، والمسموع بالمفهوم نصراً مؤزراً^(١) للدين، وسعيًا جميلًا في جمع شمل المسلمين، ومعدوداً من أعظم القربات^(٢)، ورأساً لرؤوس الطاعات.

فوائد التأليف: منها إيضاح معجزات النبي:

(قوله ليس في تدوينه فائدة) قلنا: ليس الأمر كما زعم، بل في ذلك فوائد جلية^(٣)، منها:

إيضاح معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فإنه ﷺ كما أتى بالقرآن العظيم، فأعجز بلغاء زمانه، ولم يستطع أحد منهم أن يأتي بسورة من مثله، ثم لما انقرض زمان القرن الأول، وخفي على الناس وجوه الإعجاز، قام علماء الأمة، فأوضحوها؛ ليدركه من لم يبلغ مبلغهم.

ومنها بيان كمال الشريعة الإسلامية:

كذلك أتى من الله تعالى بشريعة هي أكمل الشرائع متضمنة لمصالح يعجز عن مراعاة مثلها البشر، وعرف أهل زمانه شرف ما جاء به بنحو من أنحاء المعرفة، حتى نطقت به ألسنتهم، وتبين في خطبهم ومحاوراتهم، فلما انقضى عصرهم وجب أن يكون في الأمة من يوضح وجوه هذا النوع من الإعجاز والآثار الدالة على أن شريعته صلى الله عليه وآله وسلم أكمل الشرائع، وأن إتيان مثله بمثلها معجزة عظيمة كثيرة مشهورة لا حاجة إلى ذكرها.

(١) أي مؤيداً.

(٢) القربات: جمع قربة، ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من أفعال البر والطاعة.

(٣) جلية: واضحة.

ومنها: الاطمئنان على الإيمان:

ومنها أن يحصل به الاطمئنان الزائد على الإيمان كما قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾^(١).

ذلك أن تظاهر الدلائل، وكثرة طرق العلم يثلجان^(٢) الصدر، ويزيلان اضطراب القلب.

ومنها: أن يعرف المؤمن مشروعية ما يعمل:

ومنها أن طالب الإحسان إذا اجتهد في الطاعات وهو يعرف وجه مشروعيتها، ويقيد نفسه بالمحافظة على أرواحها وأنوارها نفعه قليلها، وكان أبعد من أن يخبط خبط عشواء^(٣).

ولهذا المعنى اعتنى الإمام الغزالي في كتب السلوك بتعريف أسرار العبادات.

ومنها أنه اختلف الفقهاء في كثير من الفروع الفقهية بناءً على اختلافهم في العلل المخرجة المناسبة، وتحقيق ما هو الحق هنالك لا يتم إلا بكلام مستقل في المصالح.

ومنها: ردع المشككين:

ومنها أن المبتدعين^(٤) شككوا في كثير من المسائل الإسلامية بأنها مخالفة للعقل، وكل ما هو مخالف له يجب رده أو تأويله كقولهم في عذاب القبر إنه يكذبه الحس والعقل، وقالوا في الحساب والصراط والميزان نحواً من ذلك، فطفقوا يؤولون بتأويلات بعيدة، وأثارت طائفة^(٥) فتنة الشك

(١) سورة البقرة/ الآية ٢٦٠ . (٢) أي يبردان ويريحان .

(٣) أي يعمل أمراً على غير بصيرة .

(٤) المبتدعين: الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه .

(٥) الإسماعيلية وهي فرقة من فرق الشيعة .

فقالوا: لم كان صوم آخر يوم من رمضان واجباً وصوم أول يوم من شوال ممنوعاً عنه؟ ونحو ذلك من الكلام.

واستهزأت طائفة بالترغيبات والترهيبات ظانين أنها لمجرد الحث والتحريض لا ترجع إلى أصل أصيل، حتى قام أشقى القوم^(١)، فوضع حديث باذنجان لما أكل له يعرض^(٢) بأن أضر الأشياء لا يتميز عند المسلمين من النافع.

ولا سبيل إلى دفع هذه المفسدة إلا بأن نبين المصالح، ونؤسس لها القواعد كما فعل نحو من ذلك في مخاصمات اليهود والنصارى والدهرية وأمثالهم.

ومنها: بيان أن الأحاديث الصحيحة توافق المصالح الشرعية:

ومنها أن جماعة من الفقهاء زعموا أنه يجوز رد حديث يخالف القياس من كل وجه، فتطرق الخلل إلى كثير من الأحاديث الصحيحة كحديث المَصْرَاة^(٣) وحديث القُلْتَيْن^(٤) فلم يجد أهل الحديث سبيلاً في إلزامهم الحجة إلا أن يبينوا أنها توافق المصالح المعتبرة في الشرع، إلى غير ذلك من الفوائد التي لا يفي بإحصائها الكلام.

مخالفة بعض المناظرين من أهل الكلام:

وستجدني إذا غلب عليّ شقشقة^(٥) البيان، وأمعنت في تمهيد

(١) هو ابن الراوندي الملحد.

(٢) أي يشير.

(٣) المصراة من الإبل والغنم التي حبس لبنها في ضرعها لتباع فيفتر به المشتري وفيه حديث مسلم من اشترى شاة مصراة فهو بالخيار ثلاثة أيام فإن ردها رد معها صاعاً من طعام لا سمراء.

(٤) القلة بالضم جرة عظيمة تسع خمسمائة رطل وفيه إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل نجساً.

(٥) بالكسر رثة البعير الخارجة من فمه وقت الهدر.

القواعد غاية الإمعان، ربما أوجب المقام أن أقول بما لم يقل به جمهور المناظرين من أهل الكلام، كتجلي الله تعالى في مواطن المعاد بالصور والأشكال، وكإثبات عالم ليس عنصرياً يكون فيه تجسد المعاني والأعمال بأشباح^(١) مناسبة لها في الصفة، وتخلق فيه الحوادث قبل أن تخلق في الأرض، وارتباط الأعمال بهيئات^(٢) نفسانية، وكون تلك الهيئات في الحقيقة سبباً للمجازاة في الحياة الدنيا وبعد الممات، والقول بالقدر الملزم ونحو ذلك، فاعلم أنني لم أجتريء عليه إلا بعد أن رأيت الآيات والأحاديث وآثار الصحابة والتابعين متظاهرة فيه، ورأيت جماعات من خواص أهل السنة المتميزين منهم بالعلم اللدني^(٣) يقولون به، ويبنون قواعدهم عليه.

أهل القبلة انقسموا إلى قسمين:

وليست السنة اسماً في الحقيقة لمذهب خاص من الكلام، ولكن المسائل التي اختلف فيها أهل القبلة^(٤)، وصاروا لأجلها فرقا متفرقة وأحزاباً متحزبة بعد انقيادهم لضروريات الدين على قسمين:

١ - قسم نطقت به الآيات والسنة:

قسم نطقت به الآيات، وصحت به السنة، وجرى عليه السلف من الصحابة والتابعين، فلما ظهر إعجاب كل ذي رأي برأيه، وتشعبت بهم السبل اختار قوم ظاهر الكتاب والسنة، وعضوا بنواجذهم^(٥) على عقائد السلف، ولم يبالوا بموافقتها للأصول العقلية، ولا مخالفتها لها، فإن

(١) أشباح: أجسام.

(٢) كالشوق والخوف والرجاء وأمثالها.

(٣) العلم اللدني: العلم المتعلق بالله تعالى لا بالحياة المادية.

(٤) أهل القبلة: المسلمون لأنهم يتوجهون إلى قبلة واحدة هي الكعبة.

(٥) النواجذ: الأضراس؛ وعضوا عليها بالنواجذ أي تمسكوا بها جيداً.

تكلّموا بمعقول فلا إلزام الخصوم والرد عليهم، أو لزيادة الطمأنينة، لا لاستفادة العقائد منها وهم أهل السنة.

ذهب قوم إلى التأويل والصرف عن الظاهر:

وذهب قوم إلى التأويل، والصرف عن الظاهر حيث خالفت الأصول العقلية بزعمهم، فتكلّموا بالمعقول لتحقيق الأمر، وتبينه على ما هو عليه.

فمن هذا القسم سؤال القبر، ووزن الأعمال، والمرور على الصراط، والرؤية، وكرامات الأولياء، فهذا كله ظهر به الكتاب والسنة، وجرى عليه السلف ولكن ضاق نطاق المعقول عنها بزعم قوم فأنكروها، أو أولوها.

وقال قوم منهم آمنا بذلك، وإن لم ندر حقيقته، ولم يشهد له المعقول عندنا، ونحن نقول: آمنا بذلك كله على بينة من ربنا، وشهد له المعقول عندنا.

٢ - قسم لم ينطق به الكتاب والسنة:

وقسم لم ينطق به الكتاب، ولم تستفيض^(١) به السنة، ولم يتكلم فيه الصحابة فهو مطوي^(٢) على غرة، فجاء الناس من أهل العلم، فتكلّموا فيه.

واختلفوا وكان خوضهم فيه إما استنباطاً من الدلائل النقلية^(٣)، كفضل الأنبياء على الملائكة، وفضل عائشة على فاطمة رضي الله عنهما، وإما لتوقف الأصول الموافقة للسنة عليه، وتعلقها به بزعمهم كمسائل

(١) استفاض: اشتهر.

(٢) هو من طويت الثوب وعلى غرة أي على كسره الأول.

(٣) الدلائل النقلية: النصوص كالقرآن والسنة. ويقابلها الدلائل العقلية كالاجتهاد.

الأمر العامة، وشيء من مباحث الجواهر والأعراض، فإن القول بحدوث العالم يتوقف على إبطال الهيولى، وإثبات الجزء الذي لا يتجزأ، والقول بخلق الله تعالى العالم بلا واسطة يتوقف على إبطال القضية القائلة بأن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد، والقول بالمعجزات يتوقف على إنكار اللزوم العقلي بين الأسباب ومسبباتها، والقول بالمعاد الجسماني يتوقف على إمكان إعادة المعدوم، إلى غير ذلك مما شحنا^(١) به كتبهم، وإما تفصيلاً وتفسيراً لما تلقوه من الكتاب والسنة.

الاختلاف في التفصيل والتفسير:

فاختلفوا في التفصيل والتفسير بعد الاتفاق على الأصل كما اتفقوا على إثبات صفتي السمع والبصر، ثم اختلفوا، فقال قوم: هما صفتان راجعتان إلى العلم بالمسموعات والمبصرات، وقال آخرون: هما صفتان على حدتهما، وكما اتفقوا: على أن الله تعالى حي عليم مريد قدير متكلم.

ثم اختلفوا فقال قوم: إنما المقصود إثبات غايات هذه المعاني من الآثار والأفعال، وأن لا يفرق بين هذه السبع وبين الرحمة والغضب والجلود في هذا، وأن الفرق لم تثبت السنة. وقال قوم هي أمور موجودة قائمة بذات الواجب.

واتفقوا على إثبات الاستواء على العرش والوجه والضحك على الجملة، ثم اختلفوا، فقال قوم: إنما المراد معان مناسبة، فالاستواء هو الاستيلاء والوجه الذات، وطواها قوم^(٢) على غيرها وقالوا لا ندري ماذا أريد بهذه الكلمات.

(١) شحنا: ملأوا.

(٢) أي تركوها كما كانت.

السنة ترك الخوض في هذه المسائل :

وهذا القسم لست استصح ترفع إحدى الفرقتين على صاحبها بأنها على السنة، كيف، وإن أريد قح^(١) السنة فهو ترك الخوض في هذه المسائل رأساً، كما لم يخض فيها السلف.

ولما أن مست الحاجة إلى زيادة البيان، فليس كل ما استنبطوه من الكتاب والسنة صحيحاً أو راجحاً، ولا كل ما حسبه هؤلاء متوقفاً على شيء مسلم التوقف، ولا كل ما أوجبوا رده مسلم الرد، ولا كل ما امتنعوا من الخوض فيه استصعاباً له صعباً في الحقيقة، ولا كل ما جاؤوا به من التفصيل والتفسير أحق مما جاء به غيرهم.

اتباع القسم الأول أفضل :

ولما ذكرنا من أن كون الإنسان سنياً معتبر بالقسم الأول دون الثاني ترى علماء السنة يختلفون فيما بينهم في كثير من الثاني، كالأشاعرة والماتريدية^(٢) وترى الحذاق من العلماء في كل قرن لا يحتجزون من كل دقيقة لا تخالفها السنة، وإن لم يقل بها المتقدمون، وستجدني إذا تشعبت^(٣) بهم السبل في الفروع والمذاهب، وتفرقت بهم الموارد فيها والمشارب^(٤) لجمت^(٥) بالجمادة^(٦) الجلية، وحققت^(٧) القارعة القوية، وصرت لا ألوي^(٨) على الأطراف والحافات^(٩)، وكنت في صمم من التفاريع والتخريجات.

(١) أي خالص.

(٢) الأشاعرة هم أتباع الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤، والماتريدية أتباع أبي المنصور الماتريدي المتوفى سنة ٣٣٣، وماتريد قرية.

(٣) تشعبت: تفرعت تفرقت.

(٤) المشارب: الميول.

(٦) الجمادة: الطريق.

(٨) أي لا أميل.

(٥) أي لزم.

(٧) أي أثبتت ووسطت.

(٩) أي الأوساط.

لكل فن خاصة ولكل موطن مقتضى :

فاعلم أن لكل فن خاصة ولكل موطن مقتضى ، فكما أنه ليس لصاحب غريب الحديث أن يبحث عن صحة الحديث وضعفه ، ولا لحافظ الحديث أن يتكلم في الفروع الفقهية وإيثار بعضها على بعض ، فكذلك ليس للباحث عن أسرار الحديث أن يتكلم بشيء من ذلك إنما غاية همته ومطمح بصره هو كشف السر الذي قصده النبي ﷺ فيما قال سواء بقي هذا الحكم محكماً أو صار منسوخاً ، أو عارضه دليل آخر ، فوجب في نظر الفقيه كونه مرجوحاً .

فن الحديث ما خالص بعد تدوين آثار الحديث وآثار الفقهاء :

نعم لا محيص لكل خائض في فن أن يعتصم بأحق ما هنالك بالنسبة إلى ذلك الفن ، وإنما الأقرب من الحق باعتبار فن الحديث ما خالص بعد تدوين أحاديث البلاد وآثار فقهاءها ومعرفة المتابع عليه من المتفرد به والأكثر رواة ، والأقوى رواية مما هو دون ذلك على أنه إن كان شيء من هذا النوع استطراداً ، فليس البحث عن المسائل الاجتهادية ، وتحقيق الأقرب منها للحق بدعاً من أهل العلم ولا طعناً في أحد منهم ﴿إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١) .

صدور الخطأ جائز :

وها أنا بريء من كل مقالة صدرت مخالفة لآية من كتاب الله ، أو سنة قائمة عن رسول الله ﷺ ، أو إجماع القرون المشهود لها بالخير ، أو ما اختاره جمهور المجتهدين ، ومعظم سواد المسلمين ، فإن وقع شيء من ذلك فإنه خطأ ، رحم الله تعالى من أيقظنا من سِنَّتِنَا (٢) ، أو نبهنا من غفلتنا .

(١) سورة هود/ الآية ٨٨ .

(٢) سنة : نوم .

لا يجب موافقة أهل المناظرة في كل ما يقولون :

أما هؤلاء الباحثون بالتخريج والاستنباط من كلام الأوائل المنتحلون مذهب المناظرة والمجادلة، فلا يجب علينا أن نوافقهم في كل ما يفوهون^(١) به، ونحن رجال، وهم رجال، والأمر بيننا وبينهم سجال^(٢).

هذا الكتاب قسمان : أحدهما قسم القواعد الكلية :

ثم إني جعلت الكتاب على قسمين : أحدهما قسم القواعد الكلية التي تنتظم بها المصالح المرعية في الشرائع، وأكثرها كانت مسلمة بين الملل الموجودة في عهد النبي ﷺ، ولم يكن فيها اختلاف بينهم، وكان الحاضرون مستغنين عن سؤالاتها، فنبه النبي ﷺ عليها كما نبه على الأصول المفروعة عنها إفادة الفروع، فتمكن السامعون من إرجاع الفروع إليها لما مارسوا من نظائرها^(٣) في العرب المنتسبين إلى الملة^(٤) الإسماعيلية واليهود والنصارى والمجوس.

أسرار الشرائع ترجع إلى أصلين :

ورأيت أن تفاصيل أسرار الشرائع ترجع إلى أصلين مبحث البر والإثم، ومبحث السياسات المليية، ثم رأيت البر والإثم لا تكتنه^(٥) حقيقتهما إلا بأن يعرف قبلهما مباحث المجازاة والارتفاقات^(٦) والسعادة النوعية.

ثم رأيت هذه المباحث تتوقف على مسائل تسلم في هذا العلم، ولا يبحث عن لميتها^(٧)، فإما أن تصدق بها لاتفاق الملل عليها حتى

(١) فاه: تكلم.

(٢) ساجل سجالاً ومساجلة: باري وفاخر وعارض.

(٣) النظائر: الأمثال. جمع نظير.

(٤) الملة: الشريعة وكذلك الطريقة.

(٥) اكنته: بلغ الكنه وهو الجوهر والأصل والحقيقة.

(٦) أي طرق الانتفاعات.

(٧) أي حقيقتها.

صارت من المشهودات، أو لحسن الظن بالمعلم، أو لدلائل تذكر في علم أعلى من هذا العلم.

وأعرضت عن الإطالة في إثبات النفس وبقائها وتنعمها وتآلمها بعد مفارقة الجسد، لأنه مبحث مفروق منه في كتب القوم^(١)، وما ذكرت من هذه المباحث إلا ما رأيت الكتب التي وقعت إليّ خالية عن الكلام فيه أصلاً، أو عن التفريع والترتيب اللذين وفقت لاستخراجهما، ولا من المسلمات إلا ما رأيت القوم لم يتعرضوا له، ولا لإيراد الدلائل السمعية عليه كثير تعرض.

فلا جرم أني أذكر في هذا القسم مسائل يجب أن تصدق بها في هذا الفن من غير تعرض للميتها، ثم كيفية المجازاة في الحياة وبعد الممات، ثم الارتفاقات التي جبل عليها بنو آدم، ولم يحملها قط عربهم ولا عجمهم من جهة ما أوجبه عقولهم، ثم بيان سعادة الإنسان وشقاوته بحسب النوع وبحسب ما يظهر في الآخرة، ثم أصول البر والإثم التي توارد عليها أهل الملل، ثم ما يجب عند سياسة الأمة من ضرب الحدود والشرائع، ثم كيفية استنباط الشرائع من كلام النبي ﷺ وتلقيها عنه.

القسم الثاني: شرح أسرار الأحاديث:

والقسم الثاني في شرح أسرار الأحاديث من أبواب الإيمان، ثم من أبواب العلم، ثم من أبواب الطهارة، ثم من أبواب الصلاة، ثم من أبواب الزكاة، ثم من أبواب الصوم، ثم من أبواب الحج، ثم من أبواب الإحسان ثم من أبواب المعاملات، ثم من أبواب تدبير المنازل، ثم من أبواب سياسة المدن، ثم من آداب المعيشة، ثم من أبواب شتى. وهذا أوان الشروع في المقصود والحمد لله أولاً وآخراً.

(١) القوم: المقصود أهل العلم.

في القواعد الكلية التي تستنبط منها المصالح المرعية
في الأحكام الشرعية وهي سبعة مباحث في سبعين باباً

في أسباب التكليف والمجازاة

باب الإبداع والخلق والتدبير

اعلم أن الله تعالى بالنسبة إلى إيجاد العالم ثلاث صفات مترتبة:

أحدها: «الإبداع وهو: إيجاد شيء لا من شيء فيخرج الشيء من كتم
العدم بغير مادة: وسئل رسول الله ﷺ عن أول هذا الأمر؟ فقال: «كان الله
ولم يكن شيء قبله»^(١).

والثانية: الخلق وهو: إيجاد الشيء من شيء، كما خلق آدم من
التراب: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾^(٢).

وقد دل العقل والنقل على أن الله تعالى خلق العالم أنواعاً وأجناساً
وجعل لكل نوع وجنس خواص، فنوع الإنسان مثلاً خاصته النطق، وظهور

(١) هذه رواية الصحيحين وهي لا تدل على الحدوث الزماني للعالم لكن قد ثبت عند بعض
أصحاب السنة ولم يكن معه شيء وهذا يدل على الحدوث.

(٢) سورة الرحمن/ الآية ١٥ . - مارج من نار: اللهب الخالص من الدخان.

البشرة واستواء القامة، وفهم الخطاب، ونوع الفرس خاصته الصهيل، وكون بشرته شعراء، وقامته عوجاء، وألاً يفهم الخطاب، وخاصة السم إهلاك الإنسان الذي يتناوله، وخاصة الزنجبيل^(١) الحرارة واليبوسة، وخاصة الكافور^(٢) البرودة، وعلى هذا القياس جميع الأنواع من المعدن والنبات والحيوان.

الخواص لا تنفك عما جعلت له :

وجرت عادة الله تعالى ألا تنفك الخواص عما جعلت خواص لها، وأن تكون مشخصات الأفراد خصوصاً في تلك الخواص، وتعييناً لبعض احتمالاتها، فكذاك مميزات الأنواع خصوصاً في خواص أجناسها، وأن تكون معاني هذه الأسماء المترتبة في العموم والخصوص، كالجسم والنامي والحيوان والإنسان وهذا الشخص متمازجة متشابكة في الظاهر، ثم يدرك العقل الفرق بينها، ويضيف كل خاصة إلى ما هي خاصة له، وقد بين النبي ﷺ خواص كثير من الأشياء، وأضاف الآثار إليها كقوله ﷺ: «التليينة^(٣) مِجْمَةٌ لِفَوَادِ الْمَرِيضِ». وقوله في الحبة السوداء^(٤): «شفاء من كل داء إلا السام»^(٥) وقوله في أبوال الإبل وألبانها: «شفاء لِلذَّرْبَةِ بِطُونُهُمْ»^(٦) وقوله في الشُّبْرُمِ^(٧): «حار جار».

(١) الزنجبيل: نبات عشبي هندي الأضل له عقد حريفة الطعم.

(٢) الكافور: مادة عطرية تستخرج من شجر الكافور تستعمل في الطب.

(٣) التليينة: حساء يعمل من دقيق أو نخالة وربما جعل فيها عسل ويشبه اللبن في البياض والرقه، ومجمعة بضم الميم وكسر الجيم أي مريحة.

(٤) الحبة السوداء: يقال لها في لبنان حبة البركة تدخل في الأطعمة والحلوى.

(٥) أي الموت.

(٦) الذربة: صفة من الذرب بالحركة وهو داء للمعدة لا تهضم الطعام ولا تمسكه.

(٧) الشبرم: بضم الشين والراء حب يشبه الحمص يطبخ ويشرب ماؤه للتداوي. وحار من الحرارة وجار تابع له كحسن بسن.

تدبير عالم المواليد:

والثالثة: تدبير عالم المواليد، ومرجعه إلى تصيير حوادثها موافقة للنظام الذي ترتضيه حكمته مفضية إلى المصلحة التي اقتضاها جوده كما أنزل من السحاب مطراً، وأخرج به نبات الأرض ليأكل منه الناس والأنعام، فيكون سبباً لحياتهم إلى أجل معلوم. وكما أن إبراهيم صلوات الله عليه ألقى في النار فجعلها الله برداً وسلاماً؛ ليبقى حياً. وكما أن أيوب عليه السلام كان اجتمع في بدنه مادة المرض، فأنشأ الله تعالى عيناً فيها شفاء مرضه. وكما أن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم^(١) عربهم وعجمهم، فأوحى إلى نبيه ﷺ أن ينذرهم ويجاهدهم؛ ليخرج من شاء من الظلمات إلى النور.

القوة المودعة في المواليد:

وتفصيل ذلك أن القوى المودعة في المواليد التي لا تنفك عنها لما تزاومت وتصادمت أوجبت حكمة الله حدوث أطوار مختلفة، بعضها جواهر وبعضها أعراض؛ والأعراض إما أفعال أو إرادات من ذوات الأنفس أو غيرهما، وتلك الأطوار لا شر فيها بمعنى عدم صدور ما يقتضيه سببه أو صدور ضد ما يقتضيه، والشيء إذا اعتبر بسببه المقتضي لوجوده كان حسناً لا محالة كالقطع حسن من حيث إنه يقتضيه جوهر الحديد وإن كان قبيحاً من حيث فوت بنية إنسان، لكن فيها شر بمعنى حدوث شيء غيره أوفق بالمصلحة منه باعتبار الآثار أو عدم حدوث شيء آثاره محمودة.

حكمة الله أن يتصرف في تلك القوى بالقبض والبسط والإلهام:

وإذا تهيات أسباب هذا الشر اقتضت رحمة الله بعباده ولطفه بهم وعموم قدرته على الكل وشمول علمه بالكل أن يتصرف في تلك القوى والأمور

(١) مقت: أبغض.

الحاملة لها بالقبض والبسط والإحالة والإلهام، حتى تفضي تلك الجملة إلى الأمر المطلوب .

القبض:

أما القبض فمثاله ما ورد في الحديث: أن الدجال يريد أن يقتل العبد المؤمن في المرة الثانية، فلا يقدره الله تعالى عليه مع صحة داعية القتل وسلامة أدواته .

البسط:

وأما البسط فمثاله: أن الله تعالى أنبع عيناً لأيوب صلوات الله عليه بركضة الأرض وليس في العادة أن تفضي^(١) الركضة إلى نبوع الماء، وأقدر بعض^(٢) المخلصين من عباده في الجهاد على ما لا يتصوره العقل من مثل تلك الأبدان ولا من اضعافها .

الإحالة:

وأما الإحالة فمثالها: جعل النار هواء طيبة لإبراهيم عليه السلام .

الإلهام:

وأما الإلهام فمثاله: قصة خرق السفينة، وإقامة الجدار، وقتل الغلام^(٣)، وإنزال الكتب والشرائع على الأنبياء عليهم السلام . . والإلهام تارة يكون للمبتلى وتارة يكون لغيره لأجله والقرآن العظيم بين أنواع التدبير بما لا مزيد عليه .

(١) تفضي : تؤدي .

(٢) كما وقع لعلي رضي الله عنه في قلعة خيبر .

(٣) كما جرى للعبد الصالح الذي رافقه موسى عليه السلام .

باب ذكر عالم المثال

في الوجود عالم غير عنصري:

اعلم أنه دلت أحاديث كثيرة على أن في الوجود عالماً غير عنصري تتمثل فيه المعاني بأجسام مناسبة لها في الصفة، وتحقق هنالك الأشياء قبل وجودها في الأرض نحواً من التحقق، فإذا وجدت كانت هي هي بمعنى من معاني هو هو، وأن كثيراً من الأشياء مما لا جسم لها عند العامة تنتقل وتنزل ولا يراها جميع الناس.

النبي يتحدث عن شيء من هذا العالم:

قال النبي ﷺ: «لما خلق الله الرحم قامت فقالت هذا مقام العائذ^(١) بك من القطيعة».

وقال: «إن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان^(٢) أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أهلها».

وقال: «تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة ثم تجيء الصدقة، ثم يجيء الصيام» الحديث.

وقال: «إن المعروف والمنكر لخليقتان تنصبان للناس يوم القيامة، فأما المعروف فيبشر أهله، وأما المنكر فيقول: إليكم إليكم^(٣)، ولا يستطيعون له إلا لزوماً».

وقال: «إن الله تعالى يبعث الأيام يوم القيامة كهيئتها، ويبعث الجمعة زهراء منيرة^(٤)».

(١) عاذ: لجأ إلى - اعتصم.

(٢) الغيابة: كل ما أظل فوق الرأس كالسحابة، وفرقان بكسر الفاء وسكون الراء قطع من الغنم والمراد جماعتان.

(٣) إليكم إليكم: أي اذهبوا عني.

(٤) زهراء: مشرقة متلألئة.

الدنيا في صورة عجوز شمطاء:

وقال: «يُوتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء^(١) زرقاء أنيابها، مشوه خلقها»^(٢).

وقال: «هل ترون ما أرى؟ فأني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»^(٣).

وقال في حديث الإسراء: «فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات».

النبي يرى الجنة والنار:

وقال في حديث صلاة الكسوف: «صورت لي الجنة والنار» وفي لفظ «بيني^(٤) وبين جدار القبلة»، وفيه أنه بسط يده ليتناول عنقوداً من الجنة، وأنه تكعكع^(٥) من النار، ونفخ من حرها ورأى فيها سارق^(٦) الحجيج، والمرأة التي ربطت الهرة حتى ماتت، ورأى في الجنة امرأة مومسة^(٧) سقت الكلب، ومعلوم أن تلك المسافة لا تتسع للجنة والنار بأجسادهما المعلومة عند العامة.

وقال: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»^(٨) ثم أمر جبريل أن ينظر إليهما وقال: «ينزل البلاء فيعالجه»^(٩) الدعاء.

وقال: «خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل وقال له: أدبر فأدبر».

(١) الشمطاء: التي بياض شعرها مختلط بالسواد.

(٢) المشوه: القبيح الواسع الفم.

(٣) القطر: المطر.

(٤) متعلق بصورت.

(٥) أي تأخر.

(٦) أي الذي كان يسرق من الحجاج. والحجيج جمع حاج.

(٧) مومسة: زانية.

(٨) حفت: أحيطت.

(٩) يعالجه: يصارعه.

وقال: «هذان كتابان من رب العالمين» الحديث.

وقال: «يؤتى بالموت كأنه كبش، فيذبح بين الجنة والنار»، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (١).

النبى عليه السلام يتحدث عن القبر:

واستفاض (٢) في الحديث أن جبريل كان يظهر للنبي ﷺ ويتراءى له فيكلمه، ولا يراه سائر الناس، وأن القبر يفسح سبعين ذراعاً في سبعين أو يضم حتى تختلف أضلاع المقبور وأن الملائكة تنزل على المقبور، فتسأله وأن عمله يتمثل له، وأن الملائكة تنزل إلى المحتضر بأيديهم الحرير أو المسح، وأن الملائكة تضرب المقبور بمطرقة من حديد، فيصبح صيحة يسمعا ما بين المشرق والمغرب، وقال النبي ﷺ: «ليسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تيناً» (٣) تنهسه، وتلدغه حتى تقوم الساعة». وقال: «إذا أدخل الميت القبر مثلت له الشمس عند غروبها، فيجلس يمسح عينيه، ويقول: «دعوني أصلي».

واستفاض في الحديث: أن الله تعالى يتجلى (٤) بصور كثيرة لأهل الموقف، وأن النبي ﷺ يدخل على ربه وهو على كرسية وأن الله تعالى يكلم ابن آدم شفاهاً (٥) إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة.

المؤمن أمام هذه الأحاديث:

والناظر في هذه الأحاديث بين إحدى ثلاث: إما أن يقر بظواهرها

(١) سورة مريم / الآية ١٧ - بشراً سويّاً: بشراً تام الخلق.

(٢) استفاض: انتشر.

(٣) هو نوع من الحيات كثير السم كبير الجنة. والنهس - بالسين المهملة وبالشين المعجمة أيضاً - اللدغ.

(٤) يتجلى: يظهر.

(٥) شفاهاً: أي مباشرة دون واسطة.

فيضطر إلى إثبات عالم ذكرنا شأنه . وهذه هي التي تقتضيها قاعدة أهل الحديث نبه على ذلك السيوطي رحمه الله تعالى ، وبها أقول ، وإليها أذهب .

هذه الوقائع تتراءى لحس الرائي :

أو يقول : إن هذه الوقائع تتراءى لحس الرائي ، وتمثل له في بصره ، وإن لم تكن خارج حسه ، وقال بنظير ذلك عبد الله بن مسعود^(١) في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾^(٢) .

إنهم أصابهم جذب^(٣) فكان أحدهم ينظر إلى السماء ، فيرى كهيئة الدخان من الجوع .

ويذكر عن ابن الماجشون^(٤) أن كل حديث جاء في التنقل والرؤية في المحشر ، فمعناه أنه يغير أبصار خلقه ، فيرونه نازلاً متجلياً ويناجي خلقه ، ويخاطبهم وهو غير متغير عن عظمته ولا منتقل ليعلموا أن الله على كل شيء قدير .

هذه الوقائع تمثيل لتفهم معانٍ أخرى :

أو يجعلها تمثيلاً لتفهم معانٍ أخرى ، ولست أرى المقتصر على الثالثة من أهل الحق .

وقد صور الإمام الغزالي في عذاب القبر تلك المقامات الثلاث حيث قال : أمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ، ولكنها عند أرباب البصائر^(٥) واضحة ، فمن لم ينكشف له حقائقها ، فلا ينبغي أن ينكر

(١) عبد الله بن مسعود : صحابي مشهور من حفاظ القرآن الكريم وكتاب الوحي .

(٢) سورة الدخان / الآية ١٠ .

(٣) جذب : قحط .

(٤) هو في الأصل معرب ماء كون ، وهو علم لأحد أئمة المالكية .

(٥) البصائر : جمع بصيرة وهي رؤية القلب أما البصر فرؤية العين .

ظواهرها، بل أقل درجات الإيمان التسليم والتصديق (فإن قلت) فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة، ونراقبه، ولا نشاهد شيئاً من ذلك، فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة؟

مقامات التصديق بأمثال هذه الوقائع :

(فاعلم) أن لك ثلاث مقامات^(١) في التصديق بأمثال هذا :

أحدها وهو الأظهر والأصلح والأسلم : أن تصدق بأنها موجودة، وهي تلدغ الميت، ولكنك لا تشاهد ذلك فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت^(٢). أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل عليه السلام، وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك وإن كنت آمنت به، وجوزت أن يشاهد النبي ﷺ ما لا تشاهده الأمة، فكيف لا تجوز هذا في الميت، وكما أن الملك لا يشبه الأدميين والحيوانات، فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمتنا، بل هي جنس آخر، وتدرك بحاسة أخرى.

وجود هذه الوقائع عند من يعانيها فقط :

المقام الثاني : أن تتذكر أمر النائم، وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه، وهو يتألم بذلك حتى تراه ربما يصيح ويعرق جبينه، وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده، وأنت ترى ظاهره ساكناً ولا ترى حوالبه حية ولا عقرباً، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد، وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخلل أو تشاهد.

(١) مقامات : درجات مراتب.

(٢) عالم الملكوت : عالم الملائكة.

أسباب هذه الوقائع غير مألوفة وآثارها ثابتة :

المقام الثالث : إنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها هو ألم السم ، ثم السم ليس هو الألم ، بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم ، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر^(١) وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة ، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع^(٢) مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسبب ، وتكون ثمرة^(٣) السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب ، والسبب يراد لثمرته لا لذاته ، وهذه الصفات المهلكات تنقلب مهلكات مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت ، فيكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجودها . انتهى^(٤) .

باب ذكر الملائكة الأعلى

القرآن الكريم يتحدث عن أحوال الملائكة :

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥﴾ .

(١) توفر : وجد .

(٢) الوقاع : الجماع .

(٣) الثمرة : النتيجة .

(٤) أي الغزالي .

(٥) سورة غافر/ الآيات ٧ - ٩ . وسعت كل شيء رحمة : أي وسعت رحمتك وعلمك كل

شيء - وقهم : احفظهم ونجهم .

الرسول عليه السلام يتحدث عن أحوال الملائكة :

وقال رسول الله ﷺ : « إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً (١) لقوله ، كأنه صلصلة (٢) على صفوان (٣) فإذا فزع (٤) عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير . »

وفي رواية : « إذا قضى أمراً سبج حملة العرش ، ثم يسبح أهل السماء الذين يلونهم (٥) ، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ، ثم قال : الذين يلون حملة العرش ، لحملة العرش ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال ، فيستخبر بعض أهل السموات بعضاً حتى يبلغ الخبر أهل هذه السماء . »

وقال رسول الله ﷺ : « إني قمت من الليل ، فتوضأت ، وصليت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استثقلت ، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال : يا محمد قلت : لبيك رب . قال : فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا أدري . قالها ثلاثاً . قال فرأيتُه وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله من ثديي ، فتجلى (٦) لي كل شيء وعرفت . فقال : يا محمد قلت : لبيك رب . قال : فيم يختصم الملائكة الأعلى (٧) ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما هن ؟ قلت : مشي الأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد

(١) خضعان : مصدر كالغفران أو الحرمان ويجوز كونها جمعاً لخاضع فعلى المصدر مفعول

مطلق من ضربت لما فيه من الخضوع وعلى الجمع حال والمعنى أرخت أجنحتها مرتدة .

(٢) صلصلة بفتح الصادين المهملتين الصوت المتدارك الذي يسمع ولا يشبث أول ما يقرع السمع حتى يفهم بعد .

(٣) الصفوان : الحجر الأملس .

(٤) فزع : كشف الفزع .

(٥) يلونهم : ولي ، تبعه من غير فضل جاء بعده .

(٦) تجلى : ظهر .

(٧) الملائكة الأعلى : الملائكة .

بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء^(١) حين الكريهات^(٢). قال: ثم فيم؟ قال: قلت: في الدرجات. قال: وما هن؟ قلت: إطعام الطعام ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام».

جبريل ينادي في السماء بأمر من الله:

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبرائيل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبرائيل. ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبرائيل فيقول إني أبغض فلاناً فأبغضه قال: فيبغضه جبرائيل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال: فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض».

الملائكة يصلون على المؤمن في مجلس صلواته:

وقال رسول الله ﷺ: «الملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه. ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً^(٤) ويقول: الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(٥).

(١) إسباغ الوضوء: أي إتمامه.

(٢) حين الكريهات: أي عندما يكون الوضوء صعباً قاسياً لبرد ومرض ونحوه.

(٣) يحدث: يفعل ما يوجب الوضوء.

(٤) خلفاً: بفتح الخاء المعجمة واللام أي عوضاً عاجلاً ملاً أو دفع سوء أو أجلاً ثواباً والإنفاق المقصود هو الإنفاق الحلال وفي سبيل الخير.

(٥) الممسك: البخيل دون حق.

الملائكة يدعون لمن أصلح نفسه وسعى في إصلاح الناس :

اعلم أنه قد استفاض من الشرع : أن لله تعالى عبداً هم أفاضل الملائكة ومقربو الحضرة لا يزالون يدعون لمن أصلح نفسه، وهذبها، وسعى في إصلاح الناس فيكون دعاؤهم ذلك سبب نزول البركات عليهم، ويلعنون من عصى الله، وسعى في الفساد، فيكون لعنهم سبباً لوجود حسرة وندامة في نفس العامل، وإلهامات في صدور الملائكة السافل^(١) أن يبغضوا هذا المسيء، وسيئوا إليه، إما في الدنيا، أو حين يتخفف عنه جلباب بدنه بالموت الطبيعي، وأنهم يكونون سفراء بين الله وبين عباده، وأنهم يلهمون في قلوب بني آدم خيراً أي يكونون أسباباً لحدوث خواطر الخير فيهم بوجه من وجوه السببية، وأن لهم اجتماعات كيف شاء الله وحيث شاء الله يعبر عنهم باعتبار ذلك بالرفيق الأعلى، والندى^(٢) الأعلى، والملائكة الأعلى^(٣)، وأن الأرواح أفاضل الأدميين دخولاً فيهم ولحوقاً بهم كما قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(٤).

صحابي يطير مع الملائكة في الجنة :

وقال رسول الله ﷺ : «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكاً يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين».

من الملائكة ينزل القضاء :

وأن هنالك ينزل القضاء، ويتعين الأمر المشار إليه بقوله تعالى :

(١) الملائكة السافل : أهل الدنيا . (٢) الندى : المجلس .

(٣) أي أفاضل الملائكة .

(٤) سورة الفجر/ الآيات ٢٧ - ٣٠ . المطمئنة : الأمانة وهي النفس المؤمنة - ارجعي إلى ربك : يقال ذلك عند الموت - راضية مرضية : راضية بالثواب الذي أعده الله لك وراضية عند ربك بعملك - فادخلي في عبادي : فادخلي في جملة عبادي الصالحين .

﴿فِيهَا﴾^(١) يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٢﴾. وأن هنالك يتقرر الشرائع بوجه من الوجوه.

الملا الأعلى ثلاثة أقسام:

واعلم أن الملا الأعلى ثلاثة أقسام: قسم علم الحق أن نظام الخير يتوقف عليهم، فخلق أجساماً نورية بمنزلة نار موسى، فنفخ فيها نفوساً كريمة.

وقسم اتفق حدوث مزاج في البخارات اللطيفة من العناصر استوجب فيضان نفوس شاهقة شديدة الرفض^(٣) للألوات البهيمية.

وقسم هم نفوس إنسانية قريبة المأخذ من الملا الأعلى ما زالت تعمل أعمالاً منجية تفيد اللحوق بهم حتى طرحت عنهم جلايب^(٤) أبدانها، فانسلكت في سلكهم وعدت منهم، والملا الأعلى شأنها أنها تتوجه إلى بارئها توجهاً ممعناً لا يصددها عن ذلك التفات إلى شيء وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾^(٥).

وتتلقى من ربها استحسان النظام الصالح واستهجان^(٦) خلافه، فيقرع ذلك باباً من أبواب الجود الإلهي وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٧).

(١) أي في ليلة القدر.

(٢) سورة الدخان/ الآية ٤. يفرق: يفصل - كل أمر حكيم: محكم من الأرزاق والأجال وغيرهما.

(٤) جلايب: جمع جلاب وهو الثوب.

(٦) استهجان: استقباح.

(٣) أي الترك.

(٥) سورة غافر/ الآية ٧.

(٧) سورة غافر/ الآية ٧.

اجتماع أفاضل الملائكة الأعلى :

وأفاضلهم تجتمع أنوارهم ، وتتداخل فيما بينها عند الروح الذي وصفه النبي ﷺ بكثرة الوجوه والألسنة ، فتصير هنالك كشيء واحد وتسمى حظيرة القدس ، وربما حصل في حظيرة القدس إجماع على إقامة حيلة لنجاة بني آدم من الدواهي المعاشية والمعادية^(١) بتكميل أزكى خلق الله يومئذ وتمشية أمره في الناس ، فيوجب ذلك^(٢) إلهامات في قلوب المستعدين من الناس أن يتبعوه ، ويكونوا خير أمة أخرجت للناس ، ويوجب تمثيل علوم فيها صلاح القوم وهداهم في قلبه وحيأ ورؤيا وهتفاً ، وأن تتراءى^(٣) له^(٤) فتكلمه شفاهاً ، ويوجب نصر أحبائه وتقريبهم من كل خير ولعن من صد عن سبيل الله وتقريبهم من كل ألم ، وهذا أصل من أصول النبوة ، ويسمى إجماعهم المستمر بتأييد روح القدس ، ويشمر هنالك بركات لم تعهد في العادة فتسمى بالمعجزات .

عالم دون الملائكة الأعلى تفيض عليه الملائكة :

ودون هؤلاء نفوس^(٥) استوجب فيضانها حدوث مزاج معتدل في بخارات لطيفة لم تبلغ بهم السعادة مبلغ الأولين^(٦) ، فصار كمالهم أن تكون فارغة لانتظار ما يترشح من فوقها ، فإذا ترشح شيء بحسب استعداد القابل وتأثير الفاعل انبعثوا إلى تلك الأمور كما تنبعث الطيور والبهائم بالدواعي الطبيعية ، وهم في ذلك فانون عما يرجع إلى أنفسهم ، باقون بما ألهموا من فوقهم فيؤثرون في قلوب البشر والبهائم ، فتقلب إرادتها وأحاديث نفوسها إلى

(١) الدواهي : المصائب جمع داهية - المعاشية والمعادية - في الدنيا والآخرة .

(٢) أي الاجتماع بالتكميل .

(٣) تتراءى : تظهر أهل حظيرة القدس .

(٤) هم الملائكة السافل .

(٥) أي للمزكي .

(٦) هم الملائكة الأعلى .

ما يناسب الأمر المراد، ويؤثرون^(١) في بعض الأشياء الطبيعية في تضاعيف^(٢) حركاتها وتحولاتها، كما يدحرج حجر، فأثر فيه ملك كريم عند ذلك، فمشى في الأرض أكثر مما يتصور في العادة، وربما ألقى الصياد شبكة في النهر، فجاءت أفواج من الملائكة تلهم في قلب هذه السمكة أن تقتحم، وهذه أن تهرب وتقبض حبلاً، وتبسط أخرى، وهي لا تعلم لم تفعل ذلك، ولكن تتبع ما ألهمت.

من أعمال الملائكة:

وربما تقاتلت فتتان، فجاءت الملائكة تزين في قلوب هذه الشجاعة والثبات بأحاديث وخیالات يقتضيها المقام، وتلهم حيل الغلبة، وتؤيد في الرمي وأشباهه، وفي قلوب تلك أضداد هذه الخصال ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وربما كان المترشح إيلام نفس إنسانية أو تنعيمها، فسعت الملائكة كل سعي، وذهبت كل مذهب ممكن، وبإزاء أولئك آخرون أولو خفة وطيش وأفكار مضادة للخير أوجب حدوثهم تعفن بخارات ظلمانية^(٣) هم الشياطين لا يزالون يسعون في أضداد ما سعت الملائكة فيه والله أعلم.

باب ذكر سنة الله التي أشير إليها في قوله تعالى:

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٤)

بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم:
اعلم أن بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم بوجه

(٢) تضاعيف: طيات داخل.

(٤) سورة الأحزاب / الآية ٦٢.

(١) يؤثرون: يفضلون.

(٣) ظلمانية: نسبة إلى الظلمة.

من وجوه الترتب، شهد بذلك النقل والعقل^(١) قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة^(٢) قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبث والطيب» وسأله عبد الله بن سلام ما ينزع الولد^(٣) إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال: «إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد^(٤) وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت».

سبب التكليف:

ولا أرى أحداً يشك في أن الإمامة تستند إلى الضرب بالسيف أو أكل السم، وأن خلق الولد في الرحم يكون عقيب صب المنى، وأن خلق الحبوب والأشجار يكون عقيب البذر والغرس والسقي، ولأجل هذه الاستطاعة جاء التكليف، وأمروا، ونهوا، وجوزوا بما عملوا. فتلك القوى^(٥) منها خواص العناصر وطبائعها.

أحكام أخرى أودعها الله:

ومنها الأحكام التي أودعها الله في كل صورة نوعية.

ومنها أحوال عالم المثال والوجود المقضي به هنالك قبل الوجود الأرضي.

ومنها أدعية الملائكة الأعلى بجهد همهم لمن هذب نفسه، أو سعى في إصلاح الناس وعلى من خالف ذلك.

(١) النقل: ما جاء في قرآن كريم أو سنة راشدة والعقل ما أدى إليه الاجتهاد والتفكير.

(٢) قبضة: بفتح القاف وضمها ملء الكف.

(٣) ينزع الولد إلى أبيه: أي يشبهه ويجذبه إليه.

(٤) نزع الولد: أي جذبه وأظهر مشابته فيه. (٥) أي المترتبة عليها أفعال الله.

ومنها الشرائع المكتوبة على بني آدم وتحقق الإيجاب والتحرير فإنها سبب ثواب المطيع وعقاب العاصي .

ومنها أن يقضي الله تعالى بشيء، فيجر ذلك الشيء شيئاً آخر لأنه لازمه في سنة الله، وخرم نظام اللزوم غير مرضي، والأصل فيه قوله ﷺ: «إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة» فكل ذلك نطقت به الأخبار، وأوجبته ضرورة العقل .

إذا تعارضت الأسباب :

واعلم أنه إذا تعارضت الأسباب التي يترتب عليها القضاء بحسب جري العادة، ولم يمكن وجود مقتضياتها أجمع - كانت الحكمة حينئذ مراعاة أقرب الأشياء إلى الخير المطلق وهذا هو المعبر عنه بالميزان في قوله ﷺ: «بيده الميزان يرفع القسط ويخفضه»^(١) وبالشأن في قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(٢) .

الترجيح يكون لقوة الأسباب :

ثم الترجيح يكون تارة بحال الأسباب أيها أقوى، وتارة بحال الآثار المترتبة أيها أنفع، ويتقديم باب الخلق على باب التدبير ونحو ذلك من الوجوه، فنحن وإن قصر علمنا عن إحاطة الأسباب ومعرفة الأحق عند تعارضها نعلم قطعاً أنه لا يوجد شيء إلا وهو أحق بأن يوجد، ومن أيقن بما ذكرنا استراح عن إشكالات كثيرة .

(١) أي يرفع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه وأرزاقهم النازلة من عنده ويخفضه وهو تمثيل لما يقدره الله وينزله، وقيل أراد برفع الميزان تكثير الرزق ويخفضه تقليله .

(٢) سورة الرحمن / الآية ٢٩ - كل يوم : كل وقت . . هو في شأن : هو في أمر يظهره على وفق ما قدره في الأزل من إحياء وإماتة وإعزاز وإذلال . . .

تأثير الكواكب:

أما هيئات الكواكب فمن تأثيرها ما يكون ضرورياً كاختلاف الصيف والشتاء وطول النهار وقصره باختلاف أحوال الشمس، و باختلاف الجزر والمد باختلاف أحوال القمر، وجاء في الحديث: «إذا طلع النجم^(١) ارتفعت العاهة» يعني بحسب جري العادة لكن كون الفقر والغنى والجذب والخصب وسائر حوادث البشر بسبب حركات الكواكب فمما لم يثبت في الشرع، وقد نهى النبي ﷺ عن الخوض في ذلك فقال: «من اقتبس^(٢) شعبة من النجوم اقتبس شعبة من السحر» وشدد في قول: مطرنا بنوء كذا^(٣) ولا أقول نصت الشريعة على أن الله تعالى لم يجعل في النجوم خواص تتولد منها الحوادث بواسطة تغير الهواء المكتنف^(٤) بالناس ونحو ذلك.

النهي عن الكهانة:

وأنت خير بأن النبي ﷺ نهى عن الكهانة، وهي الإخبار عن الجن، وبيريء عمّن أتى كاهناً وصدّقه، ثم لما سئل عن حال الكهان أخبر أن الملائكة تنزل في العنان^(٥) فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة وأن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾^(٦).

وقال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة عمله»، وقال: «إنما

(١) النجم: أي الثريا والعاهة الأفة. (٢) اقتبس: أي حصل شعبة أي فرعاً.

(٣) نوء: بفتح النون وسكون الواو وهمزة بمعنى الغروب والطلوع والعرب كانت تزعم أن الكوكب إذا غاب أو طلع يكون المطر فنهى رسول الله ﷺ عنه.

(٤) المكتنف: المحيط. (٥) العنان: الجو.

(٦) سورة آل عمران/ الآية ١٥٦ - ضربوا في الأرض: سافروا في الأرض فماتوا - أو كانوا غزى: جمع غاز.

أنت رفيق^(١) والطبيب الله» وبالجملة فالنهي يدور على مصالح كثيرة والله أعلم.

باب حقيقة الروح

ما سكت عنه الشرع يمكن معرفته :

قال الله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

وقرأ الأعمش عن رواية ابن مسعود : «وما أوتوا من العلم إلا قليلاً» ويُعلم من هنالك أن الخطاب لليهود السائلين عن الروح، وليست الآية نصاً في أنه لا يعلم أحد من الأمة المرحومة حقيقة الروح كما يظن، وليس كل ما سكت عنه الشرع لا يمكن معرفته البتة، بل كثيراً ما يسكت عنه لأجل أنه معرفة دقيقة لا يصلح لتعاطيها جمهور الأمة وإن أمكن لبعضهم.

ما يُدرك من الروح :

واعلم أن الروح أول ما يدرك من حقيقتها أنها مبدأ الحياة في الحيوان وأنه يكون حياً بنفخ الروح فيه، ويكون ميتاً بمفارقتها منه، ثم إذا أمعن في التأمل ينجلي أن في البدن بخاراً لطيفاً متولداً في القلب من خلاصة الأخلاط يحمل القوى الحساسة والمحركة والمدبرة للغذاء يجري فيه حكم الطب.

وتكشف التجربة أن لكل من أحوال هذا البخار من رفته وغلظه وصفائه وكدرته أثراً خاصاً في القوى والأفاعيل المنبجسة من تلك القوى^(٣) وأن الآفة

(١) رفيق : أي ترفق بالمريض وتتلطف به والله يبريه ويعافيه .

(٢) سورة الإسراء/ الآية : ٨٥ . يسألونك : أي اليهود عن الروح : أي الروح الذي يحيا به البدن - من أمر ربي : أي هو علم لا تعلمونه - إلا قليلاً : أي قليلاً بالنسبة لعلم الله تعالى .

(٣) أي المتفرعة منها .

الطارئة على كل عضو وعلى توليد البخار المناسب له تفسد هذا البخار، وتشوش أفاعيله ويستلزم تكونه الحياة، وتحلله الموت فهو الروح في أول النظر، والطبقة السفلى من الروح في النظر الممغن.

الروح في البدن:

ومثله في البدن كمثل ماء الورد وكمثل النار في الفحم، ثم إذا أمعن في النظر أيضاً انجلي أن هذا الروح مطية للروح الحقيقية ومادة لتعلقها، وذلك أنا نرى الطفل يشب، ويشيب، وتتبدل أخلاط بدنه والروح المتولدة من تلك الأخلاط أكثر من ألف مرة، ويصغر تارة، ويكبر أخرى، ويسود تارة ويبيض أخرى، ويكون جاهلاً مرة وعالماً أخرى إلى غير ذلك من الأوصاف المتبدلة والشخص هو هو، وإن نوقش في بعض ذلك فلنا أن نفرض تلك التغيرات والطفل هو هو، أو نقول لا نجزم ببقاء تلك الأوصاف بحالها، ونجزم ببقائه فهو غيرها^(١).

الروح في الحقيقة:

فالشيء الذي هو به هو ليس هذا الروح، ولا هذا البدن، ولا هذه الشخصيات التي تعرف، وترى ببادئ الرأي، بل الروح في الحقيقة حقيقة فردانية ونقطة نورانية يجلب طورها عن طور هذه الأطوار المتغيرة المتغيرة التي بعضها جواهر وبعضها أعراض وهي مع الصغير كما هي مع الكبير ومع الأسود كما هي مع الأبيض إلى غير ذلك من المتقابلات ولها تعلق خاص بالروح الهوائي أولاً وبالبدن ثانياً من حيث إن البدن مطية النسمة^(٢) وهي كوة^(٣) من عالم القدس ينزل منها على النسمة كل ما استعدت له.

(١) لأن غير المعلوم فيه المعلوم.

(٢) النسمة: محرقة نفس الروح أي الروح الهوائي.

(٣) كوة: ثقب.

الموت انفكاك النسمة لا انفكاك الروح :

فالأمر المتغيرة إنما جاء تغيرها من قبل الاستعدادات الأرضية بمنزلة
حر الشمس يبيض الثوب ويسود القصار^(١) وقد تحقق عندنا بالوجدان
الصحيح أن الموت انفكاك النسمة عن البدن، لفقد استعداد البدن لتوليدها
لا انفكاك الروح القدسي عن النسمة.

وإذا تحللت النسمة في الأمراض المدنفة وجب في حكمة الله أن يبقى
الشيء من النسمة بقدر ما يصح ارتباط الروح الإلهي بها، كما أنك إذا
مصصت الهواء من القارورة تخلخل الهواء حتى تبلغ إلى حد لا تخلخل
بعده، فلا تستطيع المص، أو تنفقي^(٢) القارورة، وما ذلك إلا لسر ناشيء
من طبيعة الهواء، فكذلك سر في النسمة وحد لها لا يجاوزهما الأمر.

إذا مات الإنسان كان للنسمة نشأة أخرى :

وإذا مات الإنسان كان للنسمة نشأة أخرى فينشئ فيض الروح الإلهي
فيها قوة فيما بقي من الحس المشترك تكفي كفاية السمع والبصر والكلام
بمدد من عالم المثال أعني القوة المتوسطة بين المجرد والمحسوس المنبئة^(٣)
في الأفلاك كشيء واحد، وربما تستعد النسمة حينئذ للباس نوراني
أو ظلماني^(٤) بمدد من عالم المثال، ومن هنالك تتولد عجائب عالم
البرزخ^(٥).

إذا نفخ في الصور اكتست الأرواح أجساماً :

ثم إذا نفخ في الصور أي جاء فيض عام من باريء الصور بمنزلة

(١) أي الفاعل للصنعة.

(٢) تنفقيء : تنكسر.

(٣) المنبئة : المنتشرة.

(٤) نوراني أو ظلماني : نسبة إلى النور والظلمة.

(٥) عالم البرزخ : العالم الذي بين الدنيا والآخرة.

الفيض الذي كان منه في بدء الخلق حين نفخت الأرواح في الأجساد، وأسس عالم المواليد أوجب فيض الروح الإلهي أن يكتسي لباساً جسمانياً أو لباساً بين المثال والجسم فيتحقق جميع ما أخبر به الصادق المصدوق عليه أفضل الصلوات وأيمن التحيات .

النسمة برزخ متوسط :

ولما كانت النسمة برزخاً متوسطاً بين الروح الإلهي والبدن الأرضي وجب أن يكون لها وجه إلى هذا، ووجه إلى ذلك، والوجه المائل إلى القدس هو الملكية، والوجه المائل إلى الأرض هو البهيمية، ولنقتصر من حقيقة الروح على هذه المقدمات لتسلم في هذا العلم، وتفرع عليها التفاريع قبل أن ينكشف الحجاب في علم أعلى من هذا العلم والله أعلم .

باب سر التكليف

الإنسان مكلف :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١) .

ما هي الأمانة التي لم تحملها السماوات والأرض :

نبه الغزالي والبيضاوي وغيرهما على أن المراد بالأمانة تقلد عهدة

(١) سورة الأحزاب / الآيتان ٧٢ و ٧٣ . الأمانة : قيل التكليف وقيل العقل وقيل الصلاة .
أشفقن : خفن - ظلوماً : أي ظلوماً لنفسه - ليعذب الله المنافقين والمنافقات و . . : أي
المضيعين للأمانة - ويتوب الله على المؤمنين : أي المؤدين للأمانة .

التكليف بأن تتعرض^(١) لخطر الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية، وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن، وبإبائهن الإباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد، ويحمل الإنسان قابليته واستعداده لها.

الإنسان يليق بالتكليف:

أقول وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ خرج مخرج التعليل؛ فإن الظلوم من لا يكون عادلاً، ومن شأنه أن يعدل، والجهول من لا يكون عالماً، ومن شأنه أن يعلم، وغير الأدمي إما عالم عادل لا يتطرق إليه الظلم والجهل كالملائكة، وإما ليس بعادل ولا عالم ولا من شأنه أن يكسبها كالبهائم، وإنما يليق بالتكليف، ويستعد له من كان له كمال بالقوة لا بالفعل، واللام في قوله تعالى ليعذب لام العقابة^(٢) كأنه قال عاقبة حمل الأمانة التعذيب والتنعيم.

الملائكة فانية عن مراد نفسها إلى مراد من فوقها:

وإن شئت أن تستجلي^(٣) حقيقة الحال فعليك أن تتصور حال الملائكة في تجردها لا يزعجها حالة ناشئة من تفريط القوة البهيمية كالجوع والعطش والخوف والحزن، أو إفراطها كالشبق والغضب والتهيه^(٤) ولا يهملها التغذية والتنمية ولو أحقهما، وإنما تبقى فارغة لانتظار ما يرد عليها من فوقها، فإذا

(١) أي السموات والأرض وغيرها.

(٢) إنما حمل اللام على العقابة لأنه إن تعلق بقوله عرضنا فأفعال الله تعالى غير معللة بالأغراض وإن تعلق بقوله فحملها الإنسان فلا يصح كون تعذيب الله وتنعيمه غرضاً للإنسان في حمل الأمانة لأن الغرض ما يكون باعثاً للفاعل على الفعل الاختياري والحمل هنا المراد منه القابلية والاستعداد وهو ليس باختياري فتعين جعل اللام للعاقبة كما في قوله: (ليكون لهم عدواً وحزناً).

(٣) أي تعلم وتكشف.

(٤) الشبق: الرغبة الشديدة في الجنس - والتهيه: العجب.

ترشح عليها أمر من فوقها من إجماع على إقامة نظام مطلوب أو رضا من شيء أو بغض شيء امتلأت به، وانقادت له، وانبعثت إلى مقتضاه وهي (١) في ذلك فانية عن مراد نفسها باقية بمراد ما فوقها.

البهائم مشغوفة بمقتضيات الطبيعة البهيمية :

ثم تتصور حال البهائم في تلطخها بالهيات الخسيسة لا تزال مشغوفة بمقتضيات الطبيعة فانية فيها لا تنبعث إلى شيء إلا انبعاثاً بهيمياً يرجع إلى نفع جسدي واندفاع إلى ما تعطيه الطبيعة فقط.

أودع الله في الإنسان قوتين تتجاذبان :

ثم تعلم أن الله تعالى قد أودع الإنسان بحكمته الباهرة قوتين : قوة ملكية تشعب (٢) من فيض الروح المخصوصة بالإنسان على الروح الطبيعية السارية في البدن وقبولها ذلك الفيض وانقهارها له، وقوة بهيمية تشعب من النفس الحيوانية المشترك فيها كل حيوان المتشعبة بالقوى القائمة بالروح الطبيعية واستقلالها بنفسها وإذعان الروح الإنسانية لها وقبولها الحكم منها.

ثم تعلم أن بين القوتين تراحماً وتجادباً، فهذه تجذب إلى العلو دون تلك إلى السفلى وإذا برزت البهيمية، وغلبت آثارها كمنت الملكية، وكذلك العكس، وأن للباري جل شأنه عناية بكل نظام، وجوداً بكل ما يسأله الاستعداد الأصلي والكسبي (٣)، فإن كسب هيات بهيمية أمد فيها، ويسر له ما يناسبها، وإن كسب هيات ملكية أمد فيها، ويسر له ما يناسبها كما قال الله عز وجل : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (٤). وقال : ﴿كُلًّا نُمِدُّ

(١) أي الملائكة.

(٢) تشعب : تفرق.

(٣) الكسبي : عكس الأصلي وهو يحصل عليه الإنسان بجهد وعمله .

(٤) سورة الليل / الآيات ٥ - ١٠ من أعطى : حق الله - صدق بالحسنى : صدق بالإسلام - اليسرى : الجنة - بخل : بخل بحق الله - واستغنى : عن ثوابه - العسرى : النار.

هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١﴾ .

لكل قوة لذة وألم :

وأن لكل قوة لذة وألم، فاللذة إدراك ما يلائمها، والألم إدراك ما يخالفها وما أشبه حال الإنسان بحال من استعمل مخدراً في بدنه، فلم يجد ألم لفح النار حتى إذا ضعف أثره، ورجع إلى ما تعطيه الطبيعة وجد الألم أشد ما يكون أو بحال الورد على ما ذكره الأطباء أن فيه ثلاث قوى: قوة أرضية تظهر عند السحق والطلاء، وقوة مائية تظهر عند العصر والشرب، وقوة هوائية تظهر عند الشم.

التكليف من مقتضيات النوع :

فتبين أن التكليف من مقتضيات النوع، وأن الإنسان يسأل ربه بلسان استعداده أن يوجب عليه ما يناسب القوة الملكية، ثم يثيب على ذلك، وأن يحرم عليه الانهماك في البهيمية، ويعاقب على ذلك والله أعلم.

باب انشقاق التكليف من التقدير

أنظر إلى آيات الله في الأشجار :

اعلم أن الله تعالى آيات في خلقه يهتدي الناظر فيها إلى أن الله له الحجة البالغة في تكليفه لعباده بالشرائع، فانظر إلى الأشجار وأوراقها وأزهارها وثمراتها، وما في كل ذلك من الكيفيات المبصرة والمذوقة وغيرها، فإنه جعل لكل نوع أوراقاً بشكل خاص، وأزهاراً بلون خاص، وثماراً مختصة بطعوم، وبتلك الأمور يعرف أن هذا الفرد من نوع كذا وكذا، وهذه كلها تابعة للصورة النوعية ملتوية معها إنما تجيء من حيث جاءت الصورة النوعية،

(١) سورة الإسراء/ الآية: ٢٠. نمد: نعطي - عطاء ربك: أي عطاؤه في الدنيا - محظوراً: ممنوعاً عن أحد.

وقضاء الله تعالى بأن تكون هذه المادة نخلة مثلاً مشتبك مع قضائه التفصيلي بأن تكون ثمرتها كذا وخواصها كذا.

ومن خواص النوع ما يدركه كل من له بال، ومن خواصه ما لا يدركه إلا الألمي الفطن كتأثير الياقوت في نفس حامله بالتفريح والتشجيع، ومن خواصه ما يعم كل الأفراد، ومن خواصه ما لا يوجد إلا في بعضها حيث تستعد المادة، كالأهليلج الذي سهل بطن من قبض عليه بيده، وليس لك أن تقول لِمَ كانت ثمرة النخل على هذه الصفة؟ فإنه سؤال باطل لأن وجود لوازم الماهيات معها لا يطلب (يلم).
أنظر إلى آيات الله في الحيوان:

ثم انظر إلى أصناف الحيوان تجد لكل نوع شكلاً وخلقة، كما تجد في الأشجار، وتجد مع ذلك لها حركات اختيارية، وإلهامات طبيعية، وتدابير جبلية يمتاز كل نوع بها، فبهيمة الأنعام ترعى الحشيش، وتجتز (١)، والفرس والحمار والبغل ترعى الحشيش، ولا تجتز، والسباع تأكل اللحم، والطيور يطير في الهواء، والسماك يسبح في الماء، ولكل نوع من الحيوان صوت غير صوت الآخر، ومسافدة (٢) غير مسافدة الآخر، وحضانة للأولاد غير حضانة الآخر، وشرح هذا يطول، وما ألهم نوعاً من الأنواع إلا علوماً تناسب مزاجه، وإلا ما يصلح به ذلك النوع.

وكل هذه الإلهامات تترشح عليه من جانب بارئها من كوة (٣) الصورة النوعية، ومثلها كمثل تخاطيط (٤) الأزهار، وطعوم الثمرات في تشابكها مع الصورة النوعية.

(١) من الجرة بالكسر . وهو تجشؤ الطعام من المعدة إلى الفم لمضغه ثانية ثم بلعه .

(٢) مسافدة : مجامعة وهذه الكلمة تستعمل عادة لغير الإنسان . والحضانة : التربية .

(٣) الكوة : بفتح الكاف وضمها بمعنى النقب .

(٤) تخاطيط : خطوط .

ومن أحكام النوع ما يعم الأفراد، ومنها ما لا يوجد إلا في البعض حيث تستعد المادة، وتتفق الأسباب، وإن كان أصل الاستعداد يعم الكل، كاليعسوب^(١) من بين النحل، والبيغاء يتعلم محاكاة^(٢) أصوات الناس بعد تعليم وتمارين.

انظر إلى نوع الإنسان وما فيه من خواص:

ثم انظر إلى نوع الإنسان تجد له ما وجدت في الأشجار، وما وجدت في أصناف الحيوان كالسعال والتمطي والجشاء ودفع الفضلات ومص الثدي في أول نشأته، وتجد مع ذلك فيه خواص يمتاز بها من سائر الحيوان: منها النطق، وفهم الخطاب، وتوليد العلوم الكسبية من ترتيب المقدمات البديهية، أو من التجربة والاستقراء^(٣) والحدس^(٤) ومن الاهتمام بأمور يستحسنها بعقله، ولا يجدها بحسه، ولا وهمه، كتهذيب النفس، وتسخير الأقاليم تحت حكمه.

ولذلك يتوارد على أصول هذه الأمور جميع الأمم حتى سكان شواهد الجبال، وما ذلك إلا لسر ناشيء من جذر صورته^(٥) النوعية، وذلك السر أن مزاج الإنسان يقتضي أن يكون عقله قاهراً على قلبه، وقلبه قاهراً على نفسه.

انظر إلى تدبير الله لكل نوع:

ثم انظر إلى تدبير الحق لكل نوع، وتربيته إياه، ولطفه به، فلما كان النبات لا يحس، ولا يتحرك جعل له عروقاً تمص المادة المجتمعة من الماء والهواء ولطيف التراب، ثم يفرقها في الأغصان وغيرها على تقسيم تعطيه الصورة النوعية.

(١) اليعسوب: أمير النحل.

(٢) محاكاة: تقليد.

(٣) الاستقراء: تتبع أفعال أو أحداث شيء معين لاستخراج قاعدة أو نتيجة معينة.

(٤) الحدس: الظن والتخمين والتوهم. (٥) جذر صورته: أصل صورته.

ولما كان الحيوان حساساً متحركاً بالإرادة لم يجعل له عروقاً تمص المادة من الأرض، بل ألهمه طلب الحبوب والحشيش والماء من مظانها، وألهمه جميع ما يحتاج إليه من الارتفاقات.

والنوع الذي لا يتكوّن من الأرض تكون الديدان منها دبر الله تعالى له بأن أودع فيه قوى التناسل، وخلق في الأنثى رطوبة يصرفها إلى تربية الجنين، ثم حولها لبناً خالصاً، وألهم المتولد مص الثدي وازدراد^(١) اللبن.

وجعل في الدجاجة رطوبة يصرفها إلى تكوّن البيض، فإذا باضت أصابها يبس وخلو جوف يحملانها على جنون يستدعي ترك مخالطة بني نوعها، واستحباب حضانة شيء تسد به جوفها.

وجعل من طبع الحمامة الأنس بين ذكرها وأنثاها، وجعل خلو جوفها هو الحامل^(٢) على حضانة البيض، ثم جعل رطوبتها البالية تتوجه إلى التهوع^(٣)، وجعل لها رحمة على الفرخ^(٤)، وجعل رحمتها مع الرطوبة البالية سبباً لتهوعها ودفع الحبوب والماء إلى جوف فرخها، وجعل الذكر منها بسبب الأنس يقلد أنثاها، وخلق للفراخ مزاجاً رطباً ثم حول رطوبتها ريشاً تطير به.

جعل الله الإنسان قابلاً للإلهامات والعلوم:

ولما كان الإنسان مع إحساسه وتحركه وقبوله للإلهامات الجبلية والعلوم الطبيعية ذا عقل وتوليد للعلوم الكسبية - ألهمه الزرع والغرس والتجارة والمعاملة، وجعل منهم السيد بالطبع والاتفاق، والعبد بالطبع والاتفاق، وجعل منهم الملوك والرعية، وجعل منهم الحكيم المتكلم

(١) ازدراد: ابتلاع.

(٢) الحامل: الباعث.

(٣) التهوع: القيء.

(٤) الفرخ: صغير الطير.

بالحكمة الإلهية والطبيعية والرياضية والعملية، وجعل منهم الغبي الذي لا يهتدي لذلك^(١) إلا بضرب من تقليد، ولذلك ترى أمم الناس من أهل البوادي والحضر متواردين على هذه...، وهذا كله شرح الخواص والتدبيرات الظاهرة المتعلقة بقوته البهيمية وارتفاعاته المعاشية، ثم انتقل إلى قوته الملكية.

اختلاف الإنسان عن الحيوان :

واعلم أن الإنسان ليس كسائر أنواع الحيوان، بل له إدراك أشرف من إدراكاتهم، ومن علومه التي يتوارد عليها أكثر أفراده غير من عصت مادته أحكام نوعه - التفتيش عن سبب إيجاده وتربيته، والتنبيه بإثبات مدبر في العالم هو أوجده ورزقه، والتضرع بين يدي بارئه^(٢) ومدبره بهمته وعلمه حسب ما يتضرع إليه هو وجميع أبناء جنسه^(٣) دائماً سرمداً بلسان الحال وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾^(٤).

لكل نبات نفس مدبرة غير عاقلة :

أليس أن كل جزء من الشجرة من أغصانها وأوراقها وأزهارها متكفف^(٥) يده إلى النفس النباتية المدبرة في الشجرة دائماً سرمداً، فلو كان لكل جزء منها عقل لحمد النفس النباتية حمداً غير حمد الآخر،

(١) أي الحكمة.

(٢) الباريء: الخالق.

(٣) أي الجنس البعيد.

(٤) سورة الحج / الآية ١٨ . ألم تر: ألم تعلم - يسجد له: يخضع له - كثير من الناس: وهم المؤمنون - كثير حق عليه العذاب: وهم الكافرون لأنهم أبوا السجود لله - وقيل السجود من غير العقلاء خضوع ومن العقلاء سجود حقيقي . وذلك بالصلاة.

(٥) متكفف: سائل طالب ماد يده إليها.

ولو كان له فهم لانطبع^(١) التكفف الحالي في علمه وصار تكففاً بالهمة .

للإنسان نفس مدبرة عاقلة :

فاعلم من هناك أن الإنسان لما كان ذا عقل ذكي انطبع في نفسه التكفف العلمي حسب التكفف الحالي ، ومن خواصه أيضاً أن يكون في نوع الإنسان له خلوص إلى منبع العلوم العقلية يتلقاها منه وحيّاً أو حدساً أو رؤياً ، وأن يكون آخرون قد تفرسوا من هذا الكامل آثار الرشد والبركة ، فانقادوا له فيما يأمر ، وينهى .

وليس فرد من أفراد الإنسان إلا له قوة للتخلص إلى الغيب برؤيا يراها ، أو برأي يبصره ، أو هتيف يسمعه ، أو حدس يتفطن له ، إلا أن منهم الكامل ، ومنهم الناقص ، والناقص يحتاج إلى الكامل ، وله صفات يجمل^(٢) طورها عن طور صفات البهائم كالخشوع والنظافة والعدالة والسماحة ، وكظهور بوارق^(٣) الجبروت والملكوت من استجابة الدعاء وسائر الكرامات والأحوال والمقامات .

الأمر التي يمتاز بها الإنسان من سائر الحيوان :

والأمر التي يمتاز بها الإنسان من سائر أفراد الحيوان كثيرة جداً لكن جماع الأمر وملاكه خصلتان :

أحدهما : زيادة القوة العقلية ولها شعبتان شعبة غائصة^(٤) في الارتفاقات لمصلحة نظام البشر واستنباط دقائقها ، وشعبة مستعدة للعلوم الغيبية الفائضة بطريق الوهب^(٥) .

(٢) أي انتعش . والتكفف السؤال .
(٣) بوارق : إشارات علامات . جمع بارقة .
(٤) غائصة : نازلة .
(٥) الوهب : العطاء .

وثانيتها: براعة القوة العملية، ولها أيضاً شعبتان: شعبة هي ابتلاعها للأعمال من طريق بلعوم^(١) اختيارها وإرادتها، فالبهائم تفعل أفعالاً بالاختيار، ولا تدخل أفعالاً في جذر^(٢) أنفسها، ولا تتلون أنفسها بأرواح تلك الأفعال، وإنما تلتصق بالقوى القائمة بالروح الهوائي فقط، فيسهل عليها صدور أمثالها.

والإنسان يفعل أفعالاً، فتفنى الأفعال، وتنزع منها أرواحها، فتبلعها النفس، فيظهر في النفس إما نور وإما ظلم.

الاختيار شرط للمؤاخذة:

وقول الشرع شرط المؤاخذة على الأفعال أن يفعلها بالاختيار بمنزلة قول الطبيب شرط الضرر بالسسم والانتفاع بالترياق^(٣) أن يدخل في البلعوم، وينزلا في الجوف.

وأما ما قلنا إن النفس الإنسانية تبلع من أرواح الأعمال ما اتفق عليه أمم بني آدم من عمل الرياضات والعبادات ومعرفة أنوار كل ذلك وجداناً، ومن الكف عن المعاصي والمنهيات ورؤية قسوة كل ذلك وجداناً.

وشعبة: هي أحوال ومقامات سنية، كمحبة الله والتوكل عليه مما ليس في البهائم جنسها.

كيف يتم اعتدال مزاج الإنسان ويصلح أمره:

واعلم أنه لما كان اعتدال مزاج الإنسان بحسب ما تعطيه الصورة النوعية لا يتم إلا بعلوم يتخلص إليها أزكاهم، ثم يقلده الآخرون،

(١) البلعوم: مجرى الطعام من الحلق.

(٢) جذر: أصل.

(٣) الترياق: الدواء.

وبشريعة تشتمل على معارف إلهية وتدبيرات ارتفاقية وقواعد تبحث عن الأفعال الاختيارية وتقسّمها إلى الأقسام الخمسة من الواجب، والمندوب إليه، والمباح، والمكروه، والحرام، ومقدمات تبين مقامات للإحسان وجب في حكمة الله تعالى ورحمته أن يهتّىء في غيب قدسه رزق قوته العقلية يخلص إليه أزكاهم فيتلقاه من هنالك، وينقاد له سائر الناس، بمنزلة ما ترى في نوع النحل من يعسوب^(١) يدبر لسائر أفرادها لولا هذا التلقي بواسطة، ولا بواسطة لم يكمل كماله المكتوب له، فكما أن المستبصر إذا رأى نوعاً من أنواع الحيوان لا يتعيش إلا بالحشيش استيقن^(٢) أن الله دبر له مرعى فيه حشيش كثير، فكذلك المستبصر في صنع الله يستيقن أن هنالك طائفة من العلوم يسد بها العقل خلته فيكمل كماله المكتوب له، وتلك الطائفة منها:

علم التوحيد والصفات، ويجب أن يكون مشروحاً بشرح يناله العقل الإنساني بطبيعته لا مغلقاً لا يناله إلا من يندر وجود مثله، فشرح هذا العلم بالمعرفة المشار إليها بقوله سبحانه الله وبحمده، فأثبت لنفسه صفات يعرفونها، ويستعملونها بينهم من الحياة والسمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام والغضب والسخط والرحمة والملك والغنى.

وأثبت مع ذلك أنه ليس كمثل شيء في هذه الصفات؛ فهو حي لا كحياتنا، بصير لا كبصرنا، قدير لا كقدرتنا، مريد لا كإرادتنا، متكلم لا ككلامنا، ونحو ذلك.

ثم فسّر عدم المماثلة بأمور مستبعدة في جنسنا مثل أن يقال يعلم

(١) اليعسوب: أمير النحل.

(٢) استيقن: تأكد.

عدد قطر الأمطار، وعدد رمل الفيافي^(١) وعدد أوراق الأشجار، وعدد أنفاس الحيوانات، ويبصر ديبب النمل في الليلة الظلماء، ويسمع ما يتوسوس به تحت اللحف في البيوت المغلقة عليها أبوابها، ونحو ذلك.

ومنها علم العبادات، ومنها علم الارتفاقات^(٢) ومنها علم المخاصمة. أعني أن النفوس السفلية إذا تولدت بينها شبهات تدافع بها الحق كيف يحل تلك العقد.

ومنها علم التذكير بآلاء الله، وبأيام الله^(٣) وبوقائع البرزخ والمحشر^(٤) فنظر الحق تبارك وتعالى في الأزل إلى نوع الإنسان، وإلى استعداده الذي يتوارثه أبناء النوع، ونظر إلى قوته الملكية والتدبير الذي يصلحه من العلوم المشروحة حسب استعداده، فتمثلت تلك العلوم كلها في غيب الغيب محدودة ومحصاة، وهذا التمثل هو الذي يعبر عنه الأشاعرة بالكلام النفسي، وهو غير العلم وغير الإرادة والقدرة، ثم لما جاء وقت خلق الملائكة علم الحق أن مصلحة أفراد الإنسان لا تتم إلا بنفوس كريمة، نسبتها إلى نوع الإنسان كنسبة القوى العقلية في الواحد منا إلى نفسه، فأوجدتهم بكلمة (كن) بمحض العناية بأفراد الإنسان فأودع في صدورهم ظلاً من تلك العلوم المحدودة المحصاة في غيب غيبه، فتصورت^(٥) بصورة روحية، وإليهم الإشارة في قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾^(٦).

(١) الفيافي: الصحارى.

(٢) الارتفاقات: الانتفاعات.

(٣) أي أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على الأمم السابقة واللاحقة.

(٤) البرزخ من وقت الموت إلى القيامة - المحشر: يوم القيامة.

(٥) أي الملائكة.

(٦) سورة غافر/ الآية ٧. - ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا.

لا بد من وجود روحاني لتلك العلوم:

ثم لما جاء بعض القرانات المقتضية لتغيير الدول والملل، قضى بوجود روحاني آخر لتلك العلوم، فصارت مشروحة مفصلة بحسب ما يليق بتلك القرانات، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (١).

اقتضت حكمة الله وجود رسول:

ثم انتظرت حكمة الله لوجود رجل زكي يستعد للوحي قد قضى بعلو شأنه وارتفاع مكانه حتى إذا وجد اصطنعه لنفسه، واتخذته جارحة لإتمام مراده وأنزل عليه كتابه، وأوجب طاعته على عباده، وهو قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٢).

فما أوجب تعيين تلك العلوم في غيب الغيب إلا العناية بالنوع، ولا سأل الحق فيضان نفوس الملائ الأعلی إلا استعداد النوع، ولا ألح عند القرانات بسؤال تلك الشريعة الخاصة إلا أحوال النوع، فله الحجة البالغة.

استوجب الإنسان تلقي علومه كسباً ونظراً أو وحيًا:

فإن قيل: من أين وجب على الإنسان أن يصلي، ومن أين وجب عليه أن ينقاد للرسول، ومن أين حرم عليه الزنا والسرقه؟ فالجواب: وجب عليه هذا، وحرم عليه ذلك من حيث وجب على البهائم أن ترعى الحشيش، وحرم عليه أكل اللحم؛ ووجب على السباع أن تأكل اللحم، ولا ترعى الحشيش؛ ومن حيث وجب على النحل أن يتبع اليعسوب. إلا أن الحيوان استوجب تلقي علومها إلهاماً جبلياً، واستوجب الإنسان تلقي

(١) سورة الدخان / الآيتان ٣ و ٤ . إنا أنزلناه: أي أنزلنا القرآن الكريم - في ليلة مباركة : هي ليلة القدر - يفرق: يفصل - أمر حكيم: أمر محكم.

(٢) سورة طه / آية ٤١ - اصطنعتك لنفسي: اخترتك لنفسي بالرسالة.

علومه كسباً ونظراً، أو وحيّاً، أو تقليداً.

باب اقتضاء التكليف المجازاة

الناس مجزيون بأعمالهم:

اعلم أن الناس مجزيون بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر من أربعة وجوه:

١ - نوع الإنسان يقتضي أن يكون مجزياً:

أحدها: مقتضى الصورة النوعية، فكما أن البهيمة إذا علفت الحشيش، والسبع إذا علف اللحم - صح مزاجهما، وإذا علفت البهيمة اللحم، والسبع الحشيش - فسد مزاجهما، فكذلك الإنسان إذا باشر أعمالاً أرواحها الخشوع بجانب الحق، والطهارة والسماحة والعدالة صلح مزاجه الملكي، وإذا باشر أعمالاً أرواحها أضداد هذه الخصال فسد مزاجه الملكي، فإذا تخفف عن ثقل البدن أحس بالملاءمة والمنافرة شبه ما يحس أحدنا من ألم الاحتراق.

٢ - الإنسان مجزي لعلاقته بالملا الأعلى:

وثانيها: جهة الملا الأعلى، فكما أن الواحد منها له قوى إدراكية مودعة في الدماغ، يحس بها ما وقعت عليه قدمه من جمرة أو ثلجة، فكذلك بصورة الإنسان المتمثلة في الملكوت خدام من الملائكة أوجدوا عناية الحق بنوع الإنسان، لأن نوع الإنسان لا يصلح إلا بهم.

كما أن الواحد منا لا يصلح إلا بالقوى الإدراكية، فكما فعل فرد من أفراد الإنسان فعلاً منجياً خرجت من تلك الملائكة أشعة بهجة وسرور، وكما فعل فعلاً مهلكاً خرجت منها أشعة نفرة وبغض، فحلت تلك الأشعة في نفس هذا الفرد، فأورثت بهجة، أو وحشة، أو نفوس بعض الملائكة، أو بعض الناس، فانعقد الإلهام أن يحبوه، ويحسنوا إليه، أو يبغضوه،

ويسئثوا إليه شبه ما نرى من أن أحدنا إذا وقعت رجله على جمرة أحست قواه الإدراكية بألم الاحتراق ثم خرجت منها أشعة تؤثر في القلب، فيحزن، وفي الطبع فيحتم^(١).

تأثير الملائكة بالإنسان:

وتأثير أولئك الملائكة فينا شبيه بتأثير الإدراكات في أبداننا، فكما أن الواحد منا قد يتوقع ألماً أو ذلاً، فترتعد فرائضه^(٢)، ويصفر لونه، ويضعف جسده وربما تسقط شهوته، ويحمر بوله، وربما بال أو خرىء من شدة الخوف، فهذا كله تأثير القوى الإدراكية في الطبيعة ووحيتها إليها وقهرها عليها، فكذلك الملائكة الموكلة ببني آدم يترشح منها عليهم وعلى نفوس الملائكة السفلية إلهامات جبلية، وحالات طبيعية.

وأفراد الإنسان كلها بمنزلة القوى الطبيعية لهذه الملائكة بمنزلة القوى الإدراكية لهم، وكما تهبط تلك الأشعة إلى السفلى فكذلك يصعد إلى حظيرة القدس منها لون يعد لفيضان هيئة تسمى بالرحمة والرضا والغضب واللعن مثل إعداد مجاورة النار الماء لتسخينه، وإعداد المقدمات للنتيجة، وإعداد الدعاء للإجابة، فيتحقق التجدد في الجبروت من هذا الوجه، فيكون غضب، ثم توبة، ويكون رحمة، ثم نقمة قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣).

الملائكة ترفع أعمال بني آدم:

وقد أخبر النبي ﷺ في أحاديث كثيرة أن الملائكة ترفع أعمال بني

(١) يحتم: يذوب.

(٢) فرائض: جمع فريضة وهي اللحمية بين الجنب والكتف، وترتعد أي تضطرب من الخوف.

(٣) سورة الرعد/ الآية ١١. لا يغير ما بقوم: لا يسلبهم نعمته - حتى يغيروا ما بأنفسهم: حتى يستبدلوا الطاعة بالمعصية - وكذلك لا يتوب عليهم حتى يغيروا المعصية بالطاعة.

آدم إلى الله تعالى ، وأن الله يسألهم كيف تركتم عبادي؟ وأن عمل النهار يرفع إليه قبل عمل الليل ينبه ﷺ على ضرب من توسط الملائكة بين بني آدم وبين نور الله القائم وسط حظيرة القدس .

٣ - الشريعة تقتضي أن يكون الإنسان مجزياً :

وثالثها : مقتضى الشريعة المكتوبة عليهم ، فكما يعرف المنجم أن الكواكب إذا كان لها نظر من النظرات حصلت روحانية ممتزجة من قواها متمثلة في جزء من الفلك ، فإذا نقلها إلى الأرض ناقل أحكام الفلكيات - أعني القمر - انقلبت خواطرهم حسب تلك الروحانية ، فكذلك يعرف العارف بالله أنه إذا جاء وقت من الأوقات تسمى في الشرع بالليلة المباركة التي فيها يفرق كل أمر حكيم حصلت روحانية في الملكوت ممتزجة من أحكام نوع الإنسان ، ومقتضى هذا الوقت يترشح من هنالك إلهامات على أذكي خلق الله يومئذ ، وعلى نفوس تليه في الذكاء بواسطته ، ثم يلهم سائر الناس قبول تلك الإلهامات واستحسانها ، ويؤيد ناصرها ، ويخذل معاندها ، وتلهم الملائكة السفلية الإحسان لمطيعها ، والإساءة إلى عاصيها ، ثم يصعد منها لونها إلى الملائكة الأعلى وحظيرة القدس ، فيحصل هنالك رضا وسخط .

٤ - النبي إذا بعث إلى الناس كان ذلك لطفاً من الله :

ورابعها : أن النبي إذا بعث في الناس ، وأراد الله تعالى ببعثه لطفاً بهم وتقريباً لهم إلى الخير ، وأوجب طاعته عليهم صار العلم الذي يوحى إليه متشخصاً^(١) متمثلاً ، وامتزج بهمة هذا النبي ودعائه وقضاء الله تعالى بالنصر له ، فتأكد وتحقق .

(١) متشخصاً: متمثلاً.

المجازاة فطرة إلهية :

أما المجازاة بالوجهين الأولين^(١) ففطرة فطر الله الناس عليها، ولن تجد لفطرة الله تديلاً، وليس ذلك إلا في أصول البر والإثم وكلياتها دون فروعها وحدودها، وهذه الفطرة هو الدين الذي لا يختلف باختلاف الأعصار، والأنبياء كلهم مجمعون عليه كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٢).

المؤاخذة متحققة :

وقال ﷺ: «الأنبياء بنو علات، أبوهم واحد، وأمهاتهم شتى» والمؤاخذة على هذا القدر متحققة قبل بعثة الأنبياء وبعدها سواء.

المجازاة مختلفة باختلاف الأعصار :

وأما المجازاة بالوجه الثالث^(٣) فمختلفة باختلاف الأعصار، وهي الحاملة على بعث الأنبياء والرسل، وإليها الإشارة في قوله ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال-يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان^(٤)، فالنجاى النجاى^(٥)، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا^(٦)، فانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم^(٧)، فكذلك

(١) أي: بمقتضى الصورة النوعية وجهة الملا الأعلى.

(٢) سورة الأنبياء/ الآية ٩٢ - إن هذه أي ملة الإسلام - أمتكم: دينكم.

(٣) أي مقتضى الشريعة.

(٤) النذير العريان: كان العربي إذا رأى الخطر الشديد سيلحق قومه دون أن يشعروا خلع ثيابه وانطلق إليهم عرياناً فما إن يروه عن بعد حتى يعلموا أن الخطر فادح. والرسول عليه السلام يقول لقومه إن الخطر شديد جداً وأنا النذير.

(٥) النجاى النجاى: اطلبوا الخلاص.

(٦) أدلجوا: ساروا من أول الليل. وقوله: «على مهلهم» أي سكينتهم.

(٧) أي استأصلهم.

مثل من أطاعني ، فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني ، وكذب ما جئت به من الحق» (١) .

المجازاة بعد التبليغ وكشف الشبهة :

وأما المجازاة بالوجه الرابع ، فلا تكون إلا بعد بعثة الأنبياء ، وكشف الشبهة وصحة التبليغ . ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ (٢) .

باب اختلاف الناس في جبلتهم المستوجب لاختلاف أخلاقهم وأعمالهم ومراتب كمالهم

الجبله ثابتة :

والأصل فيه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : «إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه ، فصدقوه ، وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه ، فلا تصدقوا به ، فإنه يصير إلى ما جبل عليه» (٣) وقال : «ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم من يولد مؤمناً» فذكر الحديث بطوله ، وذكر طبقاتهم في الغضب وتقاضي الدين وقال : «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» (٤) وقال الله تعالى : ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (٥) . أي طريقته التي جبل عليها .

القوة الملكية في الناس على وجهين :

وإن شئت أن تستجلي ما فتح الله علي في هذا الباب ، وفهمني من

(١) أي بعثة النبي ﷺ .

(٢) سورة الأنفال / آية ٤٢ - ليهلك : ليكفر - بينة : حجة ظاهرة . ويحيى : يؤمن .

(٣) ما جبل عليه : ما طبع عليه .

(٤) أي متفاوتون في النسب والقبول لفيض الله كتفاوت المعادن في الذهب والفضة وغيرهما .

(٥) سورة الإسراء / الآية ٨٤ - شاكلته : طريقته .

معاني هذه الأحاديث (فاعلم) أن القوة الملكية تخلق في الناس على وجهين:

أحدهما الوجه المناسب بالملا الأعلى الذي شأنهم الانصباح بعلوم الأسماء والصفات، ومعرفة دقائق الجبروت، وتلقي نظام على وجه الإحاطة به، واجتماع الهمة على طلب وجوده.

والثاني الوجه المناسب بالملا السافل الذي شأنهم انبعث بداعية ترشح عليهم من فوقهم من غير إحاطة، ولا اجتماع الهمة، ولا المعرفة ونورانية، ورفض للألوات البهيمية.

القوة البهيمية على وجهين:

وكذلك القوة البهيمية تخلق على وجهين: أحدهما البهيمية الشديدة الصفيقة^(١) كهيئة الفحل الفاره^(٢) الذي نشأ في غذاء غزير، وتدبير مناسب فكان عظيم الجسم شديده، جهوري^(٣) الصوت، قوي البطش، ذا همة نافذة وتيه عظيم، وغضب وحسد قويين، وشبق وافر، منافساً في الغلبة والظهور، شجاع القلب.

والثاني: البهيمية الضعيفة المهلهلة كهيئة الحيوان الخصي المخدج^(٤) الذي نشأ في جذب وتدبير غير مناسب، فكان حقير الجسم ضعيفه، ركيك^(٥) الصوت، ضعيف البطش، جبان القلب، غير ذي همة،

(١) الصفيقة: الكثيفة.

(٢) الفحل الفاره: الذكر القوي وقوله غزير أي كثير.

(٣) جهوري أي رفيع. وقوله تيه أي تكبر. وقوله شبق أي شهوة. وقوله المهلهلة أي الرقيقة.

(٤) أخذجت الناقة جاءت بولد ناقص فهي مخدج بالكسر والولد مخدج. وقوله جذب أي قحط.

(٥) ركيك: ضعيف رقيق.

ولا منافسة في الغلبة والظهور. والقوتان جميعاً لهما جيلة تخصص أحد وجهيها، وكسب يؤيده، ويقويه، ويمد فيه.

اجتماع القوتين الملكية والبهيمية:

واجتماع القوتين فيهم أيضاً يكون على وجهين: فتارة تجتمعان بالتجاذب تكون^(١) كل واحدة متوفرة في طلب مقتضياتها، طامحة في أقصى غاياتها مريدة سننها الطبيعي، فلا جرم^(٢) أن يقع بينهما التجاذب، فإن غلبت هذه اضمحلت آثار تلك، وكذلك العكس.

وتارةً بالاصطلاح بأن تنزل الملكية عن طلب حكمها الصراح^(٣) إلى ما يقرب منه من عقل وسخاوة نفس وعفة طبع، وإيثار النفع العام على انتفاع نفسه خاصة، والنظر إلى الأجل دون الاقتصار على العاجل، وحب النظافة في جميع ما يتعلق به.

وتترقى البهيمية من طلب حكمها الصراح إلى ما ليس يبعيد من الرأي الكلي، ولا مضاد له، فتصطلحان^(٤) ويحصل مزاج لا تخالف فيه. ولكل من مرتبتي الملكية والبهيمية والاجتماع طرفان ووسط وما يقرب من طرف أو وسط.

مراتب اجتماع القوتين الملكية والبهيمية:

وكذلك تذهب الأقسام إلى غير النهاية إلا أن رؤوس الأقسام المنفرزة بأحكامها، والتي يعرف غيرها بمعرفتها ثمانية حاصلة من انقسام الاجتماع بالتجاذب إلى أربعة: ملكية عالية تجتمع مع بهيمية شديدة،

(١) أي التزاحم وقوله طامحة أي رافعة لغيرها.

(٢) لا جرم: لا شك.

(٣) الصراح: أي الخالص.

(٤) أي الملكية والبهيمية.

أو ضعيفة، أو ملكية سافلة تجتمع مع بهيمية شديدة أو ضعيفة والاجتماع بالاصطلاح أيضاً إلى أربعة مثلها، ولكل قسم حكم لا يختلف من وفق لمعرفة أحكامها استراح من تشويشات كثيرة.

ونحن نذكر هنا من ذلك ما نحتاج إليه في هذا الكتاب فأحوج الناس إلى الرياضيات الشاقة من كانت بهيمته شديدة لا سيما صاحب التجاذب، وأحظاها^(١) بالكمال من كانت ملكيته عالية، لكن صاحب الاصطلاح أحسنهم عملاً وآدبهم، وصاحب التجاذب إذا انفلت من أسر البهيمية أكثرهم علماً، ولا يبالي بأداب العمل كثير مبالاة.

وأزهدهم في الأمور العظام^(٢) أضعفهم بهيمية، لكن صاحب العالية يترك الكل تفرغاً للتوجه إلى الله، وصاحب السافلة إن انفلت يتركه للأخرة وإلا يتركه كسلاً ودعة.

وأشدهم اقتحاماً^(٣) في الأمور العظام أشدهم بهيمية لكن صاحب العالية أقومهم بالرياضات ونحوها مما يناسب الرأي الكلي.

وصاحب السافلة أشدهم اقتحاماً في نحو القتال وحمل الأثقال، وصاحب التجاذب إذا اندفع إلى الأسفل اشتغل بالأمر الدنيوي فقط، وإذا ترقى إلى الأعلى اشتغل بالأمر الديني وتهذيب النفس وتجريدها فقط.

وصاحب الاصطلاح يشتغل بهما جميعاً، ويقصدهما مرة واحدة.

أفضل الناس مرتبةً:

ومن كانت عاليته منهم في غاية العلو ينبعث إلى رياضة الدين والدنيا

(١) أي أوفقهم، وقوله: انفلت أي تخلص. (٢) كالجهد ونحوه، وقوله دعة أي استراحة.
(٣) اقتحاماً: أي دخولاً.

معاً، ويصير باقياً بمراد الحق وبمنزلة الجارحة^(١). له في تمام نظام كلي، كالخلافة وإمامة الملة، وأولئك هم الأنبياء وورثتهم، وأساطين^(٢) الناس وسلاطينهم، وأولو الأمر منهم.

والذين يجب انقيادهم في دين الله أهل الاصطلاح، العالية ملكيتهم، وأطوعهم لأولئك أهل الاصطلاح، السافلة ملكيتهم، فإنهم يتلقون النواميس^(٣) بأشباحها وهيئاتها.

وأطرفهم منهم أهل التجاذب، لأنهم إما منهمكون في ظلمات الطبيعة، فلا يقيمون السنة الراشدة، أو قاهرون عليها، فإن كانوا أهل علو عضوا^(٤) على أرواح النواميس، وكانت لهم مسامحة في أشباحها، وكان أكثر همتهم معرفة دقائق الجبروت والانصباغ بصبغها، وإن كانوا دون ذلك اهتموا بالرياضيات والأوراد^(٥)، وأعجبوا ببوارق الملكية من كشف وإشراف واستجابة الدعاء ونحو ذلك، ولم يعضوا من النواميس بجذر^(٦) قلوبهم إلا على حيل قهر الطبيعة وجلب الأنوار، فهذه أصول أعطانيها ربي من أتقنها استجلى أحوال أهل الله، ومبلغ كمالهم، ومطمح إشاراتهم عن أنفسهم، وخرج مراتب سلوكهم: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٧).

-
- (١) أي العضو.
(٢) أساطين الناس: عظماء الناس.
(٣) النواميس: الأسرار الإلهية، وقوله وهيئاتها أي صورها، وقوله: أطرفهم أي أبعدهم.
(٤) عضوا: تمسكوا، وقوله مسامحة أي أعراض.
(٥) أوراد: جمع ورد وهو الدعاء الذي يلزمه المرء كل يوم.
(٦) جذر قلوبهم: أعماق وأصول قلوبهم.
(٧) سورة يوسف/ الآية ٣٨ - ذلك: أي التوحيد. ولكن أكثر الناس: وهم الكفار - لا يشكرون: أي لا يشكرون الله فيؤمنون.

باب في أسباب الخواطر الباعثة على الأعمال

الخواطر الباعثة على العمل :

اعلم أن الخواطر التي يجدها الإنسان في نفسه، وتبعثه على العمل بموجبها لا جرم أن لها أسباباً: كسنة الله تعالى في سائر الحوادث.

والنظر والتجربة يظهران أن منها: - وهو أعظمها - جبلة الإنسان التي خلق عليها، كما نبه النبي ﷺ في الحديث الذي روينا من قبل (١).

ومنها: مزاجه الطبيعي المتغير بسبب التدبير المحيط به من الأكل والشرب ونحو ذلك، كالجائع يطلب الطعام، والظمآن يطلب الماء، والمغتلّم (٢) يطلب النساء، ورب إنسان يأكل غذاء يقوي الباءة (٣)، فيميل إلى النساء، ويحدث نفسه بأحاديث تتعلق بهن، وتصير هذه مهيجة له على كثير من الأفعال، ورب إنسان يغتذي غذاءً شديداً، فيقسو قلبه، ويجترىء على القتل، ويغضب في كثير مما لا يغضب فيه غيره، ثم إذا ارتاض هذان أنفسهما بالصيام والقيام، أو شابا وكبرا، أو مرضا مرضاً مدنفاً (٤) تغير أكثر ما كانا عليه، ورقت قلوبهما، وعفت نفوسهما، ولذلك ترى الاختلاف بين الشيوخ والشباب، ورخص النبي ﷺ للشيخ في القبلة وهو صائم، ولم يرخص للشباب.

ومنها: العادات والمألوفات فإن من أكثر ملابسة شيء، وتمكن من لوح نفسه ما يناسبه من الهيئات والأشكال - مال إليه كثير من خواطره.

ومنها: أن النفس الناطقة في بعض الأوقات تنفلت من أسر

(١) في باب اختلاف الناس في جبلتهم من قوله: إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه إلخ.

(٢) المغتلّم من اشتدت شهوته إلى النساء. (٣) الباءة: الشهوة.

(٤) دنف المريض: ثقل. وأدنفه المريض: أثقله.

البهيمية^(١)، فتختطف من حيز الملاء الأعلى ما يسر لها من هيئة نورانية، فتكون تارة من باب الأنس والطمأنينة، وتارة من باب العزم على فعل.

ومنها: أن بعض النفوس الخسيسة تتأثر من الشياطين وتنصبغ ببعض صبغهم، وربما اقتضت تك الهيئة خواطر وأفعالاً.

واعلم أن المنامات أمرها كأمر الخواطر غير أنها تتجرد لها النفس، فتشبح^(٢) لها صورها، وهيئاتها. قال محمد بن سيرين: الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشياطين، وبشرى من الله.

باب لصوق الأعمال بالنفس وإحصائها عليها

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٣).

وقال النبي ﷺ راوياً عن ربه تبارك وتعالى: «إنما هي أعمالكم أحصياها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه» وقال ﷺ: «النفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك، ويكذبه».

الأعمال تنبعث من أصل النفس:

اعلم أن الأعمال التي يقصدها الإنسان قصداً مؤكداً، والأخلاق التي هي راسخة فيه، تنبعث من أصل النفس الناطقة، ثم تعود إليها، ثم تشبث بذيلها، وتحصي عليها.

أما الانبعاث منها، فلما عرفت أن للملكية والبهيمية واجتماعهما

(١) البهيمية: الحيوانية.

(٢) تشبّح: أي تمثل.

(٣) سورة الإسراء/الآيتان: ١٣ و ١٤ طائره: عمله - حسيباً: محاسباً.

أقساماً ولكل قسم حكماً، وغلبة المزاج الطبيعي والانصباغ من الملائكة والشياطين ونحو ذلك من الأسباب لا تكون إلا حسب ما تعطيه الجبلة، وتحصل فيه المناسبة، فلذلك كان المرجع إلى أصل النفس بوسط أو بغير وسط.

أست ترى المخنث يخلق في أول مرة على مزاج ركيك^(١)، فيستدل به العارف على أنه إن شب على مزاجه وجب أن يعتاد بعبادات النساء، ويتزيا^(٢) بزيهن، وينتحل رسومهن.

وكذلك يدرك الطبيب أن الطفل إن شب على مزاجه، ولم يفجأه عارض كان قوياً فارهاً، أو ضعيفاً ضارعاً.

إذا أكثر الإنسان عملاً معيناً لزمه وسهل صدوره منه :

وأما العود^(٣) إليها فلأن الإنسان إذا عمل عملاً، فأكثر منه اعتادته النفس، وسهل صدوره منها، ولم يحتج إلى روية وتجشم داعية، فلا جرم أن النفس تأثرت منه، وقبلت لونه، ولا جرم أن لكل عمل من تلك الأعمال المتجانسة مدخلاً في ذلك التأثير، وإن دق، وخفي مكانه، وإليه الإشارة في قوله ﷺ: «تعرض^(٤) الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نُكِّتَتْ^(٥) فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة

(١) ركيك: ضعيف.

(٢) أي يتلبس بلباسهن، وقوله فارهاً أي حاداً، وضارعاً أي منكسراً.

(٣) أي عود الأخلاق إلى النفس الناطقة، وقوله: روية أي فكر.

(٤) أي تحيط، وقوله عوداً عوداً هو بالضم واحد العيدان يريد ما ينسج به الحصير من طاقاته ويروى بالفتح أي مرة بعد مرة، وقوله أشربها أي أسقيها.

(٥) نكتت: لطخت. أصيبت. والنكتة: النقطة السوداء في البياض أو النقطة البيضاء في السواد.

بيضاء حتى تصير على قلبين أبيض^(١) مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرياداً كالكوز مجخياً^(٢) لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه.

تخلق النفس فارغة ثم تنصبغ:

وأما التشبث^(٣) بذيلها فلأن النفس في أول أمرها تخلق هيولانية فارغة عن جميع ما تنصبغ به، ثم لا تزال تخرج من القوة إلى الفعل يوماً فيوماً، وكل حالة متأخرة لها معد من قبلها، والمعدات كلها سلسلة مترتبة، لا يتقدم متأخرها على متقدم مستصحب في هيئة النفس الموجودة اليوم حكم كل معد قبلها وإن خفي عليها بسبب اشتغالها بما هو خارج منها اللهم إلا أن يفنى حامل القوة المنبثثة تلك الأعمال منها كما ذكرنا في الشيخ والمريض، أو تهجم عليها هيئة من فوقها تغير نظامها كالتغير المذكور^(٤) كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(٥). وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(٦).

إحصاء صور نفس كل إنسان:

وأما الإحصاء عليها، فسره على ما وجدته بالذوق أن في الحيز الشاهق تظهر صورة لكل إنسان بما يعطيه النظام الفوقاني والتي ظهرت في

(١) أي أحدهما وقوله: مرياداً أي من الاربداد وهو التغير إلى الغيرة والمراد تغيره معنى.
(٢) من التجخية وهي الميل عن الاستقامة أي كما لا يثبت الماء في الكوز المائل كذلك القلب لا يعي غيراً.

(٣) أي للأعمال بذيلها أي النفس. والتشبث هو التعلق.

(٤) أي في الشيخ والمريض، وقوله في الحيز أي في عالم المنال.

(٥) سورة هود/ الآية ١١٤ - إن الحسنات كالصلوات مثلاً يذهبن السيئات أي الصفات.

(٦) سورة الزمر/ الآية ٦٥.

قصة الميثاق شعبة منها، فإذا وجد هذا الشخص انطبقت الصورة عليه، واتحدت معه، فإذا عمل عملاً انشروحت هذه الصورة بذلك العمل انشراحاً طبيعياً بلا اختيار منه، فربما تظهر في المعاد أن أعمالها محصاة عليها من فوقها، ومنه قراءة الصحف، وربما تظهر أن أعمالها فيها متشبهة بأعضائها، ومنها نطق الأيدي والأرجل.

كل صورة مفصحة عن ثمرة العمل :

ثم كل صورة عمل مفصحة عن ثمرته في الدنيا والآخرة، وربما تتوقف الملائكة في تصويره، فيقول الله تعالى : «اكتبوا العمل كما هو»، قال الغزالي : كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى، يعبر عنه تارة باللوح، وتارة بالكتاب المبين، وتارة بإمام مبين، كما ورد في القرآن، فجميع ما جرى في العالم، وما سيجري مكتوب فيه، ومنقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين.

لوح الله لا يشبه لوح الخلق :

ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم، وأن الكتاب من كاغد أو ورق، بل ينبغي أن تفهم قطعاً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم، بل إن كنت تطلب له مثلاً يقربه إلى فهمك، فاعلم أن ثبوت المقادير في اللوح المحفوظ يضاهاى ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حيث يقرأ ينظر إليه، ولو فتشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخط حرفاً، فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشاً بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه انتهى.

ثم كثيراً ما تتذكر النفس ما عملته من خير أو شر، وتتوقع جزاءه،

فيكون ذلك وجهاً آخر من وجوه استقرار عمله والله أعلم .

باب ارتباط الأعمال بالهيئات النفسانية^(١)

الأعمال مظاهر الهيئات النفسانية :

اعلم أن الأعمال مظاهر الهيئات النفسانية، وشروح لها، وشركات لاقتناصها، ومتحدة معها في العرف الطبيعي، أي يتفق جمهور الناس على التعبير بها عنها بسبب طبيعي تعطيه الصورة النوعية، وذلك لأن الداعية إذا انبعثت إلى عمل، فطاوعت لها نفسه انبسطت، وانشروحت، وإن امتنعت انقبضت، وتقلصت^(٢) فإذا باشر العمل استبد منه من ملكية أو بهيمية وقوي وانحرف مقابله وضعف، وإلى هذا الإشارة في قوله ﷺ: «النفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك، ويكذبه» .

كل مخلوق له أعمال وهيئات يشار بها إليه :

ولن ترى خلقاً إلا وله أعمال وهيئات يشار بها إليه، ويعبر بها عنه وتمثل صورتها مكشافاً له، فلو أن إنساناً وصف إنساناً آخر بالشجاعة واستفسر، فبين لم يبين إلا معالجاته الشديد، أو بالسخاوة لم يبين إلا دراهم ودنانير يبذلها. ولو أن إنساناً أراد أن يستحضر صورة الشجاعة والسخاوة اضطر إلى صور تلك الأعمال اللهم إلا أن يكون قد غير فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولو أن واحداً أراد أن يحصل خلقاً ليس فيه، فلا سبيل له إلى ذلك إلا الوقوع في مظانه، وتجشم الأعمال المتعلقة به، وتذكر وقائع الأقوياء من أهله .

(١) أي الملكات .

(٢) أي انضمت، واستبد أي استقل، وقوله معالجته أي مزاولاته .

الأعمال هي التي تدخل تحت القدرة والاختيار :

ثم الأعمال هي الأمور المضبوطة التي تقصد بالتوقيت، وترى، وتبصر، وتحكي، وتؤثر، وتدخل تحت القدرة والاختيار، ويمكن أن يؤخذ بها وعليها، ثم النفوس ليست سواء في إحصاء الأعمال والملكات عليها.

النفوس منها قوية :

فمنها نفوس قوية تتمثل عندها الملكات أكثر من الأعمال، فلا يعد من كمالها بالأصالة إلا الأخلاق، ولكن تتمثل الأعمال لها لأنها قوالبها وصورها، فيحصى عليها الأعمال إحصاءً أضعف من إحصاء الأخلاق بمنزلة ما يتمثل في الرؤيا من أشباح^(١) المعنى المراد كالختم على الأفواه والفروج^(٢).

النفوس منها ضعيفة :

ومنهم نفوس ضعيفة تحسب أعمالها عين كمالها لعدم استقلال الهيئات النفسانية، فلا تتمثل إلا مضمحلة في الأعمال، فيحصى عليها أنفس الأعمال وهم أكثر الناس وهم المحتاجون جداً إلى التوقيت البالغ ولهذا المعاني عظم الاعتناء^(٣) بالأعمال في النواميس الإلهية.

استقرار الأعمال في الملأ الأعلى :

ثم إن كثيراً من الأعمال يستقر في الملأ الأعلى، ويتوجه إليه استحسانهم أو استهجانهم بالأصالة مع قطع النظر عن الهيئات النفسانية التي تصدر عنها، فيكون أداء الصالح منها بمنزلة قبول إلهام من الملأ

(١) أشباح : أشكال .

(٢) إشارة إلى رؤيا رجل رأى كأنه يختم على أفواه الناس وفروجهم فقصها على ابن سيرين فقال لعلك مؤذن تؤذن قبل الوقت فتمنع الناس من أكل السحور والوطء .

(٣) الاعتناء : أي الاهتمام والقيام بالشرائع .

الأعلى في التقرب منهم والتشبه بهم واكتساب أنوارهم ويكون اقتراف^(١) السيئة منها خلاف ذلك.

استقرار الأعمال يكون بوجوه:

وهذا الاستقرار يكون بوجوه: منها: أنهم يتلقون من بارئهم أن نظام البشر لا يصلح إلا بأداء أعمال والكف عن أعمال، فتمثل تلك الأعمال عندهم، ثم تنزل في الشرائع من هنالك.

ومنها: أن نفوس البشر التي مارست ولازمت الأعمال إذا انتقلت إلى الملائكة الأعلى، وتوجه إليها استحسانهم واستهجانهم، ومضى على ذلك القرون والدهور استقرت صور الأعمال عندهم، وبالجملة فتؤثر الأعمال حينئذ تأثير العزائم والرقى الماثورة عن السلف بهيئتها وصفتها والله أعلم.

باب أسباب المجازاة

١ - إحساس النفس من حيث قوتها الملكية:

اعلم أن أسباب المجازاة وإن كثرت ترجع إلى أصليين: أحدهما أن تحس النفس من حيث قوتها الملكية بعمل أو خلق اكتسبته أنه غير ملائم لها، فتشبع فيها ندامة وحسرة وألم ربما أوجب ذلك تمثيل واقعات في المنام أو اليقظة تشتمل على إيلام وإهانة وتهديد، ورب نفس استعدت لإلهام المخالفة، فخطبت على السنة الملائكة بأن تترأى^(٢) له كسائر ما تستعد له من العلوم، وإلى هذا الأصل وقعت الإشارة في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣).

(١) اقتراف: ارتكاب.

(٢) تترأى: تظهر.

(٣) سورة البقرة / الآية ٨١ - كسب سيئة: عمل سيئة كشرك مثلاً وأحاطت به خطيئته: =

٢ - توجه حظيرة القدس إلى بني آدم:

والثاني: توجه حظيرة القدس إلى بني آدم، فعند الملائكة الأعلى هيئات وأعمال وأخلاق مرضية ومسخوطة، فتطلب من ربها طلباً قوياً تنعيم أهل هذه وتعذيب أهل تلك، فيستجاب دعاؤهم، وتحيط ببني آدم همهم، وترشح عليهم صورة الرضا واللعنة، كما ترشح سائر العلوم، فتشبح واقعات إيلامية أو إنعامية، وتترأى الملائكة الأعلى مهددة لهم أو منبسطة إليهم، وربما تأثرت النفس من سخطها، فعرض لها كهيئة الغشي أو كهيئة المرض، وربما ترشح ما عندهم من الهمة المتأكدة على الحوادث الضعيفة كالخواطر ونحوها. فألهمت الملائكة أو بنو آدم أن يحسنوا أو يسيئوا إليه، وربما أحيل أمر من ملابساته إلى صلاح أو فساد، وظهرت تقريبات لتنعيمه أو تعذيبه.

عناية الله تعالى بالناس:

بل الحق الصراح^(١) أن الله تبارك وتعالى عناية بالناس يوم خلق السموات والأرض توجب ألا يهمل أفراد الإنسان سدى، وأن يؤاخذهم على ما يفعلونه، لكن لدقة مدركها جعلنا دعوة الملائكة عنواناً لها والله أعلم، وإلى هذا الأصل وقعت الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾^(٢).

= استولت عليه وأحدقت به من كل جانب بأن مات مشركاً.

(١) الصراح: الصريح والخالص.

(٢) سورة البقرة/الآيتان ١٦١ و١٦٢. عليهم لعنة الله والملائكة والناس: أي هم مستحقو ذلك في الدنيا والآخرة - خالدين فيها: أي اللعنة والنار - ينظرون: يمهلون لتوبة أو معذرة.

يتركب الأصلان فيحدثان معاً صوراً شتى عجيبة :

ويتركب الأصلان، فيحدث من تركيبهما بحسب استعداد النفس والعمل صور كثيرة عجيبة، لكن الأول أقوى في أعمال وأخلاق تصلح النفس، أو تفسدها، وأكثر النفوس له قبولاً أزكاها وأقواها، والثاني أقوى في أعمال وأخلاق مناقضة للمصالح الكلية منافرة^(١) لما يرجع إلى صلاح نظام بني آدم، وأكثر النفوس له قبولاً أضعفها، وأسمجها^(٢).

ولكل من السببين مانع يصد عنه عن حكمه إلى حين، فالأول يصد عنه ضعف الملكية وقوة البهيمية حتى تصير كأنها نفس بهيمية فقط لا تتألم من آلام الملكية، فإذا تخففت النفس عن الجلباب البهيمي، وقل مدده، وبرقت بوارق الملكية عذبت، أو نعمت شيئاً فشيئاً، والثاني يصد عنه تطابق الأسباب على ما يخالف حكمه حتى إذا جاء أجله الذي قدره الله سبحانه عند ذلك الجزاء ثجاً^(٣) وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٤).

(١) مناقضة منافرة: مضادة معاكسة.

(٢) اسمجها: أقبجها.

(٣) ثجاً: سيلاناً كثيراً.

(٤) سورة يونس/ آية ٤٩ - لكل أمة أجل: مدة معلومة لموتهم - فلا يستأخرون: فلا يتأخرون عنه.

مبحث كيفية المجازاة في الحياة وبعد الممات

. باب الجزاء على الأعمال في الدنيا

العمل مسبب للجزاء :

قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١) وقال : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِّنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾^(٢).

وقال الله تعالى في قصة أصحاب الجنة حين منعوا الصدقة ما قال^(٣).

قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿وَإِن تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾^(٤).

وقوله تعالى : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(٥).

(١) سورة الشورى/ الآية ٣٠ - مصيبة : بلية وشدة - بما كسبت أيديكم : بما عملتم - ويعفو عن كثير : يعفو عن كثير مما تستحقون عليه العقاب .

(٢) سورة المائدة/ الآية ٦٦ - أقاموا التوراة : عملوا بها - لآكلوا من فوقهم . . . = وسع عليهم الرزق .

(٣) أي في سورة (ن) .

(٤) سورة البقرة/ الآية ٢٨٤ : تبدوا : تظهروا - يحاسبكم به الله : يخبركم به يوم القيامة ويجزيكم عليه .

(٥) سورة النساء/ الآية ١٢٣ . يجز به : إما في الدنيا بالبلاء والمحن أو في الآخرة في النار .

«هذه (١) معاقبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة (٢) حتى البضاعة يضعها في يد قميصه، فيعقدها، فيفزع لها حتى أن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكبر (٣)».

للملكية بروز وانفكاك:

اعلم أن للملكية بروزاً (٤) بعد كمونها في البهيمية، وانفكاكاً (٥) بعد اشتباكها بها فتارة بالموت الطبيعي فإنه حينئذ لا يأتي مددها من الغذاء، وتتحلل موادها لا إلى بدل، ولا تهيج النفس أحوال طارئة كجوع وشبع وغضب، فيترشح لون عالم القدس عليها، وتارة بالموت الاختياري، فلا يزال بكسر بهيميته بريضة واستدامة توجهه إلى عالم القدس، فيبرق عليه بعض بوارق الملكية.

وإن لكل شيء انشراحاً وانبساطاً بما يلائمه من الأعمال والهيئات، وانقباضاً وتقلصاً بما يخالفه منها، وإن لكل ألم ولذة شبعاً يتشبع به، فشبح الخلط اللذاع (٦) والنخس (٧)، وشبح التأذي من حرارة الصفراء الكرب والضجر (٨)، وأن يرى في منامه النيران والشعل، وشبح التأذي من البلغم مقاساة البرد، وأن يرى في المنام المياه والثلج.

إذا برزت الملكية:

فإذا برزت الملكية ظهر في اليقظة أو المنام أشباح الأنس والسرور إن كان اكتسب النظافة والخشوع وسائر ما يناسب الملكية، ويتشبع

(١) مقولة أن حضرته ﷺ.

(٢) النكبة : المصيبة وقوله فيفزع أي يألّم .

(٣) التبر: معدن الذهب. والكبر: الموقد الذي يذاب فيه المعدن .

(٤) بروزاً ظهوراً - كمونها: خفائها.

(٥) انفكاكاً: انفصلاً.

(٦) اللذاع: المحرق.

(٧) النخس: غرز جسم حاد في الجسم.

(٨) الضجر: القلق.

أضدادها في صورة كيفيات مضادة للاعتدال، وواقعات تشتمل على إهانة وتهديد، ويظهر الغضب في صورة سبع ينهر^(١) والبخل في صورة حية تلدغ.

الضابط في المجازاة الخارجية:

والضابط في المجازاة الخارجية أنها تكون في تضاعيف^(٢) أسباب، فمن أحاط بتلك الأسباب، وتمثل عنده النظام المنبعث منها^(٣) علم قطعاً أن الحق لا يدع عاصياً إلا يجازيه في الدنيا مع رعاية ذلك النظام، فيكون إذا هدأت الأسباب عن تنعيمه وتعذيبه. نعم بسبب الأعمال الصالحة، أو عذب بسبب الأعمال الفاجرة، ويكون إذا أجمعت الأسباب على إيلامه وكان صالحاً، وكان قبضها لمعارضة صلاحه غير قبيح صرفت أعماله إلى رفع البلاء أو تخفيفه أو على إنعامه، وكان فاسقاً صرفت إلى إزالة نعمته، وكان كالمعارض لأسبابها، أو أجمعت على مناسبة أعماله أمد في ذلك إمداداً بيناً.

ربما كان حكم النظام أوجب:

وربما كان حكم النظام أوجب^(٤) من حكم الأعمال، فيستدرج بالفاجر ويضيق على الصالح في الظاهر، ويصرف التضييق إلى كسر بهيميته، ويفهم ذلك، فيرضى كالذي يشرب الدواء المر راغباً فيه وهذا معنى قوله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الخامة^(٥) من الزرع تفيئها الرياح

(١) ينهر: يفترس.

(٢) تضاعيف: طيات، داخل.

(٣) أي من الأسباب.

(٤) أوجب: أكد.

(٥) الخامة: الطاقة اللينة من الزرع، وتفيئها أي تميلها من جانب إلى جانب أي المؤمن مثل الخامة إذا جاء أمر الله انطاع له وإن جاءه مكروه رجا الأجر وإذا سكن البلاء اعتدل قائماً بالشكر، وقوله تصرعها أي تطرحها على الأرض.

تصرعها مرة، وتعديلها أخرى حتى يأتيه أجله، ومثل المنافق كمثل الأرزة
المجذبة^(١) التي لا يصيبها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة،
وقوله ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله به
سيئاته كما تحط الشجرة ورقها».

ورب إقليم غلبت عليه طاعة الشيطان، وصار أهله كمثل النفوس
البهيمية فتقلص عنه بعض المجازاة إلى أجل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ثُمَّ
بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم
بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

وبالجمله فالأمر ههنا^(٣) يشبه بحال سيد لا يتفرغ للجزاء، فإذا كان
يوم القيامة صار كأنه تفرغ، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ
الثَّقَلَانِ﴾^(٤).

(١) بضم ميم وسكون جيم وكسر ذال معجمة الثابتة المنتصبه، والانجعاف الانقلاع يعني
المنافق قليل الآلام ولا تكون آلامه مكفرة لسيئاته.

(٢) سورة الأعراف/ الآيات ٩٤ - ٩٧. - وما أرسلنا في قرية من نبي: أي أرسلناه فكذبوه -

أخذنا أهلها: عاقبناهم - بالبأساء: شدة الفقر - والضراء: المرض ونحوه - لعلمهم

يضرعون: يتذللون فيؤمنون - ثم بدلنا: أعطينا - مكان السيئة الحسنه: مكان العذاب

الغنى والصحة - حتى عفوا: حتى كثروا - وقالوا: أي قالوا كفراناً للنعمة - قد مس آباءنا

الضراء والسراء: أي ما أصاب آباءنا كان بفعل الدهر وليس عقوبة فعاقبناهم فجاءة

- بركات من السماء: عطاء من الله كالمنطر - والأرض: النبات.

(٣) أي في الدنيا.

(٤) سورة الرحمن/ الآية ٣١. الثقلان: الجن والإنس.

المجازاة تكون في نفس العبد أو بدنه أو ماله :

ثم المجازاة تارة تكون في نفس العبد بإفاضته البسط والطمأنينة أو القبض والفرع، وتارة في بدنه بمنزلة الأمراض الطارئة من هجوم غم أو خوف، ومنه (١) وقوع النبي ﷺ مغشياً عليه قبل نبوته حين كشف عورته، وتارة في ماله وأهله وربما ألهم الناس والملائكة والبهائم أن يحسنوا إليه؛ أو يسيئوا، وربما قرب إلى خير أو شر بإلهامات أو إحالات، ومن فهم ما ذكرنا ووضع كل شيء في موضعه استراح من إشكالات كثيرة كمعارضة الأحاديث الدالة على أن البر سبب زيادة الرزق، والفجور سبب نقصانه والأحاديث الدالة على أن الفجار يعجل لهم الحسنات في الدنيا، وأن أكثر الناس بلاء الأمثل فالأمثل، ونحو ذلك والله أعلم.

باب ذكر حقيقة الموت

لكل صورة معدنية أو حيوانية أو إنسانية مطية :

اعلم أن لكل صورة من المعدنية والناموية (٢) والحيوانية والإنسانية مطية (٣) غير مطية الأخرى، ولها كمالاً أولياً غير كمال الأخرى، وإن اشتبه الأمر في الظاهر، فالأركان (٤) إذا تصفرت، وامتزجت بأوضاع مختلفة كثيرة وقلة حدثت ثنائيات كالبخار والغبار والدخان والثرى (٥) والأرض المثارة

(١) أي من المجازاة في البدن.

(٢) الناموية: النباتية.

(٣) في أكثر النسخ هكذا لكن في هذا الباب في بعضها مسطبة على وزن مرتبة وهو الأوفق بالمضمون اللاحق فإن المسطبة دكان يقعد عليها فكان المعنى أن لكل صورة قعادة تقعد وتستقر عليها.

(٤) الأركان: العناصر.

(٥) الثرى: التراب الندي، والمثارة: المحروثة، والسفعة: اللهب.

والجمرة والسفحة والشعلة، وثلاثيات كالطين المخمر والطحلب^(١)،
ورباعيات نظائر ما ذكرنا.

ولكل صورة خواص مركبة:

وتلك الأشياء لها خواص مركبة من خواص أجزائها، ليس فيها شيء
غير ذلك، وتسمى بكائنات الجو، فتأتي المعدنية، فتتعد^(٢) غارب ذلك
المزاج، وتتخذ مطية، وتصير ذات خواص نوعية، وتحفظ المزاج، ثم
تأتي النامية، فتتخذ الجسم المحفوظ المزاج مطية، وتصير قوة محولة
لأجزاء الأركان والكائنات الجوية إلى مزاج نفسه؛ لتخرج إلى الكمال
المتوقع لها بالفعل، ثم تأتي الحيوانية، فتتخذ الروح الهوائية الحاملة لقوى
التغذية والتنمية مطية، وتنفذ التصرف في أطرافها بالحس والإرادة انبعثاً
للمطلوب، وانخاساً عن المهروب.

الصورة الإنسانية تتخذ النسمة مطية:

ثم تأتي الإنسانية، فتتخذ النسمة المتصرفة في البدن مطية، وتقصد
إلى الأخلاق التي هي أمهات الانبعثات والانخاسات، فتقينها^(٣)،
وتحسن سياستها، وتأخذها منصة لما تتلقاه من فوقها، فالأمر وإن كان
مشتبهاً باديء الرأي^(٤) لكن النظر الممعن يلحق كل آثار بمنبعها، ويفرز
كل صورة بمطيتها.

كل صورة لا بد لها من مادة تقوم بها:

وكل صورة لا بد لها من مادة تقوم بها، وإنما تكون المادة ما يناسبها

(١) الطحلب: نبات له ساق وورق وليس له جذور حقيقية ينمو في الأماكن الرطبة وعلى
صخور البحر.

(٢) أي تجلس والغارب كتف.

(٣) تزينها.

(٤) باديء الرأي: في أول النظر.

وإنما مثل الصورة كمثل خلقة الإنسان القائمة بالشمعة في التمثال، ولا يمكن أن توجد الخلقة إلا بالشمعة، فمن قال بأن النفس النطقية المخصوصة بالإنسان عند الموت ترفض (١) المادة مطلقاً، فقد خرص (٢) نعم لها مادة بالذات، وهي النسمة، ومادة بالعرض، وهو الجسم الأرضي، فإذا مات الإنسان لم يضر نفسه زوال المادة الأرضية، وبقيت حالة بمادة النسمة، ويكون كالكتاب المجيد (٣) المشغوف (٤) بكتابته إذا قطعت يده، ومملكة الكتابة بحالها، والمستهتر (٥) بالمشي إذا قطعت رجلاه، والسميع والبصير إذا جعل أصم وأعمى.

دواعي مباشرة الأعمال:

واعلم أن من الأعمال والهيئات ما يباشرها الإنسان بداعية من قلبه، فلو خلي ونفسه لانساق إلى ذلك، ولا تمتنع من مخالفه. ومنها: ما يباشره لموافقة الإخوان، أو لعارض خارجي من جوع وعطش ونحوهما إذا لم يصر عادة لا يستطيع الإقلاع (٦) عنها، فإذا انفقأ (٧) العارض انحلت الداعية (٨)، فرب مستهتر بعشق إنسان أو بالشعر أو بشيء آخر يضطر إلى موافقة قومه في اللباس والزي، فلو خلي (٩) ونفسه، وتبدل زيه لم يجد في قلبه بأساً، ورب إنسان يحب الزي بالذات، فلو خلي ونفسه لما سمح بتركه.

وإن من الإنسان اليقظان بالطبع يتفطن بالأمر الجامع بين الكثرات، ويمسك قلبه بالعلة دون المعلولات والملكة دون الأفاعيل، ومنه

-
- (١) ترفض: تترك.
(٢) خرص: كذب.
(٣) الكتاب المجيد: الأني بالجيد.
(٤) المشغوف: المحب المتعلق.
(٥) المستهتر: المولع.
(٦) الإقلاع: الترك.
(٧) انفقأ: زال وانحلت أي زالت.
(٨) الداعية: السبب.
(٩) خلي: ترك.

الوسنان^(١) بالطبع يبقى مشغولاً بالكثرة عن الوحدة، وبالأفاعيل عن الملكات، وبالأشباح عن الأرواح.

إذا مات الإنسان فسد جسده وبقيت نفسه :

واعلم أن الإنسان إذا مات انفسخ^(٢) جسده الأرضي، وبقيت نفسه النطقية متعلقة بالنسمة متفرغة إلى ما عندها، وطرحت عنها ما كان لضرورة الحياة الدنيا من غير داعية قلبية، وبقي فيها ما كانت تمسكه في جذر جوهرها، وحينئذ تبرز الملكية، وتضعف البهيمية، وترشح عليها من فوقها يقين بحظيرة القدس وبما أحصى عليها هنالك، وحينئذ تتألم الملكية، أو تتنعم.

واعلم أن الملكية عند غوصها^(٣) في البهيمية وامتزاجها بها لا بد أن تدعن لها إذعانا ما، وتتأثر منها أثراً ما، لكن الضار كل الضرر أن تشبح فيها هيئات منافرة في الغاية، والنافع كل النفع أن تشبح فيها هيئات مناسبة في الغاية؛ فمن المنافرات أن يكون قوي التعلق بالمال والأهل لا يستيقن أن وراءهما مطلوباً، قوي الإمساك للهيئات الدنية في جذر جوهرها، ونحو ذلك مما يجمعه أنه على الطرف المقابل للسماحة، وأن يكون متلبساً بالنجاسات متكبراً على الله لم يعرفه ولم يخضع له يوماً ونحو ذلك مما يجمعه أنه على الطرف المقابل للإحسان، وأن يكون ناقض توجه حظيرة القدس في نصر الحق، وتنويه^(٤) أمره، وبعثة الأنبياء، وإقامة النظام المرضي، فأصيب منهم بالبغضاء واللعن، ومن المناسبات مباشرة أعمال تحاكي الطهارة والخضوع للباريء، وتذكر حال الملائكة وعقائد تنزعها^(٥) من الاطمئنان بالحياة الدنيا، وأن يكون سمحاً سهلاً، وأن يعطف^(٦) عليه

(١) الوسنان: الناعس.

(٢) انفسخ: فسد.

(٣) غوصها: نزولها.

(٤) تنويه: تعظيم.

(٥) تنزعها: يميل.

(٦) يعطف: يميل.

أدعية الملائكة الأعلى وتوجهاتهم للنظام المرضي والله أعلم .

باب اختلاف أحوال الناس في البرزخ

الناس في عالم البرزخ طبقات :

اعلم أن الناس في هذا العالم على طبقات شتى لا يرجى إحصاؤها، لكن رؤوس الأصناف أربعة :
صنف أهل اليقظة :

صنف هم أهل اليقظة، وأولئك يعذبون، وينعمون بأنفس تلك المتنافرات والمناسبات، وإلى حال هذا الصنف وقعت الإشارة في قوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ (١) وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (٢).

ورأيت طائفة من أهل الله صارت نفوسهم بمنزلة الجوابي (٣) الممتلئة ماءً راكداً (٤) : لا تهيجه الرياح، فضربها ضوء الشمس في الهاجرة (٥)، فصارت بمنزلة قطعة من النور، وذلك النور إما نور الأعمال المرضية، أو نور الياد داشت، أو نور الرحمة .

صنف هم أهل النور الطبيعي :

وصنف قريب المآخذ منهم، لكن هم أهل النور الطبيعي، فأولئك تصيبهم رؤيا، والرؤيا فينا حضور علوم مخزونة في الحس المشترك كانت مسكة (٦) اليقظة تمنع عن الاستغراق فيها والذهول عن كونها خيالات، فلما

(١) فرطت في جنب الله : أي قصرت في أمره . الساخرين أي المحقرين والمستهزئين .

(٢) سورة الزمر / الآية ٥٦ .

(٣) الجوابي : جمع جابية وهي الحوض كالجوبة والجبية .

(٤) راكداً : ساكناً .

(٥) الهاجرة : نصف النهار في القيظ . (٦) مسكة : ما يتمسك وبقية .

نام لم يشك أنها عين ما هي صورها، وربما يرى الصفراوي أنه في غيضة يابسة في يوم صائف وسموم^(١)، فبينا هو كذلك إذ فاجأته النار من كل جانب، فجعل يهرب، ولا يجد مهرباً، ثم إنه لفحته^(٢) فقاسى الماء شديداً. ويرى البلغمي أنه في ليلة شاتية ونهر بارد وريح زمهريرية^(٣)، فهاجت بسفينته الأمواج، فصار يهرب، ولا يجد مهرباً، ثم إنه غرق، فقاسى الماء شديداً، وإن أنت استقرت الناس لم تجد أحداً إلا وقد جرب من نفسه تشبيح الحوادث المجمعمة بتنعمات وتوجعات مناسبة لها وللنفس الرائية، فهذا المبتلى في الرؤيا غير أنها رؤيا لا يقظة منها إلا يوم القيامة، وصاحب الرؤيا لا يعرف في رؤياه أنها لم تكن أسماء خارجية، وأن التوجع والتنعم لم يكن في العالم الخارجي، ولولا يقظة لم يتنبه لهذا السرفعى أن يكون تسمية هذا العالم^(٤) عالماً خارجياً أحق وأفصح من تسميته بالرؤيا، فربما يرى صاحب السبعية أنه يخدشه سبع، وصاحب البخل تنهشه^(٥) حيات وعقارب، ويتشبح زوال العلوم الفوقانية بملكين يسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ وما قولك في النبي ﷺ؟

صنف بهيميتهم وملكيتهم ضعيفتان:

وصنف بهيميتهم وملكيتهم ضعيفتان يلحقون بالملائكة السافلة لأسباب جبلية بأن كانت ملكيتهم قليلة الانغماس في البهيمية غير مدعنة لها، ولا متأثرة منها، وكسبية بأن لابت الطهارات بداعية قلبية، ومكنت من نفسها الإلهامات وبقوارق ملكية، فكما أن الإنسان ربما يخلق في صورة الذكّران وفي مزاجه خنوثة^(٦)، وميل إلى هيئات الإناث، لكنه لا يتميز

(١) سموم: الريح الحارة.

(٢) لفحته: أحرقت.

(٣) زمهريرية: شدة البرودة.

(٤) أي البرزخ.

(٥) تنهشه: تلدغه.

(٦) خنوثة: لين وتكسر. والخنثى من كان على صورة الرجل وأحوال النساء.

شهوات الأنوثة من شهوات الذكورة في الصبا، إنما المهم حينئذ شهوة الطعام والشراب وحب اللعب، فيجري حسب ما يؤمر به من التوسم بسمة الرجال، ويمتنع عنه من اختار زي النساء حتى إذا شب، ورجع إلى طبيعته الماجنة استبد^(١) باختيار زيهن والتعود بعاداتهن، وغلبت عليه شهوة الأبنة^(٢) وفعل ما يفعله النساء، وتكلم بكلامهن، وسمى نفسه تسمية الأنثى، فعند ذلك خرج من حيز الرجال بالكلية.

فكذلك الإنسان قد يكون في حياته الدنيا مشغولاً بشهوة الطعام والشراب والغلظة^(٣) وغيرها من مقتضيات الطبيعة والرسم، لكنه قريب المأخذ من المأل السافل قوي الانجذاب إليهم، فإذا مات انقطعت العلاقات، ورجع إلى مزاجه، فلهق بالملائكة، وصار منهم، وألهم كالهامهم، وسعى فيما يسعون فيه.

وفي الحديث: «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكاً يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين».

وربما اشتغل هؤلاء بإعلاء كلمة الله ونصر حزب الله، وربما كان لهم لمة^(٤) خير بابن آدم، وربما اشتاق بعضهم إلى صورة جسدية اشتياقاً شديداً ناشئاً من أصل جبلته، ففرغ ذلك باباً من المثال واختلطت قوة منه بالنسمة الهوائية، وصار كالجسد النوراني، وربما اشتاق بعضهم إلى مطعوم ونحوه، فأمد فيما اشتهى قضاء لشوقه، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرزقونَ فرحين بما آتاهمُ اللهُ مِن فضله﴾^(٥).

(١) استبد: استقل.

(٢) أي يعمل عمل قوم لوط.

(٤) لمة: أي نزول.

(٣) الغلظة: شهوة الجماع.

(٥) سورة آل عمران / الآيتان ١٦٩ و ١٧٠ - في سبيل الله: لأجل دينه - آتاهم: أعطاهم =

هناك قوم قريبو المأخذ من الشياطين جبلة :

وبإزاء هؤلاء قوم قريبو المأخذ من الشياطين جبلة، بأن كان مزاجهم فاسداً يستوجب آراء مناقضة للحق، منافرة للرأي الكلي على طرف شاسع^(١) من محاسن الأخلاق، وكسباً بأن لا بست هيئات خسيصة وأفكار فاسدة وانقادت لوسوسة الشياطين، وأحاط بهم اللعن، فإذا ماتوا ألحقوا بالشياطين، وألبسوا لباساً ظلمانياً، وصور لهم ما يقضون به بعض وطهرهم من الملاذ الخسيصة^(٢)، والأول ينعم بحدوث ابتهاج في نفسه، والثاني يعذب بضيق وغم، كالمخنث يعلم أن الخنوثة أسوأ حالات الإنسان، ولكن لا يستطيع الإقلاع عنها^(٣).

صنف بهيميتهم قوية وملكيتهم ضعيفة :

وصنف هم أهل اصطلاح. قوية بهيميتهم. ضعيفة ملكيتهم، وهم أكثر الناس وجوداً، يكون غالب أمورهم تابعاً للصورة الحيوانية المجبولة على التصرف في البدن والانغماس فيه فلا يكون الموت انفكاً لنفوسهم عن البدن بالكلية، بل تنفك تدبيراً ولا تنفك وهماً، فتعلم علماً من كذا بحيث لا يخطر عندها إمكان مخالفة أنها عين الجسد، حتى لو وطئ الجسد، أو قطع لأيقنت أنه فعل ذلك بها. وعلامتهم أنهم يقولون من جذر قلوبهم^(٤) إن أرواحهم عين أجسادهم، أو عرض طارئ عليها وإن نطقت ألسنتهم لتقليد أو رسم خلاف ذلك، فأولئك إذا ماتوا برق عليهم بارق ضعيف، وتراءى لهم خيال طفيف مثل ما يكون هنا للمرتاضين، وتشبح الأمور في صور خيالية ومثالية أخرى كما قد تشبح للمرتاضين، فإن كان

= من فضله : من عطائه وثوابه .

(١) بعيد.

(٢) الملاذ الخسيصة : الملاذ الدنيئة وهي الملاذ المحرمة طبعاً وشرعاً.

(٣) الإقلاع عنها : تركها. (٤) جذر قلوبهم : من أعماق قلوبهم.

لابس أعمالاً^(١) ملكية دس علم الملايمة في أشباح ملائكة حسان الوجوه بأيديهم الحرير ومخاطبات وهيئات لطيفة وفتح باب إلى الجنة تأتي منه روائحها، وإن كان لابس أعمالاً منافرة للملكية أو جالبة للعن دس علم ذلك في أشباح ملائكة سود الوجوه ومخاطبات وهيئات عنفية، كما قد يدس الغضب في صورة السباع، والجبن في صورة الأرنب.

هناك نفوس ملكية استعدادهم أن ياكلوا:

وهناك نفوس ملكية استوجب استعدادهم أن ياكلوا بمثل هذه المواطن، ويؤمر بالتعذيب أو التنعيم، فيراهم المبتلي عياناً. وإن كان أهل الدنيا لا يرونهم عياناً.

واعلم أنه ليس عالم القبر إلا من بقايا هذا العالم، وإنما تترشح هنالك العلوم من وراء حجاب، وإنما تظهر أحكام النفوس المختصة بفرد دون فرد بخلاف الحوادث الحشرية فإنها تظهر عليها وهي فانية وعن أحكامها الخاصة بفرد فرد باقية بأحكام الصورة الإنسانية والله أعلم.

باب ذكر شيء من أسرار الوقائع الحشرية

الأرواح تنجذب إلى حظيرة القدس:

اعلم أن للأرواح حضرة تنجذب إليها انجذاب الحديد إلى المغناطيس وتلك الحضرة هي حظيرة القدس محل اجتماع النفوس المتجردة عن جلايب^(٢) الأبدان بالروح الأعظم الذي وصفه النبي ﷺ بكثرة الوجوه والألسن واللغات، وإنما هو تشبيح لصورة نوع الإنسان في عالم المثال، أو في الذكر أياً ما شئت فقل، ومحل فنائها عن المتأكد من أحكامها الناشئة من الخصوصية الفردية، وبقائها بأحكامها الناشئة من النوع أو الغالب عليها جانب النوع.

(١) لابس أعمالاً: عمل أعمالاً وباشرها. (٢) جلايب: ثياب.

أفراد الإنسان لها أحكام متعددة:

وتفصيله أن أفراد الإنسان لها أحكام يمتاز بها بعضها من بعض، ولها أحكام تشترك فيها جملتها، وتتوارد عليها جميعها، ولا جرم أنها من النوع وإليه في قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث.

الأحكام منها ظاهرة:

وكل نوع يختص به نوعان من الأحكام: أحدهما الظاهرة كالخلقة أي اللون والشكل والمقدار، وكالصوت أي فرد وجد منه على هيئة يعطيها لنوع ولم يكن مخدجاً^(١) من قبل عصيان المادة، فإنه لا بد يتحقق بها، وتتوارد عليها بالإنسان مستوي القامة ناطق بادي البشرية، والفرس معوج القامة صاهل أشعر إلى غير ذلك مما لا ينفك عن الأفراد عند سلامة مزاجها.

والأحكام منها باطنة:

وثانيهما: الأحكام الباطنة كالإدراك والاهتداء للمعاش والاستعداد لما يهجم عليها من الوقائع.

فلكل نوع شريعة، ألا ترى النحل كيف أوحى الله تعالى إليها أن تتبع الأشجار، فتأكل من ثمراتها، ثم كيف تتخذ بيتاً يجتمع فيه بنو نوعها، ثم كيف تجمع العسل هنالك. وأوحى إلى العصفور أن يرغب الذكر في الأنثى، ثم يتخذ عشاً، ثم يحضن البيض، ثم يزق الفراخ، ثم إذا نهضت الفراخ علمها أين الماء وأين الحبوب، وعلمها ناصحها من عدوها، وعلمها كيف تفر من السنور^(٢) والصيد، وكيف تنازع بني نوعها عند جلب نفع أو دفع ضرر، وهل تظن الطبيعة السليمة بتلك الأحكام أنها لا ترجع إلى اقتضاء الصورة النوعية.

(١) مخدجاً: ناقصاً.

(٢) السنور: الهر.

متى تتحقق سعادة الأفراد:

واعلم أن سعادة الأفراد أن تمكن منها أحكام النوع وافرة كاملة وألا تعصي مادتها عليه، ولذلك يختلف أفراد الأنواع فيما يعد لها من سعادتها أو شقاوتها، ومهما بقيت على ما يعطيه النوع لم يكن لها ألم لكنها قد تغير فطرتها بأسباب طارئة بمنزلة الورم، وإليه وقعت الإشارة بقوله ﷺ: «ثم أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»^(١).

الأرواح تنجذب إلى الحضرة:

واعلم أن الأرواح البشرية تنجذب إلى هذه الحضرة تارة من جهة البصيرة والهمة، وتارة من جهة تشبح آثارها فيها إيلاماً وإنعاماً، أما الانجذاب بالبصيرة^(٢)، فليس أحد يتخفف عن ألوات البهيمية إلا وتلحق نفسه بها، وينكشف عليها شيء منها وهو المشار إليه في قوله ﷺ: «اجتمع آدم وموسى عند ربهما» وروي عنه ﷺ من طرق شتى أن أرواح الصالحين تجتمع عند الروح الأعظم، أما الانجذاب الآخر فاعلم أن حشر الأجساد وإعادة الأرواح إليها ليست حياة مستأنفة إنما هي تمة النشأة المتقدمة بمنزلة التخمة^(٣) لكثرة الأكل. كيف ولولا ذلك لكانوا غير الأولين، ولما أخذوا بما فعلوا.

الأشياء المتحققة في الخارج بمنزلة الرؤيا:

واعلم أن كثيراً من الأشياء المتحققة في الخارج تكون بمنزلة الرؤيا في تشبح المعاني بأجسام مناسبة لها كما ظهرت الملائكة لداود عليه السلام في صورة خصمين ورفعت إليه القضية، فعرف أنه تشبح لما

(١) يمجسانه: يجعلانه مجوسياً.

(٢) البصيرة: رؤية القلب والبصر رؤية العين.

(٣) التخمة: امتلاء المعدة بالطعام فوق طاقتها.

فرط^(١) منه في امرأة أوريا^(٢) فاستغفر وأتاب^(٣). وكما كان عرض قدحي الخمر واللبن عليه ﷺ واختياره اللبن تشبهاً لعرض الفطرة والشهوات على أمته واختيار الراشدين منهم الفطرة، وكما كان جلوس النبي ﷺ وأبي بكر وعمر مجتمعين على قف^(٤) البثر، وجلوس عثمان منفرداً منهم تشبهاً لما قدر الله تعالى من حال قبورهم ومدافنهم على ما أوله سعيد بن المسيب^(٥) وناهيك به... ، وأكثر الوقائع الحشرية من هذا القبيل.

تعلق النفس الناطقة بالنسمة:

واعلم أن تعلق النفس الناطقة بالنسمة أكيد شديد في حق أكثر الناس وإنما مثلها بالنسبة إلى العلوم البعيدة من مألوفها كمثل الأكمة لا يتخيل الألوان والأضواء أصلاً ولا مطمع لها في حصول ذلك إلا بعد أحقاب^(٦) كثيرة ومدد متطاولة^(٧) في ضمن تشبحات وتمثلات.

مجازاة النفوس عقب البعث:

والنفوس أول ما تبعث تجازى بالحساب اليسير أو العسير أو بالمرور

(١) فرط: صدر على سبيل الإفراط.

(٢) التحقيق في قصة داود عليه الصلاة والسلام أنه لم يقع منه ما تنسبه إليه الروايات الإسرائيلية التي تزعم أن داود عليه السلام أخذ امرأة أوريا بعد أن أرسله إلى الحرب ليقتل فيها فإن داود عليه السلام وهو نبي معصوم يتسامى عن هذا ويتنزه عن فعله وليس في القصة التي ذكرت في القرآن ما يشير إلى هذا من قريب أو بعيد وإنما الذي حدث من داود عليه السلام أنه تعجل في الحكم قبل أن يسمع من الطرفين كليهما، بل سمع من طرف واحد ثم أصدر الحكم عقبه، فكانت توبته لهذا السبب ولا سيما وأن الله قد أتاه الحكمة وفصل الخطاب.

(٣) أتاب: عاد عن ذنبه.

(٤) قف: بضم قاف وتشديد فاء هو الدكة التي تجعل حول البثر.

(٥) سعيد بن المسيب: أحد كبار التابعين وكان عالماً جليلاً عابداً محدثاً.

(٦) أحقاب: قرون. (٧) متطاولة: طويلة.

على الصراط ناجياً ومخدوشاً^(١) أو بأن يتبع كل أحد متبوعه فينجو، أو يهلك أو تنطق الأيدي والأرجل وقراءة الصحف أو بظهور ما بخل به، وحمله على ظهره أو الكي به.

وبالجملة فتشبهات وتمثلات لما عندها بما تعطيه أحكام الصورة النوعية، وأما رجل كان أوثق نفساً^(٢)، وأوسع نسمة، فالتشبهات الحشرية في حقه أتم وأوفر، ولذلك أخبر النبي ﷺ أن أكثر عذاب أمته في قبورهم. وهناك أمور متمثلة تتساوى النفوس في مشاهدتها كالهداية المبسوطة ببعثة النبي ﷺ وتشبيح حوضاً، وتشبيح أعمالها المحصاة عليها وزناً إلى غير ذلك، وتشبيح النعمة بمطعم هنيء، ومشرب مريء، ومنكح شهبي، وملبس رضي، ومسكن بهي.

الخروج من ظلمات التخليط إلى النعمة:

ولللخروج من ظلمات التخليط إلى النعمة تدريجات عجيبة كما بينه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الرجل الذي هو آخر أهل النار خروجاً منها، وأن للنفوس شهوات تتوارد عليها من تلقاء نوعها تتمثل بها النعمة، وشهوات دون ذلك يتميز بها بعضها من بعض، وهو قول النبي ﷺ: «دخلت الجنة فإذا جارية آدماء^(٣) لعساء، فقلت ما هذه يا جبريل؟ فقال إن الله تعالى عرف شهوة جعفر بن أبي طالب للآدم اللعس، فخلق له هذه».

وقوله ﷺ: «إن الله أدخلك الجنة، فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء تطير بك في الجنة حيث شئت إلا فعلت».

(١) مخدوشاً: مجروحاً.

(٢) أوثق نفساً: أكثر يقيناً.

(٣) آدماء صفة من الأدمة بالضم وهي السمرة في الناس جمعها آدم على وزن قفل، واللعساء صفة من اللعس بالتحريك وهو سواد الشفة المختلط بالحمرة جمعها لعس بضمين.

وقوله: «إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له ألسنت فيما شئت؟ قال: بلى، ولكنني أحب أن أزرع، فبذر، فبادر الطرف^(١) نباته واستواؤه^(٢) واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: «دونك^(٣) يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء».

ثم آخر ذلك رؤية رب العالمين، وظهور سلطان التجليات في جنة الكتيب^(٤)، ثم كائن بعد ذلك ما أسكت عنه، ولا أذكره اقتداءً بالشارع ﷺ.

(١) الطرف: النظر.

(٢) استواؤه: ارتفاعه.

(٣) دونك: أي خذ.

(٤) الكتيب محرقة القرب ولعل الكتيب لغة فيه لكنني لم أجده في اللغة والمراد منه كتيب ممسك.

مبحث الارتفاقات

باب كيفية استنباط الارتفاقات (١)

ألهم الله الإنسان كيف يلبي حاجاته :

اعلم أن الإنسان يوافق أبناء جنسه في الحاجة إلى الأكل والشرب والجماع والاستظللال من الشمس والمطر والاستدفاء (٢) في الشتاء وغيرها، وكان من عناية الله تعالى به أن ألهمه كيف يرتفق (٣) بأداء هذه الحاجات إلهاماً طبيعياً من مقتضى صورته النوعية، فلا جرم يتساوى الأفراد في ذلك إلا كل مخدج (٤) عصت مادته، كما ألهم النحل كيف تأكل الثمرات، ثم كيف تتخذ بيتاً يجتمع فيه أشخاص من بني نوعها، ثم كيف تنقاد ليعسوبها (٥)، ثم كيف تعسل، وكما ألهم العصفور كيف يتغني الحبوب الغذائية، وكيف يرد الماء، وكيف يفر عن السنور والصيد، وكيف يقاتل من صده عما يحتاج إليه، وكيف يسافد (٦) ذكره الأنثى عند الشبق (٧)، ثم يتخذان عشا عند الجبل، ثم كيف يتعاونان في حضانة البيض، ثم كيف

(١) الارتفاقات: التدبيرات النافعة.

(٢) الاستدفاء: طلب الحرارة.

(٣) يرتفق: أي ينتفع.

(٤) مخدج: ناقص.

(٥) اليعسوب: أمير النحل.

(٦) يسافد: يجامع.

(٧) الشبق: الشهوة القوية.

يزقان^(١) الفراخ، وكذلك لكل نوع شريعة تنفث^(٢) في صدور أفراده من طريق الصورة النوعية.

إلهام الإنسان ذو نوعية عالية:

وكذلك ألهم الإنسان كيف يرتفق من هذه الضرورات غير أنه انضم له مع هذا ثلاثة أشياء لمقتضى صورته النوعية الرابية^(٣) على كل نوع.

الانبعاث إلى شيء من رأي كلي:

أحدها: الانبعاث إلى شيء من رأي كلي فالبهيمة إنما تنبعث إلى غرض محسوس أو متوهم من داعية ناشئة من طبيعتها كالجوع والعطش والشبق، والإنسان ربما ينبعث إلى نفع معقول ليس له داعية من طبيعته فيقصد أن يحصل نظاماً صالحاً في المدينة أو يكمل خلقه، ويهذب نفسه، أو يتفصى^(٤) من عذاب الآخرة، أو يمكن جاهه في صدور الناس.

الإنسان يطلب مع الارتفاق الظرافة:

الثاني: أنه يضم مع الارتفاق الظرافة، فالبهيمة إنما تبتغي ما تسد به خلقتها^(٥)، وتدفع حاجتها فقط، والإنسان ربما يريد أن تقر عينه، وتلذذ نفسه زيادة على الحاجة، فيطلب زوجة جميلة، وطعاماً لذيذاً، وملبساً فاخراً ومسكناً شامخاً^(٦).

الإنسان يستنبط الارتفاقات أو يقلد من يستنبط:

والثالث: أنه يوجد منهم أهل عقل ودراية يستنبطون الارتفاقات الصالحة، ويوجد منهم من يختلج^(٧) في صدره ما اختلج في صدور

(١) يزقان: يطعمان.

(٢) تنفث: تضع.

(٣) الرابية: العالية.

(٤) يتفصى: يخلص.

(٥) خلقتها: الخلة بفتح الخاء وتشديد اللام وجمعها خلال هي الفقر والحاجة.

(٦) شامخ: عال.

(٧) يختلج: يتحرك يضطرب.

أولئك، ولكن لا يستطيع الاستنباط، فإذا رأى من الحكماء، وسمع ما استنبطوه تلقاه بقلبه، وعض عليه بنواجذه^(١) لما وجد موافقاً لعلمه الإجمالي، فربّ إنسانٍ يجوع، ويظماً فلا يجد الطعام والشراب، فيقاسي ألماً شديداً حتى يجدهما، فيحاول^(٢) ارتفاعاً بإزاء هذه الحاجة، ولا يهتدي سبيلاً، ثم يتفق أن يلقي حكيماً أصابه ما أصاب ذلك، فتعرف الحبوب الغذائية، واستنبط بذرها وسقيها وحصادها ودياسها وتذريتها^(٣)، وحفظها إلى وقت الحاجة، واستنبط حفر الآبار للبعيد من العيون والأنهار واصطناع القلال^(٤) والقرب^(٥) والقصاع^(٦)، فيتخذ ذلك باباً من الارتفاع، ثم إنه يقضم الحبوب كما هي، فلا تنهضم في معدته، ويرتع الفواكه نيئة، فلا تنهضم، فيحاول شيئاً بإزاء هذه، فلا يهتدي سبيلاً، فيلقى حكيماً استنبط الطبخ والقلي والطحن والخبز، فيتخذ ذلك باباً آخر، وقس على ذلك حاجاته كلها.

والمستبصر^(٧) يشهد عنده لما ذكرنا حدوث كثير من المرافق في البلدان بعد ما لم تكن، فمضى على ذلك قرون، ولم يزالوا يفعلون ذلك حتى اجتمعت جملة صالحة من العلوم الإلهامية المؤيدة بالمكتسبة، ونشبت^(٨) عليها نفوسهم، وعليها كان محياهم ومماتهم^(٩)، وبالجمله فحال الإلهامات الضرورية مع هذه الأشياء الثلاثة كمثل النفس أصله

(١) النواجذ: الأسنان وعض عليها بالنواجذ، تمسك بها تمسكاً شديداً.

(٢) أي يقصد.

(٣) تذريتها: وطأها بأرجل البهائم، وتذريتها إطارة التبن عنها بالريح.

(٤) القلال: جرار كبيرة من الفخار.

(٥) قرب: جمع قربة وهي وعاء من الجلد ضيقة الفم.

(٦) قصاع: جمع قصعة وهي طبق للطعام ونحوه.

(٧) المستبصر: المتأمل.

(٨) نشبت: لزمت.

(٩) محياهم ومماتهم: حياتهم وموتهم.

ضروري بمنزلة حركة النبض، وقد انضم معه الاختيار في صغر الأنفاس وكبرها.

ولما كانت هذه الثلاثة لا توجد في جميع الناس سواء لاختلاف أمزجة الناس وعقولهم الموجبة للانبعاث، من رأي كلي، ولحب الظرافة، ولاستنباط الارتفاقات، والاقتراء فيها، واختلافهم في التفرغ للنظر^(١) ونحو ذلك من الأسباب كان للارتفاقات حدان.

للارتفاقات حدان:

الأول: هو الذي لا يمكن أن ينفك عنه أهل الاجتماعات القاصرة كأهل البدو وسكان شواهد الجبال والنواحي البعيدة من الأقاليم الصالحة، وهو الذي نسميه بالارتفاق الأول.

والثاني: ما عليه أهل الحضر والقرى العامرة من الأقاليم الصالحة المستوجبة أن ينشأ فيها أهل الأخلاق الفاضلة والحكماء، فإنه كثر هنالك الاجتماعات وازدحمت الحاجات، وكثرت التجارب، فاستنبطت سنن جزيلة^(٢)، وعضوا عليها بالنواجذ.

ارتفاق الطرف الأعلى:

والطرف الأعلى من هذا الحد ما يتعامله الملوك أهل الرفاهية الكاملة الذين يرد عليهم حكماء الأمم، فينتحلون^(٣) منهم سنناً صالحة، وهو الذي نسميه بالارتفاق الثاني.

ولما كمل الارتفاق الثاني أوجب ارتفاعاً ثالثاً، وذلك أنهم لما دارت بينهم المعاملات، وداخلها الشح والحسد والمطل والتجاهد، نشأت بينهم اختلافات ومنازعات وأنهم نشأ فيهم من تغلب عليه الشهوات الرديئة،

(١) النظر: أي الاستدلال.

(٢) جزيلة: عظيمة كثيرة.

(٣) يتحلون: يأخذون.

أو يجبل على الجراءة في القتل والنهب، وأنهم كانت لهم ارتفاقات مشتركة النفع لا يطبق واحد منهم إقامتها، أو لا تسهل عليه، أو لا تسمح نفسه بها، فاضطروا إلى إقامة ملك يقضي بينهم بالعدل، ويزجر عاصيهم، ويقاوم جريثهم، ويجبي^(١) منهم الخراج، ويصرفه في مصرفه.

الاضطرار إلى إقامة خليفة:

وأوجب الارتفاق الثالث ارتفاقاً رابعاً، وذلك أنه لما انفرد كل ملك بمدينته، وجبي إليه الأموال، وانضم إليه الأبطال، وداخلهم الشح^(٢) والحرص والحقد، تشاجروا فيما بينهم، وتقاتلوا، فاضطروا إلى إقامة الخليفة أو الانقياد لمن تسلط عليهم تسلط الخلافة الكبرى، وأعني بالخليفة من يحصل له من الشوكة^(٣) ما يرى معه، كالممتنع أن يسلبه رجل آخر ملكه، اللهم إلا بعد اجتماعات كثيرة، وبذل أموال خطيرة لا يتمكن منها إلا واحد في القرون المتطاولة، ويختلف الخليفة باختلاف الأشخاص والعادات، وأي أمة طبائعها أشد وأحد، فهي أجوج إلى الملوك والخلفاء ممن هي دونهما في الشح والشحناء^(٤).

ونحن نريد أن ننبهك على أصول هذه الارتفاقات وفهارس أبوابها، كما أوجبه عقول الأمم الصالحة ذوي الأخلاق الفاضلة، واتخذوه سنة مسلمة لا يختلف فيها أقاصيهم، ولا أدانيهم، فاستمع لما يتلى عليك.

باب الارتفاق الأول

اللغة من الارتفاقات المهمة:

منه اللغة المعبرة عما في ضمير الإنسان، والأصل في ذلك أفعال

(٢) الشح: البخل الشديد.

(٤) الشحناء: الخصومة.

(١) يجبي: يجمع.

(٣) الشوكة: القوة.

وهيئات وأجسام تلابس صوتاً ما^(١) بالمجاورة أو التسبب أو غيرهما، فحكى ذلك الصوت كما هو، ثم يتصرف فيه باشتقاق الصيغ^(٢) بإزاء اختلاف المعاني، ويشبه أمور مؤثرة في الأبصار، أو محدثة لهيئات وجدانية في النفس بالقسم الأول، ويتكلف له صوت كمثلها، ثم اتسعت اللغات بالتجوز لمشابهة أو مجاورة والنقل لعلاقة ما.

ومن الارتفاقات الزراعة والصناعة والسكنى :

وهنالك أصول أخرى ستجدها في بعض كلامنا.

ومنه الزرع والغرس وحفر الآبار وكيفية الطبخ والائتدام^(٣).

ومنه اصطناع الأواني والقرب.

ومنه تسخير البهائم واقتناؤها؛ ليستعان بظهورها ولحومها وجلودها وأشعارها وأوبارها وألبانها وأولادها.

ومنه مسكن يؤويه^(٤) من الحر والبرد من الغيران^(٥) والعشوش^(٦) ونحوها.

ومنه لباس يقوم مقام الريش من جلود البهائم أو أوراق الأشجار أو مما عملت أيديهم.

ومنه أن اهتدى لتعيين منكوحة لا يزاحمه فيها أحد، يدفع بها

(١) مثل الطعن بالرمح يلابس صوتاً هو طع طع فسمي بالطعن لملاسته ذلك الصوت. ولما كان الطعن في النسب مشابهاً بالطعن بالرمح سمي باسمه وهو من قبيل تشبيه الوجدانيات بالمحسوسات.

(٢) كالماضي والمضارع ونحوهما.

(٣) الائتدام: أكل الخبز مع الإدام. والإدام وكل ما أكل مع الخبز فهو إدام له.

(٤) يؤويه: يحفظه.

(٥) الغيران: جمع غار.

(٦) العشوش: جمع عش.

شبهه^(١)، ويذراً^(٢) بها نسله، ويستعين بها في حوائجه المنزلية وفي حضانة الأولاد وتربيتهم، وغير الإنسان لا يعينها إلا بنحو من الاتفاق أو بكونهما توأمين أدركا^(٣) على المرافقة ونحو ذلك.

ومنه أن اهتدى لصناعات لا يتم الزرع والغرس والحفر وتسخير البهائم وغير ذلك إلا بها كالمعول^(٤) والدلو والسكة^(٥) والحبال ونحوها.

ومنه أن اهتدى لمبادلات ومعاونات في بعض الأمر.

ومنه أن يقوم أسدهم رأياً وأشدهم بطشاً، فيسخر الآخرين، ويرأس^(٦) ويربع ولو بوجه من الوجوه.

ومنه أن تكون فيها سنة مسلمة لفصل خصوماتهم، وكبح ظالمهم^(٧)، ودفع من يريد أن يغزوهم، ولا بد أن يكون في كل قوم من يستنبط طرق الارتفاق فيما يهمهم شأنه، فيقتدي به سائر الناس، وأن يكون فيهم من يحب الجمال والرفاهية والدعة^(٨)، ولو بوجه من الوجوه، ومن يباهي^(٩) بأخلاقه من الشجاعة والسماحة والفصاحة والكيس^(١٠) وغيرها، ومن يحب أن يطير صيته، ويرتفع جاهه، وقد من الله تعالى في كتابه العظيم على عباده بإلهام شعب هذا الارتفاق^(١١) لعلمه بأن التكليف بالقرآن يعم أصناف الناس وأنه لا يشملهم جميعاً إلا هذا النوع من الارتفاق والله أعلم.

(١) شبهة: شهوته الجنسية.

(٢) ذراً: يكثر.

(٣) أدركا: بلغا.

(٤) معول: آلة لحفر الأرض.

(٥) السكة: حديدة لشق الأرض لأجل زراعتها.

(٦) يرأس: يصير رئيساً، ويربع أي يستقيم. (٧) كبح ظالمهم: منعه من الظلم.

(٩) يباهي: يفاخر.

(٨) الدعة: الراحة.

(١١) أي الأول.

(١٠) الكيس: الذكاء.

باب فن آداب المعاش

اختيار الهيئات النافعة :

وهي الحكمة الباحثة عن كيفية الارتفاق من الحاجات المبينة من قبل على الحد الثاني ، والأصل فيه أن يعرض الارتفاق الأول على التجربة الصحيحة في كل باب ، فيختار الهيئات البعيدة من الضرر، القريبة من النفع ، ويترك ما سوى ذلك ، وعلى الأخلاق الفاضلة التي يجبل عليها أهل الأمزجة الكاملة ، فيختار ما توجهه ، وتقتضيه ، ويترك ما سوى ذلك ، وعلى حسن الصحبة بين الناس ، وحسن المشاركة معهم ، ونحو ذلك من المقاصد الناشئة من الرأي الكلي .

ترقية آداب الأكل والشرب واللباس وسواها :

ومعظم مسائله^(١) آداب الأكل والشرب والمشي والقعود والنوم والسفر والخلاء والجماع واللباس والمسكن والنظافة والزينة ومراجعة الكلام والتمسك بالأدوية والرقى في العاهات^(٢) ، وتقدمة المعرفة في الحوادث المجمععة ، والولائم عند عروض فرح من ولادة ونكاح وعيد وقدم مسافر وغيرها ، والمآتم عند المصائب وعبادة المرضى ودفن الموتى .

تجنب ما فيه ضرر :

فإنه أجمع من يعتد به من أهل الأمزجة الصحيحة سكان البلدان المعمورة على ألا يؤكل الطعام الخبيث كالميت حتف أنفه^(٣) والمتعفن والحيوان البعيد من اعتدال المزاج وانتظام الأخلاق ، ويستحبون أن يوضع

(١) أي المعاش .

(٢) العاهات : الأفات .

(٣) حتف أنفه : أي الميت بنفسه بغير قتل أو ذبح .

الطعام في الأواني ، وتوضع هي على السفر ونحوها ، وأن ينظف الوجه واليدان عند إرادة الأكل ، ويحترز عن هيئات الطيش^(١) والشره والتي تورث الضغائن^(٢) في قلوب المشاركين وألا يشرب الماء الآجن^(٣) ، وأن يحترز من الكرع والعب^(٤) .

استحباب ما ينفع :

وأجمعوا على استحباب النظافة نظافة البدن والثوب والمكان عن شيئين من النجاسات الممتنة المتقدرة ، وعن الأوساخ النابتة على نهج طبيعي كالبحر^(٥) يزال بالسواك وكشعر الإبط والعانة وكتوسخ الثياب واعشيشاب^(٦) البيت ، وعلى استحباب أن يكون الرجل شامة^(٧) بين الناس قد سوى لباسه وسرح رأسه ولحيته .

ترقيه المظاهر الإنسانية :

والمرأة إذا كانت تحت رجل تتزين بخضاب^(٨) وحلي ونحو ذلك ، وعلى أن العري شين^(٩) واللباس زين وظهور السواتين^(١٠) عار ، وأن أتم اللباس ما ستر عامة البدن وكان ساتر العورة غير ساتر البدن ، وعلى مقدمة

(١) الطيش : الحمق .

(٢) الضغائن : الأحقاد .

(٣) الآجن : العفن .

(٤) الكرع : أن يشرب الماء بفيه من موضعه من غير الكفين والإناء ، والعب : تتابع الجرع .

(٥) البحر : بفتحيتين تنن الفم .

(٦) اعشوشبت الأرض أي كثر عشبها والمراد من اعشيشاب البيت وجود قطعات العشب وغيره فيه .

(٧) هي علامة تخالف لون البدن الذي هي فيه والمراد ههنا أن يكون ظاهر النظافة بين الناس .

(٨) الخضاب : صبغ الكفين والقدمين بالحناء ونحوه .

(٩) شين : عيب .

(١٠) السواتين : القبل والدبر وسميتا بالسواتين لأنهما يسوء إظهارهما ويعيب .

المعرفة بشيء من الأشياء إما بالرؤية أو بالنجوم أو الطيرة أو العيافة^(١) والكهانة والرمل ونحو ذلك.

اختيار الكلام الكريم:

وكل من خلق على مزاج صحيح وذوق سليم يختار لا محالة في كلامه من الألفاظ كل لفظ غير وحشي^(٢)، ولا ثقيل على اللسان، ومن التراكيب كل تركيب متين جيد، ومن الأساليب كل أسلوب يميل إليه السمع، ويركن إليه القلب وهذا الرجل هو ميزان الفصاحة.

وبالجملة ففي كل باب مسائل إجماعية مسلمة بين أهل البلدان وإن تباعدت، والناس بعدها في تمهيد قواعد الآداب مختلفون، فالطبيعي يمهدها على استحسانات الطب والمنجم على خواص النجوم، والإلهي على الإحسان كما تجدها في كتبهم مفصلة، ولكل قوم زي وآداب يتميزون بها، يوجبها اختلاف الأمزجة والعادات ونحو ذلك.

باب تدبير المنزل

الصلوات البشرية:

وهو الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المنزل على الحد الثاني من الارتفاق وفيه أربع جمل: الزواج، والولادة، والملكة، والصحة.

الصلوات العائلية:

والأصل في ذلك أن حاجة الجماع أوجبت ارتباطاً واصطحاباً بين الرجل والمرأة، ثم الشفقة على المولود أوجبت تعاوناً منهما في حضائته،

(١) العيافة: بالكسر التفاؤل بالطيور. (٢) الوحشي: غير المأنوس.

وكانت المرأة أهداهما للحضانة^(١) بالطبع، وأخفهما عقلاً، وأكثرهما انحجماً^(٢) من المشاق، وأتمهما حياءً ولزوماً للبيت، وأحذقهما سعياً في محقرات الأمور وأوفرهما انقياداً، وكان الرجل أسدهما^(٣) عقلاً، وأشدّهما ذباً^(٤) عن الذمار^(٥)، وأجراًهما على الاقتحام^(٦) في المشاق، وأتمهما تيبهاً وتسلطاً ومناقشةً وغيره، فكان معاش هذه لا تتم إلا بذاك، وذاك يحتاج إلى هذه.

تنظيم العلاقة الجنسية :

وأوجب مزاحمات الرجال على النساء وغيرتهم عليهن ألا يصلح أمرهم إلا بتصحيح اختصاص الرجل بزوجه على رؤوس الأشهاد، وأوجب رغبة الرجل في المرأة، وكرامتها على وليها، وذبه عنها أن يكون مهرًا وخطبة وتصدق من الولي، وكان لو فتح رغبة الأولياء في المحارم أفضى ذلك إلى ضرر عظيم عليها من عضلها^(٧) عن ترغيب فيه، وألا يكون لها من يطالب عنها بحقوق الزوجية مع شدة احتياجها إلى ذلك وتكدير الرحم بمنازعات الضرات ونحوها مع ما تقتضيه سلامة المزاج من قلة الرغبة في التي نشأ^(٨) منها، أو نشأت منه، أو كان كفصني دوحه.

وأوجب الحياء عن ذكر الحاجة إلى الجماع أن تجعل مدسوسة^(٩)

(١) الحضانة : التربية .

(٢) الانحجام : بتقديم الحياء على الجيم الامتناع .

(٣) أسدهما : أصوبهما .

(٤) ذباً : دفاعاً .

(٥) الذمار : ما يُحمى ويدافع عنه كالأهل والشرف .

(٦) أي الدخول .

(٧) عضلها : أي منعها من الزواج .

(٨) أي الرجل منها كالأم أو نشأت أي المرأة منه كالبنات أو كانا كفصني دوحه كالأخت .

(٩) مدسوسة : مخفية .

في ضمن عروج^(١) يتوقع لهما كأنه الغاية التي وجدا لها.

وأوجب التلطف في التشهير، وجعل الملاك المنزلي عروجاً أن تجعل وليمة يدعي الناس إليها ودف وطرب.

عقد الزواج علناً:

وبالجملة فلوجوه جملة مما ذكرنا، ومما حذفنا - اعتماداً على ذهن الأذكيا - كان النكاح بالهيئة المعتادة أعني نكاح غير المحارم بمحضر من الناس مع تقديم مهر وخطبة وملاحظة كفاءة وتصد من الأولياء ووليمة، وكون الرجال قوامين على النساء متكفلين معاشهن، وكونهن خادمت حاضنات مطيعات سنة^(٢) لازمة، وأمرأ مسلماً عند الكافة^(٣)، وفطرة فطر الله الناس عليها لا يختلف في ذلك عربهم ولا عجمهم.

تنظيم الفراق:

ولما لم يكن بذل الجهد منهما في التعاون بحيث يجعل كل واحد ضرر الآخر، ونفعه كالراجع إلى نفسه إلا بأن يوطنا أنفسهما على إدامة النكاح، ولا بد من إبقاء طريق للخلاص إذا لم يطاوعا، ولم يتراضيا وإن كان من أبغض المباحات وجب في الطلاق ملاحظة قيود وعدة، وكذا في وفاته عنها تعظيماً لأمر النكاح في النفوس وأداء لبعض حق الإدامة ووفاء لعهد الصحبة، ولئلا تشبه الأنساب.

تنظيم علاقة الأبناء بالأباء:

وأوجبت حاجة الأولاد إلى الأباء، وحبهم^(٤) عليهم بالطبع أن يكون تمرين الأولاد على ما ينفعهم فطرة، وأوجب تقدم الأباء عليهم، فلم

(١) عروج: أي مكان مرتفع عن الأنظار. (٢) خبر كان.

(٣) الكافة: الجميع. (٤) حبهم: عطفهم.

يكبروا إلا والآباء أكثر عقلاً وتجربةً مع ما يوجبه صحة الأخلاق من مقابلة الإحسان بالإحسان، وقد قاسوا في تربيتهم ما لا حاجة إلى شرحه أن يكون^(١) بر الوالدين سنة لازمة.

اختلاف الاستعداد أوجب وجود طبقات اجتماعية:

وأوجب اختلاف استعداد بني آدم أن يكون فيهم السيد بالطبع، وهو الأكيس^(٢) المستقل بمعيشتة ذو سياسة ورفاهية جبلتين^(٣)، والعبد بالطبع وهو الأخرق^(٤) التابع ينقاد كما يقاد، وكان معاش كل واحد لا يتم إلا بالآخر، ولا يمكن التعاون في المنشط^(٥) والمكره إلا بأن يوطنا أنفسهما على إدامة هذا الربط، ثم أوجبت اتفاقات أخر أن يأسر بعضهم بعضاً، فوقع ذلك منهم بموقع، وانتظمت الملكة.

ولا بد من سنة يؤخذ كل واحد نفسه عليها، ويلام على تركها، ولا بد من إبقاء طريق الخلاص في الجملة بمال أو بدونه، وكان يتفق كثيراً أن تقع على الإنسان حاجات وعاهات^(٦) من مرض وزمانة^(٧) وتوجه حق عليه وحوائح يضعف عن إصلاح أمره معها إلا بمعاونة بني جنسه، وكان الناس فيها سواسية^(٨)، فاحتاجوا إلى إقامة ألفة بينهم وإدامتها، وأن تكون لإغاثة المستغيث^(٩) وإعانة الملهوف سنة بينهم يطالبون بها، ويلامون عليها.

(١) هو مفعول أوجب.

(٢) الأكيس: الأذكي.

(٣) جبلة: طبيعة.

(٤) أي الأحمق.

(٥) المنشط: ما تقدم عليه النفس راغبة والمكره هو العكس.

(٦) عاهات: عيوب.

(٧) زمانة: آفة مزمنة لا براء منها.

(٨) يقال هم سواء وأسواء وسواسية أي أشباه. وزنه فعافعه ذهب عنه الحرف الثالث فإن سواء

فعال وسية فعة.

(٩) المستغيث: طالب النجدة.

الحاجات على حدين :

ولما كانت الحاجات على حدين : حد لا يتم إلا بأن يعد كل واحد ضرر الآخر ونفعه راجعاً إلى نفسه، ولا يتم إلا ببذل كل واحد الطاقة في موالاة الآخر ووجوب الإنفاق عليه والتوارث، وبالجمله فبأمور تلزمهم من الجانبين ليكون الغنم بالغرم^(١)، وكان أليق الناس بهذا الحد الأقارب لأن تحاببهم واصطحابهم كالأمر الطبيعي .

وحد يتأتى بأقل من ذلك فوجب أن تكون مواساة أهل العاهات سنة مسلّمة بين الناس، وأن تكون صلة الرحم أوكد، وأشد من ذلك كله .

معرفة الأسباب المقتضية للزواج وتركه :

ومعظم مسائل هذا الفن معرفة الأسباب المقتضية للزواج وتركه وسنة الزواج وصفة الزوج والزوجة، وما على الزوج من حسن المعاشرة وصيانة الحرم عن الفواحش والعار، وما على المرأة من التعفف وطاعة الزوج وبذل الطاقة في مصالح المنزل وكيفية صلح المتناشزين^(٢) وسنة الطلاق وإحداد المتوفى عنها زوجها وحضانة الأولاد وبر الوالدين وسياسة الممالك والإحسان إليهم وقيام الممالك بخدمة الموالى^(٣) وسنة الإعتاق وصلة الأرحام والجيران والقيام بمواساة فقراء البلد والتعاون في دفع عاهات طارئة عليهم، وأدب نقيب القبيلة وتعهده حالهم، وقسمة التركات بين الورثة والمحافظة على الأنساب والأحساب، فلن تجد أمة من الناس إلا وهم يعتقدون أصول هذه الأبواب ويجهدون في إقامتها على اختلاف أديانهم وتباعد بلدانهم والله أعلم .

(١) الغنم بالغرم : الكسب مقابل الخسارة .

(٢) المتناشزين : المتخاصمين .

(٣) الممالك : العبيد ، والموالى : الأسياد .

باب فن المعاملات

وهو الحكمة الباحثة عن كيفية إقامة المبادلات والمعاونات والإكساب على الارتفاق الثاني .

مبادلة الحوائج ضرورة إنسانية :

والأصل في ذلك أنه لما ازدحمت الحاجات، وطلب الإتيان فيها، وأن تكون على وجه تقرُّ به الأعين، وتلذ به الأنفس تعذر إقامتها من كل واحد، وكان بعضهم وجد طعاماً فاضلاً عن حاجته، ولم يجد ماءً وبعضهم ماءً فاضلاً ولم يجد طعاماً فرغب كل واحد فيما عند الآخر، فلم يجدوا سبيلاً إلا المبادلة، فوَقعت تلك المبادلة بموقع من حاجتهم فاصطلحوا بالضرورة على أن يقبل كل واحد على إقامة حاجة واحدة وإتقانها والسعي في جميع أدواتها ويجعلها ذريعة^(١) إلى سائر الحوائج بواسطة المبادلات، وصارت تلك سنة مسلمة عندهم .

اختيار الذهب والفضة في المبادلات :

ولما كان كثير من الناس يرغب في شيء وعن شيء، فلا يجد من يعامله في تلك الحالة، اضطروا إلى تقديمه وتهيئته، واندفعوا إلى الاصطلاح على جواهر معدنية تبقى زماناً طويلاً أن تكون المعاملة بها أمراً مسلماً عندهم، وكان الأليق من بينها، الذهب والفضة لصغر حجمهما، وتمائل أفرادهما، وعظم نفعهما في بدن الإنسان ولتأتي التجمل بهما، فكانا نقدين بالطبع، وكان غيرهما نقداً بالاصطلاح .

أصول المكاسب :

وأصول المكاسب الزرع والرعي والتقاط الأموال المباحة من البر

(١) ذريعة : حجة .

والبحر من المعدن والنبات والحيوان والصناعات من نجارة وحدادة وحياسة وغيرها مما هو من جعل الجواهر الطبيعية بحيث يتأتى منها الارتفاق المطلوب ، ثم صارت التجارة كسباً ، ثم صار الإقبال على كل ما يحتاج الناس إليه كسباً .

تفرع حواشي المكاسب :

وكلما رقت النفوس ، وأمعت في حب اللذة والرفاهية ، تفرعت حواشي المكاسب ، واختص كل رجل بكسب لأحد شيئين مناسبة القوى فالرجل الشجاع يناسب الغزو ، والكيس الحافظ يناسب الحساب ، وقوي البطش يناسب حمل الأثقال وشاق الأعمال ، واتفاقات توجد فولد الحداد وجاره يتيسر له من صناعة الحدادة ما لا يتيسر له من غيرها ولا لغيره منها ، وقاطن ساحل البحر يتأتى منه صيد الحيتان^(١) دون غيره ودون غيرها ، وبقيت نفوس أعيت^(٢) بها المذاهب الصالحة ، فأنحدروا^(٣) إلى أكساب ضارة بالمدينة كالسرقة والقمار والتكدي^(٤) .

أنواع المبادلة :

والمبادلة إما عين بعين ، وهو البيع ، أو عين بمنفعة ، وهي الإجارة ، ولما كان انتظام المدينة لا يتم إلا بإنشاء ألفة ومحبة بينهم ، وكانت الألفة كثيراً ما تفضي إلى بذل المحتاج إليه بلا بدل أو تتوقف عليه انشعبت^(٥) الهبة والعارية ، ولا تتم أيضاً إلا بمواساة الفقراء انشعبت الصدقة وأوجبت المعدات أن يكون منهم الأخرق^(٦) والكافي والمملىق^(٧) والمثري والمستنكف^(٨) من الأعمال الخسيسة وغير المستنكف والذي ازدحمت

(١) الحيتان : الأسماك كبيرها وصغيرها .
(٢) أعيت : أتعبت .
(٣) أنحدروا : هبطوا .
(٤) التكدي : طلب العطاء من الناس .
(٥) انشعبت : تفرعت .
(٦) أي الأحمق والمملىق المفلس .
(٧) المملىق : الفقير .
(٨) المستنكف : المترفع عن .

عليه الحاجات والمتفرغ^(١)، فكان معاش كل واحد لا يتم إلا بمعاونة آخر، ولا معاونة إلا بعقد وشروط واصطلاح على سنة، فانشعبت المزارعة والمضاربة والإجارة والشركة والتوكيل، ووقعت حاجات تسوق إلى مداينة ووديعة، وجربوا الخيانة والجحود^(٢) والمطل فاضطروا إلى إشهاد وكتابة وثائق ورهن وكفالة وحوالة، وكلما ترفهت النفوس انشعبت أنواع المعاونات، ولن تجد أمة من الناس إلا ويباشرون هذه المعاملات ويعرفون العدل من الظلم والله أعلم.

باب سياسة المدينة

وهي الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة - وأعني بالمدينة جماعة متقاربة تجري بينهم المعاملات ويكونون أهل منازل شتى.

المدينة شخص واحد:

والأصل في ذلك أن المدينة شخص واحد من جهة ذلك الربط مركب من أجزاء وهيئة اجتماعية، وكل مركب يمكن أن يلحقه خلل في مادته أو صورته ويلحقه مرض أعني حالة غيرها أليق به باعتبار نوعه، وصحة أي حالة تحسنه وتجمله.

اختيار شخص لإدارة المدينة:

ولما كانت المدينة ذات اجتماع عظيم لا يمكن أن يتفق رأيهم جميعاً على حفظ السنة^(٣) العادلة، ولا أن ينكر بعضهم على بعض من غير أن يمتاز بمنصب إذ يفضي ذلك إلى مقاتلات عريضة لم ينتظم أمرها إلا برجل

(١) أي من الحاجات.

(٢) الجحود: الإنكار.

(٣) السنة: الطريقة.

اصطلح على طاعته جمهور أهل الحل والعقد له أعوان وشوكة^(١)، وكل من كان أشح وأحد وأجراً على القتل والغضب، فهو أشد حاجة إلى السياسة.

المدينة تتعرض لأنواع الخلل :

ومن الخلل أن تجتمع أنفس شريرة لهم منعة وشوكة على اتباع الهوى ورفض السنة العادلة، إما طمعاً في أموال الناس، وهم قطاع الطرق، أو إضراراً لهم بغضب أو حقد أو رغبة في الملك، فيحتاج في ذلك إلى جمع رجال ونصب قتال.

وجوب منع الظلم والتعدي :

ومنه إصابة ظالم إنساناً بقتل أو جرح أو ضرب أو في أهله بأن يزاحم على زوجته، أو يطمع في بناته وأخواته لغير حق، أو في ماله من غصب جهرة أو سرقة خفية، أو في عرضه من نسبه إلى أمر قبيح يلام به أو إغلاظ القول عليه.

وجوب منع الفساد :

ومنه أعمال ضارة بالمدينة ضرراً خفياً كالسحر ودس السم وتعليم الناس الفساد وتخيب^(٢) الرعية على الملك والعبد على مولاه والزوجة على زوجها.

ومنه عادات فاسدة فيها إهمال للارتفاقات الواجبة كاللواطه والسحاقة^(٣) وإتيان البهائم، فإنها تصد عن النكاح أو انسلاخ عن الفطرة

(١) شوكة : قوة ومنعة.

(٢) تخيب : إفساد .

(٣) اللواطه : العلاقة الجنسية الشاذة بين الرجال واسمها منسوب إلى قوم لوط . والسحاقة : العلاقة الجنسية الشاذة بين النساء .

السليمة كالرجل يؤنث والمرأة تذكر، أو حدوث لمنازعات عريضة كالمزاحمة على الموطوءة من غير اختصاص بها وكإدمان الخمر^(١).

منع المعاملات الضارة:

ومنه معاملات ضارة بالمدينة كالقمار والربا أضعافاً مضاعفة والرشوة وتطفييف الكيل^(٢) والوزن والتدليس في السلع^(٣) وتلقي الجلب^(٤) والاحتكار والنجش^(٥).

منع الخصومات ومنع أسبابها:

ومنه خصومات مشكلة يتمسك فيها كل بشبهة، ولا تنكشف جلية الحال، فيحتاج إلى التمسك بالبينات والإيمان والوثائق وقرائن الحال ونحوها، وردها إلى سنة مسلمة، وإبداء وجه الترجيح، ومعرفة مكاييد المتخاصمين ونحو ذلك.

توزع الاختصاصات:

ومنه أن يبدو أهل المدينة، ويكتفوا بالارتفاق الأول، أو يتمدنا في غير هذه المدينة، أو يكون توزعهم في الإقبال على الإكساب بحيث يضر بالمدينة مثل أن يقبل أكثرهم على التجارة، ويدعوا الزراعة، أو يتكسب أكثرهم بالغزو ونحوه، وإنما ينبغي أن يكون الزراع بمنزلة الطعام والصناع والتجار والحفظة بمنزلة الملح المصلح له.

(١) إدمان الخمر: إدامة شربها.

(٢) تطفييف الكيل: إساءة الكيل ومنه قوله تعالى: ﴿ويل للمطففين﴾.

(٣) التدليس في السلع: كتم عيوب البضاعة.

(٤) وهو أن يأتي التجار الذين جاءوا من البلد الآخر قبل دخولهم بلدهم واشتراء أجناسهم لبيعها عالية.

(٥) النجش: نجش الرجل نجشاً من باب قتل. إذا زاد في سلعة أكثر من ثمنها وليس قصده أن يشتريها بل ليغر غيره فيوقعه فيه.

مكافحة السباع الضارية والهوام:

ومنه انتشار السباع الضارية والهوام^(١) المؤذية، فيجب السعي في إفنائها. ومن باب كمال الحفظ بناء الأبنية التي يشتركون في الانتفاع بها كالأسوار والربط^(٢) والحصون والثغور^(٣) والأسواق والقناطر.

الاستفادة من الحياة والأنهار:

ومنه حفر الآبار واستنباط العيون وتهيئة السفن على سواحل الأنهار.

وجوب إخلاص أهل المهن لمهنتهم:

ومنه^(٤) حمل التجار على الميرة بتأنيسهم وتأليفهم وتوصية أهل البلد أن يحسنوا المعاملة مع الغرباء، فإن ذلك يفتح باب كثرة ورودهم، وحمل الزراع على ألا يتركوا أرضاً مهملة، والصناع أن يحسنوا الصناعات، ويتقنوها، وأهل البلد على اكتساب الفضائل كالخط والحساب والتاريخ والطب والوجوه الصحيحة من تقدمه المعرفة.

ومنه معرفة أخبار البلد لتمييز الداعر^(٥) من الناصح، وليعلم المحتاج، فيعان وصاحب صنعة مرغوبة، فيستعان به.

سبب خراب البلدان:

وغالب سبب خراب البلدان في هذا الزمان شيان أحدهما تضيقهم على بيت المال بأن يعتادوا التكسب بالأخذ منه على أنهم من الغزاة، أو من العلماء الذين لهم حق فيه، أو من الذين جرت عادة الملوك بصلتهم كالزهاد والشعراء، أو بوجه من وجوه التكدي^(٦)، ويكون العمدة عندهم

(١) الهوام: الحشرات.

(٢) الربط: جمع رباط وهو مكان تجمع الجنود في الثغور للدفاع عن ديار الإسلام.

(٣) الثغور: جمع ثغر وهو الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو.

(٤) أي من باب كمال الحفظ وقوله الميرة أي القوت.

(٥) الداعر: المفسد. (٦) التكدي: طلب الصدقة من الناس.

هو التكسب دون القيام بالمصلحة، فيدخل قوم على قوم، فينغصون عليهم^(١)، ويصيرون كلاً^(٢) على المدينة.

والثاني: ضرب الضرائب^(٣) الثقيلة على الزراع والتجار والمتحرفة والتشديد عليهم حتى يفضي إلى إجحاف^(٤) المطاوعين واستئصالهم، وإلى تمنع أولي بأس شديد وبغيهم^(٥) وإنما تصلح المدينة بالجباية^(٦) اليسيرة وإقامة الحفظة بقدر الضرورة، فليتنبه أهل الزمان لهذه النكته والله أعلم.

باب سيرة الملوك

صفات الملك الخلقية:

يجب أن يكون الملك متصفاً بالأخلاق المرضية، وإلا كان كلاً على المدينة، فإن لم يكن شجاعاً ضعف عن مقاومة المحاربين، ولم تنظر إليه الرعية إلا بعين الهوان^(٧)، وإن لم يكن حليماً كاد يهلكهم بسطوته^(٨)، وإن لم يكن حكيماً لم يستنبط التدبير المصلح، وأن يكون عاقلاً بالغاً حراً ذكراً ذا رأي وسمع وبصر ونطق ممن سلم الناس شرفه وشرف قومه، ورأوا منه ومن آبائه المآثر الحميدة، وعرفوا أنه لا يألو جهداً^(٩) في إصلاح المدينة، هذا كله يدل عليه العقل، وأجمعت عليه أمم بني آدم على تباعد بلداتهم واختلاف أديانهم لما أحسوا من أن المصلحة المقصودة من نصب الملك

(١) التنغيص عليهم: إزعاجهم.

(٢) كلاً: عالة.

(٣) الضرائب: الخراجات.

(٤) بتقديم الجيم على الحاء، أجحف: كلفه ما لا يطيق.

(٥) بغيهم: ظلمهم.

(٦) جباية: خراج.

(٧) الهوان: الذل.

(٨) سطوة: قوة.

(٩) لا يألو جهداً: لا يقصر.

لا تتم إلا به، فإن وقع شيء من إهماله رأوه خلاف ما ينبغي، وكرهته قلوبهم، ولو سكتوا سكتوا على غيظ.

لا بد للملك من الهيئة:

ولا بد للملك من إنشاء الجاه^(١) في قلوب رعيته، ثم حفظه وتدارك الخادشات^(٢) له بتدبيرات مناسبة، ومن قصد الجاه فعليه أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة مما يناسب رياسته كالشجاعة والحكمة والسخاوة والعفو عن ظلم وإرادة نفع العامة، ويفعل بالناس ما يفعل الصياد بالوحش، فكما أن الصياد يذهب إلى الغيضة^(٣)، فينظر إلى الطباء، ويتأمل الهيئة المناسبة لطبائعها وعاداتها، فيتهاى بتلك الهيئة، ثم يبرز لها من بعيد، ويقصر النظر على عيونها وآذانها، فمهما عرف منها تيقظاً أقام بمكانه كأنه جماد ليس به حراك، ومهما عرف منها غفلة دب إليها ديبياً، وربما أطربها بالنغم، وألقى إليها أطيب ما ترومه من العلف على أنه صاحب كرم بالطبع، وأنه لم يقصد بذلك صيدها، والنعم تورث حب المنعم، وقيد المحبة أوثق من قيد الحديد، فكذلك الرجل الذي يبرز إلى الناس ينبغي أن يؤثر هيئة ترغب فيها النفوس من زي ومنطق وأدب.

على الملك أن يظهر النصح والمحبة:

ثم يتقرب منهم هوناً^(٤)، ويظهر إليهم النصح والمحبة من غير مجازفة^(٥) ولا ظهور قرينة تدل على أن ذلك لصيدهم، ثم يعلمهم أن نظيره كالممتنع في حقهم حتى يرى أن نفوسهم قد اطمأنت بفضلته وتقدمه، وصدورهم قد امتلأت مودة وتعظيماً، وجوارحهم تدابت خشوعاً

(١) الجاه: القدر والشرف وعلو المنزلة. (٢) خدش: عاب.

(٣) الغيضة: مجمع الشجر في مفيض الماء - الأجمة.

(٤) الهون: اللين. (٥) من الجزاف وهو معرب كزاف.

وإخباتاً^(١)، ثم ليحفظ ذلك فيهم، فلا يكن منه ما يختلفون به عليه، فإن فرط شيء من ذلك، فليتداركه بلطف وإحسان وإظهار أن المصلحة حكمت بما فعل، وأنه لهم لا عليهم.

طاعة الملك واجبة:

والملك مع ذلك يحتاج إلى إيجاب طاعته بالانتقام ممن عصاه، فمهما استشعر من رجل كفاية في حرب أو جباية^(٢) أو تدبير، فليضاعف عطائه، وليرفع قدره، وليبسط له بشره^(٣)، ومهما استشعر منه خيانة وتخلفاً وانسلاً^(٤)، فلينقص من عطائه، وليخفض من قدره، وليطو عنه بشره، وإلى يسار أكمل من يسار الناس، وليكن مما لا يضيق عليهم كموات يحييه وناحية بعيدة يحميها ونحو ذلك، وإلى ألا يبطش بأحد إلا بعد أن يصحح على أهل الحال والعقد أنه يستحقه^(٥)، وأن المصلحة الكلية حاكمة به.

على الملك أن يكون ذا فراسة:

ولا بد للملك من فراسة^(٦) يتعرف بها ما أضمرت نفوسهم، ويكون المعياً^(٧) يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع، ويجب عليه ألا يؤخر ما لا بد منه إلى غد، ولا يصبر إن رأى منهم أحداً يضر عداوته دون فك نظامه وإضعاف قوته والله أعلم.

(١) الاخبات: الخضوع والخشوع لله تعالى. (٢) جباية: جمع الخراج.

(٣) بشره: أي وجهه.

(٤) انسلال: انسل خرج خفية وكذلك تأتي بمعنى استخفى.

(٥) أي: البطش.

(٦) فراسة: إدراك الباطن من نظر الظاهر.

(٧) الألمعي: الذكي المتوقع.

باب سياسة الأعوان

أعوان الملك وشروطهم :

لما كان الملك لا يستطيع إقامة هذه المصالح كلها بنفسه وجب أن يكون له بإزاء كل حاجة أعوان، ومن شرط الأعوان: الأمانة والقدرة على إقامة ما أمروا به وانقيادهم للملك والنصح له ظاهراً أو باطناً، وكل من خالف هذه الشريطة. فقد استحق العزل، فإن أهمل الملك عزله، فقد خان المدينة، وأفسد على نفسه أمره.

وينبغي أنه لا يتخذ الأعوان ممن يتعذر عزله، أو ممن له حق على الملك من قرابة أو نحوها، فيقبح عزله، وليميز الملك بين محبيه، فمنهم من يحبه لرهبه أو لرغبته، فليجره إليه بحيلة، ومنهم من يحبه لذاته، ويكون نفعه نفعاً له، وضرره ضرراً عليه، فذلك المحب الناصح ولكل إنسان جبلة جُبل عليها وعادة اعتادها، ولا ينبغي للملك أن يرجو من أحد أكثر مما عنده.

أنواع الأعوان :

والأعوان إما حفظة من شر المخالفين بمنزلة اليدين الحاملتين للسلاح من بدن الإنسان، وإما مدبرون للمدينة بمنزلة القوى الطبيعية من الإنسان أو المشاورون للملك بمنزلة العقل والحواس للإنسان.

ويجب على الملك أن يسأل كل يوم ما فيهم من الأخبار، ويعلم ما وقع من الإصلاح وضده.

سياسة جباية الضرائب :

ولما كان الملك وأعوانه عاملين للمدينة عملاً نافعاً وجب أن يكون رزقهم عليها، ولا بد أن يكون بجباية العشور^(١) والخراج سنة عادلة لا تضر

(١) جباية العشور: جمعها.

بهم، وقد كفت الحاجة، ولا ينبغي أن يضرب على كل أحد وفي كل مال، والأمر ما أجمعت ملوك الأمم من مشارق الأرض ومغاربها أن تكون الجباية من أهل الدثور^(١) والقناطير المقنطرة، ومن الأموال النامية كماشية متناسلة وزراعة وتجارة، فإن احتيج إلى أكثر من ذلك، فعلى رؤوس الكاسيين لا بد للملك من سياسة جنوده:

ولا بد للملك من سياسة جنوده، وطريق السياسة ما يفعله الرائض^(٢) الماهر بفرسه حيث يتعرف أصناف الجري من إرقال^(٣) وهرولة^(٤) وعدو وغيرها، والعادات الذميمة من حرونة^(٥) ونحوها، والأمور التي تنبه الفرس تنبهاً بليغاً كالنخس^(٦) والزجر^(٧) والسوط، ثم يراقبه، فكلما فعل ما لا يرتضيه، أو ترك ما يرتضيه ينبه بما ينقاد له طبعه، وتنكسر به سورته، وليقصد في ذلك ألا يتشوش خاطره، فلا يتفطن لماذا ضربه، ولتكن صورة الأمر الذي يلقيه إليه متمثلة في صدره منعقدة في قلبه والخوف من المجازاة مقيماً في خاطره، ثم إذا حصل فعل المطلوب والكف عن المهروب لا ينبغي أن يترك الرياضة حتى يرى أن الطريقة المطلوبة صارت خلقاً له وديناً^(٨)، وصار بحيث لولا الزجر لما ركن إلى خلافها، فكذلك يجب على رائض الجنود أن يعرف الطريقة المطلوبة فعلاً وكفاً^(٩) والأمور التي يقع بها تنبيههم، وليكن من شأنه ألا يهمل شيئاً من ذلك أبداً.

أعوان الملك خمسة:

وليس للأعوان حصر في عدد لكنه يدور على دوران حاجات

- | | |
|---------------------------------------|--------------------------------|
| (١) الدثور: جمع دثر وهو المال الكثير. | (٢) الرائض: الممرن. |
| (٣) الإرقال: ضرب من المشي السريع. | (٤) الهرولة: أقل نوع من العدو. |
| (٥) حرونة: ممتنعة عن الطاعة بعناد. | (٦) النخس: الوخز. |
| (٧) الزجر: النهي بشدة. | (٨) الديدن: الدأب والعادة. |
| (٩) كفاً: منعاً. | |

المدينة، فربما تقع الحاجة إلى اتخاذ عونين في حاجة، وربما كفى عون
لحاجتين، غير أن رؤوس الأعوان خمسة:

القاضي:

القاضي، وليكن حراً ذكراً بالغاً عاقلاً كافياً عارفاً بسنة المعاملات
وبمكايد الخصوم في اختصاصهم، وليكن صلباً حليماً جامعاً للأمرين،
ولينظر في مقامين: أحدهما معرفة جلية الحال، وهي إما عقد أو مظلمة
أو سابقة بينهما، وثانيهما ما يريد كل واحد من صاحبه أي الإرادتين أصوب
وأرجح ولينظر في وجه المعرفة، فهناك حجة لا يريب فيها الناس تقتضي
الحكم الصراح، وحجة ليست بذاك تقتضي حكماً دون الحكم الأول.

أمير الجند:

وأمير الغزاة، وليكن من شأنه معرفة عدة الحرب وتأليف الأبطال
والشجعان ومعرفة مبلغ كل رجل في النفع وكيفية تعبئة^(١) الجيوش ونصب
الجواسيس والخبرة بمكايد الخصوم.

سائس المدينة:

وسائس المدينة، وليكن مجرباً قد عرف وجوه صلاح المدينة
وفسادها صلباً حليماً، وليكن من قوم لا يسكتون إذا رأوا خلاف
ما يرتضونه، وليتخذ لكل قوم نقيباً منهم عارفاً بأخبارهم ينتظم به أمرهم
ويؤاخذ به ما عندهم.

عامل الجباية:

والعامل، وليكن عارفاً بكيفية جباية الأموال وتفريقها على
المستحقين.

(١) تعبئة: أي ترتيب وتهيئة.

وكيل معاش الملك :

والوكيل، المتكفل بمعاش الملك فإنه مع ما به من الأشغال لا يمكن أن يتفرغ إلى إصلاح معاشه.

باب الارتفاق الرابع

لا بد من خليفة يربط بين الأقاليم :

وهي الحكمة الباحثة عن سياسة حكام المدن وملوكها، وكيفية حفظ الربط الواقع بين أهل الأقاليم، وذلك أنه لما انفرد كل ملك بمدينته، وجبى إليه الأموال، وانضم إليه الأبطال أوجب اختلاف أمزجتهم وتشتت^(١) استعداداتهم أن يكون فيهم الجور^(٢) وترك السنة الراشدة، وأن يطمع بعضهم في مدينة الآخر، وأن يتحاسدوا، ويتقاتلوا بآراء جزئية من نحو رغبة في الأموال والأراضي، أو حسد وحقد، فلما كثر ذلك في الملوك اضطروا إلى الخليفة، وهو من حصل له من العساكر والعدد ما يرى كالممتنع أن يسلب رجل آخر ملكه، فإنه إنما يتصور بعد بلاء عام وجهد كبير واجتماعات كثيرة وبذل أموال خطيرة تتقاصر الأنفس دونها وتحيله العادة، وإذا وجد الخليفة، وأحسن السيرة في الأرض، وخضعت له الجبابرة، وانقاد له الملوك تمت النعمة، واطمأنت البلاد والعباد، واضطر الخليفة إلى إقامة القتال دفعاً للضرر اللاحق لهم من أنفس سبعة تنهب أموالهم، وتسبي^(٣) ذراريهم^(٤)، وتهتك حرمهم، وهذه الحاجة هي التي دعت بني إسرائيل إلى أن قالوا لنبي لهم: ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٥).

(١) تشتت: تفرق.

(٢) جور: تأسر.

(٣) تسبي: تأسر.

(٤) ذراريهم: أولادهم.

(٥) سورة البقرة/ الآية ٢٤٦.

(٢) الجور: الظلم.

(٤) ذراريهم: أولادهم.

الأنبياء يصلحون الملوك :

وابتداءً إذا أساءت أنفس شهوية أو سبعية السيرة، وأفسدوا في الأرض، فآلهم الله سبحانه إما بلا واسطة أو بواسطة الأنبياء أن يسلب شوكتهم، ويقتل منهم من لا سبيل له إلى الإصلاح أصلاً، وهم في نوع الإنسان بمنزلة العضو المؤوف بالأكلة^(١). وهذه الحاجة هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ^(٢) وَبَيْعُ^(٣)﴾. الآية. وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً^(٤)﴾.

لا بد للخليفة من رجال ومال :

ولا يتصور للخليفة مقاتلة الملوك الجبابرة وإزالة شوكتهم إلا بأموال وجمع رجال، ولا بد في ذلك من معرفة الأسباب المقتضية لكل واحد من القتال والهدنة^(٥)، وضرب الخراج والجزية، وأن يتأمل أولاً ما يقصد بالمقاتلة من دفع مظلمة أو إزهاق^(٦) أنفس سبعية خبيثة لا يرجى صلاحها، أو كبت أنفس دونها في الخبث بإزالة شوكتها، أو كبت قوم مفسدين في الأرض بقتل رؤوسهم المدبرين لهم أو حبسهم أو حيازة أموالهم وأراضيهم أو صرف وجوه الرعية عنهم.

ولا ينبغي لخليفة أن يقتحم لتحصيل مقصد فيما هو أشد منه، فلا يقصد حيازة الأموال بإفناء جماعة سالحة من الموافقين، ولا بد من استمالة قلوب القوم ومعرفة مبلغ نفع كل واحد، فلا يعتمد على أكثر مما

(١) الأكلة: كفرحة داء في العضويات تاكل منه.

(٢) صوامع: جمع صومعة، والبيع: جمع بيعة وكلاهما بمعنى معبد النصراني.

(٣) سورة الحج/ الآية ٤٠.

(٤) سورة البقرة/ آية ١٩٣.

(٥) الهدنة: الصلح.

(٦) ازهاق: اهلاك.

هو فيه، والتنويه^(١) بشأن السراة والدهاة والتحريض على القتال ترغيباً وترهيباً، وليكن أول نظره إلى تفريق جمعهم وتكليل حدهم وإخافة قلوبهم حتى يتمثلوا بين يديه لا يستطيعون لأنفسهم شيئاً، فإذا ظفر بذلك فليتحقق فيهم ظنه الذي زوره^(٢) قبل الحرب، فإن خاف منهم أن يفسدوا تارة أخرى ألزمهم خراجاً منهكاً^(٣) وجزية^(٤) مستأصلة، وهدم صياصيههم^(٥)، وجعلهم بحيث لا يمكن لهم أن يفعلوا فعلهم ذلك.

الخليفة متيقظ دائماً:

ولما كان الخليفة حافظاً لصحة مزاج حاصل من أخلاط متشاكسة^(٦) جداً أوجب أن يكون متيقظاً، ويبعث عيوناً^(٧) في كل ناحية، ويستعمل فراسة نافذة، وإذا رأى اجتماعاً منعقداً من عساكره، فلا صبر دون أن ينصب اجتماعاً آخر مثله ممن تحيل العادة مواطأتهم^(٨) معهم، وإذا رأى من رجل التماس خلافة، فلا صبر دون اتقاء جرأته وإزالة شوكته وإضعاف قوته ولا بد أن يجعل قبول أمره والارتفاق على مناصحته سنة مسلمة عندهم، ولا يكفي في ذلك مجرد القبول، بل لا بد من إمارة ظاهرة للقبول، بها يؤخذ الرعية، كالدعاء له والتنويه بشأنه في الاجتماعات العظيمة، وأن يوطنوا أنفسهم على زي وهيئة أمر بها الخليفة، كالأصطلاح على الدنانير المنقوشة باسم الخليفة في زماننا، والله أعلم.

(١) التنويه: الرفع أي لا بد من رفع شأن هؤلاء، والسراة: اسم جمع لسري كغني وهو الشريف صاحب المروءة كما في القاموس والمراد ههنا الرؤساء، والدهاة: جمع الداهي وهو الرجل الجيد الرأي.

(٢) زوره: هياه.

(٣) منهكاً: نهك بالغ. والخراج الضريبة على أرض أهل الذمة.

(٤) الجزية: الضريبة على أشخاص غير المسلمين.

(٥) صياصي: قلاع وحصون.

(٦) متشاكسة: متخالفة.

(٨) مواطأة: اتفاق ضمني غير معلن.

باب إنفاق الناس على أصول الارتفاقات

لا يخلو إقليم معمور من الارتفاقات:

اعلم أن الارتفاقات لا تخلو عنها مدينة من الأقاليم المعمورة، ولا أمة من الأمم أهل الأمزجة المعتدلة والأخلاق الفاضلة من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، وأصولها مسلمة عند الكل قرناً بعد قرن وطبقة بعد طبقة لم يزالوا ينكرون على من عصاها أشد نكير، ويرونها أموراً بديهية من شدة شهرتها، ولا يصدنك عما ذكرنا اختلافهم في صور الارتفاقات وفروعها.

فاتفقوا مثلاً على إزالة نتن الموتى وستر سواتهم، ثم اختلفوا في الصور، فاختر بعضهم الدفن في الأرض، وبعضهم الحرق بالنار.

واتفقوا على تشهير أمر النكاح وتمييزه عن السفاح^(١) على رؤوس الأشهاد، ثم اختلفوا في الصور، فاختر بعضهم الشهود والإيجاب والقبول والوليمة، وبعضهم الدف والغناء ولبس ثياب فاخرة لا تلبس إلا في الولائم الكبيرة.

واتفقوا على زجر الزناة والسراق ثم اختلفوا، فاختر بعضهم الرجم وقطع اليد، وبعضهم الضرب الأليم والحبس الوجيع والغرامات المنهكة.

لا يخالف الارتفاقات إلا البله والفجار:

ولا يصدنك أيضاً مخالفة طائفتين:

أحدهما البله الملتحقون بالبهائم ممن لا يشك الجمهور أن أمزجتهم ناقصة وعقولهم مخدجة، وصاروا يستدلون على بلاهتهم بما يرون من عدم تقييدهم أنفسهم بتلك القيود^(٢).

(١) السفاح: الزنا.

(٢) أي الارتفاقات.

والثانية الفجار الذين لونقح ما في قلوبهم ظهر أنهم يعتقدون الارتفاقات لكن تغلب عليهم الشهوات، فيعصونها شاهدين على أنفسهم بالفجور، ويزنون بينات الناس وأخواتهم، ولو زني بيناتهم وأخواتهم كادوا يتميزون من الغيظ، ويعلمون قطعاً أن الناس يصيبهم ما أصاب أولاء، وأن إصابة هذه الأمور مخلة بانتظام المدينة لكن يعميهم الهوى، وكذلك الكلام في السرقة والغصب وغيرهما.

الفطرة السليمة تدعو إلى الاتفاق على الارتفاقات:

ولا ينبغي أن يظن أنهم اتفقوا على ذلك من غير شيء بمنزلة الاتفاق على أن يتغذى بطعام واحد أهل المشارق والمغرب كلهم وهل سفسطة^(١) أشد من ذلك؟ بل الفطرة السليمة حاكمة بأن الناس لم يتفقوا عليها مع اختلاف أمزجتهم وتباعد بلدانهم وتشتت مذاهبهم وأديانهم إلا لمناسبة فطرية متشعبة من الصورة النوعية، ومن حاجات كثيرة الوقوع يتوارد عليها أفراد النوع، ومن أخلاق توجبها الصحة النوعية في أمزجة الأفراد.

ولو أن إنساناً نشأ ببادية نائية^(٢) عن البلدان، ولم يتعلم من أحد رسماً كان له لا جرم حاجات من الجوع والعطش والغلظة، واشتاق لا محالة إلى امرأة، ولا بد عند صحة مزاجهما أن يتولد بينهما أولاد، وينضم أهل أبيات، وينشأ فيهم معاملات، فينتظم الارتفاق الأول^(٣) عن آخره، ثم إذا كثروا لا بد أن يكون فيهم أهل أخلاق فاضلة تقع فيهم وقائع توجب سائر الارتفاقات والله أعلم.

(١) سفسطة: الاستدلال والقياس الباطل أو الذي يقصد به تمويه الحقائق.

(٢) نائية: بعيدة.

(٣) أي المذكور في الباب الثاني من هذا المبحث.

باب الرسوم السائرة في الناس

الرسوم من الارتفاقات المقصودة في الشرائع :

اعلم أن الرسوم من الارتفاقات هي بمنزلة القلب من جسد الإنسان، وإياها قصدت الشرائع أولاً وبالذات، وعنهما البحث في النواميس^(١) الإلهية، وإليها الإشارات، ولها أسباب تنشأ منها كاستنباط الحكماء، وكالإلهام^(٢) الحق في قلوب المؤيدين بالنور الملكي، وأسباب تنتشر بها في الناس، مثل كونها سنة ملك كبير دانت^(٣) له الرقاب، أو كونها تفصيلاً لما يجده الناس في صدورهم، فيتلقونها بشهادة قلوبهم، وأسباب يعضون^(٤) عليها بالنواجذ لأجلها من تجربة مجازاة غيبية على إهمالها، أو وقع فساد في إغفالها، وكإقامة أهل الآراء الراشدة اللائمة على تركها، ونحو ذلك، والمستبصر ربما يوفق لتصديق ذلك من إحياء سنن وإماتتها في كثير من البلدان بنظائر ما ذكرنا.

الرسوم السائرة حافظة للارتفاقات :

والسنن السائرة وإن كانت من الحق في أصل أمرها لكونها حافظة على الارتفاقات الصالحة، ومفضية بأفراد الإنسان إلى كمالها النظري والعملي، ولولاها لالتحق أكثر الناس بالبهائم، فكم من رجل يباشر النكاح والمعاملات على الوجه المطلوب، وإذا سئل عن سبب تقييده بتلك القيود لم يجد جواباً إلا موافقة القوم، وغاية جهده علم إجمالي لا يعرب عنه لسانه فضلاً عن تمهيد ارتفاقه، فهذا لو لم يلتزم سنة كاد يلتحق بالبهائم، لكنها^(٥) قد ينضم معها باطل، فيلبس على الناس سنتهم، وذلك بأن

(١) النواميس : الشرائع.

(٢) الإلهام : ظهور الحقائق في قلب المؤمن دون سابق علم ومعرفة.

(٣) دانت : انتقادت.

(٤) أي يتمسكون بها.

(٥) أي السنن.

يتأس قوم يغلب عليهم الآراء الجزئية دون المصالح الكلية، فيخرجون إلى أعمال سبعة^(١) كقطع الطريق والغصب أو شهوية كاللواطه وتأنث الرجال أو أكساب ضارة كالربا وتطفيف الكيل والوزن أو عادات في الزي والولائم تميل إلى الإسراف، وتحتاج إلى تعمق بليغ في الاكساب، أو الإكثار من المسليات بحيث يفضي إلى إهمال أمر المعاش والمعاد كالزمير^(٢) والشطرنج والصيد واقتناء الحمام ونحوها، أو جبايات منهكة^(٣) لأبناء السبيل وخراج مستأصل للرعية، أو التشاحح والتشاحن فيما بينهم، فيستحسنون أن يفعلوها مع الناس، ولا يستحسنون أن يفعل ذلك معهم، فلا ينكر عليهم أحد لجاههم وصولتهم فيجيء فجرة القوم، فيقتدون بهم، وينصرونهم، ويبدلون السعي في إشاعة ذلك، ويجيء قوم لم يخلق في قلوبهم ميل قوي إلى الأعمال الصالحة، ولا إلى أضدادها، فيحملهم ما يرون من الرؤساء على التمسك بذلك، وربما أعيت^(٤) بهم المذاهب الصالحة، ويبقى قوم فطرتهم سوية في أخريات القوم لا يخالطونهم، ويسكتون على غيظ فتعقد سنة سيئة وتؤكد.

يجب بذل الجهد في إشاعة الحق وتمشيته :

ويجب بذل الجهد على أهل الآراء الكلية في إشاعة الحق وتمشيته وإخمال الباطل، وصدده، فربما لم يمكن ذلك إلا بمخاصمات أو مقاتلات، فيعد كل ذلك من أفضل أعمال البر، وإذا انعقدت سنة راشدة، فسلمها القوم عصراً بعد عصر، وعليها كان محياهم ومماتهم، ويبست عليها نفوسهم وعلومهم، فظنوها متلازمة للأصول وجوداً وعدماً لم

(١) أعمال سبعة : أعمال شبيهة بأعمال السباع والوحوش .

(٢) المزامير : الموسيقى الملهية .

(٣) منهكة : مجهدة في العقوبة ، والتشاحح : الحرص ، والتشاحن : التباغض .

(٤) أعيت : أتعبت .

تكن إرادة الخروج عنها وعصيانها إلا ممن سمجت^(١) نفسه، وطاش عقله، وقويت شهوته، واقتعد غاربه الهوى، فإذا باشر الخروج أضمر في قلبه شهادة على فجوره، وسدل^(٢) حجاب بينه وبين المصلحة الكلية، فإذا كمل فعله صار ذلك شرحاً لمرضه النفساني، وكان ثلماً^(٣) في دينه، فإذا تقرر ذلك تقررأ بيناً ارتفعت أدعية الملاء الأعلى وتضرعات منهم لمن وافق تلك السنة وعلى من خالفها، وانعقد في حظيرة القدس رضا وسخط عمن باشرها، أو عليه، وإذا كانت السنن كذلك عدت من الفطرة التي فطر الله الناس عليها والله أعلم.

(٢) سدل: أرخى . وهنا سدل بمعنى غطى .

(١) أي قبحت، وطاش أي خف .

(٣) ثلماً: خرق .

مبحث السعادة

باب حقيقة السعادة

للإنسان كمالات تقتضيها الصورة النوعية :

اعلم أن للإنسان كمالات تقتضيه الصورة النوعية، وكمالات يقتضيه موضوع النوع من الجنس القريب والبعيد، وسعادته التي يضره فقدانها، ويقصدها أهل العقول المستقيمة قصداً مؤكداً هو الأول، وذلك أنه قد يمدح في العادة بصفات يشارك فيها الأجسام المعدنية، كالطول وعظم القامة، فإن كانت السعادة هذه، فالجبال أتم سعادة، وصفات يشارك فيها النبات كالنمو المناسب والخروج إلى تخاطيب جميلة وهيئات ناضرة، فإن كانت السعادة هذه فالشقائق^(١) والأوراد^(٢) أتم سعادة، وصفات يشارك فيها الحيوان كشدة البطش وجمهورية الصوت وزيادة الشبق^(٣) وكثرة الأكل والشرب ووفور الغضب والحسد، فإن كانت السعادة هذه فالحمار أتم سعادة، وصفات يختص بها الإنسان كالأخلاق المهذبة والارتفاقات الصالحة والصنائع الرفيعة والجاه^(٤) العظيم.

أصل الكمالات موجود في أفراد الحيوان :

فبادئ الرأي أنها سعادة الإنسان، ولذلك ترى كل أمة من أمم

(١) الشقائق: زهور حمراء تسمى أيضاً شقائق النعمان.

(٢) الأوراد: جمع ورد وهو معروف.

(٣) الشبق: شدة الغلظة والشهوة.

(٤) الجاه: الشرف والمنزلة.

الناس يستحب أتمها عقلاً وأسدّها رأياً أن يكتسب هذه، ويجعل ما سواها كأنها ليست صفات مدح، ولكن الأمر إلى الآن غير منقح لأن أصل هذه موجود في أفراد الحيوان، فالشجاعة أصلها الغضب وحب الانتقام والثبات في الشدائد والإقدام على المهالك، وهذه كلها موفرة في الفحول من البهائم، لكن لا تسمى شجاعة إلا بعد ما يهذبها فيض النفس النطقية، فتصير منقادة للمصلحة الكلية منبعثة من داعية معقولة.

أصل الصناعات موجود في الحيوان :

وكذلك أصل الصناعات موجود في الحيوان كالعصفور الذي ينسج العش، بل رب صنعة يصنعها الحيوان بطبيعته لا يتمكن منها الإنسان بتجشم^(١)، كلا بل الحق أن هذه سعادة بالعرض وأن السعادة الحقيقية هي انقياد البهيمية للنفس النطقية، واتباع الهوى للعقل، كون النفس الناطقة قاهرة على البهيمية والعقل غالباً على الهوى وسائر الخصوصيات ملغاة.

الأمور التي تشتبك بالسعادة الحقيقية :

واعلم أن الأمور التي تشتبك بالسعادة الحقيقية على قسمين :

قسم هو من باب ظهور فيض النفس النطقية في المعاش بحكم الجبلة، ولا يمكن أن يحصل الخلق المطلوب بهذا القسم، بل ربما يكون الغوص في تلك الأفعال بزيتها لا سيما بفكر جزئي كما هو شأن الناقص ضد الكمال المطلوب، كالذي يقصد تحصيل الشجاعة بإثارة الغضب والمصارعة ونحو ذلك، أو الفصاحة بمعرفة أشعار العرب وخطبهم، والأخلاق لا تظهر إلا عند مزاحمات من بنى النوع، والارتفاقات لا تقتنص^(٢) إلا بحاجات طارئة، والصنائع لا تتم إلا بآلات ومادة، وهذه كلها منقضية بانقضاء الحياة الدنيا، فإن مات الناقص في تلك الحالة،

(١) تجشم: فعله بمشقة.

(٢) لا تقتنص: لا تصطاد.

وكان سمجاً بقي عارياً عن الكمال وإن لزق بنفسه صور هذه العلاقات كان الضرر عليه أشد من النفع.

وقسم إنما روحه هيئة إذعان البهيمية للملكية بأن تتصرف حسب وحيها، وتنصبغ بصبغها، وتمنع الملكية منها بالألا تقبل ألوانها الدنية، ولا تنطبع فيها نقوشها الخسيسة، كما تنطبع نقوش الخاتم في الشمعة، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن تقتضي الملكية شيئاً من ذاتها، وتوحيه إلى البهيمية، وتقرحه عليها، فتتقاد لها، ولا تبغي عليها، ولا تتمنع منها، ثم تقتضي أيضاً، فتتقاد هذه أيضاً، ثم، وثم حتى تعتاد ذلك؛ وتتمرن، وهذه الأشياء التي تقتضيها هذه^(١) من ذاتها وتفسر عليها تلك^(٢) على رغم أنفها إنما يكون من جنس ما فيه انشراح لهذه وانقباض لتلك، وذلك كالتشبه بالملكوت، والتطلع للجبروت، فإنها خاصة الملكية بعيدة عنها البهيمية غاية البعد، أو يترك ما تقتضيه البهيمية، وتستلذه، وتشتاق إليه في غلوائها^(٣).

العبادات والرياضات:

وهذا القسم يسمى بالعبادات والرياضات^(٤) وهي شركات تحصيل الفائت من الخلق المطلوب، فال تحقيق المقام إلى أن السعادة الحقيقية لا تقتنص إلا بالعبادات، ولذلك كانت المصلحة الكلية تنادي أفراد الإنسان من كوة^(٥) الصورة النوعية، وتأمرها أمراً مؤكداً أن تجعل إصلاح الصفات التي هي كمال ثانٍ^(٦) بقدر الضرورة، وأن تجعل غاية هممتها

(١) أي الملكية.

(٢) أي البهيمية.

(٣) الغلواء: الغلو وكذلك النشاط.

(٤) العبادات باعتبار اقتضاء الملكية، والرياضات باعتبار اقتضاء البهيمية.

(٥) كوة: ثقب وكذلك تعني نافذة صغيرة.

(٦) يعني الارتفاقات الصالحة والصنائع العجيبة ونحوها.

ومطمح بصرها تهذيب النفس وتحليلتها بهيئات تجعلها شبيهة بما فوقها من
الملا الأعلى مستعدة لنزول أكوان الجبروت والملكوت عليها، وأن تجعل
البهيمية مذعنة^(١) للملكية مطيعة لها منصة لظهور أحكامها.

أفراد الإنسان تشتاق إلى السعادة الحقيقية:

وأفراد الإنسان عند الصحة النوعية، وتمكين المادة لظهور أحكام
النوع كاملة وافرة تشتاق إلى هذه السعادة وتنجذب إليها انجذاب الحديد
إلى المغناطيس، وذلك خَلَقَ خَلَقَ اللهُ الناس عليه، وفطرة فطرهم عليها،
ولهذا ما كانت في بني آدم أمة من أهل المزاج المعتدل إلا فيها قوم من
عظمائهم يهتمون بتكميل هذا الخلق، ويرونه السعادة القصوى، ويраهم
الملوك والحكماء فمن دونهم فائزين بما يجعل عن سعادات الدنيا كلها،
ملتحقين بالملائكة، منخرطين^(٢) في سلكهم، حتى صاروا يتبركون بهم،
ويقبلون أيديهم وأرجلهم، فهل يمكن أن يتفق عرب الناس وعجمهم على
اختلاف عاداتهم وأديانهم وتباعد مساكنهم وبلدانهم على شيء واحد وحدة
نوعية إلا لمناسبة فطرية، كيف لا وقد عرفت أن الملكية موجودة في أصل
فطرة الإنسان، وعرفت أفاضل الناس وأساطينهم من هم، والله أعلم.

باب اختلاف الناس في السعادة

اختلاف الناس في سائر الأخلاق:

اعلم أن الشجاعة وسائر الأخلاق كما يختلف أفراد الإنسان فيها،
فمنهم الفاقد الذي لا يُرجى له حصولها أبداً لقيام هيئة مضادة في أصل
جبلته، كالمخنث وضعيف القلب جداً بالنسبة إلى الشجاعة.

(٢) منخرطين: داخلين.

(١) مذعنة: خاضعة.

منهم الفاقد:

ومنهم الفاقد الذي يُرجى له ذلك بعد ممارسة أفعال وأقوال وهيئات تناسبها وتلقي ذلك من أهلها، وتذكر أحاديث أئمتها وما جرى عليهم من الحوادث في الأيام، فثبتوا في الشدائد، وأقدموا على المهالك.

منهم الذي خلق فيه أصل الخلق:

ومنهم الذي خلق فيه أصل الخلق، ولا تزال تنبجس فيه فلتات^(١) كل حين، فإن أمر بحبس نفسه عنها ضاق عليه الأمر، وسكت على غيظ، وإن أمر بما يناسب جبلته كان كالكبريت يتصل به النار، فلا يتراخي احتراقه.

منهم الذي خلق فيه الخلق كاملاً:

ومنهم الذي خلق فيه الخلق كاملاً وافراً، ويندفع^(٢) إلى مقتضياته ضرورة، وإن دُعي إلى الجبن مثلاً أشد دعوة لم يقبل، ويتيسر له الخروج إلى أفعال هذا الخلق والهيئات المناسبة له بالطبع من غير رسم ولا دعوة، وهذا هو الإمام في هذا الخلق لا يحتاج إلى إمام أصلاً، ويجب على الذين هم دونه في الخلق أن يتمسكوا بسنته، ويعضوا بنواجذهم على رسومه، ويتكلفوا في محاكاة^(٣) هيئاته، ويتذكروا وقائعه، ليتخرجوا إلى الكمال المتوقع لهم من الخلق بحسب ما قدر لهم، فكذلك يختلفون في هذا الخلق الذي عليه مدار سعادتهم، فمنهم الفاقد الذي لا يرجى صلاحه كالذي قتله الخضر طبع كافراً وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَصُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٤).

(١) فلتات: هفوات وزلال - تنبجس: تنفجر. (٢) يندفع: يسارع.

(٣) محاكاة: تقليد. (٤) سورة البقرة/ الآية ١٨.

منهم الفاقد الذي يرجى له :

ومنهم الفاقد الذي يرجى له ذلك بعد رياضات شاقة وأعمال ديمة^(١) يؤاخذ بها نفسه ويحتاج إلى دعوة حثيثة من الأنبياء وسنن ماثورة منهم وهؤلاء أكثر الناس وجوداً، وهم المقصودون في البعثة أولاً وبالذات .

ومنهم الذي ركب فيه الخلق إجمالاً وينبجس منه فلتاته إلا أنه يحتاج في التفصيل وتمهيد الهيئات على ما يناسب الخلق في كثير مما ينبغي إلى إمام وفيه قوله تعالى : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾^(٢) . وهم السابق .

ومنهم الأنبياء الذين يتأتى لهم الخروج إلى الكمال :

ومنهم الأنبياء يتأتى لهم الخروج إلى كمال هذا الخلق واختيار هيئات مناسبة له وكيفية تحصيل الفئات وإبقاء الحاضر وإتمام الناقص من غير إمام ولا دعوة، فينتظم من جريانهم في مقتضى جبلتهم سنن يتذكرها الناس، ويتخذونها دستوراً، وكيف ولما كانت الحدادة والنجارة وأمثالهما لا تأتي من جمهور الناس إلا بسنن ماثورة عن أسلافهم، فما ظنك بهذه المطالب الشريفة التي لا يهتدي إليها إلا الموفقون . ومن هذا الباب ينبغي أن يعلم شدة الحاجة إلى الأنبياء ووجوب اتباع سنتهم والاشتغال بأحاديثهم والله أعلم .

باب توزع الناس في كيفية تحصيل هذه السعادة

تحصيل السعادة بالانسلاخ عن الطبيعة البهيمية :

اعلم أن هذه السعادة تحصل بوجهين :

أحدهما ما هو كالانسلاخ^(٣) عن الطبيعة البهيمية، وذلك أن يتمسك

(١) أي التي تدوم .

(٢) سورة النور/ الآية ٣٥ .

(٣) الانسلاخ: الخروج .

بالحيل الجالبة لركود أحكام الطبيعة وخمود سورتها، وانطفاء لهب علومها وحالاتها، ويقبل على التوجه التام إلى ما وراء الجهات من الجبروت، وقبول النفس لعلوم مفارقة عن الزمان والمكان بالكلية، ولذات مباينة للذات المألوفة من كل وجه، حتى يصير لا يخالط الناس، ولا يرغب فيما يرغبون، ولا يهرب مما يهربون، ويكون منهم على طرف شاسع^(١)، وصقع^(٢) بعيد، وهذا هو الذي يرومه المتألهون^(٣) من الحكماء، والمجذبون من الصوفية^(٤)، فوصل بعضهم غاية مداها، وقيل ما هم وبقي آخرون مشتاقين لها، طامحة أبصارهم إليها، متكلفين لمحاكاة هيئاتها.

تحصيل السعادة بإصلاح البهيمية:

وثانيهما: ما هو كالإصلاح للبهيمية والإقامة لعوجها مع تعلق أصلها، وذلك أن يسعى في محاكاة البهيمية ما عند النفس النطقية بأفعال وهيئات وأذكار ونحوها، كمثل ما يحاكي الأخرس أقوال الناس بإشارته، والمصور أحوالاً نفسانية من الوجل والخجل بهيئات مبصرة يجدها متعانقة مع تلك الأحوال، والشكلي تفجعها بكلمات وترجيحات لا يسمعها أحد إلا حزن وتمثل عنده صورة التفجع.

التدبير الإلهي بإرسال الرسل:

ولما كان مبنى التدبير الإلهي في العالم على اختيار الأقرب فالأقرب، والأسهل فالأسهل، والنظر إلى صلاح ما يجري مجرى جملة أفراد النوع دون الشاذة والفاذة^(٥)، وإقامة مصالح الدارين من غير أن

(١) بعيد.

(٢) صقع: بضم الصاد الناحية، والجمع أصقاع.

(٣) الأشراقون.

(٤) المجذبون من الصوفية: أصحاب الوجد منهم.

(٥) الفاذة: الشاذة.

ينخرم^(١) نظام شيءٍ منهما اقتضى لطف الله ورحمته أن يبعث الرسل أولاً وبالذات لإقامة الطريقة الثانية، والدعوة إليها، والحث عليها، ويدل على الأولى بإشارات التزامية، وتلويحات تضمنية لا غير، والله الحجة البالغة.

تفصيل وجهي تحصيل السعادة:

تفصيل ذلك، أن الأولى: إنما تتأتى من قوم ذوي تجاذب، وقليل ما هم، ورياضات شاقة، وتفرغ قوي؛ وقليل من يفعلها، وإنما أئمتها قوم أهملوا معاشهم، ولا دعوة لهم في الدنيا، ولا تتم إلا بتقديم جملة صالحة من الثانية ولا يخلو من إهمال إحدى السعادتین إصلاح الارتفاقات في الدنيا وإصلاح النفس للأخرة، فلو أخذ بها أكثر الناس خربت الدنيا، ولو كلفوا بها كان كالتكاليف بالمحال، لأن الارتفاقات صارت كالجبل.

والثانية: إنما أئمتها المفهمون، وذوو إصلاح، وهم القائمون برياسة الدين والدنيا معاً، ودعوتهم هي المقبولة، وستهم هي المتبعة، وينحصر فيها كمال المصطلحين من السابقين أصحاب اليمين، وهم أكثر الناس وجوداً، ويتمكن منها الذكي والغبي والمشتغل والفارغ، ولا حرج فيها وتكفي العبد في استقامة نفسه، ودفع اعوجاجها، ودفع الآلام المتوقعة في المعاد عنها، إذ لكل نفس أفعال ملكية تنعم بوجودها، وتتألم بفقدانها. أما أحكام التجرد فسيلقى إليها نشأت القبر والحشر من حيث لا يدري بجبلتها ولو بعد حين.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود وبالجملة فالإحاطة واستقصاء وجوه الخير كالمحال^(٢) في حق الأكثرين، والجهل البسيط غير ضار، والله أعلم.

(١) خرم: ثقب.

(٢) المحال: المستحيل.

باب الأصول التي يرجع إليها تحصيل الطريقة الثانية

طرق تحصيل السعادة على الوجه الثاني مرجعها إلى أربع خصال: اعلم أن طرق تحصيل السعادة على الوجه الثاني كثيرة جداً غير أنني فهمني الله تعالى بفضله أن مرجعها إلى خصال أربع تتلبس بها اليهيمية متى غطتها النفس النطقية، وقسرتها^(١) على ما يناسبها، وهي أشبه حالات الإنسان بصفة البلاء الأعلى معدة للحوقة بهم، وانخراطه^(٢) في سلكهم^(٣)، وفهمني أنه إنما بعث الأنبياء للدعوة إليها والحث عليها وأن الشرائع تفصيل لها وراجعة إليها.

الخصلة الأولى: الطهارة:

أحدها: الطهارة، وحقيقتها أن الإنسان عند سلامة فطرته وصحة مزاجه وتفرغ قلبه من الأحوال السفلية الشاغلة له عن التدبير إذا تلوخ بالنجاسات، وكان حاقباً^(٤) حاقناً قريب العهد من الجماع ودواعيه، انقبضت نفسه، وأصابه ضيق وحزن، ووجد نفسه في غاشية عظيمة، ثم إذا تخفف عن الأخبثين^(٥)، وذلك بدنه، واغتسل ولبس أحسن ثيابه، وتطيب اندفع عنه ذلك الانقباض، ووجد مكانه انشراحاً وسروراً وانبساطاً كل ذلك لا لمراعاة الناس والحفظ على رسومه، بل لحكم النفس النطقية فقط.

فالحالة الأولى تسمى: حدثاً، والثانية: طهارة، والذكي من الناس، والذي يرى منه سلامة أحكام النوع وتمكين المادة لأحكام الصورة النوعية

(١) قسر: أجبر. (٢) انخرط: انتظم.

(٣) سلكهم: جماعتهم وطريقتهم.

(٤) الحاقب من احتاج إلى الخلاه فلم يبرز فانحصر غائطه، والحاقد من به شدة البول فجبسه.

(٥) الأخبثين: البول والغائط.

يعرف الحالتين متميزة كل واحدة من الأخرى، ويحب إحداهما، ويبغض الأخرى لطبيعته، والغبي منهم إذا أضعف شيئاً من البهيمية، ولج^(١) بالطهارات والتبتل^(٢)، وتفرغ لمعرفةهما، لا بد يعرفهما ويميز كل واحدة من الأخرى.

الطهارة أشبه الصفات النسمية بحالات الملائكة الأعلى:

والطهارة أشبه الصفات النسمية بحالات الملائكة الأعلى في تجردها عن الألوات^(٣) البهيمية وابتهاجها بما عندها من النور، ولذلك كانت معدة لتلبس النفس بكمالها بحسب القوة العملية.

والحدث إذا تمكن من الإنسان وأحاط به من بين يديه ومن خلفه أورث له استعداداً لقبول وساوس الشياطين ورؤيتهم بحاسة الحس المشترك، ولمنامات موحشة، ولظهور الظلمة عليه فيما يلي النفس النطقية، وتمثل الحيوانات الملعونة اللثيمة.

وإذا تمكنت الطهارة منه، وأحاطت به، وتنبه لها، وركن إليها أورث استعداداً لقبول إلهامات الملائكة ورؤيتها، ولمنامات سالحة، ولظهور الأنوار، وتمثل الطيبات والأشياء المباركة المعظمة.

الخصلة الثانية: الإخبات لله تعالى:

والثانية: الإخبات^(٤) لله تعالى، وحقيقته أن الإنسان عند سلامته وتفرغه إذا ذكر بآيات الله تعالى وصفاته، وأمعن في التذكر تنبهت النفس النطقية، وخضعت الحواس والجسد لها، وصارت كالحائرة الكليلة^(٥)،

(٢) التبتل: الانقطاع عن الدنيا إلى الله.

(٤) الإخبات: الخضوع لله وخشوع القلب.

(١) ولج: لازم.

(٣) الألوات: النجاسات.

(٥) الكليلة: المتعبة.

ووجد ميلاً إلى جانب القدس، وكان كمثل الحالة التي تعترى السوقة^(١) بحضرة الملوك، وملاحظة عجز أنفسهم، واستبداد أولئك بالمنع والعطاء.

وهذه الحالة أقرب الحالات النسمية، وأشبهها بحال الملاء الأعلى في توجهها إلى بارئها، وهيئانها^(٢) في جلاله، واستغراقها في تقديسه ولذلك كانت معدة لخروج النفس إلى كمالها العلمي أعني انتقاش المعرفة الإلهية في لوح ذهنها، واللحوق بتلك الحضرة بوجه من الوجوه وإن كانت العبارة تقصر عنه.

الخصلة الثالثة: السماحة:

والثالثة: السماحة، وحقيقتها كون النفس بحيث لا تنقاد لدواعي القوة البهيمية، ولا يتشبح فيها نقوشها، ولا يلحق بها ضرر^(٣) لوئها، وذلك لأن النفس إذا تصرفت في أمر معاشها، وتناقت للنساء، وعافست^(٤) اللذات، أو قرمت^(٥) لطعام فاجتهدت في تحصيله حتى استوفت منها حاجتها، وكذلك إذ غضبت أو شحت بشيء، فإنها لا بد في تلك الحالة تستغرق ساعة في هذه الكيفية لا ترفع إلى ما وراءها النظر ألبتة.

ثم إذا زابت تلك الحالة، فإن كانت سمحة خرجت من تلك المضايق كأن لم تكن فيها قط، وإن كانت غير ذلك فإنها تشتبك معها تلك الكيفيات، وتتشبح كما تشبح نقوش الخاتم في الشمعة فإذا فارقت الجسد، وتخففت عن العلائق الظلمانية^(٦) المتراكمة، ورجعت إلى ما عندها لم تجد شيئاً مما كان في الدنيا من مخلفات الملكية فحصل لها الأنس، وصارت في أرغد عيش.

(١) السوقة: العامة.

(٢) هيئانها: حيرتها.

(٣) وسخ.

(٤) عافس: عالج.

(٥) قرمت: اشتاقت.

(٦) الظلمانية: نسبة إلى الظلمة.

والشحيحة تتمثل نقوشها عندها، كما ترى بعض الناس يُسرق منه مال نفيس فإن كان سخياً^(١) لم يجد له بالأ، وإن كان ركيك^(٢) النفس صار كالمجنون، وتمثلت^(٣) عنده، والسماحة^(٤) وضدها^(٥) لهما ألقاب كثيرة بحسب ما يكونان فيه، فما كان منهما في المال يسمى سخاوة وشحاً، وما كان في داعية شهوة الفرج أو البطن يُسمى عفة وشرة، وما كان في داعية الرفاهية والنبو^(٦) عن المشاق يسمى صبراً وهلعاً^(٧)، وما كان في داعية المعاصي الممنوعة عنها في الشرع يسمى تقوى وفجوراً.

وإذا تمكنت السماحة من الإنسان بقيت نفسه عرية عن شهوات الدنيا، واستعدت للذات العلية المجردة، والسماحة هيئة تمنع الإنسان من أن يتمكن منه ضد الكمال المطلوب علماً وعملاً.

الخصلة الرابعة: ملكة في النفس تصدر عنها الأفعال الكريمة:

الرابعة: العدالة، وهي ملكة في النفس تصدر عنها الأفعال التي يقام بها نظام المدينة والحي بسهولة، وتكون النفس كالمجبول على تلك الأفاعيل والسر في ذلك أن الملائكة والنفوس المجردة عن العلائق الجسمانية ينطبع فيها ما أراد الله في خلق العالم من إصلاح النظام ونحوه، فتقلب مرضياتها إلى ما يناسب ذلك النظام، فهذه طبيعة الروح المجردة، فإن فارقت جسدها وفيها شيء من هذه الصفة ابتهجت كل الابتهاج، ووجدت سبيلاً إلى اللذة المفارقة عن اللذات الخسيسة^(٨)، وإن فارقت وفيها ضد هذه الخصلة ضاق عليها الحال، وتوحشت، وتألمت.

فإذا بعث الله نبياً لإقامة الدين، وليخرج الناس من الظلمات إلى

- | | |
|--------------------------|-------------------------------|
| (١) سخياً: كريماً. | (٢) ركيك: ضعيف. |
| (٣) أي صورة المال. | (٤) السماحة: الكرم. |
| (٥) أي الشح. | (٦) النبو: البعد. |
| (٧) هلعاً: جزعاً فاحشاً. | (٨) الخسيسة: الدنيئة المنحطة. |

النور، ويقوم الناس بالعدل، فمن سعى في إشاعة هذا النور، ووطأ^(١) له في الناس كان مرحوماً، ومن سعى لردّها وإخمالها^(٢) كان ملعوناً مرجوماً، وإذا تمكنت العدالة من الإنسان وقع اشتراك بينه وبين حملة العرش ومقربي الحضرة من الملائكة الذين هم وسائط نزول الجود والبركات، وكان ذلك باباً مفتوحاً بينه وبينهم، ومعداً لنزول ألوانهم وصبغهم بمنزلة تمكين النفس من إلهام الملائكة والانبعاث حسبها.

إن حققت الخصال الأربع كنت فقيهاً:

فهذه الخصال الأربع إن تحققت حقيقتها، وفهمت كيفية اقتضائها للكمال العلمي والعملية وإعدادها للانسلاک^(٣) في سلك الملائكة، وفطنت^(٤) كيفية انشعاب الشرائع الإلهية بحسب كل عصر منها - أوتيت الخير الكثير، وكنت فقيهاً في الدين ممن أراد الله به خيراً، والحالة المركبة منها تسمى بالفطرة، وللفطرة أسباب تحصل بها، بعضها علمية، وبعضها عملية، وحجب تصد الإنسان عنها، وحيل تكسر الحجب، ونحن نريد أن نبهك على هذه الأمور، فاستمع لما يتلى عليك بتوفيق الله تعالى والله أعلم.

باب طريق اكتساب هذه الخصال وتكميل ناقصها ورد فائتها

اعلم أن اكتساب هذه الخصال يكون بتدبيرين: تدبير علمي، وتدبير عملي.

التدبير العلمي لاكتساب الخصال الأربع:

أما التدبير العلمي، فإنما احتيج له لأن الطبيعة منقادة للقوى العلمية، ولذلك ترى سقوط الشهوة والشبق عند خطور ما يورث في النفس

(١) وطاء له: مهد له.

(٣) الإنسلاک: الدخول.

(٢) اخمل: أضعف، أخفى.

(٤) فطنت: عرفت وعقلت.

كيفية الحياء أو الخوف، فمتى امتلأ علمه بما يناسب الفطرة جرّ ذلك إلى تحققها في النفس، وذلك أن يعتقد أن له رباً منزهاً عن الأدناس^(١) البشرية، لا يعزب^(٢) عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا راد لقضائه، ولا مانع لحكمه، منعم بأصل الوجود وتوابعه من النعم الجسمانية والنفسانية، مجاز على أعماله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهو قوله تعالى: «أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي».

وبالجملة فيعتقد اعتقاداً مؤكداً ما يفيد الهيبة وغاية التعظيم، وما لا يبقى ولا يذر^(٣) في قلبه جناح بعوضة من إخبات^(٤) غيره ورهبتة، ويعتقد أن كمال الإنسان أن يتوجه إلى ربه، ويعبده، وأن أحسن حالات البشر أن يتشبه بالملائكة، ويدنو منهم، وأن هذه الأمور مقربة له من ربه، وأن الله تعالى ارتضى منهم ذلك، وأنه حق الله عليه لا بد له من توفيته.

وبالجملة فيعلم علماً لا يحتمل النقيض أن سعادته في اكتساب هذه، وأن شقاوته في إهمالها، ولا بد له من سوط ينبه البهيمية تنبيهاً قوياً، ويزعجها إزعاجاً شديداً.

مسالك الأنبياء:

واختلف مسالك الأنبياء في ذلك فكان عمدة ما أنزل الله تعالى على إبراهيم عليه السلام التذكير بآيات الله الباهرة وصفاته العليا ونعمه الأفاقية والنفسانية، حتى يصحح بما لا مزيد عليه أنه حقيق^(٥) أن يبذلوا له الملاذ،

(١) الأدناس: جمع دنس وهو النجس وكل شيء قذر.

(٢) لا يعزب: لا يغيب ولا يخفى.

(٣) يذر: يترك.

(٤) إخبات: طاعة الله وخشوع القلب.

(٥) حقيق: جدير.

وأن يؤثروا ذكره على ما سواه، وأن يحبوه حباً شديداً، ويعبدوه بأقصى مجهودهم.

وَضَمَّ اللهُ مَعَهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّذْكَيرَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَهُوَ بَيَانٌ مَجَازَاةٌ لِّلَّهِ تَعَالَى لِلْمُطِيعِينَ وَالْعَصَاةَ فِي الدُّنْيَا، وَتَقْلِيْبِهِ النِّعَمَ وَالنِّقْمَ حَتَّى يَتَمَثَّلَ فِي صُدُورِهِمُ الْخَوْفَ مِنَ الْمَعَاصِي، وَرَغْبَةَ قُوَّةٍ فِي الطَّاعَاتِ.

مسلك نبينا عليه السلام:

وَضَمَّ مَعَهُمَا لِنَبِينَا ﷺ الْإِنْذَارَ وَالتَّبْشِيرَ بِحَوَادِثِ الْقَبْرِ، وَمَا بَعْدَهُ، وَبَيَانَ خَوَاصِّ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، وَلَا يَفِيدُ أَصْلَ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ تَكَرُّرِهَا وَتَرْدَادِهَا وَمَلَا حَظَّتْهَا كُلِّ حِينٍ، وَجَعَلَهَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ حَتَّى تَمْتَلِيءَ الْقَوِيُّ الْعِلْمِيَّةَ بِهَا، فَتَنْقَادَ الْجَوَارِحُ^(١) لَهَا، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ^(٢) مَعَ اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ أَحَدُهُمَا بَيَانُ الْأَحْكَامِ مِنَ الْوَاجِبِ وَالْحَرَامِ وَغَيْرِهِمَا، وَثَانِيَهُمَا مَخَاصِمُ الْكُفَّارِ - فَنُونَ^(٣) خَمْسَةٌ هِيَ عَمْدَةُ عُلُومِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

التدبير العملي لاكتساب الخصال الأربع:

أَمَّا التَّدْبِيرُ الْعَمَلِيُّ، فَالْعَمْدَةُ فِيهِ التَّلْبِسُ^(٤) بِهَيْئَاتِ وَأَفْعَالِ وَأَشْيَاءِ تَذْكَرُ النَّفْسَ الْخَصْلَةَ الْمَطْلُوبَةَ، وَتَنْبَهُهَا لَهَا، وَتَهَيِّجُهَا إِلَيْهَا، وَتَحْتِثُهَا عَلَيْهَا إِمَّا لِتَلَازِمِ عَادِي بَيْنِهَا وَبَيْنِ الْخَصْلَةِ، أَوْ لِكُونِهَا مِظَنَّةً لَهَا بِحَكْمِ الْمُنَاسَبَةِ الْجَبَلِيَّةِ، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْبَهَ نَفْسَهُ لِلْغَضَبِ، وَيَحْضُرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَتَخِيلُ الشَّتْمَ الَّذِي تَفُوهُ^(٥) بِهِ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ، وَالَّذِي يَلْحَقُهُ مِنَ

(١) الجوارح: الأيدي والأرجل.

(٢) اسم الإشارة مبتدأ أي التذكير بآيات الله وبأيام الله والإنذار والتبشير وبيان خواص البر والإثم.

(٣) هو خبر عن قوله وهذه الثلاثة.

(٤) أي تكلم.

(٥) التلبس: الاختلاط والتعلق.

العار ونحو ذلك، والنائحة إذا أرادت أن تجدد عهدها بالفجع تذكر نفسها محاسن الميت، وتتخيلها، وتبعث من خواطرها الخيل والرجل إليها، والذي يريد الجماع يتمسك بدواعيه، ونظائر هذا الباب كثيرة جداً لا تعصى على من يريد الإحاطة بجوانب الكلام.

لكل واحد من الخصال أسباب:

فكذلك لكل واحدة من هذه الخصال أسباب تكتسب بها، والاعتماد في معرفة تلك الأمور على ذوق أهل الأذواق السليمة، فأسباب الحدث امتلاء القلب بحالة سفلية^(١)، كقضاء الشهوة من النساء جماعاً ومباشرة، وإضماره مخالفة الحق وإحاطة لعن الملأ الأعلى به، وكونه حاقباً حاقناً^(٢)، وقرب العهد بالبول والغائط والريح، وهذه الثلاثة فضول المعدة، وتوسخ البدن والبخر^(٣) واجتماع المخاط ونبات الشعر على العانة والإبط وتلطخ الثوب والبدن بالنجاسات المستقدرة، وامتلاء الحواس بصورة تذكر الحالة السفلية كالقاذورات والنظر إلى الفرج ومسافدة^(٤) الحيوانات والنظر الممعن في الجماع والطعن في الملائكة والصالحين والسعي في إيذاء الناس.

أسباب الطهارة:

وأسباب الطهارة إزالة هذه الأشياء واكتساب أضدادها واستعمال ما تقرر في العادات كونه نظافة بالغة كالغسل والوضوء ولبس أحسن ثيابه واستعمال الطيب، فإن استعمال هذه الأشياء تنبه النفس على صفة الطهارة، وأسباب الإخبات مؤاخذة نفسه بما هو أعلى حالات التعظيم عنده

(١) أي غلو مقتضيات البهيمية.

(٢) الحاقب: من احتاج إلى الخلاء ولم يفعل والحاقن من احتاج إلى التبول.

(٣) البخر: الرائحة الكريهة وهي للغم خاصة.

(٤) المسافدة: الجماع عند الحيوان.

من القيام مطرقاً والسجود والنطق بألفاظ دالة على المناجاة والتذلل لديه ورفع الحاجات إليه، فإن هذه الأمور تنبه النفس تنبيهاً قوياً على صفة الخضوع والإخبات، وأسباب السماحة التمرن على السخاوة والبذل والعفو عن ظلم ومؤاخذة نفسه بالصبر عند المكاره ونحو ذلك، وأسباب العدالة المحافظة على السنة الراشدة بتفاصيلها والله أعلم.

باب الحجب المانعة عن ظهور الفطرة

الحجب المانعة لظهور الفطرة ثلاثة:

اعلم أن معظم الحجب ثلاثة:

حجاب الطبع، وحجاب الرسم، وحجاب سوء المعرفة، وذلك لأنه ركب في الإنسان دواعي الأكل والشرب والنكاح، وجعل قلبه مطية للأحوال الطبيعية كالحزن والنشاط والغضب والوجل^(١) وغيرها، فلا يزال مشغولاً بها، إذ كل حالة يتقدمها توجه النفس إلى أسبابها وانقياد القوى العلمية لما يناسبها، ويجتمع معها استغراق النفس فيها وذهولها عما سواها، ويتخلف عنها بقية ظلها ووضر^(٢) لونها، فتمر الأيام والليالي، وهو على ذلك لا يتفرغ لتحصيل غيرها من الكمال.

حجاب النفس:

ورب إنسان ارتطمت^(٣) قدماه في هذا الوحل، فلم يخرج منه طول عمره.

ورب إنسان غلب عليه حكم الطبع، فخلع رقبته عن رقبة الرسم والعقل، ولم ينزجر^(٤) بالملامة، وهذا الحجاب يسمى بالنفس، لكن من

(١) الوجل: الخوف.

(٢) وضر: اتسخ.

(٣) دخلت.

(٤) انزجر: امتنع انتهى.

تم عقله، وتوفر تيقظه يختطف من أوقاته فرصاً يركد فيها أحواله الطبيعية، ويتسع نفسه لهذه الأحوال وغيرها، ويستوجب لفيضان علوم أخرى غير استيفاء مقتضيات الطبع، ويشتاق إلى الكمال النوعي بحسب القوتين العاقلة والعاملة.

حجاب الرسم:

فإذا فتح حدقة بصيرته^(١) أبصر في أول الأمر قومه في ارتفاعات وزى ومباهات وفضائل من الفصاحات والصناعات، فوقعت من قلبه بموقع عظيم، واستقبلها بعزيمة كاملة وهمة قوية، وهذا حجاب الرسم ويسمى بالدنيا.

من الناس من لا يزال مستغرقاً في الحجب:

ومن الناس من لا يزال مستغرقاً في ذلك إلى أن يأتيه الموت، فتزول تلك الفضائل بأسرها، لأنها لا تتم إلا بالبدن والآلات، فتبقى النفس عارية ليس بها شيء، وصار مثله كمثل ذي جنة^(٢) أصابها إعصار، أو كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

فإن كان شديد التنبه عظيم الفطنة استيقن بدليل برهاني أو خطابي أو بتقليد الشرع أن له رباً قاهراً فوق عبادته، مدبراً أمورهم، منعماً عليهم جميع النعم، ثم خَلَقَ في قلبه ميلاً إليه ومحبة به، وأراد التقرب منه ورفع الحاجات إليه واطرح لديه، فمن مصيب في هذا القصد ومخطيء.

معظم الخطأ شيثان: تشبيه وإشراك:

ومعظم الخطأ شيثان: أن يعتقد في الواجب صفات المخلوق، أو يعتقد في المخلوق صفات الواجب. فالأول هو التشبيه، ومنشؤه قياس

(١) حدقة بصيرته: عين قلبه.

(٢) ذي جنة: صاحب حديقة.

الغائب على الشاهد، والثاني هو الإشراك، ومنشؤه رؤية الآثار الخارقة من المخلوقين، فيظن أنها مضافة إليهم بمعنى الخلق، وأنها ذاتية لهم.

وينبغي لك أن تستقرىء^(١) أفراد الإنسان هل ترى من تفاوت فيما أخبرتك؟ لا أظنك تجد ذلك بل كل إنسان وإن كان في تشريعٍ ما، لا بد له من أوقات تستغرق في حجاب الطبع قلت أو كثرت، وإن لم يزل مباشراً للأعمال الرسمية، ومن أوقات تستغرق في حجاب الرسم، ويهمه حينئذٍ التشبه بعقلي قومه كلاماً وزياً وخلقاً ومعاشرةً، وأوقات يصغي فيها إلى ما كان يسمع، ولا يصغي من أحاديث الجبروت والتدبير الغيبي في العالم، والله أعلم.

باب طريق رفع هذه الحجب

تدبير حجاب الطبع:

اعلم أن تدبير حجاب الطبع شيان: أحدهما يؤمر به، ويرغب فيه، ويحث عليه، والثاني يضرب عليه من فوقه، ويؤخذ به، أشاء أم أبي.

فالأول: رياضات تضعف البهيمية كالصوم والسهر، ومن الناس من أفرط، واختار تغيير خلق الله مثل قطع آلات التناسل، وتجفيف عضو شريف كاليد والرجل، وأولئك جهال العباد، وخير الأمور وسطها، وإنما الصوم والسهر بمنزلة دواء سمّي يجب أن يتقدر بقدر ضروري.

والثاني: إقامة الإنكار على من اتبع الطبيعة، فحالف السنة الراشدة، وبيان طريق التفصي^(٢) من كل غلبة طبيعية، وضرب سنة له،

(١) تستقرىء: تتبع وتلاحظ لتستخلص النتيجة.

(٢) التفصي: التخلص.

ولا ينبغي أن يضيق على الناس كل الضيق، ولا يكفي في الكل الإنكار القولي، بل لا بد من ضرب وجيع^(١) وغرامة منهكة في بعض الأمور، والأليق بذلك إفراطات فيها ضرر متعدد كالزنا والقتل.

تدبير حجاب الرسم:

وتدبير حجاب الرسم شيان: أحدهما: أن يضم مع كل ارتفاق ذكر الله تعالى تارة بحفظ ألفاظ يؤمر بها، وتارة بمراعاة حدود وقيود لا يراعي إلا الله.

والثاني: أن يجعل أنواع من الطاعات رسماً فاشياً، ويسجل^(٢) على المحافظة عليها، أشاء أم أبي، ويلام على تركها، ويكبح عن المرغوبات من الجاه وغيره جزاءً لتفويتها، فبهذين التدبيرين تندفع غوائل^(٣) الرسم، وتصير مؤيدة لعبادة الله تعالى، وتصير السنة تدعو إلى الحق.

منشأ سوء المعرفة بالإشراك والتشبيه:

وسوء المعرفة بكلا قسميه^(٤) ينشأ من سببين: أحدهما لا يستطيع أن يعرف ربه حق معرفته لتعالیه عن صفات البشر جداً وتنزهه عن سمة^(٥) المحدثات والمحسوسات وتدبيره ألا يخاطبوا إلا بما تسعه أذهانهم.

والأصل في ذلك أنه ما من موجود، أو معدوم متحيز، أو مجرد إلا يتعلق علم الإنسان به، إما بحضور صورته، أو بنحو التشبيه والمقايسة حتى العدم المطلق والمجهول المطلق، فيعلم العدم من جهة معرفة الوجود وملاحظة عدم الاتصاف به، ويعلم مفهوم المشتق على صيغة المفعول، ويعلم مفهوم المطلق، فيجمع هذه الأشياء، ويضم بعضها إلى

(٢) أي يؤكد.

(١) وجميع: موجه.

(٣) غوائل: جمع غائلة وهي الداهية - المهلكة - الشر.

(٥) سمة: علامة.

(٤) أي الإشراك والتشبيه.

بعض، فينتظم صورة تركيبية هي مكشاف البسيط المقصود تصوره الذي لا وجود له في الخارج ولا في الأذهان.

كما أنه ربما يتوجه إلى مفهوم نظري، فيعمد إلى ما يحسبه جنساً وإلى ما يحسبه فصلاً، فيركبهما فيحصل صورة مركبة هي مكشاف المطلوب تصوره، فيخاطبوا مثلاً بأن الله تعالى موجود، لا كوجودنا، وبأنه حي، لا كحياتنا، وبالجملة فيعمد إلى صفات هي مورد المدح في الشاهد، ويلاحظ ثلاثة مفاهيم فيما نشاهد: شيء فيه هذه الصفات، وقد صدرت منه آثارها، وشيء ليست فيه وليست من شأنه، وشيء ليست فيه ومن شأنه أن تكون فيه كالحي والجماد والميت، فيثبت هذه بثبوت آثارها، ويجبر هذه التشبيه بأنه ليس كمثلنا.

والثاني^(١): تمثل الصورة المحسوسة بزيتها واللذات بجمالها وامتلاء القوى العلمية بالصور الحسية، فينقاد قلبه لذلك، ولا يصفو التوجه إلى الحق وتدبير هذا رياضات وأعمال يستعد بها الإنتان للتجليات الشامخة، ولو في المعاد واعتكافات وإزالة للشاغل بقدر الإمكان، كما هتك^(٢) رسول الله ﷺ القرام^(٣) المصور ونزع خميصة^(٤) فيها أعلام^(٥) والله أعلم.

(١) أي من أسباب صور المعرفة.

(٢) هتك: هتك الشر ونحوه جذبه فقطعه من موضعه.

(٣) بالكسر الستر الرقيق كان هذا القرام لعائشة رضي الله عنها فنزعه الرسول ﷺ لأن جبريل امتنع عن الدخول في المكان الذي هو فيه لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب أو صورة.

(٤) خميصة: ثوب خز أو صوف معلم وإنما نزعها لأنها شغلته عن الصلاة.

(٥) أعلام: مفردة علم وسم الثوب. وعلم الثوب جعل له علماً من طراز وصور وغيره.

مبحث البر والإثم

مقدمة في بيان حقيقة البر والإثم

إذ قد ذكرنا لِمِية المجازاة وَإِنِّيَّتِهَا، ثم ذكرنا الارتفاقات التي جبل عليها البشر، فهي مستمرة فيهم لا تنفك عنهم، ثم ذكرنا السعادة وطريق اكتسابها، حان أن نشتغل بتحقيق معنى البر والإثم.

تعريف البر:

فالبر كل عمل يفعله الإنسان قضية لانقياده للملأ الأعلى واضمحلاله في تلقي الإلهام من الله وصيورته فانياً في مراد الحق، وكل عمل يجازى عليه خيراً في الدنيا أو الآخرة، وكل عمل يصلح الارتفاقات التي بُني عليها نظام الإنسان، وكل عمل يفيد حالة الانقياد، ويدفع الحجب.

تعريف الإثم:

والإثم كل عمل يفعله الإنسان قضية لانقياده للشيطان وصيورته فانياً في مراده، وكل عمل يجازى عليه شراً في الدنيا أو الآخرة، وكل عمل يفسد الارتفاقات، وكل عمل يفيد هيئة مضادة للانقياد، ويؤكد الحجب.

لبر سنن ألهمها الله قلوب المؤيدين بالنور الملكي:

وكما أن الارتفاقات استنبطها أولو الخبرة، فاقتدى بهم الناس بشهادة قلوبهم، وأنفق عليها أهل الأرض، أو من يعتد به منهم، فكذلك للبر سنن ألهمها الله تعالى في قلوب المؤيدين بالنور الملكي الغالب عليهم خلق

الفطرة بمنزلة ما ألهم في قلوب النحل ما يصلح به معاشها، فجروا عليها، وأخذوا بها وأرشدوا إليها، وحثوا عليها، فاقتدى بهم الناس، واتفق عليها أهل الملل جميعها في أقطار الأرض على تباعد بلدانهم واختلاف أديانهم بحكم مناسبة فطرية واقتضاء نوعي، ولا يضر ذلك اختلاف صور تلك السنن بعد الاتفاق على أصولها، ولا صدود طائفة مخدجة^(١) لو تأمل فيهم أصحاب البصائر لم يشكوا أن مادتهم عصت الصورة النوعية، ولم تمكن لأحكامها^(٢)، وهم في الإنسان كالعضو الزائد في الجسد، زواله أجمل له من بقاءه.

أسباب شيوع سنن البر:

ولشيوع هذه السنن أسباب جليلة، وتدبيرات محكمة أحكمها المؤيدون بالوحي صلوات الله عليهم، فأثبتوا لهم منة عظيمة في رقاب الناس، ونحن نريد أن ننبهك على أصول هذه السنن مما أجمع عليه جمهور أهل الأقاليم الصالحة من الأمم العظيمة التي يجمع كل واحدة أقواماً من المتألهين^(٣) والملوك والحكماء ذوي الرأي الثاقب^(٤) من عربهم وعجمهم ويهودهم ومجوسهم وهنودهم ونشرح كيفية توليدها من انقياد البهيمية للقوة الملكية، وبعض فوائدها حسبما جربنا على أنفسنا غير مرة، وأدى إليه العقل السليم، والله أعلم.

باب التوحيد

التوحيد أصل أصول البر:

أصل أصول البر، وعمدة أنواعه هو التوحيد، وذلك لأنه يتوقف عليه

(١) مخدجة: ناقصة.

(٢) أي الصورة النوعية.

(٣) المتألهين: المتعبدون المتنسكين.

(٤) الرأي الثاقب: الرأي الصائب.

الإخبات^(١) لرب العالمين، الذي هو أعظم الأخلاق الكاسبة للسعادة وهو أصل التدبير العلمي الذي هو أفيد التدبيرين، وبه يحصل للإنسان التوجه التام تلقاء الغيب، ويستعد نفسه للحقوق به بالوجه المقدس، وقد نبّه النبي ﷺ على عظم أمره، وكونه من أنواع البر بمنزلة القلب إذا صلح صلح الجميع، وإذا فسد فسد الجميع، حيث أطلق القول فيمن مات لا يشرك بالله شيئاً أنه دخل الجنة، أو حرمة الله على النار، أو لا يحجب من الجنة، ونحو ذلك من العبارات، وحكى عن ربه تبارك وتعالى: (من لقيني بقراب^(٢) الأرض خطيئة لا يشرك بالله شيئاً لقيتُه بمثلها مغفرة).

مراتب التوحيد:

واعلم أن للتوحيد أربع مراتب:

إحداها: حصر وجوب الوجود فيه تعالى، فلا يكون غيره واجباً.

والثانية: حصر خلق العرش والسماوات والأرض وسائر الجواهر فيه تعالى، وهاتان المرتبتان لم تبحث الكتب الإلهية عنهما، ولم يخالف فيهما مشركو العرب، ولا اليهود، ولا النصارى، بل القرآن العظيم ناص^(٣) على أنهما من المقدمات المسلمة عندهم.

والثالثة: حصر تدبير السماوات والأرض وما بينهما فيه تعالى.

والرابعة: أنه لا يستحق غيره العبادة، وهما متشابتان متلازمتان لربط طبيعي بينهما.

(١) الإخبات: الطاعة والخشوع لرب العالمين.

(٢) قراب: - بالكسر - مصدر قارب والمعنى ما يقارب ملء الأرض.

(٣) ذكر ذلك كما قال: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾.

اختلاف الطوائف في التوحيد والشرك (البر والإثم) :
وقد اختلف فيهما طوائف من الناس معظمهم ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : النجامون :

النجامون^(١) ذهبوا إلى أن النجوم تستحق العبادة، وأن عبادتها تنفع في الدنيا، ورفع الحاجات إليها حق، قالوا: قد تحققنا أن لها أثراً عظيماً في الحوادث اليومية وسعادة المرء وشقاوته وصحته وسقمه، وأن لها نفوساً مجردة عاقلة تبعثها على الحركة، ولا تغفل عن عبادها، فبنوا هياكل على أسمائها وعبدوها.

الفرقة الثانية : المشركون :

والمشركون وافقوا المسلمين في تدبير الأمور العظام، وفيما أبرم^(٢) وجزم، ولم يترك لغيره خيرة، ولم يوافقهم في سائر الأمور.

ذهبوا إلى أن الصالحين من قبلهم عبدوا الله وتقربوا إليه فأعطاهم الله الألوهية، فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله، كما أن ملك الملوك يخدمه عبده، فيحسن خدمته، فيعطيه خلعة الملك، ويفوض إليه تدبير بلد من بلاده، فيستحق السمع والطاعة من أهل ذلك البلد.

وقالوا: لا تقبل عبادة الله إلا مضمومة بعبادتهم بل الحق في غاية التعالي، فلا تفيد عبادته تقرباً منه، بل لا بد من عبادة هؤلاء ليقتربوا إلى الله زلفى^(٣).

وقالوا: هؤلاء يسمعون، ويبصرون، ويشفعون لعبادهم، ويدبرون أمورهم، وينصرونهم، فنحتوا على أسمائهم أحجاراً، وجعلوها قبلة عند

(٢) أبرم: أمضى وأثبت.

(١) النجامون: عابدو النجوم.

(٣) الزلفى: قريب.

توجههم إلى هؤلاء، فخلف من بعدهم خلف، فلم يفتنوا^(١) للفرق بين الأصنام وبين من هي على صورته، فظنوها معبودات بأعيانها^(٢)، ولذلك رد الله تعالى عليهم تارة بالتنبيه على أن الحكم والملك له خاصة، وتارة ببيان أنها جمادات: ﴿اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أُمَّ لَّهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أُمَّ لَّهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أُمَّ لَّهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(٣).

الفرقة الثالثة: النصارى:

والنصارى ذهبوا إلى أن للمسيح عليه السلام قرباً من الله، علواً على الخلق، فلا ينبغي أن يُسمى عبداً، فيسوى بغيره لأن هذا سوء أدب معه وإهمال لقربه من الله.

ثم مال بعضهم عند التعبير عن تلك الخصوصية إلى تسميته ابن الله نظراً إلى أن الأب يرحم الابن، ويربيه على عينيه، وهو فوق العبيد؛ فهذا الاسم أولى به.

وبعضهم^(٤) إلى تسميته بالله نظراً إلى أن الواجب حلّ فيه، وصار داخله، ولهذا يصدر منه آثار لم تعهد من البشر، مثل إحياء الأموات، وخلق الطين، فكلامه كلام الله، وعبادته هي عبادة الله.

فخلف من بعدهم خلف لم يفتنوا لوجه التسمية، وكادوا يجعلون النبوة حقيقية، أو يزعمون أنه الواجب من جميع الوجوه، ولذلك ردّ الله تعالى عليهم تارة. بأنه لا صاحبة^(٥) له وتارة بأنه بديع^(٦) السموات

(١) لم يفتنوا: لم يدركوا ولم يفهموا. (٢) بأعيانها: بذاتها.

(٣) سورة الأعراف/ الآية ١٩٥ - الاستفهام في الآية استفهام إنكار أي ليس لهم شيء من ذلك فكيف تعبدونهم وأنتم أحسن حالاً منهم.

(٤) أي ومال بعضهم. (٥) صاحبة: زوجة.

(٦) بديع السموات: خالقها وموجدتها.

والأرض . ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

وهذه الفرق الثلاث لهم دعاوى عريضة، وخرافات كثيرة لا تخفى على المتتبع، وعن هاتين المرتبتين بحث القرآن العظيم، ورد على الكافرين شبهتهم رداً مشبعاً.

باب في حقيقة الشرك

العبادة هي التذلل الأقصى :

اعلم أن العبادة هي التذلل الأقصى، وكون تذلل أقصى من غيره لا يخلو إما أن يكون بالصورة مثل كون هذا قياماً وذلك سجوداً، أو بالنية بأن نوى بهذا الفعل تعظيم العباد لمولاهم، وبذلك تعظيم الرعية للملوك، أو التلامذة للأستاذ لا ثالث لهما.

السجود أعظم صور التعظيم :

ولما ثبت سجود التحية من الملائكة لأديم عليه السلام ومن إخوة يوسف ليوسف عليه السلام، وأن السجود أعلى صور التعظيم وجب ألا يكون التميز إلا بالنية، لكن الأمر إلى الآن غير منقح؛ إذ المولى مثلاً يطلق على معانٍ، والمراد هنا المعبود لا محالة، فقد أخذ في حد العبادة.

فالتنقيح أن التذلل يستدعي ملاحظة ضعف في الذليل، وقوة في الآخر، وخسة في الذليل وشرف في الآخر، وانقياد وإخبات في الذليل، وتسخير ونفاذ حكم للآخر.

الإنسان إذا خلي ونفسه أدرك من يستحق التقدير :

والإنسان إذا خلي ونفسه أدرك لا محالة أنه يقدر للقوة والشرف والتسخير وما أشبهها مما يعبر به عن الكمال قدرين قدراً لنفسه ولمن يشبهه

(١) سورة يس / الآية ٨٢ - أمره : شأنه - إذا أراد شيئاً : أي خلق شيء .

بنفسه، وقدراً لمن هو متعالٍ عن وصمة الحدوث والإمكان بالكلية.

العلم بالمفنيات يجعل الإنسان على درجتين :

ولمن انتقل إليه شيء من خصوصيات هذا المتعالي، فالعلم بالمفنيات يجعله على درجتين: علم برؤية وترتيب مقدمات، أو حدس^(١)، أو منام، أو تلقي إلهام مما يجد نفسه لا يباين^(٢) ذلك بالكلية، وعلم ذاتي هو مقتضى ذات العالم لا يلقاه من غيره، ولا يتجشم^(٣) كسبه، وكذلك يجعل التأثير والتدبير والتسخير. أي لفظ قلت على درجتين: بمعنى المباشرة واستعمال الجوارح^(٤) والقوى والاستعانة بالكيفيات المزاجية كالحرارة والبرودة وما أشبه ذلك مما يجد نفسه مستعدة له استعداداً قريباً أو بعيداً، وبمعنى التكوين من غير كيفية جسمانية ولا مباشرة شيء وهو قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٥).

العلم بالمفنيات يجعل العظمة والشرف والقوة على درجتين :

وكذلك يجعل العظمة والشرف والقوة على درجتين: إحداهما كعظمة الملك بالنسبة إلى رعيته مما يرجع إلى كثرة الأعوان وزيادة الطول، أو عظمة البطل والأستاذ بالنسبة إلى ضعيف البطش والتلميذ مما يجد نفسه يشارك العظم في أصل الشيء.

وثانيتها ما لا يوجد إلا في المتعالي جداً، ولا تن في تفتيش هذا السر حتى تستيقن أن المعترف بانصرام سلسلة الإمكان إلى واجب لا يحتاج إلى غيره يضطر إلى جعل هذه الصفات التي يتمادحون بها على

(١) الحدس: الظن والتخمين والتوهم.

(٢) يباين: يفترق عنه.

(٣) تجشم: اختار وقصد وتكلف مشقة.

(٤) الجوارح: الأيدي والأرجل.

(٥) سورة يس/ الآية ٨٢.

درجتين درجة لما هنالك ودرجة لما يشبهه بنفسه .

تحميل نصوص الشرائع غير محلها :

ولما^(١) كانت الألفاظ المستعملة في الدرجتين متقاربة، فربما يحمل نصوص الشرائع الإلهية على غير محلها، وكثيراً ما يطلع الإنسان على أثر صادر من بعض أفراد الإنسان أو الملائكة أو غيرهما يستبعده من أبناء جنسه، فيشتبه عليه الأمر، فيثبت له شرفاً مقدساً وتسخيراً إلهياً، وليسوا في معرفة الدرجة المتعالية سواء، فمنهم من يحيط بقوى الأنوار المحيطة الغالبة على المواليد، ويعرفها من جنسه، ومنهم من لا يستطيع ذلك، وكل إنسان مكلف بما عنده من الاستطاعة، وهذا تأويل^(٢) ما حكاه الصادق المصدوق عليه السلام من نجاة مسرف على نفسه أمر أهله بحرقه، وتذرية^(٣) رماده حذراً من أن يبعثه، الله، ويقدر عليه^(٤) فهذا الرجل استيقن بأن الله متصف بالقدرة التامة، لكن القدرة إنما هي في الممكنات، لا في الممتنعات، وكان يظن أن جمع الرماد المتفرق نصفه في البر ونصفه في البحر ممتنع، فلم يجعل ذلك نقصاً، فأخذ بقدر ما عنده من العلم، ولم يعد كافراً - كان التشبيه والإشراك بالنجوم وبصالحى العباد الذين ظهر منهم خرق العوائد كالكشف واستجابة الدعاء متوارثاً فيهم .

كل نبي لا بد أن يظهر حقيقة الشرك :

وكل نبي يبعث في قومه فإنه لا بد أن يفهمهم حقيقة الإشراك، ويميز كلاً من الدرجتين، ويحصر الدرجة المقدسة في الواجب، وإن تقاربت الألفاظ كما قال رسول الله ﷺ لطيب : «إنما أنت رفيق والطيب هو الله» وكما قال : «السيد هو الله» يشير إلى بعض المعاني دون بعض .

(١) شرط جوابه قوله الآتي كان التشبيه . (٢) تأويل : تفسير .

(٣) تذرية : نشر . يقال : ذر الملح بمعنى رشه ونشروه . وذر الحب في الأرض : بذره .

(٤) الحديث من رواية البخاري .

ثم لما انقضى الحواريون^(١) من أصحابه وحملة دينه خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فحملوا الألفاظ المستعملة المشتبهة على غير محلها، كما حملوا المحبوبة والشفاعة التي أثبتها الله تعالى في قاطبة الشرائع لخواص البشر على غير محلها، وكما حملوا صدور خرق العوائد والاشراقات على انتقال العلم والتسخير الأقصيين إلى هذا الذي يرى منه.

والحق أن ذلك كله يرجع إلى قوى ناسوتية^(٢)، أوروحانية تعد لنزول التدبير الإلهي على وجه، وليس من الإيجاد والأمور المختصة بالواجب في شيء.

المرضى بالإشراك على أصناف:

والمرضى بهذا المرض على أصناف: منهم من نسي جلال الله بالكلية، فجعل لا يعبد إلا الشركاء، ولا يرفع حاجته إلا إليهم، لا يلتفت إلى الله أصلاً، وإن كان يعلم بالنظر البرهاني أن سلسلة الوجود تنصرم إلى الله.

ومنهم من اعتقد أن الله هو السيد وهو المدبر، لكنه قد يخلع على بعض عبيده لباس الشرف والتأله، ويجعله متصرفاً في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعته في عباده بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلده تدبير تلك المملكة فيما عدا الأمور العظام، فيتلجلج^(٣) لسانه أن يسميهم عباد الله، فيسويهم وغيرهم، فعدل عن ذلك إلى تسميتهم أبناء الله ومحبوبي الله، وسمى نفسه عبداً لأولئك كعبد المسيح

(١) الحواريون: أصحاب السيد المسيح المخلصون له المقربون منه.
(٢) ناسوتية: إنسانية.
(٣) يتلجلج: يضطرب.

وعبد العزى^(١)، وهذا مرض جمهور اليهود والنصارى والمشركين وبعض الغلاة^(٢) من منافقي دين محمد ﷺ يومنا هذا.

مبنى التشريع إقامة المظنة مقام الأصل:

ولما كان مبنى التشريع على إقامة المظنة مقام الأصل عد أشياء محسوسة هي مظان الإشراك ككسجة الأصنام، والذبح لها، والحلف باسمها، وأمثال ذلك، وكان أول فتح هذا العلم عليّ أن رفع لي قوم يسجدون لذباب صغير سمي لا يزال يحرك ذنبه وأطرافه، فنفت في قلبي هل تجد فيهم ظلمة الشرك، وهل أحاطت الخطيئة بأنفسهم كما تجدها في عبدة الأوثان؟

قلت: لا أجدها فهم لأنهم جعلوا الذباب قبلة ولم يخلطوا درجة تدلل بالأخرى قيل: فقد مُدِيت إلى السر^(٣) فيومئذ ملئ قلبي بهذا العلم، وصرت على بصيرة من الأمر، وعرفت حقيقة التوحيد والإشراك، وما نصبه الشرع مظان لهما، وعرفت ارتباط العبادة بالتدبير-والله أعلم.

باب أقسام الشرك

حقيقة الشرك:

حقيقة الشرك أن يعتقد إنسان في بعض المعظمين من الناس أن الآثار العجيبة الصادرة منه إنما صدرت لكونه متصفاً بصفة من صفات الكمال مما لم يعهد في جنس الإنسان، بل يختص بالواجب جل مجده

(١) العزى: اللات والعزى ومناة ويغوث ويعوق أسماء أصنام العرب في الجاهلية.

(٢) الغلاة: المغالين المبالغين في محبة أشخاص أو المبالغين في العبادة وهكذا.

(٣) هكذا بالأصل وهو غير مناسب لسياق الكلام والذي يظهر من سياق كلامه أن السجود إذا كان سجود عبادة فهو كفر وإذا كان السجود سجود تحية فهو من باب سجود الملائكة لآدم تحية له وسجود أولاد يعقوب ليوسف عليه السلام كما هو معروف ومقرر.

لا يوجد في غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره، أو يفنى غيره في ذاته ويبقى بذاته أو نحو ذلك مما يظنه هذا المعتقد من أنواع الخرافات، كما ورد في الحديث: «إن المشركين كانوا يلبون بهذه الصيغة: لبيك لبيك لا شريك لك - إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» فيتذلل عنده أقصى التذلل، ويعامل معه معاملة العباد مع الله تعالى.

وهذا معنى له أشباح وقوالب، والشرع لا يبحث إلا عن أشباحه وقوالبه التي باشرها الناس بنية الشرك حتى صارت مظنة للشرك ولازمة له في العادة، كسنة الشرع في إقامة العلل المتلازمة للمصالح والمفاسد مقامها.

أمر جعلها الله في الشريعة الإسلامية من مظنات الشرك: ونحن نريد أن ننبهك على أمور جعلها الله تعالى في الشريعة المحمدية، على صاحبها الصلوات والتسليمات مظنات للشرك، فهي عنها:

١ - السجود لغير الله:

فمنها أنهم كانوا يسجدون للأصنام والنجوم، فجاء النهي عن السجدة لغير الله قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾^(١).

والإشراك في السجدة كان متلازماً للإشراك في التدبير كما أومأنا^(٢) إليه، وليس الأمر كما يظن بعض المتكلمين من أن توحيد العبادة حكم من أحكام الله تعالى مما يختلف باختلاف الأديان لا يطلب بدليل برهاني،

(١) سورة فصلت/ الآية ٣٧. لاحظ أن الله تعالى قال: ﴿الذي خلقهن﴾ ولم يقل خلقهم.

إشارة إلى أنها لا تعقل.

(٢) أومأنا: أشرنا.

كيف ولو كان كذلك لم يلزمهم الله تعالى بتفردہ بالتخليق^(١) والتدبير، كما قال عز من قائل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ﴾^(٢).

إلى آخر خمس آيات، بل الحق أنهم اعترفوا بتوحيد الخلق وتوحيد التدبير في الأمور العظام، وسلموا أن العبادة متلازمة معهما، لما أشرنا إليه في تحقيق معنى التوحيد، فلذلك ألزمهم الله بما ألزمهم والله الحجة البالغة.

٢ - الاستعانة بغير الله في قضاء الحوائج :

ومنها أنهم كانوا يستعينون بغير الله في حوائجهم من شفاء المريض وغناء^(٣) الفقير، وينذرون لهم، يتوقعون إنجاح مقاصدهم بتلك النذور، ويتلون أسماءهم رجاء بركتها، فأوجب الله تعالى عليهم أن يقولوا في صلاتهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٤). وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٥). وليس المراد من الدعاء العبادة كما قاله المفسرون، بل هو الاستعانة لقوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾^(٦).

٣ - تسمية بعض شركائهم بنات الله وأبناء الله :

ومنها أنهم كانوا يسمون بعض شركائهم بنات الله وأبناء الله، فنهوا

(١) التخليق: الخلق.

(٢) سورة النمل / الآية ٥٩ . اصطفي : اختار . (الله خير أما تشركون) .

(٣) غناء : غنى . الكلمات المقصورة يمكن في اللغة مدها مثل : رضى رضاء كما يمكن قصر الممدود بحذف الهمزة سما . دما .

(٤) سورة الفاتحة / الآية ٥ .

(٥) سورة الجن / الآية ١٨ - فلا تدعوا مع الله أحداً : فلا تشرك .

(٦) سورة الانعام / الآية ٤١ بل إياه تدعون : لا غيره - وتدعونه في الشدائد فيكشف ما تدعون إليه .

عن ذلك أشد النهي ، وقد شرحنا سرّه من قبل .

٤ - اتخاذا الأخبار أرباباً من دون الله :

ومنها أنهم كانوا يتخذون أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى بمعنى أنهم كانوا يعتقدون أن ما أحله هؤلاء حلال لا بأس به في نفس الأمر وأن ما حرمه هؤلاء حرام يؤخذون به في نفس الأمر، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾^(١) الآية .

سأل عدي بن حاتم رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « كانوا يحلّون لهم أشياء ، فيستحلّونها ، ويحرّمون عليهم أشياء ، فيحرّمونها » .

وسر ذلك أن التحليل والتحريم عبارة عن تكوين نافذ في الملكوت أن الشيء الفلاني يؤخذ به أو لا يؤخذ به ، فيكون هذا التكوين سبباً للمؤاخذا وتركها ، وهذا من صفات الله تعالى .

نسبة التحليل والتحريم إلى الرسول :

وأما نسبة التحليل والتحريم إلى النبي ﷺ فبمعنى أن قوله أمارة^(٢) قطعية لتحليل الله وتحريمه ، وأما نسبتها إلى المجتهدين من أمته فبمعنى روايتهم ذلك عن الشرع من نص الشارع أو استنباط معنى من كلامه .

واعلم أن الله تعالى إذا بعث رسولاً وثبتت رسالته بالمعجزة ، وأحل على لسانه بعض ما كان حراماً عندهم ، ووجد بعض الناس في نفسه انجحاماً^(٣) عنه ، وبقي في نفسه ميل إلى حرمة لما وجد في ملته من تحريمه فهذا على وجهين : إن كان لتردد في ثبوت هذه الشريعة ، فهو كافر

(١) سورة التوبة / الآية ٣١ الأخبار ، رجال الكنيسة والرهبان رجال الأديار العاكفون بها .

(٢) أمارة : دليل .

(٣) انجحام : بتقديم الجيم على الحاء وبالعكس بمعنى الامتناع والكف .

بالنبي ، وإن كان لا اعتقاد وقوع التحريم الأول تحريماً لا يحتمل النسخ لأجل أنه تبارك وتعالى خلع على عبد خلعة الألوهية ، أو صار فانياً في الله باقياً به ، فصار نهيهِ عن فعل أو كراهيته له مستوجباً لحرم^(١) في ماله وأهله ، فذلك مشرك بالله تعالى ، مثبت لغيره غضباً وسخطاً^(٢) مقدسين وتحليلاً وتحريماً مقدسين .

٥ - التقرب إلى الأصنام والنجوم بالذبح :

ومنها أنهم كانوا يتقربون إلى الأصنام والنجوم بالذبح لأجلهم ، إما بالإهلال^(٣) عند الذبائح بأسمائهم ، وإما بالذبح على الأنصاب المخصصة لهم ، فنهوا عن ذلك ، ومنها أنهم كانوا يسيبون السوائب والبحائر تقرباً إلى شركائهم ، فقال الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ ﴾^(٤) الآية .

٦ - الحلف بالأسماء المباركة المعظمة :

ومنها أنهم كانوا يعتقدون في أناس أن أسماءهم مباركة معظمة ، وكانوا يعتقدون أن الحلف بأسمائهم على الكذب يستوجب حرماً في ماله وأهله ، فلا يقدمون على ذلك ، ولذلك كانوا يستحلفون الخصوم بأسماء الشركاء بزعمهم ، فنهوا عن ذلك وقال النبي ﷺ : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقد فسره بعض المحدثين على معنى التغليظ والتهديد ، ولا أقول

(١) حرم : نقص .

(٢) السخط : أشد الغضب .

(٣) الإهلال : ذكر اسم الصنم .

(٤) سورة المائدة / الآية ١٠٣ - قال سعيد بن المسيب : البحيرة هي الناقة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ثم ثنتي بأنثى كانوا يسيبونها لآلهتهم .

بذلك وإنما المراد عندي اليمين المنعقدة واليمين الغموس^(١) باسم غير الله تعالى على اعتقاد ما ذكرنا.

٧ - الحج لغير الله تعالى :

ومنها الحج لغير الله تعالى ، وذلك أن يقصد مواضع متبركة مختصة بشركائهم يكون الحلول بها تقريباً من هؤلاء ، فنهى الشرع عن ذلك ، وقال النبي ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد »^(٢).

٨ - تسمية الأبناء عبد العزى وعبد شمس ونحوهما :

ومنها أنهم كانوا يسمون أبناءهم عبد العزى وعبد شمس ونحو ذلك فقال الله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾^(٣).

وجاء في الحديث أن حواء سمت ولدها عبد الخرث^(٤) وكان ذلك من وحي الشيطان ، وقد ثبت في أحاديث لا تحصى أن النبي ﷺ غير أسماء أصحابه عبد العزيز وعبد شمس ونحوهما إلى عبد الله وعبد الرحمن وما أشبههما ، فهذه أشباح وقوالب للشرك نهى الشارع عنها لكونها قوالب له ، والله أعلم .

(١) اليمين الغموس : هي اليمين الكاذبة وسميت كذلك لأنها تغمس صاحبها في النار .
(٢) المساجد الثلاثة هي المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى في القدس .
(٣) سورة الأعراف / الآية ١٨٩ خلقكم من نفس واحدة : هي نفس آدم عليه السلام - وجعل منها زوجها : جعل من النفس الواحدة زوجها وهي حواء عليها السلام - ليسكن إليها : ليطمئن قلبه إليها ويأنس بها - فلما تغشاهما : يقال تغشى بثوبه بمعنى تغطى وتغشاهما في الآية كناية عن الجماع .
(٤) الخرث : اسم من أسماء إبليس اللعين .

باب الإيمان بصفات الله تعالى

من أعظم البر الإيمان بصفات الله تعالى :

اعلم أن من أعظم أنواع البر الإيمان بصفات الله تعالى ، واعتقاد اتصافه بها ، فإنه يفتح باباً بين هذا العبد وبينه تعالى ويعدده لانكشاف ما هنالك من المجد والكبرياء .

استعمال الصفات بمعنى وجود غايتها :

واعلم أن الحق تعالى أجل من أن يقاس بمعقول ، أو محسوس ، أو يحل فيه صفات كحلول الأعراض^(١) في محالها أو تعالجه العقول العامة ، أو تتناوله الألفاظ العرفية ، ولا بد من تعريفه إلى الناس ، ليكملوا كمالهم الممكن لهم ، فوجب أن تستعمل الصفات بمعنى وجود غايتها ، لا بمعنى وجود مبادئها ، فمعنى الرحمة إفاضة النعم ، لا انعطاف القلب والرقه ، وأن تستعار ألفاظ تدل على تسخير الملك لمدينته لتسخيره لجميع الموجودات ، إذ لا عبارة في هذا المعنى أفصح من هذه ، وأن تستعمل تشبيهات بشرط ألا يقصد إلى أنفسها ، بل إلى معان مناسبة لها في العرف ، فإراد يبسط اليد الجود مثلاً ، وبشرط ألا يوهم المخاطبين إيهاً صريحاً أنه في ألوات البهيمية وذلك يختلف باختلاف المخاطبين ، فيقال يرى ، ويسمع ، ولا يقال يذوق ، ويلمس ، وأن يسمى إفاضة كل معان متفقة في أمر باسم ، كالرزاق والمصور ، وأن يسلب عنه كل ما لا يليق به لا سيما ما لهج^(٢) به الظالمون في حقه مثل لم يلد ولم يولد .

وقد أجمعت الملل السماوية قاطبتها^(٣) على بيان الصفات على هذا

(١) الأعراض : ما لا يقوم بنفسه أما ما يقوم بنفسه وكان ملموساً محسوساً فهو الجوهر .

(٢) لهج : نطق .

(٣) قاطبتها : جميعها .

الوجه، وعلى أن تستعمل تلك العبارات على وجهها، ولا يبحث عنها أكثر من استعمالها، وعلى هذا مضت القرون المشهود لها بالخير، ثم خاض طائفة من المسلمين في البحث عنها، وتحقيق معانيها من غير نص، ولا برهان قاطع، قال النبي ﷺ: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق»^(١) وقال في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾^(٢). «لا فكرة في الرب»^(٣).

لم ينقل عن النبي وجوب تأويل الصفات:

والصفات ليست بمخلوقات محدثات، والتفكر فيها إنما هو أن الحق كيف اتصف بها، فكان تفكر في الخالق، قال الترمذي في حديث: «يد الله ملأى»، وهذا الحديث قال الأئمة تؤمن كما جاء من غير أن يُفسر أويتوهم هكذا قال غير واحد من الأئمة، منهم سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وابن عيينة، وابن المبارك: أنه تروى هذه الأشياء، ويؤمن بها، ولا يقال كيف.

وقال في موضع آخر: إن إجراء هذه الصفات كما هي ليس بتشبيه، وإنما التشبيه أن يقال: سمع كسمع وبصر كبصر.

وقال الحافظ ابن حجر: لم ينقل عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك يعني

(١) الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبي: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره» قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه ورواه أبو الشيخ كذلك وهو كل حال صحيح المعنى.

(٢) سورة النجم/ الآية ٤٢ - إن إلى ربك المرجع والمصير بعد الموت ليجازي كلًّا حسب عمله.

(٣) هذا الحديث لم نعثر عليه في كتاب من كتب السنة الصحيحة.

المتشابهات ولا المنع من ذكره ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه، وينزل عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (١).

وجوب تنزيه الله عن مشابهات المخلوقات:

ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما يجوز نسبته إليه تعالى مما لا يجوز مع حثه على التبليغ عنه بقوله: «ليبلغ الشاهد (٢) الغائب» حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وما فعل بحضرتة، فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان به على الوجه الذي أراد الله تعالى منها، وأوجب تنزيهه عن مشابهات المخلوقات بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (٣).

فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم، فقد خالف سبيلهم (٤).

تفسير الصفات بما يليق بجناب الله:

أقول ولا فرق بين السمع والبصر والقدرة والضحك والكلام والاستواء فإن المفهوم عند أهل اللسان من كل ذلك غير ما يليق بجناب القدس، وهل في الضحك استحالة إلا من جهة أنه يستدعي الفم، وكذلك الكلام؟ وهل في البطش والنزول استحالة إلا من جهة أنهما يستدعيان اليد والرجل؟ وكذلك السمع والبصر يستدعيان الأذن والعين، والله أعلم.

واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث، وسموهم مجسمة ومشبهة، وقالوا: هم المتسترون بالبلكفة (٥)، وقد وضع عليّ

(١) سورة المائدة/ الآية ٣ - يقال إن هذه آخرة نزلت من القرآن الكريم.

(٢) الشاهد: الحاضر وسمي كذلك لأنه شاهد الحديث.

(٣) سورة الشورى/ الآية ١١ (الكاف في كمثلها حرف زائد والمعنى ليس مثله شيء).

(٤) أي قول ابن حجر. وقوله خالف سبيلهم أي خالف طريقهم.

(٥) البلكفة: أي القائلون: بلا كيف. وهذه الكلمة وأمثالها من الكلمات استعملت في

العصر العباسي ولم يكن لها أصل في اللغة متين ومنها بسمل وحوقل وحمدل وهي

بمعنى بسم الله - ولا حول ولا قوة إلا بالله - والحمد لله.

وضوحاً بيّناً أن استطالتهم هذه ليست بشيء وأنهم مخطئون في مقاتلتهم
رواية ودراية وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى.

وتفصيل ذلك أن ههنا مقامين: أحدهما أن الله تبارك وتعالى كيف
اتصف بهذه الصفات، وهل هي زائدة على ذاته أو عين ذاته؟ وما حقيقة
السمع والبصر والكلام وغيرها؟ فإن المفهوم من هذه الألفاظ بادي الرأي
غير لائق بجناب القدس.

القول الحق في صفات الله:

والحق في هذا المقام: أن النبي ﷺ لم يتكلم فيه بشيء، بل
حجر^(١) أمته عن التكلم فيه والبحث عنه فليس لأحد أن يقدم على
ما حجره.

والثاني: أنه أي شيء يجوز في الشرع أن نصفه تعالى به وأي شيء
لا يجوز أن نصفه به.

والحق: أن صفاته وأسماءه توقيفية^(٢) بمعنى أنا وإن عرفنا القواعد
التي بنى الشرع بيان صفاته تعالى عليها كما حررنا في صدر الباب، لكن
كثيراً من الناس لو أبيع لهم الخوض في الصفات لضلوا، وأضلوا.

وكثيراً من الصفات وإن كان الوصف بها جائزاً في الأصل، لكن قوماً
من الكفار حملوا تلك الألفاظ على غير محلها. وشاع ذلك فيما بينهم،
فكان حكم الشرع النهي عن استعمالها دفعا لتلك المفسدة.

وكثير من الصفات يوهم استعمالها على ظواهرها خلاف المراد،

(١) حجر: منع وحظر.

(٢) توقيفية: أي نقف ونقتصر على ذكره القرآن الكريم والشرع الحنيف ولا مجال للاجتهاد
فيه.

فوجب الاحتراز عنها فللهذه الحكم جعلها الشرع توقيفية، ولم يُبح الخوض فيها بالرأي.

ما يجوز استعماله وما لا يجوز من الصفات :

وبالجملة فالضحك والفرح والتبشيش^(١) والغضب والرضا يجوز لنا استعمالها والبكاء والخوف ونحو ذلك لا يجوز لنا استعمالها، وإن كان المأخذان متقاربين، والمسألة على ما حققناه معتضدة بالعقل والنقل لا يحوم الباطل من بين يديها ولا من خلفها، والإطالة في إبطال أقوالهم ومذاهبهم لها موضع آخر غير هذا الموضع.

التفسير الأقرب والأوفق للصفات :

ولنا أن نفسرها بمعانٍ هي أقرب وأوفق مما قالوا إبانة^(٢) لأن تلك المعاني لا يتعين القول بها، ولا يضطر الناظر في الدليل العقلي إليها، وأنها ليست راجحة على غيرها، ولا فيها مزية بالنسبة إلى ما عداها، لا حكماً بأن مراد الله ما نقول، ولا إجماعاً على الاعتقاد بها والإذعان بها هيئات ذلك، فنقول مثلاً: لما كان بين يديك ثلاثة أنواع: حي وميت وجماد، وكان الحي أقرب شياً بما هناك لكونه عالماً مؤثراً في الخلق وجب أن يسمى حياً.

ولما كان العلم عندنا هو الانكشاف، وقد انكشفت عليه الأشياء كلها بما هي مندمجة في ذاته، ثم بما هي موجودة تفصيلاً وجب أن يسمى عليماً.

ولما كانت الرؤية والسمع انكشافاً تاماً للمبصرات والمسموعات، وذلك هناك بوجه أتم وجب أن يُسمى بصيراً سميعاً.

(١) بشبش الرجل: أظهر البشاشة. (٢) إبانة: إظهاراً.

ولما كان قولنا أراد فلان إنما نعني به هاجس عزم على فعل أو ترك، وكان الرحمن يفعل كثيراً من أفعاله عند حدوث شرط أو استعداد في العالم، فيوجب عند ذلك ما لم يكن واجباً، ويحصل في بعض الأحيان^(١) الشاهقة إجماع بعد ما لم يكن بإذنه وحكمه وجب أن يسمى مريداً.

وأيضاً فالإرادة الواحدة الأزلية الذاتية المفسرة باقتضاء الذات لما تعلقته بالعالم بأسره مرة واحدة، ثم جاءت الحوادث يوماً بعد يوم صح أن ينسب إلى كل حادث حادث على حدته، ويقال أراد كذا وكذا.

ولما كان قولنا قدر فلان إنما نعني به أنه يمكن له أن يفعل، ولا يصدده من ذلك سبب خارج، أما إثارة أحد المقدورين من القادر فإنه لا ينفي اسم القدرة، وكان الرحمن قادراً على كل شيء، وإنما يؤثر بعض الأفعال دون أصداده لعنايته واقتضائه الذاتي وجب أن يسمى قادراً.

ولما كان قولنا كلم فلان فلاناً إنما نعني به إفاضة المعاني المرادة، مقرونة بالفاظ دالة عليها، وكان الرحمن ربما يفيض على عبده علوماً، ويفيض معها ألفاظاً منعقدة في خياله، دالة عليها ليكون التعليم أصرح ما يكون وجب أن يسمى متكلماً قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

نموذج من التفسير:

فالوحي: هو النفث في الروح برؤيا، أو خلق علم ضروري عند توجهه إلى الغيب.

(١) الأحياء: الأمكنة، والشاهقة: العالية. (٢) سورة الشورى/ الآية ٥١.

ومن وراء حجاب : أن يسمع كلاماً منظوماً كأنه سمعه من خارج، ولم يَرَ قائله .

أو يرسل رسولاً : فيتمثل الملك له، وربما يحصل عند توجهه إلى الغيب وانقهار الحواس صوت صلصلة الجرس^(١) كما قد يكون عند عروض الغشي من رؤية ألوان حمر وسود.

ولما كان في حظيرة القدس نظام، مطلوبة إقامته في البشر - فإن وافقوه لحقوا بالملا الأعلى، وأخرجوا من الظلمات إلى نور الله وبسطته، ونعموا في أنفسهم، وألهمت الملائكة وبنو آدم أن يحسنوا إليهم - وإن خالفوا باينوا من الملا الأعلى، وأصيبوا ببغضه منهم، وعذبوا بنحو ما ذكر، وجب أن يُقال رضي وشكر، أو سخط ولعن، والكل يرجع إلى جريان العالم حسب مقتضى المصلحة.

وربما كان من نظام العالم خلق المدعو إليه فيقال استجاب الدعاء، ولما كانت الرؤيا في استعمالنا انكشاف المرئي أتم ما يكون، وكان الناس إذا انتقلوا إلى بعض ما وعدوا من المعاد اتصلوا بالتجلي القائم وسط عالم المثال، ورأوه رأي عين بأجمعهم، وجب أن يقال إنكم سترونه كما ترون القمر ليلة البدر، والله أعلم.

باب الإيمان بالقدر

من أعظم البر الإيمان بالقدر :

من أعظم أنواع البر الإيمان بالقدر، وذلك أنه به يلاحظ الإنسان

(١) الصلصلة: بفتح الصادين الصوت المتدارك الذي يسمع ولا يثبت أول ما يقرع سمعه حتى يفهمه بعد، والجرس بفتحيتين ما يعلق بعنق الدابة أي الجلجل وشبهه به صوت الملك من جهة القوة والطين.

التدبير الواحد الذي يجمع العالم، ومن اعتقده على وجهه بصير طامع البصر إلى ما عند الله، يرى الدنيا وما فيها كالظل له، ويرى اختيار العباد من قضاء الله كالصورة المنطبعة في المرآة، وذلك يعد له - لانكشاف ما هناك من التدبير الوجداني، ولو في المعاد - أتم إعداد.

وقد نبه ﷺ على عظم أمره من بين أنواع البر حيث قال: «من لم يؤمن بالقدر خيره وشره، فأنا بريء منه» وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه».

علم الله الأزلي يشمل كل ما وجد:

واعلم أن الله تعالى شمل علمه الأزلي الذاتي كل ما وجد، أو سيوجد من الحوادث، محال أن يتخلف علمه عن شيء أو يتحقق غير ما علم، فيكون جهلاً لا علماً، وهذه مسألة شمول العلم، وليست بمسألة القدر ولا يخالف فيها فرقة من الفرق الإسلامية، إنما القدر^(١) الذي دلت عليه الأحاديث المستفيضة^(٢)، ومضى عليه السلف الصالح، ولم يوفق له إلا المحققون، ويتجه عليه السؤال بأنه متدافع مع التكليف، وأنه فيم العمل - هو القدر الملزم الذي يوجب الحوادث قبل وجودها، فيوجد بذلك الإيجاب، لا يدفعه هرب، ولا تنفع منه حيلة، وقد وقع ذلك^(٣) خمس مرات.

١ - أوجد العالم على أحسن وجه ممكن:

فأولها: أنه أجمع في الأزل أن يُوجد العالم على أحسن وجه ممكن مراعيًا للمصالح، مؤثراً لما هو الخير النسبي حين وجوده، وكان علم الله

(١) مبتدأ خبره قوله الآتي هو القدر.

(٢) المستفيضة: المشهورة.

(٣) أي القدر.

ينتهي إلى تعيين صورة واحدة من الصور لا يشاركها غيرها، فكانت الحوادث سلسلة مترتبة، مجتمعاً وجودها، لا تصدق على كثيرين، فإرادة إيجاد العالم ممن لا تخفى عليه خافية هو بعينه تخصيص صورة وجوده إلى آخر ما ينجر إليه الأمر.

٢ - كتب مقادير الخلائق كلها:

وثانيها: أنه قدر المقادير، ويروى أنه كتب مقادير الخلائق كلها، والمعنى واحد قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وذلك أنه خلق الخلائق حسب العناية الأزلية في خيال^(١) العرش، فصور هنالك جميع الصور، وهو المعبر عنه بالذكر في الشرائع، فتحقق هنالك مثلاً صورة محمد ﷺ، وبعثه إلى الخلق في وقت كذا، وإنذاره لهم وإنكار أبي لهب وإحاطة الخطيئة بنفسه في الدنيا، ثم اشتعال النار عليه في الآخرة، وهذه الصورة سبب لحدوث الحوادث على نحو ما كانت هنالك كتأثير الصورة المنتقشة في أنفسنا في زلق الرجل على الجذع الموضوع فوق الجدران، ولم تكن لتزلق لو كانت على الأرض.

٣ - خلق الله آدم ليكون أباً للبشر:

وثالثها: أنه لما خلق آدم عليه السلام ليكون أباً للبشر، وليبدأ منه نوع الإنسان أحدث في عالم المثال صور بنيه ومثل سعادتهم وشقاوتهم بالنور والظلمة، وجعلهم بحيث يكلفون، وخلق فيهم معرفته والإخبارات له، وهو أصل الميثاق المدسوس^(٢) في فطرتهم، فيؤاخذون به، وإن نسوا الواقعة إذ النفوس المخلوقة في الأرض إنما هي ظل الصور الموجودة يومئذ، فمدسوس فيها ما دس يومئذ.

(١) خيال: شخص.

(٢) المدسوس: المخفي.

٤ - نفخ الروح في الجنين :

ورابعها: حين نفخ الروح في الجنين، فكما أن النواة إذا ألقيت في الأرض في وقت مخصوص، وأحاط بها تدبير مخصوص علم المطلع على خاصية نوع النخل، وخاصية تلك الأرض وذلك الماء والهواء أنه يحسن نباتها، ويتحقق من شأنه على بعض الأمر، فكذلك تتلقى الملائكة المدبرة يومئذ، وينكشف عليهم الأمر في عمره ورزقه، وهل يعمل عمل من غلبت ملكيته على بهيميته، أو بالعكس، وأي نحو تكون سعادته وشقاوته.

٥ - إنزال الأمر من حظيرة القدس قبل حدوثه :

وخامسها: قبيل حدوث الحادثة، فينزل الأمر من حظيرة القدس إلى الأرض، وينتقل شيء مثالي، فتنبسط أحكامه في الأرض.

وقد شاهدت ذلك مراراً، منها أن ناساً تشاجروا فيما بينهم، وتحاقدوا، فالتجأت إلى الله، فرأيت نقطة مثالية نورانية نزلت من حظيرة القدس إلى الأرض، فجعلت تنبسط شيئاً فشيئاً، وكلما انبسطت زال الحقد عنهم فما برحنا المجلس حتى تلاطفوا^(١)، ورجع كل واحد منهم إلى ما كان من الألفة، وكان ذلك من عجيب آيات الله عندي.

ومنها أن بعض أولادي كان مريضاً وكان خاطري مشغولاً به، فبينما أنا أصلي الظهر شاهدت موته نزل، فمات في ليلته.

يخلق الله الحوادث ويمحوها أو يشبثها :

وقد بينت السنة بياناً واضحاً أن الحوادث يخلقها الله تعالى قبل أن تحدث في الأرض خلقاً مآ، ثم ينزل في هذا العالم، فيظهر فيه كما خلق أول مرة سنة من الله تعالى، ثم قد يمحي الثابت، ويثبت المعدوم، بحسب هذا

(١) تلاطفوا: تواصلوا.

الوجود قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (١).

مثل أن يخلق الله تعالى البلاء خلقاً ما، فينزله على المبتلى، ويصعد الدعاء، فيرده، وقد يخلق الموت، فيصعد البر، ويرده، والفقير فيه أن المخلوق النازل سبب من الأسباب العادية كالطعام والشراب بالنسبة إلى بقاء الحياة، وتناول السم، والضرب بالسيف بالنسبة إلى الموت.

وقد دل أحاديث كثيرة على ثبوت عالم تتجسم فيه الأعراض، وتنتقل المعاني، ويخلق الشيء قبل ظهوره في الأرض، مثل كون الرحم معلقاً بالعرش، ونزول الفتن كمواقع القطر، وخلق النيل والفرات في أصل السدرة (٢)، ثم إنزالهما إلى الأرض، وإنزال الحديد والأنعام وإنزال القرآن إلى السماء الدنيا مجموعاً، وحضور الجنة والنار بين يدي النبي ﷺ وبين جدار المسجد بحيث يمكن تناول العنقود، ويأتي حر النار، وكتعالج (٣) البلاء والدعاء، وخلق ذرية آدم، وخلق العقل، وأنه أقبل وأدبر، وإتيان الزهراوين (٤) كأنهما فرقان، ووزن الأعمال، وحفوف (٥) الجنة بالمكارة والنار بالشهوات، وأمثال ذلك مما لا يخفى على من له أدنى معرفة بالسنة.

القدر لا يزاحم سببية الأسباب لمسيباتها:

واعلم أن القدر لا يزاحم سببية الأسباب لمسيباتها، لأنه إنما تعلق بالسلسلة المترتبة جملة مرة واحدة، وهو قوله ﷺ في الرقى والدواء والتقا (٦) هل ترد شيئاً من قدر الله؟ قال: «هي من قدر الله»، وقول عمر رضي الله عنه

(١) سورة الرعد/ الآية ٣٩ - يمحو الله ما يشاء ويثبت بالتخفيف والتشديد - أم الكتاب: أصله الذي لا يتغير منه شيء وهو ما كتبه في الأزل.

(٢) السدرة: قصد المؤلف سدرة المنتهى الوارد ذكرها في القرآن الكريم.

(٣) تعالج: تصارع.

(٤) الزهراوين: المنيرتين وهما البقرة وآل عمران وكانهما فرقان أي قطعتان من طير صواف.

(٥) حفوف: إحاطة.

(٦) التقاة: التجنب والحيلة.

في قصة سرغ^(١) أليس إن رعيتهما في الخصب رعيتهما بقدر الله؟ إلخ .

وللعباد اختيار أفعالهم، نعم لا اختيار لهم في ذلك الاختيار لكونه معلولاً بحضور صورة المطلوب ونفعه ونهوض داعية وعزم مما ليس له علم بها فكيف الاختيار فيها وهو قوله: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء» والله أعلم .

باب الإيمان بأن العبادة حق الله تعالى على عباده لأنه منعم عليهم مجاز لهم بالإرادة

الإيمان حق لله تعالى على عباده:

اعلم أن من أعظم أنواع البر أن يعتقد الإنسان بمجامع قلبه^(٢) بحيث لا يحتمل نقيض هذا الاعتقاد عنده أن العبادة حق لله تعالى على عباده، وأنهم مطالبون بالعبادة من الله تعالى بمنزلة سائر ما يطلبه ذوو الحقوق من حقوقهم، قال النبي ﷺ لمعاذ: «يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قال معاذ: الله ورسوله أعلم قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله تعالى ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً» وذلك لأن من لم يعتقد ذلك اعتقاداً جازماً واحتمل عنده أن يكون سدى مهملاً لا يطالب بالعبادة، ولا يؤاخذ بها من جهة رب مرید

(١) بفتح الراء وسكونها قرية بوادي تبوك، أخرج مالك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قصة وباء الشام أنه لما جاء عمر رضي الله عنه في سرغ وسمع وباء الشام أمر بالرجوع، فقال له أبو عبيدة بن الجراح أفراراً من قدر الله؟ فكان آخر قول عمر رضي الله عنه له نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل، فهبطت وادياً له عدوتان إحداها خصبة وأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتهما بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتهما بقدر الله .

(٢) بمجامع قلبه: أي بجميع أجزائه .

مختار - كان دهرياً لا تقع عبادته، وإن باشرها بجوارحه بموقع من قلبه،
ولا تفتح باباً بينه وبين ربه، وكانت عادة كسائر عاداته.

موطن من مواطن الجبروت منه إرادة وقصد:

والأصل في ذلك أنه قد ثبت في معارف الأنبياء وورثتهم عليهم
الصلوات والتسليمات: أن موطناً^(١) من مواطن الجبروت فيه إرادة وقصد
بمعنى الإجماع على فعل مع صحة الفعل والترك بالنظر إلى هذا الموطن،
وإن كانت المصلحة فوقانية لا تبقي، ولا تذر^(٢) شيئاً إلا أوجب وجوده،
أو أوجب عَدَمه، لا وجود للحالة المنتظرة بحسب ذلك، ولا عبرة بقوم
يسمعون الحكماء يزعمون أن الإرادة بهذا المعنى، فقد حفظوا شيئاً وغابت
عنهم أشياء، وهم محجوبون عن مشاهدة هذا الموطن محجوبون بأدلة
الآفاق والأنفس.

المنكرون لما سبق ذكره محجوبون محجوبون:

أما حجابهم فهو أنهم لم يهتدوا إلى موطن بين التجلي الأعظم، وبين
الملا الأعلى شبيه بالشعاع القائم بالجوهرية، والله المثل الأعلى، ففي هذا
الموطن يتمثل إجماع على شيء استوجبه علوم الملا الأعلى وهيئاتهم بعد
ما كان مستوى الفعل والترك في هذا الموطن.

وأما الحجة عليهم فهي أن الواحد منا يعلم بداهة أنه يمد يده، ويتناول
القلم مثلاً، وهو في ذلك يريد قاصد يستوي بالنسبة إليه الفعل والترك بحسب
هذا القصد وبحسب هذه القوى المتشعبة في نفسه، وإن كان كل شيء
بحسب المصلحة فوقانية إما واجب الفعل، أو واجب الترك، فكذلك الحال
في كل ما يستوجبه استعداد خاص، فينزل من باريء الصور نزول الصور^(٣)

(١) موطناً موضعاً.

(٢) تذر: ترك.

(٣) أي مثل نزول.

على المواد المستعدة لها كالأستجابة عقيب الدعاء مما فيه دخل لمتجدد
حادث بوجه من الوجوه.

ولذلك تقول هذا جهل بوجوب الشيء بحسب المصلحة فوقانية،
فكيف يكون في موطن من مواطن الحق؟! فأقول حاش لله، بل هو علم
وإيفاء لحق هذا الموطن، إنما الجهل أن يقال ليس بواجب أصلاً، وقد نفت
الشرائع الإلهية هذا الجهل حيث أثبتت الإيمان بالقدر، وأن ما أصابك لم
يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

الاختيار معلول لا يتخلف عن علله:

وأما إذا قيل يصح فعله وتركه بحسب هذا الموطن، فهو علم حق
لا محالة، كما أنك إذا رأيت الفحل^(١) من البهائم يفعل الأفعال الفحلية،
ورأيت الأنثى تفعل الأفعال الأنثوية، فإن حكمت بأن هذه الأفعال صادرة جبراً
كحركة الحجر في تدحرجه كذبت.

وإن حكمت بأنها صادرة من غير علة موجبة لها، فلا المزاج الفحلي
يوجب هذا الباب، ولا المزاج الأنثوي يوجب ذلك كذبت.

وإن حكمت بأن الإرادة المتشبهة في أنفسهما تحكي وجوباً فوقانياً،
وتعتمد عليه، وأنها لا تفور فوراناً استقلالياً كأن ليس وراء ذلك مرمى، فقد
كذبت، بل الحق اليقين أمر بين الأمرين، وهو أن الاختيار معلول لا يتخلف
عن علله، والفعل المراد توجبه العلل، ولا يمكن ألا يكون، ولكن هذا
الاختيار من شأنه أن يبتهج بالنظر إلى نفسه، ولا ينظر إلى ما فوق ذلك.

فإن أدبت حق هذا الموطن، وقلت أجد في نفسي أن الفعل والترك كانا
مستويين، وأني اخترت الفعل، فكان الاختيار علة لفعله صدقت، وبررت،

(١) الفحل: الذكر.

فأخبرت الشرائع الإلهية عن هذه الإرادة المتشبهة في هذا الموطن.

ثبتت الإرادة وثبتت المجازاة:

وبالجملة فقد ثبتت إرادة يتجدد تعلقها، وثبتت المجازاة في الدنيا والآخرة، وثبت أن مدبر العالم دبر العالم بإيجاب شريعة يسلكونها، ليتنفعوا بها، فكان الأمر شبيهاً بأن السيد استخدم عبيده، وطلب منهم ذلك، ورضي بمن خدم، وسخط على من لم يخدم، فنزلت الشرائع الإلهية بهذه العبارة لما ذكرنا أن الشرائع تنزل في الصفات وغيرها بعبارة ليس هنالك أفصح، ولا أبين للحق منها أكانت حقيقة لغوية أو مجازاً متعارفاً.

المقامات المسلمة شرعاً:

ثم مكنت الشرائع الإلهية هذه المعرفة الغامضة من نفوسهم بثلاثة مقامات مسلمة عندهم جارية مجرى المشهورات البديهية بينهم:

أحدها: أنه تعالى منعم، وشكر المنعم واجب، والعبادة شكر له على نعمه.

والثاني: أنه يجازي المعرضين عنه التاركين لعبادته في الدنيا أشد الجزاء.

والثالث: أنه يجازي في الآخرة المطيعين والعاصين، فانبسطت من هنالك ثلاثة علوم، علم التذكير بآلاء الله، وعلم التذكير بأيام الله، وعلم التذكير بالمعاد، فنزل القرآن العظيم شرحاً لهذه العلوم.

وإنما عظمت العناية بشرح هذه العلوم لأن الإنسان خلق وفي أصل فطرته ميل إلى بارئه جلّ مجده، وذلك الميل أمر دقيق لا يتشبع إلا بخليقته ومظنته، وخليقته ومظنته على ما أثبتته الوجدان الصحيح الإيمان بأن العبادة حق الله تعالى على عباده لأنه منعم لهم مجازٍ على أعمالهم، فمن أنكر

الإرادة أو ثبوت حقه على العباد، أو أنكر المجازاة، فهو الدهري^(١) الفاقد لسلامة فطرته^(٢)، لأنه أفسد على نفسه مظنة الميل الفطري المودع في جبلته^(٣) ونائبه وخليفته والمأخوذ مكانه.

في روح الإنسان لطيفة نورانية تميل إلى الله بطبيعتها:
وإن شئت أن تعلم حقيقة هذا الميل، فاعلم أن في روح الإنسان لطيفة نورانية تميل بطبيعتها إلى الله عز وجل ميل الحديد إلى المغناطيس، وهذا أمر مدرك بالوجدان، فكل من أمعن في الفحص عن لطائف نفسه، وعرف كل لطيفة بحيالها لا بد أن يدرك هذه اللطيفة النورانية، ويدرك ميلها بطبيعتها إلى الله تعالى.

ويسمى ذلك الميل عند أهل الوجدان: (بالمحبة الذاتية)، مثله كمثل سائر الوجدانيات لا يقتنص بالبراهين كجوع هذا الجائع وعطش هذا العطشان.

إذا كان الإنسان في غاشية سفلية كان كالمخدر:
فإذا كان الإنسان في غاشية من أحكام لطائفه السفلية كان بمنزلة من استعمل مخدراً^(٤) في جسده، فلم يحس بالحرارة والبرودة فإذا هدأت لطائفه السفلية عن المزاحمة إما بموت اضطراري يوجب تناثر كثير من أجزاء نسخته ونقصان كثير من خواصها وقواها، أو بموت اختياري وتمسك حيل عجيبة من الرياضات النفسانية والبدنية كان كمن زال المخدر عنه، فأدرك ما كان عنده وهو لا يشعر به.

(١) الدهري: الملحد القائل إن العالم موجود أزلاً وأبداً ولا صانع له.

(٢) الفطرة: الخلقة التي خلق الله الإنسان عليها.

(٣) الجبلية: الطبيعة الخلقية. (٤) مخدراً: مضعفاً ومفتراً.

إذا مات الإنسان وهو غير مقبل على الله فهو شقي :

فإذا مات الإنسان وهو غير مقبل على الله تعالى ، فإن كان عدم إقباله جهلاً بسيطاً ، وفقداً ساذجاً ، فهو شقي بحسب الكمال النوعي .

وقد يكشف عليه بعض ما هنالك ، ولا يتم الانكشاف لفقد استعداده ، فبقي حائراً مبهوراً^(١) ، وإن كان ذلك مع قيام هيئة مضادة في قواه العلمية أو العملية كان فيه تجاذب ، فانجذبت النفس الناطقة إلى صقع^(٢) الجبروت ، والنسمة بما كسبت من الهيئة المضادة إلى السفلى ، فكانت فيه وحشة ساطعة من جوهر النفس منبسطة على جوهرها .

وربما أوجب ذلك تمثل واقعات هي أشباح الوحشة ، كما يرى الصفراوي في منامه النيران والشعل ، وهذا أصل توجيه حكمة معرفة النفس ، وكان أيضاً فيه تحديق غضب من الملائكة الأعلى يوجب إلهامات في قلوب الملائكة وغيرها من ذوات الاختيار أن تعذبه وتؤلمه وهذا أصل توجيه معرفة أسباب الخطرات والدواعي الناشئة في نفوس بني آدم .

وبالجملة فالميل إلى صقيع الجبروت^(٣) ووجوب العمل بما يفك وثاقه من مزاحمة اللطائف السفلية والمؤاخذة على ترك هذا العمل بمنزلة أحكام الصورة النوعية وقواها وآثارها الفائضة في كل فرد من أفراد النوع من باريء الصور ومفيض الوجود وفق المصلحة الكلية لا باصطلاح البشر والتزامهم على أنفسهم وجريان رسومهم بذلك فقط ، وكل هذه الأعمال في الحقيقة حق هذه اللطيفة النورانية المنجذبة إلى الله وتوفير مقتضاها وإصلاح عوجها .

(١) مبهور : ساكت متحير مندهش . (٢) صقع : جانب .

(٣) الجبروت : صيغة مبالغة بمعنى القدرة والسلطة والعظمة .

ولما كان هذا المعنى دقيقاً وهذه اللطيفة لا تدركها إلا شردمة^(١) قليلة وجب أن ينسب الحق إلى ما إليه مالت وإياه قصدت ونحوه انتحت، كأن ذلك تعيين لبعض قوى النفس التي مالت من جهته، وكان ذلك اختصار قولنا حق هذه اللطيفة من جهة ميلها إلى الله، فنزلت الشرائع الإلهية كاشفة عن هذا السر بعبارة سهلة يفهمها البشر بعلومهم الفطرية، ويعطيها سنة الله من إنزال المعاني الدقيقة في صور مناسبة لها بحسب النشأة المثالية، كما يتلقى واحد منا في منامه معنى مجرداً في صورة شيء ملازم له في العادة أو نظيره وشبهه.

فقبل العبادة حق الله تعالى على عباده، وعلى هذا ينبغي أن يقاس حق القرآن. وحق الرسول، وحق المولى، وحق الوالدين، وحق الأرحام، فكل ذلك حق نفسه على نفسه، لتكامل كمالها، ولا تقترف على نفسها جوراً، ولكن نسب الحق إلى من معه هذه المعاملة، ومنه المطالبة، فلا تكن من الواقعين على الظواهر، بل من المحققين للأمر على ما هو عليه.

باب تعظيم شعائر الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٢).

مبنى الشرائع على تعظيم شعائر الله تعالى:
اعلم أن مبنى الشرائع على تعظيم شعائر الله تعالى^(٣)، والتقرب بها

(٢) سورة الحج / الآية ٣٢.

(١) شردمة: جماعة.

(٣) شعائر: جمع شعيرة وهي المعالم التي دعا الله إليها وأمر بالقيام عليها، وقيل هي كل ما كان من أعمال الحج والأول أنسب.

إليه تعالى ، وذلك لما أومأنا^(١) إليه من أن الطريقة التي نصبها الله تعالى للناس هي محاكاة ما في صقع التجرد بأشياء يقرب تناولها للبهيمية .

وأعني بالشعائر أموراً ظاهرة محسوسة جعلت ليعبد الله بها ، واختصت به حتى صار تعظيمها عندهم تعظيماً لله ، والتفريط^(٢) في جنبها تفريطاً في جنب الله ، وركز ذلك في صميم قلوبهم لا يخرج منه إلا أن تقطع قلوبهم .

والشعائر إنما تصير شعائر بنهج طبيعي ، وذلك أن تطمئن نفوسهم بعادة وخصلة ، وتصير من المشهورات الذائعة التي تلحق بالبديهيات الأولية ، ولا تقبل التشكيك ، فعند ذلك تظهر رحمة الله في صورة أشياء تستوجبها نفوسهم وعلومهم الذائعة فيما بينهم ، فيقبلونها ، ويكشف الغطاء عن حقيقتها ، وتبلغ الدعوة الأداني والأقاصي^(٣) على السواء ، فعند ذلك يكتب عليهم تعظيمها ، ويكون الأمر بمنزلة الحالف باسم الله يضمير في نفسه التفريط في حق الله إن حنث^(٤) ، فيؤاخذ^(٥) بما يضمير ، وكذلك هؤلاء يشتهر فيما بينهم أمور تنقاد لها علومهم ، فيوجب انقياد علومهم لها ، إلا تظهر رحمة الله بهم إلا فيما انقادوا له ، إذ مبنى التدبير على الأسهل فالأسهل ، ويوجب أيضاً أن يؤاخذوا أنفسهم بأقصى ما عندهم من التعظيم لأن كمالهم هو التعظيم الذي لا يشوبه^(٦) إهمال ، وما أوجب الله تعالى شيئاً على عباده لفائدة ترجع إليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، بل لفائدة ترجع إليهم ، وكانوا بحيث لا يكملون إلا بالتعظيم الأقصى ، فأخذوا بما

(١) أوماً : أشار .

(٢) التفريط : أي التفصير ، وقوله في جنب أي ذات .

(٣) الأداني والأقاصي : القريبون والبعيدون .

(٤) حنث في يمينه : لم يف بيمينه . (٥) يؤاخذ : يحاسب .

(٦) يشوبه : يختلط به .

عندهم، وأمروا ألا يفرطوا في جنب الله^(١)، وليس المقصود بالذات في العناية التشريعية حال فرد، بل حال جماعة كأنها كل الناس، والله الحجة البالغة.

(القرآن) من شعائر الله :

ومعظم شعائر الله أربعة: القرآن، والكعبة، والنبى، والصلاة.

أما القرآن فكان الناس شاع فيما بينهم رسائل الملوك إلى رعاياهم، وكان تعظيمهم للملوك مساوقاً^(٢) لتعظيمهم للرسائل، وشاع صحف الأنبياء ومصنفات غيرهم، وكان تمذهبهم لمذاهبهم مساوقاً لتعظيم تلك الكتب وتلاوتها، وكان الانقياد للعلوم وتلقيها على مر الدهور بدون كتاب يتلى، ويروى، كالمحال بادي الرأي، فاستوجب الناس عند ذلك أن تظهر رحمة الله في صورة كتاب نازل من رب العالمين، ووجب تعظيمه، فمنه أن يستمعوا له، وينصتوا إذا قرئ، ومنه أن يبادروا لأوامره كسجدة التلاوة وكالتسبيح عند الأمر بذلك، ومنه ألا يمسوا المصحف إلا على وضوء.

(الكعبة) من شعائر الله :

وأما الكعبة فكان الناس في زمن إبراهيم عليه السلام توغلوا في بناء المعابد والكنائس باسم روحانية الشمس وغيرها من الكواكب، وصار عندهم التوجه إلى المجرد غير المحسوس بدون هيكل يبنى باسمه يكون الحلول فيه والتلبس به تقرباً منه أمراً محالاً تدفعه عقولهم بادي الرأي، فاستوجب أهل ذلك الزمان أن تظهر رحمة الله بهم في صورة بيت يطوفون به، ويتقربون به إلى الله، فدعوا إلى البيت وتعظيمه، ثم نشأ قرن بعد قرن على علم أن تعظيمه مساوق لتعظيم الله والتفريط في حقه مساوق للتفريط

(١) يفرطوا في جنب الله: يقصروا في حقوق الله عليهم.

(٢) مساوقاً: متابعاً.

في حق الله ، فعند ذلك وجب حجه ، وأمروا بتعظيمه ، فمنه : ألا يطوفوا إلا متطهرين ، ومنه أن يستقبلوها في صلاتهم ، وكراهية استقبالها واستدبارها عند الغائط .

(النبي) من شعائر الله :

وأما النبي فلم يسم مرسلًا إلا تشبيهاً برسُل الملوك إلى رعاياهم مخبرين بأمرهم ونهيهم ، ولم يوجب عليهم طاعتهم إلا بعد مساوقة تعظيمهم لتعظيم المرسل عندهم ، فمن تعظيم النبي وجوب طاعته ، والصلاة عليه ، وترك الجهر عليه بالقول .

(الصلاة) من شعائر الله :

وأما الصلاة فيقصد فيها التشبيه بحال عبيد الملك عند مثلهم^(١) بين يديه ومناجاتهم إياه وخضوعهم له ، ولذلك وجب تقدير الثناء^(٢) على الدعاء ومؤاخذه الإنسان نفسه بالهيئات التي يجب مراعاتها عند مناجاة الملوك من ضم الأطراف وترك الالتفات وهو قوله ﷺ : « إذا أحدكم صلى فإن الله قبل وجهه^(٣) » والله أعلم .

باب أسرار الوضوء والغسل

الانتقال من ظلمات الطبيعة إلى أنوار حظيرة القدس :

اعلم أن الإنسان قد يختطف من ظلمات الطبيعة إلى أنوار حظيرة القدس ، فيغلب عليه تلك الأنوار ويصير ساعة ما بريئاً من أحكام الطبيعة بوجه من الوجوه ، فينسلك في سلكهم ، ويصير فيما يرجع إلى تجريد

(١) مثلهم : قيامهم . (٢) الثناء : الحمد والشكر .

(٣) قبل : تجاه وجهه ومقابله والمراد التزام السكينة والوقار في الصلاة لأن المصلي يكون بحضرة ملك الملوك مناجياً إياه ، وقيل إن الله قبل وجهه المراد به ان قبلته أو ثوابه تجاه وجهه .

النفس كأنه منهم، ثم يرد إلى حيث كان، فيشتاق إلى ما يناسب الحالة الأولى، ليغتنمه عند فقدها، ويجعله شركاً لاقتناص^(١) الفائت منها، فيجد بهذه الصفة حالة من أحواله وهي السرور والانشراح الحاصل من هجر الرُّجْز^(٢) واستعمال المطهرات، فيعض عليها بنواجذه^(٣)، ويتلوه إنسان سمع المخبر الصادق يخبر بأن هذه الحالة كمال الإنسان، وأنه ارتضاها منه بآرثه وأن فيها فوائد لا تحصى، فصدقته بشهادة قلبه، ففعل ما أمر به، فوجد ما أخبر به حقاً، وفتحت عليه أبواب الرحمة، وانصبغ بصبغ الملائكة، ويتلوه رجل لا يعلم شيئاً من ذلك لكن قاده الأنبياء، وألجاوه إلى هيئات تعدله في معاده للانسلاخ في سلك الملائكة، وأولئك قوم جروا بالسلاسل إلى الجنة.

الحدث يقبض النفس والطهارة تشرحها:

والحدث الذي يحس أثره في النفس بادي الرأي، والذي يليق أن يخاطب به جمهور الناس لانضباط مظانه، والذي يكثُر وقوع مثله، وفي إهمال تعليمه ضرر عظيم بالناس - منحصر استقراء في جنسين:

أحدهما: اشتغال النفس بما يجد الإنسان في معدته من الفضول الثلاثة الريح والبول والغائط، فليس من البشر أحد إلا ويعلم من نفسه أنه إذا وجد في بطنه الريح، أو كان حاقباً حاقناً^(٤) خبثت نفسه، فأخذت^(٥) إلى الأرض، وصارت كالحائرة المنقبضة، وكان بينها وبين انشراحها حجاب، فإذا اندفعت عنه الريح، وتخفف عنه الأخبثان^(٦)، واستعمل

(١) اقتناص: صيد. (٢) هجر الرجز: قبيح الإثم.

(٣) يعض عليها بنواجذه: يتمسك بها بشدة.

(٤) الحاقب: من احتاج إلى الخلاء ولم يفعل والحاقد: من احتاج إلى التبول.

(٥) أي حبست.

(٦) الأخبثان: البول والغائط.

ما ينبه نفسه للطهارة كالغسل والوضوء، وجد انشراحاً وسروراً، وصار كأنه وجد ما فقد.

اشتغال النفس بالشهوة يوجهها إلى البهيمية :

والثاني : اشتغال النفس بشهوة الجماع وغوصها فيها، فإن ذلك يصرف وجه النفس إلى الطبيعة البهيمية بالكلية، حتى إن البهائم إذا ارتيقت، ومرنت على الآداب المطلوبة، والجوارح^(١) إذا ذلت بالجوع والسهر، وعلمت إمساك الصيد على صاحبها، والطيور إذا كلفت بمحاكاة كلام الناس، وبالجملية كل حيوان أفرغ الجهد في إزالة ما له من طبيعته واكتساب ما لا تقتضيه طبيعته، ثم قضى هذا الحيوان شهوة فرجه وعافس^(٢) الإناس، وغاص في تلك اللذة أياماً لا بد أن ينسى ما اكتسبه، ورجع إلى عمه^(٣) وجهل وضلال.

قضاء الشهوة يؤثر في تلويث النفس :

ومن تأمل في ذلك علم لا محالة أن قضاء هذه الشهوة يؤثر في تلويث النفس ما لا يؤثره شيء من كثرة الأكل والمغامرة وسائر ما يميل النفس إلى الطبيعة البهيمية، وليجرب الإنسان ذلك من نفسه، وليرجع إلى ما ذكره الأطباء في تدبير الرهبان المنقطعين إذا أريد إرجاعهم إلى البهيمية.

الطهارة تنحصر في جنسين :

والطهارة التي يحس أثرها بادي الرأي، والتي يليق أن يخاطب بها جمهور الناس لكثرة وجود آلتها في الأقاليم المعمورة أعني الماء وانضباط

(١) الجوارح : أي الطيور والدواب التي تصيد.

(٢) أي مارس ولاعب.

(٣) عمه : تحير في طريقه أو أمره - والعمه كذلك عمى البصيرة .

أمرها، والتي هي أوقع الطهارات في نفوس البشر وكالمسلمات المشهورة بينهم مع كونها كالمذهب الطبيعي - تنحصر بالاستقراء في جنسين: صغرى وكبرى.

الطهارة الكبرى: آلة تنبه النفس تنبيهاً قوياً:

أما الكبرى فتعميم البدن بالغسل والدلك، إذ الماء طهور مزيل للنجاسات قد سلمت الطبائع منه ذلك، فهي آلة صالحة لتنبيه النفس على خلة^(١) الطهارة، ورب إنسان شرب الخمر، وثل، وغلب السكر على طبيعته، ثم فرط منه شيء من قتل بغير حق، أو إضاعة مال في غاية النفاسة، فتنبهت نفسه دفعة، وعقلت، وكشفت عنها الثمالة^(٢)، ورب إنسان ضعيف لا يستطيع أن ينهض، ولا أن يياشر شيئاً فاتفت واقعة تنبه النفس تنبيهاً قوياً من عروض غضب أو حمية أو منافسة، فعالج معالجة شديدة، وسفك سفكاً بليغاً.

وبالجملة فللنفس انتقال دفعي، وتنبه من خصلة إلى خصلة هو العمدة في المعالجات النفسانية، وإنما يحصل هذا التنبه بما ركز في صميم طبائعهم وجذر نفوسهم أنه طهارة بليغة، وما ذلك إلا الماء.

الطهارة الصغرى: تنحصر في الأطراف:

والصغرى الاقتصار على غسل الأطراف، وذلك لأنها مواضع جرت العادة في الأقاليم الصالحة بانكشافها، وخروجها من اللباس لمذهب طبيعي إليه وقعت الإشارة حيث نهى النبي ﷺ عن اشتغال الصماء^(٣)،

(١) خلة: خصلة وقوله ثمل أي أخذ فيه الشراب والسكر.

(٢) الثمالة: ما بقي في الإناء من شراب. وثل بمعنى سكر ولعل الكاتب أراد بالثمالة السكر.

(٣) الصماء: هو أن يتجلل الرجل بثوبه ولا يرفع منه جانباً ويسد على يديه ورجليه المنافذ كلها كالصخرة الصماء التي ليس فيها خرق ولا صداع.

فلا يتحقق حرج في غسلها، وليس ذلك في سائر الأعضاء، وأيضاً جرت العادة في أهل الحضرة بتنظيفها كل يوم، وعند الدخول على الملوك وأشباههم، وعند قصد الأعمال النظيفة، وفقه ذلك أنها ظاهرة تسرع إليها الأوساخ، وهي التي ترى، وتبصر عند ملاقاتها الناس بعضهم لبعض، وأيضاً التجربة شاهدة بأن غسل الأطراف، ورش الماء على الوجه والرأس، ينبه النفس من نحو النوم والغشي المثقل تنبيهاً قوياً، وليرجع الإنسان في ذلك إلى ما عنده من التجربة والعلم، وإلى ما أمر به الأطباء في تدبير من غشي عليه أو أفرط به الإسهال والفصد^(١).

الطهارة باب يتوقف كمال الإنسان عليه :

والطهارة باب من أبواب الارتفاق الثاني الذي يتوقف كمال الإنسان عليه، وصار من جبلتهم، وفيها قرب من الملائكة، وبعد من الشياطين، وتدفع عذاب القبر، وهو قوله ﷺ: «استنزهوا من البول^(٢) فإن عامة عذاب القبر منه» ولها مدخل عظيم في قبول النفس لكون الإحسان، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٣).

بالطهارة تستقر في النفس شعبة من نور الملائكة :

وإذا استقرت في النفس، وتمكنت منها تقررت فيها شعبة من نور الملائكة، وانقهرت شعبة من ظلمة البهيمية هو معنى كتابة الحسنات وتكفير الخطايا، وإذا جعلت رسماً نفعت من غوائل^(٤) الرسوم.

وإذا حافظ صاحبها على ما فيها من هيئات يؤاخذ الناس بها أنفسهم

(١) الفصد: جرح جزء من الجسم لاستخراج شيء من الدم الزائد.

(٢) استنزهوا: استبرءوا وتطهروا. (٣) سورة البقرة/ الآية ٢٢٢.

(٤) غوائل: بلايا.

عند الدخول على الملوك وعلى النية المستصحبة والاذكار نفعت من سوء المعرفة، وإذا عقل^(١) الإنسان أن هذه كماله، فأداب جوارحه حسبما عقل من غير داعية حسية^(٢) وأكثر من ذلك - كانت تمريناً على انقياد الطبيعة للعقل والله أعلم.

باب أسرار الصلاة

الإنسان قد يختطف إلى الحظيرة المقدسة:

اعلم أن الإنسان قد يختطف إلى الحظيرة المقدسة، فيلتصق بجناب الله تعالى أتم لصوق، وينزل عليه من هنالك التجليات المقدسة، فتغلب على النفس، ويشاهد هنالك ما لا يقدر اللسان على وصفه، ثم يرد إلى حيث كان، فلا يقرب به القرار، فيعالج نفسه بحالة هي أقرب الحالات السفلية من استغراق النفس في معرفة بارئها، ويتخذها شركاً لاقتناص^(٣) ما فاته منها، وتلك الحالة هي التعظيم والخضوع والمناجاة في ضمن أفعال وأقوال بنيت لذلك.

ويتلوه رجل سمع المخبر الصادق يدعوه إلى هذه الحالة، ويرغب فيها، فصدق به شهادة قلبه ففعل، ووجد ما وعد به حقاً، وارتقى إلى ما يرجوه.

ثم يتلوه رجل ألجأه الأنبياء إلى الصلوات، وهو لا يعلم، بمنزلة الوالد يحبس أولاده على تعليم الصناعات النافعة، وهم كارهون، وربما يسأل الإنسان من ربه دفع بلاء أو ظهور نعمة، فيكون الأقرب حينئذ الاستغراق في أفعال وأقوال تعظيمية لتؤثر همته التي هي روح السؤال، وذلك ما سن من صلاة الاستسقاء.

(٢) داعية حسية: سبب حسي ملموس.

(١) عقل: فهم فطن.

(٣) الاقتناص: الصيد.

أصل الصلاة ثلاثة أشياء : أولها (خضوع القلب) :

وأصل الصلاة ثلاثة أشياء :

أن يخضع القلب عند ملاحظة جلال الله وعظمته، ويعبر اللسان عن تلك العظمة، وذلك الخضوع أفصح عبارة.

وأن يؤدب الجوارح حسب ذلك الخضوع قال القائل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا^(١)

ثانيها : (المناجاة) :

ومن الأفعال التعظيمية أن يقوم بين يديه مناجياً، ويقبل عليه مواجهاً.

وأشد من ذلك^(٢) أن يستشعر ذله وعزة ربه، فينكس رأسه^(٣) إذ من

الأمر المجبول في قاطبة^(٤) البشر والبهائم أن رفع العنق آية^(٥) التيه والتكبر، وتنكيسه آية الخضوع والإخبات، وهو قوله تعالى : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٦).

ثالثها : (تعفير الوجه) :

وأشد من ذلك أن يعفر وجهه الذي هو أشرف أعضائه ومجمع حواسه بين يديه، فتلك التعظيمات الثلاث الفعلية شائعة في طوائف البشر لا يزالون يفعلونها في صلواتهم وعند ملوكهم وأمرائهم.

وأحسن الصلاة ما كان جامعاً بين الأوضاع الثلاثة مترقياً من الأدنى إلى الأعلى ؛ ليحصل الترقى في استشعار الخضوع والتذلل، وفي الترقى

(١) أي أفادتكم نعمائكم ثلاثة أعضاء مني ، والمصراع الثاني من البيت بيان هذه الثلاثة .

(٢) أي من القيام بين يديه .

(٣) نكس رأسه : طأ رأسه .

(٤) قاطبة البشر : جميع البشر .

(٥) آية التيه : علامة العجب والتكبر .

(٦) سورة الشعراء : آية / ٤ .

من الفائدة ما ليس في أفراد التعظيم الأقصى، ولا في الانحطاط من الأعلى إلى الأدنى.

الصلاة أم الأعمال المقربة إلى الله:

وإنما جعلت الصلاة أم الأعمال المقربة دون الفكر في عظمة الله، ودون الذكر الدائم؛ لأن الفكر الصحيح فيها لا يتأتى إلا من قوم عالية نفوسهم، وقليل ما هم، وسوى أولئك لو خاضوا فيه تبلدوا، وأبطلوا رأس مالهم فضلاً عن فائدة أخرى، والذكر بدون أن يشرحه ويعضده عمل تعظيمي يعمل به بجوارحه، ويعنو^(١) في آدابها. لقلقة خالية عن الفائدة في حق الأكثرين.

الصلاة فكر مصروف تلقاء عظمة الله:

أما الصلاة فهي المعجون المركب من الفكر المصروف تلقاء عظمة الله بالقصد الثاني، والالتفات التبعي المتأتي من كل واحد، ولا حجر^(٢) لصاحب استعداد الخوض في لجة^(٣) الشهود أن يخوض، بل ذلك منه له أتم تنبيه، ومن الأدعية المبينة لإخلاص عمله لله وتوجيه وجهه تلقاء الله وقصر الاستعانة في الله، ومن أفعال تعظيمية كالسجود والركوع يصير كل واحد عضد الآخر ومكمله والمنبه عليه، فصارت نافعة لعامة الناس وخاصتهم، ترياقاً^(٤) قوي الأثر ليكون لكل إنسان منه ما استوجبه أصل استعداده.

الصلاة معراج المؤمن:

والصلاة معراج المؤمن معدة للتجليات الأخروية، وهو قوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم فإن استطعتم ألا تغلبوا^(٥) على صلاة قبل طلوع

(١) يعنو: يخضع ويدل.

(٢) حجر: منع.

(٣) لجة: موجة.

(٤) ترياقاً: دواء.

(٥) معناه لا تصيروا مغلوبين بالاشتغال عن صلاة الصبح والعصر.

الشمس وقبل غروبها فافعلوا» وسبب عظيم لمحبة الله ورحمته وهو قوله ﷺ: «أعني على نفسك بكثرة السجود» وحكايته تعالى عن أهل النار: ﴿وَلَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾^(١). وإذا تمكنت^(٢) من العبد اضمحل^(٣) في نور الله، وكفرت عنه خطاياها ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(٤).

ولا شيء أنفع من سوء المعرفة منها لا سيما إذا فعلت أفعالها وأقوالها على حضور القلب والنية الصالحة، وإذا جعلت رسماً مشهوراً نفعت من غوائل الرسوم نفعاً بيناً، وصارت شعاراً للمسلم يتميز به من الكافر، وهو قوله ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» ولا شيء في تمرين النفس على انقياد الطبيعة للعقل وجريانها في حكمه مثل الصلاة والله أعلم.

باب أسرار الزكاة

إذا تضرع المسكين إلى الله قرع باب الجود الإلهي:

اعلم أن المسكين إذا عنت له حاجة، وتضرع إلى الله فيها بلسان المقال أو الحال^(٥) قرع تضرعه باب الجود الإلهي، وربما تكون المصلحة أن يلهم في قلب زكي أن يقوم بسد خلته^(٦)، فإذا تغشاه^(٧) الإلهام،

(١) سورة المدثر/ الآية ٤٣ .

(٢) أي الصلاة .

(٣) اضمحل: تلاشى .

(٤) سورة هود/ الآية ١١٤ إن الحسنات: كالعبادات - يذهبن السيئات: يمحون صفات الذنوب. نزلت هذه الآية فيمن قبل أجنبية فأخبره عليه السلام بهذه الآية فقال الرجل: ألي هذا فقال النبي لجميع أمي كلهم. رواه الشيخان .

(٥) لسان المقال: ما كان منطوقاً باللسان. - أما لسان الحال فلا يكون بقول وإنما الحال تدل وتنبئ وتطلب .

(٦) الخلة: بفتح الخاء وجمعها خلال: الفقر والحاجة .

(٧) تغشاه: غطاه وشمله .

وانبعث، وفقه رضي الله عنه، وأفاض عليه البركات من فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله، وصار مرحوماً.

وسألني مسكين ذات يوم في حاجة اضطر فيها، فأوجست في قلبي إلهاماً يأمرني بالإعطاء، ويبشرني بأجر جزيل في الدنيا والآخرة، فأعطيت، وشاهدت ما وعدني ربي حقاً، وكان قرعه لباب الجود وانبعث الإلهام واختياره لقلبي يومئذ وظهور الأجر كل ذلك بمرأى مني.

ربما كان الإنفاق في مصرف مظنة لرحمة الله:

وربما كان الإنفاق في مصرف مظنة لرحمة إلهية، كما إذا انعقدت داعية في الملائكة الأعلى^(١) بتنويه ملة، فصار كل من يتعرض لتمشية أمرها مرحوماً، وتكون تمشيته يومئذ في الإنفاق كغزوة العسرة، وكما إذا كان أيام قحط، وتكون أمة هي أحوج خلق الله، ويكون المراد إحياءهم.

وبالجملة فيأخذ المخبر الصادق من هذه المظنة كلية فيقول: «من تصدق على فقير - كذا وكذا أو في حالة كذا وكذا - تقبل منه عمله» فيسمعه سامع، وينقاد لحكمه بشهادة قلبه، فيجد ما وعد حقاً.

الإنفاق في حق الله أنفع شيء:

وربما تفتنت النفس بأن حب الأموال والشح بها يضره، ويصده عما هو بسبيله، فيتأذى منه أشد تأذي، ولا يتمكن من دفعه إلا بتمرين على إنفاق أحب ما عنده، فصار الإنفاق في حقه أنفع شيء، ولولا الإنفاق لبقى الحب والشح كما هو، فيتمثل في المعاد شجاعاً أقرع^(٢)، أو تمثلت الأموال ضارة في حقه وهو حديث^(٣) «بُطِحَ لها بقاع قرقر»، وقوله تعالى:

(١) الملائكة الأعلى: الملائكة.

(٢) الشجاع: الحية، والأقرع منها المتمعط شعر رأسه لكثرة السم أو طول العمر.

(٣) أي ما قاله النبي ﷺ فيمن لم يؤد زكاة إبله وغنمه أنه يوم القيامة «بطح لها بقاع قرقر» =

﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ (١).

بإهلاك المؤمن ماله يمحو هلاكه :

وربما يكون العبد قد أحيط به، وقضى بهلاكه في عالم المثال، فاندفع إلى بذل أموال خطيرة، وتضرع إلى الله هو وناس من المرحومين، فمحا هلاكه بنفسه بإهلاك ماله، وهو قوله ﷺ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» (٢).

وربما يفرط من الإنسان أن يعمل عملاً شريراً بحكم غلبة الطبيعة، ثم يطلع على قبحه، فيندم، ثم تغلب عليه الطبيعة، فيعود له، فتكون الحكمة في معالجة هذه النفس أن تلزم بذل مال خطير غرامة على ما فعل؛ ليكون ذلك بين عينيه، فيردعه عما يقصد.

الصدقة تزيد في البركة وتطفىء غضب الله :

وإنما يكون حسن الخلق والمحافظة على نظام العشيرة منحصراً في إطعام طعام وإفشاء سلام وأنواع من المواساة، فيؤمر بها، وتعد صدقة، والزكاة تزيد في البركة، وتطفىء الغضب بجلبها فضلاً من الرحمة، وتدفع عذاب الآخرة المترتب على الشح، وتعطف دعوة الملائكة الأعلى المصلحين في الأرض على هذا العبد والله أعلم.

= تطؤه إبله وغنمه (بطح) بمعنى ألقى (ولها) أي لأجل إبله وغنمه (والقاع) الأرض السهلة (والفرقر) بمعناه فالصفة كاشفة أو تأكيد .

(١) سورة التوبة/ الآية ٣٤ - وتام الآية: ﴿ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم﴾ لا يستحق الذهب إلا الكانز، وهو من يحتفظ بها ولا يخرج زكاتها فإذا أخرج زكاتها لا يعد كانزاً.

(٢) قيل معنى الحديث: لا يرد شدة القضاء إلا الدعاء لأن ما كان مقدراً لا يمحي. ومعنى زيادة العمر التمتع فيه وأن يخلو من المنغصات لأن العمر مقدر كذلك. وقيل أيضاً الحديث لا يحتاج إلى تأويل.

باب أسرار الصوم

الجوع والعطش يجعلان سؤرة الطبيعة تنقاد للملكية:-

اعلم أنه ربما يتفطن الإنسان من قبل إلهام الحق إياه أن سؤرة^(١) الطبيعة البهيمية تصده عما هو كماله من انقيادها للملكية، فيبغضها، ويطلب كسر سورتها، فلا يجد ما يغيثه^(٢) في ذلك، كالجوع والعطش، وترك الجماع والأخذ على لسانه وقلبه وجوارحه، ويتمسك بذلك علاجاً لمرضه النفساني، ويتلوه من يأخذ ذلك عن المخبر الصادق بشهادة قلبه، ثم الذي يقوده الأنبياء شفقة عليه، وهو لا يعلم، فيجد فائدة ذلك في المعاد من انكسار السورة.

انقياد الطبيعة للعقل كمال له:

وربما يطلع الإنسان على أن انقياد الطبيعة للعقل كمال له، وتكون طبيعته باغية تنقاد تارة، ولا تنقاه أخرى، فيحتاج إلى تمرين، فيعمد إلى عمل شاق كالصوم، فيكلف طبيعته، ويلتزم وفاء العهد، ثم، وثم حتى يحصل الأمر المطلوب.

وربما يفرض منه ذنب، فيلتزم صوم أيام كثيرة يشق عليه بإزاء الذنب، ليردعه عن العود في مثله.

وربما تآقت^(٣) نفسه إلى النساء، ولا يجِدَ طولاً، ويخاف العنت^(٤)، فيكسر شهوته بالصوم، وهو قوله ﷺ: «فإن الصوم له وجاء»^(٥).

(١) السورة: الحدة والشدة.

(٢) يغيثه: يساعده، ينقذه.

(٣) تآقت: اشتاق.

(٤) عنت: وقع في أمر شاق.

(٥) وجاء: الاختصاص، وأول الحديث «ومن لم يستطع - أي التزوج - فعليه بالصوم فإنه له وجاء» والمعنى أن الصوم يقطع الشهوة ويدفع شر المنى.

الصوم يكفر من الخطايا بقدر ما اضمحل من سورة البهيمية :
والصوم حسنة عظيمة يقوي الملكية، ويضعف البهيمية، ولا شيء
مثله في صيقله وجه الروح وقهر الطبيعة، ولذلك قال الله تعالى : (الصوم
لي وأنا أجزي به)، ويكفر الخطايا بقدر ما اضمحل من سورة البهيمية،
ويحصل به تشبه عظيم بالملائكة، فيحبونه، فيكون متعلق الحب أثر
ضعف البهيمية، وهو قوله ﷺ : «لخلاف^(١) فم الصائم أطيب عند الله من
ريح المسك» وإذا جعل رسماً مشهوراً نفع عن غوائل الرسوم وإذا التزمه
أمة من الأمم سلسلت شياطينها، وفتحت أبواب جنانها، وغلقت أبواب
النيران عنها.

الإنسان إذا قهر النفس وصل إلى الذات من قبل التنزيه :
والإنسان إذا سعى في قهر النفس وإزالة رذائلها كانت لعمله صورة
تقديسية في المثال، ومن أذكى العارفين من يتوجه إلى هذه الصورة، فيمد
من الغيب في علمه، فيصل إلى الذات من قبل التنزيه والتقديس،
وهو معنى قوله ﷺ : «الصوم لي وأنا أجزي به»^(٢).

وربما يتفطن^(٣) الإنسان بضرر توغله^(٤) في معاشه وامتلاء حواسه
مما يدخل عليه من خارج، وينفع التفرغ للعبادة في مسجد بني للصلوات،
فلا يمكنه إدامة ذلك، وما لا يدرك كله لا يترك كله، فيختطف من أحواله
فرصاً، فيعتكف ما قدر له، ويتلوه المتلقي له من المخبر الصادق بشهادة
قلبه، والعامي المغلوب عليه كما مر.

(١) بالضم وقيل بالفتح تغير ريح الفم وهو مجاز عن قربته تعالى وقيل يكون يوم القيامة كذلك
كدم الشهيد.

(٢) أي لم يشاركني فيه أحد بالتعبد به فأنا أتولى جزاءه بنفسي ولا أكله إلى أحد.

(٣) يتفطن: يدرك ويفهم.
(٤) توغل: دخل الشيء وأبعد فيه.

وربما يصوم ولا يستطيع تنزيه لسانه إلا بالاعتكاف.

وربما يطلب ليلة القدر واللصوق بالملائكة فيها، فلا يتمكن منها إلا بالاعتكاف وسياتيك معنى ليلة القدر، والله أعلم.

باب أسرار الحج

حقيقة الحج:

اعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان يُذكرُ حالَ المنعم عليهم من الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ومكان فيه آيات بينات^(١)، قد قصده جماعات من أئمة الدين معظمين لشعائر الله متضرعين راغبين وراجين من الله الخير وتكفير الخطايا.

فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة، وهو قوله ﷺ: «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر^(٢) ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة» الحديث.

أحق ما يحج إليه بيت الله:

وأصل الحج موجود في كل أمة لا بدُّ لهم من موضع يتبركون به لما رأوا من ظهور آيات الله فيه، ومن قرابين^(٣) وهيئات ماثورة عن أسلافهم يلتزمونها؛ لأنها تذكر المقربين وما كانوا فيه.

وأحق ما يحج إليه بيت الله، فيه آيات بينات، بناه إبراهيم صلوات الله عليه المشهود له بالخير على السنة أكثر الأمم بأمر الله ووحيه بعد أن

(١) بينات: واضحات.

(٢) من الدحر وهو الدفع بعنف على الإهانة.

(٣) قرابين: جمع قربان. كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها.

كانت الأرض قفراً^(١) وعرأ؛ إذ ليس غيره محجوج إلا وفيه إشراك أو اختراع ما لا أصل له.

الحج طهارة نفسية:

ومن باب الطهارة النفسانية الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه، ويحلون فيه، ويعمرونه بذكر الله، فإن ذلك يجلب تعلق همم الملائكة السفلية^(٢)، ويعطف عليه دعوة الملائكة الأعلى الكلية لأهل الخير، فإذا حل به غلب ألوانهم على نفسه، وقد شاهدت ذلك رأي عين.

ومن باب ذكر الله تعالى رؤية شعائر الله وتعظيمها، فإنها إذا رؤيت ذكر الله كما يُذكر الملزوم اللازم لا سيما عند التزام هيئات تعظيمية وقيود وحدود تنبه النفس تنبيهاً عظيماً.

وربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه فلا يجده إلا الحج.

الحج عرضة يتميز به الموفق من المنافق:

وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة^(٣) بعد كل مدة؛ ليميز الناصح من الغاش والمنقاد من المتمرد، ويرتفع الصيت، وتعلو الكلمة، ويتعارف أهلها فيما بينهم، فكذلك الملة تحتاج إلى حج ليميز الموفق من المنافق، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً، وليرى بعضهم بعضاً، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده، إذ الرغائب^(٤) إنما تكتسب المصاحبة والتراخي^(٥).

(١) القفر: أرض خالية لا ماء بها، والوعر غليظ صعب الوصول إليه.

(٢) الملائكة السفلية: الملائكة المختصون بشؤون الدنيا.

(٣) أي: اختبار.

(٤) الرغائب: كل ما ترغبه النفس وتميل إليه.

(٥) التراخي: نظر الناس بعضهم إلى بعض.

وإذا جعل الحج رسماً مشهوراً نفع عن غوائل الرسوم، ولا شيء مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة والتحضيض^(١) على الأخذ بها.

ولما كان الحج سفراً شائعاً^(٢) وعملاً شاقاً لا يتم إلا بجهد الأنفس كانت مباشرته خالصاً لله مكفراً للخطايا هادماً لما قبله بمنزلة الإيمان .

باب أسرار أنواع من البر

١ - الذكر لا حجاب بينه وبين الله :

منها الذكر فإنه لا حجاب بينه وبين الله تعالى ، ولا شيء مثله في علاج سوء المعرفة، وهو قوله ﷺ : «ألا أنبئكم بأفضل أعمالكم» الحديث، وفي كسب المحاضرة، وطرد القسوة لا سيما لمن ضعفت بهيميته جبلة أو ضعفت كسباً^(٣)، ولمن سكت خياله جبلة عن خلط المجرد بأحكام المحسوس .

٢ - الدعاء مخ العبادة :

ومنها الدعاء فإنه يفتح باباً عظيماً من المحاضرة، ويجعل الانقياد التام والاحتياج إلى رب العالمين في جميع الحالات بين عينيه، وهو قوله ﷺ : «الدعاء مخ العبادة» وهو شبح توجه النفس إلى المبدأ بصفة الطلب الذي هو السر في جلب الشيء المدعو إليه .

٣ - القرآن مصقلة القلب :

ومنها تلاوة القرآن واستماع المواعظ، فمن ألقى السمع إلى ذلك،

(٢) أي بعيداً .

(١) التحضيض : الحث .

(٣) الجبلة والكسب : الجبلة ما كان في أصل طبيعة الإنسان والكسب ما يحصله الإنسان بالتعلم والتدريب والممارسة .

وممكنه من نفسه انصبغ بحالات الخوف والرجاء والحيرة في عظمة الله والاستغراق في منة الله وغيرها، فينفع من خمود الطبيعة نفعاً بيناً، ويعد النفس لفيضان ألوان ما فوقها، ولذلك كان أنفع شيء في المعاد، وهو قول الملك للمقبور: «لا دريت^(١) ولا تليت» وفي القرآن تطهير للنفس عن الهيئات السفلية، وهو قوله ﷺ: «لكل شيء مصقلة^(٢) ومصقلة القلب تلاوة القرآن».

٤ - صلة الأرحام والجيران باب لنزول الرحمة:

ومنها صلة الأرحام والجيران وحسن المعاشرة مع أهل القرية وأهل الملة وفك العاني^(٣) بالاعتاق، فإن ذلك يعد لنزول الرحمة والطمأنينة، وبها يتم نظام الارتفاق الثاني والثالث، وبها يستجلب دعوة الملائكة.

٥ - الجهاد يفني به المرء مراده إلى مراد الحق:

ومنها الجهاد وذلك أن يلعن الحق إنساناً فاسقاً ضاراً بالجمهور، إعدامه أوفق بالمصلحة الكلية من إبقائه، فيظهر الإلهام في قلب رجل زكي؛ ليقتله، فينبجس^(٤) من قلبه غضب ليس له سبب طبيعي، ويكون فانياً عن مراده باقياً بمراد الحق، ويضمحل في رحمة الله ونوره، وينتفع العباد والبلاد بذلك، ويتلوه أن يقضي الله بزوال دولة مدن جائرة كفروا

(١) أي إن كان المقبور كافراً أو منافقاً ويسأله الملك «ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري فيقول الملك لا دريت» أي لا علمت ما هو الحق والصواب. ولا تليت أي لا اتبعت الناجين. وقيل أصله لا تلوت يعني ما علمت بنفسك بالنظر ولا اتبعت العلماء بقراءة الكتب.

(٢) مصقلة: صقل الشيء صقالاً، جلاه وملسه وكشف صداه.

(٣) العاني: من أصابه تعب ومشقة وأذى ولكن الكاتب أراد العبد الرقيق وهو في الحقيقة أشد الناس معاناة وعناء.

(٤) ينبجس: يتفجر.

بالله، وأساءوا السيرة، فيؤمر نبي من أنبياء الله تعالى بمجاهدتهم، فينفخ داعية الجهاد في قلوب قومه ليكون أمة أخرجت للناس، وتشمله الرحمة الإلهية، ويتلوه أن يطلع قوم بالرأي الكلي على حسن أن يذبوا^(١) أنفسهم سبعية عن المظلومين وإقامة الحدود على العصاة والنهي عن المنكر، فيكون سبباً لأمن العباد وطمأنينتهم، فيشكر الله له عمله.

٦ - ومن أنواع البر، الرحمة المصلحة للعمل:

ومنها تقريبات ترد على البشر من غير اختياره كالمصائب والأمراض، فتعد من باب البر لمعانٍ:

منها أن الرحمة إذا توجهت إلى عبد بصلاح عمله، واقتضت الأسباب التضيق عليه انصرفت إلى تكميل نفسه، فكفرت خطاياها، وكتبت له الحسنات، كما إذا صد مجرى الماء نبع الماء من فوقه ومن تحته، فينسب الإجراء إلى ذلك التضيق، والسرفيه المحافظة على الخير النسبي.

٧ - المصائب تكسر حجاب الطبع:

ومنها^(٢) أن المؤمن إذا اشتدت به المصائب ضاقت عليه الأرض بما رحبت^(٣)، فانكسر حجاب الطبع والرسم، وانقلع قلبه إلا عن الله، أما الكافر، فلا يزال يتذكر الفاتت، ويفوص في الحياة الدنيا حتى يصير أخبث منه قبل أن يصيبه ما أصاب.

٨ - المرض يُحلل السيئات:

ومنها أن حامل السيئات المتحجرة إنما هو البهيمية الغليظة الكثيفة، فإذا مرض وضعف، وتحلل منه أكثر مما يدخل فيه اضمحل كثير من الحامل، وانتقص بقدر ذلك المحمول، كما نرى أن المريض يزول

(١) أي يدفعوا. وقوله: فيشكر الله له أي للقوم.

(٢) رحبت: اتسعت.

(٣) أي المعاني.

شبهه^(١) وغضبه، وتبدل أخلاقه، وينسى كثيراً مما كان فيه كأنه ليس الذي كان.

٩ - نصب المؤمن في الدنيا:

ومنها أن المؤمن الذي انفكت^(٢) بهيميته عن ملكيته نوع انفكاك أخذ على سيئاته في الدنيا غالباً، وذلك حديث «نصيب المؤمن من العذاب نصَّب الدنيا»^(٣) والله أعلم.

باب طبقات الإثم

إعلم أنه كما أن لانقياد البهيمية للملكية أعمالاً هي أشباحه ومظانه والسنن الكاسية له، فكذلك للحالة المضادة للانقياد كل المضادة أعمال ومظان وكواسب، وهي الأثام، وهي على مراتب:

١ - الأثم يسد السبيل إلى الكمال:

المرتبة الأولى: أن ينسد سبيله إلى الكمال المطلوب رأساً، ومعظم ذلك في نوعين:

أحدهما: ما يرجع إلى المبدأ بالألا يعرف أن له رباً، أو يعرفه متصفاً بصفات المخلوقين، أو يعتقد في مخلوق شيئاً من صفات الله: فالثاني التشبيه، والثالث الإشراك، فإن النفس لا تتقدس أبداً حتى تجعل مطمح بصيرتها التجرد الفوقاني، والتدبير العام المحيط بالعالم، فإذا فقدت هذه بقيت مشغولة بنفسها، أو بما هو مثل نفسها في التقييد كل الشغل لا يقدح حجاب النكرة، ولا موضع إبرة، فهذا هو البلاء كل البلاء.

والثاني: أن يعتقد أن ليس للنفس نشأة غير النشأة الجسدية، وأنه

(١) الشبق: الرغبة الجنسية الشديدة.

(٢) انفكت: انفصلت.

(٣) نصب الدنيا: تعبها.

ليس لها كمال آخر يجب عليها طلبه، فإن النفس إذا أضمرت ذلك لم يطمح^(١) بصرها إلى الكمال أصلاً.

ولما كان القول بإثبات كمال غير كمال الجسد لا يتأتى من الجمهور إلا بتصور حالة تباين الحالة الحاضرة من كل وجه، ولولا ذلك لتعارض الكمال المعقول والمحسوس^(٢)، فمال إلى المحسوس، وأهمل المعقول نصب له مظنة هو الإيمان بقاء الله واليوم الآخر وهو قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾^(٣).

وبالجملة فإذا كان الإنسان في هذه المرتبة من الإثم، فمات، واضمحلت بهيميته، وشحت^(٤) عليه المنافرة من فوقه كل المنافرة بحيث لا يجد سبيلاً إلى الخلاص أبداً.

٢ - التكبر البهيمي على ما نصبه الله من كمال:

والمرتبة الثانية: أن يتكبر بكبره البهيمي على ما نصبه الله تعالى لوصول الناس إلى كمالهم، وقصدت الملائكة الأعلى بأقصى هممها إشاعة أمره وتنويه شأنه من الرسل والشرائع، فينكرها، ويعاديها، فإذا مات انعطفت جميع هممهم منافرة له، ومؤذية إياه، وأحاطت به خطيئته من حيث لم يجد للخروج منه سبيلاً، على أنه لا ينفك هذه الحالة من عدم الوصول إلى كماله، أو الوصول الذي لا يعتد به، وهذه المرتبة تخرج الإنسان من ملة نبيه في جميع الشرائع.

(١) يطمح: يرفع.

(٢) المعقول والمحسوس: المعقول ما يدرك بالعقل والمحسوس ما يدرك بالحواس الخمس والمعقول يشمل المحسوس.

(٣) سورة النحل/ الآية ٢٢ - قلوبهم منكرة: قلوبهم جاحدة للوحدانية - وهم مستكبرون: متكبرون عن الإيمان بها.

(٤) أي البست.

٣ - ترك ما ينجي وفعل ما يستوجب اللعن :

والمرتبة الثالثة : ترك ما ينجيه ، وفعل ما انعقد في الذكر اللعن على فاعله ، من جهة كونه مظنة غالباً لفساد كبير في الأرض ، وهيئة مضادة لتهديب النفس .

فمنها ألا يفعل من الشرائع الكاسبة للانقياد ، أو المهينة له ما يعتد به ، ويختلف باختلاف النفوس إلا أن المنغمسة في الهيئات البهيمية الضعيفة أحوج الناس إلى إكثارها ، والأمم التي بهيميتها أشد وأغلظ أحوج الناس إلى إكثار الشاق منها .

ومنها أعمال سبعية^(١) تستجلب لعناً عظيماً كالقتل .

ومنها أعمال شهوية .

ومنها مكاسب ضارة كالقمار والربا .

وفي كل شيء من هذه المذكورات ثلثة^(٢) عظيمة في النفس من جهة الإقدام على خلاف السنة اللازمة كما ذكرنا ، ولعن من الملائكة الأعلى يحيط به ، فبمجموع الأمرين يحصل العذاب ، وهذه المرتبة أعظم الكبائر قد انعقد في حظيرة القدس تحريمها ، ولعن صاحبها ، ولم يزل الأنبياء يترجمون ما انعقد هنالك ، وأكثرها مجمع عليه في الشرائع .

٤ - معصية الشرائع :

المرتبة الرابعة : معصية الشرائع والمناهج المختلفة باختلاف الأمم والأعصار وذلك أن الله تعالى إذا بعث نبياً إلى قوم ؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وليقيم عوجهم ؛ وليسوسهم^(٣) أحسن السياسة - كان بعثه

(١) أعمال سبعية : أعمال شبيهة بأعمال السباع المتوحشة .

(٢) ثلثة : شق .

(٣) ساس : ساس القوم دبرهم وتولى أمرهم . والسياسة استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق الصحيح .

متضمناً لإيجاب ما لا يمكن إقامة عوجهم وسياستهم إلا به، فلكل مقصد مظنة أكثرية أو دائمة يجب أن يؤاخذوا عليها، ويخاطبوا بها، وللتوقيت قوانين توجبه، ورب أمر يكون داعياً إلى مفسدة أو مصلحة فيؤمرون حسبما يدعون إليه، ومن ذلك ما هو مأمور أو منهي عنه حتماً، ومنه ما هو مأمور أو منهي عنه من غير عزم، وأقل ذلك ما نزل به الوحي الظاهر، وأكثره ما لا يثبت إلا اجتهاد النبي ﷺ.

٥ - فعل ما لم ينص عليه الشارع :

المرتبة الخامسة: ما لم ينص عليه الشارع، ولم ينعقد في الملاء الأعلى حكمه لكن توجه عبد إلى الله بمجامع همته فاعتراه شيء يظنه ممنوعاً عنه، أو مأموراً به من قبل قياس، أو تخريج، أو نحو ذلك، كما يظهر للعوام تأثير بعض الأدوية من قبل تجربة ناقصة، أو دوران حكم الطبيب الحاذق^(١) على علة، ولا يعلمون وجه التأثير، ولا ينص عليه الطبيب، فلا يخرج مثل هذا الإنسان من العهدة حتى يأخذ بالاحتياط، وإلا كان بينه وبين ربه حجاب فيما يظن، فيؤاخذ بظنه.

وأصل المرضي في هذه المرتبة أن يهمل أمرها، ولا يلتفت إليها، غير أن في الوجود أنفساً يستوجبون ذلك، فيوفر عليهم الجواد ما استوجبوه وفيها قوله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي»^(٢) وقوله تعالى في القرآن العظيم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾^(٣).

وقوله ﷺ: «لا تشددوا فيشدد الله عليكم» وقوله ﷺ: «الإثم

(١) الحاذق: البارع.

(٢) حديث قدسي.

(٣) سورة الحديد / الآية ٢٧ - الرهبانية: ترك الزواج والسكنى بعيداً عن الناس للعبادة - ابتدعوها: اتخذوها بدعة من عند أنفسهم - ما كتبناها عليهم: ما كتبها وما فرضها الله عليهم ولكن لما ألزموا أنفسهم بها أصبحت مفروضة عليهم - رضوان الله: رضاء الله =

ما حاك^(١) في صدرك، ويلحق بها معصية حكم مجتهد فيه إذا كان مقلداً
مجمعاً تقليد من يرى ذلك، والله أعلم.

باب مفاصد الآثام

واعلم أن الكبيرة والصغيرة تطلقان باعتبارين: أحدهما بحسب
حكمة البر والإثم، وثانيهما بحسب الشرائع والمناهج المختصة بعصر دون
عصر.

الكبيرة ذنب يوجب العذاب في القبر والمحشر:

أما الكبيرة بحسب حكمة البر والإثم، فهي ذنب يوجب العذاب في
القبر وفي المحشر إيجاباً قوياً، ويفسد الارتفاقات الصالحة إفساداً قوياً،
ويكون من الفطرة على الطرف المخالف جداً.

الصغيرة ذنب دون الكبيرة:

والصغيرة ما كان مظنة لبعض ذلك، أو مفضياً إليه في الأكثر
أو يوجب بعض ذلك من وجه، ولا يوجه من وجه، كمن ينفق في سبيل
الله، وأهله جياع، فيدفع رذيلة البخل، ويفسد تدبير المنزل.

تفصيل معنى الكبيرة:

وأما بحسب الشرائع الخاصة، فما نصت الشريعة على تحريمه أو
أوعد الشارع^(٢) عليه بالنار، أو شرع عليه حدًا^(٣)، أو سمي مرتكبه كافراً

= تعالى. والآية الكريمة تنص بعد ذلك أنهم ما رعوها ولا قاموا بحقها حق القيام.

(١) حاك: أي أثر ورسخ يعني الإثم ما يؤثر في النفس الشريفة القدسية تأثيراً لا ينفك عن

تنفير أي ما لا يشرح له صدر من شرح الله صدره دون عموم المؤمنين.

(٢) الشارع: والمشرع هو الله تعالى.

(٣) حدًا: عقوبة وسميت حدًا لأنها محددة بنص شرعي.

خارجاً من الملة إبانة^(١) لقبحه وتغليظاً^(٢) لأمره، فهو كبيرة، وربما يكون شيء صغيراً بحسب حكمة البر والإثم، كبيرة بحسب الشريعة، وذلك أن الملة الجاهلية ربما ارتكبت شيئاً حتى فشا الرسم به فيهم لا يخرج منهم إلا أن تتقطع قلوبهم، ثم جاء الشرع ناهياً عنه، فحصل منهم لجاج^(٣) ومكابرة^(٤)، وحصل من الشرع تغليظ وتهديد بحسب ذلك حتى صار ارتكابها كالمناوأة الشديدة للملة، ولا يتأتى الإقدام على مثله إلا من كل مارد متمرّد لا يستحي من الله ولا من الناس، فكتب كبيرة عند ذلك.

وبالجملة فنحن نؤخر الكلام في الكبائر بحسب الشريعة إلى القسم الثاني من هذا الكتاب لأن ذلك موضعه، وننبه على مفسد الكبائر بحسب حكمة البر والإثم هنا كما فعلنا في أنواع البر نحواً من ذلك.

إذا مات صاحب الكبيرة قبل التوبة:

وقد اختلف الناس في الكبيرة إذا مات العاصي عليها، ولم يتب هل يجوز أن يعفو الله عنه أو لا؟ وجاء كل فرقة بأدلة من الكتاب والسنة، وحل الاختلاف عندي أن أفعال الله تعالى على وجهين: منها الجارية على العادة المستمرة، ومنها الخارقة للعادة.

والقضايا التي يتكلم بها الناس موجهة بجهتين: إحداهما في العادة: والثانية مطلقاً، وشرط التناقض اتحاد الجهة مثل ما قرره المنطقيون في القضايا الموجهة، وقد تحذف الجهة فيجب اتباع القرائن^(٥)، فقولنا كل من تناول السم مات بمعناه بحسب العادة المستمرة، وقولنا ليس كل من

(١) إبانة: إظهاراً. (٢) تغليظاً: تشديداً.

(٣) لجاج: إصرار.

(٤) مكابرة: معاندة وإصرار على الخطأ والإثم. وقوله المناوأة أي العداوة.

(٥) القرائن: جمع قرينة. وقرينة الكلام ما يصاحبه ويدل على المراد به.

تناول السم مات معناه بحسب خرق العادة، فلا تناقض، وكما أن الله تعالى في الدنيا أفعالاً خارقة وأفعالاً جارية على العادة، فكذلك في المعاد أفعال خارقة وعادية، أما العادة المستمرة فإن يعاقب العاصي إذا مات من غير توبة زماناً طويلاً، وقد تخرق العادة. وكذلك حال حقوق العباد، وأما خلود صاحب الكبيرة في العذاب، فليس بصحيح وليس من حكمة الله أن يفعل بصاحب الكبيرة مثل ما يفعل بالكافر سواء، والله أعلم.

باب في المعاصي التي هي فيما بينه وبين نفسه

القوة الملكية تكتنفها القوة البهيمية :

اعلم أن القوة الملكية من الإنسان اكتنفت^(١) بها القوة البهيمية من جوانبها، وإنما مثلها في ذلك مثل طائر في قفص، سعادته أن يخرج من هذا القفص، فيلحق بحيزه الأصلي من الرياض الأريضة^(٢)، ويأكل الحبوب الغذائية والفواكه اللذيذة من هنالك، ويدخل في زمرة^(٣) أبناء نوعه، فيتهج بهم كل الابتهاج.

أشد شقاوة الإنسان أن يكون دهرياً :

فأشد شقاوة الإنسان أن يكون دهرياً^(٤)، وحقيقة الدهري أن يكون مناقضاً للعلوم الفطرية المخلوقة فيه، وقد بينا أن له ميلاً في أصل فطرته إلى المبدىء جل جلاله، وميلاً إلى تعظيمه أشد ما يجد من التعظيم، وإليه الإشارة في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾^(٥) الآية.

(١) اكتنفت : أحاطت .

(٢) الرياض الأريضة : ما كثر عشبها وازدهت وحسنت في العين .

(٣) زمرة، وجمعها زمر : الجماعة والفوج . (٤) الدهري : من لا يؤمن بوجود الله تعالى .

(٥) سورة الأعراف / الآية ١٧٢ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ .

وقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»^(١) والتعظيم الأقصى لا يتمكن من نفسه إلا باعتقاد تصرف في بارئه بالقصد والاختيار ومجازاة وتكليف لهم وتشريع عليهم.

فمن أنكر أن له رباً تنتهي إليه سلسلة الوجود، أو اعتقد رباً معطلاً لا يتصرف في العالم أو يتصرف بالإيجاب من غير إرادة أو لا يجازي عباده على ما يفعلون من خير وشر، أو اعتقد ربه كمثل سائر الخلق، أو أشرك عباده في صفاته، أو اعتقد أنه لا يكلفهم بشريعة على لسان نبي - فذلك الدهريُّ الذي لم يجمع في نفسه تعظيم ربه، وليس لعلمه نفوذ إلى حيز القدس أصلاً، وهو بمنزلة الطائر المحبوس في قفص من حديد ليس فيه منفذ ولا موضع إبرة.

إذا مات الدهري شف الحجاب وبرزت الملكية:

فإذا مات شف الحجاب^(٢) وبرزت الملكية بروزاً ما، وتحرك الميل المفطور فيه، وعاقته العوائق في علمه بربه وفي الوصول إلى حيز القدس، فهاجت في نفسه وحشة عظيمة، ونظر إليها بارئها والملا الأعلى، وهي في تلك الحالة الخبيثة، فأحدقت فيها بنظر السخط^(٣) والازدراء^(٤)، وترشحت في نفوس الملائكة إلهامات السخط والعذاب، فعذب في المثال^(٥) وفي

(١) الفطرة الابتداء والاختراع؛ والفطرة الحالة، يريد أنه يولد على نوع من الطبع المتهى لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها. وقيل يريد كل مولود يولد على معرفة الله والإقرار به فلا تجد أحداً إلا وهو يقر بأن له صانعاً وإن سماه بغير اسمه أو عبد معه غيره.

(٢) من شف الثوب شفوفاً إذا رقى حتى بدا ما وراءه ولم يستره.

(٣) السخط: الغضب. (٤) الازدراء: الاحتقار.

(٥) أي عالمه. وقوله أو كافراً عطف على دهرياً أي أشد شقاوة الإنسان أن يكون دهرياً أو كافراً. وقوله تطور أي جعله طوراً لنفسه.

الخارج، أو كافرًا تكبر على الشأن الذي تطور به الله تعالى كما قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (١).

وأعني بالشأن أن للعالم أدواراً وأطواراً حسب الحكمة الإلهية، فإذا جاء دوره أوحى الله تعالى في كل سماء أمرها، ودبر الملائكة الأعلى بما يناسبها، وكتب لهم شريعة ومصلحة.

إجماع الملائكة الأعلى سبب لإلهامات في قلوب البشر:

ثم ألهم الملائكة الأعلى أن يجمعوا تمشية هذا الطور في العالم، فيكون إجماعهم سبباً لإلهامات في قلوب البشر، فهذا الشأن تلو المرتبة القديمة التي لا يشوبها حدوث، وهذه أيضاً شارحة لبعض كمال الواجب جل مجده كالمرتبة الأولى، فكل من باين هذا الشأن، وأبغضه، وصد عنه أتبع من الملائكة الأعلى بلعنة شديدة تحيط بنفسه، فتحبط أعماله، ويقسو قلبه، ولا يستطيع أن يكسب من أعمال البر ما ينفعه، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (٢).

عواقب ترك الامتثال لما أمر الله:

وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ (٣).

(١) سورة الرحمن/ آية ٢٩ - كل يوم: كل وقت. هو في شأن: في أمر يظهر على وفق ما قدره في الأزل من إعزاز وإذلال وإحياء وإماتة وإجابة داع وإعطاء سائل وهكذا.

(٢) سورة البقرة/ الآية ٥٩ - إن الذين يكتُمون: وهم اليهود كتموا ما أنزل الله من البيِّنات والهدى كآية الرجم ونعت سيدنا محمد - في الكتاب: أي في التوراة - يلعنهم الله أي يبعدهم من رحمته - ويلعنهم اللاعنون من الملائكة والمؤمنين.

(٣) سورة البقرة/ الآية ١١ - ختم الله على قلوبهم: طبع على قلوبهم فلا يدخلها خير - وعلى سمعهم: أي لا ينتفعون بما يسمعون.

فهذا كطير في قفص له منافذ إلا أنه قد غشي من فوقه بغاشية عظيمة وأدنى من ذلك^(١) أن يعتقد التوحيد والتعظيم على وجههما، ولكن ترك الامتثال لما أمر به في حكمة البر والإثم، ومثله كمثل رجل عرف الشجاعة ما هي وما فائدتها، ولكن لا يستطيع الاتصاف بها لأن حصول نفس الشجاعة غير حصول صورتها في النفس، وهو أحسن حالاً ممن لا يعرف معنى الشجاعة أيضاً، ومثله كمثل طائر في قفص مشبك يرى الخضرة والفواكه، وقد كان فيما هنالك أياماً، ثم طرأ عليه الحبس، فيشتاق إلى ما هنالك ويضرب بجناحه، ويدخل في المنافذ مناقيره، ولا يجد طريقاً يخرج منه، وهذه هي الكبائر بحسب حكمة البر والإثم.

عواقب ترك الامتثال لبعض أوامر الله:

وأدنى من ذلك أن يفعل هذه الأوامر؛ ولكن لا على شريطتها التي تجب لها، فمثله كمثل طائر في قفص مكسور في الخروج منه حرج، ولا يتصور الخروج إلا بخدش في جلده وشف في ريشه، فهو يستطيع أن يخرج من قفصه، ولكن بجد وكد، ولا يتهج في أبناء نوعه كل الابتهاج، ولا يتناول من فواكه الرياض كما ينبغي لما أصابه من الخدش والشف، وهؤلاء هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وعوائقهم هذه هي الصغائر بحسب حكمة البر والإثم، وقد أشار النبي ﷺ في حديث الصراط إلى هذه الثلاثة حيث قال: «ساقط في النار، ومخردل^(٢) ناج، ومخدوش ناج» والله أعلم.

(١) أي من أن يكون دهرياً أو كافراً.

(٢) المخردل: هو المرمي المصروع. وقيل: المقطع تقطعه كلاب الصراط حتى يهوي في النار. والمخدوش الذي تأخذ الخطاطيف من لحمه وتسفعه النار ثم ينجو.

باب الأثام التي هي فيما بينه وبين الناس

الحيوان على مراتب :

اعلم أن أنواع الحيوان على مراتب شتى :

منها ما يتكون تكون الديدان من الأرض، ومن حقها أن تلهم من بارئ الصور كيف تتغذى، ولا تلهم كيف تدبر المنازل.

ومنها ما يتناسل، ويتعاون الذكر والأنثى منها في حضانة الأولاد، ومن حقها في حكمة الله تعالى أن تلهم تدبير المنازل أيضاً، فألهم الطير كيف يتغذى، ويطير، وألهم أيضاً كيف يسافد^(١)، وكيف يتخذ عشاً، وكيف تزق^(٢) الفراخ.

الإنسان ميزة الله على الحيوان :

والإنسان من بينها مدني الطبع لا يتعيش إلا بتعاون من بني نوعه، فإنه لا يتغذى الحشيش النبات بنفسه ولا بالفواكه نيئة، ولا يتدفأ بالوبر إلى غير ذلك مما شرحنا من قبل، ومن حقه أن يلهم تدبير المدن مع تدبير المنازل وآداب المعاش، غير أن سائر الأنواع تلهم عند الاحتياج إلهاماً جليلاً إلا في حصة قليلة من علوم التعيش كمص الشدي عند الارتضاع والسعال عند البحة^(٣) وفتح الجفون عند إرادة الرؤية ونحو ذلك، وذلك لأن خياله كان صناعاً هماماً^(٤)، فقوض له علوم تدبير المنازل وتدبير المدن، إلى الرسم وتقليد المؤيدين بالنور الملكي فيما يوحى إليهم، وإلى تجربة ورصد^(٥) تدبير غيبي وروية بالاستقراء والقياس والبرهان.

(١) يسافد: يتصل بأنثاه جنسياً. (٢) تزق: زق الطائر فرخه أطعمه بمنقاره.

(٣) البحة - بضم الباء وتشديد الحاء المهملة - خشونة الصوت وغلظه.

(٤) همام: صاحب الهمة.

(٥) رصد: انتظار.

ومثله في تلقي الأمر الشائع الواجب فيضانه من بارىء الصور مع الاختلاف الناشىء من قبل استعداداتهم كمثل الواقعات التي يتلقاها في المنام يفاض عليهم العلوم الفوقانية من حيزها، فتشبح عندهم بأشباح مناسبة، فتختلف الصور لمعنى في المفاض عليه لا في المفيض.

أعمال الإنسان ثلاثة أصناف:

فمن العلوم الفائضة على أفراد الإنسان جميعاً عربهم وعجمهم حضرهم وبدوهم - وإن اختلف طريق التلقي منهم - حرمة خصال تدمر نظام مدنهم، وهي ثلاثة أصناف: منها أعمال شهوية، ومنها أعمال سبعية، ومنها أعمال ناشئة من سوء الأخذ في المعاملات.

١ - الإنسان نظم الأعمال الشهوية:

والأصل في ذلك أن الإنسان متوارد أبناء نوعه في الشهوة والغيرة والحرص، والفحول^(١) منهم يشبهون الفحول من البهائم في الطموح إلى الإناث وفي عدم تجويز المزاحمة على الموطوءة، غير أن الفحول من البهائم تتحارب حتى يغلب أشدها بطشاً وأحدها نفساً، وينهزم ما دون ذلك، أو لا تشعر بالمزاحمة لعدم رؤية المسافدة^(٢).

والإنسان ألمعي^(٣) يظن الظن كأنه يرى ويسمع، وألهم أن التجارب لأجل ذلك مدمر لمدنهم لأنهم لا يتمدون إلا بتعاون من الرجال، والفحول أدخل في التمدن من الإناث، فألهم إنشاء اختصاص كل واحد بزوجته، وترك المزاحمة فيما اختص به أخوه، وهذا أصل حرمة الزنا، ثم صورة الاختصاص بالزوجات أمر موكول إلى الرسم والشرائع.

(١) الفحول: الذكور، والطموح الميل.

(٢) المسافدة: الجماع.

(٣) الألمعي: الذكي المتوقع.

بعض الرجال غلبتهم الشهوة الفاسدة:

والفحول منهم أيضاً يشبهون الفحول من البهائم من حيث إن سلامة فطرتهم لا تقتضي إلا الرغبة في الإناث دون الرجال، كما أن البهائم لا تلتفت هذه اللفتة^(١) إلا قبل الإناث غير أن رجالاً غلبتهم الشهوة الفاسدة بمنزلة من يتلذذ بأكل الطين والحمة^(٢) فانسلخوا من سلامة الفطرة: يقضي هذا شهوته بالرجال، وذلك صار مأبوناً^(٣) يستلذ ما لا يستلذه الطبع السليم، فأعقب ذلك تغيراً لأمزجتهم ومرضاً في نفوسهم، كان مع ذلك سبباً لإهمال النسل من حيث إنهم قضوا حاجتهم التي قبض الله تعالى عليهم منهم ليذراً^(٤) بها نسلهم بغير طريقها، فغيروا النظام الذي خلقهم الله تعالى عليه، فصار قبح هذه الفعلة مندمجاً^(٥) في نفوسهم، فلذلك يفعلها الفساق، ولا يعترفون بها، ولو نسبوا إليها لماتوا حياءً إلا أن يكون انسلاخاً^(٦) قوياً، فيجهرون، ولا يستحيون، فلا يتراخى أن يعاقبوا، كما كان في زمن سيدنا لوط عليه السلام، وهذا أصل حرمة اللواط.

بعض الرجال غلبت شهوتهم عقولهم:

ومعاش بني آدم وتدبير منازلهم وسياسة مدنهم لا يتم إلا بعقل وتمييز، وإدمان الخمر^(٧) ترجع إلى نظامهم بخرم^(٨) قوي، ويورث محاربات وضغائن، غير أن أنفساً غلبت شهوتهم الرديئة على عقولهم أقبلوا على هذه الرذيلة، وأفسدوا عليهم ارتفاعاتهم، فلولم يجر الرسم بمنع عن

(١) اللفتة: النظرة.

(٢) أي الفحمة، وقوله هذا أي أحدهم، وقوله ذلك أي الآخر.

(٣) مأبوناً: مغتلباً.

(٤) يذراً: يخلق.

(٥) مندمجاً: مختلطاً.

(٦) انسلاخاً: خروجاً.

(٧) إدمان الخمر: شربه دائماً.

(٨) بخرم: قطع ونقص.

فعلتهم تلك لهلك الناس . وهذا أصل حرمة إدمان الخمر ، وأما حرمة قليلها وكثيرها ، فلا يبين إلا في مبحث الشرائع .

٢ - الإنسان نظم القوة العصبية والقتالية :

والفحول منهم يشبهون الفحول من البهائم في الغضب على من يصد عن مطلوب ، ويجري عليه مؤلماً في نفسه أو في بدنه ، لكن الفحول من البهائم لا تتوجه إلا إلى مطلوب محسوس أو متوهم ، والإنسان يطلب المتوهم والمعقول ، وحرصه أشد من حرص البهائم .

وكانت البهائم تتقاتل حتى ينهزم واحد ، ثم ينسى الحقد إلا ما كان من مثل الفحول من الإبل والبقر والخيول .

والإنسان يحقد ولا ينسى ، فلو فتح فيهم باب التقاتل لفسدت مدينتهم ، واختلت معاشهم ، فألهموا حرمة القتل والضرب إلا لمصلحة عظيمة من قصاص ونحوه ، وهاج من الحقد في صدور بعضهم مثل ما هاج في صدور الأولين ، وخافوا القصاص فأنحدروا^(١) إلى أن يدسوا السم^(٢) ، في الطعام أو يقتلوا بسحر ، وهذا حاله بمنزلة حال القتل بل أشد منه ، فإن القتل ظاهرة يمكن التخلص منه ، وهذه لا يمكن التخلص منها ، وأنحدروا أيضاً إلى القذف^(٣) والمشي به إلى ذي سلطان ، ليقتل .

٣ - الأعمال الناشئة من المعاملات :

والمعاش التي جعلها الله تعالى لعباده إنما هي الالتقاط من الأرض

(١) انحدروا: مالوا .

(٢) يدسوا السم: من الدسيس وهو كتمان المكر والحيلة والمعنى يجعلوا السم في الطعام خفاء .

(٣) القذف: التهمة .

المباحة والرعي والزراعة والصناعة والتجارة وسياسة المدينة والملة وكل كسب تجاوز عنها فإنه لا مدخل له في تمدنهم .

وانحدر بعضهم إلى أكساب^(١) ضارة كالسرقة والغصب، وهذه كلها مدمرة للمدينة، فآلهم أنها محرمة، واجتمع بنو آدم كلهم على ذلك وإن باشرها العصاة منهم في غلواء^(٢) نفوسهم، وسعى الملوك العادلة في إبطالها ومحققها، واستشعر بعضهم سعي الملوك في إبطالها، فانحدروا إلى الدعاوى الكاذبة واليمين الغموس^(٣) وشهادة الزور وتطفيف الكيل^(٤) والوزن والقمار والربا أضعافاً مضاعفة، وحكمها حكم تلك الأكساب الضارة، وأخذ العشر النهك بمنزلة قطع الطريق، بل أقبح .

استقرت في نفوس بني آدم ضرورة ملاحظة المصلحة الكلية :

وبالجملة فلهذه الأسباب دخلت في نفوس بني آدم حرمة هذه الأشياء، وقام أقواهم عقلاً وأسدّهم رأياً وأعلمهم بالمصلحة الكلية يمنع عن ذلك طبقة بعد طبقة حتى صار رسماً فاشياً، ودخلت في البديهيّات الأولية كسائر المشهورات الذائعة، فعند ذلك رجع إلى الملاء الأعلى لون منهم حسبما كان انحدر إليهم من الإلهام أن هذه محرمة وأنها ضارة أشد الضرر، فصاروا كلما فعل واحد من بني آدم شيئاً من تلك الأفعال تأذوا منه، مثل ما يضع أحدنا رجله على الجمرة، فتنقل إلى القوى الإدراكية في تلك اللحمة، وتتأذى منه، ثم صار لتأذيها خطوط شعاعية تحيط بهذا العاصي، وتدخل في قلوب المستعدين من الملائكة وغيرهم أن يؤذوه إذا

(١) أكساب : جمع كسب وهو الربح . (٢) غلواء : غلو .

(٣) اليمين الغموس : الكاذبة التي تغمس صاحبها أي تغرقه في الإثم ومن ثم في النار .

(٤) تطفيف الكيل : يزيد في كيل نفسه وينقص كيل الآخرين .

أمكن إيذاؤه، ورخصت فيه مصلحته المكتوبة عليه المسماة في الشرع
بالهام الملائكة ما رزقه وما أجله، وما عمره، وشقي أو سعيد، وفي النجوم
بأحكام الطالع حتى إذا مات وهدأت^(١) عنه هذه المصلحة فرغ له بارثه كما
قال: ﴿سَنَفَرُغْ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾^(٢) وجازاه الجزاء الأوفى والله أعلم.

(١) هدأت: سكنت.

(٢) سورة الرحمن/ الآية ٢١ - سنفرغ لكم : سنقصد لحسابكم - أيها الثقلان : الإنس
والجان .

مبحث السياسات المالية

باب الحاجة إلى هداة السبل ومقیمی الملل

الناس یحتاجون إلى عالم تؤمن فلتاته :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾^(١) .

واعلم أن السنن الكاسبة لانقياد البهيمية للملكية والأثام المباينة لها، وإن كان العقل السليم يدل عليها، ويدرك فوائده هذه ومضار تلك، لكن الناس في غفلة منها، لأنه تغلب عليهم الحجب، فيفسد وجدانهم، كمثّل الصفراوي، فلا يتصورون الحالة المقصودة ولا نفعها ولا الحالة المحوفة ولا ضررها، فيحتاجون إلى عالم بالسنة الراشدة يسوسهم، ويأمر بها، ويحض عليها، وينكر على مخالفتها.

ومنهم ذو رأي فاسد لا يقصد بالذات إلا لأضداد الطريقة المطلوبة فيضّل ويضّل، فلا يستقيم أمر القوم إلا بكبته^(٢) وإخماله.

ومنهم ذو رأي راشد في الجملة لا يدرك إلا حصة ناقصة من الاهتداء، فيحفظ شيئاً، ويغيب عنه أشياء، أو يظن في نفسه أنه الكامل الذي لا يحتاج إلى مكمل، فيحتاج إلى من ينبهه على جهله.

(١) سورة الرعد/ الآية ٧ - منذر: مخوف الكافرين والعاصين - ولكل قوم هاد: لكل قوم نبي يدعوهم إلى ربهم وإلى سبل الرشاد.

(٢) كبت: كسر وأذل وأهان ومنع.

الأمم بحاجة لرجل هو في أعلى درجة من أصناف النفوس :
وبالجملة فالناس يحتاجون لا محالة إلى عالم حق العلم تؤمن
فلتاته .

ولما كانت المدينة مع استبداد^(١) العقل المعاشي الذي يوجد عند
كثير من الناس بإدراك النظام المصلح لها تضطر إلى رجل عارف بالمصلحة
على وجهها يقوم بسياستها، فما ظنك بأمة عظيمة من الأمم تجمع
استعدادات مختلفة جداً في طريقة لا يقبلها بشهادة القلوب إلا الأذكاء
أهل الفطرة الصافية أو التجريد البالغ، ولا يهدى إليها إلا الذين هم في
أعلى درجة من أصناف النفوس - وقليل ما هم .

وكذلك أيضاً لما كانت الحداثة والنجارة وأمثالهما لا تتأتى من
جمهور الناس بسنن مأثورة عن أسلافهم^(٢) وأساتذة يهدونهم إليها،
ويحضونهم عليها، فما ظنك بهذه المطالب الشريفة التي لا يهتدي إليها إلا
الموفقون، ولا يرغب فيها إلا المخلصون .

يجب أن يثبت على رؤوس الأشهاد أن هذا الرجل عالم معصوم :
ثم لا بد لهذا العالم أن يثبت على رؤوس الأشهاد أنه عالم بالسنة
الراشدة، وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والإضلال، ومن أن يدرك حصة
من الإصلاح، ويترك حصة أخرى لا بد منها، وذلك ينحصر في وجهين :
إما أن يكون راوياً عن رجل قبله انقطع عنده الكلام لكونهم مجتمعين على
اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم، فيمكن له أن
يؤاخذهم^(٣) بما اعتقدوه، ويحتج عليهم، ويفحهم^(٤)، أو يكون هو الذي
انقطع عنده الكلام، وأجمعوا عليه .

(١) استبداد : استقلال .

(٢) يؤاخذهم : يحاسبهم .

(٣) الأسلاف : الذين عاشوا قبلنا .

(٤) يفحهم : أفحم خصمه أسكته بالحجة .

وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الإجماع يكون فيهم، أو تكون الرواية محفوظة عندهم، وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذه السنن منها ووجوه منافعها، وعلمه الآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان، ولا بالعقل المتصرف في المعاش، ولا بالحس، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان. فكما أن الجوع والعطش، وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك إلا بالوجدان، فكذلك معرفة ملاءمة الشيء للروح ومباينته^(١) لها لا طريق إليها إلا الذوق السليم.

عصمة هذا العالم إنما يكون من الله تعالى :

وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه إنما يكون بخلق الله علماً ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمبصر عند الإبصار، فإنه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن تكون عينه مؤوفة، وأن يكون الإبصار على خلاف الواقع، وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية، فإن العربي مثلاً لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر، ولفظ الأرض لذلك مع أنه لم يقم له على ذلك برهان، وليس بينهما ملازمة عقلية، ومع ذلك فإنه يخلق فيه علم ضروري.

يجب أن يكون لهذا الرجل ملكة جبلية :

وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبلية يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً، وإن يتتابع الوجدان، ويتكرر تجربة صدق وجدانه. . . ، وعند الناس^(٢) إنما يكون بأن يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو إليه حق، وأن سيرته

(١) ملاءمة : مناسبة - ومباينة : مخالفة مضادة .

(٢) أي كونه مأموناً من الخطأ عند الناس يكون إذا صح عندهم أن ما يدعو إليه حق .

صالحة يبعد منها الكذب، وأن يروا منه آثار القرب، كالمعجزات واستجابة الدعوات، حتى لا يشكوا أن له في التدبير العالي منزلة عظيمة، وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة، وأن مثله حقيق بالألا يكذب على الله، ولا يباشر معصية، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً^(١) عظيماً، وتصيره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم والماء الزلال^(٢) عند العطشان، فهذا كله لا يتحقق به انصباع أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الأمور أصابوا أم أخطأوا، والله أعلم.

باب حقيقة النبوة وخواصها

المفهمون هم أعلى طبقات الناس:

اعلم أن أعلى طبقات الناس المفهمون، وهم ناس أهل اصطلاح، ملكيتهم في غاية العلو، يمكن لهم أن ينبعثوا إلى إقامة نظام مطلوب بداعية حقانية، وترشح عليهم من الملاء الأعلى علوم وأحوال إلهية^(٣).

ومن سيرة المفهم أن يكون معتدل المزاج سوي الخلق والخلق ليس فيه خباية^(٤) مفرطة^(٥) بحسب الآراء الجزئية، ولا ذكاء مفرط لا يجذبه من الكلبي إلى الجزئي، ومن الروح إلى الشبح سبيلاً، ولا غباوة مفرطة لا يتخلص بها إلى الكلبي، ومن الشبح إلى الروح.

ويكون ألزم الناس بالسنة الراشدة ذا سمت^(٦) حسن في عباداته، ذا

(١) تؤلفهم تأليفاً: ألف بينهم أوقع الألفة.

(٢) الماء الزلال: الماء الكثير الزلق الخفيف.

(٣) كالشوق والتجريد أو غيرهما.

(٤) خباية: اضطراب وعدم استقلال.

(٥) أفرط: بالغ وزاد.

(٦) السمت: الهيئة.

عدالة في معاملته مع الناس، محباً للتدبير الكلي، راغباً في النفع العام، لا يؤذي أحداً إلا بالعرض بأن يتوقف النفع العام عليه أو يلازمه، لا يزال مائلاً إلى عالم الغيب، يحس أثر ميله في كلامه ووجهه وشأنه كله، يرى أنه مؤيد من الغيب، يفتح له بأدنى رياضة ما لا يفتح لغيره من القرب والسكينة.

المفهمون على أصناف:

والمفهمون على أصناف كثيرة واستعدادات مختلفة:

فمن كان أكثر حاله أن يتلقى من الحق علوم تهذيب النفس بالعبادات فهو الكامل.

ومن كان أكثر حاله تلقي الأخلاق الفاضلة وعلوم تدبير المنزل ونحو ذلك فهو الحكيم.

ومن كان أكثر حاله تلقي السياسات الكلية، ثم وفق لإقامة العدل في الناس وذب^(١) الجور^(٢) عنهم يسمى خليفة. ومن ألت به الملاء الأعلى، فعلمته وخاطبته، وتراءت له، وظهرت أنواع من كراماته يسمى بالمؤيد بروح القدس^(٣).

ومن جعل منهم في لسانه وقلبه نور، فنفع الناس بصحبته وموعظته، وانتقل منه إلى حواريين^(٤) من أصحابه سكينه ونور، فبلغوا بواسطته مبالغ الكمال، وكان حثيثاً^(٥) على هدايتهم هادياً مزكياً.

(١) ذب: طرد.

(٢) الجور: الظلم.

(٣) روح القدس: جبريل عليه السلام.

(٤) حواريين: جمع حوارى، الناصح الحميم الناصر وهو في الأصل ناصر الأنبياء.

(٥) حثيثاً: صفة من الحث أى حريصاً مسرعاً.

ومن كان أكثر علمه معرفة قواعد الملة ومصالحها، وكان حثيثاً على إقامة المندرس منها يُسمى إماماً.

ومن نفث^(١) في قلبه أن يخبرهم بالداهية المقدرة عليهم في الدنيا، أو تفتن بلعن الحق قوماً، فأخبرهم بذلك، أو جرد من نفسه في بعض أوقاته، فعرف ما سيكون في القبر والحشر، فأخبرهم بتلك الأخبار يُسمى منذراً.

إذا اقتضت الحكمة الإلهية أن تبعث واحداً من المفهمين فهو النبي: وإذا اقتضت الحكمة الإلهية أن تبعث إلى الخلق واحداً من المفهمين، فتجعله سبباً لخروج الناس من الظلمات إلى النور، وفرض الله على عباده أن يسلموا وجوههم وقلوبهم له، وتأكد في الملأ الأعلى الرضا عن انقاد له^(٢)، وانضم إليه، واللعن على من خالفه، وناواه^(٣)، فأخبر الناس بذلك، وألزمهم طاعته فهو النبي، وأعظم الأنبياء شأناً من له نوع آخر من البعثة أيضاً، وذلك أن يكون مراد الله تعالى فيه أن يكون سبباً لخروج الناس من الظلمات إلى النور، وأن يكون قومه خير أمة أخرجت للناس، فيكون بعثه يتناول بعثاً آخر.

وإلى الأول وقعت الإشارة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾^(٤) الآية.

وإلى الثاني في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٥).

(١) نفث في قلبه: ألقى في قلبه.

(٢) انقاد له: أطاعه.

(٣) ناواه: عاداه.

(٤) سورة الجمعة / الآية ٢ - الأميين: هم العرب والامي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ.

رسولاً منهم: أي من بينهم.

(٥) سورة آل عمران / الآية ١١٠، أخرجت: أظهرت.

وقوله ﷺ: «فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» ونبينا ﷺ استوعب جميع فنون المفهمين، واستوجب أتم البعثين، وكان من الأنبياء قبله من يدرك فناً أو فنين ونحو ذلك.

الحكمة الإلهية تقتضي بعث الرسل:

واعلم أن اقتضاء الحكمة الإلهية لبعث الرسل لا يكون إلا لانحصار الخير النسبي المعتبر في التدبير في البعث، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا علام الغيوب، إلا أنا نعلم قطعاً أن هنالك أسباباً لا يتخلف عنها البعث البتة^(١)، وافتراض الطاعة إنما يكون بأن يعلم الله تعالى صلاح أمة من الأمم أن يطيعوا الله، ويعبدوه، ويكونوا بحيث لا تستوجب نفوسهم التلقي من الله. ويكون صلاح أمرهم محصوراً يومئذ في اتباع النبي، فيقتضي الله في حظيرة القدس بوجوب اتباعه، ويتقرر هنالك الأمر، وذلك إما بأن يكون الوقت وقت ابتداء ظهور دولة، وكبت الدول بها، فيبعث الله تعالى من يقيم دين أصحاب تلك الدولة كبعث سيدنا محمد ﷺ، أو يقدر الله تعالى بقاء قوم واصطفاهم على البشر، فيبعث من يقوم عوجهم، ويعلمهم الكتاب كبعث سيدنا موسى عليه السلام، أو يكون نظم ما قضى لقوم من استمرار دولة أو دين يقتضي بعث مجدد كداود وسليمان وجمع من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، وهؤلاء الأنبياء قد قضى الله بنصرتهم على أعدائهم كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٢).

(١) البتة: أبداً، قطعاً.

(٢) سورة الصافات / الأيتان: ١٧١، ١٧٢ - سبقت كلمتنا: أي بالنصر وهذه الكلمة هي: أنهم لهم المنصورون أو قوله تعالى: لأغلبن أنا ورسلي - وأن جندنا: أي المؤمنين - لهم الغالبون: غالبون الكفار بالحجة والنصر في الدنيا أو بالفوز عليهم يوم القيامة بالجنة.

ووراء هؤلاء قوم يبعثون لإتمام الحجة، والله أعلم.

إذا بعث الله نبياً وجب على المبعوث إليهم أن يتبعوه:

وإذا بعث النبي وجب على المبعوث إليهم أن يتبعوه، وإن كانوا على سنة راشدة، لأن مناواة^(١) هذا المنوه شأنه يورث لعناً من الملائكة الأعلى، وإجماعاً على خذلانه، فينسد سبيل تقربهم من الله، ولا يفيد كدهم شيئاً، وإذا ماتوا أحاطت اللعنة بنفوسهم، على أن هذه صورة مفروضة غير واقعة، ولك عبرة^(٢) باليهود: كانوا أحوج خلق الله إلى بعث الرسول لغلوهم^(٣) في دينهم وتحريفاتهم^(٤) في كتابهم.

أكثر الناس خلقوا لكي يتلقوا ما لهم وما عليهم بواسطة:

وثبت حجة الله على عباده ببعثه الرسل إنما هو بيان أكثر الناس خلقوا بحيث لا يمكن لهم تلقي ما لهم وما عليهم بلا واسطة، بل استعدادهم إما ضعيف يتقوى بأخبار الرسل، أو هنالك مفاصد لا تندفع إلا بالقسر على رغم أنفسهم.

وكانوا بحيث يؤاخذون في الدنيا والآخرة، فأوجب لطف الله عند اجتماع بعض الأسباب العلوية والسفلية أن يوحى إلى أذكى القوم أن يهديهم إلى الحق، ويدعوهم إلى الصراط المستقيم، فمثله في ذلك كمثل سيد مرض عبيده، فأمر بعض خواصه أن يكلفهم شرب دواء أشاءوا، أم أبوا، فلو أنه أكرههم على ذلك كان حقاً، ولكن تمام اللطف يقتضي أن يعلمهم أولاً أنهم مرضى، وأن الدواء نافع، وأن يعمل أموراً خارقة تطمئن نفوسهم بها على أنه صادق فيما قال، وأن يشوب^(٥) الدواء بحلو، فحينئذ

(١) مناواة: معارضة.

(٢) عبرة: عظة.

(٣) غلوهم: الغلو في الدين هو التشدد والتصلب والزيادة على الحد المطلوب.

(٤) تحريفات: جمع تحريف وهو التبديل والتغيير.

(٥) يشوب: يخلط.

يفعلون ما يؤمرون به على بصيرة منه وبرغبة فيه .

فليست المعجزات، ولا استجابة الدعوات، ونحو ذلك إلا أموراً خارجة عن أصل النبوة لازمة لها في الأكثر، وظهور معظم المعجزات يكون من أسباب ثلاثة:

أحدها: كونه من المفهمين، فإن ذلك يوجب انكشاف بعض الحوادث عليه، ويكون سبباً لاستجابة الدعوات وظهور البركات فيما يبرك^(١) عليه.

والبركة إما زيادة نفع الشيء بأن يخيل إليهم مثلاً أن الجيش كثير، فيفشلوا أو بصرف الطبيعة الغذاء إلى خلط صالح، فيكون كمن تناول أضعاف ذلك الغذاء، أو زيادة عين الشيء بأن تتقلب المادة الهوائية بتلك الصورة لحلول قوة مثالية، ونحو ذلك من الأسباب التي يعسر إحصاؤها.

والثاني: أن يكون الملائ الأعلى مجمعاً إلى تمشية أمره، فيوجب ذلك إلهامات وإحالات وتقريبات لم تكن تعهد من قبل، فينصر الأحياء، ويخذل الأعداء، ويظهر أمر الله ولو كره الكافرون.

والثالث: أن تحدث حوادث لأسبابها الخارجية من مجازاة العصاة وحدثت الأمور العظام في الجوى، فيجعلها الله تعالى معجزة له بوجه من الوجوه، إما لتقدم إخبار بها، أو ترتب المجازاة على مخالفة أمره، أو كونها موافقة بما أخبر من سنة المجازاة، أو أمر مما يشبه ذلك.

أسباب العصمة:

والعصمة لها أسباب ثلاثة: أن يخلق الإنسان نقيماً عن الشهوات الرذيلة سمحاً لا سيما فيما يرجع إلى محافظة الحدود الشرعية، وأن

(١) من التبريك وهو الدعاء بالبركة.

يوحى إليه حُسن الحَسَن وقُبْح القبيح ومالهما، وأن يحول الله بينه وبين ما يريد من الشهوات الرذيلة.

من سيرة الأنبياء التفكير في المخلوق لا الخالق:
واعلم أن من سيرة الأنبياء عليهم السلام ألا يأمرُوا بالتفكر في ذات الله تعالى وصفاته، فإن ذلك لا يستطيعه جمهور الناس، وهو قوله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله» وقوله في آية: ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾^(١).

قال: «لا فكرة في الرب»^(٢) وإنما يأمرُون بالتفكر في نعم الله تعالى وعظيم قدرته.

من سيرة الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم:
ومن سيرتهم ألا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خلقوا عليها وعلومهم التي هي حاصلة عندهم بأصل الخلقة، وذلك لأن نوع الإنسان حيثما وجد فله في أصل الخلقة حد من الإدراك زائد على إدراك سائر الحيوانات إلا إذا عصت المادة جداً، وله علوم لا يخرج إليها إلا بخرق العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء، أو برياضات شاقة تهيب نفساً لإدراك ما لم يكن عنده بحساب، أو بممارسة قواعد الحكمة والكلام وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة، فالأنبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج^(٣) إدراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخلقة، ولم يلتفتوا إلى ما يكون نادر الأسباب قلما يتفق وجودها، فلذلك لم يكلفوا الناس أن

(١) سورة النجم/ الآية ٤٢، المنتهى: المرجع والمصير بعد الموت فيجازي العباد كل واحد حسب عمله.

(٢) تقدم أنه لا يوجد في كتب السنة الصحيحة.

(٣) المنهاج: الطريق الواضح.

يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات، ولا بالبراهين والقياسات، ولا أن يعرفوه منزهاً عن جميع الجهات، فإن ذلك كالممتنع بالإضافة إلى من لم يشتغل بالرياضات، ولم يخالط المعقوليين مدة طويلة، ولم يرشدوهم إلى طرق الاستنباط والاستدلالات ووجوه الاستحسانات، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقة المأخذ، وسائر ما يتناول^(١) به أصحاب الرأي على أهل الحديث.

من سيرة الأنبياء أن يشتغلوا في تهذيب النفس :

ومن سيرتهم ألا يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والهالة^(٢) وعجائب النبات والحيوان ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك والبلدان ونحوها اللهم إلا كلمات يسيرة ألفتها أسماعهم، وقبلتها عقولهم يؤتى بها في التذكير بآلاء الله^(٣) والتذكير بأيام الله على سبيل الاستطراد بكلام إجمالي يسامح في مثله بإيراد الاستعارات وبالمجازات، ولهذا الأصل لما سألوا النبي ﷺ عن لمية^(٤) نقصان القمر وزيادته أعرض الله تعالى عن ذلك إلى بيان فوائد الشهور فقال: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(٥).

وترى كثيراً من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون أو غيرها

(١) يتفاخر.

(٢) الهالة: الدائرة الضوئية التي تحيط بالقمر.

(٣) آلاء الله: نعم الله تعالى.

(٤) لمية: سبب - مشتقة من (لم) الاستفهامية.

(٥) سورة البقرة/ الآية ١٨٩ - يسئلونك: أي يسألون محمداً عليه السلام - عن الأهلة: جمع

هلال وسؤالهم كان سبب زيادتها ونقصها - قل هي مواقيت للناس: جمع ميقات وهي تنفع الناس في تعريفهم أوقات زرعهم وتجاريتهم وعبادتهم والحج: أي ويعلم بها وقت الحج.

من الأسباب، فحملوا كلام الرسل على غير محمله، والله أعلم.

باب بيان أن أصل الدين واحد والشرائع والمناهج مختلفة

الدين واحد:

قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١).

قال مجاهد: أوصيناك يا محمد وإياهم ديناً واحداً، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٢).

يعني ملة الإسلام ملتكم، فتقطعوا يعني المشركين واليهود والنصارى وقال تعالى: ﴿ بِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٣).

قال ابن عباس: سبيلاً وسنة وقال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ (٤).

يعني شريعة هم عاملون بها.

(١) سورة الشورى/ الآية ١٣، وصى به نوحاً: نوح عليه السلام أول أنبياء الشريعة - الموحى والموصى به لهؤلاء الأنبياء والرسل هو واحد وهو التوحيد.

(٢) سورة المؤمنون/ الآيتان ٥٢، ٥٣ أن هذه، أي ملة الإسلام - أمتكم: دينكم واحد - فتقطعوا أمرهم زبوراً: أي قطع الأتباع دينهم أحزاباً متخالفين.

(٣) سورة المائدة/ الآية ٤٨، منكم: أي منكم أيها الأمم - شرعة: شريعة - منهاجاً: طريقاً واضحاً في الدين يسير عليه المؤمنون.

(٤) سورة الحج/ الآية ٦٧، منسكاً: شريعة - هم ناسكوه: هم عاملون به.

الاختلاف في الشرائع والمناهج :

اعلم أن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام ، وإنما
الاختلاف في الشرائع والمناهج .

تفصيل ذلك أنه أجمع الأنبياء عليهم السلام على توحيد الله تعالى
عبادة واستعانة ، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه ، وتحريم الإلحاد في أسمائه ،
وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيماً لا يشوبه تفريط ، وأن يسلموا
وجوههم وقلوبهم إليه ، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله ، وأنه قدر جميع
الحوادث قبل أن يخلقها ، وإن لله ملائكة لا يعصونه فيما أمر ، ويفعلون
ما يؤمرون ، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده ، ويفرض طاعته
على الناس ، وأن القيامة حق ، والبعث بعد الموت حق ، والجنة حق ،
والنار حق .

أجمع الأنبياء على أنواع البر :

وكذلك أجمعوا على أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم
والحج والتقرب إلى الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر وتلاوة الكتاب
المنزل من الله ، وكذلك أجمعوا على النكاح وتحريم السفاح^(١) وإقامة
العدل بين الناس وتحريم المظالم وإقامة الحدود على أهل المعاصي
والجهاد مع أعداء الله والاجتهاد في إشاعة أمر الله ودينه ، فهذا أصل
الدين ، ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن لمية هذه الأشياء إلا ما شاء
الله ، فإنها كانت مسلمة فيمن نزل القرآن على ألسنتهم .

الاختلاف في صور هذه الأمور :

وإنما الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباحها ، فكان في شريعة
موسى عليه السلام الاستقبال في الصلاة إلى بيت المقدس ، وفي شريعة
نبينا ﷺ إلى الكعبة .

(١) السفاح: الزنا.

وكان في شريعة موسى عليه السلام الرجم فقط، وجاءت شريعتنا بالرجم^(١) للمحصن^(٢) والجلد لغيره .

وكان في شريعة موسى عليه السلام القصاص فقط، وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعاً، وعلى ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات وآدابها وأركانها .

وبالجمله فالأوضاع الخاصة التي مهدت، وبنيت بها أنواع البر والارتفاقات هي الشرعة والمنهاج .

الطاعات هي أعمال تنبعث من الهيئات النفسية :

واعلم أن الطاعات التي أمر الله تعالى بها في جميع الأديان إنما هي أعمال تنبعث من الهيئات النفسانية التي هي في المعاد^(٣) للنفوس أو عليها، وتمد فيها وتشرحها، وهي أشباحها وتماثيلها، ولا جرم أن ميزانها وملاك أمرها تلك الهيئات، فمن لم يعرفها لم يكن من الأعمال على بصيرة، فربما اكتفى بما لا يكفي، وربما صلى بلا قراءة ولا دعاء، فلا يفيد، فلا بد من سياسة عارف حق المعرفة يضبط الخفي المشتبه بإمارات واضحة، ويجعلها أمراً محسوساً يميزه الأداني والأقاصي، ولا يشتهه عليهم ليطالبوا به ويؤاخذوا عليه على حجة من الله واستطاعة منهم .

الآثام ربما تشتهه بما ليس بإثم :

والآثام ربما تشتهه بما ليس بإثم كقول المشركين : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾^(٤) .

(١) الرجم : الضرب بالحجارة حتى الموت . (٢) المحصن : من كان متزوجاً .

(٣) المعاد : يوم القيامة .

(٤) سورة البقرة / الآية ٢٧٥ - قالوا : إنما البيع مثل الربا في الجواز وتشبيه الكفار كان معكوساً

إما لقصور العلم، أو لغرض دنيوي يفسد بصيرته، فمست الحاجة إلى إمارات يتميز بها الإثم من غيره، ولو لم يؤقت الأوقات لاستكثر بعضهم القليل من الصلاة والصوم، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً، ولم تمكن المعاقبة على تسللهم واحتيالهم، ولو لم يعين لهم الأركان والشروط لخطبوا خبط عشواء^(١)، ولولا الحدود لم ينزجر^(٢) أهل الطغيان.

وبالجملة فجمهور الناس لا يتم تكليفهم إلا بأوقات وأركان وشروط وعقوبات وأحكام كلية ونحو ذلك.

ميزان التشريع :

وإذا شئت أن تعرف للتشريع ميزاناً، فتأمل حال الطبيب الحاذق عندما يجتهد في سياسة المرضى، ويخبرهم بما لا يعرفون، ويكلفهم بما لا يحيطون بدقائقه علماً كيف يعتمد إلى مظنات محسوسة، فيقيمها مقام الأمور الخفية كما يقيم حمرة البشرة وخروج الدم من اللثة مقام غلبة الدم، وكيف ينظر إلى قوة المرض وسن المريض وبلده وفصله وإلى قوة الدواء وجميع ما هناك، فيحدس^(٣) بمقدار خاص من الدواء يلائم الحال، فيكلفه به، وربما اتخذ قاعدة كلية من قبل إقامة المظنة مقام سبب المرض وإقامة هذا القدر الذي تظن به من الدواء مقام إزالة المادة المؤذية أو تغيير هيئتها الفاسدة، فيقول مثلاً: من احمرت بشرته ودميت لثته وجب عليه بحكم الطب أن يحتسي^(٤) على الريق شراب العناب أو ماء العسل، ومن لم يفعل ذلك فإنه على شرف الهلاك، ويقول: من تناول من معجون كذا وكذا

= وقصدهم الربا مثل البيع فأجابهم الله ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾.
 (١) العشواء: الناقة التي في بصرها ضعف، والمعنى لكانوا على غير بصيرة.
 (٢) لم ينزجر: لم يمتنع.
 (٣) يحدس: يظن.
 (٤) يحتسي: يشرب إذا أصبح من غير أن يأكل شيئاً.

وزن مثقال زال عنه مرض كذا، وأمن من مرض كذا، فيؤثر عنه تلك الكلية، ويعمل بها، فيجعل الله في ذلك نفعاً كثيراً.

وتأمل حال الملك الحكيم الناظر في إصلاح المدينة وسياسة الجيوش كيف ينظر إلى الأراضي وريعها، وإلى الزراع ومؤنتهم^(١)، وإلى الحراس وكفايتهم، فيضرب العشر والخراج حسب ذلك، وكيف يقيم هيئات محسوسة وقرائن مقام الأخلاق والملكات التي يجب وجودها في الأعوان، فيتخذهم على ذلك القانون وكيف ينظر إلى الحاجات التي لا بد من كفايتها، وإلى الأعوان وكثرتهم، فيوزعهم توزيعاً يكفي المقصود، ولا يضيق عليهم.

وتأمل حال معلم الصبيان بالنسبة إلى صبيانه، والسيد بالنسبة إلى غلمانه يريد هذا تعليمهم، وذلك كفاية الحاجة المقصودة بأيديهم، وهم لا يعرفون حقيقة المصلحة، ولا يرغبون في إقامتها، ويتسللون، ويعتذرون، ويحتالون كيف يعرفان مظنة الثلثة^(٢) قبل وقوعها، فيسدان الخلل، ولا يخاطبانهم إلا بطريقة ليلها نهارها، ونهارها ليلها، لا يجدون منها حيلة، ولا يتمكنون من التسلل وهي تفضي إلى المقصود من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

وبالجملة فكل من تولى لإصلاح جم^(٣) غير مختلفة استعدادهم، وليسوا من الأمر على بصيرة ولا فيه على رغبة يضطر إلى تقدير وتوقيت وتعيين أوضاع وهيئات يجعلها العمدة في المطالبة والمؤاخذه.

إذا أراد الله بعثة الرسل أوحى إليهم أمره :
واعلم أن الله تعالى لما أراد ببعثة الرسل أن يخرج الناس من

(١) مؤنتهم : المؤنة والمؤونة هو القوت الذي يختزنه الزراع وسواهم.
(٢) ثلثة : : خلل.
(٣) الجم : الكثير من كل شيء.

الظلمات إلى النور، فأوحى إليهم أمره لذلك، وألقى عليهم نوره، ونفث^(١) فيهم الرغبة في إصلاح العالم، وكان اهتداء القوم يومئذ لا يتحقق إلا بأمور ومقدمات وجب في حكمة الله أن يلتوي^(٢) جميع ذلك في إرادة بعثهم، وأن يكون افتراض طاعة الرسل وانقيادهم منفسحاً إلى افتراض مقدمات الإصلاح، وكل ما لا يتم في العقل أو العادة إلا به فإنه جملة يجر بعضها بعضاً، والله لا يخفى عليه خافية، وليس في دين الله جزاف^(٣)، فلا يعين شيء دون نظائره إلا بحكم وأسباب يعلمها الراسخون في العلم، ونحن نريد أن ننبه على جملة صالحة من تلك الحكم والأسباب، والله أعلم.

باب أسباب نزول الشرائع الخاصة بعصر دون عصر وقوم دون قوم

نزول شريعة في عصر وقوم مخصوصين :

والأصل فيه قوله تعالى : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

سبب تحريم لحم الإبل على بني إسرائيل :

تفسيرها أن يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً، فنذر لئن عافاه الله ليحرمنّ على نفسه أحب الطعام والشراب إليه، فلما عوفي حرم على نفسه لحمان الإبل وألبانها، واقتدى به بنوه في تحريمها، ومضى على ذلك

(١) نفث: ألقى في قلوبهم.

(٢) يلتوي: يتضمن.

(٣) جزاف: جازف في كلامه تكلم من غير تعقل وتبصر، وكل ما كان بغير قاعدة ولا تعقل فهو جزاف.

(٤) سورة آل عمران/ الآية ٩٣ . كان حلالاً - كان مباحاً - إسرائيل: يعقوب عليه السلام.

القرون حتى أضمرُوا في نفوسهم التفريط في حق الأنبياء إن خالفوهم بأكلها، فنزل التوراة بالتحريم، ولما بين النبي ﷺ أنه على ملة إبراهيم قالت اليهود كيف يكون على ملته وهو يأكل لحوم الإبل والبانها، فرد الله تعالى عليهم أن كل الطعام كان حلالاً في الأصل وإنما حرمت الإبل لعارض لحق باليهود، فلما ظهرت النبوة في بني إسماعيل وهم برآء من ذلك العارض لم يجب رعايته.

خشية النبي أن تتحول السنة إلى فرض:

وقول النبي ﷺ في صلاة التراويح: «ما زال بكم الذي رأيت من صنعكم حتى خشيت أن يكتب عليكم، ولو كتب عليكم ما قمتم به، فصلوها أيها الناس في بيوتكم» فكبحهم^(١) النبي ﷺ عن جعلها شائعاً ذائعاً بينهم لثلاث تصير من شعائر الدين، فيعتقدوا تركها تفريطاً^(٢) في جنب الله، فتفرض عليهم.

وقوله ﷺ: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء، فحرم لأجل مسأله».

وقوله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها^(٣) وصاعها^(٤) مثل ما دعا إبراهيم لمكة».

وقوله ﷺ لمن سأله عن الحج: «أهو في كل عام لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لم تقوموا بها، ولو لم تقوموا بها عذبتم».

(١) كبح: كبحه عن الحاجة منه ورده عنها.

(٢) تفريطاً: تقصيراً.

(٣) المد نوع من المكابيل. والمد يساوي نصف كيلوغرام قمحاً تقريباً.

(٤) الصاع: أربعة أمداد أو ما يساوي ٢ كيلوغرام قمحاً تقريباً.

اختلفت شرائع الأنبياء لأسباب ومصالح :

واعلم أنه إنما اختلفت شرائع الأنبياء عليهم السلام لأسباب ومصالح ، وذلك أن شعائر الله إنما كانت شعائر لمعدات وأن المقادير يلاحظ في شرعها حال المكلفين وعاداتهم .

فلما كانت أمزجة قوم نوح عليه السلام في غاية القوة والشدة كما نبه عليه الحق تعالى - استوجبوا أن يؤمروا بدوام الصيام ؛ ليقاوم سورة بهيميتهم ، ولما كانت أمزجة هذه الأمة ضعيفة نُهوا عن ذلك ، وكذلك لم يجعل الله تعالى الغنائم حلالاً للأولين ، وأحلها لنا لما رأى ضعفنا ، وأن مراد الأنبياء عليهم السلام إصلاح ما عندهم من الارتفاقات ، فلا يعدل عنها إلى ما يباين المؤلف إلا ما شاء الله ، وأن مظان المصالح تختلف باختلاف الأعصار والعادات ، ولذلك صح وقوع النسخ ، وإنما مثله كمثله الطيب يعمد إلى حفظ المزاج المعتدل في جميع الأحوال ، فتختلف أحكامه باختلاف الأشخاص والزمان ، فيأمر الشاب بما لا يأمر به الشائب ، ويأمر في الصيف بالنوم في الجو لما يرى أن الجو مظنة الاعتدال حينئذٍ ، ويأمر في الشتاء بالنوم داخل البيت لما يرى أنه مظنة البرد حينئذٍ .

من عرف أصل الدين وأسباب الاختلاف لم يجد تغييراً ولا تبديلاً :

فمن عرف أصل الدين وأسباب اختلاف المناهج لم يكن عنده تغيير ولا تبديل ، ولذلك نسبت الشرائع إلى أقوامها ، ورجعت اللائمة إليهم حين استوجبوا بها بما عندهم من الاستعداد ، وسألوها جهد سؤالهم بلسان الحال ، وهو قوله تعالى : ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (١) .

(١) سورة المؤمنون/ الآية ٥٣ ، أمرهم : دينهم - زبراً : أحزاباً - كل حزب بما لديهم من الدين مسرورون .

ولذلك ظهر فضل أمة نبينا ﷺ حين استحقوا تعيين الجمعة لكونهم أميين برآء^(١) من العلوم المكتسبة^(٢)، واستحقت اليهود السبت لاعتقادهم أنه يوم فرغ الله فيه من الخلق وأنه أحسن شيء لأداء العبادة مع أن الكل بأمر الله ووحيه، ومثل الشرائع في ذلك كمثّل العزيمة^(٣) يؤمرون بها أولاً، ثم يكون هنالك أعداء وحرَج، فتشريع لهم الرخص^(٤) لمعنى يرجع إليهم فربما توجه بذلك بعض اللائمة إليهم لكونهم استوجبوا ذلك بما عندهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٥).

وقال النبي ﷺ: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب^(٦) الرجل الحازم من إحدائكن» وبين نقصان دينهن بقوله: «أرأيت أنها إذا حاضت لم تصل، ولم تصم».

أسباب نزول المناهج في صورة خاصة:

واعلم أن أسباب نزول المناهج في صورة خاصة كثيرة لكنها ترجع إلى نوعين:

أحدهما: كالأمر الطبيعي الموجب لتكليفهم بتلك الأحكام، فكما أن لأفراد الإنسان جميعها طبيعة وأحوالاً ورثتها من النوع توجب تكليفهم بأحكام.

وكما أن الأكمة^(٧) لا يكون في خزانة خياله الألوان والصور، وإنما

(١) برآء: جمع بريء.

(٢) العلوم المكتسبة: العلوم التي يكتسبها المرء بالتعليم.

(٣) العزيمة: الواجب المأمور به.

(٤) الرخص: جمع رخصة وهي ضد العزيمة والمراد الإجازات والإباحات.

(٥) سورة الرعد/ الآية ١١ - أي أن الله لا يسلب نعمه حتى يغير الناس حالة الطاعة إلى المعصية.

(٦) اللب: العقل.

(٧) الأكمة: الأعمى.

هنالك الألفاظ والملموسات ونحو ذلك، فإذا تلقى من الغيب علماً في رؤيا أو واقعة أو نحو ذلك، فإنما يتشبح علمه في صورة ما اختزنه خياله دون غيره.

وكما أن العربي الذي لا يعرف غير لغة العرب إذا تمثل له علم في نشأة اللفظ، فإنما يتمثل له في لغة العرب دون غيرها.

وكما أن البلاد التي يوجد فيها الفيل وغيره من الحيوانات سيئة المنظر يترأى لأهلها إمام الجن وتخويف الشياطين في صورة تلك الحيوانات دون غير تلك البلاد، والتي يعظم فيها بعض الأشياء، ويوجد فيها بعض الطيبات من الأطعمة والألبسة - تترأى لأهلها النعمة وانبساط الملائكة في تلك الصور دون غير تلك البلاد.

وكما أن العربي المتوجه إلى شيء ليفعله أو طريق ليسلكه إذا سمع لفظه راشد أو نجيح كان دليلاً على حسن ما يستقبله دون غير العربي وقد جاءت السنة ببعض هذا النوع - فكذلك يعتبر في الشرائع علوم مخزونة في القوم واعتقادات كامنة فيهم وعادات تتجاري فيهم كما يتجاري الكلب^(١).

الطيب والخبيث في الإسلام كان مفوضاً إلى عادات العرب:

ولذلك نزل تحريم لحوم الإبل وألبانها على بني إسرائيل دون بني إسماعيل، ولذلك كان الطيب والخبيث في المطاعم مفوضاً إلى عادات العرب، ولذلك حرمت بنات الأخت علينا دون اليهود، فإنهم كانوا يعدونها من قوم أبيها لا مخالطة بينهم وبينها، ولا ارتباط، ولا اصطحاب، فهي كالأجنبية بخلاف العرب.

(١) هو بالتحريك داء يعرض من عض الكلب فيصيبه شبه جنون فلا يعرض أحداً إلا كلب ويعرض له أعراض رديئة ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً، وقوله: تتجاري أي تترتب في بواطنهم وتؤثر فيها.

ولذلك كان طبخ العجل في لبن أمه حراماً عليهم دوننا، فإن علم كون ذلك تغييراً لخلق الله ومصادمة لتدبير الله حيث صرف ما خلقه الله لنشء العجل ونموه إلى فك بنيته وحل تركيبه كان راسخاً في اليهود متجارياً فيهم.

وكان العرب أبعد خلق الله عن هذا العلم حتى لو ألقى عليهم لما فهموه، ولما أدركوا المناط^(١) المناسب للحكم، والمعتبر في نزول الشرائع ليس العلوم والحالات والعقائد المتمثلة في صدورهم فقط، بل أعظمها اعتباراً، وأولها اعتداداً ما نشأوا عليه واندفعت عقولهم إليه من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، كما ترى ذلك في علاقات تمثل شيء بصورة غيره كتمثل منع الناس عن السحور في صورة الختم على الأفواه، فإن الختم شبح المنع عند القوم استحضروه أم لا.

حق الله على عبادة أن يعظموه :

وحق الله على عباده في الأصل أن يعظموه غاية التعظيم، ولا يقدموا على مخالفة أمره بوجه من الوجوه، والواجب فيما بين الناس أن يقيموا مصلحة التأليف والتعاون، ولا يؤذي أحد أحداً إلا إذا أمر به الرأي الكلي ونحو ذلك.

ولذلك كان الذي وقع على امرأة يعلم أنها أجنبية - قد أرخى^(٢) بينه وبين الله حجاباً، وكتب ذلك من اجترائه^(٣) على الله، وإن كانت امرأته في الحقيقة لأنه أقدم على مخالفة أمر الله وحكمه.

(١) المناط : ناط ينوط نوطاً ونياطاً علقه - والمناط السبب المتعلق.

(٢) أرخى الحجاب : أسدله وأنزله. (٣) اجترائه على الله : جرأته عليه سبحانه.

والذي وقع على أجنبية وهو يعلم أنها امرأته لا يالو^(١) في ذلك معذوراً فيما بينه وبين الله .

وكان الذي نذر الصوم مأخوذاً بنذره دون من لم ينذر .

وكان من تشدد في الدين شدد عليه ، وكانت لطمة اليتيم للتأديب حسنة ، وللتعذيب سيئة ، وكان المخطىء والناسي معفوفاً عنهما في كثير من الأحكام ، فهذا الأصل يتلقاه علوم القوم وعاداتهم الكامنة منها والبارزة ، فيتشخص الشرائع في حقهم حسب ذلك .

كثير من العادات والعلوم الكامنة يتفق فيها العرب والعجم :

واعلم أن كثيراً من العادات والعلوم الكامنة يتفق فيها العرب والعجم وجميع سكان الأقاليم المعتدلة وأهل الأمزجة القابلة للأخلاق الفاضلة . كالحزن لميتهم واستحباب الرفق به . وكالفخر بالأحساب والأنساب . وكالنوم إذا مضى ربع الليل أو ثلثه . أو نحو ذلك . والاستيقاظ في تباشير^(٢) الصبح إلى غير ذلك مما أومأنا إليه في الارتفاقات . فتلك العادات والعلوم أحق الأشياء بالاعتبار ثم بعدها عادات وعقائد تختص بالمبعوث إليهم . فتعتبر تلك أيضاً وقد جعل الله لكل شيء قدراً .

النبوة الجديدة لا تغير إلا ما دخله التحريف :

واعلم أن النبوة كثيراً ما تكون من تحت الملة كما قال الله تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٣) . وكما قال : ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾^(٤) .

وسر ذلك أنه تنشأ قرون كثيرة على التدين بدين . وعلى تعظيم

(٢) تباشير: أوائل .

(١) لا يالو: لا يصر .

(٣) سورة الحج / الآية ٧٨ .

(٤) سورة الصافات / الآية ٨٣ - أي إن ممن تابعه في أصل الدين إبراهيم فقد طال الزمان بين التابع والمتبوع .

شعائره. وتصير أحكامه من المشهورات الذائعة اللاحقة بالبديهيّات الأولية^(١) التي لا تكاد تنكر. فتجيء نبوة أخرى لإقامة ما اعوجّ منها؛ وصلاح ما فسد منها بعد اختلاط رواية نبيها، فتفتش عن الأحكام المشهورة عندهم، فما كان صحيحاً موافقاً لقواعد السياسة الملية لا تغيره، بل تدعو إليه، وتحت عليه، وما كان سقيماً قد دخله التحريف، فإنها تغيره بقدر الحاجة، وما كان حرياً أن يزداد، فإنها تزيده على ما كان عندهم، وكثيراً ما يستدل هذا النبي في مطالبه بما بقي عندهم من الشريعة الأولى، فيقال عند ذلك هذا النبي في ملة فلان النبي أو من شيعته، وكثيراً ما تختلف النبوات لاختلاف الملل النازلة تلك النبوة فيها.

اختلاف المناهج لسبب طارئ عارض:

والنوع الثاني^(٢): بمنزلة طارئ عارض، وذلك أن الله تعالى وإن كان متعالياً عن الزمان، فله ارتباط بوجه من الوجوه بالزمان والزمانيات، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله يقضي بعد كل مائة بحادثة عظيمة من الحوادث، وأخبر آدم وغيره من الأنبياء عليهم السلام في حديث الشفاعة بشيء من هذا الباب حيث قال كل واحد منهم: «إن ربي تبارك وتعالى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله».

فإذا تهيأ العالم لإفاضة الشرائع وتعيين الحدود، وتجلّى الحق منزلاً عليهم الدين، وامتلاً الملاء الأعلى بهمة قوية حسب ذلك يكون حينئذ أدنى سبب من الأسباب الطارئة كافياً في قرع باب الجود، ومن دق باب الكريم انفتح.

(١) البديهيّات الأولية: الأمور المسلمة التي لا تحتاج إلى إثبات وحجة.

(٢) من أسباب نزول المناهج في صورة خاصة.

دعاء النبي سبب لنزول القضاء :

ولك عبرة بفصل الربيع يؤثر فيه أدنى شيء من الغرس والبذر ما لا يؤثر في غيره أضعاف ذلك، وهمة النبي ﷺ، واستشرافه^(١) للشيء، ودعوته له، واشتياقه إليه، وطلبه إياه سبب قوي لنزول القضاء في ذلك الباب، وإذا كانت دعوته تحيي السنة الشهباء^(٢)، وتغلب فئة عظيمة من الناس، وتزيد الطعام والشراب زيادة محسوسة، فما ظنك في نزول الحكم الذي هو روح لطيف إنما يتعين بوجود مثالي .

سؤال النبي لربه سبب لنزول الأحكام :

وعلى هذا الأصل ينبغي أن يخرج أن حدوث حادثة عظيمة فخيمة في ذلك الزمان يفرع لها النبي ﷺ، كقصة الإفك، وسؤال سائل يراجع النبي ﷺ ويحاوره فيهم له ﷺ كقصة الظهر يكون سبباً لنزول الأحكام، وأن يكشف عليه فيها جليلة الحال، وأن استبطاء القوم عن الطاعة وتبليدهم عن الانقياد، وإخلادهم عن العصيان، وكذا رغبتهم في شيء، وعضهم عليه بالنواجذ، واعتقادهم التفريط في جنب الله عند تركه - يكون سبباً لأن يثدد عليهم بالوجوب الأكيد والتحريم الشديد .

ومثل ذلك كله في استمطار الجود كمثّل الإنسان الصالح قوي الهمة يتوخى^(٣) ساعة انتشار الروحانية وقوة السعادة، فيسأل الله فيها بجهد همته، فلا تتراخى إجابته، وإلى هذه المعاني وقعت الإشارة في قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾^(٤) .

(١) استشرافه للشيء : تطلعه إليه . (٢) السنة الشهباء : السنة المعجبة .

(٣) يتوخى : يقصد .

(٤) سورة المائدة/ الآية ١٠١ - إن تبد لكم : إن تظهر لكم - تسؤمكم : أي تسؤمكم لما فيها من المشقة .

وأصل المرضي أن يقل هذا النوع من أسباب نزول الشرائع لأنه يعد
 لنزول ما يغلب فيه حكم المصلحة الخاصة بذلك الوقت، فكثيراً ما كان
 تضييقاً على الذين يأتون من بعد، ولذلك كان النبي ﷺ يكره المسائل،
 وكان يقول: «ذروني»^(١) ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم
 واختلافهم على أنبيائهم».

وقال: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً»^(٢) من سأل شيئاً
 فحرم لأجل مسأله».

وجاء في الخبر: «أن بني إسرائيل لو ذبحوا أي بقرة شاءوا كفت
 عنهم لكن شددوا فشدد عليهم» والله أعلم.

باب أسباب المؤاخذه على المناهج

هل يترتب الثواب والعذاب على المناهج؟:

لنبحث عن المناهج والشرائع التي ضربها الله تعالى لعباده هل
 يترتب الثواب والعذاب عليها كما يترتب على أصول البر والإثم،
 أو لا يترتب إلا على ما جعلت مظنات وأشباحاً وقوالب له؟

فمن ترك صلاة وقت من الأوقات، وقلبه مطمئن بالإخبات^(٣)، هل
 يعذب بتركها؟

ومن صلى صلاة، وأدى الأركان والشروط حسبما يخرج عن
 العهدة، ولم يرجع بشيء من الإخبات، ولم يدخل ذلك في صميم قلبه
 هل يثاب على فعلها؟

(١) ذروني: اتركوني.

(٢) جرماً: ذنباً.

(٣) الاخبات: الخضوع والخشوع لله تعالى.

وليس الكلام في كون معصية المناهج مفسدة عظيمة من جهة كونها قدحاً^(١) في السنة الراشدة، وفتحاً لباب الإثم، وغشاً بالنسبة إلى جماعة المسلمين، وضرراً للحي والمدينة والإقليم بمنزلة سيل سد مجراه لمصلحة المدينة، فجاء رجل، ونقب^(٢) السد، ونجا بنفسه، وأهلك أهل مدينته، ولكن الكلام فيما يرجع إلى نفسه من إحاطة السيئات بها أو إحاطة الحسنات.

هناك خلاف في ترتب الثواب والعقاب:

فذهب أهل الملل قاطبة إلى أنها توجب الثواب والعذاب بنفسها، فالمحققون منهم والراسخون^(٣) في العلم والحواريون من أصحاب الأنبياء عليهم السلام يدركون مع ذلك وجه المناسبة والارتباط لتلك الأشباح والقوالب بأصولها وأرواحها، وعامة حملة الدين.

ووعاة الشرائع يكتفون بالأول.

وذهب فلاسفة الإسلام إلى أن العذاب والثواب إنما يكونان على الصفات النفسانية والأخلاق المتشبهة بذيل الروح، وإنما ذكر قوالبها وأشباحها في الشرائع تفهيماً وتقريباً للمعاني الدقيقة إلى أذهان الناس، هذا تحرير المقام على مشرب القوم.

الحق ما ذهب إليه أهل الملل:

أقول: والحق ما ذهب إليه المحققون من أهل الملل - بيان ذلك أن الشرائع لها معدات وأسباب تشخصها، وترجع بعض احتمالاتها على بعض.

(١) قدحاً: ذمماً.

(٢) نقب: خرق.

(٣) الراسخون في العلم: الثابتون الأصليون فيه.

والحق يعلم أن القوم لا يستطيعون العمل بالدين إلا بتلك الشرائع
والمناهج، ويعلم أن هذه الأوضاع هي التي يليق أن تكون عليهم، فتندرج
في عناية الحق بالقوم أولاً، ثم لما تهيأ العالم لفيضان صور الشرائع وإيجاد
شخصها المثالية، فأوجدتها وأفاضها، وتقرر هنالك أمرها - كانت أصلاً
من الأصول.

ألهم الله الملا الأعلى أن المظنات قائمة مقام الأصول:

ثم لما فتح الله على الملا الأعلى هذا العلم، وألهمهم أن المظنات
قائمة مقام الأصول، وأنها أشباحها وتمثيلها، وأنه لا يمكن تكليف القوم
إلا بتلك - حصل في حظيرة القدس إجماع ما على أنها هي بمنزلة اللفظ
بالنسبة إلى الحقيقة الموضوع لها، والصورة الذهنية بالنسبة إلى الحقيقة
الخارجية المنتزعة^(١) منها، والصورة التصويرية بالنسبة إلى من انتقشت
مكشافاً له، والصورة الخطية بالنسبة إلى الألفاظ الموضوعه هي لها، فإنه
في كل ذلك لما قويت العلاقة بين الدال والمدلول، وحصل بينهما تلازم
وتعاقب أجمع في حيز ما من الأحياز أنه هو، ثم ترشح شبح هذا العلم
أو حقيقته في مدركات بني آدم عربهم وعجمهم، فاتفقوا عليه، فلن ترى
أحداً إلا ويضمّر في نفسه شعبة من ذلك، وربما سميناه وجوداً شبيهاً
للمدلول، وربما كان لهذا الوجود آثار عجيبة لا تخفى على المتبع، وقد
روعي في الشرائع بعض ذلك، ولذلك جعلت الصدقة من أوساخ
المتصدقين، وسرت شناعة^(٢) العمل في الأجرة.

لما بعث الله النبي أيده بروح القدس:

ثم لما بعث النبي ﷺ، وأيد بروح القدس^(٣)، ونفث في روعه^(٤)

(١) المنتزعة منها: المأخوذة منها.

(٢) شناعة: قبح.

(٣) روح القدس: جبريل عليه السلام.

(٤) الروع: الخاطر والقلب.

إصلاح القوم، وفتح لجوهر روحه فج (١) واسع إلى الهمة القوية في باب نزول الشرائع وصدور الشخوص المثالية، فعزم على ذلك أقصى عزمته، ودعا للموافقين، ولعن على المخالفين بجهد همته، وأن همهم تخترق السبع الطباق (٢)، وأنهم يستسقون، وما هنالك قزعة (٣) سحاب، فتنشأ أمثال الجبال في الحال وأنهم يدعون، فيحى الموتى بدعوتهم - تأكد انعقاد الرضا والسخط في حظيرة القدس، وهو قوله ﷺ: «إن إبراهيم نبيك وعبدك دعا لمكة وأنا أدعو للمدينة» الحديث.

الملا الأعلى يؤيد النبي فيما يأمر وينهى:

ثم إن هذا العبد إذا علم أن الله تعالى أمره بكذا وكذا، وأن الملا الأعلى يؤيد النبي ﷺ فيما يأمر، وينهى، وعلم أن إهمال هذا والإقدام على ذلك اجترأ على الله وتفريط في جنب الله (٤)، ثم أقدم على العمل عن قصد وعمد، وهو يرى ويبصر - فإن ذلك لا يكون إلا لغاشية عظيمة من الحجب وانكسار تام للملكية، وذلك يوجب قيام خطيئة بالنفس، وإذا أقدم على عمل شاق تنجم (٥) عنه طبيعته لا لمراعاة الناس، بل تقرباً من الله وحفظاً على مرضياته، فإن ذلك لا يكون إلا لغاشية عظيمة من الإحسان وانكسار تام للبهيمية، وذلك يوجب قيام حسنة بالنفس.

أما من ترك صلاة وقت من الأوقات، فيجب أن يبحث عنه لِمَ تركها؟ وأي شيء حمله على ذلك؟ فإن نسيها، أو نام عنها، أو جهل وجوبها، أو شغل عنها بما لا يجد منه بدأ، فنص الملة أنه ليس بآثم، وإن تركها

(١) فج: شق، طريق.

(٢) السبع الطباق: أي السماوات السبع.

(٣) قزعة: قطعة من غيم، وجمع قزعة قزع.

(٤) تنجم: تنتج.

(٥) في جنب الله: في حق الله.

وهو يعلم، ويتذكر، وأمره بيده، فإن ذلك لا يكون لا محالة إلا من حزازة^(١) في دينه، وغاشية شيطانية أو نفسانية غشيت بصيرته، وهو يرجع إلى نفسه. وأما من صلى صلاة، وخرج عن عهدة ما وجب عليه، فيجب أن يبحث عنه.

أيضاً إن فعلها رياءً وسمعةً أو جريئاً على عادة قومه أو عبثاً - فنصر الملة أنه ليس بمطيع، ولا يعتد بفعله ذلك.

وإن فعلها تقرباً من الله، وأقدم عليها إيماناً واحتساباً^(٢) وتصديقاً بالموعود، واستحضر النية وأخلص دينه لله - فلا جرم^(٣) أنه فتح بينه وبين الله باب، ولو كرأس إبرة.

وأما من أهلك المدينة، ونجا بنفسه فلا نسلم أنه نجا بنفسه، كيف وهنالك لله ملائكة أقصى همتهم الدعاء لمن يسعى في إصلاح العالم، وعلى من سعى في إفساده، وأن دعوتهم تفرع باب الجود، ويكون سبباً لنزول الجزاء بوجه من الوجوه، بل هنالك لله تعالى عناية بالناس توجب ذلك، ولدقة مدركها جعلنا دعوة الملائكة عنواناً لها، والله أعلم.

باب أسرار الحكم والعلة

رضى الله عن أفعال العباد أو سخطه عليها هو الحكم:

اعلم أن للعباد أفعالاً يرضى لأجلها رب العالمين عنهم، وأفعالاً يسخط^(٤) لأجلها عليهم، وأفعالاً لا تقتضي رضا ولا سخطاً، فاقضت حكمته البالغة ورحمته التامة أن يبعث إليهم الأنبياء، ويخبرهم على

(١) وأصله وجع في القلب من غيظ ونحوه.

(٢) احتساباً: طلباً لثواب الله.

(٣) لا جرم: لا بد، لا محالة.

(٤) يسخط: يغضب.

ألستهم بتعلق الرضا والسخط بتلك الأفعال، ويطلب منهم الفصل^(١) الأول، وينهى عن الثاني، ويخيرهم فيما سوى ذلك: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ﴾^(٢).

فتعلق الرضا والسخط بالفعل، وكونه غفلاً منهما، وكون الشيء بحيث يطلب منهم، وينهون عنه، ويخبرون فيه أياً ما شئت، فقل هو الحكم.

طلب الله من عباده الفعل أو الترك يقتضي الثواب والعقاب:

والطلب منه مؤكد يقتضي الرضا والثواب على فعل المطلوب، والسخط والعقاب على تركه، ومنه غير مؤكد يقتضي الرضا والثواب على فعل المطلوب دون السخط والعقاب على تركه.

وكذلك النهي منه مؤكد يقتضي الرضا والثواب على الكف منه لأجل النهي، ويقتضي السخط والعقاب على فعل المنهي عنه، ومنه غير مؤكد يقتضي الرضا والثواب على الكف عنه لأجل النهي دون السخط والعقاب على فعله واعتبر بما عندك من ألفاظ الطلب والمنع وبمحاورات الناس في ذلك، فإنك ستجد تثنية كل قسم من جهة سريان الرضا والسخط في ضد المنطوق أولاً أمراً طبيعياً لا محيص عنه.

الأحكام خمسة:

فالأحكام خمسة: إيجاب، وندب، وإباحة، وكراهية، وتحريم، والذي يؤتى به في مخاطبة الناس لا يمكن أن يكون حال كل فعل على حدته من أفعال المكلفين لعدم انحصارها، ولعدم استطاعة الناس الاحاطة

(١) هكذا وجد اللفظ بالنسخة المطبوعة بالمطبعة الأميرية ولعله محرف عن الفعل.

(٢) سورة الأنفال / آية ٤٢ - ليهلك من هلك عن بينة: أي ليكفر من كفر بعد حجة ظاهرة قامت عليه: ويحيى من حي عن بينة: أي يؤمن من آمن عن بينة وحجة ظاهرة.

بعلمها، فوجب إذاً أن يكون ما يخاطبون به قضايا كلية معنونة بوحدة تنظم كثرة، ليحيطوا بها علماً، فيعرفوا منها حال أفعالهم، ولك عبرة بالصناعات الكلية التي جعلت لتكون قانوناً في الأمور الخاصة. يقول النحوي: الفاعل مرفوع فيعي مقالته السامع، فيعرف بها حال زيد في قولنا قام زيد، وعمر في قولنا قعد عمر، وهلم جراً.

الوحدة التي يدور الحكم على دورانها:
وتلك الوحدة التي تنظم كثرة هي العلة التي يدور الحكم على دورانها وهي قسمان:

أولاً - قسم يعتبر حالة المكلفين :

قسم يعتبر فيها حالة توجد في المكلفين، ولا يمكن أن تكون حالة دائمة لا تنفك عنهم، فيكون مضمون الخطاب تكليفهم بالأمر دائماً إذ لا يستطيعون ذلك اللهم إلا في الإيمان خاصة فلا جرم أن تعتبر حالة مركبة من صفة لازمة في المكلف بها يصح كونه مخاطباً وهيئة طارئة تنوبه مرة بعد مرة، وأكثر ما يكون هذا القسم في العبادات.

والهيئة إما وقت أو استطاعة ميسرة أو مظنة حرج، أو إرادة شيء، ونحو ذلك كقول الشرع: «من أدرك وقت الصلاة وهو عاقل بالغ وجب عليه أن يصلّيها، ومن شهد الشهر، وهو عاقل بالغ مطبق وجب عليه أن يصومه، ومن ملك نصاباً^(١)، وحال عليه الحول^(٢) وجب أن يركبه، ومن كان على سفر جاز له القصر^(٣) والإفطار، ومن أراد الصلاة، وكان محدثاً وجب عليه

(١) نصاباً: النصاب هو المقدار الذي إذا ملكه المسلم وجب عليه أن يزكّيه وقد يكون النصاب في المال أو في الغنم أو الإبل وهكذا....

(٢) الحول: السنة.

(٣) القصر: يقصر الصلاة الرباعية بحيث تصبح ثنائية الركعات.

الوضوء» وفي مثل هذا ربما تسقط الصفات المعتبرة في أكثر الأوامر، وتخص الصفة التي بها امتاز بعضها من البعض، فيسامح بتسميتها علة، فيقال علة الصلاة إدراك الوقت، وعلة الصوم شهود الشهر، وربما يجعل الشارع لبعض تلك الأوصاف دون بعض أثراً، كما جوز تعجيل الزكاة لسنة أو سنتين لمن ملك النصاب دون من لم يملكه، فيعطي الفقيه كل ذي حق حقه، فيخص بعضها بسبب والآخر بالشرط.

ثانياً - قسم يعتبر حال ما يقع عليه الفعل أو يلابسه :

وقسم يعتبر فيه حال ما يقع عليه الفعل أو يلابسه، وهي إما صفة لازمة له كقول الشارع: يحرم شرب الخمر، ويحرم أكل الخنزير، ويحرم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، ويحرم نكاح الأمهات أو صفة طارئة تنوبه كقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾^(٢).

وربما يجمع بين اثنين فصاعداً من أحوال ما يقع عليه الفعل، كقول الشارع: يجب رجم الزاني المحصن^(٣)، وجلد زان غير محصن، وربما يجمع بين حال المكلف وحال ما يقع عليه الفعل، كقول الشارع: يحرم الذهب والحرير على رجال الأمة دون نساها.

لا يتعلق الرضا والسخط بالأفعال إلا بسبب:

وليس في دين الله جزاف، فلا يتعلق الرضا والسخط بتلك الأفعال إلا بسبب، وذلك أن ههنا شخوصاً يتعلق بها الرضا والسخط في الحقيقة

(١) سورة المائدة/ الآية ٣٨، فاقطعوا أيديهما: أي يمين كل منهما.

(٢) سورة النور/ الآية ٢ - الزانية والزاني: أي غير المحصنين.

(٣) المحصن: من سبق له الزواج.

وهي نوعان: أحدهما البر والإثم والارتفاقات وإضاعتهما وما يحدو حدو ذلك.

وثانيهما: ما يتعلق بالشرائع والمناهج من سد باب التحريف والاحتراز من التسلل ونحو ذلك، ولها محال ولوازم يتعلقان بها بالغرض، وينسبان^(١) إليها توسعاً.

نظيره ما يقال من أن علة الشفاء تناول الدواء، وإنما العلة في الحقيقة نضج الأخلاط أو إخراجها وهوشيء يعقب الدواء في العادة، وليس هو هو.

ويقال علة الحمى قد تكون الجلوس في الشمس، وقد تكون الحركة المتعبة، وقد تكون تناول غذاء حار، والعلة في الحقيقة سخونة الأخلاط، وهي واحدة في ذاتها ولكنها طرق إليها وأشباح لها.

وكان الاكتفاء بالأصول وترك اعتبار تعدد الطرق والمحال لسان المتعمقين في الفنون النظرية دون العامة، وإنما نزل الشرع بلسان الجمهور.

يجب أن تكون علة الحكم صفة يعرفها الجمهور:

ويجب أن تكون علة الحكم صفة يعرفها الجمهور ولا تخفى عليهم حقيقتها ولا وجودها من عدمها، ويكون مظنة لأصل من الأصول التي تعلق بها الرضا والسخط إما لكونها مفضية إليه، أو مجاورة له، ونحو ذلك كشراب الخمر فإنه مظنة لمفاسد يتعلق بها السخط من الإعراض عن الإحسان والإخلاق إلى الأرض وإفساد نظام المدينة والمنزل، وكان لازماً لها غالباً، فتوجه المنع إلى نوع الخمر.

(١) أي الرضا والسخط.

لم يخص للعلية إلا ما تميز:

وإذا كان لشيء لوازم وطرق لم يخص للعلية منها إلا ما تميز من سائر ما هنالك برجحان من جهة الظهور والانضباط أو من جهة لزوم الأصل أو نحو ذلك كرخصة القصر والإفطار - أديرت على السفر والمرض دون سائر مظنات الحرج؛ لأن الأكساب الشاقة كالفلاحة والحدادة وإن كان يلزمها الحرج لكنها مخلة بالطاعة لأن المكتسب بها يداوم عليها، ويتوقف عليها معاشه.

وأما وجود الحر والبرد فغير منضبط لأن لهما مراتب مختلفة يعسر إحصاؤها وتعيين شيء منها بإمارات وعلامات.

وإنما يعتبر عند السبر مظنات كانت في الأمة الأولى أكثرية معروفة، وكان السفر والمرض بحيث لا يشتبه عليهم الأمر فيهما، وإن كان اليوم بعض الاشتباه لانقراض العرب الأول وتعمق الناس في الاحتمالات حتى فسد ذوقهم السليم الذي يجده قح العرب^(١)، والله أعلم.

باب المصالح المقتضية لتعيين الفرائض والأركان والآداب

اعلم أنه يجب عند سياسة الأمة أن يجعل لكل شيء من الطاعات حدان: أعلى وأدنى فالأعلى هو ما يكون مفضياً^(٢) إلى المقصود منه على الوجه الأتم، والأدنى هو ما يكون مفضياً إلى جملة من المقصود ليس بعدها شيء يعتد به.

وذلك لأنه لا سبيل إلى أن يطلب منهم الشيء، ولا يبين لهم أجزاءه وصورته ومقدار المطلوب منه، فإنه ينافي^(٣) موضوع الشرع، ولا سبيل إلى

(١) قح العرب: العرب الخالص.

(٢) مفضياً: مؤدياً.

(٣) ينافي: يناقض.

أن يكلف الجميع بإقامة الآداب والمكملات لأنه بمنزلة التكليف بالمحال في حق المشتغلين أو المتعسر، وإنما بناء سياسة الأمة على الاقتصاد دون الاستقصاء، ولا سبيل إلى أن يهمل الأعلى، ويكتفي بالأدنى، فإنه مشرب السابقين وحظ المخلصين، وإهمال مثله لا يلائم اللطف، فلا محيص^(١) إذاً من أن يبين الأدنى، ويسجل على التكليف به، ويندب إلى ما يزيد عليه من غير إيجاب.

والذي يسجل على التكليف به ينقسم إلى مقدار مخصوص من الطاعة كالصلوات الخمس وصيام رمضان، وإلى أبعاض لها لا يعتد بها بدونها كالتكبير وكقراءة فاتحة الكتاب للصلاة وتسمى بالأركان، وأمور خارجة منها لا يعتد بها بدونها وتسمى بالشروط كالوضوء للصلاة.

يجعل الشيء ركناً بسبب:

واعلم أن الشيء قد يجعل ركناً بسبب يشبه المذهب الطبيعي، وقد يجعل بسبب طارئ.

فالأول: أن تكون الطاعة لا تتقوم ولا تفيد فائدتها إلا به كالركوع والسجود في الصلاة والإمساك عن الأكل والشرب والجماع في الصوم، أو يكون ضبطاً لمبهم خفي لا بد منه فيها كالتكبير، فإنه ضبط للنية واستحضار لها، وكالفاتحة فإنها ضبط للدعاء، والسلام فإنه ضبط للخروج من الصلاة بفعل صالح لا ينافي الوقار والتعظيم.

والثاني: أن يكون واجباً بسبب آخر من الأسباب، فيجعل ركناً في الصلاة، لأنه يكملها، ويوفر الغرض منها، ويكون التوقيت بها أحسن توقيت كقراءة سورة من القرآن على مذهب من يجعلها ركناً، فإن القرآن من

(١) أي لا مفر. وقوله ويندب أي يدعى.

شعائر الله، يجب تعظيمه، وألا يترك ظهرياً^(١)، ولا أحسن في التوقيت من أن يؤمروا بها في أكد عباداتهم وأكثرها وجوداً وأشملها تكليفاً، أو يكون التمييز بين مشتبهين أو التفريق بين مقدمة الشيء والشيء المستقل - موقوفاً على شيء، فيجعل ركناً، ويؤمر به كالقومة بين الركوع والسجود بها يحصل الفرق بين الانحناء الذي هو مقدمة السجود، وبين الركوع الذي هو تعظيم برأسه، وكالإيجاب والقبول والشهود وحضور الولي ورضا المرأة في النكاح، فإن التمييز بين السفاح^(٢) والنكاح لا يحصل إلا بذلك، ويمكن أن يخرج بعض الأركان على الوجهين جميعاً.

يقاس الشرط بالركن :

وعلى ما ذكرنا في الركن ينبغي أن يقاس حال الشرط، فربما يكون الشيء واجباً بسبب من الأسباب، فيجعل شرطاً لبعض شعائر الدين تنويهاً^(٣) به، ولا يكون ذلك حتى تكون تلك الطاعة كاملة بانضمامه كاستقبال القبلة لما كانت الكعبة من شعائر الله ويجب تعظيمها، وكان من أعظم التعظيم أن تستقبل في أحسن حالاتهم، وكان الاستقبال إلى جهة خاصة هنالك بعض شعائر الله، منبهاً للمصلي على صفات الإخبات والخضوع، مذكراً له هيئة قيام العبيد بين أيدي ساداتهم جعل استقبال القبلة شرطاً في الصلاة.

اشتراط الهيئة مفيد في مواضع كثيرة :

وربما يكون الشيء لا يفيد فائدة بدون هيئة، فيشترط لصحته كالتنية،

(١) منسوب إلى الظهر بفتح الظاء، والمعنى أن القرآن لا ينبغي أن يجعل وراء الظهر ويعرض عنه ولا يبالي به.

(٢) السفاح: الزنا.

(٣) تنويهاً: نوه تنويهاً رفع ذكره ومدحه وعظمه وأشاد به.

فإن الأعمال إنما تؤثر لكونها أشباح هيئات نفسانية، والصلاة شبح الإخبات، ولا إخبات بدون النية، وكاستقبال القبلة أيضاً على تخريج آخر، فإن توجيه القلب لما كان خفياً نصب توجيه الوجه إلى الكعبة التي من شعائر الله مقامه، وكالوضوء وستر العورة وهجر الرجز^(١)، فإنه لما كان التعظيم أمراً خفياً نصبت الهيئات التي يؤخذ الإنسان بها نفسه عند الملوك وأشباههم، وبعدها تعظيماً، وصار ذلك كامناً^(٢) في قلوبهم، وأجمع عليه عربهم وعجمهم مقامه^(٣).

إذا فرض شيء من الطاعات يجب ملاحظة أمور:
وإذا عين شيء من الطاعات للفرضية فلا بد من ملاحظة أصول:

١ - لا يكلف إلا بالميسر:

منها ألا يكلف إلا بالميسر، وذلك قوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» وتفسيره ما جاء في رواية أخرى: «لولا أن أشق على أمتي لفرضت عليهم السواك عند كل صلاة كما فرضت عليهم الوضوء».

٢ - كتابة المقدار المتوجب:

ومنها أن الأمة إذا اعتقدت في مقدار أن تركه وإهماله تفريط في جنب الله، واطمأنت به نفوسهم إما لكونه مأثوراً^(٤) عن الأنبياء مجمعاً عليه من السلف أو نحو ذلك - كانت الحكمة أن يكتب ذلك المقدار عليهم كما استوجبوه، كتحریم لحوم الإبل وألبانها على بني إسرائيل وهو قوله ﷺ في قيام ليالي رمضان حتى: «خشيت أن يكتب عليكم».

(١) الرجز: الإثم والذنب. (٢) كامناً: متوارياً ومختفياً في الداخل.

(٣) مفعول ثانٍ للفعل نصب.

(٤) مأثوراً: المأثور هو المنقول قرناً بعد قرن عن السلف وعن النبي عليه السلام خاصة.

٣ - أن يكون التكليف ظاهراً منضبطاً:

ومنها: ألا يسجل على التكليف بشيء حتى يكون ظاهراً منضبطاً لا يخفى عليهم، فلذلك لا يجعل من أركان الإسلام الحياء وسائر الأخلاق، وإن كانت من شعبه.

الحد الأعلى والأدنى للفريضة:

ثم الأدنى قد يختلف باختلاف حالي الرفاهية والشدة، فيجعل القيام ركناً للصلاة في حق المطيق، ويجعل القعود مكانه في حق غيره.

وأما الحد الأعلى فيزيد كمّاً وكيفاً: أما الكم فنوافل من جنس الفرائض، كسنن الرواتب وصلاة الليل وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وكالصدقات المندوبة ونحو ذلك، وأما كيف فهيات وأذكار وكف لا يلائم الطاعة يؤمر بها في الطاعة لتكامل، وتكون مفضية^(١) إلى المقصود منها على الوجه الأتم كتعهد المغابن^(٢) يؤمر به في الوضوء لتكامل النظافة، وكالابتداء باليمين يؤمر به لتكون النفس متنبهة على عظم أمر الطاعة، وتقبل عليها حين أخذت نفسها بما يفعل في الأعمال المهمة.

إذا أراد الإنسان أن يحصل خلقاً وجب عليه أمور:

واعلم أن الإنسان إذا أراد أن يحصل خلقاً من الأخلاق، وتنصبغ نفسه، ويحيط بها من جميع جوانبها، فحيلة ذلك أن يؤاخذ نفسه بما يناسب ذلك الخلق من فعل وهيات ولو في الأمور القليلة التي لا يعاب بها العامة:

(١) مفضية: مؤدية.

(٢) جمع مغبن من غبن الثوب إذا عطفه وهي معاطف الجلد ومكاسره التي تجمع فيها الوسخ والمراد بتعهدا غسلها.

كالمتمرن على الشجاعة يؤاخذ نفسه ألا ينحجم^(١) عن الخوض في
الوحد والمشي في الشمس والسرى^(٢) في الليلة الظلماء ونحو ذلك.

وكذلك المتمرن على الإخبات يحافظ على الآداب العظيمة كل
حال، فلا يجلس على الغائط إلا مطرقاً مستحيماً وإذا ذكر الله جمع أطرافه
ونحو ذلك.

والمتمرن على العدالة يجعل لكل شيء حقاً، فيجعل اليمين للأكل
والطيبات، واليسار لإزالة النجاسة، وهو سر ما قيل للنبي ﷺ في السواك
(كبر كبر)^(٣) وقوله ﷺ في قصة حويصة ومحبيصة^(٤): «كبر الكبر» فهذا
أصل أبواب من الآداب.

سر نسبة بعض الأعمال للشياطين:

واعلم أن سر قوله ﷺ: «إن الشيطان يأكل بشماله» ونحو ذلك من
نسبة بعض الأفعال إلى الشياطين - على ما فهمني ربي تبارك وتعالى - أن
الشياطين قد أقدرهم الله تعالى على أن يتشكلوا في رؤيا الناس ولأبصارهم
في اليقظة بأشكال تعطىها أمزجتهم وأحوال طارئة عليهم في وقت التشكل.

(١) ينحجم: أي يمتنع.

(٢) السرى: السفر ليلاً.

(٣) عن أبي عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أراني في المنام أستاذك بسواك فجاءني
رجلان أحدهما أكبر من الآخر فناولت الأصغر منهما فقبل لي كبر فدفعته إلى الأكبر
منهما» أخرجه الشيخان، قوله: (كبر) أي أعط الكبير لفضل السواك.

(٤) حويصة ومحبيصة - بضم الأول وتشديد الياء المكسورة - وقيل بتشديد الصاد مصغرتين ابنا
مسعود، والمعنى أنه لما قتل عبد الله بن سهل في خيبر ولم يدر قاتله جاء عبد الرحمن
أخو المقتول وابنا مسعود إلى النبي ﷺ فبدأ عبد الرحمن بالكلام وكان أصغر سنأ فقال له
النبي ﷺ (كبر الكبر) يعني قدم الأعظم في الكلام. وكبر: أمر من الكبير، والكبر:
- بضم الكاف وسكون الباء - أعظم القوم.

مزاج أهل الوجدان السليم :

وقد علم أهل الوجدان السليم أن مزاجهم يعطي التلبس^(١) بأفعال شنيعة وأفعال تميل إلى طيش^(٢) وضجر والتقرب من النجاسات والقسوة عن ذكر الله والإفساد لكل نظام مستحسن مطلوب .

وأعني بالأفعال الشنيعة ما إذا فعله الإنسان اشمازت قلوب الناس عنه واقشعرت جلودهم، وانطلقت ألسنتهم باللعن واللعن، ويكون ذلك كالمذهب الطبيعي لبني آدم تعطيه الصورة النوعية، ويستوي فيه طوائف الأمم لا للمحافظة على رسم قوم دون قوم أو ملة دون ملة، مثل أن يقبض على ذكره، ويشب، ويرقص، أو يدخل إصبعه في دبره، ويلطخ لحيته بالمخاط، أو يكون أجدع الأنف^(٣) والأذن مسخم الوجه^(٤)، أو ينكس^(٥) لباسه، فيجعل أعلى القميص أسفل، أو يركب دابة، فيجعل وجهه من قبل ذنبها، أو يلبس خفاً في رجل والرجل الأخرى حافية ونحو ذلك من الأفعال والهيئات المنكرة التي لا يراها أحد إلا لعن، ويسب، وشتم وقد شاهدت في بعض الواقعات الشياطين يفعلون بعض ذلك .

وأعني بأفعال الطيش مثل العبث بثوبه وبالحصي وتحريك الأطراف على وجه منكر .

كشف الله لنبيه الأفعال التي تعطيها أمزجة الشياطين :

وبالجملة قد كشف الله على نبيه ﷺ تلك الأفعال، وأنها تعطيها أمزجة الشياطين، فلا يتمثل الشيطان في رؤيا أحد أو يقظته إلا وهو يتلبس ببعضها، وأن المرضى في حق المؤمن أن يتباعد من الشياطين وهيئاتهم

(١) تلبس بالأمر: اختلط .

(٢) الطيش: الخفة .

(٣) أجدع الأنف: مقطوع الأنف .

(٤) مسخم الوجه: مسوده .

(٥) ينكس لباسه: يقلب لباسه .

بقدر الاستطاعة، فبين النبي ﷺ تلك الأفعال والهيئات، وكرهها، وأمر بالاحتراز عنها.

ومن هذا الباب قوله ﷺ: «إن هذه الحشوش^(١) محتضرة».

وقوله ﷺ: «إن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم وأنه يضحك إذا قال الإنسان هاه هاه^(٢)» وقس على ذلك الترغيب في هيئات الملائكة، وهو قوله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة» وهذا أصل آخر لأبواب من الآداب.

أسباب جعل الشيء فرضاً بالكفاية:

واعلم أن من أسباب جعل الشيء فرضاً بالكفاية أن يكون اجتماع الناس عليه بأجمعهم مفسداً لمعاشهم ومفضياً إلى إهمال ارتفاعاتهم، ولا يمكن تعيين بعض الناس له وتعيين آخرين لغيره، كالجهاد لو اجتمعوا عليه، وتركوا الفلاحة والتجارة والصناعات - لبطل معاشهم، ولا يمكن تعيين بعض الناس للجهاد وآخرين للتجارة وآخرين للفلاحة وآخرين للقضاء وتعليم العلم؛ فإن كل واحد يتيسر له ما لا يتيسر لغيره؛ ولا يعلم المستعد لشيء من ذلك بالأسامي والأصناف ليدار الحكم عليها.

ومنها^(٣) أن تكون المصلحة المقصودة به وجود نظام، ولا يلحق بتركه فساد حال النفس وغلبة البهيمية، كالقضاء، وتعليم علوم الدين، والقيام بالخلافة، فإنها شرعت للنظام، وتحصل بقيام رجل واحد بها

(١) الحشوش: جمع حش بالتثنية وهو البستان، والمراد مواضع قضاء الحاجة أي الكنف يحضرها الجن والشياطين لقصد الإيذاء فلهذا أمر بستر العورات والامتناع من التعرض لأبصار الناظر.

(٢) عند التأوب.

(٣) أي الأصول.

وكعبادة المريض والصلاة على الجنازة، فإن المقصود ألا تضيع المرضى والموتى، وتحصل بقيام البعض بها، والله أعلم.

باب أسرار الأوقات

لا تتم سياسة الأمة إلا بتعيين أوقات طاعاتها، والأصل في التعيين الحدس^(١) المعتمد على معرفة حال المكلفين واختيار ما لا يشق عليهم، وهو يكفي من المقصود، ومع ذلك ففيه حكم ومصالح يعلمها الراسخون في العلم، وهي ترجع إلى أصول ثلاثة:

هنالك أوقات أقرب لقبول الطاعات:

أحدها: أن الله تعالى وإن كان متعالياً عن الزمان لكن قد تظاهرت الآيات والأحاديث على أنه في بعض الأوقات يتقرب إلى عباده، وفي بعضها تعرض عليه الأعمال، وفي بعضها يقدر الحوادث إلى غير ذلك من الأحوال المتجددة، وإن كان لا يعلم كنه^(٢) حقيقتها إلا الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر» وقال: «إن أعمال العباد تعرض يوم الاثنين ويوم الخميس» وقال في ليلة النصف من شعبان: «إن الله ليطلع فيها» وفي رواية: «ينزل فيها إلى السماء الدنيا»^(٣) والأحاديث في هذا الباب كثيرة معلومة.

وبالجملة فمن ضروريات الدين أن هنالك أوقاتاً يحدث فيها شيء من انتشار الروحانية في الأرض وسريان قوة مثالية فيها، وليس وقت أقرب لقبول الطاعات واستجابة الدعوات من تلك الأوقات، ففي أدنى سعي حينئذٍ يفتح باب عظيم من انقياد البهيمية للملكية.

(١) الحدس: التخمين والظن.

(٢) كنه الشيء: جوهره وأصله وحقيقته.

(٣) وتعامه (فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب).

والملا الأعلى لا يعرفون انتشار تلك الروحانية وسريان تلك القوة بحساب الدورات الفلكية، بل بالذوق والوجدان، بأن ينطبع شيء في قلوبهم، فيعلموا أن هنالك قضاءً نازلاً وانتشاراً للروحانية ونحو ذلك، وهذا هو المعبر عنه في الحديث «بمنزلة سلسلة على صفوان»^(١).

والأنبياء عليهم السلام تنطبع تلك العلوم في قلوبهم من الملا الأعلى، فيدركونها بالوجدان دون حساب الدورات الفلكية، ثم يجتهدون في نصب مظنة لتلك الساعة، فيأمرون القوم بالمحافظة عليها.
من الأوقات ما يدور بدوران السنين:

فمن تلك الساعات ما يدور بدوران السنين، وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا﴾^(٢) ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾^(٣) وفيها تعينت روحانية القرآن في السماء الدنيا، واتفق أنها كانت في رمضان..

من الأوقات ما يدور بدوران الأسبوع:

ومنها ما يدور بدوران الأسبوع، وهي ساعة خفيفة ترجى فيها استجابة الدعاء وقبول الطاعات، وإذا انتقل الناس إلى المعاد كانت تلك هي ساعة تجلي الله عليهم وتقربه منهم. وقد بين النبي ﷺ أن مظنتها^(٤) يوم الجمعة واستدل على ذلك بأن الحوادث العظيمة وقعت فيه كخلق آدم

(١) يعني الصوت من ضرب أجنحة الملائكة كصوت السلسلة الحديدية المضروبة على الحجر الأملس.

(٢) أي نازلاً.

(٣) سورة الدخان/الآيتان: ٤ و٥. في ليلة مباركة: هي ليلة القدر أو ليلة النصف من شعبان - فيها يفرق: أي في ليلة القدر يفصل - كل أمر حكيم: محكم من الأرزاق والأجال وغيرهما.

(٤) مظنتها: زمان وقوعها.

عليه السلام^(١)، وبأن البهائم ربما تتلقى من الملائكة السافل علماءً بعظم تلك الساعة، فتصير دهشة مرعوبة كالذي هاله صوت عظيم، وأنه شاهد ذلك في يوم الجمعة.

الأوقات ما يدور بدوران اليوم:

ومنها ما يدور بدوران اليوم وتلك روحانية أضعف من الروحانيات الأخرى، وقد أجمعت أذواق من شأنهم التلقي من الملائكة الأعلى على أنها أربع ساعات قبيل طلوع الشمس، وبعيد استوائها، وبعد غروبها، وفي نصف الليل إلى السحر، ففي تلك الأوقات وقبلها بقليل وبعدها بقليل تنتشر الروحانية، وتظهر البركة.

وليست في الأرض ملة إلا وهي تعلم أن هذه الأوقات أقرب شيء من قبول الطاعات، لكن المجوس كانوا حرفوا الدين، فجعلوا يعبدون الشمس من دون الله، فسدّ النبي ﷺ مدخل التحريف، فغير تلك الأوقات إلى ما ليس ببعيد منها ولا مفوت لأصل الغرض.

لم تفرض الصلاة في الليل لما في ذلك من الحرج:

ولم يفرض عليهم الصلاة في نصف الليل لما في ذلك من الحرج، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه» وذلك كل ليلة، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أفضل الصلاة نصف الليل وقليل فاعله» وسئل أي الدعاء أسمع؟ قال: «جوف الليل» وقال في ساعة الزوال: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح» وقال: «ملائكة النهار تصعد إليه قبل ملائكة الليل وملائكة الليل تصعد إليه قبل ملائكة النهار» وقد أشار الله تعالى في محكم كتابه إلى

(١) وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة.

هذه المعاني حيث قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾^(١).

والنصوص في هذا الباب كثيرة معلومة وقد شاهدت منه أمراً عظيماً.

التوجه إلى الله في وقت خال من التشويشات الطبيعية:

الأصل الثاني: أن وقت التوجه إلى الله هو وقت كون الإنسان خالياً عن التشويشات الطبيعية، كالجوع المفرط والشبع المفرط، وغلبة النعاس، وظهور الكلال^(٢)، وكونه حاقباً حاقناً^(٣)، والخيالية كامتلاء السمع بالأراجيف^(٤) واللفظ، والبصر بالصور المختلفة والألوان المشوشة، ونحو ذلك من أنواع التشويشات، وذلك مختلف باختلاف العادات، لكن الذي يشبه أن يكون كالمذهب الطبيعي لعربهم وعجمهم ومشارقتهم ومغابرتهم، والذي يليق أن يتخذ دستوراً في النوميس الكلية، والذي يعد مخالفه كالشيء النادر - هو الغدوة^(٥) والدلجة^(٦)، والإنسان يحتاج إلى مَصْقَلَةٌ تزيل عنه الرّين بعد تمكنه من نفسه، وذلك إذا أوى إلى فراشه، ومال للنوم؛ ولذلك نهى ﷺ عن السمر^(٧) بعد العشاء وعن قرض الشعر بعده.

(١) سورة الروم: الآيتان ١٧ و ١٨ فسبحان الله: أي سبحوا الله وقد يكون المعنى فصلوا الله لأنه عين وقت التسبيح وهو (حين تمسون) أي حين تدخلون في المساء وفيه صلاتان المغرب والعشاء وحين تصبحون أي في الصباح وفيه صلاة الصبح وعشياً وفيه صلاة العصر وحين تظهرون: أي تدخلون في الظهيرة وفيه صلاة الظهر.

(٢) الكلال: التعب والإعياء.

(٣) حاقباً حاقناً: الحاقب من كان بحاجة إلى دخول بيت الخلاء للتخلص من الغائط والحاقن للتخلص من البول.

(٤) الأراجيف: الأخبار المختلفة الكاذبة.

(٥) الغدوة: البكرة أو ما بين الفجر وطلوع الشمس.

(٦) الدلجة: آخر الليل.

(٧) أي الحديث، وقوله قرض الشعر أي إنشاده، وقوله برهة أي طائفة، وقوله: صبابة أي =

تعهد النفس بعد كل برهة من الزمان :

وسياسة الأمة لا تتم إلا بأن يؤمر بتعهد النفس بعد كل برهة من الزمان حتى يكون انتظاره للصلاة واستعداده لها من قبل أن يفعلها، وبقية لونها وصبابة نورها بعد أن يفعلها في حكم الصلاة، فيتحقق استيعاب أكثر الأوقات إن لم يكن استيعاب كلها، وقد جربنا أن النائم على عزيمة قيام الليل لا يتغلغل في النوم البهيمي، وأن المتوزع خاطره على ارتفاق دنيوي وعلى محافظة وقت صلاة أو ورد ألا يفوته - لا يتجرد للبهيمية، وهذا سر قوله ﷺ: «من تعار من الليل» الحديث^(١) وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢).

الفصل بين كل وقتين ربع النهار:

ويصلح أن يجعل الفصل بين كل وقتين ربع النهار، فإنه يحتوي على ثلاث ساعات، وهي أول حد كثرة للمقدار المستعمل عندهم في تجزئة الليل والنهار عربهم وعجمهم، وفي الخبر «إن أول من جزأ النهار والليل إلى الساعات نوح عليه السلام وتوارث ذلك بنوه».

وقت أداء الطاعة هو وقت مذكر لنعمة من نعم الله:

الأصل الثالث: أن وقت أداء الطاعة هو الوقت الذي يكون مذكراً لنعمة من نعم الله تعالى، مثل يوم عاشوراء نصر الله تعالى فيه موسى عليه السلام على فرعون فصامه، وأمر بصيامه، وكرمضان نزل فيه القرآن، وكان

= بقية، وقوله يتغلغل أي يستغرق.

(١) تعار: أي انتبه واستيقظ وتنام الحديث «فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال رب اغفر لي - أو قال - ثم دعا استجيب له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته».

(٢) سورة النور/ الآية ٣٧.

ذلك ابتداء ظهور الملة الإسلامية، أو مذكراً لطاعة أنبياء الله تعالى لربهم، وقبوله إياها منهم كيوم الأضحى يذكر قصة ذبح إسماعيل عليه السلام وفدائه بذبح عظيم، أو يكون أداء الطاعة فيه تنويهاً ببعض شعائر الدين كيوم الفطر في إيقاع الصلاة، والصدقة فيه تنويه^(١) بـرمضان وأداء شكر ما أنعم الله تعالى من توفيق صيامه، وكيوم الأضحى فيه تشبه بالحاج وتعرض لنفحات^(٢) الله المعدة لهم، أو تكون جرت سنة الصالحين المشهود لهم بالخير على ألسن الأمم أن يطيعوا الله تعالى فيه، مثل أوقات الصلوات الخمس لقول جبرائيل: «هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك» ومثل رمضان على وجه واحد في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(٣) . . .

وكصوم يوم عاشوراء بالنسبة إلينا، ويشبه أن يكون الأصل الثالث معتبراً في أكثر الأوقات، والأصلان الأولان أصل الأصل، والله أعلم.

باب أسرار الأعداد والمقادير

لم يخص الشرع عدداً إلا لحكم ومصالح: اعلم أن الشرع لم يخص عدداً ولا مقداراً دون نظيره إلا لحكم ومصالح، وإن كان الاعتماد الكلي على الحدس المعتمد على معرفة حال المكلفين وما يليق بهم عند سياستهم، وهذه الحكم والمصالح ترجع إلى أصول:

(١) تنويه: مدح وثناء.

(٢) لنفحات: نفع الطيب انتشرت رائحته ونفح النسيم هب.

(٣) سورة البقرة/الآية ١٨٣ - كتب عليكم الصيام: فرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم: أي من الأمم السابقة.

الوتر عدد مبارك :

الأول: أن الوتر عدد مبارك لا يجاوز عنه ما كان^(١) فيه كفاية، وهو قوله ﷺ: «إن الله وتر يحب الوتر، فأوتروا يا أهل القرآن» وسره أنه ما من كثرة إلا مبدؤها وحدة، وأقرب الكثرات من الوحدة ما كان وترًا؛ إذ كل مرتبة من العدد فيها وحدة غير حقيقة بها تصير تلك المرتبة، فالعشرة مثلاً وحدات مجتمعة اعتبرت واحداً لا خمسة وخمسة، وعلى هذا القياس، وتلك الوحدة نموذج الوحدة الحقيقية في تلك المراتب وميراثها منها، وفي الوتر هذه ومثلها معها وهو الوحدة - بمعنى عدم الانقسام إلى عددين صحيحين متساويين - فهو أقرب إلى الوحدة من الزوج وقرب كل موجود من مبدئه يرجع إلى قربه من الحق لأنه مبدأ المبادي، والأتم في الوحدة متخلق بخلق الله.

الوتر على مراتب شتى :

ثم اعلم أن الوتر على مراتب شتى : وتر- يشبه الزوج، ويجنحه كالتسعة والخمسة فإنهما بعد إسقاط الواحد ينقسمان إلى زوجين، والتسعة وإن لم تنقسم إلى عددين متساويين فإنها تنقسم إلى ثلاثة متساوية، كما أن الزوج أيضاً على مراتب زوج يشبه الوتر - كاثني عشر - فإنه ثلاث أربعاء، وكالسة فإنها ثلاث اثنيات، وإمام الأوتار وأبعدها من مشابهة الزوج الواحد، ووصيه فيها وخليفته ووارثه ثلاثة وسبعة، وما سوى ذلك فإنه من قوم الواحد وأمه، ولذلك اختار النبي ﷺ الواحد والثلاثة والسبعة في كثير

(١) أي ما دام، وقوله (وتر الوتر) بكسر الواو ويفتح الفرد، والله وتر - أي واحد في ذاته لا يقبل الانقسام - واحد في صفاته لا شبه له، واحد في أفعاله فلا معين له، ويحب الوتر أي يشب عليه ويقبله من عامله ﴿فأوتروا يا أهل القرآن﴾ يريد به تأكيد قيام الليل على أصحاب القرآن والأمر بصلاة الوتر.

من المقادير، وحيث اقتضت^(١) الحكمة أن يؤمر بأكثر منها اختار عدداً يحصل من أحدها بالترفع كالواحد يترفع إلى عشرة ومائة وألف وأيضاً إلى أحد عشر، وكالثلاثة تترفع إلى ثلاثين وثلاثة وثلاثين وثلاثمائة، وكالسبعة إلى سبعين وسبعمائة، فإن الذي يحصل بالترفع كأنه هو بعينه، ولذلك سنّ النبي ﷺ مائة كلمة بعد كل صلاة، ثم قسمها إلى ثلاثة وثلاثين ثلاث مرات، وأفضل واحداً ليصير الأمر كله وتراً راجعاً إلى الإمام أو وصيه، وكذلك لكل مقولة من مقولات الجواهر والعروض إمام ووصي، كالنقطة إمام، والدائرة والكرة وصياه، وأقرب الأشكال إليه.

وحدثني أبي قدس سره أنه رأى واقعة عظيمة تمثل فيها الحياة والعلم والإرادة وسائر الصفات الإلهية - أو قال الحي والعليم والمريد وسائر الأسماء - لا أدري أي ذلك قال: بصورة دوائر مضيئة، ثم نبهني على أن تمثل الشيء البسيط في نشأة الأشكال إنما يكون بأقربها إلى النقطة، وهو في السطح الدائرة وفي الجسم الكرة. انتهى كلامه.

واعلم أن سنة الله جرت بأن نزول الوحدة إلى الكثرة إنما يكون بارتباطات مثالية، وعلى تلك الارتباطات تتمثل الوقائع وإياها يراعى تراجمة لسان القدم ما أمكنت مراعاتها.

سر الترغيب والترهيب بالعدد:

الأصل الثاني: في كشف سر ما بين في الترغيب والترهيب^(٢) ونحو ذلك من العدد.

واعلم أنه ربما يعرض على النبي ﷺ خصال من البر والإثم،

(١) اقتضت الحكمة: دعت الحكمة. (٢) الترغيب والترهيب: التشويق والتخويف.

ويكشف عليه فضائل هذه ومثالب تلك، فيخبر عما علمه الله، ويذكر عدد ما علم حاله حينئذٍ، وليس من قصده الحصر قال ﷺ: «عرضت علي أعمال أمتي: حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط^(١) عن الطريق، ووجدت في مساويء أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن».

قال: «عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة^(٢) يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أمتي، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن، أو آية أوتيتها رجلاً، ثم نسيها».

وعلى هذا ينبغي أن يخرج قوله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران» الحديث^(٣) وقوله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى» الحديث^(٤)، وقوله ﷺ: «أربعون خصلة أعلاهن منحة العنز^(٥) لا يعمل عبد بخصلة منها رجاء ثوابها أو تصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة».

وربما يكشف عليه فضائل عمل أو أبعاض شيء إجمالاً، فيجتهد في إقامة وجه ضبط لها ونصب عدد يحصر فيه ما كثر وقوعه أو عظم شأنه

(١) يماط: يزال، وقوله النخاعة: البلغم.

(٢) القذاة: الأصل في معنى القذاة هو ما يقع في العين أو في الشراب من تبنه ونحوه والمراد بالحديث إزالة الأذى.

(٣) تمامه: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم اعتقها فتزوجها فله أجران».

(٤) تمامه: «ولا يزيكهم: شيخ زان وملك كذاب وعامل متكبر».

(٥) المنحة العطية، والعنز الأنثى من الشياه أي يعطي شاة ينتفع بلبنها وصوفها زماناً ثم يردّها.

ونحو ذلك، فيخبر بذلك، وعلى هذا ينبغي أن يخرج قوله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ»^(١) بسبع وعشرين درجة فإن هذا العدد ثلاثة في ثلاثة في ثلاثة.

منافع الجماعة ترجع إلى ثلاثة أقسام:

وقد رأى أن منافع الجماعة ترجع إلى ثلاثة أقسام: ما يرجع إلى نفع نفسه من تهذيبها وظهور الملكية وقهر البهيمية، وما يرجع إلى الناس من شيوع السنة الراشدة فيهم وتنافسهم فيها وتهذيبهم بها واجتماع كلمتهم عليها، وما يرجع إلى الملة المصطفوية من بقائها غضة طرية لم يخالطها التحريف ولا التهاون.

وفي الأول ثلاثة^(٢): القرب من الله والملا الأعلى، وكتابة الحسنات لهم، وتكفير الخطيئات عنهم.

وفي الثاني ثلاثة:

انتظام حيزهم ومديتهم، ونزول البركات عليهم في الدنيا، وشفاعة بعضهم لبعض في الآخرة.

وفي الثالث ثلاثة:

تمشية إجماع الملا الأعلى، وتمسكهم بحبل الله الممدود، وتعاكس أنوار بعضهم على بعض، وفي كل من هذه التسعة ثلاثة: رضا الله عنهم، وصلوات الملائكة عليهم، وانحناس^(٣) الشياطين عنهم.

(١) الفذ: الفرد.

(٢) أي منافع.

(٣) انحناس: تأخر وانقباض. والحناس هو الشيطان وسمي كذلك لأنه يتأخر وينقص عند ذكر الله.

منافع الجماعة في خمسة :

وفي رواية أخرى بخمس وعشرين^(١) ووجهه أن منافع الجماعة خمسة في خمسة : استقامة نفوسهم ، وتآلف جماعتهم ، وقيام ملتهم ، وانبساط الملائكة ، وانخاس الشياطين عنهم . وفي كل واحد خمسة : رضا الله عنهم ، ونزول البركات في الدنيا عليهم ، وكتابة الحسنات لهم ، وتكفير الخطيئات عنهم ، وشفاعة النبي ﷺ والملائكة لهم . وسبب اختلاف الروايات في ذلك اختلاف وجوه الضبط ، والله أعلم .

ربما يؤتى بالعدد إظهاراً لعظم الشيء :

وربما يؤتى بالعدد إظهاراً لعظم الشيء وكبره ، فيخرج العدد مخرج المثل ، نظيره ما يقال محبة فلان في قلبي مثل الجبل ، وقدر فلان يصل إلى عنان السماء ، وعلى هذا ينبغي أن يخرج قوله ﷺ : «يفسح في قبره^(٢) سبعون ذراعاً» وقوله : «مد البصر» وقوله : «إن حوضي ما بين الكعبة وبيت المقدس» وقوله : «حوضي لأبعد من أيلة^(٣) إلى عدن» وفي مثل ذلك ربما يذكر تارة مقدار ، وأخرى مقدار آخر ، ولا تناقض في ذلك بحسب ما يرجع إلى الغرض .

يقدر الشيء بمقدار معلوم :

الأصل الثالث : أنه لا ينبغي أن يقدر الشيء إلا بمقدار ظاهر معلوم يستعمله المخاطبون في نظام الحكم ، وله مناسبة بمدار الحكم وحكمته ،

(١) أي صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة .

(٢) أي المقبور المؤمن إذا أجاب منكرًا ونكيرًا بالقول الثابت فيقولان له قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له إلخ ، وقوله مد البصر أي يفسح للمقبر المؤمن بعد سؤال منكر ونكير في قبره مد بصره .

(٣) أيلة : بفتح الهمزة وسكون الياء وهي بلدة العقبة اليوم .

فلا ينبغي أن يقدر الدراهم إلا بالأواق، ولا التمر إلا بالأوساق^(١)، ولا ينبغي أن يؤتى بجزء لا يستخرجه إلا المتعمقون في الحساب، كجزء من سبعة عشر، وجزء من تسعة وعشرين، ولذلك ما ذكر الله تعالى في الفرائض إلا كسوراً يسهل تنصيفها وتضعيفها ومعرفة مخرجها، وذلك فصلان: أحدهما سدس وثلث وثلثان، وثانيهما ثمن وربع ونصف، وسره أن يظهر فضل ذي الفضل، ونقصان ذي النقصان بادي الرأي، وأن يسهل تخريج المسائل على الأداني والأقاصي.

وحيثما وقعت الحاجة إلى مقدار دون المقدار المعتبر أولاً لا تكون النسبة بينهما نسبة الضعف، فلا ينبغي أن يتعدى من الثلثين بين النصف والواحد، ومن الثلث بين الربع والنصف لأن سائر الأجزاء أخفى منهما.

وإذا أريد تقدير ما هو كثير في الجملة، فالمناسب أن يقدر بثلاثة، وإذا أريد تقدير ما هو أكثر من ذلك، فالمناسب تقديره بعشرة، وإذا كان الشيء قد يكون قليلاً، وقد يكون كثيراً، فالمناسب أن يؤخذ أقل حد وأكثر حد، فينصف بينهما.

العدد المعتبر في باب الزكاة:

والمعتبر في باب الزكاة خمس، وعشر، ونصف العشر، وربع العشر؛ لأن زيادة الصدقة تدور على كثرة الربح وقلة المؤنة، وكانت مكاسب جمهور أهل الأقاليم لا تنتظم إلا في أربع مراتب وكان المناسب أن يظهر الفرق بين كل مرتبتين - أصرح ما يكون - وذلك أن تكون الواحدة منها ضعف الأخرى، وسيأتيك تفصيله، وإذا وقعت الحاجة إلى تقدير اليسار مثلاً ينبغي أن ينظر إلى ما يعد في العرف يساراً، ويرى فيه ما هو من أحكام اليسار.

(١) الأوساق: جمع وسق وهو ستون صاعاً أو ١٣٠ كيلوغراماً بأوزاننا.

وذلك بحسب عادة جمهور المكلفين مشارقتهم ومغاربتهم عربهم وعجمهم، وبحسب ما هو كالمذهب الطبيعي لهم لولا المانع فإن لم يكن بناء الأمر على عادة الجمهور لتشتت حالهم.

العدد المعتبر في حال العرب:

فالمعتبر حال العرب الأول الذين نزل القرآن بلغتهم، وتعينت الشريعة في عاداتهم، ولذلك قدر الشرع الكثر بخمس أواق^(١) لأنها تكفي أقل أهل بيت سنة كاملة في أكثر أطراف المعمورة - اللهم إلا في الجذب أو البلاد العظيمة جداً أو أعمالها.

وقدر الثلثة^(٢) الصغيرة من الغنم بأربعين، والكبير بمائة وعشرين.

وقدر الزرع الكثير بخمسة أوساق، لأن أقل البيت زوج وزوجة وثالث إما خادم أو ولد بينهما، وأكثر ما يأكله الإنسان في اليوم والليله مد^(٣) أو رطل، ويحتاج مع ذلك إلى إدام، وهذا القدر يكفي من ذلك سنة كاملة.

وقدر الماء الكثير بقلتين^(٤)، ولأنه حد لا ينزل منه المعادن ولا يرتقي إليه الأواني في عادة العرب، وقس على ذلك سائر التقديرات والله أعلم.

باب أسرار القضاء والرخصة

يجب العمل بالحكم ولو لم يعلم الغرض منه:

اعلم أن من السياسة أنه إذا أمر بشيء، أو نهي عن شيء، وكان المخاطبون لا يعلمون الغرض من ذلك حق العلم وجب أن يجعل عندهم

(١) جمع أوقية وهي أربعون درهماً وكان ذلك فيما مضى فاما اليوم فقد تغير ذلك.

(٢) الثلثة: بالفتح جماعة الغنم.

(٣) المد: مر شرحه سابقاً.

(٤) القلة: بالضم جرة تسع مائتين وخمسين رطلاً بغدادياً.

كالشيء المؤثر بالخاصية، يصدق بتأثيره، ولا يدرك سبب التأثير، وكالرقى لا يدرك سبب تأثيرها، ولذلك سكت النبي ﷺ عن بيان أسرار الأوامر والنواهي تصريحاً في الأكثر، وإنما لوح بشيء منه للراسخين في العلم من أمته.

ولذلك كان اعتناء حملة الملة من الخلفاء الراشدين وأئمة الدين بإقامة أشباح الملة أكثر من الاعتناء بإقامة أرواحها حتى روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أحسب جزية البحرين وأنا في الصلاة، وأجهز الجيش وأنا في الصلاة.

ولذلك كانت سنة المفتين قديماً وحديثاً ألا يتعرضوا للدليل المسألة عند الافتاء، ووجب أن يسجل على الأخذ بالمأمور حق التسجيل، ويلام على تركه أشد الملامة، وتجعل أنفسهم ترغب فيها، وتألّفها حق الرغبة والألفة حتى تصير داعية الحق محيطة بظواهرهم وبواطنهم.

إذا منع من المأمور مانع ضروري قام مقامه شيء آخر: وإذا كان كذلك، ثم منع من المأمور به مانع ضروري - وجب أن يشرع له بدل يقوم مقامه لأن المكلف حينئذ بين أمرين: إما أن يكلف به مع ما فيه من المشقة والخرج^(١)، وذلك خلاف موضوع الشرع. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٢).

وإما أن ينبذ^(٣) وراء الظهر بالكلية، فتألف النفس بتركه، وتسترسل

(١) الحرج: الضيق.

(٢) سورة البقرة/ الآية ١٨٥ - اليسر: السهولة وعدم المشقة والعسر عكسها والآية الكريمة أتت ضمن آيات الصيام. والمعنى أباح لكم الفطر في المرض والسفر لأنه يريد بكم اليسر.

(٣) نبذ: طرح.

مع إهماله، وإنما تمرن النفس تمرين الدابة الصعبة يغتنم منها الألفة والرغبة، ومن اشتغل برياضة نفسه أو تعليم الأطفال أو تمرين الدواب ونحو ذلك يعلم كيف تحصل الألفة بالمداومة، ويسهل بسببها العمل، وكيف تذهب الألفة بالترك والإهمال، فتضيق النفس بالعمل، ويثقل عليها، فإن رام^(١) العود إليه احتاج إلى تحصيل الألفة ثانياً.

لا بد من شرع القضاء إذا فات وقت العمل :

فلا بد إذا من شرع القضاء إذا فات وقت العمل، ومن الرخص في العمل ليتأتى منه، ويتيسر له، والعمدة في ذلك الحدس المعتمد على معرفة حال المكلفين وغرض العمل وأجزائه التي لا بد منها في تحصيل ذلك الغرض، ومع ذلك فله أصول يعلمها الراسخون في العلم.

١ - الأصل الأول : أن الركن والشرط فيهما شيان :

قسم لا يترك في المكروه والمنشط سواء :

أحدهما : الأصلي الذي هو داخل حقيقة الشيء، أو لازمه الذي لا يعتد به بدونه بالنظر إلى أصل الغرض منه كالدعاء وفعل الانحناء الدال على التعظيم والتنبه لخلتي^(٢) الطهارة والخشوع، وهذا القسم من شأنه ألا يترك في المكروه والمنشط سواء؛ إذ لا يتحقق من العمل شيء عند تركه.

قسم يرخص فيه عند المكاره :

وثانيهما : التكميلي الذي إنما شرع لكونه واجباً لمعنى آخر محتاجاً إلى التوقيت، ولا وقت له أحسن من هذه الطاعة، أو لأنه آلة صالحة لأداء أصل الغرض كاملاً وافراً، وهذا القسم من شأنه أن يرخص فيه عند

(١) رام : قصد .

(٢) الخلة : الخصلة .

المكارة، وعلى هذا الأصل ينبغي أن تخرج الرخصة في ترك استقبال القبلة إلى التحري في الظلمة ونحوها، وترك ستر العورة لمن لا يجد ثوباً، وترك الوضوء إلى التيمم لمن لا يجد ماء، وترك الفاتحة إلى ذكر من الأذكار لمن لا يقدر عليها، وترك القيام إلى القعود والاضطجاع لمن لا يستطيعه وترك الركوع والسجود إلى الانحناء لمن لا يستطيعها.

٢ - ينبغي أن يلتزم في البدل شيء يذكر الأصل :

الأصل الثاني : أنه ينبغي أن يلتزم في البدل شيء يذكر الأصل ويشعر بأنه نائبه وبدله، وسره تحقيق الغرض المطلوب من شرع الرخص، وهو أن تبقى الألفة بالعمل الأول، وأن تكون النفس كالمنتظرة، ولذلك اشترط في المسح على الخفين الطهارة وقت اللبس وجعل له مدة ينتهي إليها، واشترط التحري في القبلة.

٣ - ليس كل حرج يرخص لأجله :

والأصل الثالث : أنه ليس كل حرج يرخص لأجله، فإن وجوه الحرج كثيرة، والرخصة في جميع ذلك تفضي إلى إهمال الطاعة، والاستقصاء في ذلك ينفي العناء^(١) ومقاساة التعب، وهو المعروف لانقياد الشرع واستقامة النفس، فاقتضت الحكمة ألا يدور الكلام إلا على وجوه وقوعها وعظم الابتلاء^(٢) بها لا سيما في قوم نزل القرآن بلغتهم، وتعينت الشريعة في عاداتهم.

ولا ينبغي أن يجاوز من ملاحظة كون الطاعة مؤثرة بالخاصية متى ما أمكن، ولذلك شرع القصر في السفر دون الأكساب الشاقة، ودون الزراع والعمال، وجوز للمسافر المترفه ما جوز لغير المترفه، والقضاء منه قضاء بمثل معقول، ومنه بمثل غير معقول.

(١) العناء : التعب.

(٢) الابتلاء : الاختبار.

كل عمل من غير قصد يُعذر فاعله :

ولما كان أصل الطاعة انقياد القلب لحكم الله ومؤاخضة النفس بتعظيم الله كان كل من عمل عن غير قصد ولا عزيمة أو هو من جنس من لا يتكامل قصده^(١) ولا يتمكن من مؤاخضة نفسه بالتعظيم كما ينبغي - من حقه أن يعذر وألا يضيق عليه كل التضييق. وعلى هذا ينبغي أن يخرج قوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة» الحديث^(٢) والله أعلم.

باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم

الرسوم من الارتفاقات بمنزلة القلب من الجسد :

قد ذكرنا فيما سبق تصريحاً أو تلويحاً أن الارتفاق^(٣) الثاني والثالث مما جبل عليه البشر، وامتازوا به عن سائر أنواع الحيوان، محال أن يتركوهما، أو يهملوهما، وأنهم يحتاجون في كثير من ذلك إلى حكيم عالم بالحاجة وطريق الارتفاق منها، منقاد للمصلحة الكلية إما مستنبط بالفكر والروية أو يكون نفسه قد جبلت فيها قوة ملكية، فيكون مهياً لنزول علوم من الملأ الأعلى، وهذا أتم الأمرين وأوثق الوجهين، وأن الرسوم من الارتفاقات هي بمنزلة القلب من الجسد، وأنه قد يدخل في الرسوم مفسد من جهة ترؤس^(٤) قوم ليس عندهم مسكة^(٥) العقل الكلي فيخرجون إلى أعمال سبعية أو شهوية أو شيطانية، فيروجونها، فيقتدي بهم أكثر الناس،

(١) كالصبي .

(٢) أي النائم والصبي والمعتوه، قيل المراد بالرفع في الشر دون الخير لقوله ﷺ «مروهم بالصلاة» .

(٣) راجع مبحث الارتفاقات (المبحث الثالث) . الارتفاق الثاني : أن الإنسان لا يكتفي بطلب الحاجة بل يريد أن تفر عينه وتلد نفسه . والارتفاق الثالث : أنه لا يكتفي بتقليد الارتفاقات الموجودة بل يستنبط أشياء جديدة .

(٤) أي سيادة .

(٥) مسكة : بقية .

ومن جهة أخرى نحو ذلك، فتمس الحاجة إلى رجل قوي مؤيد من الغيب منقاد للمصلحة الكلية، ليغير رسومهم إلى الحق بتدبير لا يهتدي له في الأكثر إلا المؤيدون من روح القدس.

أصل بعثة الأنبياء تعليم وجوه العبادات :

فإن كنت قد أحطت علماً بما هنالك فاعلم أن أصل بعثة الأنبياء وإن كان لتعليم وجوه العبادات أولاً وبالذات، لكنه قد تنضم مع ذلك إرادة إخمال الرسوم الفاسدة والحث على وجوه من الارتفاقات، وذلك قوله ﷺ: «بعثت لمحق المعازف»^(١). وقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

الأنبياء أمروا بتعديل الارتفاقات :

واعلم أنه ليس رضا الله تعالى في إهمال الارتفاق الثاني والثالث. ولم يأمر بذلك أحد من الأنبياء عليهم السلام. وليس الأمر كما ظنه قوم فروا إلى الجبال، وتركوا مخالطة الناس رأساً في الخير والشر، وصاروا بمنزلة الوحش، ولذلك رد النبي ﷺ على من أراد التبتل^(٢) وقال: «ما بعثت بالرهبانية وإنما بعثت بالملة الحنيفية»^(٣) السمحة^(٤) لكن الأنبياء عليهم السلام أمروا بتعديل الارتفاقات، وألا يبلغ بها حال المتعمقين في الرفاهية كملوك العجم، ولا ينزل بها إلى حال سكان شواهد الجبال اللاحقين بالوحش.

(١) المعازف: الدفوف والملاهي، والمراد بالمحق الإعدام.

(٢) التبتل: الانقطاع عن الدنيا لأجل العبادة.

(٣) الحنيفية: الإسلام وسمي كذلك لأنه يتحنف عن الأديان أي يعيل إلى الحق. وقيل

هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم.

(٤) السمحة: من فعل سمح ويعني الجود والسهولة والاتساع والليونة وكل هذه الصفات

متحققة في الإسلام.

هنا قياسان متعارضان ، أحدهما الترفه حسن :

وهنا قياسان متعارضان : أحدهما أن الترفه حسن يصح به المزاج ، ويستقيم به الأخلاق ، ويظهر به المعاني التي امتازبها الأدمي من سائر بني جنسه ، والغباوة والعجز ونحوهما تنشأ من سوء التدبير .

ثانيهما ، الترفة قبيح :

وثانيهما : أن الترفة قبيح لاحتياجه إلى منازعات ومشاركات وكد وتعب وإعراض عن جانب الغيب وإهمال لتدبير الآخرة ، ولذلك كان المرضي التوسط وإبقاء الارتفاقات وضم الأذكار معها والآداب وانتهاز فرص للتوجه إلى الجبروت^(١) .

الأنبياء يقرون ما يرون من حسن :

والذي أتى به الأنبياء قاطبة^(٢) من عند الله تعالى في هذا الباب هو أن ينظر إلى ما عند القوم من آداب الأكل والشرب واللباس والبناء ووجوه الزينة ، ومن سنة النكاح وسيرة المتساكحين ، ومن طرق البيع والشراء ، ومن وجوه المزاج عن المعاصي وفصل القضايا ونحو ذلك . فإن كان الواجب بحسب الرأي الكلي منطبقاً عليه ، فلا معنى لتحويل شيء منه من موضعه ولا العدول عنه إلى غيره ، بل يجب أن يحث القوم على الأخذ بما عندهم ، وأن يصوب رأيهم في ذلك ، ويرشدوا إلى ما فيه من المصالح ، وإن لم ينطق عليه ، ومست الحاجة إلى تحويل شيء أو إخماله لكونه مفضياً إلى تآذي بعضهم من بعض أو تعمقاً في لذات الحياة الدنيا وإعراضاً عن الإحسان ، أو من المسليات التي تؤدي إلى إهمال مصالح الدنيا والآخرة ونحو ذلك - فلا ينبغي أن يخرج إلى ما يباين مألوفهم

(١) الجبروت : صيغة مبالغة بمعنى القدر والسلطة العظيمة .

(٢) قاطبة : جميعاً .

بالكلية، بل يحول إلى نظير ما عندهم أو نظير ما اشتهر من الصالحين المشهود لهم بالخير عند القوم، وبالجملة فإلى ما لو ألقى عليهم لم تدفعه عقولهم، بل اطمأنت بأنه حق، ولهذا المعنى اختلفت شرائع الأنبياء عليهم السلام.

الراسخ في العلم يعلم أن الشرع يأتي مقوماً مصححاً:
والراسخ في العلم يعلم أن الشرع لم يجيء في النكاح والطلاق والمعاملات والزينة واللباس والقضاء والحدود وقسمة الغنيمة بما لم يكن لهم به علم، أو يترددوا فيه إذا كلفوا به.

نعم إنما وقع إقامة المعوج وتصحيح السقيم كان قد كثر فيهم الربا، فنهوا عنه.

وكانوا يبيعون الثمار قبل أن يبدو صلاحها يختصمون، ويحتجون بعاهات^(١) تصيبها فنهوا عن ذلك البيع.

وكانت الدية على عهد عبد المطلب عشرة من الإبل، فلما رأى أن القوم لا يرتدعون عن القتل بلغها مائة، فأبقاها النبي ﷺ على ذلك.

وأول قسامة^(٢) وقعت هي التي كانت بحكم أبي طالب، وكان

(١) عاهات : آفات

(٢) القسامة : تفسير القسامة في الدم أن يقتل رجل ولا تقوم على قاتله البيعة الكاملة العادلة . كأن يكون ملطخاً بدم القتيل ولم يشهد عليه رجل عدل أو يوجد القتيل في دار القتيل المتهم وكان بينهما عداوة وعندها يستحلف أولياء القتيل خمسين يميناً أن فلاناً الذي ادعوا قتله انفراداً بقتل صاحبهم ما شركه في دمه أحد فإذا حلفوا خمسين يميناً استحقوا دية قتيلهم فإن أبوا أن يحلفوا مع اللوث الذي أدلوا به حلف المدعي عليه ويسرى ، فإن نكل المدعي عليه عن اليمين خبير ورثة القتيل بين قتله أو أخذ الدية من مال المدعي عليه وهذا قول الشافعي .

لرئيس القوم مربعاً^(١) كل غارة، فسن رسول الله ﷺ الخمس من كل غنيمة.

وكان قباذ وابنه أنوشروان وضعوا عليهم الخراج والعشر، فجاء الشرع بنحو من ذلك.

وكان بنو إسرائيل يرمون الزناة، ويقطعون السراق ويقتلون النفس بالنفس، فنزل القرآن بذلك . . . ، وأمثال هذه كثيرة جداً لا تخفى على المتتبع، بل لو كنت فطناً محيطاً بجوانب الأحكام لعلمت أيضاً أن الأنبياء عليهم السلام لم يأتوا في العبادات غير ما عندهم هو أو نظيره، لكنهم نفوا تحريفات الجاهلية، وضبطوا بالأوقات والأركان ما كان مبهماً وأشاعوا بين الناس ما كان خاملاً.

ملوك العجم والروم خاضوا في لذة الدنيا ونسوا الآخرة:

اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة، وخاضوا في لذة الدنيا، ونسوا الدار الآخرة، واستحوذ عليهم الشيطان - تعمقوا في مرافق المعيشة، وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الأفاق يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه، فما زالوا يعملون بها، ويزيد بعضهم على بعض، ويتباهون بها حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم^(٢)، منطقة^(٣) أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم، أو لا يكون له قصر شامخ^(٤)

(١) أي نوق تلد في أول التاج أي هذه الأموال من الغنيمة كانت حق الرؤساء.

(٢) الصناديد: جمع الصنديد وهو السيد الشجاع.

(٣) منطقة: النطاق. ما يشد به الخصر والوسط وكان السادة يتباهون به ويتفاخرون بأنواعه القيمة.

(٤) قصر شامخ: قصر عال.

وأبزن وحمام وبساتين، ولا يكون له دواب فارهة^(١) وغلمان حسان، ولا يكون له توسع في المطاعم وتجميل في الملابس، وذكر ذلك يطول...

وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع^(٢) وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدينة، وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم^(٣) وغنيهم وفقيرهم إلا قد استولت عليه، وأخذت بتلابيبه^(٤)، وأعجزته في نفسه، وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء^(٥) لها.

وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم، فإن امتنعوا قاتلوهم، وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضح والدياس والحصاد، ولا تقتنى إلا ليستعان بها في الحاجات، ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخوية أصلاً، ولا يستطيعون ذلك، وربما كان إقليم واسع ليس فيهم أحد يهمله دينه، ولم يكن ليحصل أيضاً إلا بقوم يتكسبون بتهيئة تلك المطاعم والملابس والأبنية وغيرها، ويتركون أصول المكاسب التي عليها بناء نظام العالم.

(١) دواب فارهة: نشيطة خفيفة الحركة.

(٢) تمزع: تقطع.

(٣) الرستاق: معرب ويستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم وقال ابن فارس الرستاق أو الرزدق السطر من النخل والصف من الناس.

(٤) تلابيبه: جيوبه.

(٥) أرجاء: أطراف.

وصار عامة من يطوف عليهم يتكلفون محاكاة الصناديد في هذه الأشياء، وإلا لم يجدوا عندهم حظوة، ولا كانوا عندهم على بال، وصار جمهور الناس عيالاً على الخليفة يتكفون منه تارة على أنهم من الغزاة والمدبرين للمدينة يترسمون برسومهم ولا يكون المقصود دفع الحاجة ولكن القيام بسيرة سلفهم، وتارة على أنهم شعراء جرت عادة الملوك بصلتهم، وتارة على أنهم زهاد وفقراء يقبح من الخليفة ألا يتفقد حالهم، فيضيق بعضهم بعضاً، وتتوقف مكاسبهم على صحبة الملوك والرفق بهم وحسن المحاورة معهم والتعلق منهم، وكان ذلك هو الفن الذي تتعمق أفكارهم فيه، وتضيع أوقاتهم معه، فلما كثرت هذه الأشغال تشبّع في نفوس الناس هيئات خسيّة، وأعرضوا عن الأخلاق الصالحة.

التعرف على هذا المرض الاجتماعي :

وإن شئت أن تعرف حقيقة هذا المرض، فانظر إلى قوم ليست فيهم الخلافة، ولا هم متعمقون في لذائذ الأطعمة والألبسة - تجد كل واحد منهم بيده أمره، وليس عليه من الضرائب الثقيلة ما يثقل ظهره، فهم يستطيعون التفرغ لأمر الدين والملة، ثم تصور حالهم لو كان فيهم الخلافة، وملاؤها، وسخروا الرعية، وتسلطوا عليهم فلما عظمت المصيبة واشتد هذا المرض - سخط عليهم الله والملائكة المقربون، وكان رضاه تعالى في معالجة هذا المرض بقطع مادته.

بعث الله نبينا محمداً وجعله ميزاناً يعرف به الهدى :

فبعث نبياً أمياً ﷺ لم يخالط العجم والروم^(١)، ولم يترسم برسومهم، وجعله ميزاناً يعرف به الهدى الصالح المرضي عند الله من غير

(١) العجم: هم غير العرب ولعل المؤلف عنى الفرس بدليل استعمال كلمة الروم وهم كانوا سكان آسية الصغرى قبل الفتح العثماني وكانت عاصمتهم القسطنطينية.

المرضي ، وأنطقه بدم عادات الأعاجم وقبح الاستغراق في الحياة الدنيا والاطمئنان بها، ونفث في قلبه أن يحرم عليهم رؤوس ما اعتاده الأعاجم، وتباهوا بها كلبس الحرير والقسي والأرجوان واستعمال أواني الذهب والفضة وحلي الذهب غير المقطع والثياب المصنوعة فيها الصور وتزويق البيوت وغير ذلك، وقضى بزوال دولتهم بدولته، ورياستهم برياسته، وبأنه هلك كسرى، فلا كسرى بعده وهلك قيصر، فلا قيصر بعده.

كان أهل الجاهلية في حالة اجتماعية سيئة فأصلحها النبي :

واعلم أنه كان في أهل الجاهلية مناقشات ضيقت على القوم وصعبت، ولم يكن زوالها إلا بقطع رؤوسهم في ذلك الباب كشار القتلى كان الإنسان يقتل إنساناً فيقتل ولي المقتول أخا القاتل أو ابنه، ويعود هذا فيقتل واحداً منهم، ويدور الأمر كذلك فقال النبي ﷺ : «كل دم موضوع^(١) تحت قدمي هذه، وأول دم أضعه دم ربيعة» وكالمواريث كان رؤساء القوم يقضون فيها بقضايا مختلفة، وكان الناس لا يمتنعون من نحو غصب وربا، فيمرقون على ذلك، ثم يأتي قرن آخر، فيحتجون بحجج، فقطع النبي ﷺ المناقشة من بينهم، فقال كل شيء أدركه الإسلام يقسم على حكم القرآن، وكل ما قسم في الجاهلية، أو حازه إنسان في الجاهلية بوجه من الوجوه، فهو على ما كان لا ينقص، وكالربا كان أحدهم يقرض مالا ويشترط الزيادة عليه وهلم جرأ حتى يصير قناطر مقنطرة، فوضع الربا، وقضى برأس المال. ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾^(٢).

إلى غير ذلك من أمور لم تكن لتترك لولا النبي ﷺ.

(١) أي مبطل كالشيء الموضوع تحت القدم يتلاشى، وأراد قطع النزاع عن دماء الجاهلية لأن منها ما كان باطلاً أو غير ثابت وكان ربيعة من أقاربه فقال: «أول دم . . .» .

(٢) سورة البقرة/ الآية ٢٧٩ - أي لا تظلمون بزيادة ولا تظلمون بنقص.

واعلم أنه ربما يشرع للناس رسم قطعاً لضغائنهم^(١) كالاتداء من اليمين في السقي ونحوه، فإنه قد يكون ناس متشاكسون^(٢)، ولا يسلم الفضل ليبدأ بصاحبه، فلا تنقطع المناقشة بينهم إلا بمثل ذلك، وكإمامة صاحب البيت، وكتقدم صاحب الدابة على رفيقه إذا ركبها ونحو ذلك، والله أعلم.

باب الأحكام التي يجز بعضها لبعض.

بعث الله نبيه ليبين للناس الهدى:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

اعلم أن الله تعالى بعث نبيه ﷺ، ليبين للناس ما أوحاه إليه من أبواب العبادات ليأخذوا بها، ومن أبواب الآثام ليجتنبوها، وما ارتضاه لهم من الارتفاقات، ليقتدوا بها...، ومن هذا البيان أن يعلمهم ما يقتضيه الوحي، أو يومىء^(٤) إليه ونحو ذلك.

إذا أجرى الله سنته على نحو رتب الأسباب المفضية إلى مسيئاتها:

وهذه أصول يخرج عليها جملة عظيمة من أحاديث النبي ﷺ، ونذكر هنا معظمها: منها أن الله تعالى إذا أجرى سنته على نحو بأن رتب الأسباب مفضية إلى مسيئاتها، لتتنظم المصلحة المقصودة بحكمته البالغة

(١) مفعول له يشرع، أي يشرع لقطع الضغائن.

(٢) متشاكسون: متخالفون.

(٣) سورة النحل/ الأيتان ٤٣ - ٤٤. الزبر: الكتب - الذكر: القرآن الكريم - لتبين للناس ما نزل إليهم: من الحلال والحرام - ولعلمهم يتفكرون: أي لعلمهم يتفكرون فيعتبرون ويتعظون.

(٤) يومىء: يشير.

ورحمته التامة - اقتضى ذلك أن يكون تغير خلق الله شراً وسعياً في الإفساد وسبباً لترشح النفرة عليه من الملائ الأعلى ، فلما خلق الله الإنسان على وجه لا يتكون في أكثر الأوقات والأحيان من الأرض تكوّن الديدان منها، وكانت حكمته تقتضي بقاء نوع الإنسان، بل انتشار أفراده وكثرتهم في العالم - أودع فيهم قوى التناسل، ورغبهم في طلب النسل، وجعل الغلظة^(١) مسيطرة عليهم منهم؛ ليقضي الله بذلك أمراً أوجبه الحكمة البالغة، فلما أطلع الله النبي ﷺ على هذا السر، وكشف عليه جليلة الحال - اقتضى ذلك أن ينهى عن قطع هذا السبيل وإهمال تلك القوى المقتضية أو صرفها في غير محلها، ولذلك نهى أشد النهي عن الخصاء^(٢) واللواط، وكره العزل^(٣).

في الخير العالي طلب واقتضاء لبقاء الأنواع :

واعلم أن أفراد الإنسان عند سلامة مزاجها وتمكين المادة أحكام النوع من نفسها - تكون على هيئة معلومة من استواء القامة وظهور البشرة ونحو ذلك وهذا حكم النوع ومقتضاه وأثره في الأفراد، وفي الخير العالي طلب واقتضاء لبقاء الأنواع وظهور أشباحها في الأرض، ولذلك كان النبي ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم نهى عن ذلك، وقال: «إنها أمة من الأمم» يعني أن النوع له مقتض عند الله، ونفي أشباحه من الأرض غير مرضي، وهذا الاقتضاء ينجر إلى اقتضاء ظهور أحكام النوع في الأفراد، فمناقضة هذا الاقتضاء والسعي في رده قبيح منافر للمصلحة الكلية، وعلى هذه القاعدة يخرج التصرف في البدن بما لا يقتضيه حكم النوع كالخصاء

(١) الغلظة : غلبة الشهوة.

(٢) الخصاء : قطع عضو الذكورة.

(٣) أي الاعتزال عن زوجته وقت الجماع والإنزال خارج قبلها لكي لا تحبل.

والتفلج^(١) والتمص^(٢) ونحو ذلك، أما الكحل والتسريح فإن ذلك كالإعانة على ظهور الأحكام المقصودة والموافقة بها.

شرع الله لبني آدم شريعة ينتظم بها شملهم ويصلح حالهم :
ولما شرع الله تعالى لبني آدم شريعة ينتظم بها شملهم، ويصلح بها حالهم، وكان في الملكوت داعية لظهورها كان أمرها كأمرها الأنواع في طلب ظهور الأشباح في الأرض، ولذلك كان السعي في إهمالها مسخوطاً عند الملائكة الأعلى منافراً لما هو مقتضاهم ومطمح همهم، وكذلك الارتفاقات التي أجمع عليها طوائف الناس من عربهم وعجمهم وأقاصيهم وأدانيهم فإنها كالأمر الطبيعي.

فلما شرع الله تعالى الإيمان والبيئات موضحة لجلية الحال اقتضى ذلك أن تكون شهادة الزور واليمين الكاذبة مسخوطة عند الله وملائكته.

إذا أوحى الله إلى نبيه حكماً كان له أخذ المصلحة منه وقيس عليه :

ومنها أنه إذا أوحى إليه بحكم من أحكام الشرع، واطلع على حكمته وسببه كان له أن يأخذ تلك المصلحة، وينصب^(٣) لها علة، ويدير عليها ذلك الحكم، وهذا قياس النبي ﷺ . . . ، وإنما قياس أمته أن يعرفوا علة الحكم المنصوص عليه، فيديروا الحكم حيث دارت، مثاله الأذكار التي وقتها النبي ﷺ بالصبح والمساء ووقت النوم، فإنه لما اطلع على حكمة شرع الصلوات اجتهد في ذلك.

(١) التفلج : الفلج محرقة فرجة ما بين الشايات والرباعيات، والتفلج فعل ذلك بالتكلف وقد ورد النهي عن ذلك بقوله ﷺ : «لعن الله المتفلجات للحسن» أي السلاتي يفعلنه للتحسين.

(٢) النمص : نتف الشعر عن الوجه، والتمص الأمر به أي أن امرأة تأمر أخرى بنتف الشعر عن وجهها وهو حرام.

(٣) ينصب : يقيم.

إذا فهم النبي من آية وجهاً كان له أن يحكم به :

ومنها: أنه إذا فهم النبي ﷺ من آية وجه سوق الكلام، وإن لم يكن غيره يفهم منه ذلك لدقة مأخذه أو تزاحم الاحتمالات فيه - كان له أن يحكم حسبما فهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(١).

فهم منه النبي ﷺ أن تقديم الصفا على المروة لأجل موافقة البيان لما هو المشروع لهم كما قد يكون لموافقة السؤال ونحو ذلك، فقال: «ابدأوا بما بدأ الله به» وكقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ﴾^(٣).

فهم منهما النبي ﷺ استحباب أن يعبدوا الله تعالى عند الكسوف والخسوف، وكقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾^(٤) الآية.

فهم منه أن استقبال القبلة فرض يحتمل السقوط عند العذر، فخرج حكم من تحرى في الليلة الظلماء، فأخطأ جهة القبلة، وصلى لغيرها، وحكم الراكب على الدابة يصلي النافلة خارج البلد.

إذا أمر الله نبيه بشيء وجب عليه أن يأمر الناس به :

ومنها: أنه إذا أمر الله تعالى أحداً بشيء من معاملة الناس اقتضى ذلك أن يؤمر الناس بالانقياد له فيها، فلما أمر القضاة أن يقيموا الحدود اقتضى ذلك أن يؤمر العصاة بأن ينقادوا لهم فيها، ولما أمر المصدق بأخذ

(١) سورة البقرة/الآية ١٥٧ - الصفا والمروة: جبلان في مكة معروفان وقد أصبحا مهديين

حالياً مع مرور الزمن - من شعائر الله: من أعلام دين الله وشعائر جمع شعيرة.

(٢) سورة فصلت/الآية ٣٧.

(٣) سورة الأنعام/الآية ٧٦ - أفل: غاب - لا أحب الإفلين: لا أحب أن أتخدم أرباباً لأن

الرب لا يجوز عليه التغيير والانتقال.

(٤) سورة البقرة/الآية ١١٥ - ولله المشرق والمغرب: أي الأرض كلها لأنهما ناحيتاها.

الزكاة من القوم أمروا ألا يصدر عنهم إلا راضياً، ولما أمر النساء أن يسترن أمر الرجال أن يفضوا أبصارهم عنهن.

إذا نهى الله نبيه عن شيء وجب عليه أن ينهاهم عنه :
ومنها أنه إذا نهى عن شيء اقتضى ذلك أن يؤمر بضده وجوباً أو ندباً حسب اقتضاء الحال، وإذا أمر بشيء اقتضى ذلك أن ينهى عن ضده فلما أمر بصلاة الجمعة والسعي إليها وجب أن ينهى عن الاشتغال بالبيع والمكاسب حينئذٍ.

إذا أمر الله نبيه بشيء اقتضى ذلك أن يرى في مقدماته ودواعيه :
ومنها: أنه إذا أمر بشيء حتماً اقتضى ذلك أن يرغب في مقدماته ودواعيه، وإذا نهى عن شيء حتماً اقتضى ذلك أن يسدد ذرائعه^(١)، ويحمل دواعيه^(٢)، ولما كانت عبادة الصنم إثماً وكانت المخالطة بالصور والأصنام مفضية إليه كما وقع في الأمم السالفة وجب أن يقبض على أيدي المصورين، ولما كان شرب الخمر إثماً وجب أن يقبض على أيدي العصارين، وينهى عن الحضور على المائدة التي فيها خمر، ولما كان القتال في الفتنة إثماً وجب أن ينهى عن بيع السلاح في وقت الفتنة.

ونظير هذا الباب من سياسة المدينة أنهم لما اطلعوا على مفسدة دس السم في الطعام والشراب أخذوا الموائيق من بائعي الأدوية ألا يبيعوا السم إلا قدراً لا يهلك شاربه غالباً.

ولما اطلعوا على خيانة قوم اشترطوا عليهم ألا يركبوا الخيل، ولا يحملوا السلاح...

(١) ذرائعه: جمع ذريعة وهي الوسيلة. (٢) يحمل دواعيه: يعدم أسبابه.

وكذلك باب العبادات لما كانت الصلاة أعظم أبواب الخير وجب أن يحض على الجماعة فإنها إعانة على الأخذ بها، ووجب أن يحض على الأذان، ليحصل الاجتماع في زمان واحد في مكان واحد، ووجب الحث على بناء المساجد وتطيبها وتنظيفها.

ولما كانت معرفة أول يوم من رمضان متوقفة عند الغيم ونحوه على عدة شعبان استحب إحصاء^(١) هلال شعبان. ونظيره من سياسة المدينة أنهم لما رأوا في الرمي منفعة عظيمة أمروا بالإكثار من اصطناع القسي^(٢) والنبل والتجارة فيها.

إذا أمر الله بشيء أو نهى عنه اقتضى ذلك أن ينوه بالمطيعين :
ومنها^(٣) أنه إذا أمر بشيء، أو نهى عن شيء اقتضى ذلك أن ينوه بشأن المطيعين، ويزدري بالعصاة، ولما كانت قراءة القرآن مطلوباً بشيوعها والمواظبة^(٤) عليها وجب أن يسن ألا يؤمهم إلا أقرؤهم، وأن يوقر القراء في المجالس، ولما كان القذف إثماً وجب أن يسقط القاذف من مرتبة قبول الشهادة، وعلى ذلك يخرج ما ورد من النهي عن مفاتحة المبتدع^(٥) والفاسق^(٦) السلام والكلام...، ونظيره من سياسة المدينة زيادة جائزة الرماة وتقديمهم في الإثبات والإعطاء.

إذا أمر الله القوم بشيء كان من حق ذلك أن يؤمروا بعزيمة الإقدام :
ومنها : أنه إذا أمر القوم بشيء، أو نهوا عنه كان من حق ذلك أن يؤمروا بعزيمة الإقدام على هذا والكف عن ذلك وأن يأخذوا قلوبهم

(١) إحصاء : أحصى الشيء عدده وضبطه . (٢) القسي : جمع قوس .

(٣) أي الأصول . (٤) المواظبة : المثابرة .

(٥) المبتدع : الذي يحدث في الدين ما ليس منه .

(٦) الفاسق : الخارج عن طاعة الله تعالى .

بإضرار الداعية حسب الفعل، ولذلك ورد التوبيخ عن إضرار أن يقصد
عدم الأداء في القرض والمهر.

إذا كان شيء يحتمل مفسدة كان من حقه أن يكره:

ومنها أنه إذا كان شيء يحتمل مفسدة كان من حقه أن يكره
كقوله ﷺ: «فلا يغمس^(١) يده في الإناء، فإنه لا يدري أين باتت يده»
وبالجملة علم الله تعالى نبيه أحكاماً من العبادات والارتفاقات فينبها
النبي ﷺ بهذا النحو من البيان وخرج منها أحكاماً جلية في كل باب باب،
وهذا الباب من البيان مع الباب الذي يليه إن شاء الله تعالى تلقاهما فقهاء
الامة من بين علوم النبي ﷺ ووعاهما قلوبهم بتدبر، فانشعب منهما
ما أودعوه في مصنفاتهم وكتبهم، والله أعلم.

باب ضبط المبهم وتميز المشكل والتخريج من الكلية ونحو ذلك

اعلم أن كثيراً من الأشياء التي أديرت الأحكام على أساميتها معلوم
بالمثال والقسمة، غير معلوم بالحد الجامع المانع^(٢) الذي يكشف حال كل
فرد أنه منه أو لا كالسرقة قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا
أَيْدِيَهُمَا﴾^(٣).

أجرى الحد على اسم السارق، ومعلوم أن الواقع في قصة بني
الأبريق وطعيمة والمرأة^(٤) المخزومية هي السرقة.

(١) أوله إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس إبع كما في الصحيحين.

(٢) الجامع المانع: أي الجامع لأفراد جنسه والمانع لدخول ما ليس منه.

(٣) سورة المائدة/ الآية ٣٨ - تقطع يمين السارق من الكوع على أن يكون قيمة المسروق ربع
دينار فصاعداً كما بينت السنة.

(٤) أي فاطمة بنت الأسود التي سرقت وشفع فيها أسامة بن زيد فلم يقبل رسول الله ﷺ
الشفاعة وقال: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

أخذ مال الغير أقسام عدة :

ومعلوم أن أخذ مال الغير أقسام : منها السرقة، ومنها قطع الطريق، ومنها الاختلاس، ومنها الخيانة، ومنها الالتقاط، ومنها الغصب، ومنها قلة المبالاة، وفي مثل ذلك ربما يسأل النبي ﷺ عن صورة هل هي من السرقة سؤال مقال أو سؤال حال، فيجب عليه أن يبين حقيقة السرقة متميزة عما يشاركها بحيث يتضح حال كل فرد فرد.

طريق تميز الأخذ أن ينظر إلى ذاتيات هذه الأسامي :

وطريق التميز أن ينظر إلى ذاتيات هذه الأسامي التي لا توجد في السرقة، ويقع بها التفارق بين القبلتين وإلى ذاتيات السرقة التي يفهمها أهل العرف من تلك اللفظة، ثم يضبط السرقة بأمر معنوية يحصل بها التمييز، فيعلم مثلاً :

أن قطع الطريق والحراية ونحوهما من الأسامي تنبىء عن اعتماد القوة بالنسبة إلى المظلومين واختيار مكان أو زمان لا يلحق فيه الغوث من الجماعة.

وأن الاختلاس ينبىء عن اختطاف على أعين الناس، وفي مرأى منهم ومسمع.

والخيانة تنبىء عن تقدم شركة أو مباسطة.

وحفظ الالتقاط ينبىء عن وجدان شيء في غير حرز.

والغصب ينبىء عن غلبة النسبة إلى المظلوم جهرة معتمداً على جدل أو ظن ألا ترفع القضية إلى الولاية، أو لا ينكشف عليهم جليلة الحال، أو لا يقضوا بحق لنحور شوة.

وقلة المبالاة تقال في الشيء التافه^(١) الذي جرى العرف ببذله
والمواساة به كالماء والحطب.

ضبط النبي حدود كل أخذ:

والسرقة تنبىء عن الأخذ خفيةً، فضبط النبي ﷺ السرقة بربع دينار
أو ثلاثة دراهم، ليطمئن عن التافه وقال: «ليس على خائن ولا منتهب
ولا مختلس قطع» وقال: «لا قطع في ثمر معلق ولا في حريسة^(٢) الجبل»
يشير إلى اشتراط الحرز.

الرفاهية مفسدة وغير مضبوطة:

وكالرفاهية البالغة فإنها مفسدة غير مضبوطة، ولا متميز مواقع وجودها
بإمارات ظاهرة يؤاخذ بها الأداني والأقاصي، ولا يشتبه على أحد أن
الرفاهية متحققة فيها، معلوم أن عادة العجم في اقتناء المراكب الفارهة
والأبنية الشامخة والثياب الرفيعة والحلى المترفة ونحو ذلك من الرفاهية
البالغة، ومعلوم أن الترفه مختلف باختلاف الناس، فترفه قوم تقشف^(٣)
عند الآخرين، وجيد إقليم تافه في إقليم آخر.

ومعلوم أن الارتفاق قد يكون بالجيد وبالرديء والثاني ليس
بترفه... ، والارتفاق بالجيد قد يكون من غير قصد إلى جودته، أو من غير
أن يكون ذلك غالباً عليه في أكثر أمره، فلا يسمى في العرف مترفهاً.

أطلق الشرع التنبيه على مفاصد الرفاهية :

فأطلق الشرع التنبيه على مفاصد الرفاهية مطلقاً، وخص أشياء
وجدتهم لا يرتفقون بها إلا للترفه، ووجد الترفه بها عادة فاشية فيهم، ورأى

(١) التافه: الحقيق.

(٢) حريسة: بمعنى محروسة أي ولا قطع فيما يحرس بالجبل إذا سرق لعدم الحرز.

(٣) تقشف: ضيق عيش.

أهل العصر من العجم والروم كالمجموعين على ذلك، فنصبها مظنة للرفاهية البالغة، وحرمتها، ولم ينظر إلى الارتفاقات النادرة، ولا إلى عادة الأقاليم البعيدة فتحريم الحرير وأواني الذهب والفضة من هذا الباب.

ثم إنه وجد^(١) حقيقة الرفاهية اختيار الجيد من كل ارتفاع والإعراض عن رديئه. والرفاهية البالغة اختيار الجيد وترك الرديء من جنس واحد، ووجد من المعاملات ما لا يقصد فيه إلا اختيار الجيد والإعراض عن الرديء من جنس واحد اللهم إلا في مواد قليلة لا يعبا^(٢) بها في قوانين الشرائع فحرمتها لأنها كالشبح لمعنى الرفاهية وكالتمثال لها وتحريمها كالمقتضى الطبيعي لكراهته الرفاهية وإذا كانت مظان الشيء محرمة لأجله وجب أن يحرم شبحه وتمثاله بالأولى.

تحريم بعض البيوع:

وتحريم بيع النقد والطعام بجنسهما متفاضلاً^(٣) مخرج على هذه القاعدة، ولم يحرم اشتراء الجيد بالثمن الغالي لأن الثمن ينصرف إلى ذات المبيع دون وصفه عند اختلاف الجنس.

ولم يحرم اشتراء جارية بجاريتين، ولا ثوب بشوبين لأنها من ذوات القيم فتصرف زيادة الثمن إلى خواص الشخص، وتكون الجودة مغمورة في تلك الخواص، فلا يتحقق اعتبار الجودة بادي الرأي.

ومما مهدنا ينكشف كثير من النكت^(٤) المتعلقة بهذا الباب كسبب كراهية بيع الحيوان بالحيوان وغير ذلك، فليتدبر.

(١) أي يعني النبي ﷺ.

(٢) لا يعبا: لا يهتم ولا يبالي.

(٣) متفاضلاً: زائداً أحدهما على الآخر.

(٤) النكت: جمع نكتة وهي المسألة الدقيقة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر.

اشتباه صور بعض المعاملات :

وقد يكون شيئان مشتبهين لا يتميزان لأمر خفي لا يدركه إلا النبي ﷺ والراسخون في العلم من أمته، فتمس الحاجة إلى معرفة علامة ظاهرة لكل منهما وإدارة حكم البر والإثم على علامتهما، وأحكام التفريق بينهما (مثاله) النكاح والسفاح.

فحقيقة النكاح إقامة المصلحة التي يبنى عليها نظام العالم بالتعاون بين الزوج وزوجته وطلب النسل وتحصين الفرج^(١) ونحو ذلك، وذلك مرضي عنه مطلوب.

وحقيقة السفاح^(٢) جريان النفس في غلوائها وإمعانها في اتباع شهوتها وخرق جلباب الحياء والتقيد عنها وترك التعرّيج إلى المصلحة الكلية والنظام الكلي، وذلك مسخوط عليه ممنوع عنه، وهما مشتبهان في أكثر الصور، فإنهما يشتركان في قضاء الشهوة وإزالة ألم الغلظة والميل إلى النساء ونحو ذلك، فمست الحاجة إلى تمييز كل واحد عن صاحبه بعلامة ظاهرة، وإدارة الطلب والمنع عليها.

خص الله النكاح بأمور:

فخص النبي ﷺ النكاح بأمور: (منها) أن يكون بالنساء دون الرجال، فإن طلب النسل لا يكون إلا منهن، وأن يكون من عزم ومشورة وإعلان، فشرط حضور الشهود والأولياء ورضا المرأة.

ومنها توطين النفس على التعاون، ولا يكون ذلك في الأكثر إلا بأن يكون دائماً لازماً غير مؤقت، فحرم نكاح السر والتمتعة، وحرّم اللواط.

(١) تحصين الفرج: أي طلب العفة. (٢) السفاح: الزنا.

ربما يكون فعل من البر مشتبهاً بمقدمات الآخر :
وربما يكون فعل من البر مشتبهاً بما هو من مقدمات الآخر، فتمس
الحاجة إلى التفرقة بينهما كالقومة شرعت فاصلة بين الركوع والانحناء
الذي هو من مقدمات السجود.

وربما لا يكون الشيء متكثر الارتفاق كالجلوس بين السجدين،
وربما يكون الشرط أو الركن في الحقيقة أمراً خفياً وفعلاً من أفعال القلب،
فينصب له إمارة من أفعال الجوارح أو الأقوال، ويجعل هوركناً ضبطاً
للخفي به كالنية، وإخلاص العمل لله أمر خفي، فنصب استقبال القبلة
والتكبير له مظنة، وجعل أصلاً في الصلاة، وإذا ورد النص بصيغة،
أو اقتضى الحال إقامة نوع مداراً للحكم، ثم حصل في بعض المواد
اشتباه، فمن حقه أن يرجع في تفسير تلك الصيغة أو تحقيق حد جامع مانع
لذلك النوع إلى عرف العرب.

مثال آخر على فعل البر المشتبه :

كما ورد النص في الصوم بشهر رمضان، ثم وقع الاشتباه في صورة
الغيمة، فكان الحكم ما عند العرب من إكمال عدة شعبان ثلاثين، وأن
الشهر قد يكون ثلاثين يوماً، وقد يكون تسعة وعشرين، وهو قوله ﷺ : «إنا
أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر كذا» الحديث.

وكما ورد النص في القصر بصيغة السفر، ثم وقع الاشتباه في بعض
المواد، فحكم الصحابة أنه خروج من الوطن إلى موضع لا يصل إليه في
يومه ذلك ولا أوائل ليلته تلك، ومن ضرورته أن يكون مسيرة يوم وشيء
معتد به من اليوم الآخر، فيضبط بأربعة برد^(١).

(١) برد: جمع بريد. والبريد الرسول وكذلك المسافة التي يقطعها الرسول عادةً وتقدر باثني
عشر ميلاً تقريباً.

تخصيص النبي بحكم من بين أمته :

واعلم أن العمدة في تخصيص النبي ﷺ بحكم من بين أمته أن يكون الحكم راجعاً إلى مظنة شيء دون حقيقته، وهو قول طاوس في ركعتين بعد العصر إنما نهي عنهما لئلا يتخذ سلماً، والنبي ﷺ يعرف الحقيقة، فلا اعتبار في حقه للمظنة بعد ما عرف المثنة^(١) كتزوج أكثر من أربعة نسوة هو مظنة ترك الإحسان في العشرة الزوجية وإهمال أمرهن، ويشته على سائر الناس.

أما النبي ﷺ، فهو يعرف ما هو المرضي عنه في العشرة الزوجية، فأمر بنفسه دون مظنته.

أو يكون راجعاً إلى تحقيق الرسم دون معنى تهذيب النفس كنهيه عن بيع وشرط، ثم اتباع من جابر بغيراً على أن له ظهره إلى المدينة.

أو يكون مفضياً^(٢) إلى شيء بالنسبة إلى من ليس له مسكة العصمة^(٣)، وهو قول عائشة رضي الله عنها في- قبلة الصائم أيكم يملك إربه^(٤) كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه.

أو تكون نفسه العالية مقتضية لنوع من البر، فيؤمر به لأن هذه النفس تشتاق إلى زيادة التوجه إلى الله، وإلى زيادة خلع جلباب^(٥) الغفلة، كما يشتاق الرجل القوي إلى أكل طعام كثير كالتهدج والضحي والأضحية على قول، والله أعلم.

(١) المثنة: الحقيقة.

(٢) مفضياً: مؤدياً.

(٣) مسكة العصمة: الإمساك عن المعصية.

(٤) الإرب: بكسر الهمزة وسكون الراء العضو أعني الذكر، ويروى أيضاً بفتحين بمعنى الحاجة أي يغلب هواه.

(٥) جلباب: ثوب.

باب التيسير

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (١).

وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (٢).

وقال رسول الله ﷺ لأبي موسى، ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما لما بعثهما إلى اليمن «يسراً، ولا تعسراً، وبشراً ولا تنفراً، وتطاوعاً، ولا تختلفاً» وقال ﷺ: «فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين».

يحصل التيسير بوجوه:

١ - أن لا يجعل ما يشق ركناً أو شرطاً:

والتيسير يحصل بوجوه منها: ألا يجعل شيء يشق عليهم ركناً أو شرطاً لطاعة، والأصل فيه قوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

٢ - جعل شيء من أفعال الدنيا طاعات:

ومنها أن يجعل شيء من الطاعات رسوماً يتباهون^(٣) بها داخله فيما كانوا يفعلونه بداعية من عند أنفسهم كالعيدين والجمعة وهو قوله ﷺ: «ليعلم اليهود أن في ديننا فسحة» فإن التجميل في الاجتماعات العظيمة والمنافسة فيما يرجع إلى التباهي ديدن^(٤) الناس.

(١) سورة آل عمران ١٥٩ - فبما رحمة من الله لنت لهم: لنت لهم: لانت وسهلت أخلاقك وكرمت رغم أنهم خالفوك - فظاً: سئء الخلق - غليظ القلب: جافياً - لانفضوا: لتفرقوا.

(٢) سورة البقرة/الآية ١٨٥.

(٣) رسوماً يتباهون: مظاهر يفتخرون بها.

(٤) ديدن: طريق.

٣ - جعل ما يرغبون فيه طاعات :

ومنها: أن يُسنَّ لهم في الطاعات ما يرغبون فيه بطبيعتهم لتكون الطبيعة داعية إلى ما يدعو إليه العقل فيتعاصد^(١) الرغبتان، ولذلك سن تطيب المساجد وتنظيفها والاعتسال يوم الجمعة والتطيب فيه، واستحب التغني بالقرآن وحسن الصوت بالأذان.

٤ - وضع الإصر عن المكلفين :

ومنها: أن يوضع عنهم الإصر، وما يتنفرون منه بطبيعتهم، ولذلك كره إمامة العبد والأعرابي ومجهول النسب، فإن القوم ينجحون من الاقتداء بمثل ذلك.

٥ - إبقاء شيء مما تقتضيه طبيعة أكثر الناس :

ومنها: أن يبقى عليهم شيء مما تقتضيه طبيعة أكثرهم، أو يجدون عند تركه حرجاً في أنفسهم كالسلطان هو أحق بالإمامة، وصاحب البيت أحق بالإمامة، والذي ينكح امرأة جديدة يجعل لها سبعا^(٢) أو ثلاثاً، ثم يقسم بين أزواجه.

٦ - جعل تعليم العلم والموعظة سنة بينهم :

ومنها: أن يجعل السنة بينهم تعليم العلم والموعظة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لتمتلىء به أوعية قلوبهم، فينقادوا للنواميس^(٣) من غير كلفة، وكان رسول الله ﷺ يتخولهم بالموعظة^(٤).

(١) فيتعاصد الرغبتان: تستعينان وتقوى إحداهما بالأخرى.

(٢) أي يجعل سبعة أيام للبكر وثلاثة أيام للثيب أول ما ينكح ثم يعدل بينهما.

(٣) النواميس: القوانين.

(٤) أي يتعهدهم بالموعظة مخافة السامة.

٧ - فعل الرسول ما يدعوهم إليه ليعتبروا به :
ومنها : أن يفعل النبي ﷺ أفعالاً مما يأمرهم به أو يرخصهم فيه
ليعتبروا بفعله .

ومنها : أن يدعو الله تعالى أن يجعل القوم مهذبين كاملين .

ومنها : أن تنزل عليهم سكينه من ربهم بواسطة الرسول ، فيصيروا
بين يديه بمنزلة من على رأسه الطير .

٨ - إرغام من أراد غير الحق بتأييسه :

ومنها أن يرغم أنف من أراد غير الحق بتأييسه^(١) كالقاتل لا يرث ،
والمكره في الطلاق لا ينفذ طلاقه ، فيكون كابحاً^(٢) للجبارين من الإكراه
إذا لم يحصل غرضهم .

٩ - تشريع ما فيه مشقة شيئاً فشيئاً :

ومنها : ألا يشرع لهم ما فيه مشقة إلا شيئاً فشيئاً وهو قول عائشة
رضي الله عنها إنما أنزل أول ما نزل منه^(٣) سور من المفصل فيها ذكر الجنة
والنار ، حتى إذا تاب^(٤) الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل
أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا
لا ندع الزنا أبداً .

١٠ - ألا يفعل الرسول ما تختلف به قلوبهم :

ومنها : ألا يفعل النبي ﷺ ما تختلف به قلوبهم ، فيترك بعض الأمور
المستحبة لذلك ، وهو قوله ﷺ لعائشة : «لولا حدثان^(٥) قومك بالكفر

(١) تأيسه : حرمانه .

(٢) كابحاً : مانعاً .

(٣) أي القرآن .

(٤) تاب : عاد .

(٥) حدثان الشيء بالكسر أوله وهو مصدر حدث أراد قرب عهدهم بالكفر والخروج منه إلى
الإسلام وأنه لم يتمكن الدين في قلوبهم فلو هدمت الكعبة ربما نفروا منه .

لنقضت (١) الكعبة، وبنيتها على أساس إبراهيم عليه السلام».

١١ - ضبط أعمال البر ليسهل فعلها:

ومنها: أن الشارع أمر بأنواع البر من الوضوء والغسل والصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها، ولم يتركها مفوضة إلى عقولهم، بل ضبطها بالأركان والشروط والآداب ونحوها، ثم لم يضبط الأركان والشروط والآداب كثير ضبط، بل تركها مفوضة إلى عقولهم وإلى ما يفهمونه من تلك الألفاظ، وما يعتادونه في ذلك الباب.

فبيّن مثلاً أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، ولم يبين مخارج الحروف التي تتوقف عليها صحة قراءة الفاتحة وتشديداتها وحركاتها وسكناتها.

وبيّن أن استقبال القبلة شرط في الصلاة، ولم يبيّن قانوناً نعرف به استقبالها.

وبيّن أن نصاب الزكاة (٢) مائتا درهم، ولم يبين أن الدرهم ما وزنه، وحيث سئل عن مثل ذلك لم يزد على ما عندهم، ولم يأتهم بما لا يجدونه في عاداتهم، فقال في مسألة هلال شهر رمضان: «فإذا غم (٣) عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين» وقال في الماء يكون في فلاة (٤) من الأرض ترده السباع والبهائم: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً (٥)» وأصله معتاد فيهم كما بينا.

والسر في ذلك أن كل شيء منها لا يمكن أن يبين إلا بحقائق مثلها في الظهور والخفاء وعدم الانضباط، فيحتاج أيضاً إلى البيان وهلمّ جراً،

(١) نقض: هدم.

(٢) نصاب الزكاة: أي المبلغ الذي تجب عنده الزكاة.

(٣) غم عليه الأمر: خفي واستعجم.

(٤) فلاة: صحراء ومحل واسع.

(٥) خبثاً: نجاسة.

وذلك حرج عظيم من حيث إن كل توقيت تضيق عليهم في الجملة، فإذا كثرت التوقيتات ضاق المجال كل الضيق، ومن حيث إن الشرع يكلف به الأداني والأقاصي كلهم، وفي حفظ تلك الحدود على تفصيلها حرج شديد، وأيضاً فالناس إذا اعتنوا بإقامة ما ضبط به البر اعتناء شديداً لم يحسوا بفوائد البر، ولم يتوجهوا إلى أرواحها كما ترى كثيراً من المجودين لا يتدبرون معنى القرآن لاشتغال بالهم بالألفاظ، فلا أوفق بالمصلحة من أن يفوض إليهم الأمر بعد أصل الضبط، والله أعلم.

١٢ - الشارع يخاطب على ميزان العقل:

ومنها: أن الشارع لم يخاطبهم إلا على ميزان العقل المودع في أصل خلقتهم قبل أن يتعانوا دقائق الحكمة والكلام والأصول، فأثبت لنفسه جهة فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١).

وقال النبي ﷺ لامرأة سوداء: «أين الله فأشارت إلى السماء فقال هي مؤمنة» ولم يكلفهم في معرفة استقبال القبلة وأوقات الصلاة والأعياد حفظ مسائل الهيئة والهندسة وأشار بقوله: «القبلة ما بين المشرق والمغرب» إذا استقبل الكعبة إلى وجه المسألة وقال: «الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون» والله أعلم.

باب أسرار الترغيب والترهيب

من نعمة الله تبارك وتعالى على عباده أن أوحى إلى أنبيائه صلوات الله عليهم ما يترتب على الأعمال من الثواب والعذاب؛ ليخبروا القوم به، فتمتلئ قلوبهم رغبة ورهبة، ويتقيدوا بالشرائع بداعية منبعثة من أنفسهم كسائر ما فيه دفع ضرر^(٢) أو جلب نفع وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا

(٢) دفع ضرر: منع ضرر.

(١) سورة طه/ الآية ٥.

عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١﴾

هناك قواعد كلية ترجع إليها جزئيات الترغيب والترهيب:

ثم إن ههنا قواعد كلية إليها ترجع جزئيات الترغيب والترهيب، وكان فقهاء الصحابة يعلمونها إجمالاً، وإن لم يكونوا أحرزوها تفصيلاً، ومما يدل على ما ذكرنا ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «وفي بضع أحدكم صدقة، فقالوا: يأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال أرأيتم لو وضعها في حرام كان عليه وزر^(٢)» فما توقفوا في هذه المسألة دون غيرها، وما اشتبه عليهم لميتها إلا لما عندهم من معرفة مناسبة الأعمال لأجزئتها، وأنها ترجع إلى أصل معقول المعنى، ولولا ذلك لم يكن لسؤالهم ولا لجواب النبي ﷺ - بالاعتبار بأصل واضح - وجه، وقولي هذا نظير^(٣) ما قاله الفقهاء في حديث: «لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم قال: فدين الله أحق أن يُقضى» من أنه يدل على أن الأحكام معلقة بأصول كلية.

وحاصل السؤال أن الصدقات ترجع إلى تهذيب النفس كالتسبيح والتهليل والتكبير أو إقامة المصلحة في نظام المدينة، وأن السيئات ترجع إلى أضداد هاتين. وقضاء شهوة الفرج اتباع لداعية البهيمية، ولا يعقل فيه مصلحة زائدة على العادات أو نحو ذلك مما يرجع إلى معرفة كلية واستغراب رجوع المسألة إليها.

(١) سورة البقرة/ الآية ٤٥ - وإنها لكبيرة: أي الصلاة ثقيلة على غير الخاشعين. والخاشعون هم المؤمنون المطمئنون الخاضعون لله تعالى الطائعون لأوامره - يظنون: يوقنون - ملاقوا ربهم: أي يوم الحساب.

(٢) وزر: وجمعه أوزار وهو الإثم. والوزر في الأصل الثقل. والإثم ذنب ثقيل يحمله المرء وينهله يوم القيامة.

(٣) نظير: شبيه ومماثل.

وحاصل الجواب أن جماع الحليلة^(١) يحصن فرجها وفرجه، وفيه خلاص مما يكون قضاء الشهوة في غير محلها اقتحاماً فيه.

طرق الترغيب والترهيب:

وللترغيب والترهيب طرق: ولكل طريقة سر، ونحن ننبهك على معظم تلك الطرق.

من طرق الترغيب والترهيب بيان الأثر المترتب على العمل:

فمنها بيان الأثر المترتب على العمل في تهذيب النفس من انكسار إحدى القوتين أو غلبتها وظهورها، ولسان الشارع أن يعبر عن ذلك بكتابة الحسنات ومحو السيئات كقوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب^(٢)، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه» وقد ذكرنا سره فيما سبق.

ومن طرق الترغيب بيان أثره في الحفظ عن الشيطان:

ومنها: بيان أثره في الحفظ عن الشيطان وغيره كقوله ﷺ: «وكان في حرز^(٣) من الشيطان حتى يمسي» وقوله ﷺ: «لا يستطيعها البطلة^(٤)» أو توسيع الرزق وظهور البركة ونحو ذلك.

والسر في بعض ذلك أنه طلب من الله السلامة، وهو سبب أن

(١) الحليلة: الزوجة وذلك لأنها تحل لزوجها.

(٢) عدل عشر رقاب: مثل إعتاق عشر أرقاء.

(٣) حرز: حفظ وصيانة.

(٤) أوله: (اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة) أي الخاسرون.

يستجاب دعاؤه، وهو قوله ﷺ راوياً عن الله تبارك وتعالى: «ولئن استعاذني لأعيذنه، ولئن سألتني لأعطينه»^(١) وفي البعض الآخر أن الغوص في ذكر الله والتوجه إلى الجبروت والاستمداد من الملكوت يقطع المناسبة بهؤلاء، وإنما التأثير بالمناسبة، وفي البعض الآخر أن الملائكة تدعو لمن كان على هذه الحالة، فيدخل في شراج^(٢) كثيرة، فتارة في جلب نفع، وتارة في دفع ضرر.

ومنها بيان أثره في المعاد، وسره ينكشف بمقدمتين:

لا يحكم على الشيء بكونه سبباً للثواب والعذاب:

إحدهما: أن الشيء لا يحكم عليه بكونه سبباً للثواب أو العذاب في المعاد حتى يكون له مناسبة بأحد سببي المجازاة، إما أن يكون له دخل في الأخلاق الأربعة المبنية عليها السعادة وتهذيب النفس إثباتاً أو نفيًا، وهي النظافة، والخشوع لرب العالمين، وسماحة النفس، والسعي في إقامة العدل بين الناس، أو يكون له دخل في تمشية ما أجمع الملا الأعلى على تمشيته من التمكين للشرائع والنصرة للأنبياء عليهم السلام إثباتاً أو نفيًا.

ومعنى المناسبة أن يكون العمل مظنة لوجود هذا المعنى أو متلازماً له في العادة أو طريقاً إليه.

(١) أوله: «ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» رواه البخاري عن أبي هريرة. استعاذ به: لجأ إليه واعتصم به.

(٢) شراج: جمع شرح بالكسر وهو مسيل الماء، والمراد الطريق.

كما أن كونه يصلي ركعتين لا يحدث فيهما نفسه مظنة الإخبات
وتذكر جلال الله والترقي من حضيض البهيمية.

وكما أن إسباغ الوضوء^(١) طريق إلى النظافة المؤثرة في النفس.

وكما أن بذل المال الخطير الذي يشح به عادة والعفو عن ظلم
وترك المرء فيما هو حق له مظنة لسماحة النفس ومتلازم لها.

وكما أن إطعام الجائع وسقي الظمآن والسعي في إطفاء نائرة الحرب
من بين الأحياء مظنة لإصلاح العالم وطريق إليه.

وكما أن حب العرب طريق إلى التزبي بزيتهم، وذلك طريق عطف
إلى الأخذ بالملة الحنيفية، لأنها تشخصت في عاداتهم وتنويه بأمر الشريعة
المصطفوية.

وكما أن المحافظة على تعجيل الفطر تباعد عن الاختلاط الملل
وتحريفها^(٢).

العمل الشاق يشرح الإخلاص ويعرف صدق العزيمة:

وما زالت طوائف الناس من الحكماء وأهل الصناعات والأطباء
يديرون الأحكام على مظانها، وما زال العرب جارين على ذلك في خطبهم
ومحاوراتهم، وقد ذكرنا بعض ذلك...، أو يكون^(٣) عملاً شاقاً أو خاملاً
أو غير موافق للطبيعة لا يقصده، ولا يقدم عليه إلا المخلص حق
الإخلاص، فيصير شرحاً لإخلاصه كالتضلع^(٤) من ماء زمزم وكحب علي

(١) إسباغ الوضوء: سبغ تأتي بمعنى تم وكمل وطال وإسباغ الوضوء إتمامه على الوجه
الأكمل.

(٢) تحريف: تبديل وتغيير.

(٣) عطف على أن يكون العمل مظنة.

(٤) التضلع: تضلع امتلاً شعباً ورياً وتضلع من العلوم نال حظاً وافراً منها وفي حديث زمزم: =

رضي الله عنه فإنه كان شديداً في أمر الله وكحب الأنصار فإنه لم تنزل العرب المعديّة واليمنية متباغضين فيما بينهم حتى أفهم الإسلام، فالتأليف معرف لدخول بشاشة الإسلام في القلب وكالطلوع على الجبل والسهر في حراسة جيوش المسلمين فإنه معرف لصدق عزمته في إعلاء كلمة الله وحب دينه.

الإنسان إذا مات ورجع إلى نفسه لا بد أن تظهر صورة التألم والتنعم:

المقدمة الثانية: أن الإنسان إذا مات ورجع إلى نفسه وإلى هيئاتها التي انصبغت بها، الملائمة لها، والمنافرة إياها - لا بد أن تظهر صورة التألم والتنعم بأقرب ما هنالك، ولا اعتبار في ذلك للملازمة العقلية، بل لنوع آخر من الملازمة لأجلها يجر بعض حديث النفس بعضاً، وعلى حسبها يقع تشبيح المعاني في المنام كما يظهر منع المؤذن الناس عن الجماع والأكل بصورة الختم على الفروج والأفواه.

ثم إن في عالم المثال مناسبات تبنى عليها الأحكام، فما ظهر جبريل في صورة دحية^(١) دون غيره إلا لمعنى، ولا ظهرت النار على موسى عليه السلام إلا لمعنى، فالعارف بتلك المناسبات يعلم أن جزاء هذا العمل في أي صورة يكون، كما أن العارف بتأويل الرؤيا يعرف أنه أي معنى ظهر في صورة ما رآه.

تشبيح المعاني في كلام النبي عليه السلام:

وبالجملة فمن هذا الطريق يعلم النبي ﷺ أن الذي يكتم العلم،

= فشرب حتى تضلع أي أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلعه وفي حديث ابن عباس: أنه كان يتضلع من زمزم.

(١) دحية الكلبي - هو ابن خليفة الصحابي - كان جميلاً حسن الصورة.

ويكف نفسه عن التعليم عند الحاجة إليه يعذب بلجام من نار، لأنه تألمت النفس بالكف، واللجام شبح^(١) الكف وصورته .

والذي يحب المال، ولا يزال يتعلق به خاطره يطوف بشجاع أقرع^(٢) .

والذي يتعانى في حفظ الدراهم والدنانير والأنعام، ويحوط بها عن البذل لله يعذب بنفس تلك الأشياء على ما تقرر عندهم من وجه التأذي .

والذي يعذب نفسه بحديدة^(٣) أو سم، ويخالف أمر الله بذلك يعذب بتلك الصورة .

والذي يكسو الفقير يكسى يوم القيامة من سندس^(٤) الجنة .

والذي يعتق مسلماً ويفك رقبة عن آفة الرق المحيط به يعتق بكل عضو منه عضو منه من النار .

ومن طرف الترغيب تشبيه العمل بما تقرر في الأذهان :

ومنها تشبيه ذلك العمل بما تقرر في الأذهان حسنه أو قبحه، أما من جهة الشرع أو العادة وفي ذلك لا بد من أمر جامع بين الشيئين مشترك بينهما ولو بوجه من الوجوه، كما شبه المرابط^(٥) في المسجد بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس بصاحب حجة وعمرة، وشبه العائد في هبته بالكلب العائد في قيئه، ونسبته إلى المحبوبين أو المبغوضين، والدعاء لفاعله أو عليه، وكل ذلك ينبه على حال العمل إجمالاً من غير تعرض

(١) شبح : قالب .

(٢) الشجاع الأقرع : الثعبان الذي لا شعر على رأسه أي تمعظ جلد رأسه لكثرة سمه وطول عمره ، وقوله يتعانى أي يحتمل التعب والمشقة .

(٣) بحديدة : بسكين .

(٤) السندس : نوع من الحرير .

(٥) المرابط : المنتظر الجالس المعتكف .

لوجه الحسن أو القبح كقول الشارع: تلك صلاة المنافق^(١)، وليس منا من فعل كذا، وهذا العمل عمل الشياطين أو عمل الملائكة، ورحم الله امرءاً فعل كذا وكذا، ونحو هذه العبارات.

ومنها حال العمل في كونه متعلقاً لرضا الله أو سخطه وسبباً لاعتذار دعوة الملائكة إليه أو عليه كقول الشارع - إن الله يحب كذا وكذا، ويبغض كذا وكذا - وقوله ﷺ: «إن الله تعالى وملائكته يصلون على ميامن^(٢) الصفوف» وقد ذكرنا سره، والله أعلم.

باب طبقات الأمة باعتبار الخروج إلى الكمال المطلوب أو ضده

والأصل في هذا الباب قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٣). إلى آخر السورة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(٤).

(١) تمامه يجلس يرقب الشمس حتى إذا اصفرت وكانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً رواه مسلم.

(٢) ميامن: جمع ميمنة وهي الجهة اليمنى وتأتي الميمنة بمعنى اليمن والبركة. والمعنى الأول هو المقصود.

(٣) سورة الواقعة/ الآيات ٧ - ١١ - أزواجاً: أصنافاً - فأصحاب الميمنة: وهم المسلمون المتقون وسموا كذلك لأنهم يؤتون كتبهم بإيمانهم - ما أصحاب الميمنة: أعاد ذكرهم تعظيماً لشأنهم - وأصحاب المشأمة: وهم أصحاب الشمال يؤتى كل منهم كتابه بشماله دليل على غضب ربه عليه - ما أصحاب المشأمة: تحقيراً لشأنهم. والسابقون: وهم الأنبياء والمؤتون من الله تعالى.

(٤) ثم أورثنا: أعطينا - الكتاب: القرآن الكريم - الذين اصطفينا: الذين اخترنا من عبادنا

مراتب النفوس :

قد علمت أن أعلى مراتب النفوس هي نفوس المفهمين وقد ذكرناها، ويتلو المفهمين جماعة تسمى بالسابقين، وهم جنسان.

جنس أصحاب الاصطلاح والعلو:

جنس أصحاب اصطلاح وعلو كان استعدادهم كاستعداد المفهمين في تلقي تلك الكمالات إلا أن السعادة لم تبلغ بهم مبلغهم، فكان استعدادهم كالنائم يحتاج إلى من يوقظه، فلما أيقظه أخبار الرسل أقبلوا على ما يناسب استعدادهم من تلك العلوم مناسبة خفية في باطن نفوسهم، فصاروا كالمجتهدين في المذهب^(١)، وصار إلهامهم أن يتلقوا من الإلهام الجملي الكلي الذي توجه إلى نفوسهم بما يشملهم من الاستعداد في حظيرة القدس، وهو الأمر المشترك في أكثرهم، وترجم عنه الرسل.

جنس أصحاب تجاذب وعلو:

وجنس أصحاب تجاذب وعلو، ساقهم سائق التوفيق إلى رياضات وتوجهات قهرت بهيميتهم، فآتاهم الحق كمالاً علمياً وكمالاً عملياً، وصاروا على بصيرة من أمرهم فكانت لهم وقائع إلهية وإرشاد وإشراق مثل أكابر طرق الصوفية.

ويجمع السابقين أمران: أحدهما، أنهما يستفرغون طاقتهم في التوجه إلى الله والتقرب منه. وثانيهما، أن جبلتهم قوية فتمثل الملكات المطلوبة عندهم على وجهها من غير نظر إلى أشباح لها، وإنما يحتاجون

= وهم أمة محمد - فمنهم ظالم لنفسه: أي ظالم لنفسه بالتقصير في العمل - ومنهم مقتصد: أي يعمل أغلب الأوقات - ومنهم سابق: وهو من يعمل دائماً ويرشد غيره كي يعمل - الفضل الكبير هو جنات عدن.

(١) المجتهد في المذهب: هو المجتهد ليس له مذهب مستقل بل يتبع إماماً مجتهداً فيجتهد على شروطه وقد يخالفه في بعض الجزئيات والأحكام الفرعية.

إلى الأشباح شرحاً لتلك الملكات وتوسلاً بها إليها . . .

المفردون والصديقون :

منهم المفردون المتوجهون إلى الغيب طرح الذكر عنهم
أثقالهم . . . ، والصديقون المتميزون عن سائر الناس بشدة انقياد الحق
والتجرد له . . .

الشهداء :

والشهداء الذين أخرجوا للناس ، وحل فيهم صبغ الملائ الأعلى من
لعن الكافرين والرضا عن المؤمنين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
وإعلاء الملة بواسطة النبي ﷺ ، فإذا كان يوم القيامة قاموا يخاصمون
الكفرة ، ويشهدون عليهم ، وهم بمنزلة أعضاء النبي ﷺ في بعثته بهم
ليكمل الأمر المراد في البعثة ، ولذلك وجب تفضيلهم على غيرهم
وتوقيرهم . . .

الراسخون في العلم :

والراسخون في العلم أولو ذكاء وعقل لما سمعوا من النبي ﷺ العلم
والحكمة صادف ذلك منهم استعداداً فصار يمد لهم في باطنهم فهم معاني
كتاب الله على وجهها ، وإليه أشار علي رضي الله عنه حيث قال
- أو فهم^(١) أعطيه رجلٌ مسلم . . .

العباد الذين أدركوا فوائد العبادة عياناً :

والعباد الذين أدركوا فوائد العبادة عياناً^(٢) ، وانصبغت نفوسهم

(١) فهم : أي استنباط من القرآن قاله رضي الله عنه رداً لزعم الشيعة أن النبي ﷺ خص أهل
بيته لا سيما علياً بأسرار الوحي يعني ما أسر النبي إلي شيئاً كتبه عن غيري بل هذه
الاستنباطات أعطانيها ربي .

(٢) عياناً : مشاهدة .

بأنوارها، ودخلت في صميم أفئدتهم فهم يعبدون الله على بصيرة من أمرهم . . .

الزهاد الذين أيقنوا بالمعاد:

والزهاد الذين أيقنوا بالمعاد وبما هنالك من اللذة فاستحقروا في جنبها لذة الدنيا وصار الناس عندهم كأباعير^(١) الإبل . . . ، والمستعدون لخلافة الأنبياء عليهم السلام ممن يعبدون الله تعالى بخلق العدالة، فيصرفونه فيما أمر الله تعالى . . . ، وأصحاب الخلق الحسن أعني أهل السماحة من الجود والتواضع والعفو عن ظلم . . . ، والمتشبهون بالملائكة والمخالطون بهم، كما يذكر أن بعض الصحابة كان يسلم عليهم الملائكة .

لكل فرقة من هؤلاء استعداد جبلي:

ولكل فرقة من هذه الفرق استعداد جبلي يقتضي كماله بتيقظ بأخبار الأنبياء عليهم السلام واستعداد كسبي يتهاى بأخذ للشرائع فيهما يحصل كمالهم، ومن كان من المفهمين لم يبعث إلى الخلق فإنه يعد في الشرائع من السابقين .

أصحاب اليمين أجناس:

ويتلو السابقين جماعة تسمى بأصحاب اليمين، وهم أجناس: جنس نفوسهم قريبة المأخذ من السابقين لم يوفقوا لتكميل ما جبلوا له، فاقترضوا على الأشباح^(٢) دون الأرواح لكنهم ليسوا بأجنبيين منها. وجنس أصحاب التجاذب نفوسهم ضعيفة الملكية قوية البهيمية

(١) أباغير: جمع بغير وهو الجمل البازل ويطلق على الذكر والأنثى.

(٢) الأشباح: الأجسام.

وفقوا لرياضات شاقة، فأثمرت فيهم ما للملأ السافل أو ضعيفة البهيمية استهتروا بذكر الله تعالى فترشح عليهم إلهامات جزئية وتعبد وتطهر جزئيان.

وجنس أهل الاصطلاح ضعيفة الملكية جداً عضوا على الرياضيات الشاقة إن كانوا قويي البهيمية، أو الأوراد^(١) الدائمة إن كانوا ضعيفيها فلم يثمر ذلك لهم شيئاً من الانكشاف لكن دخلت الأعمال والهيئات التي هي أشباح الملكات الحسنة في جذر نفوسهم، وكثير منهم لا يشترط في عمله الإخلاص التام والتبري من مقتضى الطبع والعادة بالكلية فيتصدقون بنية ممتزجة من دقة الطبع ورجاء الثواب ويصلون لجريان سنة قومهم على ذلك ولرجاء الثواب، ويمتنعون من الزنا وشرب الخمر خوفاً من الله وخوفاً من الناس أو لا يستطيعون اتباع العشيقات ولا بذل الأموال في الملاهي، فيقبل منهم ذلك بشرط أن تضعف قلوبهم عن الإخلاص الصرف، وأن تتمسك نفوسهم بالأعمال أنفسها لا بما هي شروح للملكات.

وكان في الحكمة الأولى - إن من الحياء خيراً ومنه ضعفاً - فقال النبي ﷺ: «الحياء خير كله» ينبه على ما ذكرنا، وكثير منهم يبرق^(٢) عليهم بارقة ملكية في أوقات يسيرة، فلا يكون ملكة لهم، ولا يكونون أجنيبين عنها كالمستغفرين اللوامين أنفسهم، وكالذي يذكر الله خالياً وفاضت عيناه، وكالذي لا تمسك نفسه الشر لضعف في جبلته^(٣) إنما قلبه كقلب

(١) الأوراد: جمع ورد (بالكسر) وهو الجزء وأصل الأوراد أن الصحابة جعلوا القرآن أجزاء فكانوا يقرأون كل يوم جزءاً ثم جعل من الأوراد أدعية وسواها - يقال قرأ ورده أو حزبه وهما بمعنى واحد عند السلف.

(٢) يبرق: يظهر ويبدو.

(٣) جبلته: طبيعته وفطرته.

الطير أو لتحلل طارىء على مزاجه كالمبطون^(١) وأهل المصائب كفرت
بلاياهم خطاياهم .

وبالجملة فأصحاب اليمين فقدوا إحدى خصلتي السابقين ،
وحصلوا الأخرى ، وبعدهم جماعة تسمى بأصحاب الأعراف^(٢) وهم
جنسان :

أصحاب الأعراف :

قوم صحت أمزجتهم ، وزكت فطرتهم ، ولم تبلغهم الدعوة
الإسلامية أصلاً أو بلغتهم ، ولكن بنحو لا تقوم به الحجة ، ولا تزول به
الشبهة فنشأوا غير منهمكين في الملكات الخسيسة والأعمال المردية
ولا ملتفتين إلى جناب الحق لا نفيًا ، ولا إثباتًا ، كان أكثر أمرهم الاشتغال
بالارتفاقات العاجلة ، فأولئك إذا ماتوا رجعوا إلى حالة عمياء لا إلى
عذاب ، ولا إلى ثواب حتى تنفسخ بهيميتهم ، فيبرق عليهم شيء من
بوارق الملكية .

وقوم نقصت عقولهم كأكثر الصبيان والمعتوهين والفلاحين
والأرقاء ، وكثير يزعمهم الناس أنهم لا بأس بهم ، وإذا نقح حالهم عن
الرسوم بقوا لا عقل لهم ، فأولئك يكتفي من إيمانهم بمثل ما اكتفى رسول
الله ﷺ من الجارية السوداء سألها (أين الله) فأشارت إلى السماء^(٣) ،
إنما يراد منهم أن يتشبهوا بالمسلمين لثلاث تفرق الكلمة .

(١) المبطون : من أصيب بالحم في بطنه .

(٢) اختلف في أصحاب الأعراف فقيل هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يستحقوا
الجنة بالحسنات ولا النار بالسيئات فكانوا على الحجاب بين الجنة والنار وقال قوم هؤلاء
يدخلهم الله الجنة رحمةً منه - وقيل أصحاب الأعراف أنبياء وقيل ملائكة ومعرفتهم كلا
بسيماهم . والقول الأول هو الأرجح والله أعلم .

(٣) وتماه «فقال هي مؤمنة» وقد مر آنفاً .

الذين نشأوا في الرذائل :

أما الذين نشأوا منهمكين في الرذائل والتفتوا إلى جناب الحق على غير الوجه الذي ينبغي أن يكون، فهم أهل الجاهلية يعذبون بأصناف العذاب . . .

المنافقون :

وبعدهم جماعة^(١) تسمى بالمنافقين نفاق العمل، وهم أجناس لم تبلغ بهم السعادة إلى وجود الكمال المأمور به على ما هو عليه، إما غلب عليهم حجاب الطبيعة، ففنوا في ملكة رذيلة مثل شره الطعام والنساء والحق ما وضعت عنهم طاعتهم أوزارهم، أو حجاب الرسم، فلا يكادون يسمحون بترك رسوم الجاهلية ولا بمهاجرة الإخوان والأوطان، أو حجاب سوء المعرفة مثل المتشبهة .

المشركون شركاً خفياً :

والذين أشركوا بالله عبادة أو استعانة شركاً خفياً زاعمين أن الشرك المبغض غير ما يفعلونه، وذلك فيما لم تنص فيه الملة، ولم يكشف عنه الغطاء .

أهل الضعف والمجون :

ومنهم أولو ضعف وسماجة^(٢) وأهل مجون^(٣) وسخافة، لم ينفع حب الله وحب رسوله فيهم التبري عن المعاصي كقصة من كان يشرب الخمر، وكان يحب الله ورسوله بشهادة النبي ﷺ . . .

(١) هم أصحاب الأعراف .

(٢) سماجة : قبح .

(٣) مجون : مزح وقلة حياء وهو مشتق من مجن الشيء بمعنى غلظ ووصب والماجن قسا قلبه وغلظ .

الفاسقون :

وجماعة تسمى بالفاسقين وهم الذين يغلب عليهم أعمال السوء أكثر من الملكات الرذيلة، منهم أصحاب بهيمية شديدة اندفعوا إلى مقتضيات السبعية والبهيمية .

أصحاب الأمزجة الفاسدة :

ومنهم أولو أمزجة فاسدة وآراء كاسدة بمنزلة المريض الذي يحب أكل الطين والخبز المحترق، فصاروا يندفعون إلى الشيطنة^(١) . . .

آخرهم مرتبة الكفار :

وبعدهم^(٢) الكفار وهم المردة المتمردة أبوا أن يقولوا لا إله إلا الله مع تمام عقلهم وصحة التبليغ إليهم، أو ناقضوا إرادة الحق في تمشية أمر الأنبياء عليهم السلام، فصدوا عن سبيل الله، واطمأنوا بالحياة الدنيا، ولم يتلفتوا إلى ما بعدها، فأولئك يُلعنون لعناً مؤيداً، ويسجنون سجناً مخلداً، ومنهم أهل الجاهلية، ومنهم المنافق الذي آمن بلسانه، وقلبه باقٍ على الكفر الخالص، والله أعلم .

باب الحاجة إلى دين ينسخ الأديان

الملل لا تخلو من اعتقاد صدق :

استقرىء الملل الموجودة على وجه الأرض، هل ترى من تفاوت عما أخبرتك في الأبواب السابقة؟ كلا والله، بل الملل كلها لا تخلو من اعتقاد صدق صاحب الملة وتعظيمه، وأنه كامل منقطع النظر لما رأوا منه من الاستقامة في الطاعات أو ظهور الخوارق واستجابة الدعوات، ومن الحدود والشرائع والمزاجر^(٣) مما لا تنتظم الملة بغيرها، ثم بعد ذلك أمور

(١) الشيطنة : من تشيطن شيطنة أي فعل فعل الشيطان .

(٢) أي الفاسقين .

(٣) المزاجر: المحرمات .

تفيد الاستطاعة الميسرة مما ذكرنا ومما يضاويه .

لكل قوم سنة وشريعة :

ولكل قوم سنة وشريعة يتبع فيها عادة أوائلهم ، ويختار فيها سيرة حملة الملة وأئمتها ، ثم أحكم^(١) بنيانها ، وشدد أركانها حتى صار أهلها ينصرونها ، ويتناضلون دونها ، ويبذلون الأموال والمهج^(٢) لأجلها ، وما ذلك إلا لتدبيرات محكمة ومصالح متقنة لا تبلغها نفوس العامة .

وقوع الجور والابتداع :

ولما انفرد كل قوم بملة ، وانتحلوا^(٣) سنناً وطرائق ، وناقحوا^(٤) دونها بألستهم ، وقاتلوا عليها بأستهم ، ووقع فيهم الجور ؛ إما لقيام من لا يستحق إقامة الملة بها ، أو لاختلاط الشرائع الابتداعية ، ودسها فيها ، أو لتهاون حملة الملة ، فأهملوا كثيراً مما ينبغي ، فلم تبق إلا دمنة^(٥) لم تتكلم من أم أوفى ، ولا مت كل ملة أختها ، وأنكرت عليها ، وقاتلتها ، واختفى الحق ، مست الحاجة إلى إمام راشد يعامل مع الملل معاملة الخليفة الراشد مع الملوك الجائرة .

ولك عبرة فيما ذكره ناقل كتاب كليلة ودمنة من الهندية إلى الفارسية من اختلاط الملل ، وأنه أراد أن يتحقق الصواب فلم يقدر إلا على شيء يسير ، وفيما ذكره أهل التاريخ من حال الجاهلية واضطراب أديانهم .

(١) أحكم البنيان : أيقن البنيان .

(٢) المهج : جمع مهجة الدم أو دم القلب خاصة وكذلك تطلق المهجة على الروح .

(٣) انتحل : انتسب ، ادعى لنفسه ما ليس له .

(٤) ناقحوا : دافعوا أو خاصموا .

(٥) هي آثار الدار وهذا مثل .

هذا الإمام مصلح مجاهد:

وهذا الإمام الذي يجمع الأمم على ملة واحدة يحتاج إلى أصول أخرى غير الأصول المذكورة فيما سبق.

منها أن يدعو قوماً إلى السنة الراشدة، ويزكيهم، ويصلح شأنهم، ثم يتخذهم بمنزلة جوارحه، فيجاهد أهل الأرض، ويفرقهم في الأفاق، وهو قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١).

وذلك لأن هذا الإمام نفسه لا يتأتى منه مجاهدة أمم غير محصورة، وإذا كان كذلك وجب أن تكون مادة شريعته ما هو بمنزلة المذهب الطبيعي لأهل الأقاليم الصالحة عربهم وعجمهم، ثم ما عند قومه من العلم والارتفاقات، ويراعى فيه حالهم أكثر من غيرهم.

الإمام يحمل الناس جميعاً على اتباع الشريعة الواحدة:

ثم يحمل الناس جميعاً على اتباع تلك الشريعة لأنه لا سبيل إلى أن يفوض الأمر إلى كل قوم أو إلى أئمة كل عصر، إذ لا يحصل منه فائدة التشريع أصلاً، ولا إلى أن ينظر ما عند كل قوم، ويمارس كلاً منهم، فيجعل لكل شريعة؛ إذ الإحاطة بعاداتهم وما عندهم على اختلاف بلدانهم وتباين أديانهم كالممتنع، وقد عجز جمهور الرواة عن رواية شريعة واحدة، فما ظنك بشرائع مختلفة.

نكاثرات اتباع يحتاج إلى زمن متناول:

والأكثر أنه لا يكون انقياد الآخرين إلا بعد عدد ومدد لا يطول عمر النبي إليها، كما وقع في الشرائع الموجودة الآن فإن اليهود والنصارى والمسلمين ما آمن من أوائلهم إلا جمع، ثم أصبحوا ظاهرين بعد ذلك.

(١) سورة آل عمران/ الآية ١١٠ - كنتم: أي كنتم يا أمة محمد - خير أمة أخرجت: أظهرت.

مراعاة الأمم القادمة في التشريع :

فلا أحسن ولا أيسر من أن يعتبر في الشعائر والحدود والارتفاقات عادة قومه المبعوث فيهم، ولا يُضَيَّقُ كل التضيق على الآخرين الذين يأتون بعد، ويبقى عليهم في الجملة، والأولون يتيسر لهم الأخذ بتلك الشريعة بشهادة قلوبهم وعاداتهم، والآخرون يتيسر لهم ذلك بالرغبة في سير أئمة الملة والخلفاء، فإنها كالأمر الطبيعي لكل قوم في كل عصر قديماً أو حديثاً.

أحسن الأقاليم لنشر رسالة الشريعة :

والأقاليم الصالحة لتولد الأمزجة المعتدلة كانت مجموعة تحت ملكين كبيرين يومئذ :

أحدهما : كسرى - وكان متسلطاً على العراق واليمن وخراسان وما وليهما ، وكانت ملوك ما وراء النهر والهند تحت حكمه يجبي (١) إليه منهم الخراج كل سنة .

والثاني : قيصر، وكان متسلطاً على الشام والروم، وما وليهما، وكان ملوك مصر والمغرب والافريقية تحت حكمه يجبي إليه منهم الخراج .

وكان كسر دولة هذين الملكين والتسلط على ملكهما بمنزلة الغلبة على جميع الأرض، وكانت عاداتهم في الترفه سارية في جميع البلاد التي هي تحت حكمهما، وتغير تلك العادات، وصددهم عنها مفضياً (٢) في الجملة إلى تنبيه جميع البلاد على ذلك وإن اختلفت أمورهم بعده، وقد ذكر الهرمزان شيئاً من ذلك حين استشاره عمر رضي الله عنه في غزاة العجم، أما سائر النواحي البعيدة عن اعتدال المزاج، فليس بها كثير

(١) يجبي الخراج : يجمعه .

(٢) مفضياً : مؤدياً .

اعتداد في المصلحة الكلية ولذلك قال النبي ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوكم، ودعوا الحبشة ما ودعوكم».

دمغ الله باطل العرب بالنبي وباطل المملكتين بالعرب:

وبالجملة فلما أراد الله تعالى إقامة الملة العوجاء، وأن يخرج للناس أمة تأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، وتغير رسومهم^(١) الفاسدة كان ذلك موقوفاً على زوال دولة هذين متيسراً بالتعرض لحالهما فإن حالهما يسري في جميع الأقاليم الصالحة أو يكاد يسري فقضى الله بزوال دولتهما، وأخبر النبي ﷺ بأن هلك كسرى، فلا كسرى بعده، وهلك قيصر، فلا قيصر بعده، ونزل الحق الدامغ^(٢) لباطل جميع الأرض في دمغ باطل العرب بالنبي ﷺ وأصحابه، ودمغ باطل هذين الملكين بالعرب، ودمغ سائر البلاد بملتهما، والله الحجة البالغة.

علم النبي العرب الدين وجعل فيهم الخلافة العامة:

ومنها أن يكون^(٣) تعليمه الدين إياهم مضموماً إلى القيام بالخلافة العامة، وأن يجعل الخلفاء من بعده أهل بلده وعشيرته الذين نشأوا على تلك العادات والسنن، وليس التكحل في العينين كالكحل، وتكون الحمية^(٤) الدينية فيهم مقرونة بالحمية النسبية، ويكون علو أمرهم ونباهة^(٥) شأنهم علواً لأمر صاحب الملة ونباهة لشأنه، وهو قوله ﷺ: «الأئمة من قريش»، ويوصي الخلفاء بإقامة الدين وإشاعته، وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم.

(١) الرسوم: القوانين والأوامر. (٢) دمغ: أبطل ومحق.

(٣) أي من الأصول التي ينبغي للإمام الذي يجمع الأمم على ملة واحدة.

(٤) الحمية: الأنفة والغيرة.

(٥) نبة نباهة: شرف واشتهر. والنباهة عكس الخمول.

جعل الله الدين الإسلامي غالباً الأديان كلها:

ومنها: أن يجعل هذا الدين غالباً على الأديان كلها، ولا يترك أحداً إلا قد غلبه الدين بعز عزيز أو ذل ذليل، فينقلب الناس ثلاث فرق: منقاد للدين ظاهراً وباطناً، ومنقاد بظاهره على رغم أنفه لا يستطيع التحول عنه، وكافر مهان يسخره في الحصاد والدياس وسائر الصناعات كما تسخر البهائم في الحرث وحمل الأثقال، ويلزم عليه سنة زاجرة، ويؤتي^(١) الجزية عن يد وهو صاغر^(٢).

غلبة الإسلام لها أسباب:

وغلبة الدين على الأديان لها أسباب:

١ - إعلان شعائر الإسلام دون سواها:

منها: إعلان شعائره على شعائر سائر الأديان، وشعائر الدين أمر ظاهر يختص به يمتاز صاحبه به من سائر الأديان كالختان وتعظيم المساجد والأذان والجمعة والجماعات.

ومنها: أن يقبض^(٣) على أيدي الناس ألا يظهروا شعائر سائر الأديان.

٢ - إعلان أن غير المسلمين ليسوا أكفاء للمسلمين:

ومنها: ألا يجعل المسلمين أكفاء للكافرين في القصاص والديات ولا في المناكحات ولا في القيام بالرياسات ليلجئهم ذلك إلى الإيمان إلجاء.

٣ - تكليف الناس بأشباح البر:

ومنها أن يكلف الناس بأشباح البر والإثم، ويلزمهم ذلك إلزاماً

(٢) صاغر: ذليل مهان.

(١) يؤتي: يعطي.
(٣) أي صاحب الملة.

عظيماً، ولا يلوح لهم بأرواحها كثير تلويح، ولا يخيّرهم في شيء من الشرائع، ويجعل علم أسرار الشرائع الذي هو مأخذ الأحكام التفصيلية علماً مكنوناً لا يناله إلا من ارتسخت قدمه في العلم، وذلك لأن أكثر المكلفين لا يعرفون المصالح ولا يستطيعون معرفتها إلا إذا ضبطت بالضوابط، وصارت محسوسة يتعاطاها كل متعاط، فلورخص لهم في ترك شيء منها، ويبيّن أن المقصود الأصلي غير تلك الأشباح لتوسع لهم مذاهب الخوض، ولاختلفوا اختلافاً فاحشاً^(١) ولم يحصل ما أراد الله فيهم، والله أعلم.

٤ - إثبات الدين بأمور برهانية :

ومنها : أنه لما كانت الغلبة بالسيف فقط لا تدفع رين^(٢) قلوبهم، فعسى أن يرجعوا إلى الكفر عن قليل - وجب أن يثبت بأمور برهانية أو خطابية نافعة في أذهان الجمهور أن تلك الأديان لا ينبغي أن تتبع، لأنها غير ماثورة عن المعصوم، أو أنها غير منطبقة على قوانين الملة، أو أن فيها تحريفاً ووضعاً للشيء في غير موضعه، ويصحح ذلك على رؤوس الأشهاد، ويبين مرجحات الدين القويم من أنه سهل سمح، وأن حدوده واضحة يعرف العقل حسناتها، وأن ليلها نهارها، وأن سنتها أنفع للجمهور وأشبه بما بقي عندهم من سيرة الأنبياء السابقين عليهم السلام وأمثال ذلك، والله أعلم.

باب إحكام الدين من التحريف

صيانة الدين من التحريف :

لا بد لصاحب السياسة الكبرى الذي يأتي من الله بدين ينسخ الأديان

(١) اختلافاً فاحشاً : اختلافاً جاوز الحد المعتاد.

(٢) الرين : الحجاب الكثيف.

من أن يُحكّم^(١) دينه من أن يتطرق إليه تحريف^(٢)، وذلك لأنه يجمع أمماً كثيرة ذوي استعدادات شتى وأغراض متفاوتة، فكثيراً ما يحملهم الهوى أو حب الدين الذي كانوا عليه سابقاً أو الفهم الناقص حيث عقلوا شيئاً، وغابت مصالح كثيرة أن يهملوا ما نصت الملة عليه، أو يبدسوا^(٣) فيها ما ليس منها، فيختل الدين، كما قد وقع في كثير من الأديان قبلنا، ولما لم يمكن الاستقصاء في معرفة مداخل الخلل فإنها غير محصورة ولا متعينة، وما لا يدرك كله لا يترك كله - وجب أن ينذرهم من أسباب التحريف إجمالاً أشد الإنذار، ويخصّ مسائل قد علم بالحدس^(٤) أن التهاون والتحريف في مثلها أو بسببها داء مستمر في بني آدم فيسد مدخل الفساد منها بآتم وجه، وأن يشرع شيئاً يخالف مألوف الملل الفاسدة فيما هو أشهر الأشياء عندهم كالصلوات مثلاً.

من أسباب التحريف، التهاون :

ومن أسباب التحريف التهاون^(٥) وحقيقته أن يخلف بعد الحواريين خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات لا يهتمون بإشاعة الدين تعلماً وتعليماً وعملاً، ولا يأمرن بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، فينعدد عما قريب رسوم خلاف الدين، وتكون رغبة الطبائع خلاف رغبة الشرائع، فيجيء خلف آخرون يزيدون في التهاون حتى ينسى معظم العلم

والتهاون من سادة القوم وكبرائهم أضرّ بهم وأكثر إفساداً. وبهذا السبب ضاعت ملة نوح وإبراهيم عليهما السلام، فلم يكذ يوجد منهم من يعرفها على وجهها، ومبدأ التهاون أمور.

(١) يحكم: يتقن.

(٢) يتطرق إليه تحريف: يصيبه تغيير وتبديل.

(٣) دسه دساً: إذا أدخله في شيء بقهر وعنف.

(٤) الحدس: الظن.

(٥) التهاون: الإهمال والاستخفاف.

من أسباب التحريف، عدم تحمل الرواية:

منها عدم تحمل الرواية عن صاحب الملة والعمل به، وهو قوله ﷺ: «ألا يوشك رجل شبعان على أريكته^(١) يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام، فحرموه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله» وقوله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً^(٢) ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا، وأضلوا».

ومن أسباب التحريف: الأغراض الفاسدة:

ومنها: الأغراض الفاسدة الحاملة على التأويل الباطل كطلب مرضاة الملوك في أتباعهم الهوى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾^(٣).

ومنها شيوع المنكرات وترك علمائهم النهي عنها وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾^(٤).

(١) أريكة: سرير مزين فاخر وجمع أريكة أرائك.

(٢) انتزع: اقتلع. وقبض: أخذ.

(٣) سورة البقرة/ الآية ١٧٤ - إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب هم اليهود كتموا ما ورد في التوراة من بعث محمد - يشترون به ثمناً قليلاً: أي من الدنيا يأخذونه من سفلتهم فلا يظهرونه - أولئك يأكلون في بطونهم النار: لأن مآل المال الحرام النار يوم القيامة.

(٤) سورة هود/ الآية ١١٦ - فلولا: فهلاً - كان من القرون: أي الأمم الماضية - أولوا بقية: أصحاب دين وفضل - إلا قليلاً ممن أنجينا: لكن أنجينا منهم من نهوا - واتبع الذين ظلموا ما أترفوا: أي ترك النهي الذين أترفوا ونعموا فكانوا مجرمين يستحقون العقوبة.

وقوله ﷺ لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي : «نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وأكلوهم ، وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون» .

ومن أسباب التحريف ، التعمق :

ومن أسباب التحريف التعمق ، وحقيقته أن يأمر الشارع بأمر وينهى عن شيء فيسمعه رجل من أمته ، ويفهمه حسبما يليق بذهنه ، فيعدي الحكم إلى ما يشاكل الشيء بحسب بعض الوجوه أو بعض أجزاء العلة أو إلى أجزاء الشيء ومظانه ودواعيه ، وكلما اشتبه عليه الأمر لتعارض الروايات التزم الأشد ، ويجعله واجبا ، ويحمل كل ما فعله النبي ﷺ على العبادة ، والحق أنه فعل أشياء على العادة ، فيظن أن الأمر والنهي شملا هذه الأمور ، فيجهر بأن الله تعالى أمر بكذا ، ونهى عن كذا ، كما أن الشارع لما شرع الصوم لقهر النفس ومنع عن الجماع فيه ظن قوم أن السحور خلاف المشروع ؛ لأنه يناقض قهر النفس ، وأنه يحرم على الصائم قبلة امرأته لأنها من دواعي الجماع ، ولأنها تشاكل الجماع في قضاء الشهوة ، فكشف رسول الله ﷺ عن فساد هذه المقالة وبين أنه تحريف .

ومن أسباب التحريف ، التشدد :

ومنها التشدد وحقيقته اختيار عبادات شاقة لم يأمر بها الشارع كدوام الصيام والقيام والتبتل^(١) وترك التزوج ، وأن يلتزم السنن والآداب كالتزام الواجبات وهو حديث نهى النبي ﷺ عبد الله بن عمر وعثمان بن مظعون عما قصدا من العبادات الشاقة وهو قوله ﷺ : «لن يشاد الدين^(٢) أحد إلا

(١) التبتل : الانقطاع عن الدنيا لأجل العبادة .

(٢) يشاد الدين : يتعمق أحد في الدين بترك الرفق ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته إلا عجز عن عمله كله أو بعضه .

غلبه» فإذا صار هذا المتعمق أو المتشدد معلم قوم ورئيسهم ظنوا أن هذا أمر الشرع ورضاه، وهذا داء رهبان اليهود والنصارى.

ومن أسباب التحريف، الاستحسان:

ومنها الاستحسان وحقيقته أن يرى رجل الشارع يضرب لكل حكمة مظنة مناسبة، ويراه يعقد التشريع، فيختلس بعض ما ذكرنا من أسرار التشريع، فيشرع للناس حسبما عقل من المصلحة. كما أن اليهود رأوا أن الشارع إنما أمر بالحدود زجراً^(١) عن المعاصي للإصلاح، ورأوا أن الرجم يورث اختلافاً وتقاتلاً بحيث يكون في ذلك أشد الفساد، واستحسنوا تحميم^(٢) الوجه والجلد، فبين النبي ﷺ أنه تحريف ونبذ^(٣) لحكم الله المنصوص في التوراة بأرائهم. عن ابن سيرين^(٤) قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. وعن الحسن^(٥) أنه تلا هذه الآية: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٦).

قال: قاس إبليس وهو أول من قاس. وعن الشعبي قال: والله لئن أخذتم بالمقاييس لتُحرَّمن الحلال، ولتُحلَّ الحرام. وعن معاذ بن جبل: يفتح القرآن على الناس حتى يقرأه المرأة والصبي والرجل، فيقول الرجل قد قرأت القرآن، فلم أتبع، والله لأقومن به فيهم لعلي أتبع، فيقوم به فيهم، فلا يتبع، فيقول: قد قرأت القرآن فلم أتبع، وقد قمت به فيهم، فلم أتبع لأحتظرن في بيتي مسجداً لعلي أتبع، فيحتظر^(٧) في بيته

(١) زجراً: ردعاً.

(٢) تحميم الوجه: تسويده.

(٣) نبذ: نبذ الشيء طرحه ورمى به لقلة الاعتداد به.

(٤) ابن سيرين: أحد كبار التابعين اشتهر بالعلم وبتأويل الأحلام خاصة.

(٥) الحسن: أي الحسن البصري، عالم البصرة دون منازع وهو تابعي اشتهر بالزهد والعلم

والجهد بالحق دون خوف الحاكم الظالم وكان آنذاك هو الحجاج بن يوسف.

(٦) سورة الأعراف/ الآية ١٢.

(٧) لأحتظرن في بيتي مسجداً: لأعملن في بيتي مسجداً. وأصل احتظر صنع حظيرة وهي =

مسجداً، فلا يتبع، فيقول: قد قرأت القرآن، فلم أتبع، وقمت به فيهم، فلم أتبع، وقد احتظرت في بيتي مسجداً، فلم أتبع، والله لأتينيهم بحديث لا يجدونه في كتاب الله ولم يسمعه عن رسول الله ﷺ لعلني أتبع قال معاذ: فإياكم وما جاء به فإن ما جاء به ضلالة.

وعن عمر رضي الله عنه قال: يهدم الإسلام زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين، والمراد بهذا كله ما ليس استنباطاً من كتاب الله وسنة رسوله.

ومن أسباب التحريف، الإجماع غير المشروع:

ومنها اتباع الإجماع وحقيقته أن يتفق قوم من حملة الملة الذين اعتقد العامة فيهم الإصابتة غالباً أو دائماً على شيء فيظن أن ذلك دليل قاطع عن ثبوت الحكم، وذلك فيما ليس له أصل من الكتاب والسنة، وهذا غير الإجماع الذي أجمعت الأمة عليه، فإنهم اتفقوا على القول بالإجماع الذي مستنده الكتاب والسنة أو الاستنباط من أحدهما ولم يجوزوا القول بالإجماع الذي ليس مستنداً إلى أحدهما، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (١). الآية.

وما تمسكت اليهود في نفي نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام إلا بأن أسلافهم فحصوا عن حالهما، فلم يجدوهما على شرائط الأنبياء، والنصارى، لهم شرائع كثيرة مخالفة للتوراة والإنجيل ليس لهم فيها متمسك إلا إجماع سلفهم.

= مسكن يصنع غالباً من الأغصان وما شابه لتحظر فيها الإبل فتقيها البرد والريح.
(١) سورة البقرة/ الآية ١٧٠ - وإذا قيل لهم: أي للكفار - اتبعوا ما أنزل الله: أي من التوحيد وتحريم المحرمات - قالوا: لا نفعل بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا من عبادة الأصنام.

ومن أسباب التحريف، تقليد غير المعصوم:

ومنها تقليد غير المعصوم أعني غير النبي الذي ثبتت عصمته، وحقيقته أن يجتهد واحد من علماء الأمة في مسألة، فيظن متبعوه أنه على الإصابة قطعاً أو غالباً، فيردوا به حديثاً صحيحاً، وهذا التقليد غير ما اتفق عليه الأمة المرحومة، فإنهم اتفقوا على جواز التقليد للمجتهدين مع العلم بأن المجتهد يخطيء، ويصيب، ومع الاستشراف^(١) لنص النبي ﷺ في المسألة والعزم على أنه إذا ظهر حديث صحيح خلاف ما قلد فيه ترك التقليد، واتبع الحديث قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٢):

«إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه».

ومن أسباب التحريف، خلط ملة بملة أخرى:

ومنها: خلط ملة بملة حتى لا تتميز واحدة من الأخرى، وذلك أن يكون إنسان في دين من الأديان تعلق بقلبه علوم تلك الطبقة، ثم يدخل في الملة الإسلامية، فيبقى ميل قلبه إلى ما تعلق به من قبل، فيطلب لأجله وجهاً في هذه الملة ولو ضعيفاً أو موضوعاً، وربما جوز الوضع ورواية الموضوع لذلك، وهو قوله ﷺ: «لم يزل أمر بني إسرائيل معتدلاً حتى نشأ فيهم المولدون^(٣) وأبناء سبايا الأمم، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا» ومما دخل في ديننا علوم بني إسرائيل وتذكير خطباء الجاهلية وحكمة اليونانيين ودعوة البابليين وتاريخ الفارسيين والنجوم والرمل والكلام، وهو سر غضب

(١) استشرف الشيء: رفع بصره لينظر.

(٢) سورة التوبة/ الآية ٣١.

(٣) المولد من كان أبوه من قوم وأمه من آخر وكان أبناء سبايا الأمم عطف تفسيري والسبايا الأسراء.

رسول الله ﷺ حين قرىء بين يديه نسخة من التوراة، وضرب عمر رضي الله عنه من كان يطلب كتب دانيال، والله أعلم.

باب أسباب اختلاف دين نبينا ﷺ ودين اليهود والنصرانية

تبدأ الملة صحيحة مستقيمة ثم يدركها التعديل :

اعلم أن الحق تعالى إذا بعث رسولاً في قوم، فأقام الملة لهم على لسانه، فإنه لا يترك فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم إنه تمضي الرواية عنه، ويحملها الحواريون من أمته كما ينبغي برهنة من الزمان، ثم بعد ذلك يخلف خلف يحرفونها، ويتهاونون فيها، فلا تكون حقاً صرفاً بل ممزوجاً بالباطل، وهو قوله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمته إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون»^(١) الحديث.

الله يبعث رسولاً مصححاً:

وهذا الباطل منه إشراك جلي وتحريف صريح يؤخذون عليه على كل حال، ومنه إشراك خفي وتحريف مضمحل لا يؤخذ الله بها حتى يبعث الرسول فيهم، فيقيم الحجة، ويكشف الغمة^(٢) ليحيا من حيي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

فإذا بعث فيهم الرسول رد كل شيء إلى أصله، فنظر إلى شرائع الملة الأولى:

فما كان منها من شعائر الله لا يخالطها شرك ومن سنن العبادات

(١) بقية الحديث: فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل - رواه مسلم.
(٢) الغمة: الخفاء.

أو طرق الارتفاقات التي ينطبق عليها القوانين المليية - أبقاها، ونوه^(١) بالخامل منها، ومهد لكل شيء أركاناً وأسباباً.

وما كان من تحريف وتهاون أبطله، وبين أنه ليس من الدين . . .

وما كان من الأحكام المنوطة^(٢) بمظان المصالح يومئذ، ثم اختلفت المظان بحسب اختلاف العادات - بدلها، إذ المقصود الأصلي في شرع الأحكام هي المصالح. ويعنون بالمظان، وربما كان شيء مظنة لمصلحة ثم صار ليس مظنة لها، كما أن علة الحمى في الأصل ثوران الأخطا، فيتخذ الطبيب له مظنة ينسب إليها الحمى كالمشي في الشمس والحركة المتعبة وتناول الغذاء الفلاني، ويمكن أن تزول مظنة هذه الأشياء، فتختلف الأحكام حسب ذلك.

وما كان انعقد عليه إجماع الملاء الأعلى فيما يعملون ويعتادون، وفيما يثبت عليه علومهم، ودخل في جذر نفوسهم زاده.

كان الأنبياء قبل محمد يزيدون ولا ينقصون:

وكان الأنبياء عليهم السلام قبل نبينا ﷺ يزيدون، ولا ينقصون، ولا يبدلون إلا قليلاً، فزاد إبراهيم عليه السلام على ملة نوح عليه السلام أشياء من المناسك وأعمال الفطرة والختان، وزاد موسى عليه السلام على ملة إبراهيم عليه السلام أشياء كتحرير لحوم الإبل ووجوب السبت ورجم الزناة وغير ذلك، ونبينا ﷺ زاد، ونقص، وبدل.

الملة اليهودية حملها الأحبار فحرفوها:

والناظر في دقائق الشريعة إذا استقرأ هذه الأمور^(٣) وجدها على

وجوه:

(١) نوه: أي عظم شأن ما كان معدوماً فيهم منها.

(٢) المنوطة: المتعلقة. (٣) أي الزيادة والنقص والتبديل.

منها أن الملة اليهودية حملها الأحبار والرهبان، فحرفوها بالوجوه المذكورة فيما سبق، فلما جاء النبي ﷺ رد كل شيء إلى أصله، فاختلفت شريعته بالنسبة إلى اليهودية التي هي في أيديهم، فقالوا هذا زيادة ونقص وتبديل وليس تبديلاً في الحقيقة.

بعثة محمد هي أولاً لبني إسماعيل:

ومنها: أن النبي ﷺ بعث بعثة تتضمن بعثة أخرى فالأولى إنما كانت إلى بني إسماعيل وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (٢).

وهذه البعثة تستوجب أن يكون مادة شريعته ما عندهم من الشعائر وسنن العبادات ووجوه الارتفاقات إذ الشرع إنما هو إصلاح ما عندهم، لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلاً ونظيره قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (٥).

(١) سورة الجمعة/ الآية ٢ - الأميين: هم العرب ووصفهم القرآن بالأميين لأنهم لا يكتبون ولا يقرأون.

(٢) سورة يس / الآية ٦ . غافلون: أي غافلون عن الإيمان والرشد.

(٣) سورة يوسف/ الآية ٢ - لعلكم تعقلون: أي لتفهموا معانيه.

(٤) سورة فصلت/ الآية ٤٤ - لولا: هلاً - فصلت: بينت وأوضحت آياته حتى نفهمها -

أعجمي وعربي: أي أقرآن أعجمي ونبي عربي.

(٥) سورة إبراهيم/ الآية ٤ - بلسان قومه: بلغة قومه.

بعثة محمد هي ثانياً إلى أهل الأرض كافة :

والثانية كانت إلى جميع أهل الأرض عامة بالارتفاق الرابع وذلك لأنه^(١) لعن في زمانه أقواماً، وقضى بزوال دولتهم كالعجم والروم، فأمر بالقيام بالارتفاق الرابع، وجعل شرفه وغلبته تقريباً لإتمام الأمر المراد، وآتاه مفاتيح كنوزهم، فحصل له بحسب هذا الكمال أحكام أخرى غير أحكام التوراة كالخراج والجزية والمجاهدات والاحتياط عن مداخل التحريف.

بعثة محمد جاءت في زمن اندرست فيه الملل الحققة :

ومنها: أنه بعث في زمان فترة قد اندرست فيه الملل الحققة، وحرقت، وغلب عليهم التعصب واللجاج^(٢)، فكانوا لا يتركون ملتهم الباطلة ولا عادات الجاهلية إلا بتأكيد بالغ في مخالفة تلك العادات، فصار ذلك معداً لكثير من الاختلافات.

باب أسباب النسخ

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(٣).

النسخ يكون أولاً في الارتفاقات والطاعات :

اعلم أن النسخ قسمان :

أحدهما: أن ينظر النبي ﷺ في الارتفاقات أو وجوه الطاعات،

(١) أي الله تعالى (لعن) في زمان النبي ﷺ.

(٢) اللجاج: الإصرار.

(٣) سورة البقرة/ الآية ١٠٦ - ما ننسخ: النسخ لغة يعني الإبطال وكذلك المحو - ما ننسخ من

آية: أي ننسخها لفظاً وحكماً أو لفظاً فقط أو حكماً فقط - أو ننسها: نؤخرها في اللوح

المحفوظ - نأت بخير منها: أي نأت بما هو أنفع للعباد في السهولة أو كثرة الأجر - أو

مثلها: أو مثلها في التكليف والثواب.

فيضبطها بوجوه الضبط على قوانين التشريع ، وهو اجتهاد النبي ﷺ ، ثم لا يقرره الله عليه ، بل يكشف عليه ما قضى الله في المسألة من الحكم ، إما بنزول القرآن حسب ذلك ، أو تغيير اجتهاده إلى ذلك وتقريره عليه .

مثال الأول : ما أمر النبي ﷺ من الاستقبال قبل بيت المقدس ، ثم نزل القرآن بنسخه ، ومثال الثاني : أنه ﷺ نهى عن الانتباز إلا في السقاء^(١) ثم أباح لهم الانتباز في كل آنية ، وقال : « لا تشربوا مسكراً » وذلك أنه لما رأى أن الإسكار أمر خفي نصب له مظنة ظاهرة ، وهي الانتباز في الأوعية التي لا مسام لها كالمأخوذة من الخزف والخشب والدباء ، فإنه يسرع الإسكار فيما ينبذ فيها ، ونصب الانتباز في السقاء مظنة لعدم الإسكار إلى ثلاثة أيام ، ثم تغير اجتهاده ﷺ إلى إدارة الحكم على الإسكار ؛ لأنه يعرف بالغليان وقذف الزبد ، ونصب ما هو من لوازم السكر أو من صفات الشيء المسكر مظنة أولى من نصب ما هو أمر أجنبي .

وعلى تخريج آخر نقول : رأى النبي ﷺ أن القوم مولعون بالمسكر ، فلونها عنه كان مدخل أن يشربه أحد متعذراً^(٢) بأنه ظن أنه ليس بمسكر وأنه اشتبه عليه علامات الإسكار ، أو كانت أوانيهم ملطخة بالمسكر والإسكار يسرع إلى ما ينبذ في مثل ذلك ، فلما قوي الإسلام ، واطمأنوا بترك المسكرات ، ونفدت تلك الأواني أدار الحكم على نفس الإسكار وعلى هذا التخريج .

هذا مثال لاختلاف الحكم حسب اختلاف المظنات وفي هذا القسم قوله ﷺ : « كلامي لا ينسخ كلام الله ، وكلام الله ينسخ كلامي ، وكلام الله ينسخ بعضه بعضاً » .

(١) السقاء : بالكسر وعاء للماء من جلد ، والانتباز : اتخاذ النبيذ .

(٢) متعذراً : ملتصقاً العذر .

النسخ يكون ثانياً في شيء مظنة مصلحة أو مفسدة:
والثاني: أن يكون شيء مظنة مصلحة أو مفسدة، فيحكم عليه
حسب ذلك، ثم يأتي زمان لا يكون فيه مظنة لها، فيتغير الحكم.

مثاله لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وانقطعت النصره بينهم وبين
ذوي أرحامهم، وإنما كانت بالإخاء الذي جعله النبي ﷺ لمصلحة
ضرورية رآها - نزل القرآن بإدارة التوارث على الإخاء، وبين الله تعالى
فائدته حيث قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (١).

ثم لما قوي الإسلام، ولحق بالمهاجرين أولو أرحامهم - رجع الأمر
إلى ما كان من التوارث بالنسب.

أو لا يكون شيء مصلحة في النبوة التي لم يضم معها الخلافة كما
كان قبل النبي ﷺ، وكما كان في زمانه قبل الهجرة، ويكون مصلحة في
النبوة المضمومة بالخلافة.

مثاله أن الله تعالى لم يحل الغنائم لمن قبلنا، وأحل لنا.

الحكمة في إباحة الغنائم للنبي محمد وأمة:
وعلل ذلك في الحديث بوجهين: أحدهما: أن الله رأى ضعفنا،
فأحلها لنا، وثانيهما: أن ذلك من تفضيل الله نبينا ﷺ على سائر الأنبياء
وأمة على سائر الأمم.

وتحقيق الوجهين أن الأنبياء قبل النبي ﷺ كانوا يبعثون إلى أقوامهم
خاصة، وهم محصورون يتأتى الجهاد معهم في سنة أو سنتين ونحو ذلك،
وكان أممهم أقوياء يقدرون على الجمع بين الجهاد والتسبب بمثل الفلاحة

(١) سورة الأنفال/ الآية ٧٣ - إلا تفعلوه: أي تولى المسلمين ونصرتهم وتوريتهم وفتح
الكفار - تكن فتنة في الأرض: أي تكون الفتنة بضعف المسلمين وغلبة الكفار.

والتجارة، فلم يكن لهم حاجة إلى الغنائم، فأراد الله تعالى ألا يخلط بعملهم غرض دنيوي، ليكون أتم لأجورهم وبعث نبينا ﷺ إلى كافة الناس، وهم غير محصورين، ولا كان زمان الجهاد معهم محصوراً، وكانوا لا يستطيعون الجمع بين الجهاد والتسبب^(١) بمثل الفلاحة والتجارة، فكان لهم حاجة إلى إباحة الغنائم.

وكانت أمته لعموم دعوته تشتمل ناساً ضعفاء في النية، وفيهم ورد «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(٢) لا يجاهد أولئك إلا لغرض عاجل وكانت الرحمة شملتهم في أمر الجهاد شمولاً عظيماً، وكان الغضب متوجهاً إلى أعدائهم توجهاً عظيماً، وهو قوله ﷺ: «إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقت^(٣) عربهم وعجمهم» فوجب ذلك زوال عصمة أموالهم ودمائهم على الوجه الأتم، وأوجب إغاضة قلوبهم بالتصرف في أموالهم، كما أهدى إلى الحرم رسول الله ﷺ بعير أبي جهل في أنفه برة^(٤) فضة يغيظ الكفار، وكما أمر بقطع النخيل وإحراقها إغاضة لأهلها، فلذلك نزل القرآن بإباحة الغنائم لهذه الأمة.

الإذن بقتال الكفار بعد أن قوي المسلمون:

مثال آخر لم يحرم لهذه الأمة قتال الكفار في أول الأمر، ولم يكن حينئذٍ هناك جند ولا خلافة، ثم لما هاجر النبي ﷺ، وثاب المسلمون، وظهرت الخلافة، وتمكنوا من مجاهدة أعداء الله أنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ

(١) التسبب: تعاطي الأسباب كناية عن الأخذ والعطاء لتحصيل ما يحتاج إليه من أمر المعيشة.

(٢) الفاجر: مرتكب المعاصي والمائل عن الحق.

(٣) مقت: أبغض أشد البغض.

(٤) البرة: الحلقة. وكان أبو جهل يحب بعيره هذا ويكرمه ولهذا كان ذبحه إغاضة شديدة له.

لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿١﴾ .

وفي هذا القسم قوله تعالى : ﴿وَمَا نُنسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (٢) .

فقوله : (بخير منها) فيما تكون النبوة مضمومة بالخلافة وقوله : (أو مثلها) فيما يختلف الحكم باختلاف المظان ، والله أعلم .

باب بيان ما كان عليه حال أهل الجاهلية فأصلحه النبي ﷺ

إن كنت تريد النظر في معاني شريعة رسول الله ﷺ ، فتحقق أولاً : حال الأميين الذين بعث فيهم التي هي مادة تشريعه ، وثانياً : كيفية إصلاحه لها بالمقاصد المذكورة في باب التشريع والتيسير وأحكام الملة .

بعث محمد بالملة الحنيفية الإسماعيلية :

فاعلم أنه ﷺ بعث بالملة الحنيفية الإسماعيلية (٣) لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٤) .

ولما كان الأمر على ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة ، وستتها مقرررة إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغييرها وتبديلها ، بل الواجب تقريرها ، لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الاحتجاج عليهم .

(١) سورة الحج / الآية ٣٩ ، أذن للذين يقاتلون : وهم المسلمون المؤمنون - بأنهم ظلموا : أي لأنهم ظلموا - وهذه أول آية نزلت في الجهاد .

(٢) سورة البقرة / الآية ١٠٦ .

(٣) التي شاعت في العرب احتراز عن اليهودية . والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل عليه السلام .

(٤) سورة الحج / الآية ٧٨ - ملة أبيكم : دين أبيكم - وإبراهيم عليه السلام هو أبو العرب =

بنو إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل :

وكان بنو إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل ، فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وجد عمرو بن لحي ، فأدخل فيها أشياء برأيه الكاسد ، فضل ، وأضل ، وشرع عبادة الأوثان ، وسبب السوائب^(١) ، وبحر البحائر^(٢) ، فهناك بطل الدين ، واختلط الصحيح بالفساد ، وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر .

بعث محمد لإصلاح عوج بني إسماعيل :

فبعث الله سيدنا محمداً ﷺ مقيماً لعوجهم ومصلحاً لفسادهم فنظر ﷺ في شريعتهم ، فما كان منها موافقاً لمنهاج إسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أبقاه ، وما كان منها تحريفاً أو إفساداً أو من شعائر الشرك والكفر أبطله وسجل على إبطاله ، وما كان من باب العادات وغيرها فبين آدابها ومكروهاها مما يحترز به عن غوائل الرسوم ، ونهى عن الرسوم الفاسدة ، وأمر بالصالحة ، وما كان من مسألة أصلية أو عملية تركت في الفترة أعادها غضة طريقة كما كانت ، فتمت بذلك نعمة الله ، واستقام دينه .

كان أهل الجاهلية يسلمون بجواز بعثة الأنبياء :

وكان أهل الجاهلية في زمان النبي ﷺ يُسَلِّمون جواز بعثة الأنبياء ، ويقولون بالمجازاة ، ويعتقدون أصول أنواع البر ، ويتعاملون بالارتفاقات^(٣) الثاني والثالث .

= فالعرب المستعربة من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

(١) السوائب : جمع سائبة وهي الناقة تترك لترعى فلا تحلب ولا تترك ولا تذبح وذلك وفق شروط عندهم كأن تأتي بعدة بطون أو إثر نذر .

(٢) البحيرة : الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن والخامس ذكر نحروه فأكله الرجال والنساء وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها أي شقوها فكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها وركوبها فإذا ماتت حلت للنساء .

(٣) هكذا بالأصل ولعله الارتفاقين .

كان في أهل الجاهلية فساق وزنادقة:

ولا ينافي ما قلناه وجود فرقتين فيهم وظهورهما وشيوعهما:

إحداهما: الفساق، والزنادقة، فالفساق يعملون الأعمال البهيمية أو السبعية بخلاف الملة لغلبة نفوسهم وقلة تدينهم، فأولئك إنما يخرجون عن حكم الملة شاهدين على أنفسهم بالفسق، والزنادقة يُجيلون على الفهم الأبر^(١) لا يستطيعون التحقيق التام الذي قصده صاحب الملة، ولا يقلدونه، ولا يسلمونه فيما أخبر، فهم في ريبهم يترددون على خوف من ملئهم، والناس ينكرون عليهم، ويرونهم خارجين من الذين خالعين ربقة الملة^(٢) عن أعناقهم، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا من الإنكار وقبح الحال فخروجهم لا يضر.

وكان في أهل الجاهلية الجاهلون الغافلون:

والثانية: الجاهلون الغافلون الذين لم يرفعوا رؤوسهم إلى الدين رأساً، ولم يتلفتوا لفتة أصلاً، وكان هؤلاء أكثر شيء في قريش وما والاها^(٣) لبعدهم من الأنبياء، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾^(٤).

غير أنهم لم يبعدوا عن المحجة^(٥) كل البعد بحيث لا تثبت عليهم الحجة، ولا يتوجه عليهم الإلزام، ولا يتحقق فيهم الإقحام^(٦).

(١) الأبر: الناقص والمقطوع.

(٢) خالعين ربقة الملة: تاركين طاعة الدين.

(٣) والى: والى الرجل ولاء وموالة صادقه وناصره، ووالى الشيء: تابعه.

(٤) سورة السجدة/ الآية ٣.

(٥) المحجة: الطريق.

(٦) الإقحام: الإسكات.

من أصول أهل الجاهلية الحسنة إيمانهم بوجود الله :

فمن تلك الأصول^(١) القول بأنه لا شريك لله تعالى في خلق السموات والأرض وما فيهما من الجواهر، ولا شريك له في تدبير الأمور العظام، وأنه لا راد لحكمه ولا مانع لقضائه إذا أبرم وجزم وهو قوله تعالى : ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٢).

وقوله تعالى : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾^(٣).

وقوله تعالى : ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٤).

من زندقة أهل الجاهلية اعتقادات خاطئة في الملائكة :

لكن كان من زندقتهم قولهم : إن هناك أشخاصاً من الملائكة والأرواح تدبر أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابد فيما يرجع إلى خويصة نفسه وأولاده وأمواله، وشبهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملك الملوك وبحال الشفعاء والندماء بالنسبة إلى السلطان المتصرف بالجبروت، ومنشأ ذلك ما نطقت به الشرائع من تفويض الأمور إلى الملائكة واستجابة دعاء المقربين من الناس، فظنوا ذلك تصرفاً منهم كتصرف الملوك قياساً للغائب على الشاهد وهو الفساد.

من اعتقاد الجاهليين زعمهم أن الله اتخذ الملائكة بنات له :

ومنها : تنزيهه عما لا يليق بجنابه وتحريم الإلحاد في أسمائه، لكن كان من زندقتهم زعمهم أن الله اتخذ الملائكة بنات، وأن الملائكة إنما

(١) أي المسلمة عندهم.

(٢) سورة لقمان/ الآية ٢٥ .

(٣) سورة الأنعام/ الآية ٤١ - أي تدعون الله في الشدائد ولا تدعون غيره .

(٤) الإسراء/ آية ٦٧ - ضل : غاب عنكم - من تدعون : أي من تعبدون من الآلهة - إلا إياه : أي لا تدعون إلا إياه فهو الذي يكشف ما بكم من سوء .

جعلوا واسطة، ليكتسب الحق منهم علماً ليس عنده قياساً على الملوك
بالنسبة إلى الجواسيس.

ومن اعتقاداتهم الحسنة إيمانهم بالقدر:

ومنها: أن الله تعالى قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها، وهو قول
الحسن البصري: لم يزل أهل الجاهلية يذكرون القدر في خطبهم
وأشعارهم، ولم يزد الشرع إلا تأكيداً.

ومنها: أن هنالك موطناً يتحقق فيه القضاء بالحوادث شيئاً فشيئاً،
وأن هنالك لأدعية الملائكة المقربين وأفاضل الأدميين تأثيراً بوجه من
الوجوه، لكن صار ذلك في أذهانهم متمثلاً بشفاعاة ندماء الملوك إليهم.

ومن اعتقاداتهم أن العباد مكلفون:

ومنها: أنه كلف العباد بما شاء، فأحل وحرّم، وأنه مجاز على
الأعمال إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً، وأن الله تعالى ملائكة هم مقربو
الحضرة وأكابر المملكة، وأنهم مدبرون في العالم بإذن الله وبأمره،
وأنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

وأنهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتغوطون ولا ينكحون، وأنهم قد
يظهرون لأفاضل الأدميين، فيبشرونهم، وينذرونهم، وأن الله قد يبعث إلى
عباده بفضله ولطفه رجلاً منهم، فيلقي وحيه إليه، وينزل الملك عليه، وأنه
يفرض طاعته عليهم، فلا يجدون منها بدءاً، ولا يستطيعون دونها
محيصاً^(٢).

(١) سورة التحريم/ الآية ٦.

(٢) المحيص: الحيد عن الشيء والرجوع عنه. ويقال ما عنه محيص أي ما عنه محيد
ومهرب.

كثرة ذكر الملائكة الأعلیٰ فی أشعار الجاهلیة :

وقد كثر ذكر الملائكة الأعلیٰ وحملة العرش فی أشعار الجاهلیة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ صدق أمية ابن أبي الصلت فی بيتین من شعره فقال :

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد^(١)
فقال النبي ﷺ صدق فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد^(٢)
تأبى فما تطلع لنا في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد
فقال النبي ﷺ : صدق .

كان الجاهليون يعتقدون أن حملة العرش أربعة :

وتحقيق هذا أن أهل الجاهلية كانوا يزعمون أن حملة العرش أربعة أملاك، أحدهم : في صورة الإنسان، وهو شفيع بني آدم عند الله، والثاني : في صورة الثور، وهو شفيع البهائم، والثالث : في صورة النسر، وهو شفيع الطيور، والرابع : في صورة الأسد، وهو شفيع السباع، فقد ورد الشرع بقريب من ذلك^(٣) إلا أنه سماهم جميعهم وعولاً، وذلك بحسب ما يظهر في عالم المثال من صورهم، فهذا كله كان معلوماً عندهم مع ما دخل فيه من قياس الغائب على الشاهد وخلط المؤلف بالأمور العلمية . . . ، وإن كنت في ريب مما ذكرنا، فانظر فيما قص الله تعالى في

(١) معنى الشعر أن هذه أربعة أشياء مقهورون تحت قدرة القادر وهم بزعمهم حملة العرش وشفعاء الاناسي والحيوانات عند الله تعالى ؛ والنسر اسم طائر والليث اسم للأسد .

(٢) والمعنى أن الشمس تطلع على ختم كل ليلة بشكل أحمر ولون وردي ولا تطلع بالرفق والطوع بل معذبة بالسياط ومجلدة أي مضروبة فهي مقهورة تحت قدرة خالقها .

(٣) كما قال ﷺ : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ هكذا وجد بالأصل وهي آية في سورة الحاقة / الآية ١٧ .

القرآن العظيم واحتج عليهم بما عندهم من بقية العلم، وكشف ما أدخلوه فيه من الشبه والشكوك لا سيما قوله تعالى: ﴿لَمَّا أَنْكَرُوا نَزُولَ الْقُرْآنِ﴾ ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ (١). ولما قالوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (٢). أنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ (٣).

كانت الحجة تقام على الجاهليين ببقية ما عندهم من العلم: وما يشابه ذلك فتعلم من هنالك أن المشركين وإن كانوا قد تباعدوا عن المحجة المستقيم لكن كانوا بحيث تقوم عليهم الحجة ببقية ما عندهم من العلم، وانظر إلى خطب حكمائهم كقس بن ساعدة (٤). وزيد بن عمرو بن نفيل، وإلى أخبار من كان قبل عمرو بن لحي تجد ذلك مفصلاً، بل لو أمعنت في تصفح أخبارهم غاية الإمعان وجدت أفاضلهم وحكماءهم (٥) كانوا يقولون بالمعاد وبالحفظة وغير ذلك، ويشتون التوحيد على وجهه حتى قال زيد بن عمرو بن نفيل في شعره:

(١) سورة الأنعام / الآية ٩١.

(٢) سورة الفرقان / الآية ٧ - وقصد الكفار من قولهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق: أنه يعيش عيشة عامة الناس فلو كان رسولاً حقاً لأنزل إليه ملكاً يؤيده وأعطاه كترأ ينفق منه.

(٣) سورة الأحقاف / الآية ٩ - بدعاً: بدع الشيء اختراعه وصنعه على غير مثال - ومعنى الآية ما كنت أول رسول فقد سبق قبلي كثيرون فكيف تكذبونني.

(٤) قس بن ساعدة الأيادي أعظم خطباء العرب في الجاهلية وقد سمعه الرسول عليه السلام في عكاظ كما ورد في الحديث النبوي يلقي خطبه وهو متكئ على عصاه وهو يقول: أيها الناس من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت

(٥) منهم زهير بن أبي سلمى كان يمر بالعضا وقد أورقت بعد ما يبست فيقول لولا أن يسبني العرب لأمنت بأن الذي أحيا الأرض بعد يبسها سيحيي العظام وهي رميم. ومنهم عامر بن الظرب وكان من خطبائهم وقد حرم الخمر على نفسه، وممن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر عبد الله بن تغلب، ويرة بن قضاة، وعلان بن شهاب التميمي، وبالجملة كانت العرب في الجاهلية تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها.

عبادك يخطئون وأنت رب
وقال أيضاً:

أرباً واحداً أم ألف رب
تركت اللات والعزى جميعاً
أدين إذا تقسمت الأمور^(٢)
كذلك يفعل الرجل البصير

وقال رسول الله ﷺ في أمية بن أبي الصلت: «آمن شعره، ولم يؤمن قلبه» وذلك مما توارثوه من منهاج إسْمَعِيل، ودخل فيهم من أهل الكتاب، وكان من المعلوم عندهم أن كمال الإنسان أن يسلم وجهه لربه، ويعبده أقصى مجهوده.

من بقايا الحنيفية السمحة عند أهل الجاهلية :

وإن من أبواب العبادة الطهارة، وما زال الغسل من الجنابة سنة معمولة عندهم، وكذلك الختان وسائر خصال الفطرة، وفي التوراة إن الله تعالى جعل الختان ميسمة^(٣) على إبراهيم وذريته.

وهذا الوضوء يفعله المجوس واليهود وغيرهم، وكانت تفعله حكماء العرب.

وكانت فيهم الصلاة، وكان أبو ذر رضي الله عنه يصلي قبل أن يقدم على النبي ﷺ بثلاث سنين، وكان قس بن ساعدة الأيادي يصلي، والمحفوظ من الصلاة في أمم اليهود والمجوس وبقية العرب أفعال تعظيمة لا سيما السجود وأقوال من الدعاء والذكر.

وكانت فيهم الزكاة، وكان المعمول عندهم منها قرى الضيف

(١) الحتوم: الأفضية، والمنايا: جمع منية وهي الموت.

(٢) أدين: أنقاد وأخضع - اللات والعزى: من أصنام الجاهلية - الرجل البصير: الرجل صاحب البصيرة والعقل.

(٣) ميسمة: علامة.

وابن السبيل وحمل الكَلِّ والصدقة على المساكين وصلة الأرحام والإعانة في نوائب الحق، وكانوا يمدحون بها، ويعرفون أنها كمال الإنسان وسعادته، قالت خديجة: فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكَلِّ^(١)، وتعين على نوائب الحق، وقال ابن الدغنة^(٢) لأبي بكر الصديق رضي الله عنه مثل ذلك.

وكان فيهم الصوم من الفجر إلى غروب الشمس، وكانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية.

وكان الجوار في المسجد، وكان عمر نذر اعتكاف ليلة في الجاهلية، فاستفتى في ذلك رسول الله ﷺ، وكان عاص بن وائل أوصى أن يعتق عنه كذا وكذا من العبيد.

وبالجملة كان أهل الجاهلية يتحشون بأنواع التحنثات^(٣)، وأما حج بيت الله وتعظيم شعائره والأشهر الحرم، فأمره أظهر من أن يخفى، وكان لهم أنواع من الرقى والتعوذات، وكانوا أدخلوا فيها الإشراك، ولم تزل سنتهم الذبح في الحلق والنحر في اللبة^(٤) ما كانوا يخنقون، ولا يبعجون^(٥).

وكانوا على بقية دين إبراهيم عليه السلام في ترك النجوم وترك

(١) الكل: بفتح الكاف وتشديد اللام العيال ومن لا يستقل أمره، والمعنى تعين بالإنفاق على العيال والضعفاء، وقوله نوائب الحق: أي حوادث تكون في الحق دون الباطل.

(٢) واسمه سبيعة بن رفيع، والدغنة اسم أمه وهو الذي أجاز أبا بكر رضي الله عنه، والجوار الاعتكاف.

(٣) التحنثات: تحنث بمعنى تعبد واعتزل الأصنام مثل تحنث، وفي الحديث الشريف أن النبي قبيل الرسالة كان يتحنث في غار حراء الليالي أي يتعبد.

(٤) اللبة: اللبة بالنسبة للحيوان مكان النحر والذبح وبالنسبة للناس موضع القلادة.

(٥) شق البطن بالسكين.

الخوض في دقائق الطبيعيات غير ما ألجأ إليه البداة .

وكان العمدة عندهم في تقدمه المعرفة الرؤيا ويشارات الأنبياء من قبلهم، ثم دخل فيه الكهانة والاستقسام بالأزلام والطيرة، وكانوا يعرفون أن هذه لم تكن في أصل الملة، وهو قوله ﷺ حين رأى صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهم الأزلام: «لقد علموا أنهما لم يستقسما قط» .

أول من أفسد دين العرب عمرو بن لحي :

وكان بنو إسماعيل على منهاج أبيهم إلى أن وجد فيهم عمرو بن لحي - وذلك قبل مبعث النبي ﷺ قريباً من سبعمائة سنة .

وكانت لهم سنن متأكدة يتلاومون على تركها في مآكلهم ومشربهم ولباسهم وولائمهم وأعيادهم ودفن موتاهم ونكاحهم وطلاقهم وعدتهم وإحدادهم^(١)، وبيوعهم ومعاملاتهم، وما زالوا يحرمون المحارم كالبنات والأمهات والأخوات وغيرها .

وكانت لهم مزاجر في مظالمهم كالقصاص والديات والقسامة وعقوبات على الزنا والسرقة، ودخلت فيهم من الأكاسرة^(٢) والقياصرة علوم الارتفاق الثالث والرابع، لكن دخلهم الفسوق والتظالم بالسبي والنهب وشيوع الزنا والنكاحات الفاسدة والربا، وكانوا تركوا الصلاة والذكر، وأعرضوا عنهما .

أبقى محمد بقية الملة الصحيحة :

فبعث النبي ﷺ فيهم - وهذا حالهم، فنظر في جميع ما عند القوم، فما كان بقية الملة الصحيحة أبقاه، وسجل على الأخذ به، وضبط لهم

(١) إحداد المرأة امتناعها من الزينة .

(٢) الأكاسرة: جمع كسرى وهو لقب لكل من ملوك الفرس قبل الإسلام . والقيصر هو لقب لكل ملك من ملوك الروم .

العبادات بشرح الأسباب والأوقات والشروط والأركان والآداب والمفاسدات
والرخصة والعزيمة والأداء والقضاء .

وضبط لهم المعاصي ببيان الأركان والشروط، وشرع فيها حدوداً
ومزاجر وكفارات .

ويسر لهم الدين ببيان الترغيب والترهيب .

وسد ذرائع^(١) الإثم والحث على مكملات الخير إلى غير ذلك مما
سبق ذكره .

وبالغ في إشاعة الملة الحنيفية وتغليبها على الملل كلها .

وما كان من تحريفاتهم نفاه، وبالغ في نفيه، وما كان من الارتفاقات
الصحيحة سجل عليه، وأمر به، وما كان من رسومهم الفاسدة منعهم عنه،
وقبض على أيديهم .

قام الرسول بالخلافة الكبرى :

وقام بالخلافة الكبرى، وجاهد بمن معه من دونهم حتى تم أمر الله
وهم كارهون . وجاء في بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ قال : «بعثت
بالملة السمحة الحنيفية البيضاء» يريد بالسمحة ما ليس فيه مشاق الطاعات
كما ابتدعه الرهبان، بل فيها لكل عذر رخصة يتأتى العمل بها للقوي
والضعيف والمكتسب والفارغ، وبالحنيفية ما ذكرنا من أنها ملة إبراهيم
صلوات الله عليه، فيها إقامة شعائر الله وكبت شعائر الشرك وإبطال
التحريف والرسوم الفاسدة، وبالبيضاء أن عللها وحكمها والمقاصد التي
بنيت عليها واضحة لا ريب فيها لمن تأمل، وكان سليم العقل غير مكابر،
والله أعلم .

(١) الذرائع : جمع ذريعة وهي البوسيلة - وسد الذرائع أي منع الأسباب المؤدية إلى الإثم .

مبحث استنباط الشرائع من حديث النبي

باب بيان أقسام علوم النبي ﷺ

اعلم أن ما روي عن النبي ﷺ، ودون في كتب الحديث على قسمين

الحديث نوعان، أولاً ما سبيله تبليغ الرسالة:

أحدهما ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة، وفيه قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (١).

علوم النبي بعضها مستند إلى الوحي:

منه علوم المعاد وعجائب الملكوت، وهذا كله مستند إلى الوحي (٢)، ومنه شرائع وضبط للعبادات والارتفاقات بوجوه الضبط المذكورة فيما سبق، وهذه بعضها مستند إلى الوحي، وبعضها مستند إلى الاجتهاد.

اجتهاد النبي بمنزلة الوحي:

واجتهاده ﷺ بمنزلة الوحي؛ لأن الله تعالى عصمه من أن يتقرر رأيه على الخطأ، وليس يجب أن يكون اجتهاده استنباطاً من المنصوص كما

(١) سورة الحشر/ الآية ٧ - آتاكم: أعطاكم.

(٢) أي ليس للاجتهاد فيه دخل.

يظن، بل أكثره أن يكون علمه الله تعالى مقاصد الشرع وقانون التشريع والتيسير والأحكام، فبين المقاصد المتلقاة بالوحي بذلك القانون.

من علوم الرسل حكم مرسلة ومصالح مطلقة:

ومنه^(١): حكم مرسلة ومصالح مطلقة لم يوقتها، ولم يبين حدودها كبيان الأخلاق الصالحة وأضدادها، ومستندها غالباً الاجتهاد بمعنى أن الله تعالى علمه قوانين الارتفاقات، فاستنبط منها حكمة، وجعل فيها كلية.

ومن أحاديث الرسول ما هو في فضائل الأعمال:

ومنه فضائل الأعمال ومناقب^(٢) العمال، وأرى أن بعضها مستند إلى الوحي وبعضها إلى الاجتهاد، وقد سبق بيان تلك القوانين، وهذا القسم هو الذي نقصد شرحه وبيان معانيه.

ثانياً - ما ليس من باب تبليغ الرسالة:

وثانیهما ما ليس من باب تبليغ الرسالة، وفيه قوله ﷺ: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر».

وقوله ﷺ في قصة تأبير النخل^(٣): «فإني إنما ظننت ظناً، ولا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً، فخذوا به، فإنني لم أكذب على الله» فمنه الطب، ومنه باب قوله ﷺ: «عليكم بالأدهم الأقرح»^(٤) ومستنده التجربة، ومنه ما فعله النبي ﷺ على سبيل العادة دون العبادة وبحسب الاتفاق دون القصد، ومنه ما ذكره كما كان يذكره قومه

(١) أي مما سبيله سبيل تبليغ الرسالة.

(٢) مناقب: جمع منقبة. وهي الفعل الكريم.

(٣) تأبير النخل: تلقيح النخل. وأصل القصة أن النبي نهاهم يوماً عن تأبير النخل فلم يحمل النخل كما يجب فراجعوه فقال عليه السلام الحديث الآتي الذكر.

(٤) الأدهم من الخيل الذي يشتد سواده، والأقرح الذي في جبهته بياض يسير دون الغرة.

كحديث أم زرع^(١) وحديث خرافة وهو قول زيد بن ثابت حيث دخل عليه نفر، فقالوا له حدثنا أحاديث رسول الله ﷺ قال: «كنت جاره، فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إلي، فكتبته له، فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله ﷺ»^(٢).

ومنه ما قصد به مصلحة جزئية يومئذ وليس من الأمور اللازمة لجميع الأمة، وذلك مثل ما يأمر به الخليفة من تعبئة الجيوش وتعيين الشعار^(٣)، وهو قول عمر رضي الله عنه: ما لنا وللرمل كنا نترأى^(٤) به قوماً قد أهلكهم الله، ثم خشي أن يكون له سبب آخر، وقد حمل كثير من الأحكام عليه كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(٥).

ومنه حكم وقضاء خاص، وإنما كان يتبع فيه البيئات والإيمان وهو قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «الشاهد^(٦) يرى ما لا يراه الغائب».

باب الفرق بين المصالح والشرائع

اعلم أن الشارع أفادنا نوعين من العلم متميزين بأحكامهما متباينين في منازلهما:

(١) حديث أم زرع: ذكره البخاري وفيه أن نسوة اجتمعن وراحت كل واحدة تتحدث عن خصال زوجها وكانت أحسنهن حالاً أم زرع وهو حديث طويل ولا يتعدى قول الرسول فيه بضع كلمات.

(٢) أي لا أستطيع أن أذكر كل هذه الأمور فكل هذا - بمعنى أفكل هذا - يعني الاستفهام إنكاري.

(٣) هو علامة تعين بين الأفواج ليعرف بها الموافق من المخالف.

(٤) أي نظهر ونري المشركين بالرمل أنا أقوياء - الرمل هو الهرولة في السير.

(٥) سلبه: السلب: سلاح القتل وثيابه وما يحمل.

(٦) الشاهد: الحاضر وسمي شاهداً لأنه يشهد ما يرى.

علم المصالح والمفاسد:

فأحد النوعين: علم المصالح والمفاسد، أعني ما بيّنه من تهذيب النفس باكتساب الأخلاق النافعة في الدنيا أو في الآخرة وإزالة أضرارها، ومن تدبير المنزل وآداب المعاش وسياسة المدينة غير مقدر لذلك بمقادير معينة ولا ضابط مبهمه بحدود مضبوطة ولا مميز لمشكلة بأمارات معلومة، بل رغب في الحمائد^(١)، وزهد في الرذائل تاركاً كلامه إلى ما يفهم منه أهل اللغة مديراً للطلب أو المنع على أنفس المصالح لا على ميطان منصوبة لها وأمارات معرفة إياها كما مدح الكيس^(٢) والشجاعة.

وأمر بالرفق والتودد والقصد في المعيشة، ولم يبين أن الكيس مثلاً ما حده الذي يدور عليه الطلب، وما مظنته التي يؤاخذ الناس بها، وكل مصلحة حثنا^(٣) الشرع عليها وكل مفسدة ردعنا^(٤) عنها فإن ذلك لا يخلو من الرجوع إلى أحد أصول ثلاثة:

أحدها: تهذيب النفس بالخصال الأربع النافعة في المعاد أو سائر الخصال النافعة في الدنيا.

وثانيها: إعلاء كلمة الحق وتمكين الشرائع والسعي في إشاعتها.

وثالثها: انتظام أمر الناس وإصلاح ارتفاقاتهم وتهذيب رسومهم، ومعنى رجوعها إليها أن يكون للشيء دخل في تلك الأمور إثباتاً لها أو نفياً إياها بأن يكون شعبة من خصلة منها أو ضداً لشعبتها أو مظنة لوجودها أو عدمها أو متلازماً معها أو مع ضدها أو طريقاً إليها أو إلى الإعراض عنها، والرضا في الأصل إنما يتعلق بتلك المصالح، والسخط إنما يناط بتلك

(١) الحمائد: جمع حميدة وهي عكس رذيلة. (٢) الكيس: الذكاء والفتنة.

(٣) حثنا: حفنا.

(٤) ردعنا: زجرنا.

المفاسد قبل بعث الرسل وبعده سواء، ولولا تعلق الرضا والسخط بتينك القبلتين لم يبعث الرسل، وذلك لأن الشرائع والحدود إنما كانت بعد بعث الرسل، فما كان في التكليف بها والمؤاخذة عليها ابتداء لطف، ولكن المصالح والمفاسد كانت مؤثرة مقتضية لتهديب النفس أو تلويثها أو انتظام أمورهم أو فسادها قبل بعث الرسل، فاقضى لطف الله أن يخبروا بما يهمهم، ويكلفوا بما لا بد لهم منه، ولم يكن يتم ذلك إلا بمقادير وشرائع، فاقضى اللطف تلك القبيلة^(١) بالعرض، وهذا النوع معقول المعنى، فمنه ما تستقل العقول العامة بفهمه، ومنه ما لا يفهمه إلا عقول الأذكاء الفاضل عليهم الأنوار من قلوب الأنبياء نبههم الشرع، فتنبهوا، ولسوح لهم، ففتطنوا^(٢)، ومن أتقن الأصول التي ذكرناها لم يتوقف في شيء منها.

علم الشرائع والحدود ولفرائض:

والنوع الثاني: علم الشرائع والحدود والفرائض: أعني ما بين الشرع من المقادير، فنصب للمصالح مظان وأمارات مضبوطة معلومة، وأدار الحكم عليها، وكلف الناس بها، وضبط أنواع البر بتعيين الأركان والشروط والآداب، وجعل من كل نوع حداً يطلب منهم لا محالة وحداً يندبون^(٣) إليه من غير إيجاب، واختار من كل بر عدداً يوجب عليهم، وآخر يندبون إليه، فصار التكليف متوجهاً إلى أنفس تلك المظان، وصارت الأحكام دائرة على أنفس تلك الأمارات، ومرجع هذا النوع إلى قوانين السياسة الملية.

وليس كل مظنة لمصلحة توجب عليهم، ولكن ما كان منها مضبوطاً أمراً محسوساً أو وصفاً ظاهراً يعلمه الخاصة والعامة، وربما يكون للإيجاب

(١) أي تقدير المقادير.

(٢) فتطنوا: ففعلوا أو فهموا.

(٣) يندبون إليه: يشجعون على فعله.

والتحريم أسباب طارئة يكتب لأجلها في المأ الأعلى فيتحقق هنالك صورة الإيجاب والتحريم كسؤال سائل ورغبة قوم فيه أو إعراضهم عنه، وكل ذلك غير معقول المعنى بمعنى أنا وإن كنا نعلم قوانين التقدير والتشريع، فلا نعلم وجود كتابته في المأ الأعلى وتحقق صورة الوجوب في حظيرة القدس إلا بنص الشرع، فإنه من الأمور التي لا سبيل إلى إدراكها إلا الإخبار الإلهي مثل ذلك - كمثل الجمد^(١) - نعلم أن سبب حدوثه برودة تضرب الماء، ولا نعلم أن ماء القعب^(٢) في ساعتنا هذه صار جمداً أولاً إلا بالمشاهدة أو إخبار من شاهد، فعلى هذا القياس نعلم أنه لا بد من تقدير النصاب في الزكاة، ونعلم أن مائتي درهم وخمسة أوساق^(٣) قدر صالح للنصاب، لأنه يحصل بهما غنى معتد به، وهما أمران مضبوطان مستعملان عند القوم، ولا نعلم أن الله تعالى كتب علينا هذا النصاب، وأدار الرضا، والسخط عليه إلا بنص الشرع، كيف وكم من سبب له لا سبيل إلى معرفته إلا الخبر، وهو قوله ﷺ: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً» الحديث^(٤) وقوله ﷺ: «خشيت أن يكتب عليكم».

حقيقة القياس:

وقد اتفق من يعتد به من العلماء على أن القياس لا يجري في باب المقادير، وعلى أن حقيقة القياس تعدية حكم الأصل إلى الفرع لعل مشتركة لا جعل مظنة مصلحة علة أو جعل شيء مناسب ركناً أو شرطاً^(٥)،

(١) الجمد: الجليد - الماء الجامد بفعل البرودة الشديدة.

(٢) القعب: وجمعه أقعب وقعاب، القدح الضخم الغليظ.

(٣) أوساق: جمع وسق وهو ستون صاعاً أو ما يساوي ١٣٠ كيلوغراماً.

(٤) وتماه: من سأل عن شيء فحرم لأجل مسأله.

(٥) الركن: ما لا يقوم الشيء إلا به وهو جزء منه كالركوع بالنسبة للصلاة والشرط ما لا يقوم الشيء إلا به وهو ليس جزءاً منه كالوضوء شرط لصحة الصلاة.

وعلى أنه لا يصلح القياس لوجود المصلحة، ولكن لوجود علة مضبوطة أدير عليها الحكم، فلا يقاس مقيم به حرج على المسافر في رخص الصلاة والصوم فإن دفع الحرج مصلحة الترخيص لا علة القصر والإفطار، وإنما العلة هي السفر فهذه المسائل لم يختلف فيها العلماء إجمالاً، ولكن يحملها أكثرهم عند التفصيل وذلك لأنه ربما تشبه المصلحة بالعلة، والتشريع.

وبعض الفقهاء عندما خاضوا في القياس تحيروا فلجوا ببعض المقادير، وأنكروا استبدالها بما يقرب منها، وتسامحوا في بعضها، فنصبوا أشياء مقامها، . . . مثال ذلك تقديرهم نصاب القطن بخمسة أحمال، ونصبهم ركوب السفينة مظنة لدوران الرأس، وإدارة رخصة العقود في الصلاة عليه، وتقدير الماء بالعرش في العشر.

الشرع يتعلق بالمصلحة لا بمحل مال المصلحة:

وكلما أفهم الشرع المصلحة في موضع، فوجدنا تلك المصلحة في موضع آخر عرفنا أن الرضا يتعلق بها بعينها لا بخصوص ذلك الموضع، بخلاف المقادير فإن الرضا يتعلق هناك بالمقادير أنفسها، . . . تفصيل ذلك أن من ترك صلاة وقت كان آثماً وإن شغل ذلك الوقت بالذكر وسائر الطاعات، ومن ترك زكاة مفروضة، وصرف أكثر من ذلك المال في وجوه الخير كان آثماً، وكذلك إن لبس الحرير والذهب في الخلوة^(١) حيث لا يتصور كسر قلوب الفقراء وحمل الناس على الإكثار من الدنيا ولم يقصد به الترفه - كان آثماً. وكذلك إن شرب الخمر بنية التداوي، ولم يكن هناك فساد، ولا ترك صلاة كان آثماً لأن الرضا والسخط متعلقان بأنفس هذه الأشياء، وإن كان الغرض الأصلي كبجهم عن الفساد وحملهم على

(١) الخلوة: بعيداً عن أعين الناس.

المصالح ، ولكن الحق علم أن سياسة الأمة لا تمكن في هذا الوقت إلا بإيجاب أنفس هذه الأشياء وتحريمها فتوجه الرضا والسخط إلى أنفسها، وكتب ذلك في الملاء الأعلى بخلاف ما إذا لبس الصوف الرفيع الذي هو أعلى وأعلى من الحرير، واستعمل أواني الياقوت فإنه لا يآثم بنفس هذا الفعل، ولكن إن تحقق كسر قلوب الفقراء وحمل الناس على فعل ذلك أو قصد الترفه بعد من الرحمة لأجل تلك المفاسد وإلا فلا.

إذا فعل الصحابة ما يشبه التقدير :

وحيث وجدت الصحابة والتابعين فعلوا ما يشبه التقدير، فإنما مرادهم بيان المصلحة والترغيب فيها، والمفسدة والترهيب عنها، وإنما أخرجوا تلك الصورة مخرج المثل^(١) لا يقصدون إليها بالخصوص، وإنما يقصدون إلى المعاني وإن اشتبه الأمر بادي الرأي.

وحيث جوز الشرع استبدال مقدار بقيمته كبت المخاض بقيمتها على قول فعلى التسليم هو أيضاً نوع من التقدير، وذلك لأن التقدير لا يمكن الاستقصاء فيه بحيث يفضي إلى التضيق، ولكن ربما يقدر بأمر ينطبق على أمور كثيرة كبت المخاض نفسها فإنها ربما كانت بنت مخاض أرفه من بنت مخاض، وربما كان التقدير بالقيمة تقديراً بحد معلوم في الجملة كتقدير نصاب القطع^(٢) بما يكون قيمته ربع دينار أو ثلاثة دراهم.

الإيجاب والتحريم نوعان من التقدير :

واعلم أن الإيجاب والتحريم نوعان من التقدير، وذلك لأنه كثيراً ما تعن^(٣) مصلحة أو مفسدة لها صور كثيرة، فتعين صورة للإيجاب

(٢) المقصود نصاب قطع يد السارق.

(١) كتقدير أربع برد حد السفر.

(٣) تعن: تظهر.

أو التحريم، لأنها من الأمور المضبوطة أو لأنها مما عرفوا حالها في الملل السابقة، أو رغبوا فيها أكثر رغبة ولذلك اعتذر النبي ﷺ وقال: «خشيت أن يكتب عليكم» وقال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك» وإذا كان الأمر على ذلك لم يجز حمل غير المنصوص حكمه على المنصوص حكمه.

الندب والكراهة:

أما الندب والكراهة ففيهما تفصيل: فأى مندوب أمر الشارع بعينه، ونوه بأمره، وسنه للناس - فحاله حال الواجب، وأي مندوب اقتصر الشارع على بيان مصلحته، أو اختار العمل هو به من غير أن يسنه، وينوه بأمره^(١) - فهو باق على الحالة التي كانت قبل التشريع، وإنما نصاب الأجر فيه من قبل المصلحة التي وجدت معه لا باعتبار نفسه، وكذلك حال المكروه على هذا التفصيل، وإذا تحققت هذه المقدمة اتضح عندك أن أكثر المقاييس التي يفتخر بها القوم، ويتطاولون لأجلها على معشر أهل الحديث يعود وبالاً^(٢) عليهم من حيث لا يعلمون.

باب كيفية تلقي^(٣) الأمة الشرع من النبي ﷺ

واعلم أن تلقي الأمة منه الشرع على وجهين:

التلقي الظاهر:

أحدهما: تلقي الظاهر، ولا بد أن يكون بنقل إما متواتراً، أو غير متواتر.

والمتواتر منه المتواتر لفظاً كالقرآن العظيم، وكنبذ يسير من الأحاديث

(١) نوه بأمره: مدحه وأشاد به.

(٢) وبالاً: أخذ.

(٣) تلقي: أخذ.

منها قوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم»^(١).

ومنه المتواتر معنى كثير من أحكام الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والبيوع والنكاح والغزوات مما لم يختلف فيه فرقة من فرق الإسلام.

وغير المتواتر أعلى درجاته المستفيض، وهو ما رواه ثلاثة من الصحابة فصاعداً، ثم لم يزل يزيد الرواة إلى الطبقة الخامسة، وهذا قسم كثير الوجود، وعليه بناء رؤوس الفقه. ثم الحبر^(٢) المقضي له بالصحة أو الحسن على السنة حفاظ المحدثين وكبرائهم، ثم أخبار فيها كلام قبلها بعض، ولم يقبلها آخرون، فما اعتضد^(٣) منها بالشواهد أو قول أكثر أهل العلم أو العقل الصريح وجب اتباعه.

التلقي دلالة:

وثانیهما: التلقي دلالة، وهي أن يرى الصحابة رسول الله ﷺ يقول، ويفعل، فاستنبطوا من ذلك حكماً من الوجوب وغيره، فأخبروا بذلك الحكم، فقالوا: الشيء الفلاني واجب، وذلك الآخر جائز، ثم تلقى التابعون من الصحابة كذلك، فدوّن الطبقة الثالثة فتاواهم وقضاياهم، وأحكموا الأمر، وأكابر هذا الوجه^(٤) عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم.

(١) تمامه «كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا - ثم قرأ ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾» ومبدأ الحديث قال جرير بن عبد الله: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم» إلخ.

(٢) الحبر: العالم الصالح وهو مأخوذ من تحبير العلم وتحسينه.

(٣) اعتضد: تقوى. (٤) أي التلقي دلالة.

قضايا عمر :

لكن كان من سيرة عمر رضي الله عنه أنه كان يشاور الصحابة، ويناظرهم حتى تنكشف الغمة^(١)، ويأتيه الثلج، فصار غالب قضاياها وفتاواها متبعة في مشارق الأرض ومغاربها، وهو قول إبراهيم لما مات عمر رضي الله عنه: ذهب تسعة أعشار العلم، وقول ابن مسعود رضي الله عنه: كان عمر إذا سلك طريقاً وجدناه سهلاً.

قضايا علي :

وكان علي رضي الله عنه لا يشاور غالباً، وكان أغلب قضاياها بالكوفة، ولم يحملها عنه إلا ناس^(٢).

قضايا ابن مسعود وابن عباس :

وكان ابن مسعود رضي الله عنه بالكوفة، فلم يحمل عنه غالباً إلا أهل تلك الناحية، وكان ابن عباس^(٣) رضي الله عنهما اجتهد بعد عصر الأولين، فناقضهم في كثير من الأحكام، واتبعه في ذلك أصحابه من أهل مكة، ولم يأخذ بما تفرد به جمهور أهل الإسلام.

قضايا ابن عمر وعائشة وزيد :

وأما غير هؤلاء الأربعة فكانوا يروون دلالة، ولكن ما كانوا يميزون الركن والشرط من الآداب والسنن، ولم يكن لهم قول عند تعارض الأخبار وتقابل الدلائل إلا قليلاً كابن عمر^(٤) وعائشة وزيد بن ثابت رضي الله

(١) الغمة: أي الغطاء، والثلج هو اليقين. (٢) أي قليلون.

(٣) ابن عباس: هو عبد الله بن عباس عم النبي وكان يلقب بحبر الأمة وكان من أكثر الصحابة علماً وحديثاً مات بالطائف سنة ٨٦ وعمره واحد وسبعون عاماً.

(٤) ابن عمر: هو عبد الله بن عمر بن الخطاب. أسلم مع أبيه بمكة وهو صغير. شهد المشاهد بعد بدر وأحد. كان ابن عمر من أئمة المسلمين علماً وعلماً من أعلام الفتوى.

عنهم، وأكابر هذا الوجه من التابعين بالمدينة الفقهاء السبعة لا سيما ابن المسيب بالمدينة، وبمكة عطاء بن أبي رباح، وبالكوفة إبراهيم وشريح والشعبي، وبالبصرة الحسن. وفي كل من الطريقتين خلل إنما ينجر بالأخرى، ولا غنى لإحدهما عن صاحبتها.

خلل التلقي الظاهر:

أما الأولى: فمن خللها ما يدخل في الرواية بالمعنى من التبديل، ولا يؤمن من تغيير المعنى، ومنه ما كان الأمر في واقعة خاصة، فظنه الراوي حكماً كلياً، ومنه ما أخرج فيه الكلام مخرج التأكيد؛ ليعضوا عليه بالنواجذ، فظن الراوي وجوباً أو حرمة، وليس الأمر على ذلك - فمن كان فقيهاً، وحضر الواقعة استنبط من القرائن حقيقة الحال كقول زيد رضي الله عنه في النهي عن المزارعة وعن بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها: إن ذلك كان كالمشورة.

خلل التلقي دلالة:

وأما الثانية: فيدخل فيها قياسات الصحابة والتابعين واستنباطهم من الكتاب والسنة، وليس الاجتهاد مصيباً في جميع الأحوال، وربما كان لم يبلغ أحدهم الحديث، أو بلغه بوجه لا ينتهض بمثله الحجة، فلم يعمل به، ثم ظهر جليلة الحال على لسان صحابي آخر بعد ذلك كقول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في التيمم عن الجنابة، وكثيراً ما كان اتفاق رؤوس الصحابة رضي الله عنهم على شيء من قبل دلالة العقل على ارتفاق وهو قوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» وليس من أصول الشرع، فمن كان متبحراً في الأخبار والفاظ الحديث

= لم يقاتل في شيء من الفتن. روى الحديث عن رسول الله وروى عنه كبار الصحابة. أقام بعد رسول الله ستين سنة يفتي الناس. توفي سنة ٧٣ هـ.

يتيسر له التفصي (١) عن مزال الاقدام (٢).

يجب على الفقيه أن يكون متضلماً في المذهبين :

ولما كان الأمر كذلك وجب على الخائض في الفقه أن يكون متضلماً من كلا المشرابين، ومتبحراً في كلا المذهبين، وكان أحسن شعائر الملة ما أجمع عليه جمهور الرواة وحملة العلم، وتطابق فيه الطريقتان جميعاً، والله أعلم.

باب طبقات كتب الحديث

معرفة الحديث ضرورة لمعرفة الأحكام:

اعلم أنه لا سبيل لنا إلى معرفة الشرائع والأحكام إلا خبر النبي ﷺ بخلاف المصالح، فإنها قد تدرك بالتجربة والنظر الصادق والحدس (٣) ونحو ذلك.

ولا سبيل لنا إلى معرفة أخباره ﷺ إلا تلقي الروايات المنتهية إليه بالاتصال والعنعنة (٤) سواء كانت من لفظه ﷺ، أو كانت أحاديث موقوفة قد صحت الرواية بها عن جماعة من الصحابة والتابعين بحيث يبعد إقدامهم على الجزم بمثله لولا النص أو الإشارة من الشارع، فمثل ذلك رواية عنه ﷺ دلالة.

وتلقي تلك الروايات لا سبيل إليه في يومنا هذا إلا تتبع الكتب المدونة في علم الحديث، فإنه لا يوجد اليوم رواية يعتمد عليها غير مدونة، وكتب الحديث على طبقات مختلفة ومنازل متباينة فوجب الاعتناء بمعرفة طبقات كتب الحديث.

(١) تفصي الشيء: بلغ الغاية في البحث عنه. (٢) مزال الاقدام: مزالق الاقدام من فعل زل.
(٣) الحدس: أي الاستنتاج.
(٤) العنعنة: أي عن فلان عن فلان.

طبقات الأحاديث الصحيحة والمشهورة :

فتقول هي باعتبار الصحة والشهرة على أربع طبقات : وذلك لأن أعلى أقسام الحديث - كما عرفت فيما سبق - ما ثبت بالتواتر، وأجمعت الأمة على قبوله والعمل به، ثم ما استفاض من طرق متعددة لا يبقى معها شبهة يُعتد بها، واتفق على العمل به جمهور فقهاء الأمصار، أو لم يختلف فيه علماء الحرمين^(١) خاصة، فإن الحرمين محل الخلفاء الراشدين في القرون الأولى ومحط رحال العلماء طبقة بعد طبقة يبعد أن يسلموا منهم الخطأ الظاهر، أو كان قولاً مشهوراً معمولاً به في قطر عظيم مروياً عن جماعة عظيمة من الصحابة والتابعين، ثم ما صحح، أو حسن سنده، وشهد به علماء الحديث، ولم يكن قولاً متروكاً لم يذهب إليه أحد من الأمة، أما ما كان ضعيفاً موضوعاً أو منقطعاً أو مقلوباً في سنده أو متنه^(٢) أو من رواية المجاهيل أو مخالفاً لما أجمع عليه السلف طبقة بعد طبقة، فلا سبيل إلى القول به .

معنى الصحة :

فالصحة أن يشترط مؤلف الكتاب على نفسه إيراد ما صحح أو حسن غير مقلوب ولا شاذ ولا ضعيف إلا مع بيان حاله، فإن إيراد الضعيف مع بيان حاله لا يقدر في الكتاب .

معنى الشهرة :

والشهرة أن تكون الأحاديث المذكورة فيها دائرة على السنة المحدثين قبل تدوينها وبعد تدوينها، فيكون أئمة الحديث قبل المؤلف رَوَوْها بطرق شتى، وأوردوها في مسانيدهم ومجاميعهم^(٣)، وبعد المؤلف

(١) الحرمان : مكة والمدينة .

(٢) السند: راوي الحديث . والمتن : نص الحديث أي كلامه عليه السلام .

(٣) المسانيد والمجاميع : كتب الأحاديث .

اشتغلوا برواية الكتاب وحفظه وكشف مشكله وشرح غريبه وبيان إعرابه وتخريج طرق أحاديثه واستنباط فقهاها والفحص عن أحوال رواتها طبقة بعد طبقة إلى يومنا هذا حتى لا يبقى شيء مما يتعلق به غير مبحوث عنه إلا ما شاء الله، ويكون نقاد الحديث قبل المصنف وبعده وافقوه في القول بها، وحكموا بصحتها، وارتضوا رأي المصنف فيها، وتلقوا كتابه بالمدح والثناء، ويكون أئمة الفقه لا يزالون يستنبطون عنها، ويعتمدون عليها، ويعتنون بها، ويكون العامة لا يخلون عن اعتقادها وتعظيمها.

إن اجتمعت الصحة والشهرة فهو من الطبقة الأولى :

وبالجملة فإذا اجتمعت هاتان الخصلتان كمالاً في كتاب كان من الطبقة الأولى ثم وثم، وإن فقدتا رأساً لم يكن له اعتبار، وما كان أعلى حد في الطبقة الأولى فإنه يصل حد التواتر، وما دون ذلك يصل إلى الاستفاضة^(١)، ثم إلى الصحة القطعية أعني القطع المأخوذ في علم الحديث المفيد للعمل، والطبقة الثانية إلى الاستفاضة أو الصحة القطعية أو الظنية وهكذا ينزل الأمر.

من كتب الطبقة الأولى، الموطأ:

فالتبقة الأولى: منحصرة بالاستقراء في ثلاثة كتب، الموطأ، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم. قال الشافعي: أصح الكتب بعد كتاب الله موطأ مالك^(٢)، واتفق أهل الحديث على أن جميع ما فيه صحيح على رأي مالك ومن وافقه، وأما على رأي غيره فليس فيه مرسل ولا منقطع إلا قد اتصل السند به من طرق أخرى، فلا جرم أنها صحيحة من هذا الوجه.

وقد صنف في زمان مالك موطآت كثيرة في تخريج أحاديثه ووصل

(١) الاستفاضة: الشهرة والانتشار.

(٢) قال ذلك قبل جمع صحيح الإمام البخاري وإلا فإن صحيح البخاري أصح كتب الحديث من غير استثناء.

منقطعه، مثل كتاب ابن أبي ذئب^(١) وابن عيينة^(٢) والثوري ومَعْمَر وغيرهم ممن شارك مالكا في الشيوخ.

وقد رواه عن مالك بغير واسطة أكثر من ألف رجل وقد ضرب الناس فيه أكباد الإبل إلى مالك من أقاصي البلاد كما كان النبي ﷺ ذكره في حديثه، فمنهم المبرزون من الفقهاء كالشافعي ومحمد بن الحسن^(٣)، وابن وهب وابن القاسم، ومنهم نحارير المحدثين ك يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي وعبد الرزاق، ومنهم الملوك والأمراء كالرشيد وابنيه.

شهرة الموطأ:

وقد اشتهر في عصره حتى بلغ على جميع ديار الإسلام، ثم لم يأت زمان إلا وهو أكثر له شهرة وأقوى به عناية، وعليه بنى فقهاء الأمصار مذاهبهم حتى أهل العراق في بعض أمرهم، ولم يزل العلماء يخرجون أحاديثه، ويذكرون متابعاته وشواهدة، ويشرحون غريبه، ويضبطون مشكله ويبحثون عن فقهه، ويفتشون عن رجاله إلى غاية ليس بعدها غاية. وإن شئت الحق الصراح فقس كتاب الموطأ بكتاب الآثار لمحمد والأمالى لأبي يوسف تجد بينه وبينهما بُعد المشرقين، فهل سمعت أحداً من المحدثين والفقهاء تعرض لهما واعتنى بهما؟.

من كتب الطبقة الأولى، الصحيحان :

أما الصحيحان فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيهما من

(١) ابن أبي ذئب: محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة القرشي العامري المدني قدم بغداد وحدث بها ومات بالكوفة سنة ١٥٩ هـ .

(٢) ابن عيينة: هو أبو محمد سفيان بن عيينة أحد كبار المحدثين توفي سنة ١٩٨ هـ .

(٣) محمد بن الحسن: تلميذ أبي حنيفة وصاحبه، قد طلب العلم في بداية عهده على الإمام مالك وقد اجتمع مع الإمام الشافعي في مجلسه وشفع له في مجلس الرشيد عندما اتهم ظلماً .

المتصل المرفوع صحيح بالقطع ، وأنها متواتران إلى مصنفيهما ، وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع متبع غير سبيل المؤمنين . وإن شئت الحق الصراح فقسهما بكتاب ابن أبي شيبه وكتاب الطحاوي ومسند الخوارزمي وغيرهما تجد بينها وبينهما بعد المشرقين .

وقد استدرك الحاكم عليهما أحاديث هي على شرطهما ولم يذكرها ، وقد تبعت ما استدركه ، فوجدته قد أصاب من وجه ، ولم يصب من وجه ، وذلك لأنه وجد أحاديث مروية عن رجال الشيخين بشرطهما في الصحة والاتصال ، فاتجاه استدراكه عليهما من هذا الوجه ، ولكن الشيخين لا يذكران إلا حديثاً قد تناظر فيه مشايخهما ، وأجمعوا على القول به والتصحيح له ، كما أشار مسلم حيث قال : لم أذكر ههنا إلا ما أجمعوا عليه ، وجل ما تفرد به المستدرك كالموكا^(١) عليه المخفي مكانه في زمن مشايخهما وإن اشتهر أمره من بعده ، أو ما اختلف المحدثون في رجاله فالشيخان كأساتذتهما كانا يعتنيان بالبحث عن نصوص الأحاديث في الوصل والانقطاع وغير ذلك حتى يتضح الحال .

والحاكم يعتمد في الأكثر على قواعد مخرجة من صنائعهم كقوله : زيادة الثقات مقبولة ، وإذا اختلف الناس في الوصل والإرسال والوقف والرفع وغير ذلك فالذي حفظ الزيادة حجة على من لم يحفظ ، والحق أنه كثيراً ما يدخل الخلل في الحفاظ من قبل الموقوف ووصل المنقطع لا سيما عند رغبتهم في المتصل المرفوع وتنويهم به ، فالشيخان لا يقولان بكثير مما يقوله الحاكم ، والله أعلم .

(١) الوكاء ككساء رباط. القرية وغيرها وكل ما شد رأسه فهو وكاء وأوكى عليها شد رأسها والمراد من الموكا عليه مستور الحال .

وهذه الكتب الثلاثة التي اعتنى القاضي عياض^(١) في المشارق بضبط مشكلها ورد تصحيحها^(٢).

كتب الطبقة الثانية :

الطبقة الثانية : كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين، ولكنها تلوها. كان مصنفوها معروفين بالوثوق والعدالة والحفظ والتبحر في فنون الحديث، ولم يرضوا في كتبهم هذه بالتساهل فيما اشترطوا على أنفسهم، فتلقاها مَنْ بعدهم بالقبول، واعتنى بها المحدثون والفقهاء طبقة بعد طبقة، واشتهرت فيما بين الناس، وتعلق بها القوم شرحاً لغريبها وفحصاً عن رجالها واستنباطاً لفقهاها.

وعلى تلك الأحاديث بناء عامة العلوم كسنن أبي داود، وجامع الترمذي، ومجتبى النسائي، وهذه الكتب مع الطبقة الأولى اعتنى بأحاديثها رزين في تجريد الصحاح، وابن الأثير في جامع الأصول، وكاد مسند أحمد يكون من جملة هذه الطبقة، فإن الإمام أحمد جعله أصلاً يعرف به الصحيح والسقيم قال : ما ليس فيه فلا تقبلوه.

كتب الطبقة الثالثة :

والطبقة الثالثة : مسانيد وجوامع ومصنفات صنف - قبل البخاري ومسلم وفي زمانهما وبعدهما - جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والمعروف والغريب والشاذ والمنكر والخطأ والصواب والثابت والمقلوب، ولم تشتهر في العلماء ذلك الاشتهار وإن زال عنها اسم النكارة المطلقة،

(١) القاضي عياض : فقيه وقاض مالكي تولى التعليم والقضاء في سبته وقرطبة ومن كتبه : الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ومشارق الأنوار في اقتفاء صحيح الآثار وفيه معجم الألفاظ الغريبة الواقعة في موطأ مالك وصحيح البخاري ومسلم.
(٢) ويسمى هذا الكتاب المشارق وطبع في المغرب.

ولم يتداول ما تفردت به الفقهاء كثير تداول، ولم يفحص عن صحتها وسقمها المحدثون كثير فحص، ومنه ما لم يخدمه لغوي لشرح غريب، ولا فقيه بتطبيقه بمذاهب السلف، ولا محدث ببيان مشكله، ولا مؤرخ بذكر أسماء رجاله، ولا أريد المتأخرين المتعمقين، وإنما كلامي في الأئمة المتقدمين من أهل الحديث فهي باقية على استتارها واختفائها وخمولها كمسند أبي علي، ومصنف عبد الرزاق، ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة، ومسند عبد بن حميد، والطيالسي، وكتب البيهقي، والطحاوي، والطبراني، وكان قصدهم جمع ما وجدوه لا تلخيصه وتهذيبه وتقريبه من العمل.

كتب الطبقة الرابعة :

والطبقة الرابعة : كتب قصد مصنفوها بعد قرون متطاولة جمع ما لم يوجد في الطبقتين الأوليين وكانت في المجاميع والمسانيد المختفية فنوها بأمرها، وكانت على السنة من لم يكتب حديثه المحدثون ككثير من الوعاظ المتشدقين^(١) وأهل الأهواء والضعفاء، أو كانت من آثار الصحابة والتابعين، أو من أخبار بني إسرائيل، أو من كلام الحكماء والوعاظ خلطها الرواة بحديث النبي ﷺ سهواً أو عمداً، أو كانت من احتمالات القرآن والحديث الصحيح، فرواها بالمعنى قوم صالحون لا يعرفون غوامض الرواية، فجعلوا المعاني أحاديث مرفوعة، أو كانت معاني مفهومة من إشارات الكتاب والسنة جعلوها أحاديث مستبدة^(٢) برأسها عمداً، أو كانت جملاً شتى في أحاديث مختلفة جعلوها حديثاً واحداً بنسق واحد، ومظنة هذه الأحاديث كتاب الضعفاء لابن حبان وكامل ابن عدي، وكتب الخطيب وأبي نعيم والجوزقاني وابن عساكر وابن النجار والديلمي، وكاد مسند

(١) أي المبالغين في الكلام.

(٢) أي مستقلة.

الخوارزمي يكون من هذه الطبقة، وأصلح هذه الطبقة ما كان ضعيفاً
محتملاً وأسوأها ما كان موضوعاً أو مقلوباً شديد النكارة. وهذه الطبقة مادة
كتاب الموضوعات لابن الجوزي^(١).

كتب الطبقة الخامسة:

هنا طبقة خامسة: منها ما اشتهر على السنة الفقهاء والصوفية
والمؤرخين ونحوهم، وليس له أصل في هذه الطبقات الأربع، ومنها
مادسه الماجن في دينه العالم بلسانه فأتى بإسناد قوي لا يمكن الجرح
فيه، وكلام بليغ لا يبعد صدوره عنه عليه السلام، فأثار في الإسلام مصيبة عظيمة،
لكن الجهابذة^(٢) من أهل الحديث يوردون مثل ذلك على المتابعات
والشواهد، فتهتك الأستار ويظهر العوار^(٣).

الطبقات المعتمدة:

أما الطبقة الأولى والثانية فعليهما اعتماد المحدثين، وحموم حماهما
مرتعمهم ومسررحهم. وأما الثالثة فلا يباشرها للعمل عليها والقول بها إلا
النحارير^(٤) الجهابذة الذين يحفظون أسماء الرجال وعلل الأحاديث، نعم
ربما يؤخذ منها المتابعات والشواهد. ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(٥).
وأما الرابعة فالاشتغال بجمعها أو الاستنباط منها نوع تعمق من
المتأخرين. وإن شئت الحق فطوائف المبتدعين من الرافضة والمعتزلة

(١) ابن الجوزي: عبد الرحمن بن الجوزي فقيه ومؤرخ وخطيب حنبلي عاش في بغداد في
أواسط العصر العباسي.

(٢) الجهابذة: جمع جهبذ وهو الناقد العارف بتميز الجيد من الرديء.

(٣) العوار: (بضم العين وفتح الواو وتشديد لها) القذى - من لا بصر له - الرديء.

(٤) النحارير: جمع نحير وهو الحاذق الفطن وكذلك يعني العالم المجرب وكأنه نحر العالم
نحراً.

(٥) سورة الطلاق/ الآية ٣.

وغيرهم يتمكنون بأدنى عناية أن يخلصوا منها شواهد مذاهبتهم، فالانتصار بها غير صحيح في معارك العلماء بالحديث، والله أعلم.

باب كيفية فهم المراد من الكلام

اعلم أن تعبير المتكلم عما في ضميره وفهم السامع إياه يكون على درجات مترتبة في الوضوح والخفاء:

١ - أعلى التعبير ما سبق الكلام لأجله ولم يحتمل معنى آخر:

أعلاها ما صرح فيه بثبوت الحكم للموضوع له عيناً، وسبق الكلام لأجل تلك الإفادة، ولم يحتمل معنى آخر، ويتلوه ما عدم فيه أحد القيود الثلاثة، إما أثبت الحكم لعنوان عام يتناول جمعاً من المسميات شمولاً أو بدلاً مثل الناس والمسلمون والقوم والرجال، وأسماء الإشارة إذا عمت صلتها والموصوف بوصف عام والمنفي بلا الجنس^(١) فإن العام يلحقه التخصيص كثيراً، وإما لم يسبق الكلام لتلك الإفادة إن لزم مما هنالك، مثل جاءني زيد الفاضل بالنسبة إلى الفضل، ويا زيد الفقير بالنسبة إلى ثبوت الفقر له.

٢ - ما احتمل معنى آخر:

وإما احتمل معنى آخر أيضاً كاللفظ المشترك والذي له حقيقة مستعملة ومجاز متعارف والذي يكون معروفاً بالمثال والقسمة غير معروف بالحد الجامع المانع كالسفر معلوم أن من أمثله الخروج من المدينة قاصداً لمكة، ومعلوم أن من الحركة تفرج، ومنها تردد في الحاجة بحيث يأوي إلى القرية في يومه، ومنها سفر ولا يعرف الحد والدائر بين شخصين كاسم الإشارة والضمير عند تعارض القرائن أو صدق الصلة عليهما.

(١) أي (لا) التي لنفي الجنس.

٣ - ما أفهم الكلام من غير توسط :

ثم يتلوه ما أفهمه الكلام من غير توسط استعمال اللفظ فيه، ومعظمه
ثلاثة :

الفحوى : وهو يفهم أن الكلام حال المسكوت عنه بواسطة المعنى
الحامل على الحكم مثل : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ﴾^(١) .

يفهم منه حرمة الضرب بطريق الأولى ، ومثل «من أكل في نهار
رمضان وجب عليه القضاء» يفهم منه أن المراد نقض الصوم ، وإنما خص
الأكل لأنه صورة تتبادر إلى الذهن .

والاقتضاء : وهو أن يفهمها بواسطة لزومه للمستعمل فيه عادة أو عقلاً
أو شرعاً ، أعتقت ، وبعث - يقتضيان سبق ملك ، مشى يقتضي سلامة
الرجل ، صلى يقتضي أنه على الطهارة .

والإيماء : وهو أن أداء المقصود يكون بعبارات بإزاء الاعتبار
المناسبة ، فيقصد البلغاء مطابقة العبارة للاعتبار المناسب الزائد على أصل
المقصود ، فيفهم الكلام الاعتبار المناسب له كالتقييد بالوصف أو الشرط
يدلان على عدم الحكم عند عدمهما حيث لم يقصد مشاكلة السؤال
ولا بيان الصورة المتبادرة إلى الأذهان ولا بيان فائدة الحكم ، وكمفهوم
الاستثناء والغاية والعدد ، وشرط اعتبار الإيماء أن يجري التناقض به في
عرف أهل اللسان مثل - على عشرة إلا شيء إنما على واحد - يحكم عليه
الجمهور بالتناقض .

٤ - ما لا يدركه إلا المتعمقون :

وأما ما لا يدركه إلا المتعمقون في علم المعاني ، فلا عبرة به ، ثم

(١) سورة الإسراء/ الآية ٢٣ .

يتلوه ما استدل عليه بمضمون الكلام ومعظمه ثلاثة :

الدرج في العموم : مثل الذئب ذوناب وكل ذي ناب حرام، وبيانه بالافتراي وهو قوله ﷺ : «وما أنزل علي في الخمر شيء إلا هذه الآية الفاذة^(١) الجامعة : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٢) .»

ومنه استدلال ابن عباس بقوله تعالى : ﴿فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾^(٣) . وقوله تعالى : ﴿وَوَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾^(٤) .
حيث قال نبيكم أمر بأن يقتدى به .

والاستدلال بالملازمة أو المنافاة : مثل لو كان الوتر واجباً لم يؤد على الراحلة لكنه يؤدي كذلك، وبيانه بالشرطي ومنه قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٥) .

والقياس : وهو تمثيل صورة بصورة في علة جامعة بينهما مثل الحمص ربوي كالحنطة . ومنه قوله ﷺ : «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه أكان يجزى عنه؟ قال : نعم قال : فاحجج عنه» والله أعلم .

باب كيفية فهم المعاني الشرعية من الكتاب والسنة

الصيغة الدالة على الرضا والسخط :

واعلم أن الصيغة الدالة على الرضا والسخط هي : الحب والبغض ،

(١) الفاذة : الواحدة المفردة .

(٢) سورة الزلزلة / الأيتان ٨٧ . خيراً يره : أي يرى ثوابه . وشرّاً يره : أي يرى جزاءه وعقابه .

(٣) سورة الأنعام / الآية ٩ - فبهدهم اقتده : بطريقهم من التوحيد والصبر اقتد . الهاء للسكت .

(٤) سورة (ص) / الآية ٣٤ - فتناه : أوقعناه في فتنة - خر راکعاً : أي ساجداً - أناب : رجع إلى ربه بالتوبة .

(٥) سورة الأنبياء / الآية ٢٢ - لو كان فيهما : أي في السماوات والأرض .

والرحمة واللعنة، والقرب والبعد ونسبة الفعل إلى المرضيين أو المسخوطين كالمؤمنين والمنافقين، والملائكة والشياطين، وأهل الجنة والنار والطلب والمنع، وبيان الجزاء المترتب على الفعل، والتشبيه بمحمود في العرف أو مذموم، واهتمام النبي ﷺ بفعله أو اجتنابه عنه مع حضور دواعيه.

التمييز بين درجات الرضا والسخط:

وأما التمييز بين درجات الرضا والسخط من الوجوب والندب والحرمة والكراهية: فأصرحه ما بين حال مخالفه مثل «من لم يؤد زكاة ماله مثل له» الحديث^(١) وقوله ﷺ: «ومن لا فلا حرج»، ثم اللفظ مثل يجب، ولا يحل، وجعل الشيء ركن الإسلام أو الكفر، والتشديد البالغ على فعله، أو تركه، ومثل - ليس من المروءة، ولا ينبغي -، ثم حكم الصحابة والتابعين في ذلك كقول عمر رضي الله عنه: إن سجدة التلاوة ليست بواجبة، وقول علي رضي الله عنه: إن الوتر ليس بواجب، ثم حال المقصد من كونه تكميلاً لطاعة أو سداً لذريعة إثم أو من باب الوقار وحسن الأدب.

معرفة العلة والركن والشرط:

وأما معرفة العلة والركن والشرط: فأصرحها ما يكون بالنص مثل «كل مسكر حرام» «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب» «لا تقبل صلاة أحدكم حتى يتوضأ»، ثم بالإشارة والإيماء مثل قول الرجل: «واقعت أهلي في رمضان قال: أعتق رقبة»، وتسمية الصلاة قياماً وركوعاً وسجوداً يفهم أنها أركانها.

قوله ﷺ: «دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين» يفهم اشتراط الطهارة عند لبس الخفين، ثم أن يكثر الحكم بوجود الشيء عند وجوده أو عدمه

(١) تمامه «ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة» إلخ.

عند عدمه حتى يتقرر في الذهن عليه الشيء أو ركنيته أو شرطيته بمنزلة ما يدب في ذهن الفارسي من معرفة موضوعات اللغة العربية عند ممارسة العرب واستعمالهم إياها في المواضع المقرونة بالقرائن من حيث لا يدري، وإنما ميزانه نفس تلك المعرفة فإذا رأينا الشارع كلما صلى ركع، وسجد، ودفع عنه الرجز^(١)، وتكرر ذلك جزمنا بالمقصود، وإن شئت الحق فهذا هو المعتمد في معرفة الأوصاف النفسية مطلقاً، فإذا رأينا الناس يجمعون الخشب، ويصنعون منه شيئاً يجلس عليه، ويسمونه السرير نزعنا من ذلك أوصافه النفسية، ثم تخريج لمناط اعتماداً على وجدان مناسبة أو على السبر والحذف.

معرفة المقاصد التي بنى عليها الأحكام:

وأما معرفة المقاصد التي بنى عليها الأحكام فعلم دقيق لا يخوض فيه إلا من لطف ذهنه، واستقام فهمه، وكان فقهاء الصحابة تلت أصول الطاعات والآثام من المشهورات التي أجمع عليها الأمم الموجودة يومئذٍ كمشركي العرب كاليهود والنصارى، فلم تكن لهم حاجة إلى معرفة لمياتها^(٢)، ولا البحث عما يتعلق بذلك.

قوانين التشريع والتيسير:

أما قوانين التشريع والتيسير وأحكام الدين فتلقوها من مشاهدة مواقع الأمر والنهي، كما أن جلساء الطبيب يعرفون مقاصد الأدوية التي يأمر بها بطول المخالطة والممارسة، وكانوا في الدرجة العليا من معرفتها، ومنه قول عمر رضي الله عنه لمن أراد أن يصل النافلة بالفريضة: بهذا هلك من قبلكم، فقال النبي ﷺ: «أصاب الله بك يا ابن الخطاب» وقول ابن عباس

(١) الرجز - بالكسر والضم - القدر وعبادة الأوثان والعذاب والشرك.

(٢) لمياتها: أسبابها وعللها.

رضي الله عنهما في بيان سبب الأمر بغسل يوم الجمعة، وقول عمر رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث، وقول زيد رضي الله عنه في البيوع المنهي عنها: إنه كان يصيب الثمار مراض قشام دُمان إلخ^(١)، وقول عائشة^(٢) رضي عنها: «لو أدرك النبي ﷺ ما أحدثه النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل».

أصرح صيغ الدلالة:

وأصرح طرقها ما بين في نص الكتاب والسنة مثل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾^(٥). وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^(٦). وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(٧).

(١) المراض بالضم داء يقع في الثمرة فتهلك، والقشام كغراب أن ينتفض النخل قبل استواء بصره، والدمان بالضم فساد التمر وعفنه قبل إدراكه

(٢) عائشة: هي عائشة بنت أبي بكر الصديق وزوج النبي تزوجها قبل الهجرة بستين وبنى بها في المدينة وهي بنت تسع وكانت أحب نسائه إليه. وكانت أفقه نساء النبي ومسندها في مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٥٣ صفحة وعلى رواياتها المعول في معرفة ما كان رسول الله يفعل في بيته. ولها أحاديث في كل طرف في الفقه. كان فقهاء الصحابة يرجعون إليها توفيت سنة ٥٧ هـ.

(٣) سورة البقرة/ الآية ١٧٩ - ولكم في القصاص حياة: أي بقاء عظيم - يا أولي الأبواب: يا أصحاب العقول والفهم.

(٤) سورة البقرة/ الآية ١٨٧ - تختانون: تخونون - تختانون أنفسكم: تخونون أنفسكم بالجماع.

(٥) سورة الأنفال/ الآية ٦٦.

(٦) سورة الأنفال/ الآية ٧٣ - تكن فتنة في الأرض: وذلك بقوة الكفر وضعف الإسلام.

(٧) سورة البقرة/ الآية ٢٨٢.

وقوله ﷺ: «لا يدري أين باتت يده».

وقوله ﷺ: «إن الشيطان يبیت علی خيشومه»^(١) ثم ما أشير إليه أو أومىء مثل قوله ﷺ: «اتقوا اللاعنين».

وقوله ﷺ: «وكاء السه العينان».

من صريح الدلالة ما ذكره الصحابي:

ثم ما ذكره الصحابي الفقيه، ثم تخريج المناط بوجه يرجع إلى مقصد ظهر اعتباره أو اعتبار نظيره في نظير المسألة، وليس في الأمر جزاف فيجب أن يبحث عن المقادير لم عينت دون نظائرها، وعن مخصصات العموم لم استثنيت لفقد المقصد أو لقيام مانع يرجح عند التعارض والله أعلم.

باب القضاء في الأحاديث المختلفة

العمل بكل حديث إلا عند التناقض:

الأصل أن يعمل بكل حديث إلا أن يمتنع العمل بالجميع للتناقض، وأنه ليس في الحقيقة اختلاف، ولكن في نظرنا فقط.

فإذا ظهر حديثان مختلفان فإن كانا من باب حكاية الفعل، فحكى صحابي أنه ﷺ فعل شيئاً، وحكى آخر أنه فعل شيئاً آخر، فلا تعارض، ويكونان مباحين إن كانا من باب العادة دون العبادة، أو أحدهما مستحباً والآخر جائزاً إن لاح على أحدهما آثار القربة دون الآخر.

التناقض في القربة:

أو يكونان جميعاً مستحبين أو واجبين يكفي أحدهما كفاية الآخر إن كانا جميعاً من باب القربة.

(١) الخيشوم: والجمع خياشيم: أقصى الأنف وقد يطلق الخيشوم على الأنف كله.

وقد نص حفاظ الصحابة على مثله في كثير من السنن كالوتر بإحدى عشرة ركعة وبتسع وسبع وكالجهر في التهجد والمخافتة، وعلى هذا الأصل ينبغي أن يُقضى في رفع اليدين إلى الأذنين أو المنكبين، وفي تشهد عمر وابن مسعود^(١) وابن عباس رضي الله تعالى عنهم، وفي الوتر هل هو ركعة منفردة أو ثلاث ركعات، وفي أدعية الاستفتاح وأدعية الصباح والمساء وسائر الأسباب والأوقات.

إذا كان الحديثان مخلصين عن مضيق:

أو يكونان مخلصين عن مضيق إن تقدم ما يوجب ذلك كخصال الكفارة وكأجزية المحارب في قول، أو يكون هنالك علة خفية توجب، أو تحسن أحد الفعلين في وقت والآخر في وقت، أو توجب شيئاً وقتاً، وترخص وقتاً، فيجب أن يفحص عنها، أو يكون أحدهما عزيمة والآخر رخصة إن لاح أثر الأصالة في الأول واعتبار الحرج في الثاني وإن ظهر دليل النسخ قيل به.

وإن كان أحدهما حكاية فعل والآخر رفع قول فإن لم يكن القول قطعي الدلالة على تحريم أو وجوب أو قطعي الرفع احتمالاً وجوهاً. وإن كان قطعياً حملاً على تخصيص الفعل به ﷺ أو النسخ، فيفحص عن قرائنهما وإن كان قولين فإن كان أحدهما ظاهراً في معنى مؤولاً في غيره، وكان التأويل قريباً حمل على أن أحدهما بيان للآخر، وإن كان بعيداً لم يحمل عليه إلا عند قرينة قوية جداً أو نقل التأويل عن صحابي فقيه كقول

(١) ابن مسعود: هو عبد الله بن مسعود الهذلي، أسلم قديماً، ويقال إنه سادس رجل أسلم. كان يخدم النبي. هاجر الهجرتين. شهد بدرًا وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وشهد اليرموك. روى الحديث عن كثير من الصحابة والتابعين فضلاً عن الرسول عليه السلام. أرسله عمر إلى الكوفة معلماً للناس الدين - رجع إلى المدينة في أيام عثمان فبقي فيها إلى أن مات سنة ٣٢ هـ.

عبد الله بن سلام في الساعة المرجوة إنها قبيل الغروب، فأورد أبو هريرة (١) أنها ليست وقت صلاة، وقد قال النبي ﷺ: «لا يسأل الله فيها مسلم قائم يصلي» فقال عبد الله بن سلام المنتظر للصلاة كأنه في الصلاة فهذا تأويل بعيد لا يقبل مثله لولا ذهاب الصحابي الفقيه إليه، وضابطة البعيد أنه إن عرض على العقول السليمة بدون القرينة أو تجشم الجدل لم يحتمل.

إذا كان مخالفاً لإيماء ظاهر:

وإذا كان مخالفاً لإيماء ظاهر أو مفهوم واضح أو مورد نص لم يجز أصلاً، فمن القريب قصر عام جرت العادة باستعمال بعض أفرادها فقط في نظير ذلك الحكم على ذلك البعض، وعام يستعمل في موضع جرت العادة بالتسامح فيه كالمدح والذم، وعام سيق لشرع وضع في حكم بعد إفادة أصل الحكم، فيجعل في قوة القضية المهملة كقوله: «ما سقته السماء ففيه العشر» وقوله: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة» ومنه تنزيل كل واحد على صورة إن شهد المناط والمناسب، وحملهما على الكراهية وبيان الجواز في الجملة إن أمكن، وحمل التشديد على الزجر إن تقدم لجاج أما قوله (٢): ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ (٣). أي أكلها.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (٤). أي نكاحهن.

وقوله (٥): «العين حق» أي تأثيرها ثابت: «والرسول حق» أي مبعوث

(١) أبو هريرة: هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي. قدم على النبي مهاجراً إثر غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة ولازمه حتى لحق بربه. روى عنه الحديث فأكثر. وروى عنه كثير من التابعين أكثرهم سعيد بن المسيب صهره والأعرج مولاه وكثير غيرهما. وكان من أوعية العلم ومن كبار أئمة الفتوى. وكان من أحفظ الصحابة توفي سنة ٥٨ هـ.

(٢) مبتدأ وقوله الآتي فظاهر خبر وما بينهما معطوفات على المبدأ.

(٣) سورة المائدة/ الآية ٣.

(٤) سورة النساء/ الآية ٢٣.

(٥) أي النبي ﷺ.

حقاً وقوله: «رفع عن أمي الخطأ والنسيان» أي إثم ما وقعاً فيه وقوله: «لا صلاة إلا بطهور» «لا نكاح إلا بولي» «إنما الأعمال بالنيات» أي لا يترتب على هذه الأشياء آثارها التي جعلها الشارع لها.

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾^(١). أي إن لم تكونوا على الوضوء فظاهر ليس بمؤول؛ لأن العرب يستعملون كل لفظة منها في محل، ويريدون ما يناسب ذلك المحل، وتلك لغتهم التي لا يرون فيها صرفاً عن الظاهر.

إن كان الحديثان من باب الفتوى في مسألة والقضاء في واقعه: وإن كانا^(٢) من باب الفتوى في مسألة والقضاء في واقعة، فإن ظهرت علة فارقة قضى على حسبها، مثاله: سأله شاب عن القبلة للصائم، فنهاه، وشيخ، فرخص له.

وإن دل السياق في أحدهما دون الآخر على وجود الحاجة أو إلحاح السائل أو كونه إغماضاً عن إكمال أو رداً للمتعت المتشدد على نفسه قضى بالعزيمة والرخصة.

وإن كانا مخلصين لمبتلي، أو عقوبتين لجان، أو كفارتين من حنث^(٣) جاز الحمل على صحة الوجهين، واحتمل النسخ. وعلى هذا الأصل يقضي في المستحاضة أفتاها تارة بالغسل لكل صلاتين، وتارة بالتحيض أيام عاداتها أو أيام ظهور الدم الشديد على قول إنه كان خيراً بين أمرين، وأن العادة ولون الدم كلاهما يصلحان مظنة للحيض في الصيام. والاطعام عمن مات وعليه صوم على قول، والشاك في الصلاة يلغي شكه بأحد أمرين: بتحري الصواب أو أخذ المتيقن على قول. والقضاء في

(١) سورة المائدة/ الآية ٦.

(٢) أي الفعلان.

(٣) الحنث في اليمين: عدم الوفاء به.

إثبات النسب بالقائف^(١) أو القرعة على قول.

إن ظهر دليل النسخ حمل عليه :

وإن ظهر دليل النسخ حمل عليه، ويعرف النسخ بنص النبي ﷺ كقوله: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور إلا فزوروها» وبمعرفة تأخر أحدهما عن الآخر مع عدم إمكان الجمع.

وإذا شرع الشارع شرعاً، ثم شرع مكانه آخر وسكت عن الأول، عرف فقهاء الصحابة أن ذلك نسخ للأول، أو اختلفت الأحاديث وقضى الصحابي بكون أحدهما ناسخاً للآخر، فذلك ظاهر في النسخ غير قطعي، وقول الفقهاء - لما يجدونه خلاف عمل مشايخهم: منسوخ - غير مقنع، والنسخ فيما يبدونها تغير حكم بغيره، وفي الحقيقة انتهاء الحكم لانتهاء علته، أو انتهاء كونه مظنة للمقصد الأصلي، أو لحدوث مانع من العلية، أو ظهور ترجيح حكم آخر على النبي ﷺ بالوحي الجلي، أو باجتهاده وهذا إذا كان الأول اجتهادياً، قال الله تعالى في حديث المعراج: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾^(٢).

إذا لم يكن للجمع والتأويل مساغ وكذلك الترجيح تساقطاً:

وإذا لم يكن للجمع والتأويل مساغ، ولم يعرف النسخ تحقق التعارض، فإن ظهر ترجيح أحدهما إما بمعنى في السند من كثرة الرواة وفقه الراوي، وقوة الاتصال، وتصريح صيغة الرفع، وكون الراوي صاحب المعاملة بأن يكون هو المستفتي أو المخاطب أو المباشر، أو بمعنى في المتن من التأكيد والتصريح، أو بمعنى في الحكم وعلته من كونه مناسباً بالأحكام الشرعية، وكونها علة شديدة المناسبة عرف تأثيرها، أو من خارج

(١) القائف: القيافة هو تتبع الأثر ومعرفة الشيء الغائب.

(٢) سورة ق/ الآية ٢٩.

من كونه متمسك أكثر أهل العلم أخذ بالراجح وإلا تساقطا، وهي صورة مفروضة لا تكاد توجد.

العمل بقول الصحابي:

وقول الصحابي أمر، ونهي، وقضى، ورخص، ثم قوله: أمرنا، ونهينا، ثم قوله: من السنة كذا، وعصى أبا القاسم من فعل كذا، ثم قوله: هذا حكم النبي ظاهر في الرفع، ويحتمل طروق اجتهاد في تصوير العلة المدار عليها، أو تعيين الحكم من الوجوب والاستحباب، أو عمومه وخصوصه، وقوله: كان يفعل كذا ظاهر في تعدد الفعل، ولا ينافيه قول الآخر كان يفعل غيره وقوله: صحبته، فلم أره ينهى، وكنا نفعل في عهده ظاهر في التقرير، وليس نصاً.

اختلاف الأحاديث لاختلاف الطرق:

وقد تختلف صيغ حديث لاختلاف الطرق، وذلك من جهة نقل الحديث بالمعنى فإن جاء حديث ولم يختلف الثقات في لفظه كان ذلك لفظه ﷺ ظاهراً، وأمكن الاستدلال بالتقديم والتأخير والواو والفاء ونحو ذلك من المعاني الزائدة على أصل المراد.

وإن اختلفوا اختلافاً محتملاً وهم متقاربون في الفقه والحفظ والكثرة سقط الظهور، فلا يمكن الاستدلال بذلك إلا على المعنى الذي جاؤوا به جميعاً، وجمهور الرواة كانوا يعتنون برؤوس المعاني لا بحواشيها.

وإن اختلفت مراتبهم أخذ بقول الثقة والأكثر والأعرف بالقصة، وإن أشعر قول ثقة بزيادة الضبط مثل قوله: قالت: وثب - وما قالت: قام - وقالت: أفاض على جلده الماء - وما قالت: اغتسل - أخذه. وإن اختلفوا اختلافاً فاحشاً^(١) وهم متقاربون ولا مرجح سقطت الخصوصيات المختلف فيها.

(١) اختلاف فاحش: اختلاف عظيم.

المرسل يقوى بالقرينة :

والمرسل إن اقترن بقرينة مثل أن يعتضد بموقوف صحابي أو مسنده الضعيف أو مرسل غيره. والشيوخ متغايرة، أو قول أكثر أهل العلم، أو قياس صحيح، أو إيماء من نص، أو عرف أنه لا يرسل إلا عن عدل - صح الاحتجاج به وكان نازلاً من المسند وإلا لا .

وكذلك الحديث الذي يرويه قاصر الضبط غير متهم أو مجهول الحال - المختار أنه يقبل إن اقترن بقرينة مثل موافقة القياس، أو عمل أكثر أهل العلم، وإلا لا .

إذا تفرد الثقة بزيادة :

وإذا تفرد الثقة بزيادة لا يمتنع سكوت الباقيين عنها فهي مقبولة كإسناد المرسل وزيادة رجل في الإسناد وذكر مورد الحديث وسبب الرواية وإطناج الكلام وإيراد جملة مستقلة لا تغير معنى الكلام، وإن امتنع كالزيادة المغيرة للمعنى، أو نادرة لا يترك ذكرها عادة لم يقبل .

وإذا حمل الصحابي حديثاً على محمل، فإن كان للاجتهاد فيه مساع كان ظاهراً في الجملة إلى أن تقوم الحجة بخلافه، وإلا كان قوياً، كما إذا كان فيما يعرفه العاقل العارف باللغة من القرائن الحالية والقالية .

اختلاف آثار الصحابة والتابعين :

أما اختلاف آثار الصحابة والتابعين، فإن تيسر الجمع بينها ببعض الوجوه المذكورة سابقاً فذلك، وإلا كانت المسألة على قولين، أو أقوال، فينظر أيها أصوب، ومن العلم المكنون معرفة مأخذ مذاهب الصحابة، فاجتهد تنل منه حظاً والله أعلم^(١) .

(١) اعلم أن المصنف رحمه الله رتب القسم الأول في هذا الكتاب في سبعة مباحث في سبعين باباً كما نبه عليه في صدر الكتاب لكن إلى هنا صار عدد الأبواب واحداً وثمانين =

باب أسباب اختلاف الصحابة والتابعين في الفروع

اعلم أن رسول الله ﷺ لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدوناً، ولم يكن البحث في الأحكام يومئذٍ مثل البحث من هؤلاء الفقهاء حيث يبنون بأقصى جهدهم الأركان والشروط، وآداب كل شيء ممتازاً عن الآخر بدليله، ويفرضون الصور يتكلمون على تلك الصور المفروضة، ويحدون ما يقبل الحد، ويحصرن ما يقبل الحصر إلى غير ذلك من صنائعهم.

الرسول كان يعمل دون أن يبين ما كان فرضاً أو سواه :
 أما رسول الله ﷺ فكان يتوضأ، فيرى الصحابة وضوءه، فيأخذون به من غير أن يبين أن هذا ركن وذلك أدب، وكان يصلي، فيرون صلاته، فيصلون كما رأوه يصلي، وحج، فرمق الناس حجه، ففعلوا كما فعل، فهذا كان غالب حاله ﷺ، ولم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة، ولم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد إلا ما شاء الله.

الصحابة ما كانوا يسألون إلا قليلاً:

وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء. عن ابن عباس رضي الله عنهما

= في جميع النسخ الموجودة عندي وقت الطبع فالأبواب الزائدة إما ملحقة من بعد كالأبواب الآتية أو وقع السهو منه رحمه الله في الصدر أو كان بعض هذه الأبواب فصولاً فبدلها قلم النساخ أبواباً والله أعلم.

(١) هذه التتمة المشتملة على الأبواب الأربعة من هنا إلى القسم الثاني لم توجد إلا في نسخة واحدة وأبقيتها في المتن مطابقاً للنسخة المذكورة ولكون مضمونها مناسباً للكتاب وكلام المصنف في آخرها أيضاً يدل على أنها ينبغي أن تلحق في أصل الكتاب ومن ههنا يعلم أن المصنف رحمه الله لم يتيسر له النظر الثاني في هذا الكتاب كما هو مشهور عند الناس.

قال: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه (*) عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن منهن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ (١). ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ (٢).

الصحابة يسألون عما ينفعهم فقط:

قال: ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم. قال ابن عمر: لا تسأل عما لم يكن فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن. قال القاسم: إنكم تسألون عن أشياء ما كنا نسأل عنها وتنقرون (٣) عن أشياء ما كنا ننقر عنها. تسألون عن أشياء ما أدري ما هي، ولو علمناها ما حل لنا أن نكتمها.

عن عمر بن إسحاق قال: لمن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم، فما رأيت قوماً أيسر سيرة، ولا أقل تشديداً منهم.

وعن عبادة بن بسر الكندي، وسئل عن امرأة ماتت مع قوم ليس لها ولي، فقال: أدركت أقواماً ما كانوا يشددون تشديدكم، ولا يسألون مسائلكم، أخرج هذه الآثار الدارمي.

فتاوى الرسول وقضاياه:

وكان ﷺ يستفتيه الناس في الوقائع، فيفتيهم، وترفع إليه القضايا، فيقضي فيها، ويرى الناس يفعلون معروفًا، فيمدحه أو منكراً، فينكر عليه،

(*) هكذا وجد بالأصل ولعل صحته إلا عن.

(١) سورة البقرة/ الآية ٢١٧ - قتال فيه كبير: أي كبير الوزر.

(٢) سورة البقرة/ الآية ٢٢٢. يسألونك عن المحيض: أي يسألونك ماذا يفعل النساء فيه.

(٣) من التنقير وهو التفتيش والاستقصاء في البحث والمبالغة فيه.

وكل ما أفتى به مستفتياً، أو قضى به في قضية، أو أنكره على فاعله، كان في الاجتماعات.

وكذلك كان الشيخان أبو بكر وعمر إذا لم يكن لهما علم في المسألة يسألون الناس عن حديث رسول الله ﷺ.

كان أبو بكر يسأل الصحابة عن الأحكام:

وقال أبو بكر رضي الله عنه: ما سمعت رسول الله ﷺ قال فيها شيئاً يعني - الجدة - وسأل الناس، فلما صلى الظهر قال: أيكم سمع رسول الله ﷺ قال في الجدة شيئاً؟ فقال المغيرة بن شعبة: أنا، قال: ماذا قال؟ قال: أعطها رسول الله ﷺ سدساً، قال: أيعلم ذلك أحد غيرك؟ فقال محمد بن سلمة: صدق، فأعطها أبو بكر السدس.

كان عمر يسأل الصحابة عما سمعوه عن الرسول:

وقصة سؤال عمر الناس في الغرة، ثم رجوعه إلى خبير مغيرة، وسؤاله إياهم في الوباء، ثم رجوعه إلى خبير عبد الرحمن بن عوف^(١)، وكذا رجوعه في قصة المجوس إلى خبره، وسرور عبد الله بن مسعود بخبر معقل بن يسار لما وافق رأيه.

وقصة رجوع أبي موسى عن باب عمر وسؤاله عن الحديث، وشهادة أبي سعيد له، وأمثال ذلك كثيرة معلومة مروية في الصحيحين والسنن.

الصحابة نقلوا عن الرسول ما رأوه وسمعوه:

وبالجملة فهذه كانت عادته الكريمة ﷺ، فرأى كل صحابي ما يسره

(١) عبد الرحمن بن عوف: هو عبد الرحمن بن عوف الزهري. من أجلاء الصحابة وأحد العشرة الكرام، وأحد أصحاب الشورى. وكان من الفرسان الشجعان. شهد المشاهد مع رسول الله وأبلى بلاءً حسناً كان مولده بعد الفيل بعشر سنين. وكان ذا مال وفير. لما حضرته الوفاة أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً كانت وفاته سنة ٣٢ هـ.

الله له من عبادته وفتاواه وأقضيته، فحفظها، وعقلها، وعرف لكل شيء وجهاً من قبل حفوف القرائن به، فحمل بعضها على الإباحة، وبعضها على النسخ لأمارات وقرائن كانت كافية عنده، ولم يكن العمدة عندهم إلا وجدان الاطمئنان والثلج من غير التفات إلى طرق الاستدلال كما ترى الأعراب يفهمون مقصود الكلام فيما بينهم، وتثلج صدورهم بالتصريح والتلويح والإيماء من حيث لا يشعرون.

الصحابة يسكنون الأمصار :

فانقضى عصره الكريم وهم على ذلك، ثم إنهم تفرقوا في البلاد وصار كل واحد مقتدى ناحية من النواحي، فكثرت الوقائع، ودارت المسائل، فاستفتوا فيها، فأجاب كل واحد حسبما حفظه، أو استنبط، وإن لم يجد فيما حفظه أو استنبط ما يصلح للجواب - اجتهد برأيه، وعرف العلة التي أدار رسول الله ﷺ عليها الحكم في منصوصاته، فطرد الحكم حينما وجدها لا يألو جهداً في موافقة غرضه عليه الصلاة والسلام، فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم على ضروب :

إذا نقل صحابي حكماً عن الرسول واجتهد آخر :

منها : أن صحابياً سمع حكماً في قضية أو فتوى، ولم يسمعه الآخر فاجتهد برأيه في ذلك. وهذا على وجوه :

أ - الاجتهاد موافق للحديث :

أحدها : أن يقع اجتهاده موافق الحديث. مثاله : ما رواه النسائي وغيره أن ابن مسعود رضي الله عنه سئل عن امرأة مات عنها زوجها، ولم يفرض لها^(١) فقال : لم أر رسول الله ﷺ يقضي في ذلك، فاختلفوا عليه شهراً، وألحوا، فاجتهد برأيه، وقضى بأن لها مهر نسائها لا وكس

(١) أي لم يعين لها المهر.

ولا شطط(١)، وعليها العدة، ولها الميراث، فقام معقل بن يسار، فشهد بأنه ﷺ قضى بمثل ذلك في امرأة منهم، ففرح بذلك ابن مسعود فرحة لم يفرح مثلها قط بعد الإسلام.

٢ - وقوع المناظرة بينهما:

ثانيها: أن يقع بينهما المناظرة، ويظهر الحديث بالوجه الذي يقع به غالب الظن، فيرجع عن اجتهاده إلى المسموع. مثاله: ما رواه الأئمة من أن أبا هريرة رضي الله عنه كان من مذهبه أنه من أصبح جنباً فلا صوم له حتى أخبرته بعض أزواج النبي ﷺ بخلاف مذهبه، فرجع.

٣ - إذا بلغه الحديث فطعن فيه:

وثالثها: أن يبلغه الحديث ولكن لا على الوجه الذي يقع به غالب الظن، فلم يترك اجتهاده، بل طعن في الحديث، مثاله: ما رواه أصحاب الأصول من أن فاطمة بنت قيس شهدت عند عمر بن الخطاب بأنها كانت مطلقة الثلاث فلم يجعل لها رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى، فرد شهادتها وقال: لا أترك كتاب الله بقول امرأة لا ندري أصدقت أم كذبت لها النفقة والسكنى، وقالت عائشة رضي الله عنها لفاطمة: ألا تتقي الله - يعني في قولها - لا سكنى ولا نفقة...

مثال على رفض عمر الحديث:

ومثال آخر: روى الشيخان أنه كان من مذهب عمر بن الخطاب أن التيمم لا يجزىء للجنب الذي لا يجد ماء، فروى عنده عمار أنه كان مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصابته جنابة ولم يجد ماء، فتمعك في التراب(٢) فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إنما كان يكفيك أن تفعل

(١) أي لا نقصان ولا زيادة.

(٢) أي تمرغ لما ظن أن التيمم بدل من غسل جميع البدن.

هكذا، وضرب يديه على الأرض، فمسح بهما وجهه ويديه» فلم يقبل عمر، ولم ينهض عنده حجة لقادح^(١) خفي رآه فيه حتى استفاض^(٢) الحديث في الطبقة الثانية من طرق كثيرة، واضمحل وهم القادح فأخذوا به.

٤ - إذا لم يصله الحديث أصلاً:

ورابعها: ألا يصل إليه الحديث أصلاً، مثاله: ما أخرج مسلم أن ابن عمر كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، فسمعت عائشة بذلك، فقالت يا عجبا لابن عمر هذا يأمر النساء أن ينقضن رؤوسهن، أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، وما أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث أفرغات^(٣).

مثال آخر ما ذكره الزهري^(٤) من أن هنداً لم تبلغها رخصة رسول الله ﷺ في المستحاضة، فكانت تبكي لأنها لا تصلي.

الاختلاف في النظر إلى الحديث:

ومن تلك الضروب أن يروا رسول الله ﷺ فعل فعلاً، فحمله بعضهم على القربة، وبعضهم على الإباحة، مثاله ما رواه أصحاب الأصول في قضية التحصيب - أي النزول بالأبطح عند النفر - نزل رسول الله ﷺ به، فذهب أبو هريرة وابن عمر إلى أنه على وجه القربة فجعلوه من سنن

(١) قدح في الشيء: طعن فيه وعابه.

(٢) استفاض: اشتهر.

(٣) جمع إفراغة وهي المرة من الإفراغ من أفرغت الإناء وفرغته إذا قلبت ما فيه.

(٤) الزهري: محمد بن مسلم المعروف بابن شهاب الزهري، ولد سنة ٥٠ هـ وحدث عن عبد الله بن عمر وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب وغيرهم. قال الإمام مالك: بقي ابن شهاب وما له في الدنيا نظير توفي سنة ١٢٤ هـ.

الحج ، وذهبت عائشة وابن عباس إلى أنه على وجه الاتفاق وليس من السنن .

ومثال آخر: ذهب الجمهور إلى أن الرَّمْل في الطواف سنة ، وذهب ابن عباس إلى أنه إنما فعله النبي ﷺ على سبيل الارتفاق لعارض عرض ، وهو قول المشركين حطمهم حمى يثرب وليس بسنة . . .

اختلاف الوهم :

ومنها: اختلاف الوهم ، مثاله : أن رسول الله ﷺ حج ، فرآه الناس ، فذهب بعضهم إلى أنه كان متمتعاً ، وبعضهم إلى أنه كان قارناً ، وبعضهم إلى أنه كان مفرداً .

مثال على اختلاف الوهم :

مثال آخر: أخرج أبو داود عن سعيد بن جبير^(١) أنه قال : قلت لعبد الله بن عباس يا أبا العباس عجبت لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ حين أوجب^(٢) فقال : إني لأعلم الناس بذلك ، إنها كانت من رسول الله ﷺ حجة واحدة ، فمن هناك اختلفوا . خرج رسول الله ﷺ حاجاً ، فلما صلى في مسجد ذي الحليفة ركعة أوجب في مجلسه وأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه ، فسمع ذلك منه أقوام ، فحفظته عنه ، ثم ركب ، فلما استقلت به ناقته أهل وأدرك ذلك منه أقوام ، وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون

(١) سعيد بن جبير: هو أبو عبد الله سعيد بن جبير الحبشي . من أجل التابعين وأعلمهم ولد سنة ٤٥ هـ سمع من ابن عباس وابن عمر وغيرهما وكان ابن عباس إذا حج أهل الكوفة وسألوه ، يقول لهم : أليس فيكم سعيد بن جبير وهو أحد أقطاب مفسري التابعين . قال عنه الإمام أحمد بن حنبل لم يكن على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه . قتله الحجاج بن يوسف عام ٩٥ هـ لأسباب سياسية .

(٢) أي أهل وأتى بما وجب من أفعال الإحرام .

أرسالاً^(١)، فسمعوه حين استقلت به ناقته يهل، فقالوا: إنما أهل رسول الله ﷺ حين استقلت به ناقته، ثم مضى رسول الله ﷺ، فلما علا على شرف البيداء، أهل وأدرك ذلك منه أقوام، فقالوا: إنما أهل حين علا على شرف البيداء وآيم الله لقد أوجب في مصلاه، وأهل حين استقلت به ناقته، وأهل حين علا على شرف البيداء.

اختلاف السهو والنسيان:

ومنها^(٢): اختلاف السهو والنسيان، مثال: ما روي أن ابن عمر كان يقول اعتمر رسول الله ﷺ عمرة في رجب، فسمعت بذلك عائشة فقضت عليه بالسهو.

اختلاف الضبط:

ومنها: اختلاف الضبط. مثاله: ما روي ابن عمر - أو عمر - عنه ﷺ من أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه. فقضت عائشة عليه بأنه لم يأخذ الحديث على وجهه. مر رسول الله ﷺ على يهودية يبكي عليها أهلها فقال: «إنهم يبكون عليها وإنها تعذب في قبرها» فظن العذاب معلولاً للبكاء، فظن الحكم عاماً على كل ميت.

الاختلاف في علة الحكم:

ومنها: اختلافهم في علة الحكم. مثاله القيام للجنائز فقال قائل لتعظيم الملائكة فيعم المؤمن والكافر، وقال قائل: لهول الموت، فيعمهما. وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: مر على رسول الله ﷺ بجنائز يهودي فقام لها كراهية أن تعلق فوق رأسه، فيخص الكافر.

(١) جمع رسل - بفتح الأول والثاني - بمعنى القطيع أي كانوا يجيئون قطعياً قطعياً.
(٢) أي ضروب الاختلاف.

الاختلاف في الجمع بين المختلفين :

ومنها: اختلافهم في الجمع بين المختلفين. مثاله: رخص رسول الله ﷺ في المتعة عام خيبر، ثم رخص فيها عام أوطاس، ثم نهى عنها، فقال ابن عباس: كانت الرخصة للضرورة، والنهي لانقضاء الضرورة والحكم باق على ذلك.

وقال الجمهور: كانت الرخصة إباحة والنهي نسخاً لها.

مثال آخر: نهى رسول الله ﷺ عن استقبال القبلة في الاستنجاء، فذهب قوم إلى عموم هذا الحكم وكونه غير منسوخ، ورآه جابر يبول قبل أن يتوفى بعام مستقبل القبلة فذهب إلى أنه نسخ للنهي المتقدم ورآه ابن عمر قضى حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام، فرد به قولهم، وجمع قوم بين الروايتين، فذهب الشعبي^(١) وغيره إلى أن النهي مختص بالصحراء، فإذا كان في المراحيز^(٢) فلا بأس بالاستقبال والاستدبار، وذهب قوم إلى أن القول عام محكم، والفعل يحتمل كونه خاصاً بالنبي ﷺ فلا ينتهض ناسخاً ولا مخصصاً.

اختلاف مذاهب أصحاب النبي :

وبالجملة فاختلفت مذاهب أصحاب النبي ﷺ، وأخذ عنهم التابعون كذلك كل واحد ما تيسر له، فحفظ ما سمع من حديث رسول الله ﷺ ومذاهب الصحابة وعقلها، وجمع المختلف على ما تيسر له ورجح بعض الأقوال على بعض، واضمحل في نظرهم بعض الأقوال وإن كان

(١) الشعبي: هو عامر بن شراحيل الشعبي وهو علامة التابعين، ولد في خلافة عمر سنة ١٧ هـ وكان إماماً فقيهاً. روي عن علي وأبي هريرة وابن عباس وعائشة وابن عمر وغيرهم وهو أكبر شيخ لأبي حنيفة. ولي قضاء الكوفة وكان راوية قاصاً اخبارياً مات سنة ١٠٥ هـ.

(٢) جمع مراحيز بالكسر وهو موضع قضاء الحاجة كالكنيف.

مأثوراً عن كبار الصحابة كالمذهب المأثور عن عمر وابن مسعود في تيمم
الجنب اضمحل عندهم لما استفاض من الأحاديث عن عمار وعمران
ابن الحصين وغيرهما.

مذاهب التابعين:

فعند ذلك صار لكل عالم من علماء التابعين مذهب على حياله،
فانتصب في كل بلد إمام مثل سعيد بن المسيب^(١)، وسالم بن عبد الله بن
عمر في المدينة، وبعدهما الزهري والقاضي يحيى بن سعيد وربيع بن
عبد الرحمن فيها، وعطاء بن أبي رباح بمكة، وإبراهيم النخعي والشعبي
بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، وطاووس بن كيسان باليمن،
ومكحول بالشام.

الرواية عن الصحابة والتحقيق من التابعين:

فأظماً الله أكباداً إلى علومهم، فرغبوا فيها، وأخذوا عنها الحديث
وفتاوى الصحابة وأقاربهم، ومذاهب هؤلاء العلماء وتحقيقاتهم من عند
أنفسهم، واستفتى منهم المستفتون، ودارت المسائل بينهم، ورفعت إليهم
الأقضية، وكان سعيد بن المسيب وإبراهيم وأمثالهما جمعوا أبواب الفقه
أجمعها، وكان لهم في كل باب أصول تلقوها من السلف.

تحفة أهل الحرمين:

وكان سعيد وأصحابه يذهبون إلى أن أهل الحرمين أثبت الناس في
الفقه، وأصل مذهبهم فتاوى عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس، وقضايا

(١) سعيد بن المسيب: هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن من خيار التابعين وكان أفقه
أهل الحجاز وأعبر الناس للرؤيا وقد جمع بين الحديث والفقه والنسك ولد لستين مضت
من خلافة عمر وسمع من كبار الصحابة. وكان الحسن البصري مع جلالته علمه وقدره إذا
أشكل عليه شيء كتب إلى سعيد بن المسيب يسأله. توفي سنة ٩٤ هـ.

قضاة المدينة، فجمعوا من ذلك ما يسره الله لهم، ثم نظروا فيها نظر اعتبار وتفتيش، فما كان منها مجمعاً عليه بين علماء المدينة فإنهم يأخذون عليه بنواجذهم، وما كان فيه اختلاف عندهم فإنهم يأخذون بأقواها وأرجحها إما بكثرة من ذهب إليه منهم أو لموافقته بقياس قوي أو تخريج صريح من الكتاب والسنة أو نحو ذلك، وإذا لم يجدوا فيما حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من كلامهم وتتبعوا الإيماء والاقتضاء، فحصل لهم مسائل كثيرة في كل باب باب.

فقهاء الصحابة والتابعين:

وكان إبراهيم^(١) وأصحابه يرون أن عبد الله بن مسعود وأصحابه أثبت الناس في الفقه كما قال علقمة^(٢) لمسروق: هل أحد منهم أثبت من عبد الله؟ وقول أبي حنيفة رضي الله عنه للأوزاعي إبراهيم أفقه من سالم، ولولا فضل الصحبة لقلت إن علقمة أفقه من عبد الله بن عمر وعبد الله - هو عبد الله - وأصل مذهبه فتاوى عبد الله بن مسعود وقضايا علي رضي الله عنهما وفتاواه وقضايا شريح وغيره من قضاة الكوفة، فجمع من ذلك ما يسره الله. ثم صنع في آثارهم كما صنع مالك في آثار أهل المدينة، وخرج كما خرجوا، فلخص له مسائل الفقه في كل باب باب.

سعيد بن المسيب والنخعي:

وكان سعيد بن المسيب لسان فقهاء المدينة، وكان أحفظهم لقضايا

(١) إبراهيم: هو إبراهيم بن يزيد النخعي. كان من أفاضل التابعين روى عن علقمة ومسروق والأسود وغيرهم وهو من أفاضل التابعين وهو فقيه محدث حُمل عنه العلم وهو لم يتجاوز عمره الثماني عشرة سنة. كان يتوقى الشهرة ولا يتكلم في العلم حتى يسأل مات سنة ٩٦ هـ عن ٤٦ سنة.

(٢) علقمة: هو علقمة بن النخعي فقيه العراق. ولد في حياة الرسول وسمع من عمر وعثمان وابن مسعود وعلي وكان أنبل أصحاب ابن مسعود. قال قابوس بن أبي ظبيان: أدركت أناساً من أصحاب رسول الله وهم يسألون علقمة ويستفتونه. مات سنة ٦٢.

عمر ولحديث أبي هريرة، وإبراهيم لسان فقهاء الكوفة، فإذا تكلمنا بشيء، ولم ينسبناه إلى أحد فإنه في الأكثر منسوب إلى أحد من السلف صريحاً أو إيماء ونحو ذلك، فاجتمع عليهما فقهاء بلدهما وأخذوا عنهما وعقلوه وخرجوا عليه، والله أعلم.

باب أسباب اختلاف مذاهب الفقهاء

حملة العلم بعد التابعين :

اعلم أن الله تعالى أنشأ بعد عصر التابعين نشأاً^(١) من حملة العلم إنجازاً لما وعده رسول الله ﷺ حيث قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله» فأخذوا عن اجتماعهم معه منهم صفة الوضوء والغسل والصلاة والحج والنكاح والبيوع وسائر ما يكثر وقوعه، ورووا حديث النبي ﷺ، وسمعوا قضايا قضاة البلدان وفتاوى مفتيها، وسألوا عن المسائل، واجتهدوا في ذلك كله، ثم صاروا كباراً قوم، ووسد إليهم الأمر، فنسجوا على منوال شيوخهم، ولم يألوا في تتبع الإيماءات والاقترانات، فقصوا، وأفتوا، ورووا، وعلموا. وكان صنيع العلماء في هذه الطبقة متشابهاً.

طريقة اجتهاد هؤلاء العلماء :

وحاصل صنيعهم أن يتمسك بالمسند من حديث رسول الله ﷺ والمرسل جميعاً، ويستدل بأقوال الصحابة والتابعين علماً منهم أنها إما أحاديث منقولة عن رسول الله ﷺ احتقروها، فجعلوها موقوفة كما قال إبراهيم، وقد روى حديث نهي رسول الله ﷺ عن المحاقلة والمزابنة^(٢)

(١) أي جماعة.

(٢) المحاقلة هي اكتراء الأرض بالحنطة، وقيل: هي المزارعة على نصيب معلوم كالثلث وغيره، وقيل: بيع الطعام في سنبله بالبر، وقيل: بيع الزرع قبل إدراكه والمشهور هذا والنهي للجهالة، والمزابنة هي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر نهي عنها لما فيها من الغبن والجهالة.

ف قيل له : أما تحفظ عن رسول الله ﷺ حديثاً غير هذا؟ قال : بلى ولكن أقول قال عبد الله قال علقمة : أحب إلي .

وكما قال الشعبي - وقد سئل عن حديث - وقيل : إنه يرفع إلى النبي ﷺ قال : لا بأعلى من دون النبي ﷺ أحب إلينا ، فإن كان فيه زيادة ونقصان كان علي من دون النبي ﷺ ، أو يكون استنباطاً منهم من المنصوص أو اجتهاداً منهم بأرائهم وهم أحسن صنيعاً في كل ذلك ممن يجيء بعدهم وأكثر إصابة وأقدم زماناً وأوعى علماً ، فتعين العمل بها إلا إذا اختلفوا .

قول الصحابة أرجح من الحديث المختلف :

وكان حديث رسول الله ﷺ يخالف قولهم مخالفة ظاهرة وأنه^(١) إذا اختلفت أحاديث رسول الله ﷺ في مسألة رجعوا إلى أقوال الصحابة ، فإن قالوا بنسخ بعضها أو بصرفه عن ظاهره ، أو لم يصرحوا بذلك ، ولكن اتفقوا على تركه وعدم القول بموجبه فإنه كإبداء علة فيه أو الحكم بنسخه أو تأويله - اتبعوهم في كل ذلك ، وهو قول مالك في حديث ولغ الكلب^(٢) جاء هذا الحديث ولكن لا أدري ما حقيقته يعني حكاه ابن الحاجب في مختصر الأصول لم أر الفقهاء يعملون به .

إذا اختلفت مذاهب الصحابة والتابعين :

وأنه إذا اختلفت مذاهب الصحابة والتابعين في مسألة فالمختار عند كل عالم مذهب أهل بلده وشيوخه لأنه أعرف بصحيح أقاويلهم من السقيم وأوعى للأصول المناسبة لها ، وقلبه أميل إلى فضلهم وتبخرهم .

(١) عطف على أن يتمسك .

(٢) إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام : «ظهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبعاً وعند مالك الكلب طاهر وهذا الحكم تعبدى .

فمذهب^(١) عمر وعثمان وابن عمر وعائشة وابن عباس وزيد بن ثابت^(٢)، وأصحابهم مثل سعيد بن المسيب فإنه كان أحفظهم لقضايا عمر، وحديث أبي هريرة، ومثل عروة وسالم وعطاء بن يسار وقاسم وعبيد الله بن عبد الله والزهري ويحيى بن سعيد وزيد بن أسلم وربيعة - أحق بالأخذ من غيره عند أهل المدينة لما بينه النبي ﷺ في فضائل المدينة، ولأنها مأوى الفقهاء ومجمع العلماء في كل عصر.

مذهب مالك وأهل المدينة:

ولذلك ترى مالكا يلازم محجتهم، ومذهب عبد الله بن مسعود وأصحابه، وقضايا علي وشريح والشعبي وفتاوى إبراهيم - أحق بالأخذ عند أهل الكوفة من غيره وهو قول علقمة حين مال مسروق إلى قول زيد بن ثابت في التشريك قال: هل أحد منكم أثبت من عبد الله؟ فقال لا ولكن رأيت زيد بن ثابت وأهل المدينة يشركون، فإن اتفق أهل البلد على شيء أخذوا بنواجذه، وهو الذي يقول في مثله مالك: السنة التي لا اختلاف فيها عندنا كذا وكذا، وإن اختلفوا أخذوا بأقواها وأرجحها إما بكثرة القائلين به أو لموافقته لقياس قوي، أو تخريج من الكتاب والسنة، وهو الذي يقول في مثله مالك: هذا أحسن ما سمعت، فإذا لم يجدوا فيما حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من كلامهم وتبعوا الإيماء والاقتضاء، وألهموا في هذه الطبقة التدوين.

(١) مبتدأ وقوله: الآتي أحق خبر.

(٢) زيد بن ثابت: هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري، كان عمره حين قدم النبي المدينة ١١ سنة وأول مشاهدته الخندق. أعطاه الرسول الراية يوم تبوك. كان زيد يكتب لرسول الله الوحي. وكانت ترد للرسول كتب بالسريانية فأمره الرسول فتعلمها ثم كتب لأبي بكر وعمر واستخلفه عمر على المدينة ثلاث مرات وكان أعلم الصحابة بالفرائض وهو الذي تولى جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر وعثمان توفي سنة ٤٥ هـ.

تدوين الفقهاء :

فدون مالك ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب بالمدينة، وابن جريج وابن عيينة بمكة، والثوري بالكوفة، وربيع بن الصبيح بالبصرة. وكلهم مشوا على هذا المنهج الذي ذكرته.

ولما حجَّ المنصور قال لمالك: قد عزمت أن أمر بكتبك هذه التي صنفتها، فتسخ، ثم أبعث في كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وأمرهم بأن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوه إلى غيره، فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم، ويحكى نسبة هذه القصة إلى هرون الرشيد، وأنه شاور مالكا^(١) في أن يعلق الموطأ في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، فقال: لا تفعل فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكل سنة مضت قال: وفقك الله يا أبا عبد الله. حكاه السيوطي.

ميزة الإمام مالك :

وكان مالك من أثبتهم في حديث المدنيين عن رسول الله ﷺ وأوثقهم إسناداً وأعلمهم بقضايا عمر وأقاويل عبد الله بن عمر وعائشة وأصحابهم من الفقهاء السبعة، وبه وبأمثاله قام علم الرواية والفتوى، فلما

(١) مالك: هو مالك بن أنس بن أبي عامر وجده أبو عامر من أصحاب رسول الله ﷺ شهد معه المغازي كلها خلا بداراً. ولد في المدينة سنة ٩٣ هـ. طلب العلم على علماء المدينة. وأخذ العلم عن نافع مولى ابن عمر وابن شهاب الزهري. أما شيخه في الفقه فهو ربيعة بن عبد الرحمن المعروف بريعة الرأي. ولما شهد له شيوخه بالحديث والفقه جلس للرواية والفتيا أخذ عنه الحديث كثير من المحدثين. أقام في المدينة ولم يرحل عنها وهو شيخ الإمام الشافعي توفي عام ١٧٩ هـ.

وسد إليه الأمر حدث، وافتى، وأفاد، وأجاد، وعليه انطبق قول النبي ﷺ: «يُوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة» على ما قاله ابن عيينة وعبد الرزاق - وناهيك بهما - فجمع أصحابه رواياته ومختاراته ولخصوها، وحرروها، وشرحوها، وخرجوا عليها، وتكلموا في أصولها ودلائلها، وتفرقوا إلى المغرب ونواحي الأرض، فنفذ الله بهم كثيراً من خلقه.

وإن شئت أن تعرف حقيقة ما قلناه من أصل مذهبه فانظر في كتاب الموطأ تجده كما ذكرنا.

مذهب أبي حنيفة وماخذه:

وكان أبو حنيفة رضي الله عنه ألزمهم بمذهب إبراهيم وأقرانه لا يجاوزه إلا ما شاء الله، وكان عظيم الشأن في التخريج على مذهبه دقيق النظر في وجوه التخريجات مقبلاً على الفروع أتم إقبال، وإن شئت أن تعلم حقيقة ما قلنا فلخص أقوال إبراهيم وأقرانه من كتاب الآثار لمحمد رحمه الله وجامع عبد الرزاق ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة، ثم قايسه بمذهبه تجده لا يفارق تلك المحجة إلا في مواضع يسيرة وهو في تلك اليسيرة أيضاً لا يخرج عما ذهب إليه فقهاء الكوفة.

أشهر أصحاب أبي حنيفة:

وكان أشهر أصحابه ذكراً أبو يوسف^(١) رحمه الله، فولى قضاء القضاة أيام هرون الرشيد، فكان سبباً لظهور مذهبه والقضاء به في أقطار العراق وخراسان وما وراء النهر.

(١) أبو يوسف: هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ولد سنة ١١٢ هـ ولما شب اشتغل برواية الحديث وتفقه أولاً بابن أبي ليلى ثم انتقل إلى أبي حنيفة فكان أكبر تلاميذه وأفضل معين له وهو أول من صنف الكتب على مذهبه وأملى المسائل ونشرها توفي سنة ١٨٣ هـ.

وكان أحسنهم تصنيفاً وألزمهم درساً محمد بن الحسن، وكان من خبره أنه تفقه على أبي يوسف، ثم خرج إلى المدينة، فقرأ الموطأ على مالك، ثم رجع إلى نفسه، فطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة فإن وافق فيها وإلا فإن رأى طائفة من الصحابة والتابعين ذاهبين إلى مذهب أصحابه فكذلك، وإن وجد قياساً ضعيفاً أو تخريجاً ليناً يخالفه حديث صحيح فيما عمل به الفقهاء أو يخالفه عمل أكثر العلماء - تركه إلى مذهب من مذاهب السلف مما يراه أرجح ما هناك، وهذان لا يزالان على محجة إبراهيم وأقرانه ما أمكن لهما كما كان أبو حنيفة رضي الله عنه يفعل ذلك.

اختلاف أصحاب أبي حنيفة:

وإنما كان اختلافهم في أحد شيئين: إما أن يكون لشيخهما تخريج على مذهب إبراهيم يزاحمانه فيه، أو يكون هناك لإبراهيم ونظرائه أقوال مختلفة يخالفان شيخهما في ترجيح بعضها على بعض، فصنف محمد رحمه الله وجمع رأي هؤلاء الثلاثة، ونفع كثيراً من الناس، فتوجه أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه إلى تلك التصانيف تلخيصاً وتقريباً أو شرحاً أو تخريجاً أو تأسيساً أو استدلالاً، ثم تفرقوا إلى خراسان وما وراء النهر، فيسمى ذلك مذهب أبي حنيفة.

مذهب الشافعي:

ونشأ الشافعي في أوائل ظهور المذاهبين وترتيب أصولهما وفروعهما، فنظر في صنيع الأوائل، فوجد فيه أموراً كبحت عنانه عن الجريان في طريقهم، وقد ذكرها في أوائل كتاب الأم.

لم يأخذ الشافعي بالحديث المرسل:

منها: أنه وجدهم يأخذون بالمرسل والمنقطع، فيدخل فيهما الخلل، فإنه إذا جمع طرق الحديث يظهر أنه كم من مرسل لا أصل له،

وكم من مرسل يخالف مسنداً، فقرر ألا يأخذ بالمرسل إلا عند وجود شروط، وهي مذكورة في كتب الأصول.

دَوْن الشافعي أصول الفقه:

ومنها: أنه لم تكن قواعد الجمع بين المختلفات مضبوطة عندهم، فكان يتطرق بذلك خلل في مجتهداتهم، فوضع لها أصولاً، ودونها في كتاب، وهذا أول تدوين كان في أصول الفقه. مثاله: ما بلغنا أنه دخل على محمد بن الحسن وهو يطعن على أهل المدينة في قضائهم بالشاهد الواحد مع اليمين، ويقول: هذا زيادة على كتاب الله، فقال الشافعي: أثبت عندك أنه لا تجوز الزيادة على كتاب الله بخبر الواحد؟ قال: نعم قال: فلم قلت إن الوصية للوارث لا تجوز لقوله ﷺ: «ألا لا وصية لوارث» وقد قاله الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ (١). الآية؟! (٢) وأورد عليه أشياء من هذا القبيل، فانقطع كلام محمد ابن الحسن (٣).

بعض الأحاديث الصحيحة لم تبلغ التابعين أخذ بها الشافعي:

ومنها: أن بعض الأحاديث الصحيحة لم يبلغ علماء التابعين ممن

(١) سورة البقرة/ الآية ١٨٠.

(٢) ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين﴾ فحاصل الاعتراض أن هذه الآية تدل على أن الوصية للوارث تجوز فأخذت الزيادة عليها في عدم جواز الوصية بخبر الواحد «ألا لا وصية لوارث».

(٣) محمد بن الحسن: هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني مولاهم. وأصله من قرية حرسنا بجوار دمشق قدم أبوه إلى العراق حيث ولد محمد بواسط سنة ١٣٢ ونشأ بالكوفة. طلب العلم في صباه فروى الحديث وأخذ عن مالك وأخذ فقه أبي حنيفة ولم يجالسه كثيراً لأن أبا حنيفة توفي ومحمد حدث فاتم الطريقة على أبي يوسف وكان ذا عقل وفطنة فنبغ وصار المرجع لأهل الرأي وقد ألف في مذهب أبي حنيفة وعنه أخذ المذهب كما أخذ عن أبي يوسف توفي محمد بن الحسن عام ١٨٩.

وسد إليهم الفتوى، فاجتهدوا بآرائهم، أو اتبعوا العمومات، أو اقتدوا بمن مضى من الصحابة، فأفتوا حسب ذلك. ثم ظهرت بعد ذلك في الطبقة الثالثة فلم يعملوا بها ظناً منهم أنها تخالف عمل أهل مدينتهم وسنتهم التي لا اختلاف لهم فيها، وذلك قادح في الحديث وعله مسقطة له، أو لم تظهر في الثالثة، وإنما ظهرت بعد ذلك عندما أمعن أهل الحديث في جمع طرق الحديث، ورحلوا إلى أقطار الأرض، وبحثوا عن حملة العلم، فكثرت من الأحاديث ما لا يرويه من الصحابة إلا رجل أو رجلان، ولا يرويه عنه أو عنهما إلا رجل أو رجلان، وهلم جراً، فخفي على أهل الفقه.

وظهر في عصر الحفاظ الجامعين لطرق الحديث كثير من الأحاديث، رواه أهل البصرة مثلاً وسائر الأقطار في غفلة منه، فبين الشافعي^(١) أن العلماء من الصحابة والتابعين لم يزل شأنهم أنهم يطلبون الحديث في المسألة، فإذا لم يجدوا تمسكوا بنوع آخر من الاستدلال، ثم إذا ظهر عليهم الحديث بعد رجوعوا من اجتهادهم إلى الحديث فإذا كان الأمر على ذلك لا يكون عدم تمسكهم بالحديث قدحاً فيه، اللهم إلا إذا بينوا العلة القادحة.

مثال على الأحاديث الصحيحة التي أخذها الشافعي:

مثاله: حديث القلتين فإنه حديث صحيح روي بطرق كثيرة معظمها

(١) الشافعي: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي من بني عبد المطلب بن مناف وهو الأب الرابع للنبي عليه السلام. ولد الشافعي بغزة سنة ١٥٠ حملته أمه إلى مكة موطن آبائه بعد سنتين من مولده واستظهر القرآن جيداً ثم خرج إلى بني هذيل بالبادية. وكان من أفصح العرب فحفظ لغتهم وأشعارهم. درس على شيخ الحرم مسلم بن الوليد ثم ذهب إلى المدينة فدرس على مالك. ذهب إلى العراق فتعلم علم أهل العراق وذهب إلى مصر واستقر فيها ومات سنة ٢٠٤ هـ.

ترجع إلى أبي الوليد بن كثير. عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبد الله - أو محمد بن عباد بن جعفر - عن عبيد الله بن عبد الله كلاهما عن ابن عمر، ثم تشعبت الطرق بعد ذلك؛ وهذان وإن كانا من الثقات لكنهما ليسا ممن وسد إليهما الفتوى، وعوّل الناس عليهما، فلم يظهر الحديث في عصر سعيد بن المسيب ولا في عصر الزهري، ولم يمش عليه المالكية ولا الحنفية، فلم يعملوا به، وعمل به الشافعي، وكحديث - خيار المجلس - فإنه حديث صحيح روي بطرق كثيرة، وعمل به ابن عمر وأبو هريرة من الصحابة، ولم يظهر على الفقهاء السبعة ومعاصريهم، فلم يكونوا يقولون به، فرأى مالك وأبو حنيفة هذه علة قاذحة في الحديث، وعمل به الشافعي.

ترك الشافعي أقوال الصحابة عند ثبوت الأحاديث:

ومنها: أن أقوال الصحابة جمعت في عصر الشافعي، فتكثرت، واختلفت وتشعبت، ورأى كثيراً منها يخالف الحديث الصحيح حيث لم يبلغهم، ورأى السلف لم يزالوا يرجعون في مثل ذلك إلى الحديث، فترك التمسك بأقوالهم ما لم يتفقوا، وقال: هم رجال ونحن رجال.

ميز الشافعي بين الرأي والقياس وقبل الثاني:

ومنها أنه رأى قوماً من الفقهاء يخلطون الرأي الذي لم يسوغه الشرع بالقياس الذي أثبتته، فلا يميزون واحداً منهما من الآخر، ويسمون تارة بالاستحسان - وأعني بالرأي أن ينصب مظنة حرج أو مصلحة علة لحكم، وإنما القياس أن تخرج العلة من الحكم المنصوص، ويدار عليها الحكم - فأبطل هذا النوع أتم إبطال.

وقال من استحسن: فإنه أراد أن يكون شارعاً، حكاه ابن الحاجب في - مختصر الأصول - مثاله رشد اليتيم أمر خفي، فأقاموا مظنة الرشد

وهو بلوغ خمس وعشرين سنة مقامه، وقالوا: إذا بلغ اليتيم هذا العمر سلم إليه ماله، قالوا: هذا استحسان، والقياس ألا يسلم إليه. وبالجملة لما رأى^(١) في صنيع الأوائل مثل هذه الأمور، أخذ الفقه من الرأس، فأسس الأصول، وفرّع الفروع، وصنف الكتب فأجاد، وأفاد، واجتمع عليه الفقهاء، وتصرفوا اختصاراً وشرحاً واستدلالاً وتخريجاً، ثم تفرقوا في البلدان، فكان هذا مذهباً للشافعي والله أعلم.

باب الفرق بين أهل الحديث وأصحاب الرأي

اعلم أنه كان من العلماء في عصر سعيد بن المسيب وإبراهيم والزهري، وفي عصر مالك وسفيان^(٢)، وبعد ذلك - قوم يكرهون الخوض بالرأي، ويهابون الفتيا والاستنباط إلا لضرورة لا يجدون منها بدءاً، وكان أكبر همهم رواية حديث رسول الله ﷺ.

أقوال السلف في الرأي:

سئل عبد الله بن مسعود عن شيء، فقال: إني لأكره أن أحلّ لك شيئاً حرّمه الله عليك، أو أحرم ما أحله الله لك.

وقال معاذ بن جبل^(٣): يا أيها الناس، لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله، فإنه لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سرد، وروي نحو ذلك

(١) أي الشافعي.

(٢) سفيان: هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري. يكنى أبا عبد الله. وينسب إلى ثور بن عبد مناة أو ثور أطحل. كان من التابعين وأهل الحديث مع الفقه والورع والتقوى ويقال إنه كان شيعي الرأي. طلب للقضاء فلم يقبل وتوارى فطلبه السلطان وظل متوارياً حتى مات بالبصرة وكان مولده سنة ٩٧ ووفاته سنة ١٦١.

(٣) معاذ بن جبل الأنصاري من كبار الصحابة وعظماهم وعلمائهم توفي سنة ١٨ هـ وعمره ٣٣ سنة أو ٣٨ سنة.

عن عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود في كراهة التكلم فيما لم ينزل .

وقال ابن عمر لجابر بن زيد: إنك من فقهاء البصرة، فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت، وأهلكت .

وقال أبو النصر - لما قدم أبو سلمة البصرة - أتيته أنا والحسن^(١) فقال للحسن: أنت الحسن؟ ما كان أحد بالبصرة أحب إليّ لقاء منك، وذلك أنه بلغني أنك تفتي برأيك، فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنة عن رسول الله ﷺ أو كتاب منزل .

وقال ابن المنكدر: إن العالم يدخل فيما بين الله وبين عباده، فليطلب لنفسه المخرج .

كراهية الفتيا بالرأي:

وسئل الشعبي: كيف كنتم تصنعون إذا سئلتهم؟ قال: على الخبير وقعت كان إذا سئل الرجل قال لصاحبه: أفتمهم، فلا يزال حتى يرجع إلى الأول .

وقال الشعبي: ما حدثك هؤلاء عن رسول الله ﷺ فخذ به، وما قالوه برأيهم، فألقه في الخش^(٢) أخرج هذه الآثار عن آخرها الدارمي .

كتابة الحديث والأثر:

فوق شيوع تدوين الحديث والأثر في بلدان الإسلام، وكتابة الصحف والنسخ حتى قلّ من يكون أهل الرواية إلا كان له تدوين أو صحيفة أو نسخة من حاجتهم لموقع عظيم، فطاف من أدرك من عظمائهم ذلك الزمان بلاد الحجاز والشام والعراق، ومصر واليمن

(١) الحسن: هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري التابعي إمام أهل البصرة فقيه فصيح زاهد ولد بالمدينة سنة ٢١هـ وتوفي في البصرة ١١٠هـ .

(٢) أي: الكنيف .

وخراسان، وجمعوا الكتب، وتبعوا النسخ، وأمعنوا في التفحص عن غريب الحديث ونوادير الأثر، فاجتمع باهتمام أولئك من الحديث والآثار ما لم يجتمع لأحد قبلهم، وتيسر لهم ما لم يتيسر لأحد قبلهم، وخلص إليهم من طرق الأحاديث شيء كثير حتى كان يكثر من الأحاديث عندهم مائة طريق فما فوقها، فكشف بعض الطرق ما استتر في بعضها الآخر، وعرفوا محل كل حديث من الغرابة والاستفاضة، وأمكن لهم النظر في المتابعات والشواهد، وظهر عليهم أحاديث صحيحة كثيرة لم تظهر على أهل الفتوى من قبل.

أهل الحديث أعلم:

قال الشافعي لأحمد^(١): أنتم أعلم بالأخبار الصحيحة منا، فإذا كان خبر صحيح، فأعلموني حتى أذهب إليه كوفياً كان أو بصرياً أو شامياً، حكاه ابن الهمام، وذلك لأنه كم من حديث صحيح لا يرويه إلا أهل بلد خاصة كأفراد الشاميين والعراقيين أو أهل بيت خاصة كنسخة بريد عن أبي بردة^(٢) عن أبي موسى^(٣)، ونسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أو كان الصحابي مقللاً خاملاً لم يحمل عنه إلا شذمة قليلون، فمثل هذه

(١) أحمد: هو أحمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني ولد سنة ١٦٤. سمع من كبار المحدثين من طبقة سفيان بن عيينة روى عنه البخاري ومسلم وطبقتهما. تفقه أحمد بالشافعي ثم اجتهد لنفسه وهو من المجتهدين أهل الحديث. وعداد أحمد في رجال الحديث أثبت منه في عداد الفقهاء - صنف المسند الذي يحتوي على نيف وأربعين ألف حديث. ثبت للمحنة التي ابتلي من المسلمون في عصر المأمون فضرب وسجن فما لان ولا قبل بها بالقول بخلق القرآن توفي سنة ٢٤١.

(٢) بردة بن أبي موسى الأشعري كان قاضياً وأميراً واسمه عامر توفي سنة ١٠٢.

(٣) هو أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري قدم على رسول الله في وفد من إخوته وقومه فأسلموا جميعاً شهد مع رسول الله خبيراً وما بعدها ولي القضاء لعمر وشهد مع علي صفين واختير حكماً على علي فأضاع صاحبه بسلامته صدره توفي سنة ٥٢ هجرية.

الأحاديث يغفل عنها عامة أهل الفتوى.

واجتمعت عندهم آثار فقهاء كل بلد من الصحابة والتابعين، وكان الرجل فيما قبلهم لا يتمكن إلا من جمع حديث بلده وأصحابه، وكان من قبلهم يعتمدون في معرفة أسماء الرجال ومراتب عدالتهم على ما يخلص إليهم من مشاهدة الحال وتتبع القرائن، وأمعن هذه الطبقة في هذا الفن وجعلوه شيئاً مستقلاً بالتدوين والبحث، وناظروا في الحكم بالصحة وغيرها، فانكشف عليهم بهذا التدوين والمناظرة ما كان خافياً من حال الاتصال والانقطاع.

غزارة الأحاديث المدونة:

وكان سفيان ووكيع وأمثالهما يجتهدون غاية الاجتهاد، فلا يتمكنون من الحديث المرفوع المتصل إلا من دون ألف حديث كما ذكره أبو داود السجستاني في رسالته إلى أهل مكة.

طبقة المحدثين الكبار:

وكان أهل هذه الطبقة يروون أربعين ألف حديث، فما يقرب منها بل صح عن البخاري أنه اختصر صحيحه من ستة آلاف حديث.

وعن أبي داود أنه اختصر سننه من خمسة آلاف حديث.

وجعل أحمد مسنده ميزاناً يعرف به حديث رسول الله ﷺ، فما وجد فيه ولو بطريق واحد منه فله أصل وإلا فلا أصل له، فكان رؤوس هؤلاء عبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن سعيد القطان ويزيد بن هرون وعبد الرزاق وأبو بكر بن أبي شيبة ومسدد وهناد وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه والفضل بن دكين وعلي المدني وأقرانهم.

الطراز الأول من طبقات المحدثين:

وهذه الطبقة هي الطراز الأول من طبقات المحدثين، فرجع

المحققون منهم بعد إحكام فن الرواية ومعرفة مراتب الأحاديث إلى الفقه، فلم يكن عندهم من الرأي أن يجمع على تقليد رجل ممن مضى مع ما يرون من الأحاديث والآثار المناقضة في كل مذهب من تلك المذاهب، فأخذوا يتبعون أحاديث النبي ﷺ وآثار الصحابة والتابعين والمجتهدين على قواعد أحكموها في نفوسهم - وأنا أبينها لك في كلمات يسيرة:

القواعد المتبعة في الترجيح:

كان عندهم أنه إذا وجد في المسألة قرآن ناطق، فلا يجوز التحول منه إلى غيره، وإذا كان القرآن محتملاً لوجه فالسنة قاضية عليه، فإذا لم يجدوا في كتاب الله أخذوا سنة رسول الله ﷺ سواء كان مستفيضاً دائراً بين الفقهاء، أو يكون مختصاً بأهل بلد أو أهل بيت أو بطريق خاصة، وسواء عمل به الصحابة والفقهاء، أو لم يعملوا به.

ومتى كان في المسألة حديث فلا يتبع فيها خلاف أثر من الآثار، ولا اجتهاد أحد من المجتهدين.

إذا لم يوجد في المسألة قرآن ولا سنة أخذ رأي الصحابة:

وإذا فرغوا جهدهم في تتبع الأحاديث، ولم يجدوا في المسألة حديثاً أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة والتابعين، ولا يتقيدون بقوم دون قوم، ولا بلد دون بلد، كما كان يفعل من قبلهم، فإن اتفق جمهور الخلفاء والفقهاء على شيء فهو المقنع، وإن اختلفوا أخذوا بحديث أعلمهم علماً وأورعهم ورعاً أو أكثرهم ضبطاً أو ما اشتهر عنهم.

فإن وجدوا شيئاً يستوي فيه قولان فهي مسألة ذات قولين، فإن عجزوا عن ذلك أيضاً تأملوا في عمومات الكتاب والسنة وإيماءاتهما واقتضاءاتهما، وحملوا نظير المسألة عليها في الجواب إذا كانتا متقاربتين بادي الرأي لا يعتمدون في ذلك على قواعد من الأصول، ولكن على

ما يخلص إلى الفهم، ويثلج به الصدر، كما أنه ليس ميزان التواتر عدد الرواة، ولا حالهم، ولكن اليقين الذي يعقبه في قلوب الناس - كما نبهنا على ذلك في بيان حال الصحابة.

هذه الأصول مستخرجة عن صنيع الأوائل:

وكانت هذه الأصول مستخرجة عن صنيع الأوائل وتصريحاتهم.

وعن ميمون بن مهران^(١) قال: كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى بها، فإن أعياه خرج، فسأل المسلمين وقال: أتاني كذا وكذا، فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع إليه نفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ على نبينا، فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ جمع رؤوس الناس وخيارهم، فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به.

كتاب عمر إلى شريح القاضي:

وعن شريح^(٢) أن عمر بن الخطاب كتب إليه إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به، ولا يلفتك عنه الرجال، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله، فانظر سنة رسول الله ﷺ، فاقض بها، فإن جاءك ما ليس في كتاب

(١) ميمون بن مهران: كان ميمون بن مهران عبداً رقيقاً فأعتق وكان من أفاضل التابعين كان بزازاً ومع هذا فقد ولاء عمر بن عبد العزيز خراج الجزيرة وكان ميمون يجلس في حانوته وهو يتولى الخراج مات سنة ١١٧ هـ.

(٢) شريح: هو شريح بن الحارث الكندي من أفاضل القضاة ولاء عمر بن الخطاب قضاء الكوفة فظل عليها ٧٥ سنة. روى الحديث عن عمر وعلي وابن مسعود توفي سنة ٧٨ هـ.

الله، ولم يكن فيه سنة رسول الله ﷺ، فانظر ما اجتمع عليه الناس، فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله، ولم يكن فيه سنة رسول الله ﷺ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أي الأمرين شئت إن شئت أن تجتهد برأيك، ثم تقدم، فتقدم، وإن شئت أن تتأخر، فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيراً لك.

عبد الله بن مسعود ينصح القضاة:

وعن عبد الله بن مسعود قال: أتى علينا زمان لسنا نقضي ولسنا هنا لك، وأن الله قد قدر من الأمر أن قد بلغنا ما ترون، فمن عرض له قضاء بعد اليوم فليقض فيه بما في كتاب الله عز وجل، فإن جاءه ما ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به رسول الله ﷺ، فإن جاءه ما ليس في كتاب الله، ولم يقض به رسول الله ﷺ فليقض بما قضى به الصالحون ولا يقل إنني أخاف وإنني أرى «فإن الحرام بين، والحلال بين، وبين ذلك أمور مشتبهة، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

كيف كان يفتي ابن عباس:

وكان ابن عباس إذا سئل عن الأمر فإن كان في القرآن أخبر به، وإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، وإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر، فإن لم يكن قال فيه برأيه. عن ابن عباس أما تخافون أن تعذبوا، أو يخسف بكم أن تقولوا قال رسول الله ﷺ وقال فلان.

عن قتادة^(١) قال: حدث ابن سيرين رجلاً بحديث عن النبي ﷺ فقال الرجل: قال فلان: كذا وكذا، فقال ابن سيرين أحدثك عن النبي ﷺ وتقول قال فلان كذا وكذا.

(١) قتادة: هو قتادة بن دعامة الدوسي، حدث عن أنس وسعيد بن المسيب وغيرهما وكان ضريباً قوياً الحفظ. قال قتادة متحدثاً عن نفسه: ما في القرآن آية إلا وسمعت فيها شيئاً وقال أحمد بن حنبل: قتادة أعلم بالتفسير وباختلاف العلماء ومع حفظه كان أساساً في العربية واللغة وأيام العرب توفي سنة ١١٨ هـ.

لا رأي لأحد فيما نزل من القرآن :

عن الأوزاعي قال : كتب عمر بن عبد العزيز أنه لا رأي لأحد في كتاب الله وإنما رأي الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب، ولم تمض فيه سنة من رسول الله ﷺ، ولا رأي لأحد في سنة سنّها رسول الله ﷺ.

عن الأعمش قال : كان إبراهيم يقول : يقوم^(١) عن يساره، فحدثه عن سميع الزيات عن ابن عباس أن النبي ﷺ أقامه عن يمينه، فأخذ به عن الشعبي، جاءه رجل يسأله عن شيء فقال : كان ابن مسعود يقول فيه كذا وكذا قال : أخبرني أنت برأيك، فقال ألا تعجبون من هذا أخبرته عن ابن مسعود، ويسألني عن رأيي، وديني عندي أثر من ذلك، والله لأن أتغنى بأغنية أحب إليّ من أن أخبرك برأيي، أخرج هذه الآثار كلها الدارمي.

لا رأي مع قول الرسول عليه السلام :

وأخرج الترمذي عن أبي السائب قال : كنا عند وكيع، فقال لرجل ممن ينظر في الرأي : أشعر^(٢) رسول الله ﷺ، ويقول أبو حنيفة : هو مثله؟ قال الرجل : فإنه قد روي عن إبراهيم النخعي أنه قال : الإشعار مثله. قال : رأيت وكيعاً غضب غضباً شديداً وقال : أقول لك : قال رسول الله ﷺ، وتقول : قال إبراهيم، ما أحقك بأن تحبس، ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا.

وعن عبد الله بن عباس وعطاء ومجاهد ومالك بن أنس رضي الله عنهم أنهم كانوا يقولون : ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ.

(١) أي المقتدي عن يسار الإمام .

(٢) الإشعار أن يضرب في صفحة سنام الهدى من الجانب الأيمن بحديدة حتى يتلطح بالدم ظاهراً، والمثلة جدع الأنف والأذن أو الذكر أو شيء من الأطراف وإنما كره الإشعار عند أبي حنيفة إذا كان على وجه يخاف منه هلاك الهدى والا فهو سنة.

لم تقع مسألة إلا وجد أهل هذه الطبقة لها حديثاً أو أثراً:
وبالجملة فلما مهدوا الفقه على هذه القواعد، فلم تكن مسألة من
المسائل التي تكلم فيها من قبلهم والتي وقعت في زمانهم إلا وجدوا فيها
حديثاً مرفوعاً متصللاً أو مرسلأ أو موقوفاً صحيحاً أو حسناً أو صالحاً
للاعتبار، أو وجدوا أثراً من آثار الشيخين أو سائر الخلفاء وقضاة الأمصار
وفقهاء البلدان، أو استنباطاً من عموم أو إيماء أو اقتضاء، فيسر الله لهم
العمل بالسنة على هذا الوجه.

أعظم هذه الطبقة رواية وعلماً أحمد بن حنبل :
وكان أعظمهم شأنًا وأوسعهم رواية وأعرفهم للحديث مرتبة
وأعمقهم فقهاً أحمد بن محمد بن حنبل، ثم إسحاق بن راهويه^(١)، وكان
ترتيب الفقه على هذا الوجه يتوقف على جمع شيء كثير من الأحاديث
والآثار حتى سئل أحمد يكفي الرجل مائة ألف حديث حتى يفتي؟ قال:
لا حتى قيل خمسمائة ألف حديث قال: أرجو كذا في غاية المنتهى ومراده
الافتاء على هذا الأصل.

انتهى جمع الحديث وابتدأ التدقيق :
ثم أنشأ الله تعالى قرناً آخر، فرأوا أصحابهم قد كفوا مؤنة جمع
الأحاديث وتمهيد الفقه على أصلهم، فتفرغوا لفنون أخرى: كتمييز
الحديث الصحيح المجمع عليه بين كبراء أهل الحديث كزيد بن هرون
ويحيى بن سعيد القطان وأحمد وإسحاق وأضرابهم، وكجمع أحاديث الفقه
التي بنى عليها فقهاء الأمصار وعلماء البلدان مذاهبهم، وكالحكم على كل

(١) ابن راهوية: هو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الحنظلي التميمي
حافظ ثقة ورع. أخذ عنه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي
في نيسابور سنة ٢٣٢ هـ.

حديث بما يستحقه، وكالشاذة والفاذة من الأحاديث التي لم يرووها،
 أو طرقها التي لم يخرجوا من جهتها الأوائل مما فيه اتصال أو علو سند
 أو رواية فقيه عن فقيه أو حافظ عن حافظ، ونحو ذلك من المطالب
 العلمية، وهؤلاء هم: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وعبد بن حميد،
 والدارمي، وابن ماجه، وأبو يعلى، والترمذي، والنسائي، والدارقطني،
 والحاكم، والبيهقي، والخطيب، والديلمي، وابن عبد البر وأمثالهم.

أعلم المصنفين وأشهرهم:

وكان أوسعهم علماً عندي وأنفعهم تصنيفاً وأشهرهم ذكراً رجال
 أربعة متقاربون في العصر:

أبو عبد الله البخاري:

أولهم: أبو عبد الله البخاري وكان غرضه تجريد الأحاديث الصحاح
 المستفيضة المتصلة من غيرها، واستنباط الفقه والسيرة والتفسير منها،
 فصنّف جامعها الصحيح، ووفى بما شرط، وبلغنا أن رجلاً من الصالحين
 رأى رسول الله ﷺ في منامه وهو يقول: مالك اشتغلت بفقه محمد بن
 إدريس وتركت كتابي، قال: يا رسول الله وما كتابك؟ قال: صحيح
 البخاري ولعمري إنه نال من الشهرة والقبول درجة لا يرام فوقها.

مسلم النيسابوري:

وثانيهم: مسلم النيسابوري، توخى^(١) تجريد الصحاح المجمع
 عليها بين المحدثين المتصلة المرفوعة مما يستنبط منه السنة، وأراد تقريبها
 إلى الأذهان وتسهيل الاستنباط منها، فرتب ترتيباً جيداً، وجمع طرق كل
 حديث في موضع واحد؛ ليتضح اختلاف المتون، وتشعب الأسانيد أصرح

(١) قصد.

ما يكون وجمع بين المختلفات فلم يدع لمن له معرفة لسان اعرب عذراً
في الإعراض عن السنة إلى غيرها.

أبو داود السجستاني :

وثالثهم : أبو داود السجستاني ، وكان همته جمع الأحاديث التي
استدل بها الفقهاء ، ودارت فيهم ، وبني عليها الأحكام علماء الأمصار ،
فصنف سننه ، وجمع فيها الصحاح والحسن واللين والصالح للعمل .

قال أبو داود : ما ذكرت في كتابي حديثاً أجمع الناس على تركه ،
وما كان منها ضعيفاً صرح بضعفه ، وما كان فيه علة بينها بوجه يعرفه
الخائض في هذا الشأن ، وترجم على كل حدث بما قد استنبط منه عالم ،
وذهب إليه ذاهب ، ولذلك صرح الغزالي وغيره بأن كتابه كاف للمجتهد .

أبو عيسى الترمذي :

ورابعهم : أبو عيسى الترمذي ، وكأنه استحسن طريقة الشيخين
حيث بينا وما أبهما ، وطريقة أبي داود حيث جمع كل ما ذهب إليه ذاهب ،
فجمع كلتا الطريقتين وزاد عليهما بيان مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء
الأمصار فجمع كتاباً جامعاً واختصر طرق الحديث اختصاراً لطيفاً ، فذكر
واحداً ، وأوماً إلى ما عداه ، وبين أمر كل حديث من أنه صحيح أو حسن
أو ضعيف أو منكر ، وبين وجه الضعف ، ليكون الطالب على بصيرة من
أمره ، فيعرف ما يصلح للاعتبار عما دونه ، وذكر أنه مستفيض أو غريب ،
وذكر مذاهب الصحابة وفقهاء الأمصار ، وسمى من يحتاج إلى التسمية
وكنى من يحتاج إلى الكنية ، ولم يدع خفاء لمن هو من رجال العلم ،
ولذلك يقال : إنه كاف للمجتهد مغنٍ للمقلد .

نشأ بإزاء المحدثين علماء يهابون الرواية ولا يهابون الفتيا :

وكان بإزاء هؤلاء في عصر مالك وسفيان ، وبعدهم قوم لا يكرهون

المسائل، ولا يهابون الفتيا ويقولون: على الفقه بناء الدين، فلا بد من إشاعته، ويهابون رواية حديث رسول الله ﷺ والرفع إليه حتى قال الشعبي: على من دون النبي ﷺ أحب إلينا، فإن كان فيه زيادة أو نقصان كان على من دون النبي ﷺ.

وقال إبراهيم أقول: قال عبد الله، وقال علقمة: أحب إلينا.

وكان ابن مسعود إذا حدث عن رسول الله ﷺ تربد وجهه^(١) وقال: هكذا أو نحو هكذا ونحوه.

وقال عمر حين بعث رهطاً من الأنصار إلى الكوفة: إنكم تأتون الكوفة، فتأتون قوماً لهم أزيز^(٢) بالقرآن فيأتونكم فيقولون: قدم أصحاب محمد قدم أصحاب محمد، فيأتونكم فيسألونكم عن الحديث فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ.

قال ابن عون: كان الشعبي إذا جاءه شيء اتقى، وكان إبراهيم يقول ويقول: أخرج هذه الآثار الدارمي.

السبب في قلة اهتمامهم بالحديث:

فوقع تدوين الحديث والفقه والمسائل من حاجتهم بموقع من وجه آخر وذلك أنه لم يكن عندهم من الأحاديث والآثار ما يقدرون به على استنباط الفقه على الأصول التي اختارها أهل الحديث، ولم تشرح صدورهم للنظر في أقوال علماء البلدان وجمعها والبحث عنها، واتهموا أنفسهم في ذلك، وكانوا اعتقدوا في أئمتهم أنهم في الدرجة العليا من التحقيق، وكان قلوبهم أميل شيء إلى أصحابهم كما قال علقمة: هل أحد

(١) أي تغير.

(٢) أي صوت بالبكاء.

منهم أثبت من عبد الله؟ وقال أبو حنيفة^(١): إبراهيم أفقه من سالم^(٢)،
ولولا فضل الصحبة لقلت: علقمة أفقه من ابن عمر.

تمهيد الفقه على قاعدة التخريج:

وكان عندهم من الفطانة والحدس وسرعة انتقال الذهن من شيء
إلى شيء ما يقدرون به على تخريج جواب المسائل على أقوال أصحابهم
«وكل ميسر لما خلق له». وقوله تعالى: ﴿كُلُّ جِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ﴾^(٣).

فمهدوا الفقه على قاعدة التخريج، وذلك أن يحفظ كل أحد كتاب
من هو لسان أصحابه وأعرفهم بأقوال القوم وأصحهم نظراً في الترجيح،
فيتأمل في كل مسألة وجه الحكم، فكلما سئل عن شيء، أو احتاج إلى
شيء رأى فيما يحفظه من تصريحات أصحابه، فإن وجد الجواب فيها،
وإلا نظر إلى عموم كلامهم، فأجراه على هذه الصورة، أو إشارة ضمنية
لكلام، فاستنبط منها.

وربما كان لبعض الكلام إيماء أو اقتضاء يفهم المقصود.

وربما كان للمسألة المصرح بها نظير يحمل عليها.

وربما نظروا في علة الحكم المصرح به بالتخريج أو باليسر

(١) أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت بن زوطى، ولد سنة ٨٠ هـ بالكوفة. تلقى الفقه عن
حماد بن أبي سليمان وسمع كثيراً من علماء التابعين كعطاء بن أبي رباح ونافع مولى
ابن عمر. كان أبو حنيفة خزازاً بالكوفة وكان معروفاً بصدق المعاملة. وكان في الفقه إماماً
في القياس كانت وفاته سنة ١٥٠ هـ.

(٢) سالم بن عبد الله بن عمر، سمع أباه وعائشة وأبا هريرة وسعيد بن المسيب وغيرهم قال
مالك عنه: لم يكن أحد في زمانه مثله في الزهد والفضل توفي سنة ١٠٦ هـ.

(٣) سورة الروم/ الآية ٣٢.

والحذف، فأداروا حكمه على غير المصرح به.

وربما كان له كلامان لو اجتمعا على هيئة القياس الاقتراني أو الشرطي أنتجا جواب المسألة.

وربما كان في كلامهم ما هو معلوم بالمثل والقسمة غير معلوم بالحد الجامع المانع، فيرجعون إلى أهل اللسان، ويتكلفون، في تحصيل ذاتياته، وترتيب حد جامع مانع له، وضبط مبهمه وتمييز مشكله.

وربما كان كلامهم محتملاً بوجهين، فينظرون في ترجيح أحد المحتملين، وربما يكون تقريب الدلائل خفياً، فيبينون ذلك.

وربما استدل بعض المخرجين من فعل أئمتهم وسكوتهم ونحو ذلك.

المجتهدون في المذهب:

فهذا هو التخريج ويقال له القول المخرج لفلان كذا، ويقال على مذهب فلان، أو على أصل فلان، أو على قول فلان جواب المسألة كذا وكذا، ويقال لهؤلاء: المجتهدون في المذهب، وعني هذا الاجتهاد على هذا الأصل من قال من حفظ المبسوط^(١) كان مجتهداً، أي وإن لم يكن له علم برواية أصلاً، ولا بحديث واحد فوق التخريج في كل مذهب، وكثر، فأى مذهب كان أصحابه مشهورين وسد^(٢) إليهم القضاء والافتاء، واشتهرت تصانيفهم في الناس، ودرسوا درساً ظاهراً انتشر في أقطار الأرض، ولم يزل ينتشر كل حين، وأي مذهب كان أصحابه خاملين، ولم يولوا القضاء والافتاء ولم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين.

(١) المبسوط: هو الكتاب الذي ألفه السرخسي في الفقه الحنفي.

(٢) وسد إليه القضاء: أسند إليه.

باب حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها

كان الناس غير مجتمعين على التقليد الخالص:

اعلم أن الناس كانوا قبل المائة الرابعة غير مجتمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه، قال أبو طالب المكي في قوت القلوب: إن الكتب والمجموعات محدثة، والقول بمقالات الناس، والفتيا بمذهب الواحد من الناس، واتخاذ قوله، والحكاية له من كل شيء، والتفقه على مذهبه - لم يكن الناس قديماً على ذلك في القرنين الأول والثاني انتهى.

كان العامة من المسلمين يقلدون صاحب الشرع:

أقول وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج غير أن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من التتبع، بل كان فيهم العلماء والعامة.

وكان من خير العامة أنهم كانوا في المسائل الإجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين وجمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلاة والزكاة ونحو ذلك من آبائهم أو معلمي بلدانهم، فيمشون حسب ذلك، وإذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أي مفتٍ وجدوا من غير تعيين مذهب.

كان الخاصة من أهل الحديث يشتغلون به:

وكان من خبر الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث، فيخلص إليهم من أحاديث النبي ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيء آخر في المسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء، ولا عذر لتارك العمل به، أو أقوال متظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها فإن لم يجد^(١)

(١) أي أحدهم.

في المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل وعدم وضوح الترجيح ونحو ذلك - رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء، فإن وجد قولين اختار أوثقهما سواء كان من أهل المدينة أو من أهل الكوفة.

كان الخاصة من أهل التخريج يخرجون ما لا يجدونه مصرحاً:
وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحاً،
ويجتهدون في المذهب، وكان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أحدهم فيقال:
فلان شافعي، وفلان حنفي، وكان صاحب الحديث أيضاً قد ينسب إلى
أحد المذاهب لكثرة موافقته له، كالنسائي، والبيهقي ينسبان إلى الشافعي،
فكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهد، ولا يسمى الفقيه إلا مجتهداً.

بعد القرن الرابع حدثت أمور:

ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يميناً وشمالاً. وحدث
فيهم أمور منها الجدل والخلاف في علم الفقه وتفصيله - على ما ذكره
الغزالي - (١) أنه لما انقرض عهد الخلفاء الراشدين المهديين أفضت
الخلافة إلى قوم تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى
والأحكام، فاضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع
أحوالهم.

كان العلماء صنفين:

وقد كان بقي من العلماء من هو مستمر على الطراز الأول وملازم

(١) الغزالي: هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. ولد بطوس سنة ٤٥٠ هـ
تفقه بإمام الحرمين وجدّ حتى برع في مذهب الشافعي في الفقه والجدل والأصول
والمنطق والحكمة والفلسفة. ذهب إلى بغداد من بعد مكة وتولى التدريس في المدرسة
النظامية وقد ألف كتباً كثيرة متعددة الجوانب. توفي بطوس سنة ٥٠٥ هـ.

صفو الدين، فكانوا إذا طلبوا هربوا، وأعرضوا فرأى أهل تلك الأعصار عن العلماء وإقبال الأئمة عليهم مع إعراضهم، فاشربوا بطلب العلم توصلًا إلى نيل العز ودرك الجاه، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه الله.

قل الاهتمام بعلم الكلام وكثر في المسائل الفقهية:

وقد كان من قبلهم قد صنف ناس في علم الكلام وأكثروا القول والقبيل والإيراد والجواب وتمهيد طريق الجدل، فوقع ذلك منهم بموقع من قبل أن كان من الصدور والملوك من مالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله، فترك الناس الكلام وفنون العلم، وأقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد بن حنبل وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمررون عليه إلى الآن لسنا ندري ما الذي قدر الله تعالى فيما بعدها من الأعصار. انتهى حاصله.

دبّ التقليد في الصدور:

ومنها: أنهم اطمأنوا بالتقليد، ودبّ التقليد في صدورهم ديبب النمل وهم لا يشعرون، وكان سبب ذلك تزاحم الفقهاء وتجادلهم فيما بينهم فإنهم لما وقعت فيهم المزاحمة في الفتوى كان كل من أفتى بشيء نوقض في فتواه، ورد عليه، فلم ينقطع الكلام إلا بمسير إلى تصريح رجل من المتقدمين في المسألة.

جور القضاة ساهم في تثبيت التقليد :

وأيضاً جور القضاة فإن القضاة لما جار أكثرهم، ولم يكونوا أمناء لم يقبل منهم إلا ما لا يريب العامة فيه، ويكون شيئاً قد قيل من قبل.

جهل رؤوس الناس ومدعي العلم ثبت التقليد :

وأيضاً جهل رؤوس الناس واستفتاء الناس من لا علم له بالحديث ولا بطريق التخريج كما ترى ذلك ظاهراً في أكثر المتأخرين، وقد نبه عليه ابن الهمام وغيره، وفي ذلك الوقت يسمى غير المجتهد فقيهاً.

البحث في العلوم الجانبية ثبت التقليد :

ومنها: أن أقبل أكثرهم على التعمقات في كل فن، فمنهم من زعم أنه يؤسس علم أسماء الرجال ومعرفة مراتب الجرح والتعديل، ثم خرج من ذلك إلى التاريخ قديمه وحديثه...، ومنهم من تفحص عن نوادر الأخبار وغرائبها وإن دخلت في حد الموضوع...، ومنهم من كثر القيل والقال في أصول الفقه، واستنبط كل لأصحابه قواعد جدلية، فأورد، فاستقصى، وأجاب، وتفصي، وعرف، وقسم، فحور طول الكلام تارة وتارة أخرى اختصر، ومنهم من ذهب إلى هذا بفرض الصور المستبعدة التي من حقها ألا يتعرض لها عاقل وبفحص العمومات والإيماءات من كلام المخرجين فمن دونهم مما لا يرتضي استماعه عالم ولا جاهل.

وقام بعدهم قرون على التقليد الصرف :

وفتنة هذا الجدل والخلاف والتعمق قريبة من الفتنة الأولى حين تشاجروا في الملك، وانتصر كل رجل لصاحبه، فكما أعقت تلك ملكاً عضوضاً ووقائع صماء عمياء، فكذلك أعقت هذه جهلاً واختلاطاً وشكوكاً ووهماً ما لهما من أرجاء، فنشأت بعدهم قرون على التقليد الصرف لا يميزون الحق من الباطل ولا الجدل عن الاستنباط...، فالفقيه يومئذ:

هو الثرثار^(١) المتشدد الذي حفظ أقوال الفقهاء قوياً وضعيفها من غير تمييز وسردها^(٢) بشقشقة شديده^(٣) . . . ، والمحدث: من عد الأحاديث صحيحها وسقيمها وهذا^(٤) كهذه الأسمار بقوة لحيه، ولا أقول ذلك كلياً مطرداً فإن لله طائفة من عبادة لا يضرهم من خذلهم، وهم حجة الله في أرضه، وإن قلوا، ولم يأت قرن بعد ذلك إلا وهو أكثر فتنة وأوفر تقليداً وأشد انتزاعاً للأمانة من صدور الرجال حتى اطمأنوا بترك الخوض في أمر الدين وبأن يقولوا ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ وإلى الله المشتكى وهو المستعان وبه الثقة وعليه التكلان .

فصل في مسائل ضلت فيها الأفهام

ومما يناسب هذا المقام التنبيه على مسائل ضلت في بواديهها الأفهام، وزلت الأقدام، وطغت الأقلام:

أجمعت الأمة على جواز تقليد المذاهب الأربعة:

منها: أن هذه المذاهب الأربعة المدونة المحررة قد اجتمعت الأمة - أو من يعتد به منها - على جواز تقليدها إلى يومنا هذا، وفي ذلك من المصالح ما لا يخفى لا سيما في هذه الأيام التي قصرت فيها الهمم جداً، وأشربت النفوس الهوى وأعجب كل ذي رأي برأيه.

(١) الثرثار: من الثثرة وهي كثرة الكلام وترديده أي الذي يكثر الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق، والمتشدد المتوسع في الكلام بلا احتياط.

(٢) أي حكاهما.

(٣) الشقشقة - بالكسر - الجلد الحمر الذي يخرجها الجمل من جوفه، ويقال للمنطق ذو شقشقة، والشدة جانب الفم.

(٤) أي تكلم بغير معقول.

ذهب ابن حزم إلى أن التقليد حرام:

فما (١) ذهب إليه ابن حزم (٢) حيث قال: التقليد حرام لا يحل لأحد أن يأخذ قول أحد غير رسول الله ﷺ بلا برهان لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ (٣). وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (٤).

وقال مادحاً لمن لم يقلد: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٥). وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٦).

الرد عند التنازع إلى غير القرآن والسنة حرام:

فلم يبح الله تعالى الرد عند التنازع إلى أحد دون القرآن والسنة، وحرّم بذلك الرد عند التنازع إلى قول قائل لأنه غير القرآن والسنة، وقد صح إجماع الصحابة كلهم أولهم عن آخرهم وإجماع التابعين أولهم عن آخرهم على الامتناع والمنع من أن يقصد منهم أحد إلى قول إنسان منهم أو ممن قبلهم، فيأخذه كله.

(١) (ما) مبتدأ خبره قوله فيما يأتي: إنما يتم فيمن له ضرب من الاجتهاد.

(٢) ابن حزم أحد كبار فقهاء الأندلس وكان ظاهري المذهب.

(٣) سورة الأعراف/ الآية ٣ - ما أنزل إليكم من ربكم: هو القرآن الكريم - ولا تتبعوا: أي لا تتخذوا.

(٤) سورة البقرة/ الآية ١٧٠.

(٥) سورة الزمر/ الآيتان ١٧ و١٨ - فيتبعون أحسنه: الأحسن هو ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة - والألباب: العقول.

(٦) سورة النساء/ الآية ٥٩ - إن تنازعتم: إن اختلفتم - فردوه إلى الله والرسول: الرسول في حال حياته.

فليعلم من أخذ بجميع أقوال أبي حنيفة، أو جميع أقوال مالك، أو جميع أقوال الشافعي، أو جميع أقوال أحمد رضي الله عنهم، ولم يترك قول من اتبع منهم أو من غيرهم إلى قول غيره، ولم يعتمد على ما جاء في القرآن والسنة غير صارف ذلك إلى قول إنسان بعينه - أنه قد خالف إجماع الأمة كلها أولها عن آخرها بيقين لا إشكال فيه وأنه لا يجد لنفسه سلفاً، ولا إنساناً في جميع الأعصار المحمودة الثلاثة، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين نعوذ بالله من هذه المنزلة.

الصحابة لم يقلدوا:

وأيضاً فإن هؤلاء الفقهاء كلهم قد نهوا عن تقليد غيرهم، فقد خالفهم من قلدهم، وأيضاً فما الذي جعل رجلاً من هؤلاء أو من غيرهم أولى أن يقلد من عمر بن الخطاب، أو علي بن أبي طالب، أو ابن مسعود، أو ابن عمر، أو ابن عباس، أو عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنهم، فلو ساغ^(١) التقليد لكان كل واحد من هؤلاء أحق بأن يتبع من غيره انتهى.

الاجتهاد أولى وأوجب:

إنما يتم فيمن له ضرب من الاجتهاد ولو في مسألة واحدة، وفيمن ظهر عليه ظهوراً بيناً أن النبي ﷺ أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأنه ليس بمنسوخ إما بأن يتتبع الأحاديث وأقوال المخالف والموافق في المسألة، فلا يجد لها نسخاً، أو بأن يرى جمعاً غفيراً من المتبحرين في العلم يذهبون إليه، ويرى المخالف له لا يحتج إلا بقياس أو استنباط أو نحو ذلك، فحينئذ لا سبب لمخالفة حديث النبي ﷺ إلا نفاق خفي، أو حمق جلي.

(١) ساغ: جاز.

التقليد وصل إلى درجة غير مقبولة :

وهذا هو الذي أشار إليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام^(١) حيث قال : ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، وهو مع ذلك يقلده فيه، ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جموداً على تقليد إمامه، بل يتخيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً^(٢) عن مقلده .

التقليد الأعمى نأي عن الحق :

وقال : لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد لمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومثعبوها من المقلدين، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بُعد مذهبه عن الأدلة مقلداً له فيما قال كأنه نبي أرسل، وهذا نأي عن الحق، وبُعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب .

ينبغي لمن اشتغل بالفقه ألا يقتصر على مذهب معين :

وقال الإمام أبوشامة : ينبغي لمن اشتغل بالفقه ألا يقتصر على مذهب إمام، ويعتقد في كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة، وذلك سهل عليه إذا كان أتقن معظم العلوم المتقدمة، وليجتنب التعصب والنظر في طرئ الخلف المتأخرة، فإنها مضيعة للزمان ولصفوة مكدره، فقد صحَّ عن الشافعي أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره .

(١) عز الدين بن عبد السلام : هو عز الدين بن عبد السلام السالمي الدمشقي الشافعي الإمام الفقيه الملقب بسلطان العلماء ولد في دمشق سنة ٥٧٧، كان من أئمة عصره في العربية والحديث والفقه والأصول . درس وأفتى، من مؤلفاته : قواعد الأحكام والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ومقاصد الصلاة وله كتب أخرى كثيرة مخطوطة .

(٢) نضالاً : أي دفاعاً .

قال صاحبه المزني في أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله: لأقربه على من أراد مع إعلاميه نهييه عن تقليده وتقليد غيره، لينظر فيه لدينه، ويحتاط لنفسه: أي مع إعلامي من أراد علم الشافعي نهي الشافعي عن تقليده وتقليد غيره انتهى.

تقليد العامة شبيه بتقليد الأغيار للأخبار:

وفيمن يكون عامياً، ويقلد رجلاً من الفقهاء بعينه يرى أنه يمتنع من مثله الخطأ، وأن ما قاله هو الصواب البتة، وأضمر في قلبه ألا يترك تقليده وإن ظهر الدليل على خلافه، وذلك ما رواه الترمذي^(١) عن عدي بن حاتم^(٢) أنه قال: سمعته - يعني رسول الله ﷺ - يقرأ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٣).

قال: «إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه»... ، وفيمن لا يجوز أن يستفتي الحنفي مثلاً فقيهاً شافعيّاً وبالعكس، ولا يجوز أن يقتدي الحنفي بإمام شافعي مثلاً، فإن هذا قد خالف إجماع القرون الأولى، وناقض الصحابة والتابعين.

من كان ذا بصيرة واتبع عالماً راشداً:

وليس محله^(٤) فيمن لا يدين إلا بقول النبي ﷺ ، ولا يعتقد حلالاً

(١) الترمذي: ولد سنة ٢٠٠ وتلقى من البخاري وغيره وكان إماماً فقيهاً حافظاً حجة، وكان يضرب به المثل في الحفظ أشهر كتبه السنن المعروف بالجامع توفي سنة ٢٧٩ هـ.
(٢) عدي بن حاتم وهو عدي بن حاتم الطائي. كان من أجلاء الصحابة وشجعانهم وأجوادهم. كان مع علي يوم الجمل ويوم صفين مات في زمن المختار الثقفي وله من العمر ١٢٠ سنة ولا عقب له.

(٣) سورة التوبة/ الآية ٣١. (٤) أي قول ابن حزم.

إلا ما أحله الله ورسوله، ولا حراماً إلا ما حرمه الله ورسوله، لكن لما لم يكن له علم بما قاله النبي ﷺ ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه، ولا بطريق الاستنباط من كلامه اتبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقول، ويفتي ظاهراً متبع سنة رسول الله ﷺ فإن خالف ما يظنه أقلع من ساعته من غير جدال ولا إصرار، فهذا كيف ينكره أحد مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبي ﷺ : ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائماً، أو يستفتي هذا حيناً وذلك حيناً بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه.

كيف لا ولم نؤمن بفقيه أياً كان أنه أوحى الله إليه الفقه، وفرض علينا طاعته، وأنه معصوم، فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله، فلا يخلو قوله إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة، أو مستنبطاً عنهما بنحو من الاستنباط، أو عرف بالقرائن أن الحكم في صورة ما منوطة بعلة كذا، واطمأن قلبه بتلك المعرفة، فقياس غير المنصوص على المنصوص، فكأنه يقول: ظننت أن رسول الله ﷺ قال: - كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا - والمقيس مندرج في هذا العموم، فهذا أيضاً معزي^(١) إلى النبي ﷺ، ولكن في طريقه ظنون، ولولا ذلك لما قلد مؤمن بمجتهد، فإن بلغنا حديث من الرسول المعصوم الذي فرض الله علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه، وتركنا حديثه، واتبعنا ذلك التخمين فمن أظلم منا، وما عذرنا يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الأفضل الجمع بين التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث :
ومنها: أن التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث لكل منهما

(١) معزي: منسوب.

أصل أصيل في الدين، ولم يزل المحققون من العلماء في كل عصر يأخذون بهما، فمنهم من يقل من ذا ويكثر من ذلك...، ومنهم من يكثر من ذا ويقل من ذلك، فلا ينبغي أن يهمل أمر واحد منهما بالمرّة كما يفعله عامة الفريقين، وإنما الحق البحت أن يطابق أحدهما بالآخر، وأن يجبر خلل كل بالآخر، وذلك قول الحسن البصري: ستتكم والله الذي لا إله إلا هو، بينهما، بين الغالي والجافي، فمن كان من أهل الحديث ينبغي أن يعرض ما اختاره، وذهب إليه على رأي المجتهدين من التابعين، ومن كان من أهل التخريج ينبغي له أن يجعل من السنن ما يحترز به من مخالفة الصريح الصحيح ومن القول برأيه فيما فيه حديث أو أثر بقدر الطاقة.

ينبغي للمحدث أن لا يرد الحديث لأدنى شائبة:

ولا ينبغي لمحدث أن يتعمق بالقواعد التي أحكمها أصحابه، وليست مما نص عليه الشارع، فيرد به حديثاً أو قياساً صحيحاً كرد ما فيه أدنى شائبة الإرسال والانقطاع كما فعله ابن حزم^(١): رد حديث تحريم المعازف لشائبة الانقطاع في رواية البخاري، على أنه في نفسه متصل صحيح، فإن مثله إنما يصار إليه عند التعارض، وكقولهم: فلان أحفظ لحديث فلان من غيره، فيرجحون حديثه على حديث غيره لذلك، وإن كان في الآخر ألف وجه من الرجحان.

وكان اهتمام جمهور الرواة عند الرواية بالمعنى برؤوس المعاني دون الاعتبارات التي يعرفها المتعمقون من أهل العربية، فاستدلّاهم بنحو الفاء والواو وتقديم كلمة وتأخيرها ونحو ذلك من التعمق، وكثيراً ما يعبر الراوي الآخر عن تلك القصة، فيأتي مكان ذلك الحرف بحرف آخر، والحق أن

رواية بالادنى

(١) ابن حزم الأندلسي من كبار علماء الأندلس المجتهدين وهو ظاهري المذهب وكان رحمه الله فقيهاً محدثاً ووزيراً وأديباً.

كل ما يأتي به الراوي فظاهره أنه كلام النبي ﷺ، فإن ظهر حديث آخر أو دليل آخر وجب المصير إليه.

ينبغي للمخرج أن لا يخرج قولاً لا يفيد نفس كلام أصحابه :
ولا ينبغي لمخرج أن يخرج قولاً لا يفيد نفس كلام أصحابه،
ولا يفهمه منه أهل العرف والعلماء باللغة، ويكون بناءً على تخريج مناط
أو حمل نظير المسألة عليها مما يختلف فيه أهل الوجوه وتتعارض الآراء،
ولو أن أصحابه سئلوا عن تلك المسألة ربما يحملون النظر على النظر
المانع، وربما ذكروا علة غير ما خرج هو وإنما جاز التخريج لأنه في
الحقيقة من تقليد المجتهد، ولا يتم إلا فيما يفهم من كلامه.

رعاية الحديث أوجب :

ولا ينبغي أن يرد حديثاً أو أثراً تطابق عليه القوم لقاعدة استخرجها
هو أو أصحابه كرد حديث المصراة وكإسقاط سهم ذوي القربى، فإن رعاية
الحديث أوجب من رعاية تلك القاعدة المخرجة وإلى هذا المعنى أشار
الشافعي حيث قال : مهما قلت من قول أو أصلت من أصل فبلغ عن رسول
الله ﷺ خلاف ما قلت فالقول ما قاله ﷺ .

تتبع الكتاب والآثار لمعرفة الأحكام الشرعية :

ومنها أن تتبع الكتاب والآثار^(١) لمعرفة الأحكام الشرعية على
مراتب : أعلاها أن يحصل له من معرفة الأحكام بالفعل أو بالقوة القريبة من
الفعل ما يتمكن به من جواب المستفتين في الوقائع غالباً بحيث يكون
جوابه أكثر مما يتوقف فيه، وتخص^(٢) باسم الاجتهاد.

(١) أي القرآن والسنة.

(٢) أي هذه المعرفة.

الإمعان في الروايات :

وهذا الاستعداد يحصل تارة بالإمعان في جمع الروايات وتتبع الشاذة والفاذة منها كما أشار إليه أحمد بن حنبل مع ما لا ينفك منه العاقل العارف باللغة من معرفة مواقع الكلام، وصاحب العلم بآثار السلف من طريق الجمع بين المختلفات وترتيب الاستدلالات ونحو ذلك، وتارة بإحكام طرق التخريج على مذهب شيخ من مشايخ الفقه مع معرفة جملة صالحة من السنن والآثار بحيث يعلم أن قوله لا يخالف الإجماع.

معرفة القرآن والسنن تمكن من معرفة مسائل الفقه :

وهذه طريقة أصحاب التخريج وأوسطها من كلتا الطريقتين أن يحصل له من معرفة القرآن والسنن ما يتمكن به من معرفة رؤوس مسائل الفقه المجمع عليها بأدلتها التفصيلية، ويحصل له غاية العلم ببعض المسائل الاجتهادية من أدلتها وترجيح بعض الأقوال على بعض ونقد التخريجات ومعرفة الجيد والزييف.

يجوز التلفيق لمن لم يتكامل له الأدوات :

وإن لم يتكامل للمجتهد المطلق، فيجوز لمثله أن يلفق من المذهبين إذا عرف دليلهما، وعلم أن قوله ليس مما لا ينفذ فيه اجتهاد المجتهد، ولا يقبل فيه قضاء القاضي، ولا يجري فيه فتوى المفتين، وأن يترك بعض التخريجات التي سبق الناس إليها إذا عرف عدم صحتها، ولهذا لم يزل العلماء ممن لا يدعي الاجتهاد المطلق يصنفون، ويرتبون، ويخرجون، ويرجعون.

الاجتهاد يتجزأ :

وإذا كان الاجتهاد يتجزأ عند الجمهور والتخريج يتجزأ، وإنما المقصود تحصيل الظن، وعليه مدار التكليف فما الذي يستبعد من ذلك،

وأما دون ذلك من الناس فمذهبه فيما يرد عليه كثيراً ما أخذه عن أصحابه وأبائه وأهل بلده من المذاهب المتبعة، وفي الوقائع النادرة فتاوى مفتيه، وفي القضايا ما يحكم القاضي، وعلى هذا وجدنا محققي العلماء من كل مذهب قديماً وحديثاً، وهو الذي وصى به أئمة المذاهب أصحابهم.

لا ينبغي لمن لا يعرف الدليل أن يفتي:

– وفي اليواقيت والجواهر – أنه روي عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه كان يقول: لا ينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، وكان رضي الله عنه إذا أفتى يقول هذا رأي النعمان بن ثابت يعني نفسه وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب، وكان الإمام مالك رضي الله عنه يقول: ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ.

الحديث أقوى من المذهب:

وروي الحاكم والبيهقي عن الشافعي رضي الله عنه أنه كان يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وفي رواية إذا رأيت كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي الحائط، وقال يوماً للمزني^(١): يا إبراهيم لا تقلدني في كل ما أقول، وانظر في ذلك لنفسك فإنه دين.

وكان رضي الله عنه يقول: لا حجة في قول أحد دون رسول الله ﷺ وإن كثروا، ولا في قياس ولا في شيء، وما ثم إلا طاعة الله ورسوله بالتسليم.

(١) المزني: هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني المصري ولد سنة ١٧٥ هـ، ولما شب طلب العلم وروى الحديث حتى إذا جاء الشافعي مصر سنة ١٩٩ هـ تفقه به. كان عالماً زاهداً مناظراً. قال الشافعي في حقه: المزني ناصر مذهبي وقد ألف كتباً عليها مدار المذهب. توفي الشافعي سنة ٢٦٤ هـ.

ليس لأحد مع الله ورسوله كلام:

وكان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول: ليس لأحد مع الله ورسوله كلام، وقال أيضاً لرجل: لا تقلدني ولا تقلد مالكا، ولا الأوزاعي، ولا النخعي، ولا غيرهم، وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنة.

لا ينبغي لأحد أن يفتي إلا أن يعرف أقوال العلماء:

لا ينبغي لأحد أن يفتي إلا أن يعرف أقوال العلماء في الفتاوى الشرعية ويعرف مذاهبهم فإن سئل عن مسألة يعلم أن العلماء الذين يتخذ مذهبهم قد اتفقوا عليه، فلا بأس بأن يقول هذا جائز وهذا لا يجوز ويكون قوله على سبيل الحكاية وإن كانت مسألة قد اختلفوا فيها فلا بأس بأن يقول هذا جائز في قول فلان، وفي قول فلان لا يجوز، وليس له أن يختار فيجيب بقول بعضهم ما لم يعرف حجته.

لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا:

وعن أبي يوسف وزفر وغيرهما رحمهم الله أنهم قالوا: لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا.

قيل لعصام بن يوسف رحمه الله: إنك تكثر الخلاف لأبي حنيفة رحمه الله قال: لأن أبا حنيفة رحمه الله أوتي من الفهم ما لم نؤت، فأدرك بفهمه ما لم ندرك، ولا يسعنا أن نفتي بقوله ما لم نفهم.

عن محمد بن الحسن أنه سئل متى يحل للرجل أن يفتي؟ قال محمد: إذا كان صوابه أكثر من خطئه.

عن أبي بكر الإسكافي البلخي أنه سئل عن عالم في بلده ليس هناك أعلم منه هل يسعه ألا يفتي؟ قال: إن كان من أهل الاجتهاد، فلا يسعه

قيل : كيف يكون من أهل الاجتهاد؟ قال : أن يعرف وجوه المسائل ، ويناظر أقرانه إذا خالفوه قيل : أدنى الشروط للاجتهاد حفظ المبسوط انتهى (١) .

ليس لأحد أن يفتي بشيء لا يفهمه :

وفي البحر الرائق عن أبي الليث قال : سئل أبو نصر (٢) عن مسألة وردت عليه ما تقول رحمك الله وقعت عندك كتب أربعة : كتاب إبراهيم بن رستم ، وأدب القاضي عن الخصاص ، وكتاب المجرد ، وكتاب النوادر من جهة هشام هل يجوز لنا أن نفتي منها أو لا ، وهذه الكتب محمودة عندك؟ فقال : ما صح عن أصحابنا فذلك علم محبوب مرغوب فيه مرضي به ، وأما الفتيا فإني لا أرى لأحد أن يفتي بشيء لا يفهمه ، ولا يحمل أثقال الناس ، فإن كانت مسائل قد اشتهرت ، وظهرت ، وانجلت عن أصحابنا رجوت أن يسع لي الاعتماد عليها .

وفيه أيضاً لو احتجم أو اغتاب فظن أنه يفطره ، ثم أكل إن لم يستفت فقيهاً ولا بلغه الخبر ، فعليه الكفارة لأنه مجرد جهل ، وأنه ليس بعذر في دار الإسلام ، وإن استفتى فقيهاً ، فأفتاه لا كفارة عليه لأن العامي يجب عليه تقليد العالم إذا كان يعتمد على فتواه ، فكان معذوراً فيما صنع ، وإن كان المفتي مخطئاً فيما أفتى .

ليس للعامي العمل بالحديث لعدم علمه بالناسخ والمنسوخ :

وإن لم يستفت ولكن بلغه الخبر وهو قوله ﷺ : « أفطر الحاجم والمحجوم » وقوله عليه السلام : « الغيبة تفطر الصائم » ولم يعرف النسخ ،

(١) أي الروايات التي نقلت عن اليواقيت والجواهر .

(٢) أبو نصر : هو أبو نصر عبد السيد بن محمد المعروف بابن الصباغ صاحب الشامل والكامل وعدة العالم والطريق السالم وكفاية السائل والفتاوى . انتهت إليه رئاسة الشافعية ببغداد وكان يضاوي أبا إسحاق الشيرازي وهو أول من درس بنظامية بغداد . توفي سنة ٤٧٧ هـ .

ولا تأويله لا كفارة عليه عندهما لأن ظاهر الحديث واجب العمل به خلافاً
لأبي يوسف لأنه ليس للعاملي العمل بالحديث لعدم علمه بالناسخ
والمنسوخ، ولو لمس امرأة أو قبلها بشهوة أو اكتحل فظن أن ذلك يفطر،
ثم أفطر فعليه الكفارة إلا إذا استفتى فقيهاً، فأفتاه بالفطر، أو بلغه خبر فيه،
ولو نوى الصوم قبل الزوال، ثم أفطر لم يلزمه الكفارة عند أبي حنيفة رضي
الله عنه خلافاً لهما كذا في المحيط. وقد علم من هذا أن مذهب العامي
فتوى مفتيه.

مذهب العامي هو مذهب مفتيه:

وفيه أيضاً في باب قضاء الفوائت إن كان عامياً ليس له مذهب معين
فمذهبه فتوى مفتيه كما صرحوا به، فإن أفتاه حنفي أعاد العصر والمغرب،
وإن أفتاه شافعي، فلا يعيدهما ولا عبرة برأيه وإن لم يستفت أحدًا،
أو صادف الصحة على مذهب مجتهد أجزاءه ولا إعادة عليه.

قال ابن الصلاح: من وجد من الشافعية حديثاً يخالف مذهبه نظر إن
كملت له آلة الاجتهاد مطلقاً، أو في ذلك الباب، أو المسألة، كان له
الاستقلال بالعمل به، وإن لم يكمل وشق مخالفة الحديث بعد أن يبحث،
فلم يجد للمخالفة جواباً شافياً عنه - فله العمل به إن كان عمل به إمام
مستقل غير الشافعي، ويكون هذا عذراً له في ترك مذهب إمامه ههنا،
وحسنه النووي^(١) وقرره.

أكثر الخلاف بين الفقهاء إنما هو في ترجيح أحد القولين:

ومنها أن أكثر صور الاختلاف بين الفقهاء لا سيما في المسائل التي

(١) النووي: هو محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي. وهو من كبار مجتهدي
الشافعية في القرن السابع الهجري وبعضهم يصفه ويقول إنه آخر المحققين ومن له درجة
الترجيح من أصحاب الشافعي رحمه الله. صنف كتاب الروضة وهو مختصر الشرح الكبير
للرافعي واختصر منها كتابه المسمى بالمنهاج. وله كتاب المجموع أيضاً.

ظهر فيها أقوال الصحابة في الجانبين كتكبيرات التشريق، وتكبيرات العيدين، ونكاح المحرم، وتشهد ابن عباس وابن مسعود، والإخفاء بالبسمة وبأمين والإشفاق والإيتار في الإقامة ونحو ذلك إنما هو في ترجيح أحد القولين. وكان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية، وإنما كان السلف لا يختلفون في أصل المشروعية، خلافهم في أولى الأمرين ونظيره اختلاف القراء في وجوه القراءة.

الصحابة مختلفون وهم جميعاً على الهدى:

وقد عللوا كثيراً من هذا الباب بأن الصحابة مختلفون وأنهم جميعاً على الهدى، ولذلك لم يزل العلماء يجوزون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية، ويسلمون قضاء القضاة، ويعملون في بعض الأحيان بخلاف مذهبهم، ولا ترى أئمة المذاهب في هذه المواضع إلا وهم يرضعون القول، ويبينون الخلاف، يقول أحدهم: هذا أحوط، وهذا هو المختار، وهذا أحب إليّ، ويقول: ما بلغنا إلا ذلك، وهذا كثير في المبسوط. وأثار محمد رحمه الله وكلام الشافعي رحمه الله.

قوي الخلاف بعد الأئمة المجتهدين:

ثم خلف من بعدهم قوم اختصروا كلام القوم، فقووا الخلاف، وثبتوا على مختار أئمتهم، والذي يروى من السلف من تأكيد الأخذ بمذهب أصحابهم، وألا يخرج منها بحال، فإن ذلك إما لأمر جبلي، فإن كل إنسان يحب ما هو مختار أصحابه وقومه حتى في الزي والمطاعم، أو لصولة ناشئة من ملاحظة الدليل، أو لنحو ذلك من الأسباب، فظن البعض تعصباً دينياً حاشاهم من ذلك.

اختلاف الصحابة في الأحكام كثير:

وقد كان في الصحابة والتابعين ومن بعدهم من يقرأ البسمة، ومنهم من لا يقرأها، ومنهم من يجهر بها، ومنهم من لا يجهر بها وكان منهم من

يقنت في الفجر، ومنهم من لا يقنت في الفجر، ومنهم من يتوضأ من الحجامة والرعاف والقيء، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك، ومنهم من يتوضأ من مس الذكر ومس النساء بشهوة، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك، ومنهم من يتوضأ مما مسته النار، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك، ومنهم من يتوضأ من أكل لحم الإبل، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك.

ما كان خلاف الأئمة تعصباً أعمى:

ومع هذا فكان بعضهم يصلي خلف بعض مثل ما كان أبو حنيفة أو أصحابه والشافعي وغيرهم رضي الله عنهم يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية وغيرهم وإن كانوا لا يقرؤون البسملة لا سراً ولا جهرًا.

وصلى الرشيد إماماً وقد احتجم، فصلى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد.

وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة فقليل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم، ولم يتوضأ هل يصلي خلفه؟ فقال: كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب.

وروي أن أبا يوسف ومحمداً كانا يكبران في العيدين تكبير ابن عباس لأن هرون الرشيد كان يحب تكبير جده.

وصلى الشافعي رحمه الله الصبح قريباً من مقبرة أبي حنيفة رحمه الله، فلم يقنت تأديباً معه، وقال أيضاً: ربما انحدرنا إلى مذهب أهل العراق. وقال مالك رحمه الله للمنصور^(١) وهرون الرشيد ما ذكرنا عنه سابقاً.

(١) المنصور: هو أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين وكان رجلاً قديراً أكمل تأسيس الدولة العباسية وكان رغم اشتغاله في الحكم ذا ثقافة جيدة في الدين والأدب.

وفي البزازية عن الإمام الثاني - وهو أبو يوسف رحمه الله - أنه صلى يوم الجمعة مغتسلاً من الحمام، وصلى بالناس وتفرقوا، ثم أخبر بوجود فأرة ميتة في بئر الحمام فقال: إذا نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً، انتهى.

أمثلة على تسامح الأئمة الفقهاء :

وسئل الإمام الخجندي رحمه الله عن رجل شافعي المذهب ترك صلاة سنة أو سنتين، ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة رحمه الله، كيف يجب عليه القضاء، أيقضيها على مذهب الشافعي أو على مذهب أبي حنيفة؟ فقال: على أي المذهبين قضى بعد أن يعتقد جوازها جاز، انتهى.

وفي جامع الفتاوى أنه إن قال حنفي إن تزوجت فلانة فهي طالق ثلاثاً، ثم استفتى شافعيًا، فأجاب أنها لا تطلق ويمينه باطل، فلا بأس باقتدائه بالشافعي في هذه المسألة، لأن كثيراً من الصحابة في جانبه.

قال محمد رحمه الله في أماليه: لو أن فقيهاً قال لامرأته: أنت طالق ألبتة، وهو ممن يراها ثلاثاً، ثم قضى عليه قاض بأنها رجعية، وسعه المقام معها، وكذا كل فصل مما يختلف فيه الفقهاء من تحريم أو تحليل أو إعتاق أو أخذ مال أو غيره.

ينبغي للفقهاء المقضي عليه الأخذ بقضاء القاضي:

ينبغي للفقهاء المقضي عليه الأخذ بقضاء القاضي ويدع رأيه، ويلزم نفسه ما ألزم القاضي، ويأخذ ما أعطاه، قال محمد رحمه الله: وكذلك رجل لا علم له، ابتلي ببليّة، فسأل عنها الفقهاء، فأفتوه فيها بحلال أو بحرام، وقضى عليه قاضي المسلمين بخلاف ذلك، وهي مما يختلف فيه الفقهاء، فينبغي له أن يأخذ بقضاء القاضي، ويدع ما أفتاه الفقهاء، انتهى.

كثير مما نسب لأبي حنيفة هو تخريج على مذهبه :

ومنها: أني وجدت بعضهم يزعم أن جميع ما يوجد في هذه الشروح الطويلة وكتب الفتاوى الضخمة وهو قول أبي حنيفة وصاحبيه، ولا يفرق بين القول المخرج، وبين ما هو قول في الحقيقة، ولا يحصل معنى قولهم على تخريج الكرخي كذا، وعلى تخريج الطحاوي^(١) كذا، ولا يميز بين قولهم: قال أبو حنيفة: كذا، وبين قولهم جواب المسألة على مذهب أبي حنيفة أو على أصل أبي حنيفة كذا، ولا يصغي إلى ما قاله المحققون من الحنفيين كابن الهمام وابن النجيم في مسألة العشر في العشر، ومثله مسألة اشتراط البعد من الماء ميلاً في التيمم، وأمثالها - أن ذلك من تخريجات الأصحاب وليس مذهباً في الحقيقة.

وبعضهم يزعم أن بناء المذهب على هذه المحاورات الجدلية المذكورة في مبسوط السرخسي^(٢) والهداية والتبيين ونحو ذلك، ولا يعلم أن أول من أظهر ذلك فيهم المعتزلة، وليس عليه بناء مذهبهم، ثم استطاب ذلك المتأخرون توسعاً وتشحيذاً لأذهان الطالبين ولولغير ذلك والله أعلم، وهذه الشبهات والشكوك يحل كثير منها مما مهدناه في هذا الباب.

(١) الطحاوي: هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي من كبار أئمة الحنفية ولد سنة ٢٣٠ هـ قرأ أولاً على المزني تلميذ الشافعي وهو خاله ثم انتقل إلى أبي جعفر بن أبي عمران القاضي فتفقه به ثم لقي بالشام أبا خازم قاضي القضاة بها فأخذ عنه وكان إماماً في الأحاديث والأخبار وتصانيفه فاق بها معاصريه.

(٢) السرخسي: هو شمس الأئمة محمد بن أحمد السرخسي تلميذ الحلواني يُعد من المجتهدين في المسائل. كان إماماً علامة حجة متكلماً مناظراً أصولياً. أملى المبسوط نحو خمسة عشر مجلداً وهو في السجن باوزجند. كان محبوباً بالجب بسبب كلمة نصح بها الخاقان. كان يملئ من خاطره من غير مطالعة وهو في الجب وأصحابه أعلى الجب، وله كتاب في أصول الفقه وشرح السير. والكبير وشرح مختصر الطحاوي.

الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي أكثره مخرج :

ومنها: أني وجدت بعضهم يزعم أن بناء الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله على هذه الأصول المذكورة في كتاب البزدوي ونحوه، وإنما الحق أن أكثرها أصول مخرجة على قولهم: وعندني أن المسألة القائلة بأن الخاص مبین، ولا يلحقه البيان، وأن الزيادة نسخ، وأن العام قطعي كالخاص، وأن لا ترجيح بكثرة الرواية، وأنه لا يجب العمل بحديث غير الفقيه إذا انسد باب الرأي، وأن لا عبرة بمفهوم الشرط والوصف أصلاً وأن موجب الأمر هو الوجوب ألبتة: وأمثال ذلك أصول مخرجة على كلام الأئمة، وأنه لا تصح بها رواية عن أبي حنيفة وصاحبيه، وأنه ليست المحافظة عليها والتكلف في جواب ما يرد عليها من صنائع المتقدمين في استنباطاتهم كما يفعله البزدوي وغيره أحق من المحافظة على خلافها والجواب عما يرد عليه.

مثال على المسائل المخرجة:

مثاله أنهم أصلوا أن الخاص مبین فلا يلحقه البيان، وخرجوه من صنيع الأوائل في قوله تعالى: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾^(١).

وقوله ﷺ: «لا تجزىء صلاة الرجل حتى يقيم ظهره في الركوع والسجود» حيث لم يقولوا بفرضية الاطمئنان، ولم يجعلوا الحديث بياناً للآية، فورد عليهم صنيعهم في قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾^(٢).

ومسحه ﷺ على ناصيته حيث جعلوه بياناً، وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا﴾^(٤).

(١) سورة الحج / الآية ٧٧ .

(٢) سورة المائدة / الآية ٦ .

(٣) سورة النور / الآية ٢ - حدد الحديث الجلد بأنه للبكر الزاني أما المحصن فيرجم .

(٤) سورة المائدة / الآية ٣٨ - حدد الحديث القطع بما له قيمة .

الآية . وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ (١) .

وما لحقه من البيان بعد ذلك ، فتكلفوا للجواب كما هو مذكور في كتبهم ، وأنهم أصلوا أن العام قطعي كالخاص ، وخرجوه من صنيع الأوائل في قوله تعالى : ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ (٢) .

وقوله ﷺ : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » ، حيث لم يجعلوه مخصصاً ، وفي قوله ﷺ : « فيما سقت العيون العُشر » الحديث ، وقوله ﷺ : « ليس فيما دون خمسة أواق صدقة » ، حيث لم يخصه به ونحو ذلك من المواد ، ثم ورد عليهم قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتيسَّرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ (٣) .

وإنما هو الشاة فما فوقه ببيان النبي ﷺ ، فتكلفوا في الجواب ، وكذلك أصلوا : أن لا عبرة بمفهوم الشرط والوصف وخرجوه من صنيعهم في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً ﴾ (٤) الآية .

ثم ورد عليهم كثير من صنائعهم كقوله ﷺ : « في الإبل السائمة زكاة » فتكلفوا في الجواب ، وأصلوا : أنه لا يجب العمل بحديث غير الفقيه إذا انسد به باب الرأي ، وخرجوه من صنيعهم في ترك حديث المصراة (٥) ثم ورد عليهم حديث القهقهة وحديث عدم فساد الصوم بالأكل ناسياً ، فتكلفوا في الجواب ، وأمثال ما ذكرنا كثيرة لا تخفى على المتتبع ، ومن لم

(١) سورة البقرة/ الآية ٢٣٠ ، حدد الحديث النكاح الفعلي لا مجرد العقد .

(٢) سورة المزمل/ الآية ٢٠ . (٣) سورة البقرة/ الآية ١٩٦ .

(٤) سورة النساء/ الآية ٢٥ .

(٥) هو من التصرية وهو حبس اللبن في ضرع الإبل والغنم لتباع كذلك يفتربها المشتري ، المصراة هي التي يفعل بها ذلك ، وحديث المصراة « من اشترى شاة مصراة فهو بالخيار ثلاثة أيام فإن ردها رد معها صاعاً من طعام لا سمراء » انتهى والبحث في ثبوت الخيار ورد الطعام عند الشافعي ، وعدمهما عند أبي حنيفة مذكور في كتب الأصول .

يتبع لا تكفيه الإطالة فضلاً عن الإشارة.

اشتراط فقه الراوي لتقدم الخبر على القياس عند بعضهم:
ويكفيك دليلاً على هذا قول المحققين في مسألة: لا يجب العمل
بحديث من اشتهر بالضبط والعدالة دون الفقه إذا انسد باب الرأي
كحديث المصراة أن هذا مذهب عيسى بن إبان، واختاره كثير من
المتأخرين.

وذهب الكرخي وتبعه كثير من العلماء إلى عدم اشتراط فقه الراوي
لتقدم الخبر على القياس، قالوا: لم ينقل هذا القول عن أصحابنا، بل
المنقول عنهم أن خبر الواحد مقدم على القيام، ألا ترى أنهم عملوا بخبر
أبي هريرة في الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً، وإن كان مخالفاً للقياس
حتى قال أبو حنيفة رحمه الله: لولا الرواية لقلت بالقياس. ويرشدك أيضاً
اختلافهم في كثير من التخريجات أخذاً من صنائعهم ورد بعضهم على
بعض.

أخطأ من قال أن هنالك فرقتين أهل الرأي وأهل الظاهر:

ومنها: أني وجدت أن بعضهم يزعم أن هنالك فرقتين لا ثالث لهما،
أهل الظاهر، وأهل الرأي، وأن كل من قاس، واستنبط فهو من أهل الرأي
- كلا والله - بل ليس المراد بالرأي نفس الفهم والعقل، فإن ذلك لا ينفك
من أحد من العلماء، ولا الرأي الذي لا يعتمد على سنة أصلاً، فإنه
لا ينتحله مسلم البتة، ولا القدرة على الاستنباط والقياس، فإن أحمد
وإسحق بل الشافعي أيضاً ليسوا من أهل الرأي بالاتفاق، وهم يستنبطون
ويقيسون، بل المراد من أهل الرأي قوم توجهوا بعد المسائل المجمع
عليها بين المسلمين، أو بين جمهورهم إلى التخريج على أصل رجل من

المتقدمين، فكان أكثر أمرهم حمل النظر^(١) على النظر، والرد إلى أصل من الأصول دون تتبع الأحاديث والآثار.

والظاهري من لا يقول بالقياس، ولا بآثار الصحابة والتابعين كداود^(٢) وابن حزم، وبينهما المحققون من أهل السنة كأحمد وإسحاق، ولقد أطنبنا الكلام في هذا المقام غاية الإطناب حتى خرجنا من الفن الذي وضعنا فيه هذا الكتاب، وليس ذلك لي بخلق وديدن، وإنما كان ذلك بوجهين:

أحدهما: أن الله تعالى جعل في قلبي وقتاً من الأوقات ميزاناً أعرف به سبب كل اختلاف وقع في الملة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام، وما هو الحق عند الله وعند رسوله، ومكنني من أن أثبت ذلك بالدلائل العقلية والنقلية بحيث لا يبقى فيه شبهة ولا إشكال، فعزمت على تأليف كتاب أسميه بـ (غاية الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف) وأبين فيه هذه المطالب بياناً شافياً، وأكثر فيه من ذكر الشواهد والأمثال والتفريعات مع المحافظة على الاقتصاد بين الإفراط والتفريط في كل مقام والإحاطة بجوانب الكلام وأصول المقصود والمرام، ثم لم أتفرغ له إلى هذا الحين. فلما انجر الكلام إلى مأخذ الاختلاف، حملني ما أجد على أن أبين بعض ما تيسر من ذلك.

(١) النظر: الشبه.

(٢) داود: هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني المعروف بالظاهري ولد بالكوفة سنة ٢٠٢ وأخذ العلم عن إسحاق بن راهوية وأبي ثور وغيرهما وكان أكثر الناس تعصباً للشافعي وصنف في فضائله والثناء عليه كتابين وانتهت إليه رئاسة القلم ببغداد ثم اتخذ لنفسه مذهباً خاصاً أساسه العمل بظاهر الكتاب والسنة ما لم يدل دليل منهما أو من الإجماع على أنه يراد منه غير الظاهر. فإن لم يوجد نص عمل بالإجماع. ورفض القياس رفضاً تاماً توفي عام ٣٢٤ هـ.

والثاني شغب أهل الزمان واختلافهم وعمهم في بعض ما ذكرنا
حتى كادوا يسطون بالذين يتلون عليهم آيات الله، ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (١).

وليكن هذا آخر ما أردنا إيراده في القسم الأول من كتاب (حجة الله
البالغة. في علم أسرار الحديث) والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.
ويتلوه إن شاء الله تعالى (القسم الثاني. في بيان أسرار ما جاء عن
النبي ﷺ تفصيلاً).

(١) سورة الأنبياء / الآية ١١٢.

في بيان أسرار ما جاء عن النبي ﷺ تفصيلاً

والمقصود هنا ذكر جملة صالحه من الأحاديث المعروفة عند أهلها، السائرة بين حملة العلم، المروية في صحيح البخاري ومسلم وكتابي أبي داود والترمذي^(١)، وكلما أوردت عن غيرها إلا استطراداً، ولذلك لم أتعرض لنسبة كل حديث لمخرجه، وربما ذكرت حاصل المعنى أو طائفة من الحديث، فإن هذه الكتب تيسر مراجعتها وتتبعها على الطالب.

من أبواب الإيمان

اعلم أن النبي ﷺ لما كان مبعوثاً إلى الخلق بعثاً عاماً، ليغلب دينه على الأديان كلها بعز عزيز، أو ذلّ ذليل - حصل في دينه أنواع من الناس، فوجب التمييز بين الذين يدينون بدين الإسلام، وبين غيرهم، ثم بين الذين اهتموا بالهداية التي بعث بها، وبين غيرهم ممن لم تدخل بشاشة الإيمان قلوبهم، فجعل الإيمان على ضربين:

الإيمان الذي يدور عليه أحكام الدنيا:

أحدهما: الإيمان الذي تدور عليه أحكام الدنيا من عصمة الدماء

(١) الترمذي: ولد سنة ٢٠٠ هـ وتلقى من البخاري وغيره، وكان إماماً ثقة حافظاً أشهر كتبه السنن المعروف بالجامع توفي سنة ٢٧٩ هـ.

والأموال وضبطه بأمر ظاهر في الانقياد وهو قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام^(١) وحسابهم على الله^(٢)» وقوله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا^(٣) الله في ذمته» وقوله ﷺ: «قلت من أصل الإيمان^(٤) الكف عن قال: لا إله إلا الله لا تكفره بذنوب ولا نخرجه من الإسلام بعمل» الحديث.

الإيمان الذي يدور عليه أحكام الآخرة:

وثانیهما: الإيمان الذي يدور عليه أحكام الآخرة من النجاة والفوز بالدرجات، وهو متناول لكل اعتقاد حق، وعمل مرضي، ومملكة فاضلة، وهو يزيد وينقص، وسنة الشارع أن يسمي كل شيء منها إيماناً ليكون تنبيهاً بليغاً على جزئيته، وهو قوله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» وقوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٥) الحديث، وله شعب^(٦) كثيرة، ومثله كمثل الشجرة يقال للدوحة والأغصان والأوراق والثمار والأزهار جميعاً: إنها شجرة، فإذا قطع أغصانها،

(١) حق الإسلام: يعني الأحكام التي تجري بين المسلمين كالقصاص والرجم وغيرها. وعصموا دماءهم: لم يحل قتلهم.

(٢) حسابهم على الله: أي فيما يسرون من الكفر والمعاصي بعد ذلك.

(٣) الاخفار: نقض العهد والخيانة فيه، والمعنى لا تخونوا الله في عهده فلا تتعرضوا لمسلم في ماله أو دمه أو عرضه.

(٤) أصل الإيمان: خواصه التي لا تنفك عنه.

(٥) من لسانه: أي من الغيبة والنميمة والقذف. ويده: أي التعدي بالأذى والسرقة وما شابه.

(٦) شعب: فروع.

وخبط^(١) أوراقها، وخرّف ثمارها قيل: شجرة ناقصة، فإذا قلعت الدوحة بطل الأصل وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(٢) الآية.

الإيمان على مرتبتين:

ولما لم يكن جميع تلك الأشياء على حد واحد جعلها النبي ﷺ

على مرتبتين:

الأركان التي هي عمدة:

منها: الأركان التي هي عمدة أجزائها وهو قوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان».

شعب الإيمان:

ومنها: سائر الشعب وهو قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، وأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(٣).

الفرق بين الأركان والإيمان:

ويسمى مقابل الإيمان الأول بالكفر، وأما مقابل الإيمان الثاني فإن كان تفويتاً للتصديق، وإنما يكون الانقياد بغلبة السيف - فهو النفاق الأصلي.

والمنافق بهذا المعنى لا فرق بينه وبين الكافر في الآخرة بل المنافقون - في الدرك الأسفل من النار.

(١) خبط الشجرة: شدها ونفض أوراقها، وقوله خرّف ثمارها أي قطف وجنى.

(٢) سورة الأنفال/ الآية ٢ - إنما المؤمنون: أي الكاملون بالإيمان - وجلت: خافت.

(٣) بضع: البضع من ثلاثة إلى تسعة - شعبة: فرقة، فرع - إمطة: إبعاد، إزالة.

وإن كان مصدقاً مفوتاً لوظيفة الجوارح سمي فاسقاً . . . ، أو مفوتاً لوظيفة الجنان، فهو المنافق بنفاق آخر، وقد سماه بعض السلف نفاق العمل، وذلك أن يغلب عليه حجاب الطبع أو الرسم أو سوء المعرفة، فيكون ممعناً في محبة الدنيا والعشائر والأولاد، فيدب في قلبه استبعاد المجازاة والاجترار على المعاصي من حيث لا يدري وإن كان معترفاً بالنظر البرهاني بما ينبغي الاعتراف به، أو رأي الشدائد في الإسلام، فكرهه، أو أحب الكفار بأعيانهم، فصد ذلك من إعلاء كلمة الله .

معنيان آخران للإيمان :

وللإيمان معنيان آخران :

أحدهما : تصديق الجنان بما لا بد من تصديقه، وهو قوله ﷺ في جواب جبريل : «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته» الحديث^(١) .

والثاني : السكينة والهيئة الوجدانية التي تحصل للمقربين، وهو قوله ﷺ : «الطهور شطر الإيمان» وقوله ﷺ : «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان فوق رأسه كالظلة، فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان» وقول معاذ رضي الله عنه : «تعال تؤمن ساعة» .

للإيمان أربعة معانٍ :

فللإيمان أربعة معانٍ^(٢) مستعملة في الشرع إن حملت كل حديث من الأحاديث المتعارضة في الباب على محمله اندفعت عنك الشكوك والشبهات، والإسلام أوضح من الإيمان في المعنى الأول ولذلك قال الله

(١) تمامه «وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره إلى آخره .

(٢) معاني الإيمان الأربعة كما أوردها متفرقة في طيات الكلام هي : الإسلام - التلذذ بالطاعة وتحمل المشاق - الشدة في أمر الله - نزع الحقد من القلب .

تعالى : ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (١).

وقال النبي ﷺ لسعد (٢) : «أو مسلماً»، والإحسان أوضح منه في المعنى الرابع.

علامة الإيمان وعلامة النفاق :

ولما كان نفاق العمل وما يقاربه من الإخلاص أمراً خفياً وجب بيان علامات كل واحد منهما، وهو قوله ﷺ : «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» (٣).

وقوله ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» (٤) أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار.

وقوله ﷺ : «إذا رأيت العبد يلزم المسجد فاشهدوا له بالإيمان».

وكذا قوله عليه السلام : «حب علي آية (٥) الإيمان، وبغض علي آية النفاق» والفقهاء فيه أنه رضي الله عنه كان شديداً في أمر الله، فلا يتحمل شدته إلا من ركعت (٦) طبيعته، وغلب عقله على هواه.

(١) سورة الحجرات / آية ١٤ .

(٢) أخرجه الخمسة إلا الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال : «أعطى رسول الله ﷺ رهطاً وأنا جالس فترك رجلاً منهم هو أعجبهم إلي فقلت مالك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً فقال رسول الله ﷺ أو مسلماً الحديث، و«أو بمعنى بل، والمراد بل ينبغي لك أن تقول لأراه مسلماً في الظاهر» .

(٣) فجر : أي شتم ورمى بالأشياء القبيحة .

(٤) أي استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق في رضا الله ورسوله .

(٥) آية : علامة ودليل . (٦) ركعت : هدأت وسكنت .

وقوله ﷺ: «حب الأنصار آية الإيمان» والفقهاء فيه أن العرب المعدية واليمانية ما زالوا يتنازعون بينهم حتى جمعهم الإيمان، فمن كان جامع الهمة على إعلاء الكلمة زال عنه الحقد، ومن لم يكن جامعاً بقي فيه النزاع.

أركان الإسلام:

وقد بين النبي ﷺ في حديث «بني الإسلام على خمس» وحديث ضمام بن ثعلبة، وحديث أعرابي قال: - دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة - أن هذه الأشياء الخمسة أركان الإسلام، وأن من فعلها ولم يفعل غيرها من الطاعات قد خلص رقبته من العذاب، واستوجب الجنة، كما بين أن أدنى الصلاة ماذا، وأدنى الوضوء ماذا - وإنما خص الخمسة بالركنية لأنها أشهر عبادات البشر، وليست ملة من الملل إلا قد أخذت بها، والتزمتها كاليهود والنصارى والمجوس وبقية العرب على اختلافهم في أوضاع أدائها، ولأن فيها ما يكفي عن غيرها، وليس في غيرها ما يكفي عنها، وذلك لأن أصل أصول البر^(١) التوحيد وتصديق النبي والتسليم للشرائع الإلهية.

لا بد من علامة يميز بها المخالف والموافق:

ولما كانت البعثة^(٢) عامة، وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً لم يكن بد من علامة ظاهرة بها يميز بين الموافق والمخالف، وعليها يدار حكم الإسلام، وبها يؤخذ الناس، ولولا ذلك لم يفرق بينهما بعد طول الممارسة^(٣) إلا تفريقاً ظنياً معتمداً على قرائن^(٤) ولاختلف الناس في الحكم بالإسلام، وفي ذلك اختلال كثير من الأحكام كما لا يخفى، وليس

(١) البر: كل عمل طيب يقرب من الله . (٢) البعثة: رسالة النبي .

(٣) الممارسة: العمل المستديم . (٤) قرائن: دلائل ملازمة للشيء .

شيء كالإقرار طوعاً ورجبة كاشفاً عن حقيقة ما في القلب من الاعتقاد والتصديق.

مدار السعادة والنجاة:

ولما ذكرنا من قبل من أن مدار السعادة النوعية، وملاك النجاة الأخروية هي الأخلاق الأربعة، فجعلت الصلاة المقرونة بالطهارة سبباً ومظنة لخلق الإخبات، والنظافة، وجعلت الزكاة المقرونة بشروطها المصروفة إلى مصارفها مظنة للسماحة والعدالة.

ولما ذكرنا أنه لا بد من طاعة قاهرة على النفس، ليدفع بها الحجب الطبيعية، ولا شيء في ذلك كالصوم.

شعائر الله أربع:

ولما ذكرنا أيضاً من أن أصل أصول الشرائع هو تعظيم شعائر الله وهي أربع: منها الكعبة، وتعظيمها الحج - وقد ذكرنا فيما سبق من فوائد هذه الطاعات ما يعلم به أنها تكفي عن غيرها وأن غيرها لا يكفي عنها.

الآثام على قسمين:

والآثام باعتبار الملة على قسمين: صغائر وكبائر.

الكبائر:

والكبائر: ما لا يصدر إلا بغاشية عظيمة من البهيمية أو السبعية أو الشيطنة وفيه انسداد سبيل الحق، وهتك حرمة شعائر الله أو مخالفة الارتفاقات الضرورية، والضرر العظيم بالناس، ويكون مع ذلك منابذاً للشرع لأن الشرع نهى عنه أشد نهى، وغلظ التهديد على فاعله، وجعله كأنه خروج من الملة.

الصغائر:

والصغائر: ما كان دون ذلك من دواعي الشر ومفضيات إليه، وقد

ظهر نهي الشرع عنه حتماً ولكن لم يغلظ فيه ذلك التغليظ .

حدود الكبائر :

والحق أن الكبائر ليست محصورة في عدد، وأنها تعرف بإيعاد النار في الكتاب والسنة الصحيحة وشرع الحد عليه، وتسميته كبيرة، وجعله خروجاً عن الدين، وكون الشيء أكثر مفسدة مما نص النبي ﷺ على كونه كبيرة أو مثلها في المفسدة .

الإيمان يفارق المسلم عند المعصية الكبرى :

وقوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » الحديث معناه أن هذه الأفعال لا تصدر إلا بغاشية عظيمة من البهيمية أو السبعية، فتصير حينئذ الملكية كأن لم تكن والإيمان كأنه زائل - دلٌ بذلك على كونها كبائر .

قال النبي ﷺ : «والذي نفس محمد بيده لا يسمع به أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» . أقول: يعني من بلغته الدعوة، ثم أصر على الكفر حتى مات دخل النار، لأنه ناقض تدبير الله تعالى لعباده، ويمكن من نفسه لعنة الله والملائكة المقربين، وأخطأ الطريق الكاسب للنجاة^(١) .

من أمارات الإيمان صحبة الرسول الكاملة :

وقال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وقال : «حتى يكون هواه^(٢) تبعاً لما جئت به» . أقول: كمال الإيمان أن يغلب العقل على الطبع بحيث يكون مقتضى الطبع بادي

(١) الكاسب للنجاة: المؤدي للنجاة . (٢) هواه: ميله ورعيته .

الأمر - وكذلك الحال في حب الرسول - ولعمري هذا مشهود في الكاملين .

الإيمان والاستقامة :

قيل^(١) : يا رسول الله : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي رواية - غيرك، قال : «قل آمنت بالله ثم استقم» أقول : معناه أن يحضر الإنسان بين عينيه حالة الانقياد والإسلام ثم يعمل ما يناسبه، ويترك ما يخالفه، وهذا قول كلي يصير به الإنسان على بصيرة من الشرائع، وإن لم يكن تفصيلاً، فلا يخلو من علم إجمالي يجعل الإنسان سابقاً .

الشهادتان من أمارات الإيمان :

وقال ﷺ^(٢) : «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار» وقوله ﷺ^(٣) : «وإن زنى وإن سرق» وقوله ﷺ^(٤) : «على ما كان من عمل» أقول معناه حرمه الله على النار الشديدة المؤبدة التي أعدها للكافرين وإن عمل الكبائر .

مراتب الإثم متفاوت :

والنكتة^(٥) في سوق الكلام هذا السياق، أن مراتب^(٦) الإثم بينها تفاوت بين، وإن كان يجمعها كلها اسم الإثم، فالكبائر إذا قيست بالكفر لم يكن لها قدر محسوس، ولا تأثير يعتد به، ولا سببية لدخول النار تسمى سببية وكذلك الصغائر بالنسبة إلى الكبائر، فبين النبي ﷺ الفرق بينها على أكد وجه بمنزلة الصحة والسقم، فإن الأعراض^(٧) البادية كالزكام

(١) كان القائل سفيان بن عبد الله الثقي .

(٢) أي في حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) كما وقع في حديث أبي ذر .

(٤) كما في حديث عبادة بن الصامت .

(٥) النكتة : النقطة المقصودة .

(٦) مراتب : درجات .

(٧) الأعراض : أي الأمراض .

والنصب^(١) إذا قيست إلى سوء المزاج المتمكن كالجدام^(٢) والسل والاستسقاء يحكم عليها بأنها صحة وأن صاحبها ليس بمريض وأن ليس به قلبة^(٣) - ورب داهية تنسى داهية - كمن أصابه شوكة، ثم وتر أهله وماله، قال: لم يكن بي مصيبة قبل أصلاً.

إبليس وفتته:

وقوله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه يفتنون الناس» الحديث^(٤) اعلم أن الله تعالى خلق الشياطين وجبلهم على الإغواء بمنزلة الدود التي تفعل أفعالاً بمقتضى مزاجها - كالجعل يدهده الخرأة - وأن لهم رئيساً يضع عرشه على الماء، ويدعوهم لتكميل ما هم قبله قد استوجب أتم الشقاوة وأوفر الضلال، وهذه سنة الله في كل نوع وفي كل صنف وليس في هذا مجاز، وقد تحقق من ذلك ما يكون بمنزلة الرؤية بالعين.

قوله ﷺ: «الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة»^(٥)

وقوله ﷺ: «إن الشيطان قد أيس من أن يعبد المسلمون في جزيرة العرب ولكن في التحريش^(٦) بينهم».

(١) النصب: التعب.

(٢) الجدام: مرض جلدي خطير.

(٣) يقال ما به قلبة - أي تحريك - على وزن طلبه أي ليس به علة، ووتر نقص وسلب، والسرايا الجنود.

(٤) تمامه «فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئاً قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال: فيدنيه منه ويقول نعم أنت». ويدهده: يدحرج. الجعل: حشرة سوداء طعامها الروث.

(٥) قاله في جواب رجل جاءه فقال: إني أحدث نفسي بالشيء لأن كون حممته أحب إلي من أن أتكلم به.

(٦) أي في إغراء بعضهم على بعض، والتحريض بالشر بين الناس، وقوله: جزيرة العرب، إنما خصت لأن الدين يومئذ لم يتجاوز عنها. أيس: يش.

وقوله ﷺ: «ذاك»^(١) صريح الإيمان».

يختلف تأثير الوسوسة بحسب استعداد الموسوس إليه :
اعلم أن تأثير وسوسة الشياطين يكون مختلفاً بحسب استعداد
الموسوس إليه، فأعظم تأثيره الكفر والخروج من الملة.
فإذا عصم الله من ذلك بقوة اليقين انقلب تأثيره في صورة أخرى،
وهي المقاتلات وفساد تدبير المنزل والتحريش بين أهل البيت وأهل
المدينة.

ثم إذا عصم الله من ذلك أيضاً صار خاطراً يجيء، ويذهب،
ولا يبعث النفس إلى عمل لضعف أثره - وهذا لا يضر، بل إذا اقترن
باعتماد قبح ذلك كان دليلاً على صراحة الإيمان، نعم أصحاب النفوس
القدسية لا يجدون شيئاً من ذلك، وهو قوله ﷺ: «إلا أن الله أعانني
عليه»^(٢) فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» وإنما مثل هذه التأثيرات مثل شعاع
الشمس يؤثر في الحديد والأجسام الصقيلة^(٣) ما لا يؤثر في غيرها، ثم
وتم.

تأثير الملائكة، تأثير الشياطين :

وقوله ﷺ: «إن الشيطان لمة وللملك لمة» الحديث^(٤).

(١) قاله لما سأله الأصحاب إنا نجد في أنفسنا ما يتعاضم أحدنا أن يتكلم به قال: «أو قد

وجدتموه؟ قالوا: نعم قال: «ذاك» إلخ. وصريح الإيمان هو خالص الإيمان.

(٢) أي على قريني من الجن. وقوله فأسلم: لها معنيان الأول دخل الإسلام والثاني بمعنى

أسلم منه ومن ضرره وقد رجح العلماء المعنى الثاني.

(٣) الصقيلة: الملساء اللماعة.

(٤) اللمة: بالفتح النزول والقرب والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك

وتمام الحديث «فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فأيعاد

بالخير وتصديق بالحق» الحديث.

الحاصل أن صورة تأثير الملائكة في نشأة الخواطر الأنس والرغبة في الخير وتأثير الشياطين فيها الوحشة^(١) وقلق الخاطر والرغبة في الشر.

قوله ﷺ: «من وجد من ذلك^(٢) شيئاً فليقل آمنت بالله ورسوله»
وقوله ﷺ: «فليستعد بالله وليتفل^(٣) عن يساره» سره أن الالتجاء إلى الله وتذكره وتقبيح حال الشياطين وإهانة أمرهم يصرف وجه النفس عنهم، ويصد عن قبول أثرهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٤).

آدم وموسى عليهما السلام:

وقوله ﷺ: «احتج آدم وموسى عند ربهما»^(٥).

أقول معنى قوله: «عند ربهما» أن روح موسى عليه السلام انجذبت إلى حظيرة القدس، فوافت هنالك آدم.

وبطن هذه الواقعة وسرها: أن الله فتح علي موسى علماً على لسان آدم عليهما السلام شبه ما يرى النائم في منامه ملكاً أو رجلاً من الصالحين يسأله، ويراجعه الكلام حتى يفيء^(٦) عنه بعلم لم يكن عنده. وههنا علم دقيق كان قد خفي على موسى عليه السلام حتى كشفه الله عليه في هذه

(١) الوحشة: عدم الأنس والاطمئنان.

(٢) أي الوسوسة في الله وأول الحديث «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله».

(٣) التفل: النفخ بالفم مع إخراج رذاذ من الريق.

(٤) سورة الأعراف/ الآية: ٢٠١ - مسهم: أصابهم - تذكروا: أي تذكروا عقاب الله وثوابه - فإذا هم مبصرون: أي مبصرون الحق.

(٥) حاصل الاحتجاج أن موسى عليه السلام اعترض على آدم أنك أنت أهبطت الخلق إلى الأرض فأجاب آدم عليه السلام تلومني على عمل كتبه الله علي قبل أن اخلق فغلب آدم في الحججة.

(٦) يفيء: يرجع.

الواقعة وهو أنه اجتمع في قصة آدم عليه السلام وجهان :

أحدهما: مما يلي خويصة^(١) نفس آدم عليه السلام، وهو أنه كان ما لم يأكل الشجرة لا يظماً ولا يضحى، ولا يجوع ولا يعرى - وكان بمنزلة الملائكة فلما أكل غلبت البهيمية، وكمنت الملكية، فلا جرم أن أكل الشجرة إثم يجب الاستغفار عنه.

وثانيهما: مما يلي التدبير الكلي الذي قصده الله تعالى في خلق العالم وأوحاه إلى الملائكة قبل أن يخلق آدم وهو أن الله تعالى أراد بخلقه أن يكون نوع الإنسان خليفة في الأرض يذنب، ويستغفر، فيغفر له، ويتحقق فيهم التكليف وبعث الرسل والثواب والعذاب ومراتب الكمال والضلال.

وهذه نشأة عظيمة على حدتها، وكان أكل الشجرة حسب مراد الحق ووفق حكمته، وهو قوله ﷺ: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم آخرين يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم».

وكان آدم أول ما غلبت عليه بهيميته استتر عليه العلم الثاني، وأحاط به الوجه الأول، وعوتب عتاباً شديداً في نفسه، ثم سرى عنه^(٢)، ولمع عليه بارق من العلم الثاني، ثم لما انتقل إلى حظيرة القدس علم الحال أصرح ما يكون.

اجتمع في موسى ما اجتمع في آدم:
وكان موسى عليه السلام يظن ما كان يظن آدم عليه السلام حتى فتح

(٢) سري عنه: ذهب عنه.

(١) خويصة: تصغير خاصة.

الله عليه العلم الثاني ، وقد ذكرنا أن الوقائع الخارجية يكون لها تعبير كتعبير المنام وأن الأمر والنهي لا يكونان جزافاً^(١) ، بل لهما استعداد يوجبهما .

قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، ثم أبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء^(٢) هل تحسون فيها من جدعاء^(٣) . »

أجرى الله سنته بأن يخلق الحيوانات والنباتات على شكل خاص :

أقول اعلم أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق كل نوع من الحيوانات والنباتات وغيرهما على شكل خاص به .

فخص الإنسان مثلاً بكونه بادي البشرة مستوي القامة عريض الأظفار ناطقاً ضاحكاً ، وبتلك الخواص يعرف أنه إنسان اللهم إلا أن تخرق العادة فرد نادر كما ترى أن بعض المولودات يكون له خرطوم أو حافر فكذلك أجرى سنته أن يخلق في كل نوع قسطاً^(٤) من العلم والإدراك محدوداً بحد مخصوصاً به لا يوجد في غيره مطرداً^(٥) في أفراده .

فخص النحل بإدراك الأشجار المناسبة لها ، ثم اتخاذ الأكنان^(٥) وجمع العسل فيها ، فلن ترى فرداً من أفراد النحل إلا وهو يدرك ذلك .
وخص الحمام بأنه كيف يهدر وكيف يعشش وكيف يزق فراخه .

(١) جزاف: بلا غاية ولا فائدة .

(٢) أي سليمة الأطراف ، والجدعاء مقطوعة الأطراف : والمراد أن الولد يكون في الجبلة متهيئاً لقبول الحق طبعاً ولو خلته شياطين الإنس والجن لم يختر غير الحق .

(٣) قسطاً: جزءاً .

(٤) مطرداً: متتابعاً متواصلاً .

(٥) الأكنان: جمع كن وهو البيت وكذلك كل ما يقي ويستر .

خصَّ الله الإنسان بإدراك زائد وعقل مستوفى :

وكذلك خصَّ الله تعالى الإنسان بإدراك زائد وعقل مستوفى ، ودسَّ فيه معرفة باريه والعبادة له وأنواع ما يرتفقون به في معاشهم وهو الفطرة ، فلو أنهم لم يمنعهم مانع لكبروا عليها ، لكنه قد تعترض العوارض كإضلال الأبوين ، فينقلب العلم جهلاً كمثّل الرهبان يتمسكون بأنواع الحيل ، فيقطعون شهوة النساء والجوع مع أنهما مدسوسان في نظرة الإنسان .

قوله ﷺ : «خلقهم لها وهم في أصلاب (١) آبائهم - وقوله ﷺ - هم من آبائهم» وقوله ﷺ : «الله أعلم بما كانوا عاملين» وقوله ﷺ في منامه الطويل : «نسم ذرية بني آدم تكون عند إبراهيم عليه السلام» .

قد يولد الولد وهو يستوجب اللعن :

اعلم أن الأكثر أن يولد الولد على الفطرة كما مر ، لكن قد يخلق بحيث يستوجب اللعن بلا عمل كالذي قتله الخضر (٢) طبع كافراً ، وأما من آبائهم فمحمول على أحكام الدنيا ، وليس أن التوقف في النواميس (٣) إنما يكون لعدم العلم ، بل قد يكون لعدم انضباط الأحكام بمظنة ظاهرة أو لعدم الحاجة إلى بيانه أو غموض فيه بحيث لا يفهمه المخاطبون .

يختار الله الأوفق بالمصلحة :

قوله ﷺ : «بيده الميزان يخفض ويرفع» أقول : هذا إشارة إلى التدبير ، فإن مبناه على اختيار الأوفق بالمصلحة ، فما من حادثة يجتمع فيها أسباب متنازعة إلا ويقضي الله في ذلك ما هو العدل ، وهو قوله تعالى :

(١) الأصلاب : جمع صلب (بضم الصاد) عظم الظهر .

(٢) الخضر : هو العبد الصالح الذي ذكره القرآن الكريم في حوادث جرت مع موسى عليه السلام .

(٣) النواميس : القوانين الطبيعية التي خلقها الله لتسير عليها الدنيا .

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (١).

قوله ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن»
وقوله ﷺ: «مثل القلب كريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن».

أفعال العباد اختيارية:

أقول: أفعال العباد اختيارية، لكن لا اختيار لهم في ذلك الاختيار،
وإنما مثله كمثّل رجل أراد أن يرمي حجراً، فلو أنه كان قادراً حكيماً خلق
في الحجر اختيار الحركة أيضاً.

ولا يرد عليه أن الأفعال إذا كانت مخلوقة لله تعالى، وكذلك الاختيار
فقيم الجزاء، لأن معنى الجزاء يرجع إلى ترتب بعض أفعال الله تعالى على
البعض، بمعنى أن الله تعالى خلق هذه الحالة في العبد فاقتضى ذلك في
حكيمته أن يخلق فيه حالة أخرى من النعمة أو الألم كما أنه يخلق في الماء
حرارة، فيقتضي ذلك أن يكسوه صورة الهواء.

وإنما يشترط وجود الاختيار وكسب العبد في الجزاء بالعرض
لا بالذات، وذلك لأن النفس الناطقة لا تقبل لونها الأعمال التي لا تستند
إليها، بل إلى غيرها من جهة الكسب، ولا الأعمال التي لا تستند إلى
اختيارها وقصدها.

وليس في حكمة الله أن يجازي العبد بما لم تقبل نفسه الناطقة لونه،
فإذا كان الأمر على ذلك كفى هذا الاختيار غير المستقل في الشرطية إذا
كان مصححاً لقبول لون العمل، وهذا الكسب غير المستقل إذا كان
مصححاً لتخصيص هذا العبد بخلق الحالة المتأخرة فيه دون غيره، وهذا
تحقيق شريف مفهوم من كلام الصحابة والتابعين فاحفظه.

(١) سورة الرحمن/ الآية ٢٩.

الله قدر خلقه قبل أن يخلقوا :

قوله ﷺ : «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل» فلذلك أقول : جفّ القلم على علم الله ، معناه أنه قدرهم قبل أن يخلقوا ، فكانوا هنالك عراة عن الكمال في حد أنفسهم ، فاستوجبوا أن يبعث إليهم ، وينزل عليهم ، فاهتدى بعض منهم ، وضل آخرون وقدر جميع ذلك مرة واحدة ، لكن كان لما من أنفسهم تقدم على ما لهم يبعث الرسل ، كقوله ﷺ رواية عن الله تعالى : «كلكم جائع إلا من أطعمته ، وكلكم ضال إلا من هديته» أو نقول : هذا إشارة إلى واقعة مثل واقعة إخراج ذرية آدم عليه السلام .

قوله ﷺ : «إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة» أقول : فيه إشارة إلى أن بعض الحوادث توجد لثلا ينخرم^(١) نظام الأسباب ، فإن لم يكن استهل من إلهام أو بعث تقريب لا بد أن يظهر ذلك .

خلق الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض

قال ﷺ : «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» أقول : خلق الله تعالى العرش والماء أول ما خلق ، ثم خلق جميع ما أراد أن يوجد في قوة من قوى العرش يشبه الخيال من قوانا ، وهو المعبر عنه بالذكر على ما بينه الإمام الغزالي - ولا تظن ذلك مخالفاً للسنّة - فإنه لم يصح عند أهل المعرفة بالحديث من بيان صورة القلم واللوح على ما يلهج^(٢) به العامة شيء يعتد به ، والذي يروونه هو من الإسرائيليات وليس من الأحاديث المحمدية ، وذهاب

(٢) أي يلفظ .

(١) أي ينقطع .

المتأخرين من أهل الحديث إلى مثله نوع من التعمق^(١) وليس للمتقدمين في ذلك كلام.

عبر الله عن التقدير بالكتابة :

وبالجملة فتحققت هنالك صورة هذه السلسلة بتمامها عبر عنه بالكتابة أخذاً من إطلاق الكتابة في السياسة المدنية على التعيين والإيجاب، ومنه قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^(٢) وقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ﴾^(٣) الآية.

وقوله ﷺ : «إن الله كتب على عبده حظه من الزنا» الحديث، وقول الصحابي : كتبت في غزوة كذا ولم يكن هناك ديوان^(٤) كما ذكره كعب بن مالك^(٥)، ونظير ذلك في أشعار العرب كثير جداً، وذكر - خمسين ألف سنة - يحتمل أن يكون تعييناً ويحتمل أن يكون بياناً لطول المدة.

بنو آدم مؤخذون بأصل استعدادهم :

قوله ﷺ : «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه» الحديث^(٦) أقول لما خلق الله آدم ليكون أباً للبشر. التف في وجوده حقائق بنيه، فأعطاه الله تعالى وقتاً من أوقاته، علم ما تضمنه وجوده بحسب القصد الإلهي، فأراه إياهم رأي عين بصورة مثالية، ومثل سعادتهم وشقاوتهم بالنور والظلمة، ومثل ما جبلهم عليه من استعداد التكليف بالسؤال والجواب والالتزام على

(١) أي التكلف.

(٢) سورة البقرة/ الآية ١٨٠ .

(٣) سورة البقرة/ الآية ١٨٣ .

(٤) ديوان : أي دفتر.

(٥) كعب بن مالك : هو كعب بن مالك الخزرجي الأنصاري . كان من أصحاب رسول الله ومن أفاضل الشعراء الذين نفعوا عن الإسلام بسيفوفهم وألستهم وقد روى الأحاديث وحملت عنه . مات في عهد معاوية .

(٦) تمامه «فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون» الحديث .

أنفسهم، فهم يؤاخذون بأصل استعدادهم، وتنسب المؤاخذة إلى شبحه في الظاهر.

يجلي الله على بعض الملائكة حال المولود:

قوله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه» الحديث^(١) أقول: هذا الانتقال تدريجي غير دفعي، وكل حد يبين السابق واللاحق، ويسمى ما لم يتغير من صورة الدم تغيراً فاحشاً - نطفة - وما فيه انجماد ضعيف - علقة وما فيه انجماد أشد من ذلك - مضغة وإن كان فيه عظم رخو، وكما أن النواة إذا ألقيت في الأرض وذلك في وقت معلوم، وأحاط بها تدبير معلوم علم المطلع على خاصية نوع النخل وخاصية تلك الأرض وذلك الماء وذلك الوقت أنه يحسن نباتها ويتحقق من شأنه على بعض الأمر، فكذلك يُجلي الله على بعض الملائكة حال المولود بحسب الجيلة التي جبل عليها.

كل صنف من أصناف النفس له كمال ونقصان:

وقوله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب له مقعده من النار ومقعده من الجنة» أقول: كل صنف من أصناف النفس له كمال ونقصان، عذاب وثواب، ويحتمل أن يكون المعنى إما من الجنة وإما من النار، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾^(٣) الآية.

لا يخالف حديث «ثم مسح ظهره بيمينه واستخرج منه ذريته» لأن آدم أخذت عنه ذريته ومن ذريته ذريتهم إلى يوم القيامة على الترتيب الذي يوجدون عليه، فذكر في القرآن بعض القصة وبين الحديث تتمتها، قوله

(١) تمامه «أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح» الحديث فقوله: يجمع أي ما يخلق منه أحدكم يقر ويحرز في بطنها.

(٣) سورة الأعراف/ الآية ١٧٢.

تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (١).

أي من كان متصفاً بهذه الصفات في علمنا وقدرنا (فسيئره) لتلك الأعمال في الخارج، وبهذا التوجيه ينطبق عليه الحديث.

معنى قوله تعالى ﴿فَالهَمها فجورها﴾ :

قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلهَمها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٢).

أقول المراد بالإلهام هنا خلق صورة الفجور في النفس كما سبق في حديث ابن مسعود، فالإلهام في الأصل خلق الصورة العلمية التي يصير بها عالماً، ثم نقل إلى صورة إجمالية هي مبدأ آثار، وإن لم يصر بها عالماً تجوزاً، والله أعلم.

من أبواب الاعتصام بالكتاب والسنة

من أعظم أسباب التهاون ترك السنة :

قد حذرنا النبي ﷺ مداخل التحريف بأقسامها. وغلظ النهي عنها، وأخذ العهد من أمته فيها، فمن أعظم أسباب التهاون ترك الأخذ بالسنة، وفيه قوله ﷺ : «ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته» (٣)، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدتهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدتهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدتهم بقلبه فهو

(١) سورة الليل / الأيتان : ٦٥ - من أعطى : أي أعطى حق الله - وصدق بالحسنى : صدق بالإسلام.

(٢) سورة الشمس / الأيتان ٧ و ٨ نفس : أي نفوس - سواها : أي سواها في الخلقة. فالهَمها فجورها وتقواها : بين لها طريقي الخير والشر.

(٣) أي بهديه وسيرته وقوله : - تخلف - أي تحدث، وقوله : - خلوف - بضم الخاء - جمع خلف - بسكون اللام - وهو العقب السوء، ويقال للصالح خلف - بفتح اللام - وجمعه أخلاف.

مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(١) وقوله ﷺ: «لا ألفين»^(٢) أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه» ورغب في الأخذ بالسنة جداً لا سيما عند اختلاف الناس .

النهي عن التشدد في الدين :

وفي التشدد^(٣) قوله ﷺ: «لا تشددوا على أنفسكم، فيشدد الله عليكم» ورده على عبد الله بن عمرو والرهط الذين تقالوا عبادة النبي ﷺ وأرادوا شاق الطاعات .

وفي التعمق قوله ﷺ: «ما بال أقوام يتزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إنني لأعلمهم بالله وأشدهم خشية له» وقوله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» وقوله ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» .

النهي عن الخلط :

وفي الخلط قوله ﷺ لمن أراد^(٤) الخوض في علم اليهود «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي»، وجعله ﷺ^(٥) من أبغض الناس

(١) أي لأنه استحل محارم الله .

(٢) أي لا أجدن، وقوله: «أريكته» أي سريره المزين بالحلل والأثواب، والمعنى لا ينبغي لأحد أن يقول لا أعلم غير القرآن ولا يجوز لأحد أن يعرض عن السنة لأن المعرض عنها معرض عن القرآن .

(٣) أي الذي من أسباب التهاون، وقوله: «لا تشددوا على أنفسكم» أي بالأعمال الشاقة، وقوله: «فيشدد الله عليكم» أي بفرض المشاق عليكم .

(٤) كان هو عمر الفاروق رضي الله عنه «فقال للنبي ﷺ: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: أمتهوكون أنتم» إلخ، وقوله: متهوكون أي متحIRON .

(٥) أي في حديث ابن عباس، وقوله: مبتغ أي طالب، وسنة الجاهلية طريقتهم .

من هو مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية .

النهي عن البدعة :

وفي الاستحسان قوله ﷺ : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وضرب الملائكة له ﷺ مثل رجل^(١) بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، ويبعث داعياً^(٢)، أقول هذا إشارة إلى تكليف الناس به وجعله كالأمر المحسوس إكمالاً للتعليم .

ترك اتباع الرسول مهلكة :

قوله ﷺ : «مثلي كمثل رجل استوقد ناراً» الحديث^(٣) وقوله ﷺ : «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني» الحديث^(٤) دليل ظاهر على أن هنالك أعمالاً تستوجب في أنفسها عذاباً قبل البعثة، وقوله ﷺ : «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً» الحديث^(٥) فيه بيان قبول أهل العلم هدايته ﷺ بأحد وجهين، الرواية صريحاً، والرواية دلالة بأن استنبطوا،

(١) أي كريم، والمأدبة - بضم الدال - طعام يدعى الناس إليه كالوليمة .

(٢) تمامه فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل من المأدبة وفي آخره الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله .

(٣) تمامه فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقمن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها .

(٤) تمامه وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فادجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم .

(٥) تمامه فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبت الكلاً والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفخ الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .

وأخبروا بالمستنبطات، أو عملوا بالشرع، فاهتدى الناس بهديهم، وعدم قبول أهل الجهل رأساً.

اتباع السنة واجب:

قوله ﷺ في الموعظة البليغة: «فعلیکم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين».

أقول انتظام الدين يتوقف على اتباع سنن النبي، وانتظام السياسة الكبرى يتوقف على الانقياد للخلفاء فيما يأمرونهم بالاجتهاد في باب الاتفاقات وإقامة الجهاد، وأمثال ذلك ما لم يكن إبداعاً لشيعة أو مخالفاً لنص.

سبيل الله واحد:

«خط رسول الله ﷺ لهم خطأ ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال: هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١).

الفرقة الناجية:

أقول الفرقة الناجية هم الأخذون في العقيدة والعمل جميعاً بما ظهر من الكتاب والسنة، وجرى عليه جمهور الصحابة والتابعين وإن اختلفوا فيما بينهم فيما لم يشتهر فيه نص، ولا ظهر من الصحابة اتفاق عليه استدلالاً منهم ببعض ما هنالك أو تفسيراً لمجمله.

وغير الناجية كل فرقة انحلت عقيدة خلاف عقيدة السلف أو عملاً دون أعمالهم.

(١) سورة الأنعام/ الآية ١٥٣ - السبل: أي الطرق المخالفة لصراط الله - عن سبيله: عن دينه.

الأمة الإسلامية لا تضل :

قوله ﷺ : « لا تجتمع هذه الأمة على الضلالة » وقوله ﷺ : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » وتفسيره في حديث آخر : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين^(١) وانتحال^(٢) المبطلين وتأويل الجاهلين » .

الدعوة إلى الحق لن تزول :

اعلم أن الناس لما اختلفوا في الدين ، وأفسدوا في الأرض قرع ذلك باب جود الحق فبعث محمداً ﷺ وأراد بذلك إقامة الملة العوجاء ، ثم ما توفي النبي ﷺ صارت تلك العناية بعينها متوجهة إلى حفظ علمه ورشده فيما بينهم ، فأورثت فيهم إلهامات وتقريبات ، ففي حظيرة القدس داعية لإقامة الهداية فيهم ما لم تقم الساعة .

يجب أن يكون في الأمة علماء عاملون :

فوجب لذلك أن يكون فيهم لا محالة إمة قائمة بأمر الله ، وأن لا يجتمعوا على الضلالة بأسرهم ، وأن يحفظ القرآن فيهم ، وأوجب اختلاف استعدادهم أن يلحق بما عندهم مع ذلك شيء من التغيير ، فانتظرت العناية لناس مستعدين قضي لهم بالتنويه ، فأورثت في قلوبهم الرغبة في العلم ، ونفي تحريف الغالين وهو إشارة إلى التشدد والتعمق ، وانتحال المبطلين وهو إشارة إلى الاستحسان وخلط ملة بملة ، وتأويل الجاهلين وهو إشارة إلى التهاون ، وترك المأمور به بتأويل ضعيف .

فضل العلماء :

قوله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه^(٣) في الدين » وقوله ﷺ : « إن

(١) الغلو في الدين : هو التشدد والتصلب حتى يتجاوز الحد المشروع .

(٢) انتحال المبطلين : انتسابهم إلى الدين وهم ليسوا منه .

(٣) يفقهه : الفقه هو الفهم العميق .

العلماء وريثة الأنبياء»^(١) وقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» وأمثال ذلك.

اعلم أن العناية الإلهية إذا حلت بشخص، وصيره الله مظنة لتدبير إلهي لا بد أن يصير مرحوماً، وأن تؤمر الملائكة بمحبته وتعظيمه لحديث محبة جبرائيل ووضع القبول في الأرض، ولما انتقل النبي ﷺ نزلت العناية الخاصة به بحسب حفظ ملته إلى حملة العلم ورواته ومشيعيه، فأنجح فيهم فوائد لا تحصى.

قوله ﷺ: «نضر»^(٢) الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها^(٣) وأداها كما سمعها» أقول: سبب هذا الفضل أنه مظنة لحمل الهداية النبوية إلى الخلق.

الكذب على الرسول عليه السلام:

قوله ﷺ: «من كذب علي متعمداً، فليتبوأ^(٤) مقعده من النار» قوله ﷺ: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون».

أقول لما كان طريق بلوغ الدين إلى الأعصار المتأخرة إنما هي الرواية، وإذا دخل الفساد من جهة الرواية لم يكن له علاج ألبتة كان الكذب على النبي ﷺ كبيرة، ووجب الاحتياط في الرواية لئلا يروى كذباً.

الرواية عن أهل الكتاب:

قوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وقوله ﷺ: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم» أقول: الرواية عن أهل الكتاب تجوز فيما

(١) وريثة الأنبياء: أي يرثون رسالتهم ويؤدونها.

(٢) نضر: جعله حسناً جميلاً. ومن نضر الله وجهه يوم القيامة فهو من أهل الجنة.

(٣) وعاما: فهمها عن وعي وإدراك. (٤) تبوا: أخذ مكاناً.

سبيله سبيل الاعتبار، وحيث يكون الأمن عن الاختلاط في شرائع الدين، ولا تجوز فيما سوى ذلك، ومما ينبغي أن يعلم أن غالب الإسرائيليات المدسوسة في كتب التفسير، والأخبار منقولة عن أخبار أهل الكتاب لا ينبغي أن يبنى عليها حكم واعتقاد فتدبر.

يحرم طلب العلم الديني لأجل الدنيا:

قوله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ربحها. أقول يحرم طلب العلم الديني لأجل الدنيا، ويحرم تعليم من يرى فيه الغرض الفاسد لوجوه: منها أن مثله لا يخلو غالباً من تحريف الدين لأغراض الدنيا بتأويل ضعيف، فوجب سد الذريعة ومنها ترك حرمة القرآن والسنن وعدم الاكتراث بها.

حرمة كتمان العلم:

قوله ﷺ: «من سئل عن علم علمه، ثم كتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار» أقول يحرم كتم العلم عند الحاجة إليه لأنه أصل التهاون وسبب نسيان الشرائع، وأجزية المعاد تبنى على المناسبات فلما كان الإثم كف لسانه عن النطق جوزي بشبح الكف وهو اللجام من نار.

علم الشريعة ثلاثة أقسام، أولاً - القرآن :

قوله ﷺ: «والعلم ثلاثة^(١) آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة، وما كان سوى ذلك فهو فضل» أقول هذا ضبط وتحديد لما يجب عليهم بالكفاية، فيجب معرفة القرآن لفظاً، ومعرفة محكمه بالبحث عن

(١) أي علم الشريعة منحصر فيها. قوله: محكمة أي غير منسوخة، وسنة قائمة أي نافعة تتوجه إليها الرغبات ثابتة صحيحة، فريضة عادلة أي أحكام مستنبطة من الكتاب والسنة، فالعادلة بمعنى المساوية لما ثبت بالكتاب والسنة وقوله: فضل أي لا خير فيه من قبيل أعوذ بالله من علم لا ينفع.

شرح غريبه وأسباب نزوله وتوجيه معضله وناسخه ومنسوخه أما المتشابه فحكمه التوقف أو الإرجاع إلى المحكم.

ثانياً - السنة :

والسنة القائمة ما ثبت في العبادات والارتفاقات من الشرائع والسنن مما يشتمل عليه علم الفقه، والقائمة ما لم ينسخ، ولم يهجر، ولم يشذ راويه، وجرى عليه جمهور الصحابة والتابعين.

أعلاها ما اتفق فقهاء المدينة والكوفة عليه، وآيته أن يتفق على ذلك المذاهب الأربعة، ثم ما كان فيه قولان لجمهور الصحابة أو ثلاثة، ذلك كل قد عمل به طائفة من أهل العلم، وآية ذلك أن تظهر في مثل الموطأ وجامع عبد الرزاق رواياتهم وما سوى ذلك فإنما هو استنباط بعض الفقهاء دون بعض تفسيراً وتخريجاً واستدلالاً واستنباطاً، وليس من القائمة.

ثالثة - الفريضة :

والفريضة العادلة الأنصباء للورثة، ويلحق به أبواب القضاء مما سبيله قطع المنازعة بين المسلمين بالعدل، فهذه الثلاثة يحرم خلو البلد عن غالبها لتوقف الدين عليه، وما سوى ذلك من باب الفضل والزيادة.

النهى عن الأغلوطات :

ونهى ﷺ عن الأغلوطات، وهي المسائل التي يقع المسؤول عنها في الغلط ويمتحن بها أذهان الناس، وإنما نهى عنها لوجوه.

منها: أن فيها إيذاء وإذلالاً للمسؤول عنه وعجباً وبطراً لنفسه.

ومنها أنها تفتح باب التعمق، وإنما الصواب ما كان عند الصحابة والتابعين أن يوقف على ظاهر السنة، وما هو بمنزلة الظاهر من الإيمان والاقتضاء والفحوى، ولا يمعن جداً وألا يقتحم في الاجتهاد حتى يضطر

إليه، وتقع الحادثة فإن الله يفتح عند ذلك^(١) العلم عناية منه بالناس، وأما تهيته من قبل فمظنة الغلط.

من يحرم عليهم الخوض في القرآن:

قوله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده في النار» - أقول: يحرم الخوض في التفسير لمن لا يعرف اللسان الذي نزل القرآن به والمأثور عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين من شرح غريب وسبب نزول وناسخ ومنسوخ.

قوله ﷺ: «المراء في القرآن كفر»^(٢) أقول: يحرم الجدل في القرآن وهو أن يرد الحكم المنصوص بشبهة يجدها في نفسه.

قوله ﷺ: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض» أقول: يحرم التدارؤ^(٣) بالقرآن، وهو أن يستدل واحد بآية، فيرده آخر بآية أخرى طلباً لإثبات مذهب نفسه، وهدم وضع صاحبه، أو ذهاباً إلى نصرته مذهب بعض الأئمة على مذهب بعض، ولا يكون جامع المهمة على ظهور الصواب والتدارؤ بالسنة، مثل ذلك.

لكل آية ظهر وبطن:

قوله ﷺ: «لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع» أقول أكثر ما في القرآن بيان صفات الله تعالى وآياته، والأحكام والقصص والاحتجاج على الكفار والموعظة بالجنة والنار - فالظهر - الإحاطة بنفس ما سيق الكلام له والبطن في آيات الصفات التفكير في آلاء الله والمراقبة، وفي آيات الأحكام الاستنباط بالإيماء والإشارة والفحوى والاقتضاء كاستنباط

(١) أي الوقوع.

(٢) المراء: ماري مراء ومعاراة: جادل ونازع ولاج. والمرية: الجدل.

(٣) التدارؤ: التدافع.

علي رضي الله عنه من قوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(١).

أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر لقوله: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾^(٢).

وفي القصص معرفة مناط الثواب والمدح أو العذاب والذم، وفي العظة رقة القلب وظهور الخوف والرجاء وأمثال ذلك ومطلع كل حد الاستعداد الذي به يحصل ك معرفة اللسان والآثار وكلطف الذهن واستقامة الفهم.

قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾^(٣).

أقول الظاهر أن المحكم ما لم يحتمل إلا وجهاً واحداً مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾^(٤).

والمتشابه ما احتمل وجوهاً، إنما المراد بعضها كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾^(٥).

حملها الزائغون على إباحة الخمر ما لم يكن بغي أو إفساد في الأرض، والصحيح حملها على شاربها قبل التحريم.

الأعمال بالنيات:

قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» أقول: النية القصد والعزيمة، والمراد ههنا العلة الغائية التي يتصورها الإنسان، فيبعثه على العمل مثل

(١) سورة الأحقاف/ الآية ١٥ . (٢) سورة البقرة/ الآية ٢٣٣ .

(٣) سورة آل عمران/ الآية ٧ - محكمات: واضحات الدلالة - هن أم الكتاب: أصله المعتمد في الأحكام وأخر متشابهات: لا نفهم معانيها كأوائل السور.

(٤) سورة النساء/ الآية ٢٣ - حرمت عليكم أمهاتكم: أي زواجهن.

(٥) سورة المائدة/ الآية ٩٣ .

طلب ثواب من الله أو طلب رضا الله، والمعنى ليس للأعمال أثر في تهذيب النفس وإصلاح عوجها إلا إذا كانت صادرة من تصور مقصد مما يرجع إلى التهذيب دون العادة وموافقة الناس أو الرياء والسمعة أو قضاء جبلة، كالقتال من الشجاع الذي لا يستطيع الصبر عن القتال، فلولا مجاهدة الكفار لصرف هذا الخلق في قتال المسلمين، وهو ما سئل النبي ﷺ «الرجل يقاتل رياء ويقاتل شجاعة فأيهما في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» والفقهاء في ذلك أن عزيمة القلب روح والأعمال أشباح لها.

حكم المتشابهات :

قوله ﷺ: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» أقول قد تتعارض الوجوه في المسألة، فتكون السنة حينئذ الاستبراء والاحتياط، فمن التعارض أن تختلف الرواية تصريحاً كمس الذكر، هل ينقض الوضوء، أثبتة البعض، ونفاه الآخرون، ولكل واحد حديث يشهد له، وكالنكاح للمحرم سوغه^(١) طائفة، ونفاه آخرون، واختلفت الرواية.

ومنه أن يكون اللفظ المستعمل في ذلك الباب غير منضبط المعنى يكون معلوماً بالقسمة والمثال، ولا يكون معلوماً بالحد الجامع المانع، فيخرج ثلاث مواد، مادة يطلق عليه اللفظ يقيناً، ومادة لا يطلق عليها يقيناً، ومادة لا يدري هل يصح الإطلاق عليها أم لا.

ومنه أن يكون الحكم منوطاً يقيناً بعلة هي مظنة لمقصد يقيناً، ويكون نوع لا يوجد فيه المقصد، ويوجد فيه العلة كالأمة المشترية ممن لا يجمع مثله، هل يجب استبرأؤها؟ فهذه وأمثالها يتأكد الاحتياط فيها.

(١) أي جوزة.

نزل القرآن على خمسة وجوه:

قوله ﷺ: «نزل القرآن على خمسة وجوه، حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال» أقول: هذه الوجوه أقسام للكتاب ولو بتقسيمات شتى، فلا جرم ليس فيها تمنع حقيقي، فالحكم يكون تارة حلالاً وأخرى حراماً، ومن أصول الدين ترك الخوض بالعقل في المتشابهات من الآيات والأحاديث، ومن ذلك أمور كثيرة لا يدرى أأريد حقيقة الكلام أم أقرب مجاز إليها؟ وذلك فيما لم تجمع عليه الأمة، ولم ترتفع فيه الشبهة والله أعلم.

من أبواب الطهارة

اعلم أن الطهارة على ثلاثة أقسام: طهارة من الحدث، وطهارة من النجاسة المتعلقة بالبدن أو الثوب أو المكان، وطهارة من الأوساخ الثابتة من البدن كشعر العانة والأظفار والدرن.

الطهارة من الأحداث:

أما الطهارة من الأحداث فمأخوذة من أصول البر، والعمدة في معرفة الحدث، وروح الطهارة وجدان أصحاب النفوس التي ظهرت فيها أنوار ملكية، فأحسن بمنافرتها^(١) للحالة التي تسمى حدثاً، وسرورها وانسراحها في الحالة التي تسمى طهارة، وفي تعيين هيئات الطهارة وموجباتها ما اشتهر في الملل السابقة من اليهود والنصارى والمجوس وبقايا الملل الإسماعيلية، فكانوا يجعلون الحدث على قسمين، والطهارة على ضربين - كما ذكرنا من قبل - .

الطهارة الكبرى:

وكان الغسل من الجنابة سنة سائرة في العرب فوزع النبي ﷺ قسماً

(١) منافرة: مضادة مبتعدة.

الطهارة على نوعي الحدث، فجعل الطهارة الكبرى بإزاء الحدث الأكبر لأنه أقل وقوعاً وأكثر لوثاً وأحوج إلى تنبيه النفس بعمل شاق قلما يفعل مثله.

الطهارة الصغرى:

والطهارة الصغرى بإزاء الحدث الأصغر لأنه أكثر وقوعاً وأقل لوثاً ويكفيه التنبيه في الجملة.

والأمور التي فيها معنى الحدث كثيرة جداً يعرفها أهل الأذواق السليمة... لكن الذي يصلح أن يخاطب به الناس كافة ما هو منضبط بأمور محسوسة ظاهرة الأثر في النفس لتمكن المؤاخذة به جهرة، فلذلك تعين ألا يدار الحكم على اشتغال النفس بما يختلج^(١) في المعدة، ولكن يدار على خروج شيء من السبيلين فإن الأول غير مضبوط المقدار وإذا تمكن لا يرفعه الضوء من خارج، والثاني معلوم بالحس، وأيضاً فلمعنى انقباض النفس فيه شبح محسوس وخليقة ظاهرة وهي التلطح بالنجاسة، وأيضاً إنما يؤثر الضوء عند زوال اشتغال النفس وذلك بالخروج، وقد نبه النبي ﷺ في قوله: «لا يصل أحدكم وهو يدافع الأخبثين»^(٢). إن نفس الاشتغال فيه معنى من معاني الحدث.

الأمور التي فيها معنى الطهارة:

والأمور التي فيها معنى الطهارة كثيرة كالتطيب والأذكار المذكرة لهذه الخلة كقوله: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» وقوله: «اللهم نقني من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس»^(٣) والحلول بالمواضع المباركة ونحو ذلك، لكن الذي يصلح أن يخاطب به جماهير الناس ما يكون منضبطاً متيسراً لهم كل حين وكل مكان. والذي يحس أثره

(١) يختلج: يضطرب يتحرك.

(٢) الأخبثين: البول والغائط.

(٣) الدنس: النجاسة.

بادي الرأي ، والذي جرى عليه طوائف الأمم .

الوضوء :

وأصل الوضوء غسل الأطراف ، فضبط^(١) الوجه واليدين - إلى المرفقين - لأن دون ذلك لا يحس أثره ، والرَّجْلين - إلى الكعبين - لأن دون ذلك ليس بعضو تام ، وجعل وظيفة الرأس المسح لأن غسله نوع من الحرج .

وأصل الغسل تعميم البدن بالغسل .

أصل موجب الوضوء وموجب الغسل :

وأصل موجب الوضوء الخارج من السبيلين وما سوى ذلك محمول عليه .

وأصل موجب الغسل الجماع والحيض ، وكان هذين الأمرين كانا مُسَلِّمِينَ في العرب قبل النبي ﷺ ، وأما القسمان الآخران من الطهارة فمأخوذان من الارتفاقات فإنهما من مقتضى أصل طبيعة الإنسان لا ينفك عنهما قوم ولا ملة ، والشارع اعتمد في ذلك على ما عند العرب القح^(٢) من الرفاهية المتوسطة كما اعتمد عليه في سائر ما ضبط من الارتفاقات فلم يزد النبي ﷺ على تعيين الآداب وتمييز المشكل وتقدير المبهم .

فصل في الوضوء

قال النبي ﷺ : «الطهور شطر^(٣) الإيمان» .

أقول : المراد بالإيمان ههنا حياة نفسانية مركبة من نور الطهارة

(٢) أي الخالص .

(١) أي الشارع .

(٣) الشطر: نصف .

والإخبات، والإحسان أوضح منه في هذا المعنى، ولا شك أن الطهور شرطه.

قوله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياها من جسده حتى تخرج من أظفاره» أقول: النظافة المؤثرة في جذر النفس، تقُدس النفس، وتلحقها بالملائكة، وتنسي كثيراً من الحالات الدنسية^(١) فجعلت خاصيتها خاصية للوضوء الذي هو شبحها ومظنتها وعنوانها.

قوله ﷺ: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً^(٢) محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» وقوله ﷺ: «تبلغ الحلية^(٣) من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» أقول لما كان شبح الطهارة ما يتعلق بالأعضاء الخمسة تمثل تنعم النفس بها حلية لتلك الأعضاء وغرة وتحجلاً كما يتمثل الجبن وبراً والشجاعة أسداً.

قوله ﷺ: «لا يحافظ^(٤) على الوضوء إلا مؤمن^(٥)» أقول: لما كانت المحافظة عليه شاقة لا تتأتى إلا ممن كان على بصيرة من أمر الطهارة موقناً بنفعها الجسيم جعلت علامة الإيمان.

صفة الوضوء

صفة الوضوء على ما ذكره عثمان وعلي وعبد الله بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم عن النبي ﷺ بل تواتر عنه ﷺ وتطابق عليه الأمة أن يغسل

(١) الدنسية: الوسخية.

(٢) الغر جمع الأغر وهو الأبيض الوجه، والمحجل من الخيل التي قوائمها بيض، والمعنى أنهم إذا دعوا على رؤوس الأشهاد أو إلى الجنة كانوا على هذه الصفة، والمراد بإطالة الغرة إيصال الماء أكثر من محل الفرض.

(٣) أي البياض، وقيل: زينة الجنة.

(٤) أي يداوم.

(٥) أي كامل الإيمان.

يديه قبل إدخالهما الإناء، ويتمضمض، ويستنشق^(١)، ويستنشق، فيغسل وجهه فذراعيه إلى المرفقين، فيمسح برأسه، فيغسل رجليه إلى الكعبين.

ولا عبرة بقوم تجارت بهم الأهواء، فأنكروا غسل الرجلين متمسكين بظاهر الآية، فإنه لا فرق عندي بين من قال بهذا القول وبين من أنكر غزوة بدر أو أحد مما هو كالشمس في رابعة النهار.

نعم من قال بأن الاحتياط الجمع بين الغسل والمسح أو أن أدنى الفرض المسح، وإن كان الغسل مما يلام أشد الملامة على تركه فذلك أمر يمكن أن يتوقف فيه العلماء حتى تنكشف فيه جلية الحال.

ولم أجد في رواية صحيحة تصريحاً بأن النبي ﷺ توضأ بغير مضمضة واستنشاق وترتيب، فهي متأكدة في الوضوء غاية الوكادة، وهما طهارتان مستقلتان من خصال الفطرة ضمناً مع الوضوء ليكون ذلك توقيتاً لهما، ولأنهما من باب تعهد المغابن^(٢)، والوصل بينهما أصح من الفصل.

معاني آداب الوضوء:

وآداب الوضوء ترجع إلى معانٍ: (منها): تعهد المغابن التي لا يصل إليها الماء إلا بعناية^(٣) كالمضمضة والاستنشاق وتخليل أصابع اليدين والرجلين واللحية وتحريك الخاتم.

ومنها: إكمال التنظيف كثلث الغسل وكالإسباغ - وهو إطالة الغرة - والتحجيل والإنقاء - وهو الدلك - ومسح الأذنين مع الرأس والوضوء على الوضوء.

(١) الاستنثار: إخراج ماء الأنف والاستنشاق جذب الماء بالنفس إلى الأقصى.

(٢) المغابن: مكاسر الجلد والأماكن التي يتجمع فيها الوسخ.

(٣) أي بمسقة.

ومنها: موافقة عاداتهم في الأمور المهمة كالبداءة بالإيمان، فإن اليمين أقوى وأولى، فكان أحق بالبداءة فيما كان بهما، واختصاصه بالطيبات والمحاسن دون أضرارها فيما كان بإحدهما.

ومنها ضبط فعل القلب بألفاظ صريحة في المراد، وضم الذكر اللساني مع القلب.

ذكر الله مع الوضوء:

قوله ﷺ: «لا وضوء لمن لم يذكر الله». أقول: هذا الحديث لم يجمع أهل المعرفة بالحديث على تصحيحه وعلى تقدير صحته، فهو من المواضع التي اختلف فيها طريق التلقي من النبي ﷺ، فقد استمر المسلمون يحكون وضوء النبي ﷺ، ويعلمون الناس، ولا يذكرون التسمية حتى ظهر زمان أهل الحديث، وهو نص على أن التسمية ركن أو شرط.

ويمكن أن يجمع بين الوجهين بأن المراد هو التذكر بالقلب، فإن العبادات لا تقبل إلا بالنية، وحينئذ يكون صيغة لا وضوء على ظاهرها، نعم التسمية أدب كسائر الآداب لقوله ﷺ: «كل أمر ذي بال لم يبدأ باسم الله فهو أبتر»^(١) وقياساً على مواضع كثيرة، ويحتمل أن يكون المعنى لا يكمل الوضوء لكن لا يرتضي مثل هذا التأويل، فإنه من التأويل البعيد الذي يعود بالمخالفة على اللفظ.

قوله ﷺ: «فإنه لا يدري أين باتت يده».

أقول: معناه أن بعد العهد بالتطهر والغفلة عنهما ملياً^(٢) مظنة لوصول النجاسة والأوساخ إليهما، مما يكون إدخال الماء معه تنجيساً له

(١) البال: الحال والشأن. وأمر ذو بال أي أمر شريف يحتفل به ويهتم. فهو أبتر: أي مقطوع والمقصود مقطوع الثواب والبركة.

(٢) أي زماناً طويلاً.

أو تكديراً وشناعة، وهو علة النهي عن النفخ في الشراب.

قوله ﷺ: «فإن الشيطان يبيت على خيشومه» أقول: معناه أن اجتماع المخاط والمواد الغليظة في الخيشوم سبب لتبليد الذهن وفساد الفكر، فيكون أمكن لتأثير الشيطان بالوسوسة وصدده عن تدبر الأذكار:

قوله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ، فيبلغ الوضوء، ثم يقول: أشهد^(١) إلخ - وفي رواية - اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء».

أقول: روح الطهارة لا يتم إلا بتوجه النفس إلى عالم الغيب واستفراغ الجهد^(٢) في طلبها، فضبط لذلك ذكراً ورتب عليه ما هو فائدة الطهارة الداخلة في جذر النفس.

التقصير في الوضوء محرم:

قوله ﷺ لمن لم يستوعب: «ويل للأعقاب من النار» أقول: السر فيه أن الله تعالى لما أوجب غسل هذه الأعضاء، اقتضى ذلك^(٣) أن يحقق معناه؛ فإذا غسل بعض العضو، ولم يستوعب كله لا يصح أن يقال: غسل العضو، وأيضاً فيه سد باب التهاون وإنما تخللت النار في الأعقاب لأن تراكم الحدث والإصرار على عدم إزالته خصلة موجبة للنار، والطهارة موجبة للنجاة منها وتكفير الخطايا، فإذا لم يحقق معنى الطهارة في عضو، وخالف حكم الله فيه كان ذلك سبب أن يظهر تألم النفس بالخصلة الموجبة لفساد النفس من قبل هذا العضو، والله أعلم.

(١) أي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

(٢) استفراغ الجهد: بذل غاية الجهد والطاقة.

(٣) أي الإيجاب.

موجبات الوضوء

قوله ﷺ: «لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ» وقوله ﷺ: «لا تقبل صلاة بغير طهور» وقوله ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور»، أقول: كل ذلك تصريح باشتراط الطهارة، والطهارة طاعة مستقلة وقتت بالصلاة لتوقف فائدة كل واحدة منهما على الأخرى، وفيه تعظيم أمر الصلاة التي هي من شعائر الله.

موجبات اجتمع عليها الصحابة:

وموجبات الوضوء في شريعتنا على ثلاث درجات: (إحداها): ما اجتمع عليه جمهور الصحابة، وتطابق فيه الرواية، والعمل الشائع وهو البول والغائط والريح والمذي والنوم الثقيل وما في معناها.

قوله ﷺ: «وكاء السه^(١) العينان» وقوله ﷺ: «فإنه إذا اضطجع استرخت مفاصله». أقول: معناه أن النوم الثقيل مظنة لاسترخاء الأعضاء وخروج الحدث، وأرى أن مع ذلك له سبب آخر، هو أن النوم يبذل النفس، ويفعل فعل الأحداث.

قوله ﷺ في المذي: «يغسل ذكره، ويتوضأ». أقول: لا شك أن المذي الحاصل من الملاعبة قضاء شهوة دون شهوة الجماع، فكان من حقه أن يستوجب طهارة دون الطهارة الكبرى.

قوله ﷺ في الشاك: «لا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً». أقول: معناه حتى يستيقن لما أدير الحكم على الخارج من السبيلين كان ذلك مقتضياً أن يميز بين ما هو في الحقيقة وبين ما هو

(١) الوكاء ما يشد به رأس الكيس وغيره، والسه الاست، وأصله سته فحذفت التاء، والعينان كناية عن اليقظة، والمعنى أن اليقظة سبب لعدم خروج شيء من الدبر فإذا نام استرخت رؤوس العظام والعروق فلا يخلو عن خروج شيء عادة.

مشتبه به وليس هو، والمقصود^(١) نفي التعمق.

موجبات اختلف فيها السلف والصحابة:

والثانية: ما اختلف فيه السلف من فقهاء الصحابة والتابعين وتعارض فيه الرواية عن النبي ﷺ كمس الذكر لقوله ﷺ: «من مس ذكره فليتوضأ» قال به ابن عمر وسالم وعروة^(٢) وغيرهم، ورده علي وابن مسعود وفقهاء الكوفة ولهم قوله ﷺ^(٣): «هل هو إلا بضعة^(٤) منه»، ولم يجيء الثلج^(٥) بكون أحدهما منسوخاً.

ولمس المرأة قال به عمر وابن عمر وابن مسعود وإبراهيم لقوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(٦).

ولا يشهد له حديث بل يشهد حديث عائشة^(٧) بخلافه لكن فيه نظر لأن في إسناده انقطاعاً، وعندني أن مثل هذه العلة^(٨) إنما تعتبر في مثل ترجيح أحد الحديثين على الآخر، ولا تعتبر في ترك حديث من غير تعارض والله أعلم.

وكان عمر وابن مسعود لا يريان التيمم عن الجنابة فتعين حمل الآية عندهما على اللمس لكن صح التيمم عنها عن عمران^(٩) وعمار وعمرو بن

(١) أي التشدد.

(٢) عروة: هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، ولد في خلافة عثمان بن عفان، روى

الحديث عن كثير من الصحابة وتفقه بخالته عائشة وكان عارفاً بالسيرة حافظاً ثبتاً روى عنه

الزهري وأبو الزناد وغيرهما من علماء المدينة. توفي عام ٩٤ هـ.

(٣) لما سئل ﷺ عن مس الرجل ذكره بعدما توضأ قال: «وهل هو» إلخ.

(٤) أي قطعة لحم.

(٥) سورة المائدة/ الآية ٦.

(٦) قالت: كان النبي ﷺ يقبل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ وقد صح الحديث.

(٨) أي الانقطاع.

(٩) عمران: هو عمران بن حصين الخزاعي من أفاضل الصحابة مات بالبصرة عام ٥٢ هـ.

العاص، وانعقد عليه الإجماع، وكان ابن عمر يذهب إلى الاحتياط، وكان إبراهيم يقلد ابن مسعود حتى وضع على أبي حنيفة حال الدليل الذي تمسك به ابن مسعود، فترك قوله مع شدة اتباعه مذهب إبراهيم، وبالجملة فجاء الفقهاء من بعدهم في هذين^(١) على ثلاث طبقات: أخذ به على ظاهره، وتارك له رأساً، وفارق بين الشهوة وغيرها.

وقال إبراهيم بالوضوء من الدم السائل والقيء الكثير، والحسن بالوضوء من القهقهة في الصلاة، ولم يقل بذلك آخرون، وفي كل ذلك حديث لم يجمع أهل المعرفة بالحديث على تصحيحه، والأصح في هذه أن من احتاط فقد - استبرأ لدينه وعرضه - ومن لا فلا سبيل عليه في صراح الشريعة.

ولا شبهة أن لمس المرأة مهيج للشهوة مظنة لقضاء شهوة دون شهوة الجماع وأن مس الذكر فعل شنيع، ولذلك جاء النهي عن مس الذكر بيمينه في الاستنجاء، فإذا كان قبضاً عليه كان من أفعال الشياطين لا محالة، والدم السائل والقيء الكثير ملوثان للبدن مبلدان للنفس، والقهقهة في الصلاة خطيئة تحتاج إلى كفارة، فلا عجب أن يأمر الشارع بالوضوء من هذه، ولا عجب ألا يأمر، ولا عجب أن يرغب فيه من غير عزيمة.

موجبات فيها شبهة من لفظ الحديث:

والثالثة^(٢) ما وجد فيه شبهة من لفظ الحديث وقد أجمع الفقهاء من الصحابة والتابعين على تركه كالوضوء مما مسته النار فإنه ظهر عمل النبي ﷺ والخلفاء وابن عباس وأبي طلحة وغيرهم بخلافه، وبين جابر أنه منسوخ، وكان السبب في الوضوء منه أنه ارتفاق كامل لا يفعل مثله

(١) أي المس واللمس.

(٢) أي من موجبات الوضوء.

الملائكة، فيكون سبباً لانقطاع مشابھتهم، وأيضاً فإن ما يطبخ بالنار يذكر نار جهنم، ولذلك نُهي عن الكي^(١) إلا لضرورة فلذلك لا ينبغي للإنسان أن يشغل قلبه به.

الوضوء من لحوم الإبل:

أما^(٢) لحم الإبل - فالأمر فيه أشد - لم يقل به أحد من فقهاء الصحابة والتابعين ولا سبيل إلى الحكم بنسخه، فلذلك لم يقل به من يغلب عليه التخريج، وقال به أحمد وإسحاق، وعندني أنه ينبغي أن يحتاط فيه الإنسان والله أعلم.

والسر في إيجاب الوضوء من لحوم الإبل على قول من قال به أنها كانت محرمة في التوراة، واتفق جمهور أنبياء بني إسرائيل على تحريمها، فلما أباحها الله لنا شرع الوضوء منها لمعنيين، أحدهما: أن يكون الوضوء شكراً لما أنعم الله علينا من إباحتها بعد تحريمها على من قبلنا، وثانيهما: أن يكون الوضوء علاجاً لما عسى أن يختلج في بعض الصدور من إباحتها بعد ما حرمها الأنبياء من بني إسرائيل، فإن النقل من التحريم إلى كونه مباحاً يجب منه الوضوء أقرب لاطمئنان نفوسهم، وعندني أنه كان في أول الإسلام ثم نسخ.

المسح على الخفين

لما كان مبنى الوضوء على غسل الأعضاء الظاهرة التي تسرع إليها الأوساخ، وكانت الرجلان تدخلان عند لبس الخفين في الأعضاء الباطنة،

(١) الكي: هو تحمية حديدة ووضعها على مكان المرض أو حيث يظن أنه مصدره. والكي كان علاجاً قديماً خطراً ولهذا كان يلجأ إليه عند الضرورة القصوى ولهذا قيل في المثل: آخر الدواء الكي.

(٢) أي القسم الثالث من موجبات الوضوء.

وكان لبسهما عادة متعارفة عندهم، ولا يخلو الأمر بخلعهما عند كل صلاة من حرج سقط غسلهما عند لبسهما في الجملة.

ولما كان من باب التيسير الاحتياال بما لا يترسل معه النفس بترك المطلوب استعمله الشارع ههنا من رجوع ثلاثة^(١):

أحدها: التوقيت بيوم وليلة للمقيم، وثلاثة أيام ولياليها للمسافر لأن اليوم بليلة مقدار صالح للتعهد يستعمله الناس في كثير مما يريدون تعهده، وكذلك ثلاثة أيام بلياليها فوزع المقداران على المقيم والمسافر لمكانهما من الحرج.

والثاني: اشتراط أن يكون لبسهما على طهارة ليمثل بين عيني المكلف أنهما كالباقي على الطهارة قياساً على قلة وصول الأوساخ إلى الأعضاء المستورة، وأمثال هذه القياسات مؤثرة فيما يرجع إلى تنبيه النفس.

والثالث: أن يمسح على ظاهرهما عوض الغسل إبقاء لمذكر ونموذج. وقال علي رضي الله عنه: لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه.

أقول: لما كان المسح إبقاء لنموذج الغسل لا يراد منه إلا ذلك، وكان أسفل مظنة لتلويث الخفين عند المشي في الأرض كان المسح على ظاهرهما دون باطنهما معقولاً موافقاً بالرأي، وكان رضي الله عنه من أعلم الناس بعلم معاني الشرائع كما يظهر من كلامه وخطبه، لكن أراد أن يسد مدخل الرأي لئلا يفسد العامة على أنفسهم دينهم.

(١) هكذا وجد بالأصل ولعلها وجوه.

صفة الغسل

على ما روته عائشة وميمونة، وتطابق عليه الأمة أن يغسل يديه قبل إدخالهما الإناء، ثم يغسل ما وجد من نجاسة على بدنه وفرجه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ويتعهد رأسه بالتخليل، ثم يصب الماء على جسده، واختلفوا في حرف واحد يؤخر غسل القدمين أو لا؟ وقيل بالفرق بين ما إذا كان في مستنقع^(١) من الأرض وما إذا لم يكن كذلك.

أما غسل اليدين فلما مرّ الوضوء.

وأما غسل الفرج فلثلاثا تتكرر النجاسة بإسالة الماء عليها، فيعسر غسلها ويحتاج إلى ماء كثير، وأيضاً لا يصفو الغسل لطهارة الحدث.

سبب الوضوء مع الغسل:

وأما الوضوء فلأن من حق الطهارة الكبرى أن تشتمل على الطهارة الصغرى وزيادة ليتضاعف تنبه النفس لخلّة الطهارة، وأيضاً فالوضوء في الغسل من باب تعهد المغابن فإنه إذا أفاض على رأسه الماء لا يستوعب الأطراف إلا بتعهد واعتناء.

وأما تأخير غسل القدمين فلثلاثا يتكرر غسلهما بلا فائدة اللهم إلا المحافظة على صورة الوضوء، ثم كمل الغسل بالندب إلى التلثيث والدلك وتعهد المغابن وتأکید الستر.

الستر في الغسل واجب:

قوله ﷺ: «إن الله حيي ستير»^(٢) تفسيره قوله: «يحب الحياء والستر» والستر من أعين الناس واجب، وكونه بحيث لو هجم إنسان بالوجه المعتاد لم ير عورته مستحب.

(٢) ستير: صيغة مبالغة من ستر.

(١) أي مقر الماء.

ما يجب على الحائض أثناء الغسل :

قوله ﷺ : «خذي فرصة^(١) من مسك فتطهري بها» يعني تتبعي بها أثر الدم . أقول إنما أمر الحائض بالفرصة الممسكة لمعانٍ منها زيادة الطهارة إذ الطيب يفعل فعل الطهارة وإنما لم يسن في سائر الأوقات احترازاً عن الحرج .

ومنها: إزالة الرائحة الكريهة التي لا يخلو عنها الحيض .

ومنها: أن انقضاء الحيض والشروع في الظهر وقت ابتغاء الولد والطيب يهيج تلك القوة .

واختار الصاع إلى خمسة أمداد للغسل ، والمد للوضوء لأن ذلك مقدار صالح في الأجسام المتوسطة .

تحت كل شعرة جنابة :

قال النبي ﷺ : «تحت كل شعرة جنابة فاغسلوا الشعر وأنقوا البشرة»^(٢) وقوله ﷺ : «من ترك موضع شعرة من الجنابة لم يغسلها فعل بها كذا وكذا» : سر ذلك مثل ما ذكرناه في استيعاب الوضوء من أنه تحقيق لمعنى الغسل ، وأن البقاء على الجنابة والإصرار على ذلك موجبة للنار ، وأنه يظهر تألم النفس من قبل العضو الذي جاء منه الخلل .

موجبات الغسل

قال رسول الله ﷺ : «إذا جلس بين شعبها^(٣) الأربع ، ثم جهدها فقد وجب الغسل وإن لم ينزل» أقول اختلفت الرواية هل يحمل الاكسال أي

(١) فرصة - بكسر الفاء - قطعة من صوف أو قطن أو خرقة تمسح بها المرأة من الحيض .

(٢) أنقى : نظف تنظيفاً جيداً .

(٣) يديها ورجلها ، وقوله : «ثم جهدها» أي جامعها بأن أدخل تمام الحشفة .

الجماع من غير إنزال على الجماع الكامل في معنى قضاء الشهوة أعني ما يكون معه الإنزال .

والذي صح روايته وعليه جمهور الفقهاء هو أن من جهدها فقد وجب عليهما الغسل وإن لم ينزل، واختلفوا في كيفية الجمع بين هذا الحديث وحديث «إنما الماء^(١) من الماء^(٢)» فقال ابن عباس: إنما الماء من الماء للاحتلام، وفيه ما فيه^(٣)، وقال أبي: إنما كان الماء من الماء رخصة أول الإسلام، ثم نهي .

وقد روي عن عثمان وعلي وطلحة^(٤) والزبير^(٥) وأبي بن كعب وأبي أيوب رضي الله عنهم فيمن جامع امرأته ولم يمن قالوا: يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ويغسل ذكره، ورفع ذلك إلى النبي ﷺ، ولا يبعد عندي أن يحمل ذلك على المباشرة الفاحشة، فإنه قد يطلق الجماع عليها .

البلل يوجب الغسل في الاحتلام:

وسئل النبي ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر الاحتلام قال: «يغتسل» وعن الرجل الذي يرى أنه قد احتلم ولا يجد بللاً قال: «لا غسل عليه» .

أقول إنما أدار الحكم على البلل دون الرؤيا لأن الرؤيا تكون تارة

(١) أي ماء الغسل .

(٢) أي من ماء المنى .

(٣) أي ياباه سبب ورود الحديث كما أخرجه مسلم .

(٤) طلحة: هو طلحة بن عبيد الله التميمي، كان من أجلاء الصحابة من المهاجرين الأولين ومن العشرة الكرام ومن أصحاب الشورى ولم يحضرها. تتبع رسول الله يوم أحد وتلقى عنه ضربة شلت يده مات شهيداً عام فتنة الجمل .

(٥) الزبير: هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي كان من أكابر الصحابة ومن العشرة الكرام وأحد أصحاب الشورى كان من الأبطال الشجعان شهد مع الرسول المشاهد والفتوح قتل عام فتنة الجمل سنة ٣٦هـ .

حديث نفس، ولا تأثير له، وقارة تكون قضاء شهوة، ولا تكون بغير بلل، فلا يصلح لإدارة الحكم إلا البلل، وأيضاً فإن البلل شيء ظاهر يصلح للانضباط، وأما الرؤيا فإنها كثيراً ما تنسى.

مدة الطهر والحيض:

ولا شك أن طول مدة الطهر والحيض وقصرها يختلفان باختلاف المزاج والغذاء ونحوهما، ولا يكادان يضبطان بشيء مطرد، فلا جرم أن الأصح هو الرجوع إلى عادتهن، فإذا رأين أنه حيض فهو حيض، وإذا رأين أنه استحاضة فهو استحاضة.

واختلاف الصحابة والتابعين في ذلك منشؤه الاستقراء والتقريب.

حكم المستحاضة:

واستفتت حمنة^(١) في الاستحاضة فأمرها بالكرسف^(٢) والتلجم وخيرها بين أمرين^(٣) إلخ.

أقول الأصل في ذلك أنه ﷺ لما رأى أن الاستحاضة ليست من الأمور الصحية وترك الصلاة فيها يؤدي إلى إهمالها مدة مديدة أراد أن يحملها على الأمر المعروف عندهم فبدأ وجهان:

أحدهما: أنها عرق أي داء خفي المأخذ.. وليست حيضة بمنزلة الرعاف فردها إلى ما كان في الصحة من حيضها وطهرها في كل شهر، ولا بد حينئذ من تمييز الحيضة عن غيرها، إما باللون فالأقوى كالأسود

(١) حمنة بنت جحش.

(٢) الكرسف: القطن، والتلجم شد الخرقة العريضة مثل اللجام أي بان تحشوها بالقطن وتضعها على الفرج وتشد طرفيها في وسطها.

(٣) الأول أن تحيض ستة أيام أو سبعة أيام من كل شهر وتصلي في الأيام الباقية، والثاني أن تؤخر الطهور وتعجل العصر وتغتسل وتجمع بين الصلاتين وهكذا تغتسل للعشاءين وتغتسل للفجر.

للحيض أو بأيامها المعروفة عندها.

والثاني : أنها حيضة فاسدة؛ فلكونها حيضة ينبغي أن تؤمر بالغسل عند كل صلاة وإن تعذر فعند كل صلاتين، ولكونها فاسدة لم تمنع الصلاة - والحكمة في الكرسف والتلجم - أن يلحق الدم بما استقر في مكانه ولا يعدوه، ولثلا يصيب بدنها وثيابها، وأفتى جمهور الفقهاء بالأول إلا عند تعذره.

ما يباح للجنب والمحدث وما لا يباح لهما

لما كان تعظيم شعائر الله واجباً - ومن الشعائر: الصلاة والكعبة والقرآن - وكان أعظم التعظيم ألا يقرب منه الإنسان إلا بطهارة كاملة، وتنبه النفس بفعل مستأنف وجب ألا يقربها إلا متطهر.

يشترط الغسل لقراءة القرآن :

ولم يشترط الوضوء لقراءة القرآن لأن التزام الوضوء عند كل قراءة يخل في حفظ القرآن وتلقيه، ولا بد من فتح هذا الباب والترغيب فيه والتخفيف على من أراد حفظه، ووجب أن يؤكد الأمر في الحدث الأكبر، فلا يجوز نفس القراءة أيضاً^(١).

لا يدخل المسجد جنب :

ولا أن يدخل المسجد جنب أو حائض - لأن المسجد مهياً للصلاة والذكر، وهو من شعائر الإسلام ونموذج الكعبة.

ولم يشترط الطهارة في مجالس النبي ﷺ لأن كل شيء له تعظيم يناسبه وكان بشراً يعزوه من الأحداث والجنابة ما يعرف^(٢) البشر، فكان اشتراط الطهارة في ذلك قلباً للموضوع.

(١) يراجع تحقيق هذا في الجزء الأول من كتاب «فقه السنة».

(٢) يعرف: يصيب.

قال النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب».

أقول المراد أن هذه تنفر منها الملائكة، وأنها أضداد ما فيه الملائكة من الطهارة والتنفر من عبدة الأصنام.

لا ينبغي ترك الطهارة الصغرى:

وقال النبي ﷺ فيمن تصيبه الجنابة من الليل: «توضأ، واغسل ذكرك، ثم نم» أقول لما كانت الجنابة منافية لهيئات الملائكة كان المرضي في حق المؤمن ألا يترسل في حوائجه من النوم والأكل مع الجنابة. إذا تعذرت الطهارة الكبرى لا ينبغي أن يدع الطهارة الصغرى لأن أمرهما واحد غير أن الشارع وزعهما على الحداثين.

التيمم

سبب التيمم إسقاط الحرج:

لما كان من سنة الله في شرائعه أن يسهل عليهم كل ما لا يستطيعونه، وكان أحق أنواع التيسير أن يسقط ما فيه حرج إلى بدل لتطمئن نفوسهم، ولا تختلف الخواطر عليهم بإهمال ما التزموه غاية الالتزام مرة واحدة، ولا يألفوا ترك الطهارات - أسقط الوضوء والغسل في المرض والسفر إلى التيمم.

التيمم مكان الوضوء والغسل:

ولما كان ذلك كذلك نزل القضاء في المأ الأعلى بإقامة التيمم مقام الوضوء والغسل، وحصل له وجود تشبيهي أنه طهارة من الطهارات، وهذا القضاء أحد الأمور العظام التي تميزت بها الملة المصطفوية^(١) من سائر

(١) المصطفوية: نسبة إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام.

الملل، وهو قوله ﷺ: «جعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء».

الأرض خصت بالتيمم:

أقول: إنما خص الأرض لأنها لا تكاد تفقد، فهي أحق ما يرفع به الحرج، ولأنها طهور في بعض الأشياء كالخف والسيف بدلاً عن الغسل بالماء، ولأن فيه تذكيراً بمنزلة تعفير^(١) الوجه في التراب، وهو يناسب طلب العفو، وإنما لم يفرق بين بدل الغسل والوضوء - ولم يشرع التمرغ - لأن من حق ما لا يعقل معناه بادية الرأي أن يجعل كالمؤثر بالخاصية دون المقدار، فإنه هو الذي اطمأنت نفوسهم به في هذا الباب، ولأن التمرغ فيه بعض الحرج، فلا يصلح رافعاً للحرج بالكلية.

وفي معنى المرض البرد الضار - لحديث عمرو بن العاص - والسفر ليس بقيد، إنما هو صورة لعدم وجدان الماء يتبادر إلى الذهن، وإنما لم يؤمر بمسح الرجل بالتراب - لأن الرجل محل الأوساخ - وإنما يؤمر بما ليس حاصلًا ليحصل به التنبه.

صفة التيمم:

أما صفة التيمم فهو أحد ما اختلف فيه طريق التلقي عن النبي ﷺ، فإن أكثر الفقهاء من التابعين وغيرهم قبل أن تمهد طريقة المحدثين على أن التيمم ضربتان، ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين.

وأما الأحاديث فأصحها حديث عمار: «إنما كان يكفيك أن تضرب بيدك الأرض، ثم تنفخ فيهما، ثم تمسح بهما وجهك وكفيك» وروي من حديث ابن عمر «التيمم ضربتان، ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين» وقد روي عمل النبي ﷺ والصحابه على الوجهين، ووجه

(١) تعفير: تغيير.

الجمع ظاهر يرشد إليه لفظ «إنما يكفيك» فالأول^(١) أدنى التيمم والثاني هو السنة.

وعلى ذلك يمكن أن يحمل اختلافهم في التيمم، ولا يبعد أن يكون تأويل فعله ﷺ أنه علم عماراً أن المشروع في التيمم إيصال ما لصق باليدين بسبب الضربة - دون التمرغ، ولم يرد بيان قدر المسموح من أعضاء التيمم ولا عدد الضربة، ولا يبعد أن يكون قوله لعمار أيضاً محمولاً على هذا المعنى، وإنما معناه الحصر بالنسبة إلى التمرغ، وفي مثل هذه المسألة لا ينبغي أن يأخذ الإنسان إلا بما يخرج به من العهدة يقيناً.

التيمم عن الجنابة:

وكان عمر وابن مسعود رضي الله عنهما لا يريان التيمم عن الجنابة، وحملوا الآية على اللمس وأنه ينقض الوضوء، لكن حديث عمران وعمار يشهد بخلاف ذلك، ولم أجد في حديث صحيح تصريحاً بأنه يجب أن يتيمم لكل فريضة، أو لا يجوز التيمم للأبق^(٢) ونحوه، وإنما ذلك من التخريجات.

قوله ﷺ في الرجل المشجوج^(٣): «إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»: فيه أن التيمم هو البدل عن العضو كتمام البدن لأنه كالشيء المؤثر بالخاصية، وفيه الأمر بالمسح لما ذكرنا في المسح على الخفين.

قوله ﷺ: «إن الصعيد الطيب^(٤) وضوء المسلم وإن لم يجد الماء

(١) أي الاقتصار على الضربة الواحدة اهـ، والثاني أي الضربتان.

(٢) الأبق: هو العبد الهارب من خدمة سيده لأن اباقه حرام.

(٣) المشجوج: من أصيب رأسه بجرح بالغ. (٤) الصعيد الطيب: التراب الطاهر.

عشر سنين» أقول: المقصود منه سد باب التعمق، فإن مثله يتعمق فيه المتعمقون ويخالفون حكم الله في الترخيص.

آداب الخلاء

هي ترجع إلى معانٍ :

١ - تعظيم القبلة :

تعظيم القبلة، وهو قوله ﷺ: «إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة، ولا تستدبروها».

وفيه حكمة أخرى، وهي أنه لما كان توجه القلب إلى تعظيم الله أمراً خفياً لم يكن بد من إقامة مظنة ظاهرة مقامه؛ وكانت الشرائع المتقدمة تجعل تلك المظنة الحلول بالصوامع المبنية لله تعالى التي صارت من شعائر الله ودينه، وجعلت شريعتنا المظنة استقبال القبلة والتكبير، فلما جعل الله تعالى استقبال القبلة قائماً مقام توجه القلب إلى تعظيم الله وجمع الخاطر في ذكر الله وكان سبب إقامته أن هذه الهيئة تذكر الله - استنبط النبي ﷺ من هذا الحكم أنه يجب أن يجعل هيئة الاستقبال مختصة بالتعظيم وذلك بالأستعمل في الهيئة المباشرة للصلاة كل المباشرة^(١) - ورؤي استقباله واستدباره - فجمع بتنزيل التحريم على الصحراء والإباحة على البنيان، وجمع بحمل النهي على الكراهية وهو الأظهر.

٢ - الاستنجاء :

ومنها تحقيق معنى التنظيف، فورد النهي عن الاستنجاء بأقل من ثلاثة أحجار - أي ثلاث مسحات - لأنها لا تنقي^(٢) غالباً واستحباب الجمع بين الحجر والماء.

(١) المباشرة: المغيرة.

(٢) تنقي: تنظف.

٣ - الاحتراز عما يضر الناس :

ومنها الاحتراز عما يضر الناس كالتخلي^(١) في ظل الناس وطريقهم ومتحدثهم والماء الدائم والاستنجاء بالعظم لأنه طعام الجن، وكذا سائر ما ينتفع به، وأفهم قوله ﷺ: «اتقوا اللاعنين»^(٢) أن الحكمة الاحتراز^(٣) عن لعنهم وتأذيتهم، أو ما يضر بنفسه كالبول في الجحر، فإنه قد يكون مأوى حية أو مثلها فيخرج ويؤذي.

٤ - اختيار محاسن العادات :

ومنها اختيار محاسن العادات، فلا يتمسح بيمينه، ولا يأخذ ذكره بيمينه، ولا يستنجي برجيع، ويوتر في الاستجمار.

٥ - رعاية الستر :

ومنها: رعاية الستر، فينبغي أن يبعد لثلا يسمع منه صوت، أو يشم منه ريح، أو يرى منه عورة، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض، ويستر بمثل حائش^(٤) نخل مما يوارى أسافل بدنه، فمن لم يجد إلا أن يجمع كثيراً من رمل، فليستدبره فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم^(٥)، وذلك لأن الشيطان جبل على أفكار فاسدة وأعمال شنيعة.

٦ - الاحتراز من الإصابة بالنجاسة :

ومنها الاحتراز من أن يصيب بدنه أو ثوبه نجاسة وهو قوله ﷺ: «إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله»^(٦).

(١) أي التغوط.

(٢) أي التخلي في طريق الناس وفي ظلهم.

(٣) الاحتراز: التوقي.

(٤) حائش النخل جماعة منها أي الملتف المجتمع، وقوله: فليستدبره أي يجعله خلفه.

(٥) أي يحضر أمكنة الاستنجاء ويرصدها بالأذى والفساد.

(٦) قاله لما أراد أن يبول فأتى أرضاً سهلة في أصل جدار فبال ثم قال: «إذا أراد أحدكم الخ =

٧ - تجنب الوسواس :

ومنها: إزالة الوسواس وهو قوله ﷺ: «فلا يبولن أحدكم في مستحمة فإن عامة الوسواس منه»، وقوله ﷺ: «لا تبل قائماً».

أقول: إنما كره البول قائماً لأنه يصيبه الرشاش، ولأنه ينافي الوقار ومحاسن العبادات وهو مظنة انكشاف العورة.

٨ - التعوذ من الخبث والخبائث :

قوله ﷺ: «إن الحشوش^(١) محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء، فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث وإذا خرج من الخلاء قال غفرانك» أقول: يستحب أن يقول عند الدخول اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث لأن الحشوش محتضرة يحضرها الشياطين لأنهم يحبون النجاسة وعند الخروج غفرانك لأنه وقت ترك ذكر الله ومخالطة الشياطين.

٩ - الاستبراء من البول :

قوله ﷺ: «أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول» الحديث^(٢) أقول فيه إن الاستبراء واجب وهو أن يمكث، وينثر حتى يظن أنه لم يبق في قصبة الذكر شيء من البول.

وفيه أن مخالطة النجاسة والعمل الذي يؤدي إلى فساد ذات البين

= أي فيطلب لبوله موضعاً مثل هذا الموضع وهو من الرود بمعنى الطلب والمستحم المغتسل، وقوله: لا تبل قائماً قاله لعمر.

(١) جمع حش وهو الكنيف، وقوله: محتضرة أي يحضرها الجن والشياطين يترصدون بني آدم بالأذى والفساد.

(٢) أول الحديث «مر النبي ﷺ بقبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما، الخ، وتتمام الحديث «وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرز في كل قبر واحدة قالوا: يا رسول الله لِمَ صنعت هذا؟ فقال: لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا».

يوجب عذاب القبر، أما شق الجريدة والغرز في كل قبر فسرّه الشفاعة المقيدة إذا لم تمكن المطلقة لكفرهما.

خصال الفطرة وما يتصل بها

عشر خصال من الفطرة:

قال النبي ﷺ: «عشرة من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء - يعني الاستنجاء - قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة».

أقول: هذه الطهارة منقولة عن إبراهيم عليه السلام متداولة في طوائف الأمم الحنيفية أشربت في قلوبهم، ودخلت في صميم اعتقادهم، عليها محياهم، وعليها مماتهم عصراً بعد عصر، ولذلك سميت بالفطرة وهذه شعائر الملة الحنيفية، ولا بد لكل ملة من شعائر يعرفون بها، ويؤاخذون عليها، ليكون طاعتها وعصيائها أمراً محسوساً، وإنما ينبغي أن يجعل من الشعائر ما كثر وجوده، وتكرر وقوعه، وكان ظاهراً، وفيه فوائد جمة تقبله أذهان الناس أشد قبول.

إزالة شعث الرأس والاهتمام باللحية:

والجملة في ذلك أن بعض الشعور النابتة من جسد الإنسان يفعل فعل الأحداث في قبض الخاطر، وكذا شعث الرأس واللحية وليرجع الإنسان في ذلك إلى ما ذكره الأطباء في الشري^(١) والحكمة وغيرهما من الأمراض الجلدية أنها تحزن القلب وتذهب النشاط.

إعفاء اللحية وقص الشوارب:

واللحية هي الفارقة بين الصغير والكبير وهي جمال الفحول وتمام

(١) على وزن علي بثور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث على الجلد دفعة غالبية.

حياتهم فلا بد من إعفائها، وقصها سنة المجوس، وفيه تغيير خلق الله، ولحوق أهل السؤدد والكبرياء بالرعاع^(١)، ومن طالت شواربه تعلق الطعام والشراب بها، واجتمع فيها الأوساخ وهو من سنة المجوس، وهو قوله ﷺ: «خالفوا المشركين قصوا الشوارب واعفوا اللحي».

مزايا المضمضة والاستنشاق:

وفي المضمضة والاستنشاق والسواك إزالة المخاط والبخر، والغرلة^(٢) عضو زائد يجتمع فيها الوسخ ويمنع الاستبراء من البول وينقص لذة الجماع، وفي التوراة - إن الختان ميسم الله على إبراهيم وذريته - معناه أن الملوك جرت عاداتهم بأن يسموا ما يخصهم من الدواب لتمييز من غيرها والعبيد الذين لا يريدون إعتاقهم، فكذلك جعل الختان ميسماً عليهم، وسائر الشعائر يمكن أن يدخلها تغيير وتدليس، والختان لا يتطرق إليه تغيير إلا بجهد، وانتقاص الماء^(٣) كناية عن الاستنجاء به.

أربع من سنن المرسلين:

قوله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين الحياء - ويروى الختان - والتعطر والسواك والنكاح» أقول: أرى أن هذه كلها من الطهارة فالحياء ترك الوقاحة والبذاء والفواحش، وهي تلوث النفس، وتكدرها، والتعطر يهيج سرور النفس وانشراحها، وينبه على الطهارة تنبيهاً قوياً، والنكاح يطهر الباطن من التوقان إلى النساء ودوران أحاديث تميل إلى قضاء هذه الشهوة.

سنة السواك:

قوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»

(١) بفتح الراء غوغاء الناس وسقاطهم وأخلاطهم جمع رعاة.

(٢) الغرلة: القلفة.

(٣) فسره وكيع بالاستنجاء، وغيره بانتقاص البول بالماء إذا غسل المذاكير به، والماء مفعول الانتقاص لو أريد به البول وفاعله لو أريد به ما يغسل به وهو يجيء لازماً ومتعدياً.

أقول: معناه لولا خوف الحرج لجعلت السواك شرطاً للصلاة كالوضوء، وقد ورد بهذا الأسلوب أحاديث كثيرة جداً وهي دلائل واضحة على أن لاجتهاد النبي ﷺ مدخلاً في الحدود الشرعية، وأنها منوطة بالمقاصد، وأن رفع الحرج من الأصول التي بني عليها الشرائع.

قول الراوي في صفة تسوكه ﷺ يقول: أع أع - كأنه يتهوع^(١) أقول: ينبغي للإنسان أن يبلغ بالسواك أقاصي الفم، فيخرج بلاغم الحلق والصدر، والاستقصاء في السواك يذهب بالقلاع^(٢)، ويصفي الصوت، ويطيب النكهة.

الفصل المسنون:

قوله ﷺ: «حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً، يغسل فيه جسده ورأسه» أقول: هذا يدل على أن الاغتسال في كل سبعة أيام سنة مستقلة شرعت لدفع الأوساخ والأدران^(٣) وتنبيه النفس لصفة الطهارة، وإنما وقت لصلاة الجمعة لأن كل واحدٍ منهما يكمل بالآخر، وفيه تعظم صلاة الجمعة.

اغتسل النبي من أربع:

وكان النبي ﷺ يغتسل من أربع من الجنابة ويسوم الجمعة ومن الحجامة^(٤) ومن غسل الميت.

أقول: أما الحجامة فلأن الدم كثيراً ما ينتشر على الجسد، ويتعسر

(١) من الهوع وهو القيء أي يتقيأ، والمراد أنه ﷺ يبلغ في السواك حتى يوصله أقصى الحلق.

(٢) القلاع: داء يُصيب الفم.

(٣) الأدران: جمع درن وهو الوسخ.

(٤) الحجامة: افتعال جرح في الجسد لاستخراج الدم الزائد. وكانت الحجامة تستعمل علاجاً لبعض الأمراض أو تنشيطاً للجسم الصحيح.

غسل كل نقطة على حذتها ولأن المص بالملازم جاذب للدم من كل جانب، فلا يفيد نقص الدم من العضو، والغسل يزيل السيلان، ويمنع انجذابه.

وأما غسل الميت فلأن الرشاش ينتشر في البدن، وجلست عند محتضر، فرأيت أن الملائكة الموكلة بقبض الأرواح لها نكاية عجيبة في أرواح الحاضرين ففهمت أنه لا بد من تغيير الحالة لتتنبه النفس لمخالفها.

أمر ﷺ من أسلم بأن يغتسل بماء وسدر^(١)؛ وقال الآخر: «ألق عنك شعر الكفر».

أقول سره أن يتمثل عنده الخروج من شيء أصرح ما يكون، والله أعلم.

أحكام المياه

النهي عن البول في الماء الراكد:

قوله ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه».

أقول: معناه النهي عن كل واحد من البول في الماء والغسل فيه مثل حديث: «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عن عورتها يتحدثان فإن الله يمقت على ذلك» ويبين ذلك رواية النهي عن البول في الماء فقط ورواية أخرى في النهي عن الاغتسال فقط والحكمة أن كل واحد منهما لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يغير الماء بالفعل، أو يفضي إلى التغيير بأن يراه الناس يفعل، فيتتابعوا، وهو بمنزلة اللاعنين^(٢) اللهم إلا أن يكون

(١) السدر: مادة تستخدم مع الماء عند الغسل وهي تستخرج من شجر السدر (النبق).

(٢) أي اللذين ورد ذكرهما في حديث «اتقوا اللاعنين» يعني الأمرين الجالبين للجنة وهما التخلي في الظل والطريق.

الماء مستبحراً أو جارياً^(١) والعفاف أفضل كل حال .

حكم الماء المستعمل :

وأما الماء المستعمل فما كان أحد من طوائف الناس يستعمله في الطهارة، وكان كالمهجور المطرود فأبقاه النبي ﷺ على ما كان عندهم، ولا شك أنه طاهر .

قوله ﷺ: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً»^(٢) .

أقول: معناه لم يحمل خبثاً معنوياً إنما يحكم به الشرع دون العرف والعادة، فإذا تغير أحد أوصافه بالنجاسة، وفحشت النجاسة كما أو كيفاً، فليس مما ذكر .

القلتان حدّ فاصل بين الكثير والقليل :

وإنما جعل القلتين حدّاً فاصلاً بين الكثير والقليل لأمر ضروري لا بد منه، وليس تحكماً ولا جزافاً - وكذا سائر المقادير الشرعية - وذلك أن للماء محلين معدن وأوان، أما المعدن فالآبار والعيون، ويلحق بها الأودية، وأما الأواني فالقرب والقلال والجفان^(٣) والمخاضب والأدوة .

وكان المعدن يتضررون بتنجسه، ويقاسون الحرج في نزحه، وأما الأواني فتملاً في كل يوم ولا حرج في إراقته، والمعادن ليس لها غطاء، ولا يمكن سترها من روث الدواب وولغ السباع، وأما الأواني فليس في تغطيتها وحفظها كثير حرج اللهم إلا من الطوافين والطوافات .

والمعدن كثير غزير لا يؤثر فيه كثير من النجاسات بخلاف الأواني،

(١) وقد ورد النهي عن البول في الماء الجاري أيضاً .

(٢) خبث: فساد وكل شيء مستقدر .

(٣) جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة، والمخاضب جمع مخضب بالكسر وهو إجانة تغسل فيها الثياب والأدوة بالكسر إناء صغير من جلد يتخذ للماء .

فوجب أن يكون حكم المعدن غير حكم الأواني ، وأن يرخص في المعدن ما لا يرخص في الأواني ، ولا يصلح فارقاً بين حد المعدن وحد الأواني إلا القلتان لأن ماء البشر والعين لا يكون أقل من القلتين ألبتة وكل ما دون القلتين من الأودية لا يسمى حوضاً ولا جوبة ، وإنما يقال له حفيرة .

أنواع القلل :

وإذا كان قدر قلتين في مستوٍ من الأرض يكون غالباً سبعة أشبار ، وذلك أدنى الحوض ، وكان أعلى الأواني القلة ولا يعرف أعلى منها عندهم أية ، وليست القلال سواء : فقلة عندهم تكون قلة ونصفاً ، وقلة وربعاً ، وقلة وثلاثاً ، ولا تعرف قلة تكون كقلتين فهذا حد لا تبلغه الأواني ، ولا ينزل منه المعدن ، فضرب حداً فاصلاً بين الكثير والقليل .

بعض الفقهاء لم يقل بالقلتين :

ومن لم يقل بالقلتين اضطر إلى مثلهما في ضبط الماء الكثير - كالمالكية - والرخصة في آبار الفلوات من نحو أبعاد الإبل فمن هنا ينبغي أن يعرف الإنسان أمر الحدود الشرعية فإنها نازلة على وجه ضروري لا يجدون منه بدأ ، ولا يجوز العقل غيرها .

معنى قوله عليه السلام « الماء الطهور » :

قوله ﷺ : « الماء طهور لا ينجسه شيء » وقوله ﷺ : « الماء لا يجنب » وقوله ﷺ : « المؤمن لا ينجس » ومثله ما في الأخبار من أن البدن لا ينجس والأرض لا تنجس .

أقول : معنى ذلك كله يرجع إلى نفي نجاسة خاصة تدل عليه القرائن الحالية والقالية فقوله : « الماء لا ينجس » معناه المعادن لا تنجس بملاقاة النجاسة إذا أخرجت ، ورميت ، ولم يتغير أحد أوصافه ، ولم تفحش ، والبدن يغسل ، فيطهر ، والأرض يصيبها المطر والشمس ، وتدلّكها الأرجل

فتطهر، وهل يمكن أن يظن بيثر بضاعة أنها كانت تستقر فيها النجاسات؟! كيف وقد جرت عادة بني آدم بالاجتناب عما هذا شأنه، فكيف يستقي بها رسول الله ﷺ؟ بل كانت تقع فيها النجاسات من غير أن يقصد إلقاؤها كما تشهد من آبار زماننا، ثم تخرج تلك النجاسات، فلما جاء الإسلام سألوا عن الطهارة الشرعية الزائدة على ما عندهم، فقال رسول الله ﷺ: «الماء طهور لا ينجسه شيء» يعني لا ينجس نجاسة غير ما عندكم، وليس هذا تأويلاً ولا صرفاً عن الظاهر بل هو كلام العرب فقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوجِي إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ﴾ الآية (١).

معناه مما اختلفتم فيه، وإذا سئل الطبيب عن شيء فقال لا يجوز استعماله عرف أن المراد نفي الجواز باعتبار صحة البدن، وإذا سئل فقيه عن شيء فقال لا يجوز عرف أنه يريد نفي الجواز الشرعي، قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ (٣).

فالأول في النكاح والثاني في الأكل قوله ﷺ: «لا نكاح إلا بولي» نفي للجواز الشرعي لا الوجود الخارجي وأمثال هذا كثيرة وليس من التأويل.

الحيوان الميت في الماء:

وأما الوضوء من الماء المقيد الذي لا ينطلق عليه اسم الماء بلا قيد فأمر تدفعه الملة بادي الرأي، نعم إزالة الخبث به محتمل بل هو الراجح، وقد أطلال القوم في فروع موت الحيوان في البشر، والعشر في العشر،

(١) سورة الأنعام/ الآية ١٤٥ .

(٢) سورة النساء/ الآية ٢٣ .

(٣) سورة المائدة/ الآية ٣ .

والماء الجاري وليس في كل ذلك حديث عن النبي ﷺ ألبتة، وأما الآثار المنقولة عن الصحابة والتابعين كأثر ابن الزبير في الزنجي، وعلي رضي الله عنه في الفأرة، والنخعي والشعبي في نحو السنور فليست مما يشهد له المحدثون بالصحة ولا مما اتفق عليه جمهور أهل القرون الأولى، وعلى تقدير صحتها يمكن أن يكون ذلك تطيباً للقلوب وتنظيفاً للماء لا من جهة الوجوب الشرعي كما ذكر في كتب المالكية، ودون نفي هذا الاحتمال خرط القتاد^(١).

وبالجملة فليس في هذا الباب شيء يعتد به، ويجب العمل عليه، وحديث القلتين أثبت من ذلك كله بغير شبهة، ومن المحال أن يكون الله تعالى شرع في هذه المسائل لعباده شيئاً زيادة على ما لا ينفكون عنه من الارتفاقات وهي مما يكثر وقوعه، وتعم به البلوى^(٢)، ثم لا ينص عليه النبي ﷺ نصاً جلياً^(٣)، ولا يستفيض في الصحابة ومن بعدهم ولا حديث واحد فيه، والله أعلم.

تطهير النجاسات

تعريف النجاسة:

النجاسة كل شيء يستقذره أهل الطبائع السليمة، ويتحفظون عنه، ويغسلون الثياب إذا أصابها كالعذرة^(٤) والبول والدم.

وأما تطهير النجاسات فهو مأخوذ عنهم ومستنبط مما اشتهر فيهم والروث ركس^(٥) لحديث ابن مسعود وبول ما يؤكل لحمه لا شبهة في كونه

(١) خرط الشجر انتزع الورق منه باليد ضرباً، والقتاد شجر صلب له شوك وهذا مثل ودونه خرط القتاد يضرب للأمر المشكل الصعب والممتنع.

(٢) أي لا يمكن تجنبها. (٣) نصاً جلياً: نصاً واضحاً ظاهراً.

(٤) العذرة: النجس.

(٥) بالكسر شبه المعنى بالرجيع من قولهم ركست الشيء إذا رددته ورجاته.

خبثاً تستقذره الطبائع السليمة، وإنما يرخص في شربه لضرورة الاستشفاء، وإنما يحكم بطهارته أو بخفة نجاسته لدفع الحرج، وألحق الشارع بها الخمر وهو قوله تعالى: ﴿رَجَسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (١).

لأنه حرمها وأكد تحريمها، فاقتضت الحكمة أن يجعلها بمنزلة البول والعدرة ليمثل قبحها عندهم، ويكون ذلك أكبر لفوسهم عنها.

نجاسة الكلب:

قال النبي ﷺ: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات» وفي رواية: «أولاهن بالتراب».

أقول ألحق النبي ﷺ سور (٢) الكلب بالنجاسات، وجعله من أشدها لأن الكلب حيوان ملعون تنفر منه الملائكة، وينقص - اقتناؤه والمخالطة معه بلا عذر - من الأجر كل يوم قيراطاً.

والسر في ذلك أنه يشبه الشيطان بجبلته لأن ديدنه لعب وغضب واطراح في النجاسات وإيذاء للناس، ويقبل الإلهام من الشياطين، فرأى (٣) منهم صدوداً وتهاوناً، ولم يكن سبيل إلى النهي عنه بالكلية لضرورة الزرع والماشية والحراسة والصيد، فعالج ذلك باشتراط أتم الطهارات وأوكدها وما فيها بعض الحرج ليكون بمنزلة الكفارة في الردع والمنع، واستشعر بعض حملة الملة بأن ذلك (٤) ليس بتشريع بل نوع تأكيد، واختار بعضهم رعاية ظاهر الحديث والاحتياط أفضل.

تطهير ما وقع عليه البول:

قوله ﷺ: «هريقوا» (٥) على بوله سجلاً من ماء». أقول: البول على

(١) سورة المائدة/ الآية ٩٠.

(٢) السور: الماء الذي يبقى عقب الشرب.

(٣) أي: النبي ﷺ.

(٤) أول الحديث وقام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبي ﷺ: دعوه =

الأرض يطهره مكاثرة الماء عليه، وهو مأخوذ مما تقرر عند الناس قاطبة أن المطر الكثير يطهر الأرض، وأن المكاثرة تذهب بالرائحة الممتنة وتجعل البول متلاشياً كأن لم يكن.

تطهير الثوب:

قوله ﷺ: «إذا أصاب ثوب إحداكن الدم من الحيضة، فلتقرصه، ثم لتنضحه بماء^(١) ثم لتصلي فيه» أقول: تحصل الطهارة بزوال عين النجاسة وأثرها وسائر الخصوصيات بيان لصورة صالحة لزوالهما وتنبية على ذلك لا شرط.

وأما المني فالأظهر أنه نجس لوجود ما ذكرنا في حد النجاسة، وأن الفرق يطهر يابس إذا كان له حجم.

قوله ﷺ: «يغسل من بول الجارية ويرش^(٢) من بول الغلام» أقول: هذا أمر كان قد تقرر في الجاهلية، وأبقاه النبي ﷺ، والحامل على هذا الفرق أمور:

منها: أن بول الغلام ينتشر فيعسر إزالته، فيناسبه التخفيف، وبول الجارية يجتمع، فيسهل إزالته.

ومنها: أن بول الأنثى أغلظ وأنتن من بول الذكر.

ومنها: أن الذكر ترغب فيه النفوس والأنثى تعافها، وقد أخذ بالحديث أهل المدينة وإبراهيم النخعي، وأضجع فيه القول محمد فلا تغتر بالمشهور بين الناس.

= وهريقوا، إلخ، والسجل الدلو وهريقوا أي أسيلوا.

(١) القرص ذلك بأطراف الأصابع، والنضح صب الماء شيئاً فشيئاً، والمعنى فلتمسحه باليد حتى يتفتت ثم تغسله بالماء بالصب شيئاً فشيئاً حتى يذهب أثره.

(٢) أي يسال الماء حتى يغلب البول ولا يبالغ في الغسل، وتعافها: تكرهها.

تطهير الإهاب :

قوله ﷺ : «إذا أدبغ الأهاب^(١)، فقد طهر» أقول : استعمال جلود الحيوانات المدبوغة أمر شائع مسلم عند طوائف الناس، والسرف فيه أن الدباغ يزيل التن والرائحة الكريهة.

طهارة النعل :

قوله ﷺ : «إذا وطىء أحدكم بنعله الأذى فإن التراب له طهور» أقول النعل والخف يطهر من النجاسة التي لها جرم بذلك لأنه جسم صلب لا يتخلل فيه النجاسة والظاهر أنه عام في الرطوبة واليابسة.

الهرة من الطوافين والطوافات :

قوله ﷺ في الهرة : «إنها من الطوافين والطوافات»^(٢).

أقول : معناه على قول إن الهرة وإن كانت تلغ في النجاسات، وتقتل الفأرة فهناك ضرورة في الحكم بتطهير سؤرها، ودفع الحرج أصل من أصول الشرع، وعلى قول آخر حث على الإحسان على كل ذات كبد رطبة وشبهها بالسائلين والسائلات، والله أعلم.

من أبواب الصلاة

الصلاة أعظم العبادات شأناً :

اعلم أن الصلاة أعظم العبادات شأناً وأوضحها برهاناً وأشهرها في الناس وأنفعها في النفس، ولذلك اعتنى الشارع ببيان فضلها وتعيين أوقاتها وشروطها وأركانها وآدابها ورخصها ونوافلها اعتناءً عظيماً لم يفعل في سائر أنواع الطاعات، وجعلها من أعظم شعائر الدين، وكانت مسلمة في اليهود والنصارى والمجوس وبقايا الملة الإسماعيلية، فوجب ألا يذهب في

(١) الإهاب : الجلد. والمقصود جلد الحيوانات المأكولة اللحم الميتة.

(٢) الهرر تطوف البيوت ويعسر طردها لأنها لا تنزجر تماماً.

توقيتها وسائر ما يتعلق بها إلا إلى ما كان عندهم من الأمور التي اتفقوا عليها، واتفق عليها جمهورهم.

وأما ما كان من تحريفهم - ككراهية اليهود الصلاة في الخفاف والنعال ونحو ذلك، فمن حقه أن يسجل على تركه، وأن يجعل سنة المسلمين غير سنة هؤلاء، وكذلك كان المجوس حرفوا دينهم، وعبدوا الشمس؛ فوجب أن تميز ملة الإسلام من ملتهم غاية التمييز، فنهى المسلمون عن الصلاة في أوقات صلواتهم أيضاً.

ولاتساع أحكام الصلاة وكثرة أصولها التي تبنى عليها لم تذكر الأصول في فاتحة كتاب الصلاة كما ذكرنا في سائر الكتب، بل ذكرنا أصل كل فصل في ذلك الفصل.

أمر الأولاد بالصلاة:

قوله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع» أقول: بلوغ الصبي على وجهين: بلوغ في صلاحية السقم والصحة النفسائيتين، ويتحقق بالعقل فقط، وأمانة ظهور العقل سبع، فابن السبع ينتقل فيها لا محالة من حالة إلى حالة انتقالاً ظاهراً، وأمانة تمامه العشر فابن العشر عند سلامة المزاج يكون عاقلاً يعرف نفعه من ضرره ويحذق في التجارة وما يشبهها. وبلوغ في صلاحية الجهاد والحدود والمؤاخذه عليه، وأن يصير به من الرجال الذين يعانون^(١) المكائد، ويعتبر حالهم في السياسات المدنية والمالية، ويجبرون قسراً على الصراط المستقيم، ويعتمد على تمام العقل وتمام الجثة وذلك بخمس عشرة سنة في الأكثر، ومن علامات هذا البلوغ الاحتلام وإنبات العانة.

(١) يعانون: يقاسون.

والصلاة لها اعتباران: فباعتبار كونها وسيلة فيما بينه وبين مولاه منقذة عن التردّي في أسفل السافلين أمر بها عند البلوغ الأول.

وباعتبار كونها من شعائر الإسلام يؤاخذون بها، ويجبرون عليها أشاؤوا أم أبوا حكمها حكم سائر الأمور.

ولما كان سن العشر برزخاً^(١) بين الحدين جامعاً بين الجهتين جعل له نصيباً منهما. وإنما أمر بتفريق المضاجع لأن الأيام أيام مراهقة فلا يبعد أن تفضي المضاجعة إلى شهوة المجامعة، فلا بد من سد سبيل الفساد قبل وقوعه.

فضل الصلاة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(٢).

وقوله ﷺ لمن صلى في الجماعة بعد الذنب: «فإن الله قد غفر لك ذنبك» وقوله ﷺ: «لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا». وقوله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر».

منافع الصلاة:

أقول: الصلاة جامعة للتنظيف والإخبات، مقدسة للنفس إلى عالم الملكوت، ومن خاصية النفس إنها إذا اتصفت بصفة رفضت ضدها، وتباعدت عنه، وصار ذلك منها كأن لم يكن شيئاً مذكوراً، فمن أدى

(١) البرزخ: الحاجز الفاصل بين شيئين.

(٢) سورة هود/ الآية ١١٤ - إن الحسنات كالصلوات والصيام والحج - يذهبن السيئات أي يمحون صفات الذنوب.

الصلوات على وجهها، وأحسن وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وخشوعهن وأذكارهن وهيئاتهن، وقصد بالأشباح أرواحها، وبالصور معانيها، لا بد أنه يخوض في لجة عظيمة من الرحمة، ويمحو الله عنه الخطايا.

الصلوة من أعظم شعائر الإسلام:

قوله ﷺ: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة». أقول: الصلاة من أعظم شعائر الإسلام وعلاماته التي إذا فقدت ينبغي أن يحكم بفقدته لقوة الملازمة بينها وبينه، وأيضاً الصلاة هي المحققة لمعنى إسلام الوجه لله، ومن لم يكن له حظ منها فإنه لم يؤمن من الإسلام إلا بما لا يعبا به.

أوقات الصلاة

لا بد للصلوات من أوقات محددة:

لما كانت فائدة الصلاة وهي الخوض في لجة الشهود، والإنسلاخ في سلك الملائكة لا تحصل إلا بمداومة عليها وملازمة بها وإكثار منها حتى تطرح عنهم أثقالهم، ولا يمكن أن يؤمروا بما يفضي إلى ترك الارتفاقات الضرورية والانسلاخ عن أحكام الطبيعة بالكلية - أوجبت الحكمة الإلهية أن يؤمروا بالمحافظة عليها والتعهد لها بعد كل برهة من الزمان، ليكون انتظارهم للصلاة وتهيؤهم لها قبل أن يفعلوها وبقيّة لونها وصبابة نورها بعد أن يفعلوها في حكم الصلاة، وتكون أوقات الغفلة مضمونة بطمح بصر إلى ذكر الله وتعلق خاطر بطاعة الله، فيكون حال المسلم كحال حصان^(١) مربوط بأخية^(٢) يستن شرفاً أو شرفين، ثم يرجع إلى أخيته ويكون ظلمة الخطايا والغفلة لا تدخل في جذر القلوب، وهذا

(١) أي: فرس.

(٢) الأخية بمد وتشديد حيل أو عويد يعرض في حائط أو جبل ويدفن طرفاه فيصير وسطه =

هو الدوام المتيسر عندما امتنع الدوام الحقيقي .

الساعات التي تنتشر فيها الروحانية :

ثم لما آل الأمر إلى تعيين أوقات الصلاة لم يكن وقت أحق بها من الساعات الأربع التي تنتشر فيها الروحانية، وتنزل فيها الملائكة، ويعرض فيها على الله أعمالهم، ويستجاب دعاؤهم، وهي كالأمر المسلم عند جمهور أهل التلقي من الملائكة الأعلى، لكن وقت نصف الليل لا يمكن تكليف الجمهور به - كما لا يخفى - فكانت أوقات الصلاة في الأصل ثلاثة: الفجر والعشي وغسق الليل، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (١).

وإنما قال: ﴿إلى غسق الليل﴾ لأن صلاة العشي ممتدة إليه حكماً - لعدم وجود الفصل - ولذلك جاز عند الضرورة الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء - فهذا أصل.

لا يجوز الفصل بين كل صلاتين كثيراً:

ولا يجوز أن يكون الفصل بين كل صلاتين كثيراً جداً، فيفوت معنى المحافظة، وينسى ما كسبه أول مرة - ولا قليلاً جداً - فلا يتفرغون لابتغاء معاشهم، ولا يجوز أن يضرب في ذلك إلا حداً ظاهراً محسوساً يتبينه الخاصة والعامة، وهو كثرة ما للجزء المستعمل عند العرب والعجم - في

= كالعروة وتشد فيها الدابة، وقوله: يستن هو أن يرفع يديه ويطحهما معاً ويعجن برجليه، والشرف بالضم وسكون الراء الشوط والعدو من موضع إلى موضع، وفي القاموس بفتح الأول والثاني، وهذا اقتباس من الحديث وهو قوله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الفرس بأخيته» الحديث.

(١) الإسراء / الآية ٧٨ - لدلوك الشمس: أي من وقت زوالها - غسق الليل: إقبال الظلمة - مشهوداً: تشهد الملائكة فتدونه للمؤمن.

باب تقدير الأوقات، وليست بالكثرة المفرطة - ولا يصلح لهذا إلا ربع النهار فإنه ثلاث ساعات، وتجزئة الليل والنهار إلى اثني عشرة ساعة أمر أجمع عليه أهل الأقاليم الصالحة، وكان أهل الزراعة والتجارة والصناعة وغيرهم يعتادون غالباً أن يتفرغوا لأشغالهم من البكرة إلى الهاجرة، فإنه وقت ابتغاء الرزق وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

الترغيب في الضحى من غير إيجاب:

وانصاف كثير من الأشغال ينجر إلى مدة طويلة، ويكون التهيؤ للصلاة والتفرغ لها من الناس أجمعهم في أثناء ذلك حرجاً عظيماً، فلذلك أسقط الشارع الضحى، ورغب فيها ترغيباً عظيماً من غير إيجاب، فوجب أن تشتق صلاة العشي إلى صلاتين بينهما نحو ربع النهار وهما الظهر والعصر، وغسق الليل إلى صلاتين بينهما نحو من ذلك وهما المغرب والعشاء، ووجب ألا يرخص في الجمع بين كل من شقي الوقتين إلا عند ضرورة لا يجد منها بدأ، وإلا لبطلت المصلحة المعتبرة في تعيين الأوقات - وهذا أصل آخر.

أحق ما تؤدي فيه الصلاة وقت خلو النفس:

وكان جمهور أهل الأقاليم الصالحة والأمزجة المعتدلة الذين هم المقصودون بالذات في الشرائع لا يزالون متيقظين مترددين في حوائجهم من وقت الأسفار إلى غسق الليل، وكان أحق ما يؤدي فيه الصلاة وقت خلو النفس عن ألوان الأشغال المعاشية المنسية ذكر الله، ليصادف قلباً فارغاً، فتمكن منه، ويكون أشد تأثيراً فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٣).

(١) سورة النبا/ الآية ١١ .

(٢) سورة الإسراء/ الآية ٦٦ .

(٣) سورة الإسراء/ الآية : ٧٨ .

الصلاة قبيل النوم:

ووقت الشروع في النوم ليكون كفارة لما مضى وتصقيلاً للصدأ، وهو قوله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل الأول، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة كان كقيام ليلة» ووقت اشتغالهم كالضحى ليكون مهوناً للانهماك في الدنيا وترياقاً له، غير أن هذا لا يجوز أن يخاطب به الناس جميعاً لأنهم حيثئذ بين أمرين: إما أن يتركوا هذا أو ذاك - وهذا أصل آخر.

تعيين أوقات الصلوات:

وأيضاً: لا أحق في باب تعيين الأوقات من أن يذهب إلى المأثور من سنن الأنبياء المقربين من قبل، فإنه كالمنبه للنفس على أداء الطاعة تنبيهاً عظيماً والمهيج لها على منافسة القوم، والباعث على أن يكون للصالحين فيهم ذكر جميل، وهو قول جبريل عليه السلام: «هذا وقت الأنبياء من قبلك».

لا يقال: ورد في حديث معاذ في العشاء: «ولم يصلها أحد قبلكم» لأن الحديث رواه جماعة، فقال بعضهم: إن الناس صلوا ورددوا، وقال بعضهم ولا يصلها أحد إلا بالمدينة ونحو ذلك، فالظاهر أنه من قبل الرواية بالمعنى وهذا أصل آخر.

في تعيين الأوقات سر عميق:

وبالجملة ففي تعيين الأوقات سر عميق من وجوه كثيرة، فتمثل جبريل عليه السلام وصلى بالنبي ﷺ وعلمه الأوقات، ولما ذكرنا ظهر وجه مشروعية الجمع بين الصلاتين في الجملة، وسبب وجوب التهجد والضحى على النبي ﷺ والأنبياء على ما ذكروا وكونها نافلة للناس وسبب تأكيد أداء الصلوات على أوقاتها، والله أعلم.

للصلوات أربعة أوقات :

ولما كان في التكليف بأن يصلي جميع الناس في ساعة واحدة بعينها لا يتقدمون، ولا يتأخرون غاية الحرج - وسع في الأوقات توسعة ما .

ولما كان لا يصلح للتشريع إلا المظنات الظاهرة عند العرب غير الخفية على الأذاني والأقاصي - جعل لأوائل الأوقات وأواخرها حدوداً مضبوطة محسوسة .

وقت الاختيار في الصلاة :

ولتراحم هذه الأسباب حصل للصلوات أربعة أوقات : وقت الاختيار وهو الوقت الذي يجوز أن يصلي فيه من غير كراهية، والعمدة فيه حديثان حديث جبريل^(١) فإنه صلى بالنبي ﷺ يومين، وحديث بريدة ففيه أنه ﷺ أجاب السائل عنها بأن صلى يومين، والمفسر منهما قاض على المبهم، وما اختلف يتبع فيه حديث بريدة لأنه مدني متأخر، والأول مكي متقدم، وإنما يتبع الآخر فالآخر وذلك أن آخر وقت المغرب هو ما قبل أن يغيب الشفق، ولا يبعد أن يكون جبريل آخر المغرب في اليوم الثاني قليلاً جداً لقصر وقته فقال الراوي : صلى المغرب في يومين في وقت واحد إما لخطأ في اجتهاده أو بياناً لغاية القلة والله أعلم .

وكثير من الأحاديث يدل على أن آخر وقت العصر أن تتغير الشمس، وهو الذي أطبق عليه الفقهاء فلعل المثليين بيان لآخر الوقت المختار، والذي يستحب فيه، أو نقول : لعل الشرع نظر أولاً إلى أن المقصود من اشتقاق العصر أن يكون الفصل بين كل صلاتين نحواً من ربع النهار، فجعل الأمد الآخر بلوغ الظل إلى المثليين، ثم ظهر من حوائجهم

(١) وهو ما رواه أبو داود والترمذي عن ابن عباس، وقوله : وحديث بريدة وهو ما رواه مسلم عن بريدة، وقوله : السائل عنها أي الأوقات .

وأشغالهم ما يوجب الحكم بزيادة الأمد، وأيضاً معرفة ذلك الحد تحتاج إلى ضرب من التأمل وحفظ للفيء الأصلي ورصد، وإنما ينبغي أن يخاطب الناس في مثل ذلك بما هو محسوس ظاهر، فنفت الله في روعه ﷺ أن يجعل الأمد تغير قرص الشمس أو ضوءها، والله أعلم.

وقت الاستحباب في الصلاة:

ووقت الاستحباب الذي يستحب أن يصلي فيه وهو أوائل الأوقات إلا العشاء فالمستحب الأصلي تأخيرها لما ذكرنا من الوضع الطبيعي، وهو قوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم أن يؤخروا العشاء» ولأنه أنفع في تصفية الباطن من الأشغال المنسية ذكر الله وأقطع لمادة السمر بعد العشاء لكن التأخير ربما يفضي إلى تقليل الجماعة وتنفير القوم. وفيه قلب الموضوع.

فلهذا كان النبي ﷺ إذا كثرت الناس عجل، وإذا قلوا أخر - والأظهر الصيف - وهو قوله ﷺ: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالظهر فإن شدة الحر من فيح جهنم»^(١) أقول: معناه معدن الجنة والنار هو معدن ما يفاض في هذا العالم من الكيفيات المناسبة والمنافرة وهو تأويل ما ورد في الأخبار في الهندبا وغيره.

قوله ﷺ: «أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر» أقول: هذا الخطاب لقوم خشوا تقليل الجماعة جداً أن ينتظروا إلى الأسفار أو لأهل المساجد الكبيرة التي تجمع الضعفاء والصبيان وغيرهم كقوله ﷺ: «أيكم صلى بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف» الحديث^(٢) أو معناه طولوا الصلاة

(١) أي من غليانها وحرارتها.

(٢) تمامه «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن فيهم السقيم والضعيف والكبير وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء».

حتى يقع آخرها في وقت الأسفار لحديث أبي برزة كان يفتل في صلاة الغداة حين يعرف الرجل جلسه، ويقراً بالستين إلى المائة فلا منافاة بينه وبين حديث الغلس^(١).

وقت الضرورة:

ووقت الضرورة: وهو ما لا يجوز التأخير إليه إلا بعذر. وهو قوله ﷺ: «من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر» وقوله ﷺ: «تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا اصفرت» الحديث^(٢) وهو حديث ابن عباس في الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء والعذر مثل السفر والمرض والمطر وفي العشاء إلى طلوع الفجر، والله أعلم.

وقت القضاء:

ووقت القضاء إذا ذكر، وهو قوله ﷺ: «من نسي صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها».

أقول: والجملة في ذلك ألا تسترسل النفس بتركها، وأن يدرك ما فاته من فائدة تلك الصلاة، وألحق القوم التفويت بالفوت نظراً إلى أنه أحق بالكفارة.

(١) هو ما روي في الصحيحين عن محمد بن عمرو بن الحسن بن علي أنه ﷺ كان يصلي الصبح بغلس. والغلس ظلمة آخر الليل.

(٢) تمامه «وكانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».

ووصى ﷺ أبا ذر^(١) إذا كان عليه أمراء يميئون الصلاة^(٢): «صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتها معهم فصلها فإنها لك نافلة».

أقول: راعى في الصلاة اعتبارين اعتبار كونها وسيلة بينه وبين الله، وكونها من شعائر الله يلام على تركها.

قوله ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم» أقول: هذا إشارة إلى أن التهاون في الحدود الشرعية سبب تحريف الملة.

المحافظة على الصلوات:

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾^(٣) والمراد بها العصر.

قوله ﷺ: «من صلى البردين^(٤) دخل الجنة».

قوله ﷺ: «من ترك صلاة العصر حبط عمله».

وقوله ﷺ: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»

قوله ﷺ: «ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً»^(٥) أقول: إنما خص هذه الصلوات الثلاث بزيادة الاهتمام ترغيباً وترهيباً لأنها مظنة التهاون والتكاسل لأن الفجر

(١) أبو ذر: هو أبو ذر الغفاري، أسلم بمكة ثم رجع إلى قومه فلم يشهد بدرأ ولا أحداً ولا الخندق ثم قدم المدينة وصحب الرسول وروى عنه الحديث. وكان أخذ على عثمان أشياء استحدثها ودعا إلى المساواة في الحقوق فغضب منه عثمان وسيره إلى الربذة فبقي فيها إلى أن مات رحمه الله تعالى سنة ٣٢ هـ.

(٢) أي يؤخرونها عن وقتها. (٣) سورة البقرة/ الآية ٢٣٨.

(٤) أي الغداة والعشي وسماههما البردين لأن وقتها أبرد من الظهر.

(٥) من حبا الرجل إذا مشى على يديه وبطنه، والصبي مشى على استه، وأشرف على صدره.

والعشاء وقت النوم لا ينتهض لله من بين فراشه ووطائه عند لذيذ نومه ووسنه إلا مؤمن تقي ، وأما وقت العصر فكان وقت قيام أسواقهم واشتغالهم بالبيوع وأهل الزراعة أتعب حالهم هذه .

قوله ﷺ : « لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم المغرب »^(١) وفي حديث آخر : « على اسم صلاة العشاء » أقول : يكره تسمية ما ورد في الكتاب والسنة مسمى شيء اسماً آخر بحيث يكون ذريعة لهجر الاسم الأول لأن ذلك يلبس على الناس دينهم ويعجم عليهم كتابهم .

الأذان

كيف شرع الأذان :

لما علمت الصحابة أن الجماعة مطلوبة مؤكدة ، ولا يتيسر الاجتماع في زمان واحد ومكان واحد بدون إعلام وتنبيه ، تكلموا فيما يحصل به الإعلام ، فذكروا النار فردها رسول الله ﷺ لمشابهة المجوس . وذكروا القرن ، فرده لمشابهة اليهود . وذكروا الناقوس ، فرده لمشابهة النصارى ، فرجعوا من غير تعيين ، فأرى عبد الله بن زيد الأذان والإقامة في منامه ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « رؤيا حق » .

وهذه القصة دليل واضح على أن الأحكام إنما شرعت لأجل المصالح ، وأن لاجتهاد فيها مدخلاً ، وأن التيسير أصل أصيل ، وأن مخالفة أقوام تمادوا في ضلالتهم فيما يكون من شعائر الدين مطلوب ، وأن غير النبي ﷺ قد يطلع بالمنام أو النفث في الروع^(٢) على مراد الحق ، لكن لا يكلف الناس به ولا تنقطع الشبهة حتى يقرره النبي ﷺ .

(١) وتماه « قال وتقول الأعراب هي العشاء » وتماه الثاني « فإنها في كتاب الله العشاء » .

(٢) النفث بالضم مثل النفخ والمراد هنا الإلقاء ، والروع بالضم القلب .

واقترضت الحكمة الإلهية ألا يكون الأذان صرف إعلان وتنبيه، بل يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رؤوس الخامل والتنبيه تنويهاً بالدين، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم للدين الله، فوجب أن يكون مركباً من ذكر الله ومن الشهادتين والدعوة إلى الصلاة ليكون مصرحاً بما أريد به.

طرق الأذان:

وللأذان طرق: أصحها طريقة بلال^(١) رضي الله عنه، فكان الأذان على عهد رسول الله ﷺ مرتين مرتين والإقامة مرة مرة^(٢) غير أنه كان يقول: قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة.

ثم طريقة أبي محذورة علمه النبي ﷺ الأذان تسع عشرة كلمة^(٣) والإقامة سبع عشرة كلمة، وعندني أنها كأحرف القرآن، كلها شافٍ كاف.

قوله ﷺ: «فإن كان صلاة الصبح قلت: الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم».

أقول لما كان الوقت وقت نوم وغفلة، وكانت الحاجة إلى التنبيه القوي شديدة استحب زيادة هذه اللفظة.

الإقامة:

قوله ﷺ: «من أذن فهو يقيم» أقول: سره أنه لما شرع في الأذان وجب على إخوانه ألا يزاحموه فيما أراد من المنافع المباحة بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه».

(١) بلال: هو بلال بن رباح، كان حبشياً ومولده بمكة. أسلم فعذبه سيده القرشي ثم اشتراه أبو بكر وأعتقه. شهد بدرًا والمشاهد كلها وكان يؤذن لرسول الله حتى مات الرسول ترك الحجاز وأقام بالشام ومات بدمشق سنة ٢٠ وقد جاوز الستين.
(٢) وهو مذهب الشافعي رحمه الله. (٣) وبهذا قال أبو حنيفة.

فضائل الأذان :

وفضائل الأذان ترجع إلى أنه من شعائر الإسلام، وبه تصير الدار دار الإسلام، ولهذا كان النبي ﷺ إن سمع الأذان أمسك، وإلا أغار، وأنه شعبة من شعب النبوة لأنه حثّ على أعظم الأركان وأم القربات^(١)، ولا يرضي الله ولا يغضب الشيطان مثل ما يكون في الخير المتعدي وإعلاء كلمة الحق، وهو قوله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» وقوله ﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضراط».

فضل المؤذنين :

قوله ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً» وقوله ﷺ: «المؤذن يغفر له مدى صوته، ويشهد له الجن والإنس» أقول: أمر المجازاة مبني على مناسبة المعاني بالصور وعلاقة الأرواح بالأشباح، فوجب أن يظهر نباهة شأن المؤذن من جهة عنقه وصوته، وتتسع رحمة الله عليه اتساع دعوته إلى الحق.

قوله ﷺ: «من أذن سبع سنين محتسباً^(٢) كتبت له براءة من النار» وذلك لأنه مبین صحة تصديقه لا تتصور المواظبة عليه إلا ممن أسلم وجهه لله، ولأنه أمكن من نفسه غاشية عظيمة من الرحمة الإلهية.

قول الله في راعي غنم في رأس شظية^(٣): «انظروا إلى عبدي هذا يؤذن، ويقيم الصلاة يخاف مني، قد غفرت له وأدخلته الجنة» قوله: «يخاف مني» دليل على أن الأعمال تعتبر بدواعيها المنبعثة هي منها، وأن الأعمال أشباح، وتلك الدواعي أرواح لها، فكان خوفه من الله وإخلاصه له سبب مغفرته.

(١) القربات: ما تقرب إلى الله تعالى من عبادات وأعمال صالحة.

(٢) محتسباً: غاية رضاء الله تعالى.

(٣) الشظية على وزن سجية هي قطعة مرتفعة في رأس الجبل.

إجابة المؤذن :

ولما كان الأذان من شعائر الدين جعل ليعرف به قبول القوم للهداية الإلهية أمر بالإجابة لتكون مصرحة بما أريد منهم، فيجيب الذكر والشهادتين بهما، ويجيب الدعوة بما فيه توحيد في الحول والقوة دفعاً لما عسى أن يتوهم عند إقدامه على الطاعة من العجب من فعل ذلك خالصاً من قلبه دخل الجنة لأنه شبح الانقياد وإسلام الوجه لله، وأمر بالدعاء للنبي ﷺ تكميلاً لمعنى قبول دينه واختيار حبه .

الدعاء بين الأذان والإقامة :

قوله ﷺ : « لا يرد الدعاء بين الأذان والإقامة » أقول : ذلك لشمول الرحمة الإلهية ووجود الانقياد من الداعي .

قوله ﷺ : « وإن بلالاً ينادي بليل ، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم »^(١) أقول : يستحب للإمام إذا رأى الحاجة أن يتخذ مؤذنين يعرفون أصواتهما، ويبين للناس أن فلاناً ينادي بليل ، فكلوا واشربوا حتى ينادي فلان ، ليكون الأول^(٢) منهما للقائم والمتسحر أن يرجعا، وللنائم أن يقوم إلى صلاته، ويتدارك ما فاته من سحوره .

قوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، وأتوها تمشون » أقول : هذا إشارة إلى رد التعمق في التنسك^(٣) .

المساجد

المساجد من شعائر الله :

فضل بناء المسجد وملازمته وانتظار الصلاة فيه ترجع إلى أنه من

(١) ابن أم مكتوم : هو عبد الله بن أم مكتوم وكان ضريراً وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿عسى وتولى أن جاءه الأعمى﴾ .

(٢) أي الأذان الأول .

(٣) التنسك : العبادة .

شعائر الإسلام، وهو قوله ﷺ: «إذا رأيتم مسجداً، أو سمعتم مؤذناً، فلا تقتلوا أحداً»^(١)، وأنه محل الصلاة معتكف العابدين ومطرح الرحمة ويشبه الكعبة من وجه، وهو قوله ﷺ: «من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر» وقوله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل: وما رياض الجنة؟ قال: المساجد».

قصد المساجد يرفع الدرجات:

وإن التوجه إليه في أوقات الصلاة من بين شغله وأهله لا يقصد إلا الصلاة - معرف لإخلاصه في دينه وانقياده لربه من جذر قلبه، وهو قوله ﷺ: «إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه، اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة» وإن بناءه إعانة لإعلاء كلمة الحق.

قوله ﷺ: «من غدا إلى المسجد أوراخ أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أوراخ» أقول: هذا إشارة إلى أن كل غدوة وروحة تمكن من انقياد البهيمية للملكية.

عمارة المساجد:

قوله ﷺ: «من بني لله مسجداً بني الله له بيتاً في الجنة» أقول سره أن المجازاة تكون بصورة العمل، وإنما انقضى^(٢) أثواب الانتظار بالحدث؛

(١) لأن الأذان من أمارات إسلام ذلك البلد الذي قصده الجيش الصالح.

(٢) يعني أنه جاء في حديث لا يزال أحدكم في صلاة إذا دخل المسجد كانت الصلاة تحبه ما لم يحدث فيه، وقوله: وإنما فضل إلخ كما وقع في الصحيحين أنه قال رسول الله ﷺ: صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام.

لأنه لا يبقى متهيئاً للصلاة وإنما فضل مسجد النبي ﷺ والمسجد الحرام بمضاعفة الأجر لمعانٍ :

منها : أن هنالك ملائكة موكلة بتلك المواضع يحفون بأهلها، ويدعون لمن حلها.

ومنها: أن عمارة تلك المواضع من تعظيم شعائر الله وإعلاء كلمة الله.

ومنها: أن الحلول بها مذكر لحال أئمة الملة.

المساجد التي تشد الرحال إليها:

قوله ﷺ: «لا تشد الرحال^(١) إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا» أقول: كان أهل الجاهلية يقصدون مواضع معظمة بزعمهم يزورونها، ويتبركون بها، وفيه من التحريف والفساد ما لا يخفى، فسد النبي ﷺ الفساد لئلا يلتحق غير الشعائر بالشعائر، ولئلا يصير ذريعة لعبادة غير الله، والحق عندي أن القبر ومحل عبادة ولي من أولياء الله والطور كل ذلك سواء في النهي والله أعلم.

آداب المسجد:

وآداب المسجد ترجع إلى معانٍ :

منها: تعظيم المسجد ومؤاخذه نفسه أن يجمع الخاطر ولا يسترسل عند دخوله، وهو قوله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس».

ومنها: تنظيفه مما يتقدر ويتنفر منه - وهو قول الراوي - أمر يعني

(١) جمع رحل - وهو كور البعير -، والمراد نفي فضيلة شداها إلا إلى ثلاثة مساجد لئلا يكون غيرها مماثلاً إياها.

النبي ﷺ ببناء المسجد، وأن ينظف ويطيب^(١)، وقوله ﷺ: «عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد»، وقوله ﷺ: «البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها».

ومنها: الاحتراز عن تشويش العباد وهيشات^(٢) الأسواق وهو قوله ﷺ: «أمسك بنصالها».

حرمة طلب الضالة في المسجد:

قوله ﷺ: «من سمع رجلاً ينشد^(٣) ضالة في المسجد فليقل لا ردها الله إليك فإن المساجد لم تبين لهذا»، قوله: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك»^(٤) ونهى عن تناشد الأشعار في المسجد، وأن يستقاد في المسجد، وأن تقام فيه الحدود^(٥).

أقول أما نشد الضالة أي رفع الصوت بطلبها فلأنه صخب ولغظ يشوش على المصلين والمعتكفين، ويستحب أن ينكر عليه بالدعاء بخلاف ما يطلبه إرغاماً له، وعلمه النبي ﷺ بأن المساجد لم تبين لهذا أي إنما بنيت للذكر والصلاة. وأما الشراء والبيع فلتلا يصير المسجد سوقاً يتعامل فيه الناس، فتذهب حرمة، ويحصل التشويش على المصلين والمعتكفين. وأما تناشد الأشعار - فلما ذكرنا - ولأن فيه إعراضاً عن الذكر وحثاً على الإعراض عنه. وأما القود والحدود فلأنها مظنة للألوات والجزع والبكاء والصخب والتشويش على أهل المسجد، ويخص من الأشعار ما كان فيه الذكر ومدح النبي ﷺ وغيظ الكفار لأنه غرض شرعي، وهو قوله ﷺ لحسان: «اللهم أيده بروج القدس».

(١) أي من القاذورات، ويطيب بالعطر غيره.

(٢) الهيشة مثال لهوشة يقال هاش القوم إذا تحركوا.

(٣) ينشد ضالة: يطلب شيئاً ضائعاً برفع الصوت.

(٤) أي لا جعل الله تجارتك ذات ربح. (٥) يستقاد: أي يقتص.

لا يدخل المسجد حائض أو جنب :

قوله ﷺ : «إني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب» .

أقول السبب في ذلك تعظيم المسجد فإن أعظم التعظيم ألا يقربه إنسان إلا بطهارة، وكان في منع دخول المحدث حرج عظيم، ولا حرج في الجنب والحائض، ولأنهما أبعد الناس عن الصلاة، والمسجد إنما بني لها.

لا يقرب المسجد أكل البصل والثوم:

قوله ﷺ : «من أكل هذه الشجرة المنتنة، فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس» .

أقول: هي البصل أو الثوم، وفي معناه كل متن، ومعنى تتأذى تكره وتتنفّر لأنها تحب محاسن الأخلاق والطيبات، وتكره أصدادها.

الدعاء عند دخول المسجد والخروج منه :

قوله ﷺ : «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك، فإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك» .

أقول الحكمة في تخصيص الداخل بالرحمة والخارج بالفضل أن الرحمة في كتاب الله أريد بها النعم النفسانية والأخروية كالولاية والنبوة قال تعالى : ﴿وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١).

والفضل على النعم الدنيوية قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢). وقال تعالى : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا

(١) سورة الزخرف / آية ٣٢ - ورحمة ربك : وتدخل في الرحمة الجنة - خير مما يجمعون :

أي مما يجمعون في الدنيا .

(٢) سورة البقرة/ الآية ١٩٨ - فضلاً : رزقاً ومواهب .

فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴿١﴾.

ومن دخل المسجد إنما يطلب القرب من الله، والخروج وقت ابتغاء الرزق.

تحية المسجد:

قوله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس».

أقول: إنما شرع ذلك لأن ترك الصلاة إذا دخل بالمكان المعد لها ترة وحسرة، وفيه ضبط الرغبة في الصلاة بأمر محسوس، وفيه تعظيم المسجد.

المواطن التي لا يصلى فيها:

قال النبي ﷺ: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام».

ونهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة، والمقبرة، والمجزرة، وقارعة الطريق، وفي الحمام، وفي معادن الإبل (٢)، وفوق ظهر بيت الله، ونهى عن الصلاة في أرض بابل فإنها ملعونة.

الحكمة في النهي:

وأقول الحكمة في النهي عن المزبلة والمجزرة أنهما موضعا النجاسة، والمناسب للصلاة هو التطهر والتنظيف، وفي المقبرة الاحتراز عن أن تتخذ قبور الأحيار والرهبان مساجد بأن يسجد لها كالأوثان، وهو الشرك الجلي، أو يتقرب إلى الله بالصلاة في تلك المقابر، وهو الشرك وهذا مفهوم قوله ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ونظيره نهيه ﷺ عن الصلاة وقت الطلوع والاستواء

(١) سورة الجمعة/ الآية ١٠ - وابتغوا: اطلبوا. (٢) معادن الإبل: مباركها وحيث تبيت.

والغروب لأن الكفار يسجدون للشمس حينئذٍ .

وفي الحمام أنه محل انكشاف العورات ومظنة الازدحام ، فيشغله ذلك عن المناجاة بحضور القلب .

وفي معادن الإبل أن الإبل لعظم جثتها وشدة بطشها وكثرة جراتها كادت تؤذي الإنسان ، فيشغله ذلك عن الحضور بخلاف الغنم .

وفي قارعة الطريق اشتغال القلب بالمارين وتضييق الطريق عليهم ، ولأنها ممر السباع كما ورد صريحاً في النهي عن النزول فيها .

وفوق بيت الله أن الترفي على سطح البيت من غير حاجة ضرورية مكروه هاتك لحرمة ، وللشك في الاستقبال حالتئذٍ .

وفي الأرض الملعونة بنحو خسف أو مطر الحجارة إهانتها والبعد عن مظان الغضب هيبة منه وهو قوله ﷺ : «ولا تدخلوه إلا باكين»^(١) .

ثياب المصلي

ستر الجسم لأجل الصلاة :

اعلم أن لبس الثياب مما امتاز به الإنسان عن سائر البهائم ، وهو أحسن حالات الإنسان ، وفيه شعبة من معنى الطهارة ، وفيه تعظيم الصلاة وتحقيق أدب المناجاة بين يدي رب العالمين ، وهو واجب أصلي جعل شرطاً في الصلاة لتكميله معناها ، وجعله الشارع على حدين .

الستر واجب ومندوب :

حد لا بد منه وهو شرط صحة الصلاة ، وحد هو مندوب إليه فالأول : منه السواتان وهو آكدهما ، وألحق بهما الفخذان ، وفي المرأة سائر بدنهما ،

(١) قال ذلك بمناسبة مرور الصحابة على المكان الذي نزل فيه العذاب بقوم لوط .

لقوله ﷺ: «لا تقبل صلاة حائض إلا بخمار» يعني البالغة لأن الفخذ محل الشهوة، وكذا بدن المرأة فكان حكمها حكم السواتين.

والثاني: قوله ﷺ: «لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء» وقال: «إذا كان واسعاً فخالف بين طرفيه» والسرف فيه أن العرب والعجم وسائر أهل الأمزجة المعتدلة إنما تمام هيشتهم وكمال زيهم على اختلاف أوضاعهم في لباس القباء والقميص والحلة وغيرها أن يستر العاتقان والظهر، وسئل النبي ﷺ عن الصلاة في ثوب واحد فقال أو لكلهم ثوبان، ثم سئل عمر رضي الله عنه فقال: إذا وسع الله فوسعوا جمع رجل إلخ.

أقول: الظاهر أن رسول الله ﷺ سئل عن الحد الأول وقول عمر رضي الله عنه بيان للحد الثاني ويحتمل أن يكون السؤال في الثاني الذي هو مندوب، فلم يأمر بثوبين لأن جريان التشريع ولو بالحد الثاني باشتراط الثوبين حرج، ولعل من لا يجد ثوبين يجد في نفسه، فلا تكمل صلاته لما يجد في نفسه من التقصير، وعرف عمر رضي الله عنه أن وقت التشريع انقضى، ومضى، وكان قد عرف استحباب إكمال الزي في الصلاة، فحكم على حسب ذلك، والله أعلم.

سبب كراهية بعض أنواع الثياب:

وقال ﷺ في الذي يصلي ورأسه معقوص من ورائه: «إنما مثل هذا مثل الذي يصلي وهو مكتوف».

أقول: نبه على أن سبب الكراهية الإخلال بالتجمل وتمام الهيئة وزي الأدب

قوله ﷺ في خميصة لها أعلام: «إنها ألهتني أنفاً عن صلاتي» وفي قرام^(١) عائشة: «أميطي عنا قرامك هذا فإنه لا يزال تصاويره تعرض في

(١) هو بكسر القاف الستر الرقيق وكانت ضربته مثل حجلة العروس، وقيل: كان مزيناً، =

صلاتي» وفي فروج الحرير: «لا ينبغي هذا للمتقين».

أقول: ينبغي للمصلي أن يدفع عن نفسه كل ما يلهيه عن الصلاة لحسن هيئته أو لعجب النفس به تكميلاً لما قصد له الصلاة.

الصلاة في النعال:

وكان اليهود يكرهون الصلاة في نعالهم وخفافهم لما فيه من ترك التعظيم فإن الناس يخلعون النعال بحضرة الكبراء، وهو قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾^(١).

وكان هنا وجه آخر وهو أن الخف والنعل تمام زي الرجل، فترك النبي ﷺ القياس الأول، وأيد الثاني مخالفة لليهود، وهو قوله ﷺ: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم وخفافهم» فالصحيح أن الصلاة متنعلاً وحافياً سواء.

ونهى النبي ﷺ عن السدل في الصلاة، فقليل: هو أن يلتحف بثوبه، ويدخل يديه فيه، وسيجيء أن اشتمال الصماء^(٢) أقبح لبسة لأنه مخالف لما هو أصل طبيعة الإنسان وعادته من إبقاء اليدين مسترسلتين، ولأنه على شرف انكماش العورة فإنه كثيراً ما يحتاج إلى إخراج اليدين للبطش، فتتكشف، وقيل: إرسال الثوب من غير أن يضم جانبيه وهو إخلال بالتجمل وتمام الهيئة، وإنما نعني بتمام الهيئة ما يحكم العرف والعادة أنه غير فاقد ما ينبغي أن يكون له وأوضاع لباسهم مختلفة ولكن في كل لبسة تمام هيئة

= منقشاً، وقوله: وفي فروج هو بفتح الفاء وتشديد الراء القباء الذي شق من خلفه، وكان أهدي له ﷺ فلبسه وصلّى فيه ثم نزعه نزعاً شديداً كالكاره له وقال: لا ينبغي هذا للمتقين.

(١) سورة طه/ الآية ١٢.

(٢) هو أن يجلل نفسه بثوب ولا يرفع شيئاً من جوانبه ولا يمكنه إخراج يديه إلا من أسفله، وقوله: الصماء أي كالصخرة الصماء التي ليس فيها خرق ولا صدع، وعند الفقهاء =

يعرف بالسير، وقد بنى النبي ﷺ الأمر على عرف العرب يومئذٍ.

القِبْلَة

اتخذ النبي بيت المقدس قبلة أول الأمر :

لما قدم ﷺ المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة أو سبعة عشر شهراً، ثم أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقر الأمر على ذلك.

أقول: السر في ذلك أنه لما كان تعظيم شعائر الله وبيوته واجباً - لا سيما فيما هو أصل أركان الإسلام. وأم القربات. وأشهر شعائر الدين، وكان التوجه في الصلاة إلى ما هو مختص بالله بطلب رضا الله بالتقرب منه أجمع للخاطر، وأحث على صفة الخشوع، وأقرب لحضور القلب، لأنه يشبه مواجهة الملك في مناجاته - اقتضت الحكمة الإلهية أن يجعل استقبال قبلة ما شرطاً في الصلاة في جميع الشرائع.

كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقبلان الكعبة :

وكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ومن تدين بدينهما يستقبلون الكعبة، وكان إسرائيل عليه السلام وبنوه يستقبلون بيت المقدس. هذا هو الأصل المسلم في الشرائع.

استقبال بيت المقدس كان لتأليف الأوس والخزرج واليهود :

فلما قدم النبي ﷺ المدينة، وتوجهت العناية إلى تأليف الأوس، والخزرج^(١)، وحلفائهم من اليهود، وصاروا هم القائمين بنصرته، والأمة

= اشتمال الصماء أن يتغذى بثوب واحد ليس عليه غيره فيرفعه من جانبه فيضعه على منكبه فتكشف عورته.

(١) الأوس والخزرج: قبيلتان عربيتان يمينتا الأصل كانتا تسكنان المدينة عندما قدم إليها رسول وقد أيدوه ونصروه ولهذا سماوا الأنصار.

التي أخرجت للناس، وصارت مضر وما والاها أعدى أعاديه وأبعد الناس عنه - اجتهد، وحكم باستقبال بيت المقدس؛ إذ الأصل أن يراعي في أوضاع القربات حال الأمة التي بعث الرسول فيها، وقامت بنصرته وصارت شهداء على الناس - وهم الأوس والخزرج - يومئذٍ، وكانوا أخضع شيء لعلوم اليهود بيّنه ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ ﴾ (١)، حيث قال: «إنما كان هذا الحي من الأنصار، وهم أهل وثن، مع هذا الحي من اليهود، وهم أهل الكتاب، فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم» الحديث، وأيضاً الأصل أن تكون الشرائع موافقة لما عليه الملل الحقّة ما لم تكن من تحريفات القوم وتعمقاتهم، ليكون أتم لإقامة الحجّة عليهم، وأشدّ لطمأنينة قلوبهم، واليهود هم القائمون برواية الكتاب السماوي والعمل بما فيه.

العودة إلى استقبال الكعبة المشرفة:

ثم أحكم الله آياته وأطلع نبيه على ما هو أوفق بالمصلحة من هذا وأقعد بقوانين التشريع بالنفث في روعه (٢) أولاً، فكان يتمنى أن يؤمر باستقبال الكعبة، وكان يقلب وجهه في السماء طمعاً أن يكون جبرائيل نزل بذلك، وبما أنزل في القرآن العظيم.

ثانياً: وذلك لأن النبي ﷺ بعث في الأميين الأخذيين بالملة (٣) الإسماعيلية، وقدر الله في سابق علمه أنهم هم القائمون بنصرة دينه، وهم

(١) سورة البقرة/ الآية ٢٢٣ - فاتوا حرثكم: أي مكان زرعكم - أني شئتم: كيف شئتم.

(٢) قوله: «بالنفث في روعه» أي قلبه والنفث شبيه بالنفخ وهو أقل من التفيل والمراد به الوحي.

(٣) ملة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

شهداء الله على الناس من بعده، وهم خلفاؤه في أمته، وأن اليهود لا يؤمن منهم إلا شردمة قليلة، والكعبة من شعائر الله عند العرب أذعن لها أقاصيهم وأدانيهم، وجرت السنة عندهم باستقبالها شائعاً ذائعاً، فلا معنى للعدول عن ذلك.

ولما كان استقبال القبلة شرطاً - إنما أريد به تكميل الصلاة، وليس شرطاً - لا يتأتى أصل فائدة الصلاة إلا به تلا - رسول الله ﷺ فيمن تحرى في ليلة مظلمة وصلى لغير القبلة قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(١).

يومي إلى أن صلاتهم جائزة للضرورة.

(١) سورة البقرة/ الآية ١١٥.

فهرس

الجزء الأول لكتاب حجة الله البالغة

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب للسيد سابق	٥	الصوم شرع لقهر النفس	٢٨
المقدمة للشيخ شريف سكر	٧	الحج شرع لتعظيم شعائر الله	٢٨
تعريف	١٩	القصاص شرع زاجراً	٢٩
الحديث عمدة العلوم اليقينية	٢٠	الجهاد شرع لإعلاء كلمة الله	٢٩
تأليف العلماء في علوم الحديث	٢٠	أحكام المعاملات شرعت لإقامة العدل	٢٩
أدق الفنون الحديثة	٢١	النبي بين أسرار بعض العبادات	٢٩
قل من صنف في فنون الحديث المطلوبة	٢٢	النبي بين أسرار الترغيب والترهيب	٣١
التمكن في العلوم الشرعية ضروري لمعرفة		بعض الصحابة أشاروا إلى أسرار بعض	
أسرار الحديث	٢٢	الأحكام	٣١
سبب تأليف الكتاب رؤيا	٢٣	علماء السلف ذكروا بعض أسرار الأحكام	٣٢
رؤيا ثانية حثت على التأليف	٢٣	الشرع يخبر عن خواص الأعمال	٣٢
المعوق على الكتابة	٢٣	الناس قد لا يفطنون لحكمة الشرع	
صديق كريم يشجع على الكتابة	٢٤	لوحدهم	٣٢
استخارة الله تعالى في الأمر	٢٥	هذا العلم مضمون به على غير أهله	٣٣
مقدمة	٢٧	مثل من خالف النبي عليه السلام	٣٣
الأحكام الشرعية تتضمن مصالح العباد	٢٧	الأحكام معللة بالمصالح	٣٤
الأعمال معتبرة بالنيات	٢٧	بعض المسائل حكمها خفية	٣٤
الصلاة شرعت لذكر الله	٢٧	السلف لم يدونوا كل شيء	٣٥
الصلاة شرعت لحكم معينة	٢٨	علماء الدين راحوا يظهرون ما يبدو لهم	٣٥
		تدوين كتاب جامع في هذا الفن أجدى	٣٥

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٥	أسرار الشرائع ترجع إلى أصليين	٣٦	الأوائل كانوا في غنى عن تدوين كتب في هذا الفن
٤٦	القسم الثاني: شرح أسرار الأحاديث	٣٦	وكانوا في غنى عن كتب فنون الحديث
القسم الأول		٣٦	اختلاف العلماء في علل الأحكام شجع على التأليف
في القواعد الكلية التي تستنبط منها المصالح المرعية في الأحكام الشرعية		٣٦	فوائد التأليف: منها إيضاح معجزات النبي
المبحث الأول: في أسباب التكليف والمجازاة		٣٧	ومنها: بيان كمال الشريعة الإسلامية
٤٧	باب الإبداع والخلق والتدبير	٣٧	ومنها: الاطمئنان على الإيمان
٤٧	الخواص لا تنفك عما جعلت له	٣٨	ومنها: أن يعرف المؤمن مشروعية ما يعمل
٤٨	تدبير عالم المواليد	٣٨	ومنها: ردع المشككين
٤٩	القوة المودعة في المواليد	٣٨	ومنها: بيان أن الأحاديث الصحيحة توافق المصالح الشرعية
٤٩	حكمة الله أن يتصرف في تلك القوى بالقبض والبسط والإلهام	٣٩	مخالطة بعض المناظرين من أهل الكلام
٤٩	القبض	٣٩	أهل القبلة انقسموا إلى قسمين
٥٠	الإحالة	٤٠	١ - قسم نطقت به الآيات والسنة
٥٠	البسط	٤٠	ذهب قوم إلى التأويل والصرف عن الظاهر
٥٠	الإلهام	٤١	٢ - قسم لم ينطق به الكتاب والسنة
٥١	باب ذكر عالم المثال	٤١	الاختلاف في التفصيل والتفسير
٥١	في الوجود عالم غير عنصري	٤٢	السنة ترك الخوض في هذه المسائل
٥١	النبي يتحدث عن شيء من هذا العالم	٤٣	اتباع القسم الأول أفضل
٥٢	الدنيا في صورة عجوز شمطاء	٤٣	لكل فن خاصة ولكل موطن مقتضى
٥٢	النبي يرى الجنة والنار	٤٤	فن الحديث ما خلاص بعد تدوين الحديث وآثار الفقهاء
٥٣	النبي يتحدث عن القبر	٤٤	صدور الخطأ جائز
٥٣	المؤمن أمام هذه الأحاديث	٤٤	لا يجب موافقة أهل المناظرة في كل ما يقولون
٥٤	هذه الوقائع تتراءى لحسن الرائي	٤٥	هذا الكتاب قسمان: أحدهما قسم القواعد الكلية
٥٤	هذه الوقائع تمثيل لتفهم معانٍ أخرى	٤٥	وجود هذه الوقائع عند معانيها فقط
٥٥	مقامات التصديق بأمثال هذه الوقائع		
٥٥	وجود هذه الوقائع عند معانيها فقط		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٦	ما يدرك من الروح	٥٦	أسباب هذه الوقائع غير مألوفة وآثارها ثابتة
٦٧	الروح في البدن	٥٦	باب ذكر الملائكة الأعلى
٦٧	الروح في الحقيقة	٥٦	القرآن الكريم يتحدث عن أحوال الملائكة
٦٨	الموت انفكاك النسيمة لا انفكاك الروح	٥٧	الرسول عليه السلام يتحدث عن أحوال الملائكة
٦٨	إذا مات الإنسان كان للنسيمة نشأة أخرى	٥٧	الملائكة
٦٨	إذا نفخ في الصور اكتست الأرواح أجساماً	٥٨	جبريل ينادي في السماء بأمر الله
٦٩	النسيمة برزخ متوسط	٥٨	الملائكة يصلون على المؤمن في مجلس صلاته
٦٩	باب سر التكليف	٥٨	الملائكة يدعون لمن أصلح نفسه وسعى في إصلاح الناس
٦٩	الإنسان مكلف	٥٩	صحابي يطير مع الملائكة في الجنة
٦٩	ما هي الأمانة التي لم تحملها السماوات والأرض	٥٩	من الملائكة الأعلى ينزل القضاء
٦٩	الإنسان يليق بالتكليف	٦٠	الملائكة الأعلى على ثلاثة أقسام
٧٠	الملائكة فانية عن مراد نفسها إلى مراد من فوقها	٦١	اجتماع أفاضل الملائكة الأعلى
٧٠	البهائم مشعوفة بمقتضيات الطبيعة البهيمية	٦١	عالم دون الملائكة الأعلى تفيض عليه الملائكة من أعمال الملائكة
٧١	أودع الله في الإنسان قوتين تتجاذبان	٦٢	باب ذكر سنة الله
٧٢	لكل قوة لذة وألم	٦٢	بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم
٧٢	التكليف من مقتضيات النوع	٦٢	سبب التكليف
٧٢	باب انشقاق التكليف من التقدير	٦٣	أحكام أخرى أودعها الله
٧٢	انظر إلى آيات الله في الأشجار	٦٤	إذا تعارضت الأسباب
٧٣	انظر إلى آيات الله في الحيوان	٦٤	الترجيح يكون لقوة الأسباب
٧٤	انظر إلى نوع الإنسان وما فيه من خواص	٦٥	تأثير الكواكب
٧٤	انظر إلى تدبير الله لكل نوع	٦٥	النهي عن الكهانة
٧٥	جعل الله الإنسان قابلاً للإلهامات والعلوم	٦٦	باب حقيقة الروح
٧٦	اختلاف الإنسان عن الحيوان	٦٦	ما سكت عنه الشرع يمكن معرفته
٧٦	لكل نبات نفس مدبرة غير عاقلة		
٧٧	للإنسان نفس مدبرة عاقلة		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الأمور التي يمتاز بها الإنسان من سائر	٧٧	أفضل الناس مرتبة	٨٩
الحيوان	٧٧	باب في أسباب الخواطر الباعثة على	٩١
الاختيار شرط للمواخظة	٧٨	الأعمال	٩١
كيف يتم اعتدال مزاج الإنسان ويصلح	٧٨	الخواطر الباعثة على العمل	٩١
أمره	٧٨	باب لصوق الأعمال بالنفس وإحصائها	٩٢
لا بد من وجود روحاني لتلك العلوم ...	٨١	عليها	٩٢
اقتضت حكمة الله وجود رسول	٨١	الأعمال تنبعث من أصل النفس	٩٢
استوجب الإنسان تلقي علومه كسباً	٨١	إذا أكثر الإنسان عملاً معيناً لزمه وسهل	٩٣
ونظراً أو وحيًا	٨١	صدوره منه	٩٣
باب اقتضاء التكليف المجازاة	٨٢	تخلق النفس فارغة ثم تنصبغ	٩٤
الناس مجزيون بأعمالهم	٨٢	إحصاء صور نفس كل نفس	٩٤
١ - نوع الإنسان يقتضي أن يكون مجزياً	٨٢	كل صورة مفصحة عن ثمرة العمل ...	٩٥
٢ - الإنسان مجزي لعلاقته بالملأ الأعلى	٨٢	لوح الله لا يشبه لوح الخلق	٩٥
تأثير الملائكة بالإنسان	٨٣	باب ارتباط الأعمال بالهيئات النفسية ..	٩٦
الملائكة ترفع أعمال بني آدم	٨٣	الأعمال مظاهر الهيئات النفسية	٩٦
٣ - الشريعة تقتضي أن يكون الإنسان	٨٤	كل مخلوق له أعمال وهيئات يشار بها إليه	٩٦
مجزياً	٨٤	الأعمال هي التي تدخل تحت القدرة	٩٧
٤ - النبي إذا بعث إلى الناس كان ذلك	٨٤	والاختيار	٩٧
لطفاً من الله	٨٤	النفوس منها قوية	٩٧
المجازاة فطرة إلهية	٨٥	النفوس منها ضعيفة	٩٧
المواخظة متحققة	٨٥	استقرار الأعمال في الملأ الأعلى	٩٧
المجازاة مختلفة باختلاف الأعصار	٨٥	استقرار الأعمال يكون بوجوه	٩٨
المجازاة بعد التبليغ وكشف الشبهة	٨٦	باب أسباب المجازاة	٩٨
باب اختلاف الناس في جبلتهم	٨٦	١ - إحساس النفس من حيث قوتها	٩٨
الجبل ثابتة	٨٦	الملكية	٩٨
القوة الملكية في الناس على وجهين	٨٦	٢ - توجه حظيرة القدس إلى بني آدم ...	٩٩
القوة البهيمية على وجهين	٨٧	عناية الله تعالى بالناس	٩٩
اجتماع القوتين الملكية والبهيمية	٨٨	يتركب الأصلان فيحدثان معاً صوراً شتى	١٠٠
مراتب اجتماع القوتين الملكية والبهيمية	٨٨	عجبية	١٠٠

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
المبحث الثاني: مبحث كيفية المجازاة في الحياة وبعد الممات	١٠١	١١٤
باب الجزاء على الأعمال في الدنيا	١٠١	١١٥
العمل مسبب للجزاء	١٠١	١١٥
للملكية بروز وانفكاك	١٠٢	١١٥
إذا برزت الملكية	١٠٢	١١٦
الضابط في المجازاة الخارجية	١٠٣	١١٦
ربما كان حكم النظام أوجب	١٠٣	١١٧
المجازاة تكون في نفس العبد أو بدنه أو ماله	١٠٥	١١٩
باب ذكر حقيقة الموت	١٠٥	١١٩
لكل صورة معدنية أو حيوانية أو إنسانية مطية	١٠٥	١٢٠
ولكل صورة خواص مركبة	١٠٦	١٢٠
الصورة الإنسانية تتخذ النسمة مطية	١٠٦	١٢٠
كل صورة لا بد لها من مادة تقوم بها	١٠٦	١٢٠
دواعي مباشرة الأعمال	١٠٧	١٢٢
إذا مات الإنسان فسد جسده وبقيت نفسه	١٠٨	١٢٢
باب اختلاف أحوال الناس في البرزخ	١٠٩	١٢٣
الناس في عالم البرزخ طبقات	١٠٩	١٢٣
صنف أهل اليقظة	١٠٩	١٢٣
صنف هم أهل النور الطبيعي	١٠٩	١٢٣
صنف بهيميتهم وملكيتهم ضعيفتان	١١٠	١٢٤
هناك قوم قريبو المآخذ من الشيطان جبلة	١١٢	١٢٦
صنف بهيميتهم قوية وملكيتهم ضعيفة	١١٢	١٢٦
هناك نفوس ملكية استعدادهم أن يوكلوا	١١٣	١٢٦
باب ذكر شيء من أسرار الوقائع الحشرية	١١٣	١٢٦
الأرواح تنجذب إلى حظيرة القدس	١١٣	١٢٦
أفراد الإنسان لها أحكام متعددة	١١٤	١٢٧
الأحكام منها ظاهرة	١١٤	١١٤
والأحكام منها باطنة	١٠١	١١٤
متى تتحقق سعادة الأفراد	١٠١	١١٥
الأرواح تنجذب إلى الحضرة	١٠١	١١٥
الأشياء المتحققة في الخارج بمنزلة الرؤيا	١٠٢	١١٥
تعلق النفس الناطقة بالنسمة	١٠٢	١١٦
مجازاة النفوس عقب البعث	١٠٣	١١٦
الخروج من ظلمات التخليط إلى النعمة	١٠٣	١١٧
المبحث الثالث: مبحث الارتفاقات	١١٩	١١٩
باب كيفية استنباط الارتفاقات	١١٩	١١٩
أهم الله الإنسان كيف يلبي حاجاته	١١٩	١١٩
إلهام الإنسان ذو نوعية عالية	١٢٠	١٢٠
الانبعاث إلى شيء من رأي كلي	١٢٠	١٢٠
الإنسان يطلب مع الارتفاق الطرافة	١٢٠	١٢٠
الإنسان يستغبط الارتفاقات أو يقلد من يستغبط	١٢٠	١٢٠
للارتفاقات حدان	١٢٢	١٢٢
ارتفاق الطرف الأعلى	١٢٢	١٢٢
الاضطرار إلى إقامة خليفة	١٢٣	١٢٣
باب الارتفاق الأول	١٢٣	١٢٣
اللغة من الارتفاقات المهمة	١٢٣	١٢٣
ومن الارتفاقات: الزراعة والصناعة والسكنى	١٢٤	١٢٤
باب فن آداب المعاش	١٢٦	١٢٦
اختيار الهيئات النافعة	١٢٦	١٢٦
ترقية آداب الأكل والشرب واللباس وسواها	١٢٦	١٢٦
تجنب ما فيه ضرر	١٢٦	١٢٦
استحباب ما ينفع	١٢٧	١٢٧

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
ترقية المظاهر الإنسانية	١٢٧	مكافحة السباع الضارية والهوام	١٣٨
اختيار الكلام الكريم	١٢٨	الاستفادة من المياه والأنهار	١٣٨
باب تدبير المنزل	١٢٨	وجوب إخلاص أهل المهن لمهنتهم	١٣٨
الصلوات البشرية	١٢٨	سبب خراب البلدان	١٣٨
الصلوات العائلية	١٢٨	باب سيرة الملوك	١٣٩
تنظيم العلاقة الجنسية	١٢٩	صفات الملك الخلقية	١٣٩
عقد الزواج علناً	١٣٠	لا بد للملك من الهيبة	١٤٠
تنظيم الفراق	١٣٠	على الملك أن يظهر النصح والمحبة	١٤٠
تنظيم علاقة الأبناء بالأباء	١٣٠	طاعة الملك واجبة	١٤١
اختلاف الاستعداد أوجب وجود طبقات		على الملك أن يكون ذا فراسة	١٤١
اجتماعية	١٣١	باب سياسة الأعوان	١٤٢
الحاجات على حدين	١٣٢	أعوان الملك وشروطهم	١٤٢
معرفة الأسباب المقتضية للزواج وتركه	١٣٢	أنواع الأعوان	١٤٢
باب فن المعاملات	١٣٣	سياسة جباية الضرائب	١٤٢
مبادلة الحوائج ضرورة إنسانية	١٣٣	لا بد للملك من سياسة جنوده	١٤٣
اختيار الذهب والفضة في المبادلات	١٣٣	أعوان الملك خمسة	١٤٣
أصول المكاسب	١٣٣	القاضي	١٤٤
تنوع حواشي المكاسب	١٣٤	أمير الجند	١٤٤
أنواع المبادلة	١٣٤	سائس المدينة	١٤٤
باب سياسة المدينة	١٣٥	عامل الجباية	١٤٤
المدينة شخص واحد	١٣٥	وكيل معاش الملك	١٤٥
اختيار شخص واحد	١٣٥	باب الارتفاق الرابع	١٤٥
اختيار شخص لإدارة المدينة	١٣٥	لا بد من خليفة يربط بين الأقاليم	١٤٥
المدينة تتعرض لأنواع الخلل	١٣٦	الأنبياء يصلحون الملوك	١٤٦
وجوب منع الظلم والتعدي	١٣٦	لا بد للخليفة من رجال ومال	١٤٦
وجوب منع الفساد	١٣٦	الخليفة متيقظ دائماً	١٤٧
منع المعاملات الضارة	١٣٧	باب اتفاق الناس على أصول الارتفاقات	١٤٨
منع الخصومات ومنع أسبابها	١٣٧	لا يخلو إقليم معمور من الارتفاقات	١٤٨
توزع الاختصاصات	١٣٧	لا يخالف الارتفاقات إلا البله والفجار	١٤٨

١٦٠	تفصيل وجهي تحصيل السعادة	١٤٩	الارتفاقات
١٦١	باب الأصول التي يرجع إليها تحصيل الطريقة الثانية	١٥٠	باب الرسوم السائرة في الناس
١٦١	طرق تحصيل السعادة على الوجه الثاني مرجعها إلى أربع خصال	١٥٠	الرسوم من الارتفاقات المقصودة في الشرائع
١٦١	الخصلة الأولى: الطهارة	١٥٠	الرسوم السائرة حافظة للارتفاقات
١٦١	الطهارة أشبه الصفات النسمية بحالات الملأ الأعلى	١٥١	يجب بذل الجهد في إشاعة الحق وتمشيته
١٦٢	الخصلة الثانية: الإخبات لله تعالى	١٥٣	المبحث الرابع: مبحث السعادة
١٦٣	الخصلة الثالثة: السماحة	١٥٣	باب حقيقة السعادة
١٦٣	الخصلة الرابعة: ملكة في النفس تصدر عنها الأفعال الكريمة	١٥٣	للإنسان كمالات تقتضيها الصورة النوعية أصل الكمالات موجود في أفراد الحيوان
١٦٤	إن حققت الخصال الأربع كنت فقيهاً ..	١٥٤	أصل الصناعات موجود في الحيوان
١٦٥	باب طريق اكتساب هذه الخصال وتكميل ناقصها	١٥٤	الأمور التي تشترك بالسعادة الحقيقية ..
١٦٥	التدبير العلمي لاكتساب الخصال الأربع	١٥٥	العبادات والرياضات
١٦٦	مسالك الأنبياء	١٥٦	أفراد الإنسان تشاق إلى السعادة الحقيقية
١٦٧	مسلك نبينا عليه السلام	١٥٦	باب اختلاف الناس في السعادة
١٦٧	التدبير العلمي لاكتساب الخصال الأربع لكل واحد من الخصال أسباب	١٥٦	اختلاف الناس في سائر الأخلاق
١٦٨	أسباب الطهارة	١٥٧	منهم الفاقد
١٦٩	باب الحجب المانعة عن ظهور الفطرة ..	١٥٧	منهم الذي خلق فيه أصل الخلق
١٦٩	الحجب المانعة لظهور الفطرة ثلاثة	١٥٧	منهم الذي خلق فيه الخلق كاملاً
١٦٩	حجاب النفس	١٥٨	منهم الفاقد الذي يرجى له
١٧٠	حجاب الرسم	١٥٨	ومنهم الأنبياء الذين يتأتى لهم الخروج إلى الكمال
١٧٠	من الناس من لا يزال مستغرقاً في الحجب	١٥٨	باب توزع الناس في كيفية تحصيل هذه السعادة
١٧٠	معظم الخطأ شيثان: تشبيه وإشراك	١٥٨	تحصيل السعادة بالانسلاخ عن الطبيعة البهيمية
١٧١	باب طريق رفع هذه الحجب	١٥٩	تحصيل السعادة بإصلاح البهيمية
١٧١	تدبير حجاب الرسم	١٥٩	التدبير الإلهي بإرسال الرسل

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
منشأ سوء المعرفة بالإشراك والتشبيه	١٧٢	أمور جعلها الله في الشريعة الإسلامية من
المبحث الخامس: مبحث البر والإثم	١٧٤	مظنات الشرك
تعريف البر	١٧٤	١ - السجود لغير الله
تعريف الإثم	١٧٤	٢ - الاستعانة بغير الله في قضاء الحوائج
للبر سنن أهمها الله قلوب المؤيدين بالنور	١٧٤	٣ - تسمية بعض شركائهم بنات الله وأبناء
الملكى	١٧٤	الله
أسباب شيوع سنن البر	١٧٥	٤ - اتخاذ الأحرار أرباباً من دون الله
باب التوحيد	١٧٥	نسبة التحليل والتحريم إلى الرسول
التوحيد أصل أصول البر	١٧٥	التقرب إلى الأصنام والنجوم بالذبح
مراتب التوحيد	١٧٦	٦ - الحلف بالأسماء المباركة المعظمة
اختلاف الطوائف في التوحيد والشرك	١٧٧	٧ - الحج لغير الله تعالى
الفرقة الأولى: النجامون	١٧٧	٨ - تسمية الأبناء عبد العزى وعبد شمس
الفرقة الثانية: المشركون	١٧٧	ونحوهما
الفرقة الثالثة: النصارى	١٧٨	باب الإيمان بصفات الله تعالى
باب في حقيقة الشرك	١٧٩	من أعظم البر الإيمان بصفات الله تعالى
العبادة هي التذلل الأقصى	١٧٩	استعمال الصفات بمعنى وجود غايتها
السجود أعظم صور التعظيم	١٧٩	لم ينقل عن النبي وجوب تأويل الصفات
الإنسان إذا خلى ونفسه أدرك من يستحق	١٧٩	وجوب تنزيه الله عن مشابهاة المخلوقات
التقدير	١٧٩	تفسير الصفات بما يليق بجناب الله
العلم بالمغيبات يجعل الإنسان على درجتين	١٨٠	القول الحق في صفات الله
العلم بالمغيبات يجعل العظمة والشرف	١٨٠	ما يجوز استعماله وما لا يجوز من الصفات
والقوة على درجتين	١٨٠	التفسير الأقرب والأوفق للصفات
تحميل نصوص الشرائع غير محلها	١٨١	نموذج من التفسير
كل نبي لا بد أن يظهر حقيقة الشرك	١٨١	باب الإيمان بالقدر
المرضى بالإشراك على أصناف	١٨٢	من أعظم البر الإيمان بالقدر
مبنى التشريع إقامة المظنة مقام الأصل	١٨٣	علم الله الأزلي يشمل كل ما وجد
باب أقسام الشرك	١٨٣	١ - أوجد العالم على أحسن وجه ممكن
حقيقة الشرك	١٨٣	٢ - كتب مقادير الخلائق كلها
	١٨٣	٣ - خلق الله آدم ليكون أباً للبشر

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
٤ - نفخ الروح في الجنين	١٩٨	٢١٠
٥ - إنزال الأمر من حظيرة القدس قبل وقوعه	١٩٨	٢١١
٦ - يخلق الله الحوادث ويمحوها أو يثبتها	١٩٨	٢١١
القدر لا يزاحم سببية الأسباب ومسبباتها	١٩٩	٢١١
باب الإيمان بأن العبادة حق الله تعالى على عباده	٢٠٠	٢١٢
الإيمان حق الله تعالى على عباده	٢٠٠	٢١٢
مواطن من مواطن الجبروت فيه إرادة وقصد	٢٠١	٢١٣
المنكرون لما سبق ذكره محجوجون محجوبون	٢٠١	٢١٣
الاختيار معلول لا يتخلف عن الله	٢٠٢	٢١٤
ثبتت الإرادة وثبتت المجازاة	٢٠٣	٢١٤
المقامات المسلمة شراً	٢٠٣	٢١٥
في روح الإنسان لطيفة نورانية تميل إلى الله إذا كان الإنسان في غاشية سفلية، كان كالمخدر	٢٠٤	٢١٥
إذا مات الإنسان وهو غير مقبل على الله فهو شقي	٢٠٤	٢١٦
باب تعظيم شعائر الله تعالى	٢٠٦	٢١٧
مبنى الشرائع على تعظيم شعائر الله تعالى	٢٠٦	٢١٧
القرآن من شعائر الله	٢٠٨	٢١٧
الكعبة من شعائر الله	٢٠٨	٢١٧
النبي من شعائر الله	٢٠٩	٢١٨
الصلوة من شعائر الله	٢٠٩	٢١٨
باب أسرار الوضوء والغسل	٢٠٩	٢١٩
الانتقال من ظلمات الطبيعة إلى أنوار حظيرة القدس	٢٠٩	٢١٩
الحدث يقبض النفس والطهارة تشرحها	١٩٨	٢١٠
اشتغال النفس بالشهوة يوجهها إلى البهيمية	١٩٨	٢١١
قضاء الشهوة يؤثر في تلويث النفس	١٩٨	٢١١
الصلوة تنحصر في جنسين	١٩٩	٢١١
الطهارة الكبرى: آلة تنبه النفس تنبيهاً قوياً	٢٠٠	٢١٢
الطهارة الصغرى: تنحصر في الأطراف	٢٠٠	٢١٢
الطهارة باب يتوقف كمال الإنسان عليه	٢٠١	٢١٣
بالطهارة تستقر في النفس شعبة من نور الملائكة	٢٠١	٢١٣
باب أسرار الصلاة	٢٠١	٢١٤
الإنسان قد يختطف إلى الحظيرة المقدسة	٢٠٢	٢١٤
أصل الصلاة ثلاثة أشياء: أولها خفق القلب	٢٠٣	٢١٥
ثانيها المناجاة	٢٠٤	٢١٥
ثالثها تعفير الوجه	٢٠٤	٢١٥
الصلوة أم الأعمال المقربة إلى الله	٢٠٤	٢١٦
الصلوة فكر مصروف تلقاء عظمة الله	٢٠٥	٢١٦
الصلوة معراج المؤمن	٢٠٥	٢١٦
باب أسرار الزكاة	٢٠٦	٢١٧
إذا تضرع المسكين إلى الله قرع باب الجود الإلهي	٢٠٦	٢١٧
ربما كان الإنفاق في مصرف مظنة لرحمة الله	٢٠٨	٢١٧
الإنفاق في حق الله أنفع شيء	٢٠٨	٢١٨
بإهلاك المؤمن ماله يمحو هلاكه	٢٠٩	٢١٩
الصدقة تزيد في البركة وتطفىء غضب الله	٢٠٩	٢١٩
باب أسرار الصوم	٢٠٩	٢٢٠

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
الجوع والعطش يجعلان سورة الطبيعة	٢٢٩	٣ - ترك ما ينجي وفعل ما يستوجب اللعن
تنقاد للملكية	٢٢٩	٤ - معصية الشرائع
انقياد الطبيعة للعقل كمال له	٢٢٩	٥ - فعل ما لم ينص عليه الشارع
الصوم يكفر من الخطايا بقدر ما اضمحل	٢٣١	باب مفسد الآثار الكبيرة
من سورة البهيمية	٢٣١	الكبيرة ذنب يوجب العذاب في القبر
الإنسان إذا قهر النفس وصل إلى الذات	٢٣١	والمحشر
من قبل التنزيه	٢٣١	الصغيرة ذنب دون الكبيرة
باب أسرار الحج	٢٣١	تفصيل معنى الكبيرة
حقيقة الحج	٢٣٢	إذا مات صاحب الكبيرة قبل التوبة
أحق ما يحج إليه بيت الله	٢٣٣	باب المعاصي التي هي فيما بينه وبين نفسه
الحج طهارة نفسية	٢٣٣	القوة الملكية تكتنفها القوة البهيمية
الحج عرضة يتميز به الموفق من المنافق ..	٢٣٣	أشد شقاوة الإنسان أن يكون دهرياً ..
باب أسرار أنواع من البر	٢٣٤	إذا مات الدهري شف الحجاب وبرزت
١ - الذكر لا حجاب بينه وبين الله	٢٣٤	الملكية
٢ - الدعاء مخ العبادة	٢٣٤	إجماع الملا الأعلى سبب لإلهامات في قلوب
٣ - القرآن مصقلة القلب	٢٣٥	البشر
٤ - صلة الأرحام والجيران باب لنزول	٢٣٥	عواقب ترك الامثال لما أمر الله
الرحمة	٢٣٦	عواقب ترك الامثال لبعض أوامر الله ..
٥ - الجهاد يفني به المرء عن مراده إلى مراد	٢٣٧	باب الآثام التي هي فيما بينه وبين الناس
الحق	٢٣٧	الحيوان على مراتب
٦ - ومن أنواع البر: الرحمة المصلحة	٢٣٧	الإنسان ميزه الله على الحيوان
للعمل	٢٣٨	أعمال الإنسان ثلاثة أصناف
٧ - المصائب تكسر حجاب الطبع	٢٣٨	١ - الإنسان نظم الأعمال الشهوية
٨ - المرض يحلل السيئات	٢٣٩	بعض الرجال غلبتهم الشهوة الفاسدة ..
٩ - نصيب المؤمن في الدنيا	٢٣٩	بعض الرجال غلبت شهوتهم عقولهم ..
باب طبقات الإثم	٢٤٠	٢ - الإنسان نظم القوة الغضبية والقتالية
١ - الإثم يسد السبيل إلى الكمال	٢٤٠	٣ - الأعمال الناشئة من المعاملات
٢ - التكبر البهيمي على ما نصبه الله من	٢٤١	استقرت في نفوس بني آدم ضرورة
كمال	٢٤١	ملاحظة المصلحة الكلية

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المبحث السادس : مبحث السياسات المالية	٢٤٣	الاختلاف في الشرائع والمناهج	٢٥٥
باب الحاجة إلى هداة السبل ومقیمی الملل	٢٤٣	أجمع الأنبياء على أنواع البر	٢٥٥
الناس يحتاجون إلى عالم تؤمن فلتاته	٢٤٣	الاختلاف في صور هذه الأمور	٢٥٥
الأمم بحاجة إلى رجل هو في أعلى درجة		الطاعات هي أعمال تنبعث من الهيئات	
من أصناف النفوس	٢٤٤	النفسية	٢٥٦
يجب أن يثبت علماء رؤوس الأشهاد أن		الأثام ربما تشبه بما ليس بإثم	٢٥٦
هذا الرجل عالم معصوم	٢٤٤	ميزان التشريع	٢٥٧
عصمة هذا العالم إنما تكون من الله تعالى	٢٤٥	إذا أراد الله بعثة الرسل أوحى إليهم أمره	٢٥٨
يجب أن يكون لهذا الرجل ملكة جبلية	٢٤٥	باب أسباب نزول الشرائع الخاصة بعصر	
باب حقيقة النبوة وخواصها	٢٤٦	دون عصر	٢٥٩
المفهمون هم أعلى طبقات الناس	٢٤٦	نزول شريعة في عصر وقوم مخصوصين	٢٥٩
المفهمون على أصناف	٢٤٧	سبب تحريم لحم الإبل على بني إسرائيل	٢٥٩
إذا اقتضت الحكمة الإلهية أن يبعث واحداً		خشية النبي أن تتحول السنة إلى فرض	٢٦٠
من المفهمين فهو النبي	٢٤٨	اختلفت شرائع الأنبياء لأسباب ومصالح	٢٦١
الحكمة الإلهية تقتضي بعث الرسل	٢٤٩	من عرف أصل الدين وأسباب الاختلاف	
إذا بعث الله نبياً وجب على المبعوث لهم أن		لم يجد تغييراً ولا تبديلاً	٢٦١
يتبعوه	٢٥٠	أسباب نزول المناهج في صورة خاصة	٢٦٢
أكثر الناس خلقوا لكي يتلقوا ما لهم وما		الطيب والخبيث في الإسلام كان مفروضاً	
عليهم بواسطة	٢٥٠	إلى عادات العرب	٢٦٣
أسباب العصمة	٢٥١	حق الله على عباده أن يعظموه	٢٦٤
من سيرة الأنبياء : التفكير في المخلوق لا		كثير من العادات والعلوم الكامنة يتفق	
الخالق	٢٥٢	فيها العرب والعجم	٢٦٥
من سيرة الأنبياء : أن يكلموا الناس على		النبوة الجديدة لا تغير إلا ما دخله	
قدر عقولهم	٢٥٢	التحريف	٢٦٥
من سيرة الأنبياء : أن يشتغلوا في تهذيب		اختلاف المناهج لسبب طارئ عارض	٢٦٦
النفس	٢٥٣	دعاء النبي سبب لنزول القضاء	٢٦٧
باب بيان أن أصل الدين واحد والشرائع		سؤال النبي لربه سبب لنزول الأحكام	٢٦٧
والمناهج مختلفة	٢٥٤	باب أسباب المؤاخذة على المناهج	٢٦٨
الدين واحد	٢٥٤	هل يترتب الثواب والعذاب على المناهج	٢٦٨

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
هناك خلاف في ترتيب الثواب والعقاب	٢٦٩	٢ - كتابة المقدار المتوجب ٢٨٠
الحق ما ذهب إليه أهل الملل	٢٦٩	٣ - أن يكون التكليف ظاهراً منضبطاً .. ٢٨١
أهم الله الملا الأعلى أن المظنات قائمة مقام	٢٧٠	إلى الأعلى والأدنى للفريضة ٢٨١
الاصول	٢٧٠	إذا أراد الإنسان أن يحصل خلقاً وجب
لما بعث الله النبي أيده بروح القدس	٢٧٠	عليه أمور ٢٨١
الملا الأعلى يؤيد النبي فيما يأمر وينهي	٢٧١	سر نسبة بعض الأعمال للشياطين ٢٨٢
باب أسرار الحكم والعلّة	٢٧٢	مزاج أهل الوجدان السليم ٢٨٣
رضي الله عن أفعال العباد أو سخطه	٢٧٢	كشف الله لنييه الأفعال التي تعطيها أمزجة
عليها هو الحكم	٢٧٢	الشياطين ٢٨٣
طلب الله من عباده الفعل أو الترك تقتضي	٢٧٣	أسباب جعل الشيء فرضاً بالكفاية ٢٨٤
الثواب والعقاب	٢٧٣	باب أسرار الأوقات ٢٨٥
الأحكام خمسة	٢٧٣	هناك أوقات أقرب لقبول الطاعات ... ٢٨٥
الوحدة التي يدور الحكم على دورانها	٢٧٤	من الأوقات ما يدور بدوران السنين ... ٢٨٦
أولاً: قسم يعتبر حالة في المكلفين	٢٧٤	من الأوقات ما يدور بدوران الأسبوع . ٢٨٦
ثانياً: قسم يعتبر حال ما يقع عليه الفعل	٢٧٥	من الأوقات ما يدور بدوران اليوم ٢٨٧
أو ما يلابسه	٢٧٥	لم تفرض الصلاة في الليل لما في ذلك من
لا يتعلق الرضا والسخط بالأفعال إلا	٢٧٥	الحرج ٢٨٧
بسبب	٢٧٥	التوجه إلى الله في وقت خالٍ من
يجب أن تكون علة الحكم صفة يعرفها	٢٧٦	التشويشات الطبيعية ٢٨٨
الجمهور	٢٧٦	تعهد النفس بعد كل برهة من الزمان .. ٢٨٩
لم يخص للعلية إلا ما تميز	٢٧٧	الفصل بين كل وقتين ربع النهار ٢٨٩
باب المصالح المقتضية لتعيين الفرائض	٢٧٧	وقت أداء الطاعة هو وقت مذكر لنعمة من
والأركان والآداب	٢٧٧	نعم الله ٢٨٩
يجعل الشيء ركناً بسبب	٢٧٨	باب أسرار الأعداد والمقادير ٢٩٠
يقاس الشرط بالركن	٢٧٩	لم يخص الشرع عدداً إلا للحكم ومصالح
اشتراط الهيئة مفيد في مواضع كثيرة	٢٧٩	الوتر عدد مبارك ٢٩١
إذا فرض شيء من الطاعات يجب ملاحظة	٢٨٠	الوتر على مراتب شتى ٢٩١
أمور	٢٨٠	سر الترغيب والترهيب بالعدد ٢٩٢
١ - لا يكلف إلا بالميسر	٢٨٠	منافع الجماعة ترجع إلى ثلاثة أقسام ... ٢٩٤

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
منافع الجماعة في خمسة	٢٩٥	ملوك العجم والروم خاضوا في لذة الدنيا
ربما يؤتى بالعدد إظهاراً لعظم الشيء ...	٢٩٥	ونسوا الآخرة
يقدر الشيء بمقدار معلوم	٢٩٥	التعرف على هذا المرض الاجتماعي ...
العدد المعتبر في باب الزكاة	٢٩٦	بعث الله نبينا وجعله ميزاناً يعرف به
العدد المعتبر في حال العرب	٢٩٧	الهدى
باب أسرار القضاء والرخصة	٢٩٧	كان أهل الجاهلية في حالة اجتماعية سيئة
يجب العمل بالحكم ولو لم يعلم الغرض		فأصلحها النبي
منه	٢٩٧	باب الأحكام التي يجرب بعضها لبعض ...
إذا منع من المأمور مانع ضروري قام مقامه		إذا جرى الله سنته على نحو ترتب الأسباب
شيء آخر	٢٩٨	المفضية إلى مسيئاتها
لا بد من شرع القضاء إذا فات وقت		في الخير العالي طلب واقتضاء لبقاء الأنواع
العمل	٢٩٩	شرع الله لبني آدم شريعة ينتظم بها شملهم
قسم لا يترك في المكروه والمنشط سواء ...	٢٩٩	ويصلح حالهم
قسم يرخص فيه عند المكروه	٢٩٩	إذا أوحى الله إلى نبيه حكماً كان له أخذ
٢ - ينبغي أن يلتزم في البدل شيء يذكر		المصلحة منه ويقيس عليه
الأصل	٣٠٠	إذا فهم النبي من آية وجهاً كان له أن
٣ - ليس كل حرج يرخص لأهله	٣٠٠	يحكم به
كل عمل من غير قصد يُعذر فاعله	٣٠١	إذا أمر الله نبيه بشيء وجب عليه أن يأمر
باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم		الناس به
الرسوم من الارتفاقات بمنزلة القلب من		إذا نهى الله نبيه عن شيء وجب عليه أن
الجسد	٣٠١	ينهاهم عنه
أصل بعثة الأنبياء تعليم وجوه العبادات		إذا أمر الله نبيه بشيء اقتضى ذلك أن يرى
الأنبياء أمروا بتعديل الارتفاقات	٣٠٢	في مقدماته ودواعيه
هنا قياسان متعارضان، أحدهما الترفه		إذا أمر الله بشيء أو نهى عنه اقتضى ذلك
حسن	٣٠٣	أن ينوه بالمطيعين
ثانيهما، الترفه فيبيع	٣٠٣	إذا أمر الله القوم بشيء كان من حق ذلك
الأنبياء يقرون ما يرون من حسن	٣٠٣	أن يؤمروا بعزيمة الإقدام
الرايخ في العلم يعلم أن الشرع يأتي		إذا كان شيء يحتمل مفسدة كان من حقه
مقوماً	٣٠٤	أن يكره

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
باب ضبط المبهم وتمييز المشكل والتخريج	١٢ - الشارع يخاطب على ميزان العقل ..	٣٢٦
من الكلية ونحو ذلك	باب أسرار الترغيب والترهيب	٣٢٦
أخذ مال الغير أقسام عدة	هناك قواعد كلية ترجع إليها جزئيات	٣٢٧
طريق تميز الأخذ أن ينظر إلى ذاتيات هذه	الترغيب والترهيب	٣٢٧
الأسامي	طرق الترغيب والترهيب	٣٢٨
ضبط النبي حدود كل أخذ	من طرق الترغيب والترهيب بيان الأثر	٣٢٨
الرفاهية مفسدة وغير مضبوطة	المرتب على العمل	٣٢٨
أطلق الشرع التنبيه على مفاصد الرفاهية	من طرق الترغيب بيان أثره في الحفظ عن	٣٢٨
تحريم بعض البيوع	الشیطان	٣٢٨
اشتباه صور بعض المعاملات	لا يحكم على الشيء بكونه سبباً للشواب	٣٢٩
خص الله النكاح بأمور	والعذاب	٣٢٩
ربما يكون فعل من البر مشتبهاً بمقدمات	العمل الشاق يشرح الإخلاص ويعرف	٣٢٩
الأخر	صدق العزيمة	٣٣٠
مثال آخر على فعل البر المشتبه	الإنسان إذا مات ورجع إلى نفسه لا بد أن	٣٣٠
تخصيص النبي بحكم من بين أمته	تظهر صورة التألم والتنعم	٣٣١
باب التيسير	تشبيح المعاني في كلام النبي عليه السلام	٣٣١
يحصل التيسير بوجوه	ومن طرق الترغيب تشبيه العمل بما تقرر	٣٣٢
١ - أن لا يجعل ما يشق ركناً أو شرطاً ...	في الأذهان	٣٣٢
٢ - جعل شيء من أفعال الدنيا طاعات	باب طبقات الأمة باعتبار الخروج إلى	٣٣٢
٣ - جعل ما يرغبون فيه طاعات	الكمال المطلوب أو ضده	٣٣٣
٤ - وضع الإصر عن المكلفين	مراتب النفوس	٣٣٤
٥ - إبقاء شيء مما تقتضيه طبيعة أكثر الناس	جنس أصحاب الاصطلاح والعلو	٣٣٤
٦ - جعل تعلم العلم والموعظة سنة بينهم	جنس أصحاب تجاذب وعلو	٣٣٤
٧ - فعل الرسول ما يدعوهم إليه ليعتبروا	المفردون والصديقون	٣٣٥
به	الشهداء	٣٣٥
٨ - إرغام من أراد غير الحق بتأييده	الراسخون في العلم	٣٣٥
٩ - تشريع ما فيه مشقة شيئاً فشيئاً	العباد الذين أدركوا فوائد العبادة عياناً ..	٣٣٥
١٠ - ألا يفعل الرسول ما تختلف به قلوبهم	الزهاد الذين أيقنوا بالمعاد	٣٣٦
١١ - ضبط أعمال البر ليسهل فعلها ...	لكل فرقة من هؤلاء استعداد جبلي	٣٣٦

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
أصحاب اليمين أجناس ٣٣٦	٢ - إعلان أن غير المسلمين ليسوا أكفاء
أصحاب الأعراف ٣٣٨	للمسلمين
الذين نشأوا في الرذائل ٣٣٩	٣ - تكليف الناس بأشباح البر
المنافقون ٣٣٩	٤ - إثبات الدين بأمور برهانية
المشركون شركاً خفياً ٣٣٩	باب إحكام الدين من التحريف
أهل الضعف والمجون ٣٣٩	صيانة الدين من التحريف
الفاسقون ٣٤٠	من أسباب التحريف: التهاون
أصحاب الأمزجة الفاسدة ٣٤٠	من أسباب التحريف عدم تحمل الرواية
آخرهم مرتبة الكفار ٣٤٠	من أسباب التحريف الأغراض الفاسدة
باب الحاجة إلى دين ينسخ الأديان ٣٤٠	من أسباب التحريف التعمق
الملل لا تخلو من اعتقاد صدق ٣٤٠	من أسباب التحريف التشدد
لكل قوم سنة وشريعة ٣٤١	ومن أسباب التحريف: الاستحسان
وقوع الجور والابتداع ٣٤١	من أسباب التحريف الإجماع غير المشروع
هذا الإمام مصلح مجاهد ٣٤٢	ومن أسباب التحريف تقليد غير المعصوم
الإمام يحمل الناس جميعاً على اتباع ٣٤٢	ومن أسباب التحريف خلط ملة بملة
الشريعة الواحدة ٣٤٢	أخرى
تكاثر الاتباع يحتاج إلى زمن متطاوّل ٣٤٢	باب أسباب اختلاف دين نبينا ودين اليهود
مراعاة الأمم القادمة في التشريع ٣٤٣	والنصرانية
أحسن الأقاليم لنشر رسالة الشريعة ٣٤٣	تبدأ الملة صحيحة مستقيمة ثم يدركها
دمغ الله باطل العرب بالنبي وباطل ٣٤٤	التعديل
المملكتين بالعرب ٣٤٤	الله يبعث رسولاً مصححاً
علم النبي العرب الدين وجعل فيهم ٣٤٤	كان الأنبياء قبل محمد يزيدون ولا ينقصون
الخلافة العامة ٣٤٤	الملة اليهودية حملها الأحبار فحرفوها
جعل الله الدين الإسلامي غالباً الأديان ٣٤٥	بعثة محمد هي أولاً لبني إسماعيل
كلها ٣٤٥	بعثة محمد هي ثانياً إلى أهل الأرض كافة
غلبة الإسلام لها أسباب ٣٤٥	بعثة محمد جاءت في زمن اندرست فيه
١ - إعلان شعائر الإسلام دون سواها ٣٤٥	الملل الحققة
 ٣٥٦	باب أسباب النسخ

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
النسخ يكون أولاً في الارتفاقات والطاعات ٣٥٦	من بقايا الخيفية السمحة عند أهل الجاهلية ٣٦٧
النسخ يكون ثانياً في شيء مظنة مصلحة أو مفسدة ٣٥٨	أول من أفسد دين العرب عمرو بن لحي ٣٦٩
الحكمة في إباحة الغنائم للنبي محمد وأمه ٣٥٨	أبقى محمد بقية الملة الصحيحة ٣٦٩
الإذن بقتال الكفار بعد أن قوي المسلمون ٣٥٩	قام الرسول بالخلافة الكبرى ٣٧٠
باب بيان ما كان عليه حال أهل الجاهلية فأصلحه النبي عليه السلام ٣٦٠	المبحث السابع: مبحث استنباط الرائج من حديث الرسول عليه السلام ٣٧٠
بعثة محمد بالملة الخيفية الإسماعيلية ٣٦٠	باب بيان أقسام علوم النبي عليه السلام ٣٧١
بنو إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل ٣٦١	الحديث نوعان: أولاً ما سببه تبليغ الرسالة ٣٧١
بعث محمد لإصلاح عوج بني إسماعيل ٣٦١	علوم النبي بعضها مستند إلى الوحي ٣٧١
كان أهل الجاهلية يسلمون بجواز بعثة الأنبياء ٣٦١	اجتهاد النبي بمنزلة الوحي ٣٧١
كان في أهل الجاهلية فساق وزنادقة ٣٦٢	من علوم الرسل حكم مرسله ومصالح مطلقة ٣٧٢
وكان في أهل الجاهلية الجاهلون والغافلون ٣٦٢	ومن أحاديث الرسول ما هو في فضائل الأعمال ٣٧٢
من أصول أهل الجاهلية الحسنة إيمانهم بوجود الله ٣٦٣	ثانياً: ما ليس من باب تبليغ الرسالة ٣٧٢
من زندقة أهل الجاهلية اعتقادات خاطئة في الملائكة ٣٦٣	باب الفرق بين المصالح والشرائع ٣٧٣
من اعتقاد الجاهلين زعمهم أن الله اتخذ الملائكة بنات له ٣٦٣	علم المصالح والمفاسد ٣٧٤
ومن اعتقاداتهم الحسنة إيمانهم بالقدر ٣٦٤	علم الشرائع والحدود والفرائض ٣٧٥
ومن اعتقاداتهم أن العباد مكلفون ٣٦٤	حقيقة القياس ٣٧٦
كثرت الملا الأعلى في أشعار الجاهلية ٣٦٥	الشرع يتعلق بالمصلحة لا بحل تلك المصلحة ٣٧٧
كان الجاهليون يعتقدون أن حملة العرش أربعة ٣٦٥	إذا فعل الصحابة ما يشبه التقدير ٣٧٨
كانت الحججة تقام على الجاهلين ببقية ما عندهم من العلم ٣٦٦	الإيجاب والتحريم نوعان من التقدير ٣٧٨
		الندب والكراهة ٣٧٩
		باب كيفية تلقي الأمة الشرع من النبي ﷺ ٣٧٩
		التلقي الظاهر ٣٧٩

الصفحة	الموضوع	الصفحة الموضوع	الموضوع
٣٩٢	٤ - ما لا يدركه إلا المتعمقون	٣٨٠	التلقي دلالة
٣٩٣	باب كيفية فهم المعاني الرعية من الكتاب	٣٨١	قضايا عمر
٣٩٣	والسنة	٣٨١	قضايا علي
٣٩٣	الصيغة الدالة على الرضا والسخط	٣٨١	قضايا ابن مسعود وابن عباس
٣٩٤	التمييز بين درجات الرضا والسخط	٣٨١	قضايا ابن عمر وعائشة وزيد
٣٩٤	معرفة العلة والركن والشرط	٣٨٢	خلل التلقي الظاهر
٣٩٥	معرفة المقاصد التي بني عليها الأحكام	٣٨٢	خلل التلقي دلالة
٣٩٥	قوانين التشريع والتيسير		يجب على الفقيه أن يكون متضلعا في
٣٩٦	أصرح صيغ الدلالة	٣٨٣	المذهبيين
٣٩٧	من صريح الدلالة ما ذكره الصحابي	٣٨٣	باب طبقات كتب الحديث
٣٩٧	باب انقضاء في الأحاديث المختلفة	٣٨٣	معرفة الحديث ضرورة لمعرفة الأحكام
٣٩٧	العمل بكل حديث إلا عند التناقض	٣٨٤	طبقات الأحاديث الصحيحة والمشهورة
٣٩٧	التناقض في القرية	٣٨٤	معنى الصحة
٣٩٨	إذا كان الحديثان مخلصين عن ضيق	٣٨٤	معنى الشهرة
٣٩٩	إذا كان مخالفاً لإيماء ظاهر		إن اجتمعت الصحة والشهرة فهو من
	إذا كان الحديثان من باب التقوى في مسألة	٣٨٥	الطبقة الأولى
٤٠٠	والقضاء في واقعة	٣٨٥	من كتب الطبقة الأولى الموطأ
٤٠١	إن ظهر دليل النسخ حمل عليه	٣٨٦	شهرة الموطأ
	إذا لم يكن للجمع والتأويل مساع وكذلك	٣٨٦	من كتب الطبقة الأولى الصحيحان
٤٠١	الترجيح تساقطاً	٣٨٨	كتب الطبقة الثانية
٤٠٢	العمل بقول الصحابي	٣٨٨	كتب الطبقة الثالثة
٤٠٢	اختلاف الأحاديث لاختلاف الطرق	٣٨٩	كتب الطبقة الرابعة
٤٠٣	المرسل يقوى بالقرينة	٣٩٠	كتب الطبقة الخامسة
٤٠٣	إذا تفرد الثقة بزيادة	٣٩٠	الطبقات المعتمدة
٤٠٣	اختلاف آثار الصحابة والتابعين	٣٩١	باب كيفية فهم المراد من الكلام
	باب أسباب اختلاف الصحابة والتابعين		١ - أعلى التعبير ما سبق الكلام لأجله ولم
٤٠٤	في الفروع	٣٩١	يحتمل معنى آخر
	الرسول كان يعمل دون أن يبين ما كان	٣٩١	٢ - ما احتمل معنى آخر
٤٠٤	فرضاً أو سواه	٣٩٢	٣ - ما أفهم الكلام من غير توسط

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الصحابة ما كانوا يسألون إلا قليلاً	٤٠٤	سعيد بن المسيب النخعي	٤١٤
الصحابة يسألون عما ينفعهم فقط	٤٠٥	باب أسباب اختلاف مذاهب الفقهاء	٤١٥
فتاوى الرسول وقضاياها	٤٠٥	حملة العلم بعد التابعين	٤١٥
كان أبو بكر يسأل الصحابة عن الأحكام	٤٠٦	طريقة اجتهاد هؤلاء العلماء	٤١٥
كان عمر يسأل الصحابة عما سمعوه عن الرسول	٤٠٦	قول الصحابة أرجح من الحديث المختلف	
الصحابة نقلوا عن الرسول ما سمعوه وما رأوه	٤٠٦	إذا اختلفت مذاهب الصحابة والتابعين	٤١٦
الصحابة يسكنون الأمصار	٤٠٧	مذهب مالك وأهل المدينة	٤١٧
إذا نقل صحابي حكماً عن الرسول واجتهد آخر	٤٠٧	تدوين الفقهاء	٤١٨
١- الاجتهاد موافق للحديث	٤٠٧	ميزة الإمام مالك	٤١٨
٢- وقوع المناظرة بينهما	٤٠٨	مذهب أبي حنيفة ومآخذه	٤١٩
٣- إذا بلغه الحديث فطعن فيه	٤٠٨	أشهر أصحاب أبي حنيفة	٤١٩
مثال على رفض عمر الحديث	٤٠٨	اختلاف أصحاب أبي حنيفة	٤٢٠
إذا لم يصله الحديث أصلاً	٤٠٩	مذهب الشافعي	٤٢٠
الاختلاف في النظر إلى الحديث	٤٠٩	لم يأخذ الشافعي بالحديث المرسل	٤٢٠
اختلاف الوهم	٤١٠	دَوْن الشافعي أصول الفقه	٤٢١
مثال على اختلاف الوهم	٤١٠	بعض الأحاديث الصحيحة لم تبلغ التابعين أخذ بها الشافعي	٤٢١
اختلاف السهو والنسيان	٤١١	مثال على الأحاديث الصحيحة التي أخذها الشافعي	٤٢٢
اختلاف الضبط	٤١١	ترك الشافعي أقوال الصحابة عند ثبوت الأحاديث	٤٢٣
الاختلاف في علة الحكم	٤١١	ميز الشافعي بين الرأي والقياس وقبل الثاني	٤٢٣
الاختلاف في الجمع بين المختلفين	٤١٢	باب الفرق بين أهل الحديث وأصحاب الرأي	٤٢٤
اختلاف مذاهب أصحاب النبي	٤١٢	أقوال السلف في الرأي	٤٢٤
مذاهب التابعين	٤١٣	كراهية الفتيا بالرأي	٤٢٥
الرواية عن الصحابة والتحقيق من التابعين	٤١٣	كتابة الحديث والأثر	٤٢٥
فقه أهل الحرمين	٤١٣	أهل الحديث أعلم	٤٢٦
فقهاء الصحابة والتابعين	٤١٤		

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
غزارة الأحاديث المدونة	٤٢٧	كان الناس غير مجمعين على التقليد الخالص ٤٣٨
طبقة المحدثين الكبار	٤٢٧	كان العامة من المسلمين يقلدون صاحب الشرع ٤٣٨
الطراز الأول من طبقات المحدثين	٤٢٧	كان الخاصة من أهل الحديث يشتغلون به ٤٣٨
القواعد المتبعة في الترجيح	٤٢٨	كان الخاصة من أهل التخريج يخرجون ما لا يجدونه مصرحاً
إذا لم يوجد في المسألة قرآن ولا سنة أخذ رأي الصحابة	٤٢٨	بعد القرن الرابع حدثت أمور
هذه الأصول مستخرجة عن صنيع الأوائل	٤٢٩	كان العلماء صنفين
كتاب عمر إلى شريح القاضي	٤٢٩	قل الاهتمام بعلم الكلام وكثر في المسائل
عبد الله بن مسعود ينصح القضاة	٤٣٠	الفقهية
كيف كان يفتي ابن عباس	٤٣٠	دب التقليد في الصدور
لا رأي لأحد فيما نزل من القرآن	٤٣١	جور القضاة ساهم في تثبيت التقليد ..
لا رأي مع قول الرسول	٤٣١	جهل رؤوس الناس ومدعي العلم ثبت التقليد
لم تقع مسألة إلا وجد أهل هذه الطبقة لها حديثاً أو أثراً	٤٣٢	البحث في العلوم الجانبية ثبت التقليد ..
أعظم هذه الطبقة رواية وعلماً أحمد بن حنبل	٤٣٢	وقام بعدهم قرون على التقليد الصرف
انتهى جمع الحديث وابتدأ التدقيق	٤٣٢	فصل في مسائل ضلت فيها الأفهام
أعظم المصنفين وأشهرهم	٤٣٣	أجمعت الأمة على جواز تقليد المذاهب الأربعة ٤٤٢
أبو عبد الله البخاري	٤٣٣	ذهب ابن حزم إلى أن التقليد حرام
مسلم النيسابوري	٤٣٣	الرد عند التنازع إلى غير القرآن والسنة حرام ٤٤٣
أبو داود السجستاني	٤٣٤	الصحابة لم يقلدوا
أبو عيسى الترمذي	٤٣٤	الاجتهاد أولى وأوجب
نشأ بإزاء المحدثين علماء يهابون الرواية ولا يهابون الفتيا	٤٣٤	التقليد وصل إلى درجة غير مقبولة
السبب في قلة اهتمامهم بالحديث	٤٣٥	التقليد الأعمى ناي عن الحق
تمهيد الفقه على قاعدة التخريج	٤٣٦	يبتغي لمن اشتغل بالفقه ألا يقتصر على مذهب معين
المجتهدون في المذهب	٤٣٧	تقليد العامة شبيه بتقليد الأغيار للأخبار
باب حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها	٤٣٨	من كان ذا بصيرة واتبع عالماً راشداً

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
الأفضل الجمع بين التخريج على كلام	الصفحة الموضوع	الصفحة
الفقهاء وتتبع لفظ الحديث	٤٤٧	٤٥٥
ينبغي للمحدث أن لا يرد الحديث لأدى	٤٤٧	٤٥٦
شائبة	٤٤٨	٤٥٧
ينبغي للمخرج أن لا يخرج قولاً لا يفيد	٤٤٨	٤٥٧
نفس كلام أصحابه	٤٤٩	٤٥٧
رعاية الحديث أوجب	٤٤٩	٤٥٨
تتبع الكتاب والآثار لمعرفة الأحكام	٤٤٩	٤٥٨
الشرعية	٤٤٩	٤٥٩
الإمعان في الروايات	٤٥٠	٤٥٩
معرفة القرآن والسنن تمكن من معرفة	٤٥٠	٤٥٩
مسائل الفقه	٤٥٠	٤٦١
يجوز التلفيق لمن لم يتكامل له الأدوات	٤٥٠	٤٦١
الاجتهاد يتجزأ	٤٥٠	٤٦١
لا ينبغي لمن لا يعرف الدليل أن يفتي	٤٥١	٤٦١
الحديث أقوى من المذهب	٤٥١	٤٦١
ليس لأحد مع الله ورسوله كلام	٤٥٢	٤٦٤
لا ينبغي لأحد أن يفتي إلا أن يعرف أقوال	٤٥٢	٤٦٤
العلماء	٤٥٢	٤٦٤
لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من	٤٥٢	٤٦٥
أين قلنا	٤٥٢	٤٦٦
ليس لأحد أن يفتي بشيء لا يفهمه	٤٥٣	٤٦٦
ليس للعامي العمل بالحديث لعدم علمه	٤٥٣	٤٦٦
بالتاسخ والمنسوخ	٤٥٣	٤٦٦
مذهب العامي هو مذهب مفتيه	٤٥٤	٤٦٧
أكثر الخلاف بين الفقهاء هو في ترجيح	٤٥٤	٤٦٧
أحد القولين	٤٥٤	٤٦٨
الصحابة مختلفون وهم جميعاً على الهدى	٤٥٥	٤٦٩
قوي الخلاف بين الأئمة المجتهدين	٤٥٥	٤٦٩
اختلاف الصحابة في الأحكام كثير	٤٥٥	٤٥٥
ما كان خلاف الأئمة تعصباً أعمى	٤٥٦	٤٥٦
أمثلة على تسامح الأئمة الفقهاء	٤٥٧	٤٥٧
ينبغي للفقير المقضي عليه الأخذ بقضاء	٤٥٧	٤٥٧
القاضي	٤٥٧	٤٥٧
كثير مما نسب لأبي حنيفة هو تخريج على	٤٥٧	٤٥٧
مذهبه	٤٥٨	٤٥٨
الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي أكثره	٤٥٨	٤٥٨
مخرج	٤٥٩	٤٥٩
مثال على المسائل المخرجة	٤٥٩	٤٥٩
اشتراط فقه الراوي لتقدم الخبر على	٤٥٩	٤٥٩
القياس عند بعضهم	٤٦١	٤٦١
أخطأ من قال إن هنالك فرقتين: أهل	٤٦١	٤٦١
الرأي وأهل الظاهر	٤٦١	٤٦١
القسم الثاني		
في بيان أسرار ما جاء عن النبي ﷺ تفصيلاً		
من أبواب الإيمان	٦٦٤	٦٦٤
الإيمان الذي يدور عليه أحكام الدنيا	٤٦٤	٤٦٤
الإيمان الذي يدور عليه أحكام الآخرة	٤٦٥	٤٦٥
الإيمان على مرتبتين	٤٦٦	٤٦٦
الأركان التي هي عمدة	٤٦٦	٤٦٦
شعب الإيمان	٤٦٦	٤٦٦
الفرق بين الأركان والإيمان	٤٦٦	٤٦٦
معنيان آخران للإيمان	٤٦٧	٤٦٧
للإيمان أربعة معانٍ	٤٦٧	٤٦٧
علامة الإيمان وعلامة النفاق	٤٦٨	٤٦٨
أركان الإسلام	٤٦٩	٤٦٩
لا بد من علامة يميز بها المخالف والموافق	٤٦٩	٤٦٩

الصفحة	الموضوع	الصفحة الموضوع	الموضوع
٤٨٢	مدار السعادة والنجاة	٤٧٠	يحبلي الله على بعض الملائكة حال المولود
٤٨٢	شعائر الله أربع	٤٧٠	كل صنف من أصناف النفس له كمال
٤٨٢	الآثام على قسمين	٤٧٠	ونقصان
٤٨٣	الكبائر	٤٧٠	معنى قوله تعالى: ﴿فألهما فجورها﴾ ..
٤٨٣	الصغائر	٤٧٠	من أبواب الاعتصام بالكتاب والسنة ..
٤٨٣	حدود الكبائر	٤٧١	من أعظم أسباب التهاون ترك السنة ...
٤٨٤	الإيمان يفارق المسلم عند المعصية الكبرى	٤٧١	النهي عن التشدد في الدين
٤٨٤	من أمارات الإيمان محبة الرسول الكاملة	٤٧١	النهي عن الخلط
٤٨٥	الإيمان والاستقامة	٤٧٢	النهي عن البدعة
٤٨٥	الشهادتان من أمارات الإيمان	٤٧٢	ترك اتباع الرسول مهلكة
٤٨٦	مراتب الإثم تتفاوت	٤٧٢	اتباع السنة واجب
٤٨٦	إبليس وفتنته	٤٧٣	سبيل الله واحد
٤٨٦	يختلف تأثير الوسوسة بحسب استعداد		الفرقة الناجية
٤٨٧	الموسوس إليه	٤٧٤	الأمة الإسلامية لا تضل
٤٨٧	تأثير الملائكة، تأثير الشياطين	٤٧٤	الدعوة إلى الحق لن تزول
٤٨٧	آدم وموسى عليهما السلام	٤٧٥	يجب أن يكون في الأمة علماء عاملون ...
٤٨٧	اجتمع في موسى ما اجتمع في آدم	٤٧٦	فضل العلماء
٤٨٨	أجرى الله سنته بأن يخلق الحيوانات		الكذب على الرسول عليه السلام
٤٨٨	والنباتات على شكل خاص	٤٧٧	الرواية عن أهل الكتاب
٤٨٩	خصَّ الله الإنسان بإدراك زائد وعقل		يحرم طلب العمل الديني لأجل الدنيا ..
٤٨٩	مستوفى	٤٧٨	حرمة كتمان العلم
٤٨٩	قد يولد الولد وهو يستوجب اللعن	٤٧٨	علم الشريعة ثلاثة أقسام: أولاً - القرآن
٤٩٠	يختار الله الأوفق بالمصلحة	٤٧٨	ثانياً - السنة
٤٩٠	أفعال العباد اختيارية	٤٧٩	ثالثاً - الفريضة
٤٩٠	الله قدر خلقه قبل أن يخلقوا	٤٨٠	النهي عن الأغلوطات
٤٩١	خلق الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق		من يحرم عليهم الخوض في القرآن
٤٩١	السموات والأرض	٤٨٠	لكل آية ظهر وبطن
٤٩٢	عبر الله عن التقدير بالكتابة	٤٨١	الأعمال بالنيات
٤٩٣	بنو آدم مؤاخذون بأصل استعدادهم	٤٨١	حكم المتشابهات

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
نزل القرآن على خمسة وجوه	٤٩٤	يشترط الغسل لقراءة القرآن	٥١٠
من أبواب الطهارة	٤٩٤	لا يدخل المسجد جنب	٥١٠
الطهارة من الأحداث	٤٩٤	لا ينبغي ترك الطهارة الصغرى	٥١١
الطهارة الكبرى	٤٩٤	التيمم	٥١١
الطهارة الصغرى	٤٩٥	سبب التيمم إسقاط الخرج	٥١١
الأمور التي فيها معنى الطهارة	٤٩٥	التيمم مكان الوضوء والغسل	٥١١
الوضوء	٤٩٦	الأرض خصت بالتيمم	٥١٢
أصل موجب الوضوء وموجب الغسل	٤٩٦	صفة التيمم	٥١٢
فصل في الوضوء	٤٩٦	التيمم على الجنابة	٥١٢
صفة الوضوء	٤٩٧	آداب الخلاء	٥١٤
معاني آداب الوضوء	٤٩٨	١- تعظيم القبلة	٥١٤
ذكر الله مع الوضوء	٤٩٩	٢- الاستنجاء	٥١٤
التقصير في الوضوء محرم	٥٠٠	٣- الاحتراز عما يضر الناس	٥١٥
موجبات الوضوء	٥٠١	٤- اختيار محاسن العادات	٥١٥
موجبات اجتمع عليها الصحابة	٥٠١	٥- رعاية الستر	٥١٥
موجبات اختلف فيها السلف والصحابة	٥٠٢	٦- الاحتراز من الإصابة بالنجاسة	٥١٥
موجبات فيها شبهة من لفظ الحديث	٥٠٣	٧- تجنب الوسواس	٥١٦
الوضوء من لحوم الإبل	٥٠٤	٨- التعود من الخبث والخبائث	٥١٦
المسح على الخفين	٥٠٤	٩- الاستبراء من البول	٥١٦
صفة الغسل	٥٠٦	خصال الفطرة وما يتصل بها	٥١٧
سبب الوضوء مع الغسل	٥٠٦	عشر خصال من الفطرة	٥١٧
الستر في الغسل واجب	٥٠٦	إزالة شعث الرأس والاهتمام باللحية	٥١٧
ما يجب على الحائض أثناء الغسل	٥٠٧	إعفاء اللحية وقص الشوارب	٥١٧
تحت كل شعرة جنابة	٥٠٧	مزايا المضمضة والاستنشاق	٥١٨
موجبات الغسل	٥٠٧	أربع من سنن المرسلين	٥١٨
البلل يوجب الغسل في الاحتلام	٥٠٨	سنة السواك	٥١٨
مدة الطهر والحيض	٥٠٩	الغسل المسنون	٥١٩
حكم المستحاضة	٥٠٩	اغتسل النبي من أربع	٥١٩
ما يباح للجنب والمحدث وما لا يباح لهما	٥١٠	أحكام المياه	٥٢٠

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٣٣	في تعيين الأوقات سر عميق	٥٢٠	النهي عن البول في الماء الراكد
٥٣٤	للصلوات أربعة أوقات	٥٢١	حكم الماء المستعمل
٥٣٤	وقت الاختيار في الصلاة	٥٢١	الفلتان حد فاصل بين الكثير والقليل
٥٣٥	وقت الاستحباب في الصلاة	٥٢٢	أنواع القلل
٥٣٦	وقت الضرورة	٥٢٢	بعض الفقهاء لم يقل بالقلتين
٥٣٦	وقت القضاء	٥٢٢	معنى قوله عليه السلام «الماء طهور»
٥٣٧	المحافظة على الصلوات	٥٢٣	الحيوان الميت في الماء
٥٣٨	الأذان	٥٢٤	تطهير النجاسات
٥٣٨	كيف شرع الأذان	٥٢٤	تعريف النجاسة
٥٣٩	طرق الأذان	٥٢٥	نجاسة الكلب
٥٣٩	الإقامة	٥٢٥	تطهير ما وقع عليه البول
٥٤٠	فضائل الأذان	٥٢٦	تطهير الثوب
٥٤٠	فضل المؤذنين	٥٢٧	تطهير الإهاب
٥٤١	إجابة المؤذن	٥٢٧	طهارة النعل
٥٤١	الدعاء بين الأذان والإقامة	٥٢٧	الهرة من الطوافين والطوافات
٥٤١	المساجد	٥٢٧	من أبواب الصلاة
٥٤١	المساجد من شعائر الله	٥٢٧	العبادات أعظم العبادات شأناً
٥٤٢	قصد المساجد يرفع الدرجات	٥٢٨	أمر الأولاد بالصلاة
٥٤٢	عمارة المساجد	٥٢٩	فضل الصلاة
٥٤٣	المساجد التي تشد إليها الرحال	٥٢٩	منافع الصلاة
٥٤٣	آداب المسجد	٥٣٠	الصلاة من أعظم شعائر الإسلام
٥٤٤	حرمة طلب الضالة في المسجد	٥٣٠	أوقات الصلاة
٥٤٥	لا يدخل المسجد حائض أو جنب	٥٣٠	لا بد للصلوات من أوقات محددة
٥٤٥	لا يقرب المسجد أكل البصل والثوم	٥٣١	الساعات التي تنتشر فيها الروحانية
٥٤٥	الدعاء عند دخول المسجد والخروج منه	٥٣١	لا يجوز الفصل بين كل صلاتين كثيراً
٥٤٦	تحية المسجد	٥٣٢	الترغيب في الضحى من غير إيجاب
٥٤٦	المواطن التي لا يصلي فيها	٥٣٢	أحق ما تؤدي فيه الصلاة وقت خلو النفس
٥٤٦	الحكمة في النهي	٥٣٣	الصلاة قبيل النوم
٥٤٧	ثياب المصلي	٥٣٣	تعيين أوقات الصلوات

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
ستر الجسم لأجل الصلاة	٥٤٧	كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
الستر واجب ومندوب	٥٤٧	يستقبلان الكعبة
سبب كراهية بعض أنواع الثياب	٥٤٨	استقبال بيت المقدس كان لتأليف الأوس
الصلاة في النعال	٥٤٩	والخزرج واليهود
القبلة	٥٥٠	العودة إلى استقبال الكعبة المشرفة
اتخذ النبي بيت المقدس قبلة في أول الأمر	٥٥٠	٥٥١

